الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوى

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
بكلية الدراسات الانسانية بجامعة الأزهر
فرع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل رب زدنى علما »

الكتاب التالى :

دور الدولة العثمانية فى نشر الإسلام فى أوروبا
وموقفها من أهل الذمة .

شـــعارنا :

القافلة تمضى فى مسيرتها ، شوطاً بعد شوط ،
ونترك وراءنا العجزة الحقدة يتكتلون ويتآمرون .
« ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

صدق الله العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى سائر رسله وأنبيائه وأصفيائه .

مقـدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب ، فى دراسة علمية موضوعية محايدة ، تاريخ الدولة العثمانية من بعض جوانبها . وكنت قد تناولت فى مؤلف سابق بعض المعالم البارزة فى تاريخها السياسى منذ قيامها حتى فتح جزيرة كريت عام ١٦٦٩(١) . وعلى مبلغ علمى لم تتعرض دولة فى العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها . وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان ، هما : الاستعمار الأوروبى والصهيونية . واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) ، والتصريحات الرسمية ومن مجموعات الوثائق التى نشرتها بعض الحكومات الأوروبية مجالا رحيباً لإذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملا عليها . وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة أو تجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معاً فى مؤلفاتهم . واستقرت فى أذهان الأجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربى والإسلامى صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقترن ذكرها فى أفئدتهم بمظالم ومحن تكدست على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تعسفية وجزافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم وأراضيهم ومحاصيلهم وماشيتهم ، ومن تخلف ، ومن إجراء مذابح عامة ، ومن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية مما أدى إلى نشر الفقر والجهل والمرض . وغفل أولئك المتحاملون عن الخدمات التى أسدتها الدولة لولاياتها العربية بوجه خاص ، وهى خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها . وتناسوا أيضاً أن الدولة العثمانية واجهت أخطاراً دولية جسيمة كانت تهدد

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . الناشر دار المعارف بالقاهرة . ج ١ ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ص ٥١٥-٨١٠ .

العالم العربى بأفدح الأخطار . وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية وتسللهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلاؤهم على مواقع عسكرية هامة ومحاولاتهم المكرورة دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبى للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالى لشرقى الجزيرة العربية هو أول غزو أوروبى عسكرى صليبى فى التاريخ الحديث لأقاليم عربية . وكان شعاره « الصليب أو المدفع » .

لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الإسلامية العثمانية أقاليم شاسعة فى جنوبى شرق أوروبا ووسطها ، وهى أقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة ، وتساقطت فى أيديها دول أوروبية عديدة . وامتلأت قلوب الحكومات والشعوب الأوروبية فزعاً وهلعاً من هذه الدولة الإسلامية الطارئة عليها فى عقر دارها . وتعرضت الدولة فى مسيرتها فى أوروبا لتكتلات صليبية دولية تنادت إليها البابوية فى روما وأسهمت فيها دول أوروبية عديدة . وفى بعض الأحيان تبادلت الدولة مع أعدائها الهزائم والانتصارات . ولم تترك الدول الأوروبية للدولة فرصة لالتقاط أنفاسها . وعلى الرغم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتها وتعيد بناء قواتها البرية والبحرية وتستأنف مسيرتها المظفرة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد عايشت الزمان أكثر من ستة قرون فإن إمبراطورية نابليون الأول لم تعمر أكثر من أحد عشر عاماً منذ تتويجه إمبراطوراً (١٨٠٤ — ١٨١٥) ثم انهارت هذه الإمبراطورية إلى مغيب عقب هزيمته فى معركة وترلو Waterloo فى اليوم الثامن عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨١٥ أمام القائد الإنجليزى ولنجتون والقائد البروسى بلوخر Blucher ، وكذلك الإمبراطورية الثانية La Seconde Empire ، فقد انهارت هى الأخرى ، وأصبحت هباء

منبثاً بعد ثمانية عشر عاماً (١٨٥٢ - ١٨٧٠) عقب هزيمته فى معركة سيدان Sedan فى اليوم الثانى من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ . وتسلل نابليون الثالث مع قلة من خلصائه لواذاً إلى البحر قاصدين إنجلترا المنفى التقليدى لحكام فرنسا . ومع ذلك حرص المؤرخون الأوروبيون على إحاطة تاريخ هذين العاهلين بهالات من المفاخر والمجد فى الوقت الذى نعتوا السلطان العثمانى بأنه « السلطان المسلم الجاهل المتبربر المستغرق فى ملذاته مع حواريه الفاتنات » . والحق أن وصف الدولة العثمانية بأنها « دولة إسلامية مفترى عليها » هو أصدق قيلا من أى وصف آخر .

وإذا كان تاريخ الدولة العثمانية قد تكاثرت حوله الافتراءات والأباطيل ، فليس معنى ذلك أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب . فلكل دولة مزايا تذكر لها ، ومآخذ تسجل عليها . وليس من الدراسة الموضوعية ولا من الأخلاق إغفال المزايا لأى دولة والاقتصار على تسجيل عيوبها ، بل يجب عرض الجانبين معاً . ولم تغفل هذه الدراسة عن ذكرهما تمشياً مع منهاج البحث التاريخى .

وقد شملت هذه الدراسة جوانب مكثفة وعديدة من التاريخ الحديث والمعاصر فى الشرق والغرب والتاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى والنظريات والنظم والعلوم السياسية والقانون الدولى العام والعلاقات الدولية ، فضلا عن قواعد الشريعة الإسلامية من حيث عمليات الخصاء بنوعيها ، وتعدد الزوجات ، واقتناء الجوارى وإنسال سلاطين الدولة العثمانية منهن وتغير الوضع القانونى لهؤلاء الجوارى بعد الإنجاب منهن وأنواع الفرش التى حددتها الشريعة الغراء من فراش قوى وفراش متوسط وفراش ضعيف وما إلى ذلك من دراسات تطلبتها معالجة هذه الموضوعات وغيرها .

ومن حقى أن أذكر أنى كتبت معظم فصول هذا الكتاب وأنا اجتاز ظروفاً صحية بالغة الخطورة : وكان قيامى بهذا العمل نوعاً من المغامرة بحياتى ، إذ كنت ممنوعاً من بذل أى مجهود عقلى . وكان مطلوباً منى أن أعيش فى حالة استرخاء ذهنى كامل . وكان مما قض مضجعى أن يدركنى الموت قبل

أن أفرغ من وضع هذا الكتاب . وشاء الله سبحانه وتعالى أن تسعفى رحمته ، فأعانني على اجتياز هذه الفترة الصحية العصيبة ، وعلى أن أمضى قدماً فى استكمال الكتاب . ولهذا استغرق وضع الكتاب وطبعه سنين عددا .

وكانت الخطة التى وضعتها أول الأمر لهذه الدراسة تشمل ، فيما تشتمل عليه ، سبعة فصول عن الدور الذى قامت به الدولة العثمانية فى نشر الإسلام فى جنوبى شرق أوروبا ووسطها ، ثم موقف الدولة من أهل الذمة، ولكنى رأيت أن أكتفى بهذا القدر من الكتاب، وأن أفرد لهذين الموضوعين دراسة إضافية ومستقلة ستظهر فى قابل الأيام وفى وقت قريب بإذن الله، لأن مادتها العلمية مختزنة فى ذهنى . وشرعت فعلا فى كتابة بعض فصول الكتاب الجديد .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أ . د

عبد العزيز محمد الشناوى

مصر الجديدة فى { غرة رجب عام ١٣٩٨
السابع من شهر يونيو — حزيران — عام ١٩٧٨

الفصل الأول

الدولة العثمانية
بعيدا عن حملات التشهير بها

الوجود الإسلامى العثمانى فى أوروبا :

تشغل الدولة العثمانية حيزاً كبيراً للغاية فى التاريخ ـ سواء تاريخ العالم الإسلامى أو تاريخ العالم الأوروبى المسيحى : امتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات هى : آسيا وأوروبا وإفريقية . وغدت دولة آسيوية أوروبية إفريقية . وكانت جيوشها أكثر الجيوش الأوروبية تعداداً وأحسنها تدريباً وأعظمها تسليحاً وأكملها تنظيما . عبرت جيوشها البحر من الأناضول إلى أوروبا عام ١٣٥٦ على عهد السلطان أورخان ثانى السلاطين العثمانيين ومضت فى زحفها تكتسح أقاليم مسيحية أوروبية واستولت على بلاد اليونان بما فيها شبه جزيرة المورة ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والصرب ، والمجر ، وترنسلفانيا ، والبوسنة والهرسك وألبانيا ، والجبل الأسود. ومضت جيوشها فى زحفها حتى بلغت مشارف فيينا عاصمة النمسا فى أواسط أوروبا . فكانت الدولة العثمانية هى أول دولة إسلامية فى التاريخ الأوروبى تصل بقواتها الجرارة إلى هذه الأراضى الأوروبية . وكان الوجود الإسلامى العثمانى ـ العسكرى والسياسى ـ فى هذه الأقاليم الأوروبية حقيقة واقعة لا مراء فيها . وقامت الدولة بدور هام فى نشر الإسلام فى أصقاع شتى من هذه الأقاليم الأوروبية . ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الإسلام طوعاً منذ وقت مبكر يرجع إلى حكم عثمان مؤسس الدولة العثمانية . وغدا الإسلام عقيدة دينية رسمية لهم(١) .

---

(١) أنظر فى هذه الدراسة ص ص ٣٦-٣٨ .

وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء . فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولا ، ثم إلى السلطان ثانياً ، ثم إلى الدولة ثالثاً (١) وكانت روح الجهاد الديني غالبة فى إسلام العثمانيين . وازدادت قوة وصلابة عندما استقروا فى الأناضول على حدود أو على مقربة من الكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك فى هذا الإقليم . واحتفظوا بهذه الروح فى مسيراتهم الحربية فى أوروبا . فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين ، وشعارهم الصيحة للحرب وحمل السلاح . وازدادت الروح الدينية الحربية تأججاً فى نفوس العثمانيين عند ما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمت عديد الدول الأوروبية . وكانت البابوية فى روما تتنادى إلى هذه التكتلات . وكأن الحركة الصليبية التى شهدها الشرق الإسلامى منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر قد انتقلت ميادينها إلى أوروبا. ولكن شتان بين الحركتين : فالصليبيون فى أوروبا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة وقفت فى وجه الصليبية الأوروبية صفاً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا . ولم تجد الحركة الصليبية فى أوروبا ثغرة تنفذ منها لتفتيت وحدة الصف الإسلامى العثمانى . فكان النصر حليف القوات الإسلامية العثمانية فى معظم المعارك الضارية التى نشبت بين الفريقين . وكانت الدولة العثمانية تروم تحويل« دار الحرب » إلى « دار الإسلام ». وسار فى أثر القوات الإسلامية العثمانية القضاة والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة(٢) ، وذهب فى أعقابهم أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر . وأسهم الجميع فى غرس بذور الإسلام فى الأقاليم المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام فى أوروبا . وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية العثمانية سواء فى الأناضول أو فى أوروبا بنشر الإسلام . وقد انتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً فى بعض الأقاليم ، وانتشر انتشاراً وئيداً فى أقاليم أوروبية

---

(١) Lewis Bernard; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition. London, 1968, p. 2.

(٢) انظر فى هذه الدراسة ص ص ٣٩٦ – ٤٥٣

أخرى . وغدت العواصم التى اتخذتها الدولة العثمانية تباعاً وهى : قونيه ، بروسة ، وأدرنة ، وإستانبول مدناً إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية : وتنافس السلاطين وزوجاتهم وسائر أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة وأثرياء العثمانيين على إقامة المساجد الرائعة والمعاهد والمدارس لتدريس علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات إسلامية عليا ، وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم . كما أقاموا العديد من التكايا والأسبلة والخانقاوات[1] والحمامات العامة . وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للانفاق من ريعها على تلك المؤسسات الدينية والخيرية .

أسماء الدولة العثمانية عبر تاريخها :

وقد عرفت الدولة العثمانية فى التاريخ بعدة أسماء . فنى عصورها الأولى أطلق العثمانيون عليها « دولت عليه » أى الدولة العلية ، ثم أطلقوا عليها « سلطنت سنية » أى السلطنة السنية ، كما أطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها فى أوروبا وآسيا وإفريقية « إمبراطور لق عثمانلى » أى الإمبراطورية العثمانية . وعرفت أيضاً باسم « دولت عثمانلى » أى الدولة العثمانية . وارتاح العثمانيون للاسمين الأخيرين لاحتواء كل منها على لقب عثمانلى[2] ، إذ كانوا يعتزون بانتسابهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة ، وهو الذى سميت باسمه الدولة والأمة ، ويرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم الغازى[3] والمتقشف فى حياته الخاصة : ويذكرون عنه أنه لم يترك عندما جاز إلى ربه سوى ثوبين وفرس[4] . ويتضح من هذا العرض أن استخدام كلمات تركيا وأتراك وتركى وهى مصطلحات وردت من أوروبا بمعنى الدولة العثمانية والعثمانيين والعثمانى بعيد عن الدقة فى الصياغة اللفظية حتى أوائل القرن العشرين . أما كلمتا

---

(١) خانقاوات أو خوانق . مفردها خانقاه . ومعناها الدار التى يتفرغ فيها الصوفية للعبادة والذكر وتلاوة الأوراد . والخوانق غير الخوانيق التى تعنى المرض المسمى الذبحة .

(٢) الصفة من اسم عثمان فى اللغة التركية « عثمانلى » ، وفى اللغة العربية « عثمانى » .

(٣) الغازى كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية بمعنى المجاهد .

(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى. أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها . بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٢٤ .

تركي وأتراك فقد كان العثمانيون يطلقون هاتين اللفظتين على الأجناس التركية المتخلفة فى نظرهم والتى كانت تقطن فى آسيا ، مثل السلاجقة والتركمان والأوزبك[١] Euzbegs فكان العثمانيون يتمسكون بكلمتى « عثمانى » و « عثمانيين » لقباً مميزاً لهم تعبيراً عن اعتزازهم بانتسابهم إلى عثمان الأول من ناحية ، واستعلاء على هذه الأجناس التركية الآسيوية المتبربرة فى نظرهم[٢] Les Barbares asiatiques de race turque من ناحية أخرى .

وبمضى العصور والأجيال والأحقاب استخدم العثمانيون حتى أوائل القرن العشرين كلمتى تركي وأتراك فى معنى ينبثق عن الاستعلاء الذى كان سمة بارزة فى أخلاقهم . فكانوا يطلقون لفظة تركي على الفلاح العثمانى الجاهل أو أحد سكان قرى الأناضول بمعنى واحد هو الجلف [٣] تهكماً عليه ، أو تحقيراً له ، أو سخرية به . وقد ذهب العثمانيون إلى أبعد من ذلك ، إذ كان إطلاق كلمة تركي على أحد العثمانيين المقيمين فى العاصمة أو فى إحدى المدن العثمانية يعتبر إهانة له [٤] ، على الرغم من أن لغتهم كان يطلق عليها فى جميع العصور التاريخية اللغة التركية[٥] .

---

(١) Lavisse Ernest et Rambaud Alfred; Histoire Générale du Quatrième Siècle à Nos Jours. 12 Tomes. Paris. t. v, 3 ème édition, 1922, p. 886.

(٢) Loc. cit.

(٣) الجلف بكسر الجيم وسكون اللام . جمعها أجلاف ، على وزن حمل وأحمال . وهى مأخوذة من أجلاف الشاة ، وهى المسلوخة بلا رأس ولا قوائم ولا بطن . وكان العرب يطلقون كلمة جلف على الشخص الفظ الشرس غليظ القلب الذى لم يكتسب أخلاق أهل الحضر فى رقتهم ولين طباعهم ودماثة أخلاقهم . فإذا تخلق مثل هذا الشخص بسلوكهم الاجتماعى الممتاز فكأنه نزع جلده ولبس غيره .

(٤) Lewis Bernard; op. cit., pp. 1—2, f.n. No 1, p. 2.

(٥) يخرج بعض المؤرخين على هذا التعميم ، فيذكرون حين يتكلمون عن اللغة التركية عبارة « اللغة التركية العثمانية » .

ويحدد أحد المؤرخين الحرب العثمانية اليونانية التي اشتعلت في عام١٨٩٧(١) تاريخاً تغير فيه تغيراً تاماً مدلول كلمات تركيا وأتراك وتركي للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي(٢) ويستند في رأيه إلى قصيدة نظمها الشاعر العثماني محمد أمين بك بمناسبة هذه الحرب جاء فيها .

« بن بر توركم حنسم أولو در »(٣) .

ومعناها « أنا تركي ، ديني وجنسي من أعظم الأديان والأجناس » . ولا يمكن الأخذ بهذا التحديد الزمني ، لأن الحالة التي تكلم عنها مينورسكي Minorshky تعد من الحالات النادرة والشخصية . أما التحديد الرسمي والقانوني والدولي لاستخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث فهو عام ١٩٢٣ حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا . وكان الباعث لمصطفى كمال أتاتورك وزعيم الحركة الكمالية وأول رئيس للجمهورية التركية على استخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث هو الابتعاد بشعبه عن الخط الإسلامي للدولة ونبذ تقاليدها وتغيير حياتها الثقافية والاجتماعية وتشريعاتها الإسلامية ونظمها السياسية ، وازدياد الاقتراب من أوروبا في حركة عبور لشعب تركي يجتاز حدود بلاده لاستبدال حضارة أوروبية جديدة بحضارة إسلامية كانت تطبع حياة الدولة وشعبها بطابع إسلامي مسيطر وبارز .

---

(١) تسمى هذه الحرب حرب الثلاثين يوما ، لأنها استمرت قرابة شهر ، إذ أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الحرب في السابع عشر من شهر أبريل – نيسان – عام ١٨٩٧ ، ثم أعلنت الهدنة في التاسع عشر من شهر مايو – آيار – عقب تدخل الدول الكبرى . وأبرمت معاهدة الآستانة في اليوم الرابع من شهر ديسمبر – كانون أول – ١٨٩٧ ، ونصت على أن تجلو القوات العثمانية عن إقليم تساليا Thessaly ماعدا قرية واحدة وبعض مواقع إستراتيجية . واستولت اليونان على هذا الإقليم للمرة الثانية .

انظر أسباب الحرب وملابساتها ونصوص معاهدة الآستانة في :

* Miller W.; The Ottoman Empire and its Successors 1801—1927. London, 1927, pp. 435—438.

(٢) Minorsky V.; Encycl. of Islam Art. Turan.

(٣) Loc. Cit.

وأنظر تفصيلات أوفى عن هذا الموضوع كتبها الأستاذ Lewis B.; qq· 333-343.

نظرة الأوروبيين إلى الدولة العثمانية :

ونظر الأوروبيون إلى الفتوح العثمانية فى أوروبا على أنها فتوح إسلامية . ووقر فى أذهانهم أن أى نصر عسكرى تحققه الدولة العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية . فباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثانى عام ١٤٥٣ القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واتخذها عاصمة لدولته . واستبدل اسماً جديداً هو إستانبول[١] ، ومعناها دار الإسلام ، باسمها القديم وهو القسطنطينية . وأطلق على هذا السلطان « محمد أبو الفتوح » أحياناً ، و « محمد الفاتح » أحياناً أخرى . وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً خطيراً هو الاستيلاء على روما مقر البابوية . ونزلت القوات الإسلامية العثمانية فى أوترانت Otrante فى مملكة نابولى عام ١٤٨٠ ، وأسرت أحد عشر ألفاً من سكانها ، واعتزم محمد أبو الفتوح أن يتخذ من أوترانت قاعدة يزحف منها شمالا فى شبه جزيرة إيطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدمن الطعام بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية فى روما . ولكن عاجلته المنية فى اليوم الثانى من شهر مايو — آيار — عام ١٤٨١ ،وتنفست أوروبا الصعداء حين علمت بوفاته ،وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر *Te Deum* ثلاثة أيام . وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان المشرع على بلغراد ثم جزيرة رودس ، وكانت معقلا لطائفة فرسان القديس يوحنا ، ثم دخل بودابست عاصمة المجر . وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى إفريقية فى الصراع الصليبى الذى احتدم بينهم وبين الإسبانيين والبرتغاليين الذين أرادوا احتلال هذه الأقاليم وتحويل سكانها إلى المسيحية .

---

(١) يرد اسمها فى صيغ مختلفة هى :

إستانبول (بحرف النون) ، إستامبول (بحرف الميم) ، إسلامبول (بحرف الألف واللام) . وكان يطلق عليها فى بعض الأوقات دار الخلافة ، ودار السعادة . وفى القرن التاسع عشر ، يرد ذكرها فى كثير من الفرمانات السلطانية على هذا النحو : الآستانة ،وهى كلمة فارسية معناها العتبة . ولا يطلق عليها بعد إعلان النظام الجمهورى فى تركيا الحديثة سوى إستانبول . انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

وبذلك حفظت الدولة العثمانية لشمالى إفريقية إسلامه وعروبته . وأوغلت الجيوش العثمانية فى زحفها على قلب أوروبا حتى بلغت مشارف فيينا . وكانت الأساطيل العثمانية تحقق أمجاداً حربية رائعة ومتلاحقة على التكتلات الصليبية وبخاصة فى الحوضين الشرقى والغربى للبحر المتوسط(١) . وتصاعد العداء نتيجة هذا الصراع بين أوروبا المسيحية والدولة الإسلامية العثمانية .

ولذلك لم يكن أمراً عجاباً أن الأجيال المتعاقبة من الأوروبيين والتى عاصرت الدولة العثمانية على امتداد تاريخها الحافل قد ربطت فى عقولها بين الإسلام والدولة العثمانية . وتداعت إلى أفئدتهم ذكريات الفتوح الإسلامية الكبرى فى صدر الإسلام . واعتقدوا أن هذه الدولة هى الرمز الحى المجسد للإسلام . وبمضى السنوات والأحقاب والأدهار ازداد هذا الربط عمقاً ورسوخاً فى أذهانهم . فكان إذا دخل أحد مسيحيي أوروبا فى الإسلام لم يقل عنه الأوروبيون إنه أصبح مسلماً ، بل قالوا عنه إنه غدا عثمانياً. حتى لو كان هذا التحول قد حدث فى فاس أو أصفهان (٢) . وهكذا أصبحت عبارة الدولة العثمانية مرتبطة بالدين الإسلامى بعروة وثقى لا انفصام لها ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء بين الغالبية العظمى من الحكومات والشعوب الأوروبية للدولة العثمانية بصفتها دولة إسلامية تحكم شعوباً مسيحية أوروبية .

ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولز Richard Knolles مؤرخ عصر الملكة إليزابث Elizabeth فى إنجلترا (١٥٥٨—١٦٠٣) وصف الشعور الأوروبى العام تجاه الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد أوروبا فكتب هذه الجملة المعبرة « إن الإمبراطورية العثمانية هى مصدر الرعب فى العالم »(٣) . ومع ذلك فان العثمانيين لم يزجوا بأنفسهم فى الصراع المذهبى

(١) عن نشاط الأسطول العثمانى أنظر ص ص ٨٦٦ — ٨٩٨ فى الفصل الثامن والعشرين فى هذه الدراسة .

(٢) Lewis Bernard; op. cit., p. 13.

(٣) Lewis Bernd; Politics and War. Princeton. Near East Paper. Number. Program in Near Eastern Studies. Princeton University. 1975. p. 199.

الدموى الذى نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذاً تستهوى أفئدة المضطهدين والمعذبين فى الأرض الأوروبية يلتمسون فى رحابها الأمن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوثر فى كتيب نشره فى عام ١٥٤١ أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون وأصحاب الأراضى يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك ولا يعيشون فى كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة فى حكم الفقراء »(١) .

أفاقت الحكومات والشعوب الأوروبية التى خضعت للدولة العثمانية لتجد نفسها تخضع لأول مرة فى تاريخها لحاكم مسلم ، ومن ثم عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامى العثمانى من أراضيها ، وأسهمت معها دول أوروبية لم يمتد إليها الحكم العثمانى . ولكن جمعت بينها وحدة الهدف فى الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات العثمانية أسلاباً بينها . وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية فإن المحالفات الدولية التى واجهتها الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل—وما كان أكثر هذه المحالفات— كانت فى لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام ، أملتها روح صليبية ووجهتها روح صليبية . وكانت حكومات بعض الدول الأوروبية تحرض رعايا الدولة العثمانية المسيحيين على الثورة ، وتمدهم بالأسلحة والذخائر والأموال لإجراء مذابح عامة بين رعايا الدولة المسلمين أصلا ورعاياها الذين اعتنقوا الإسلام لنشر الرهبة والذعر بين هؤلاء الأخيرين كى يرتدوا إلى المسيحية . وكانت هذه الحكومات تبذل لهم وعوداً سخية وبراقة بتعويضهم مالياً وعمرانياً إذا فشلت أمثال هذه الثورات أو لم تسفر المذابح العامة عن تحقيق أهدافها المرتجاة . وأطلقت الحكومات الأوروبية على السلطان العثمانى شتى الأوصاف : فهو « رجل أوروبا المريض » حينا ، و « المريض الذى لا يرجى شفاؤه » حيناً ثانياً ، و « المريض الذى يجب الإجهاز عليه شفقة به ورحمة عليه حتى يستريح ويريح » حيناً ثالثاً .

الدولة العثمانية دولة متوسطية :

تعد الدولة العثمانية دولة متوسطية Un Etat Mediterranéen أى

---

(١) Loc. Cit., pp. 200 - 201.

من دول البحر المتوسط . وكان يطلق عليه العثمانيون « آق دكيز »(١) . إذ كانت الدولة تطل على معظم سواحل هذا البحر : الساحل الشرقى بأكمله ، والساحل الجنوبى بطوله ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش ، المملكة المغربية حالياً (٢) ، والساحل الشمالى فى ثلثه الشرقى تقريباً حتى البحر الأدرياتى(٣) الذى تطل على مدخله ألبانيا ، ويطلق عليها العثمانيون « أرناؤط لق » ، كما يطل عليه إقليم الجبل الأسود Montenegro ، ويطلق عليه العثمانيون « قره داغ » . وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى فى البحر المتوسط باستيلائها على عدد من الجزر الهامة القائمة فى حوضه الشرقى مثل رودس (١٥٢٢) ، وقبرص (١٥٧١) وكريت أو كريد (١٦٦٩)(٤) . وإن كانت قد أخفقت فى الاستيلاء على جزيرة مالطة عام ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع بعد أن تكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الأرواح والسفن والعتاد : وكان فرسان القديس يوحنا قد اتخذوا من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم الصليبى ضد السفن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط . وظلوا بها حتى شهر يونيو — حزيران — ١٧٩٨ عقب استيلاء بونابرت عليها وهو فى طريقه إلى مصر على رأس الحملة الفرنسية. ونجحت أيضاً الدولة العثمانية فى الاستيلاء على عدد من جزر البحر الأيونى وبحر

---

(١) أطلق العرب عدة أسماء محلية مختلفة على البحر المتوسط . وكان من بينها :

بحر الروم أو البحر الرومى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

بحر الفرنج ، أو بحر الفرنجة ، أو بحر الإفرنجة على حوضه الغربى .

بحر مصر ، أو بحر الإسكندرية فى جزئه الواقع أمام الساحل المصرى .

بحر الشام ، أو البحر الشامى فى جزئه اللى تطل عليه بلاد الشام .

(٢) لم تدخل مراكش فى نطاق الأقاليم التى امتد إليها النفوذ العثمانى فى شمالى إفريقية ، لأن هذا النفوذ لم يطل أكثر من بضعة شهور فى عام ١٥٥٤ على عهد السلطان سليمان المشرع . وستتعرض لهذا الموضوع فى موطن قادم فى هذه الدراسة (ص ص ٩٣٤ - ٩٣٦) فى ثنايا الفصل التاسع والعشرين فى الجزء الثانى .

(٣) يطلق عليه أيضا البحر الإدرياتى .

(٤) كان العرب يطلقون على جزيرة كريت اسم إقريطش .

إيجه(١) . وكانت هذه الجزر أو معظمها جيوباً صليبية بعد انحسار موجة المد الصليبى الأوروبى عن الشرق الإسلامى بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين فى بلاد الشام فى اليوم الثامن عشر من شهر مايو — آيار — عام ١٢٩١ على عهد السلطان خليل ابن السلطان قلاوون من سلاطين دولة المماليك البحرية : فاتخذت الحركة الصليبية من هذه الجزر قواعد عسكرية بحرية تتعرض للسفن الإسلامية ، العثمانية والعربية ، فى أعالى البحار وتستولى على شحناتها ، وتأسر كبار ركابها وسيداتها ، وتقذف بالباقين فى أعماق البحر . كما كانت السفن الصليبية من وقت لآخر تقوم بغارات تخريبية مباغتة على موانىء مصر والشام والأناضول. وصحت عزيمة الدولة العثمانية على تصفية هذه الجيوب أو القواعد الصليبية تأميناً لأرواح المسلمين وأموالهم فى البحر والبر من شرور الصليبيين . وهكذا سيطرت الدولة العثمانية على ما يمكن أن نسميه جزر وقواعد الحوض الشرقى للبحر المتوسط . كما سيطرت سيطرة كاملة فى معظم الأوقات على البحر الأسود . وكان العثمانيون يطلقون عليه « قره دكيز » . وجاء حين من الدهر نجح العثمانيون فى جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة ، ومنعوا خروج السفن الروسية من هذا البحر إلى المياه الدافئة — أى مياه البحر المتوسط — ثم سمحوا ، تحت الضغط الروسى حيناً ، وتحت ضغط الدول الأوروبية الكبرى حيناً آخر ، بمرور السفن عبر مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور إلى البحر الأسود والخروج منه تحت قيود معينة . وسنعرض لهذا الموضوع فى شىء من التفصيل فى موطن قادم فى هذه الدراسة(٢) .

الدولة تخوض صراعاً حربياً ضد الدولة الصفوية فى فارس :

خاضت الدولة العثمانية صراعاً حربياً ضارياً ضد الدولة الصفوية فى فارس . وكان يحكم الأخيرة الشاه اسماعيل الصفوى (١٥٠١—١٥٢٤) ، وهو المؤسس الحقيقى للدولة الصفوية . واتخذ المذهب الشيعى مذهباً رسمياً

---

(١) كان يطلق على جزائر بحر إيجه « جزائر بحر سفيد » .

(٢) انظر فى هذه الدراسة ص ص ١٩٠ — ٢٢٠ .

للدولة(١) . وعمل على نشره فى العراق . ونجح فى ذلك إلى حد بعيد . ثم حاول نشرهذا المذهب فى الأناضول ، وهى الموطن الأصلى للدولة العثمانية . ولقى المذهب الشيعى استجابة واسعة من رعايا الدولة وبخاصة فى شرقى الأناضول . واشتهر هؤلاء الشيعة باسم قزل باش(٢) أى أصحاب الرءوس الحمراء . فهب السلطان العثمانى سليم الأول (١٥١٢–١٥٢٠) لاستئصال الخطر الشيعى الزاحف عليه ، وانتصر على الشاه اسماعيل فى موقعة تشالديران فى أغسطس – آب – عام ١٥١٤ ودخل فى العام التالى تبريز العاصمة ، وهرب الشاه إلى جوف بلاده . واستولى سليم على كثيرمن بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين وتبليس وديار بكر وجميع الأراضى الجنوبية حتى الرقة والموصل وهبط بالدولة الصفوية إلى دولة من الدرجة الثانية . ثم عاد سليم إلى إستانبول ليعد العدة لصراع حربى ضد أقاليم الشرق العربى الإسلامى .

الدولة تتجه نحو الشرق العربى الإسلامى :

فتح الشام ومصر :

وفى هذا الصراع ضد الأقاليم العربية الإسلامية فى الشرق ظهرت الدولة العثمانية لأول مرة فى تاريخها كدولة من دول البحر الأحمر . ولى سليم وجهه شطر بلاد الشام(٣) وكانت جزءاً من دولة المماليك الشراكسة وانتصر فى معركة مرج دابق فى أغسطس – آب – ١٥١٦ على السلطان الغورى .

---

(١) أمر الشاه اسماعيل الصفوى بعد اعتلائه العرش الخطباء فى أذربيجان أن تكون الخطبة باسم الأئمة الاثنى عشر . وأمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الآذان صيغة الشيعة وهى « أشهد أن علياً ولى الله » . وأمر الجنود بقتل كل من يعارض ذلك .

(٢) قزل باش كلمتان تركيتان . « قزل » معناها أحمر اللون . و « باش » معناها رأس .

(٣) أطلق فريق من المؤرخين والباحثين المسلمين عبارة « بر الشام » على بلاد الشام ، بينما أطلق فريق آخر منهم عليها « الشام » . وأطلق عليها أقرانهم الأوروبيون كلمة « سوريا » ونكتب أيضا « سورية » و La Syrie بالفرنسية و Syria بالإنجليزية . بينما تمسك سكانها بأسماء محلية كان بعضها ذا طابع جغرافى ، وكان البعض الآخر ذا طابع طائفى . ولما فتح العثمانيون بلاد الشام قسموها إلى عدة أقسام إدارية أطلقوا على كل قسم اسماً خاصاً كما سنرى فى موطن قادم فى هذه الدراسة .

وتساقطت فى يديه تباعاً المدن الرئيسية : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق . وانساب جنوباً واستولى على فلسطين ودخل مصر حيث انتصر على السلطان طومان باى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة فى معركة الريدانية فى يناير — كانون ثان — عام ١٥١٧ ودخل سليم القاهرة فى اليوم السادس والعشرين من ذات الشهر . وتم له بعد حين القبض على غريمه طومان باى واقتيد إلى المشنقة . وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة ، وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كتبه .

دخول الحجاز وبعض مناطق فى اليمن تحت السيادة العثمانية :

وفى أثناء إقامة السلطان سليم فى مصر استقبل وفداً من أعيان الحجاز بعث به الشريف بركات أمير مكة المكرمة . وكان على رأس هذا الوفد ابنه « أبو نمى » وحمل معه رسالة من والده أعلن فيها الشريف بركات قبوله دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وأرسل مع ابنه مفاتيح الكعبة الشريفة وبعض مخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : وبذلك دخل الحجاز دخولا تلقائياً وسلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين كانوا يحتلون وتتداك بعض مناطق فى اليمن . على هذا النحو دخلت فى خلال سنة واحدة (١٥١٦—١٥١٧) أربعة أقاليم إسلامية عربية هامة هى : الشام ، ثم مصر ، ثم الحجاز ، ثم أجزاء من اليمن ، تحت الحكم العثمانى ، وزاد عدد رعاياها المسلمين العرب زيادة كبيرة للغاية . وأصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية تقريباً . فمصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرقى والغربى ، وتدعم الطابع الإسلامى العثمانى للبحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠—١٥٦٦) الذى خلف والده سليم الأول كلا من مصوع وسواكن عام ١٥٥٧ منتهزاً فرصة اندلاع حرب أهلية فى الحبشة . وقد نجحت الدولة فى تخفيف الضغط البرتغالى على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية . كما أوقفت الاعتداء البرتغالى إلى حد جعله يعجز عن أن يمد مواقعه إلى داخل البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الداخلية ، وحطمت المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية منهم ومن الأحباش ضد

القوى العربية الإسلامية فى البحر الأحمر وشرق إفريقية . ولكن إحقاقاً للحق لم يكن الحجم الضئيل نسبياً من التجارة العالمية الذى استطاع العرب أن يجلبوه إلى الطريقين التجاريين القديمين — وهما طريق العراق والشام، وطريق البحر الأحمر ومصر — على الرغم من الحصار البرتغالى لم يكن كافياً لأن يعيد الازدهار الاقتصادى الذى عاش العرب فى ظلاله الوارفة من التجارة العالمية قبل وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية . ولكن حسب الدولة العثمانية أنها أضفت الأمن والأمان على البحر الأحمر وجعلته بحراً إسلامياً مغلقاً فى وجه السفن البرتغالية، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية فحرمت عليها الإبحار فى مياه البحر الأحمر شمالى ثغر المخا فى اليمن. فكان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها فى هذا الميناء ثم يعاد شحنها على سفن إسلامية يعمل عليها قباطنة وبحارة مسلمون وتمخر عباب البحر الأحمر وتتردد على ثغوره حتى السويس شمالا . وكانت حجة الدولة أو ذريعتها فى هذا المنع أن أهم الأماكن الإسلامية المقدسة فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز . وتطل سواحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . فيجب أن تكون الملاحة فيه مقصورة على السفن الإسلامية . وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر الميلادى :

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين بعامة والمؤرخين العرب بخاصة كانوا يطلقون على البحر الأحمر بحر الحجاز[1] قبل أن تصبح الدولة العثمانية صاحبة

---

(١) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال :

أبو شامة . الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحيه . ج٢ ، ص‌ص ٣٥ ، ٣٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الشيال . ج٢ ص ١٣٠ .

ابن إياس . بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى . ج ٤ ص ١٠٩

انظر بحثاً للدكتور حسنين محمد ربيع فى :

مجلة كلية العلوم الاجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . =

السيادة على معظم الأقاليم التى تطل على ساحليه . وكان مرد هذه التسمية إلى أن البحر الأحمر هو الطريق البحرى المؤدى إلى بلاد الحجاز حيث يأتى إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء الحج والعمرة ، أو الاعتمار فقط .

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية تضم بين أقاليمها العربية ، منذ حكم السلطان سليم الأول ، الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة ، والمسجد النبوى الشريف مثوى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى المدينة المنورة ، فضلا عن المسجد الأقصى فى فلسطين وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله عليه الصلاة والسلام(١) ، مما أضفى على الدولة زعامة دينية فى العالم الإسلامى وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية لقب « حامى حمى الحرمين الشريفين » تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامى السنى . وأوقفت الدولة أوقافاً كثيرة على الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز . وكانت إيراداتها تصب فى خزانة مستقلة بالقصر السلطانى تعرف باسم « حرمين دولابى »(٢) . وجرت العادة فى معظم الأوقات على تعيين كبير الأغوات الخصيان السود ناظراً على أوقاف الحرمين . كما رصدت الدولة أوقافاً على المسجد الأقصى وأقامت أسواراً على طرفيه الجنوبى والشرقى .

— الرياض . العدد الأول عام ١٣٩٧ هـ تحت عنوان « بحر الحجاز فى العصور الوسطى » . ص ص ٣٩٩-٤١٦ .

ومما يذكر أيضاً أن البحر الأحمر كان يطلق عليه « بحر القلزم » نسبة لمدينة « القلزم » الواقعة فى أقصى الشمال فى هذا البحر بالقرب من مدينة السويس . أما اسم « بحر السويس » فكان لا يطلق إلا على خليج السويس . ويرى البعض أن باب المندب وخليج عدن وخليج بربرة هو نهاية البحر الأحمر من ناحية الجنوب .

(١) يقع المسجد الأقصى فى الجزء الجنوبى الشرقى من مدينة بيت المقدس القديمة ، وهو يعد المسجد الجامع فى بيت المقدس .

(٢) انظر فى هذه الدراسة ص ص ٤٤٥ — ٤٤٦

وكان مما أضفى على الدولة الطابع الديني الإسلامي الراسخ والمتميز أنها كانت حريصة الحرص كله على الالتزام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً فى تصرفاتها وإقامة الشعائر الإسلامية واحترام التقاليد الدينية ، وأنها أنشأت ، منذ زمن مبكر ، الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وجعلت لها اختصاصات واسعة ورصدت لها موارد مالية ضخمة ، وكان شيخ الإسلام هو الذى يرأس هذه الهيئة ، وكانت تعاونه مجموعات من كبار علماء الدين يشكلون أجهزة فنية متعددة الأسماء والاختصاصات وألحقت بمكتبه . وقد أحاطت الدولة شيخ الإسلام بكل مظاهر الإجلال والتكريم وتبوأ مكاناً علياً . وكان مركزه يناد مركز الصدر الأعظم .

أمانات مقدسة :

اهتم سلاطين الدولة بمخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والتى كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول فى أثناء إقامة الأخير فى مصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت فى خزانة قصر طوب قابى وأطلق عليها « أمانات مقدسة » وهى جملة عربية وضعت فى صياغة تركية . وكانت هذه الآثار تضم بردته وعرفت فى اللغة التركية « خرقة شريف » . وسجادة صلاة ، والبيرق النبوى — أى العلم النبوى — وقوساً وسهماً ، وحدوة فرس ، وسناً من أسنانه ، وشعيرات من لحيته ، وحجراً يحمل أثر قدمه ، ومفاتيح الكعبة ، ونسختين من القرآن الكريم يقال إنهما كانتا للخليفتين عثمان ، وعلى . وضمت إلى هذه المجموعة أسلحة وأدوات وثياب يقال إنها كانت للأنبياء السابقين والخلفاء والصحابة. وخصصت الدولة قوة عسكرية تتكون من أربعين فرداً لحراسة المخلفات النبوية . وكانت هذه القوة هى هيئة الفرقة الخاصة وتسمى « خاص أوطه ليه » وكانت بمثابة حرس شرف لبردة النبى صلى الله عليه وسلم ، وغيرها من المخلفات النبوية . وكان يقام فى منتصف شهر رمضان من كل عام حفل دينى يطلق عليه « خرقة سعادت » يرتل فيه القرآن الكريم ترتيلا إلى ما بعد منتصف الليل ، ويحضر

هذا الحفل السلطان وشيخ الاسلام والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وقادة أسلحة الجيش والأسطول وغيرهم. واستهدفت الدولة من إقامة هذا الحفل الدينى تعميق الفكرة الدينية الإسلامية فى نفوس رعاياها وحملهم على مزيد من الالتصاق بالدين ونشر الجو الدينى العابق فى شهر رمضان المعظم .

وفتح السلطان سليمان المشرع إقليم العراق عام ١٥٣٤ وامتد النفوذ العثمانى إلى الأحساء المطل على الخليج العربى ثم إلى بعض إمارات ومشيخات هذا الخليج ، كما استولى على عدن . ومن ناحية أخرى أنشئت ثلاث نيابات عثمانية فى شمالى إفريقية ، هى : الجزائر ثم طرابلس ثم تونس ، وبذلك امتد النفوذ العثمانى إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط . وعلى هذا النحو اتسع نطاق الوجود العثمانى فى العالم العربى من الجزائر غرباً إلى الخليج العربى شرقاً ، ومن حلب شمالا إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً . وزاد عدد الرعايا العرب فى الدولة زيادة كبيرة للغاية بعد أن اتجهت فى فتوحاتها نحو العالم العربى وأصبحت ذات صبغة عربية قوية بعد أن كانت ذات طابع أناضولى وأوروبى ، كما أنها غدت تضم — فضلا عن قلب الإسلام : مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس — العواصم والأمصار الإسلامية العربية الكبرى مثل دمشق عاصمة الدولة الأموية ، وبغداد عاصمة الدولة العباسية التى كانت مركز إشعاع حضارى للعالم ، والقاهرة عاصمة الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتى المماليك حيث قام بها الأزهر الشريف القبلة العلمية الأولى للمسلمين ، والقيروان فى تونس ، والكوفة والبصرة ، وكان يطلق عليهما « المصران »(١) .

الدولة تحقق نجاحاً دينياً مذهبياً فى الأناضول والعالم العربى :

وقد حققت الدولة العثمانية فى حربها ضد الدولة الصفوية وفى فتوحاتها فى العالم العربى نجاحاً كبيراً من الناحية الدينية المذهبية . فقد استأصلت الشيعة من الأناضول . ومنعت زحف المذهب الشيعى على الشرق العربى الآسيوى وعلى مصر . أما العراق فكانت له أوضاع خاصة . كان موطن العتبات

---

(١) بكسر حرف الميم ، وسكون حرف الصاد .

أو المزارات المقدسة ويضم آثار الشيعة. وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح كما ذكرنا فى نشر المذهب الشيعى فى ربوع العراق وأصبح الشيعة يشكلون قطاعاً رئيسياً من قطاعات السكان، ولهم تقاليدهم وعاداتهم ولا يرضون عنها بديلا ، إذ أصبحت جزءاً من عقيدتهم الدينية . ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق ودخل بغداد فى ديسمبر — كانون أول — عام ١٥٣٤ حيث أقام أربعة أشهر عمل خلالها على إرضاء مشاعر أهل السنة وأهل الشيعة معاً . ورصد أوقافاً ينفق إيرادها على أهل المذهبين. وخرج من بغداد فى رحلة تعرف فيها على قبر أبى حنيفة وأعاد بناء ضريحه . وكان الشيعة من أهل فارس قد دنسوا رفاته وهدموا القبة والضريح . وعلى الرغم من أن السلطان سليمان كان سنياً حنفياً ، زار العتبات المقدسة. وكانت المنطقة التى تحيط بكربلاء تغمرها مياه الفيضان وتصل إلى العتبات المقدسة . فأمر ببناء سور يسمى السليمانية حول المدينة لوقايتها من مياه الفيضان ، ثم وسع ترعة الحسينية كى تنساب فيها المياه على مدار السنة فزرعت المنطقة حول العتبات المقدسة بالبساتين وحقول القمح . وزار قبر الإمام على فى النجف . وهكذا انتهج السلطان سليمان المشرع تجاه أهل السنة والشيعة سياسة تنم عن الحكمة والحصافة ورحابة الأفق العقلى . أما أهل اليمن فقد احتفظوا بمذهبهم الشيعى وهو مذهب الإمامية الزيدية . كما كانت هناك طائفة قليلة العدد نسبياً من الشيعة فى لبنان يطلق عليهم « العلويون » . وفيما عدا ذلك كان سكان الولايات العربية من أهل السنة .

لم يكن الاحتلال العثمانى للعالم العربى استعماراً تحت ستار الدين :

ومنذ مطلع القرن العشرين ارتفعت أصوات بعض الباحثين وأشباههم ممن ليست لديهم خلفية تاريخية سليمة وعميقة يصفون الاحتلال العثمانى للعالم العربى بأنه كان شراً مستطيراً . ولعل أحدث هذه الأصوات ما كتبه بعض مستشارى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى الميثاق الذى صدر فى الحادى والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٩٦٢ ،إذ قالوا إن هذا الاحتلال كان استعماراً مقنعاً باسم الدين ، والدين منه براء . وهم يجهلون أو يتجاهلون عدة حقائق هامة ، منها أن المجتمعات

فى العالم العربى وقتذاك كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات، وأن الوشيجة الدينية ربطت المسلمين من رعايا الدولة بالسلطان العثمانى بعروة وثقى على أساس أن السلطان كان الرئيس الأعلى لأكبر دولة إسلامية فى العالم ، وأنه بحكم منصبه كان المهيمن على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والتى كان يرأسها شيخ الإسلام — مفتى إستانبول سابقاً — وذلك قبل أن يضفى السلطان على نفسه لقب خليفة فى أواخر القرن الثامن عشر لأسباب سياسية استهدف منها إرهاب الدول الأوروبية الطامعة فى ممتلكات الدولة ، كما أن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأصلا وعمقاً فى نفوس رعايا الدولة من العاطفة الوطنية . وعلى أحسن الفروض كانت العاطفتان الدينية والوطنية ممتزجتين متشابكتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما . وكان يتصاعد ذلك الارتباط الوثيق بين الرعايا المسلمين والدولة كلما تعرضت لهزيمة عسكرية من الجيوش الأوروبية فكان هؤلاء الرعايا يزدادون التصاقاً بالدولة العثمانية ويزداد ولاؤهم عمقاً للسلطان العثمانى .

ويرجع التصاق الولايات العربية وولاؤها للدولة العثمانية إلى أنها كانت تنظر إلى هذه الدولة على أنها الدرع الواقى الذى يحميها من شرور أطماع الاستعمار الأوروبى ، ويتيح لها فى ظل الدولة العثمانية المسلمة قدراً كبيراً من الحرية فى الحفاظ على تقاليدها المحلية الموروثة وفى مزاولة شعائرها الدينية، وفى أن تحيا حياة أفضل — فى نظرها على الأقل — فيما لو احتلتها دولة أوروبية مسيحية . وأطلق السكان العرب على القوات العثمانية المرابطة فى بلادهم اسم « الحامية العثمانية » بدلا من « جيش الاحتلال العثمانى » . وعلى هذا النحو نشأت مصالح مشتركة بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية . وكانت هذه المصالح هى الروابط الدينية والمصالح السياسية والحفاظ على التقاليد الإسلامية(١) .

وإذا كانت قد قامت فى بعض الولايات العربية حوادث تمرد أوعصيان،

---

(١) دكتور محمد رفعت رمضان . على بك الكبير . الناشر دار الفكر العربى . القاهرة . د . ت ، ص ص ٥—٨ .

فن الخطأ وصفها بأنها حركات استقلالية أو انفصالية عن الدولة العثمانية ، لأنها كانت حركات تزعمها أصحاب عصبيات أو قواد عسكريون (١) أو زعماء دينيون من أتباع مذاهب دينية إسلامية استهدفوا منها الانفراد بشئون الحكم والإدارة والمال على أن تكون الولاية فى الأعم الأغلب فى نطاق الدولة العثمانية . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد على بعض هذه الحركات بشتى قياداتها : حركة على بك الكبير فى مصر(٢) ، والنزاع بين قبائل الأكراد والباشوات العثمانيين فى العراق ، وكذلك النزاع بين الزيدية والدولة العثمانية فى اليمن وأسفر فى إحدى مراحله عن عقد اتفاق دعان(٣) .

***

(١) يستثنى من هؤلاء القواد العسكريين قائدان أحدهما جان بردى الغزالى نائب الشام فقد أعلن نفسه سنة ١٥٢٠ على عهد السلطان سليمان المشرع سلطاناً على الشام وأمر بأن يذكر اسمه دون سواه فى خطبة الجمعة وأن تضرب السكة باسمه على العملات الذهبية والفضية ، وأطلق على نفسه «الملك الأشرف أبو الفتوحات » وزينت له دمشق ثلاثة أيام وأوقدت له الشموع أمام المحلات . وقبل له الأمراء الأرض . وقد فشلت قواته فى دخول حلب وانتهت حركته بالقتل . ولقى مصرعه وأرسلت رأسه إلى إستانبول .

انظر :

ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج٥ ، ص ص ٣٦٧—٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ —٣٧٧ ، ٣٨٣—٣٨٤ .

أما القائد الآخر فهو أحمد باشا ثالث الولاة العثمانيين على مصر . تولى منصبه فى أغسطس — آب — ١٥٢٤ وسولت له نفسه العصيان على الدولة وأمر بأن يخطب باسمه فى المساجد وأن تضرب العملة باسمه واستفحلت حركته . وقد تصدى له الإنكشارية وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى إستانبول . وكانت مدة ولايته ستة أشهر .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى . بحوث الندوة الدولية لألفية القاهرة (٢٧ مارس — آذار — ٥ ابريل — نيسان ١٩٦٩) . مطبعة دار الكتب بالقاهرة . ج٢ ، ١٩٧١ ، ص ص ٦٦٧ — ٧٢٥

(٣) انظر خطاب الإمام يحيى إلى وفد علماء مكة المكرمة بتاريخ ١٨ من شهر شعبان عام ١٣٢٥ الموافق ٢٨ من شهر سبتمبر — أيلول — عام ١٩٠٧ وقد أعلن فيه ولاءه وخضوعه للسلطان العثمانى . ولكنه طالب فى ذات الوقت بالاعتراف بوضعه الخاص فى اليمن . وانظر أيضاً نصوص اتفاق دعان الذى عقد بين الإمام يحيى واللواء أحمد عزت باشا فى غرة شهر ذى القعدة =

بوفاة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٦٦ ينتهى العصر الأول من تاريخ الدولة وهو عصرها الذهبى ، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحربية والتوسع الإقليمى المطرد . ويبدأ العصر الثانى وقد تولى فيه الحكم عدد من السلاطين أطلق على عدد كبير منهم « السلاطين التنابلة »(١) Les Sultans Fainèants انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم وانغمسوا فى حياة المجون مع الجوارى الفاتنات فى الحريم السلطانى . وأصبحت الكلمة العليا فى الدولة لمراكز القوى ، وهى : الفيالق الإنكشارية ، والحريم السلطانى ، والأغوات الخصيان . وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث . وكانت معاهدة كارلوفتز Karlovitz (٢٦ من يناير — كانون ثان — عام ١٦٩٩) أول معاهدة تفرض عليها كدولة منهزمة بعد حرب خاضتها وتنازلت فيها عن أقاليم واسعة كانت تحت الحكم العثمانى وتعد جزءاً من دار الإسلام وانتقلت إلى دار الحرب . فكانت هذه المعاهدة استهلالا سيئاً للقرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة . وتعاقب فرض معاهدات جائرة عليها . واستطال اضمحلالها فترة ناهزت المائة والخمسين عاماً لأنها كانت دولة ذات جذور عميقة ودعائم راسخة بحيث لم يكن من السهل أن تختفى هذه الدولة العملاقة فى سنوات ذات عدد . ويعد مؤتمر برلين الأوروبى (١٨٧٨) هو بداية النهاية بالنسبة لها . إذ تكتلت عليها فى هذا المؤتمر وفى خلال السنوات القليلة التى لحقته الدول الكبرى مثل الروسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والكيانات السياسية البلقانية التى كانت خاضعة للدولة ونجحت هذه وتلك فى تمزيق أوصال الدولة . واستطاع السلطان عبد الحميد الثانى فى ظروف متناهية فى ظلامها وقسوتها أن يحافظ على تماسك ما تبقى من الدولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يتمسك بتقاليدها وطابعها الإسلامى

= عام ١٣٢٩ الموافق ٢٤ من شهر أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩١١ فى : دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث . اليمن والإمام يحيى . (١٩٠٤—١٩٤٨) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ص ٤٨٩ — ٤٩٧ .

(١) أنظر ص ص ٦٠٣—٦٠٤ فى هذه الدراسة .

حتى إذا عزله رجال الطغيان العسكرى وبعض الصهيونين عام ١٩٠٩ (١) انفردوا بالحكم وزجوا بالدولة فى مغامرات خارجية لتغطية فشلهم فى الحكم. وكانت النتيجة أن سقطت الدولة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بعقد هدنة مدروس Mudros (٣٠ من أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩١٨) ومعاهدة سيفر Sèvres (١٠ من أغسطس — آب — عام ١٩٢٠).

مدى نجاح الدولة فى نشر الإسلام فى أوروبا :

ولم تنجح الدولة العثمانية نجاحاً كلياً فى نشر الإسلام بين جميع رعاياها المسيحيين فى ولاياتها الأوروبية لأسباب خارجة عن إرادتها. وسنبسط هذا الموضوع فى شىء من التفصيل فى كتابنا القادم بمشيئة الله وهو « دور الدولة العثمانية فى نشر الإسلام فى أوروبا وموقفها من أهل الذمة ». ولكن النجاح « المحدود » الذى حققته الدولة فى مجال الدعوة الإسلامية كان من حيث نتائجه وآثاره أكثر بكثير من نجاح الدولة فى فتوحاتها العسكرية الإسلامية وفى عثمنة L'Ottomanisation الشعوب المسيحية الأوروبية التى دانت لحكمها(٢) فإن الفتوحات الإسلامية العثمانية قد انحسرت فى القرون التالية للقرن السادس عشر حيث بلغت الدولة أقصى اتساعها الإقليمى فى هذا القرن: وأصبحت الفتوحات الإسلامية العثمانية تاريخاً يروى للأجيال المتعاقبة عن مجد عسكرى ذوى: أما العثمنة فكادت تكون معدومة. ولكن تركت الدولة بصماتها قوية واضحة فى مجال نشر الدعوة الإسلامية فى أوروبا. فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تعيش إلى اليوم على ثرى الأرض الأوروبية التى كانت جزءاً من الممتلكات العثمانية وتشكل على نحو من الأنحاء أقاليم هامة من « دار الإسلام ». ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها بديلا. وقاومت شتى أنواع الضغوط التى بذلت لتحويلها إلى المسيحية بعد أن

---

(١) أنظر الفصلين الثانى والثلاثين والثالث والثلاثين بعنوان (آراء محايدة فى حكم السلطان عبد الحميد الثانى) فى الجزء الثانى فى هذه الدراسة.

(٢) انظر فى هذه الدراسة صص ٣٢١ — ٣٢٧ ، ٣٤٠-٣٤٢ .

غاب النفوذ الإسلامى العثمانى – العسكرى والسياسى – عن هذه الأقاليم، وجاءت على أنقاضها دول مسيحية ذات حكومات مسرفة فى تعصبها تروم القضاء على كل أثر إسلامى تركه العثمانيون وراءهم . ولكن ظل الأثر الحى المجسد الباقى من الحكم العثمانى فى أوروبا : جماعات إسلامية تعيش إلى الوقت الحاضر فى بلغاريا ، ورومانيا ، وألبانيا(١) ، واليونان ، ويوغوسلافيا بما كانت تضمه الدولة الأخيرة قبل إنشائها من أقاليم كانت تسمى الصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك فضلا عن بعض الجزر القائمة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبحر إيجه وبحر الأرخبيل .

ونسوق هنا مثالا يوضح هذه الحقيقة: فقد شهد الأسبوع الأول من شهر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩٧٧ أكبر حدث إسلامى دينى وثقافى فى أوروبا ، إذ افتتحت لأول مرة كلية للدراسات الإسلامية فى يوغوسلافيا حيث يعيش فيها اليوم أربعة ملايين مسلم . وستكون هذه الكلية نواة لجامعة إسلامية تدفع بالعمل الإسلامى فى أوروبا خطوات واسعة . واشترك فى افتتاح الكلية ، وقد أقيمت فى مدينة سيراجيفو Sarajevo عدد كبير من وفود الدول الإسلامية والجاليات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا واشترك مندوب عن الأزهر الشريف تحدث باسم مصر. وتقوم الكلية حالياً بإعداد العلماء والأئمة والوعاظ والمدرسين ومن إليهم من العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية فى أوروبا ربطاً للجيل الجديد من مسلمى أوروبا بالإسلام وغرس مبادئه فى قلوبهم . وهكذا

---

(١) أغلقت المساجد وكذلك الكنائس والمعابد اليهودية فى ألبانيا منذ أن ساد الحكم الشيوعى هذه البلاد فى الستينيات من القرن العشرين . وكان عددها ٢١٦٩ مسجداً وكنيسة وبيعة . وقد تم إغلاقها « بإرادة الشعب الألبانى » كما جاء فى البيانات الرسمية . وقد نص الدستور الألبانى الشيوعى على تجريم النشاط الدينى أياً كان نوعه . وقامت السلطات الشيوعية فى ألبانيا بهدم عدد من دور العبادة ، واحتفظت بقلة منها كمعالم ثقافية أثرية ، بينما أعادت فتح بقيتها كدور للمسارح والسينما أو كمساكن أو كمستودعات .

نجد أن المسلمين فى يوغوسلافيا - وهم حفدة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إبان الحكم العثمانى - عملوا على حفظ التراث الإسلامى ودراسته وتجليته ونشره ، وإيجاد أجيال صاعدة من المسلمين يجمعون إلى الكفاية العلمية والمهنية التى اكتسبوها فى المجتمعات الأوروبية الإيمان بالله والتفقه فى العقيدة والشريعة ويقفون سداً منيعاً فى وجه الدعوة التى تقوم بها القاديانية والبهائية فى أوروبا ، ويصبحون مؤهلين للقيادة والريادة فى كل المجالات الروحية والعلمية والمهنية(١).

والخلاصة أن الوجود الإسلامى العثمانى فى أوروبا بصفة خاصة قد أوجد موجات من الذعر بين الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة التى كانت العسكرية الخصيصة الأولى البارزة فى بنيانها والغالبة على تصرفاتها . وصحب هذا الذعر حقد دفين عليها ، ومن ثم نشأت فى أوروبا حملات إعلامية للتشهير بها . وبمضى الزمن انتقلت الحملات التشهيرية إلى بلاد الشام بوجه خاص ، إذ كانت بيئة صالحة لنمو هذه الحملات بسبب كثرة التنوع البشرى واللغوى والدينى بها ، وكثافة عدد البعثات التنصيرية بها واعتمادها على تدخل الحكومات الأوروبية وعلى نظام الامتيازات الأجنبية . وكانت الدولة قد أسهمت بطريق غير مباشر فى تعميق حملات التشهير بها ، إذ أبقت بصفة عامة على التقسيمات الإدارية التى كانت قائمة أيام دولة المماليك الشراكسة ، كما أبقت على العصبيات الإقطاعية . وكانت ذات بأس شديد . ولم يكن أفرادها يكنون ولاء أو تقديراً للدولة العثمانية . وردد المؤرخون والباحثون ورجال السياسة العرب حملات التشهير وأضافوا إليها جديداً .

---

(١) محمود مهدى ، رسالة بعث بها من يوغوسلافيا بعنوان « أربعة ملايين مسلم فى فى يوغوسلافيا » ، ونشرت فى جريدة الأهرام ، العدد ٣٢١٩٤ ، الصادر فى ١٦ من شهر ذى القعدة ١٣٩٧ الموافق ٢٨ من اكتوبر - تشرين أول - ١٩٧٧ ، ص ١١ ، مجموعة السنة ١٠٢ .

ونرجىء الحديث عن هذه الحملات إلى أول الجزء الثانى حيث أفردنا لها أربعة فصول(١) بعد أن نبحث أولا نشأة الدولة وخصائصها العامة وسياستها العليا وهيئاتها الحاكمة ومراكز القوى فيها . فهذه الموضوعات تشكل عناصر أساسية فى تاريخ الدولة بما انطوت عليه من مزايا وعيوب ، وما أتاحته من رغبة فى التشهير ، أو اتجاه نحو النقد الموضوعى المحايد .



(١) أنظر ص ص ٦٨٩ — ٨٦١

الفصل الثانى

نشأة الدولة العثمانية

أصل الأتراك العثمانيين :

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى كقبيلة من القبائل التركية التى كانت ، على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر ، تنزح من مناطق الإستبس فى وسط آسيا متجهة غرباً نحو آسيا الصغرى أو الأناضول .

وتندس فى التاريخ المبكر للعثمانيين روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق . وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة ، فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية : منهم من يلقى عليها ظلالا كثيفة من التشكك فيها . ومنهم من يعتبرها حقائق لا تشوبها شائبة من ارتياب تأسيساً على أنها دونت بمعرفة أناس عاصروا أحداثها .

وتقرر إحدى هذه الروايات أن تلك القبيلة التركية قد أسدت سنة ١٢٣٢ ، فى أثناء ترحالها فى وهاد الأناضول خدمة جليلة لعلاء الدين الأول (١٢١٩-١٢٣٥) سلطان دولة الروم السلاجقة — ويطلق عليها أيضاً دولة الأتراك السلاجقة — فقد حدث أنها شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد الجيشين ليس نداً للجيش الآخر ، فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذى كاد يلقى هزيمة محققة . وكان انضمام القبيلة إليه سبباً فى انتصاره . وبعد المعركة كانت مفاجأة سارة للقبيلة التركية حين تبين لها أنها تدخلت لنصرة بنى جلدتها ، وهم الأتراك

السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغوليـــة من جيش الخان أوكطاى ابن جنكيز خان ، كان قد عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى .

وتقديراً لتدخل القبيلة التركية فى المعركة أقطعها علاء الدين الأول سلطان دولة الأتراك السلاجقة بقعة مترامية من دولته[1] التي كانت تجتاز دور الاضمحلال .

وتدل هذه القصة على الطابع الحربى العنيف الذى اتسم به أفراد القبيلة التركية ، فقد خاضوا المعركة لغير مصلحة لهم . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الألمان يعتبرون هذه القصة من قبيل الأساطير التاريخية ، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين الإنجليز أن هذه القصة حقيقية لا مراء فيها ، ويضيفون تعليقاً عليها بقولهم إن الدافع الحقيقى الذى دفع السلطان علاء الدين الأول إلى منحهم الأرض أنه لم يرحب فى قرارة نفسه بهذه القبيلة . فقد أثبتت أنها على حظ موفور من الشجاعة والخبرة الحربية والكفاية القتالية ، ومن ثم فلم يطمئن إليها ، ولذلك لم يرغب فى إدماج هذه القبيلة فى قواته وانتهى تفكيره إلى منحها تلك الأراضى . وبهذا الإجراء يتخلص من هذه القبيلة من ناحية ، ويشغلها بالحرب ـ ضد الدولة الرومانية الشرقية ـ الدولة البيزنطية ـ المجاورة لها فى نيقية من ناحية أخرى .

وفى ذات الوقت ظفر رئيس تلك القبيلة التركية واسمه أرطغرل بلقب « أوج بك » أى محافظ الحدود . وكان منح هذا اللقب أمراً يتمشى مع أحد التقاليد التى درجت عليها الحكومة المركزية فى دولة الأتراك السلاجقة ، وهو منح أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمره ، ويلحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود . وكانت دولة الأتراك السلاجقة تحرص أيضا حرصاً بالغاً على أن تعين من بين رجالها رئيساً أو عدداً من الرؤساء ، يلقب كل منهم لقباً أكثر رفعة هو « أوج أميرى » أى أمير الحدود .

غير أن أرطغرل رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة ،

---

(١) كانت هذه البقعة تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج Toumanidji وارمنى Ermeni يقضى فيها أفراد القبيلة فصل الصيف ، وسهول سوكود Soegud يقضون فى ربوعها فترة الشتاء .

فلم يقنع بهذه المنطقة التى أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقنع باللقب الذى ظفر به ، ولم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود ، بل شرع يهاجم ، باسم السلطان علاء الدين ، ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية — الدولة البيزنطية — فى الأناضول ، ونجح فى سياسة التوسع الإقليمى ، فضم إلى المنطقة التى يحكمها مدينة إسكى شهر[1] . وقد مات أرطغرل عن ثلاثة وتسعين عاما . وكان قد اتخذ سوكود مقراً له ودفن فيها . وخلفه فى حكم المنطقة سنة ١٢٩٩ ابنه عثمان الذى سميت باسمه الأمة والدولة . وسرعان ما نمت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التى شهدها التاريخ ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً[2] .

---

(١) يرد اسم هذه المدينة فى بعض المصادر والمراجع التاريخية مكتوبا كلمة واحدة : إسكيشهر . وإسكى معناها فى اللغة التركية « قديم » وتدخل هذه اللفظة فى أسماء الأماكن ، فيقال إسكى شهر بمعنى المدينة القديمة ، وإسكى حصار بمعنى الحصن القديم .

وإسكى شهر تقع فى الجزء الغربى من إقليم الأناضول الأوسط ، على نهر بورصوق ، وهو فرع من نهر سقاريا . وتمتد بشهرة واسعة وعريضة مر عصور التاريخ . وفى الوقت الحاضر تشتهر بأنها ملتقى هام للخطين الحديدين من إستانبول إلى أنقرة ، ومن إستانبول إلى قونية . كما تشتهر بينابيعها الحارة وبالصلصال الذى يوجد بجوارها .

(٢) ظهرت فى سنة ١٩٣٥ دراسة جديدة باللغة الفرنسية عن نشأة الدولة العثمانية قام بها الأستاذ محمد فؤاد كوبريلى أحد كبار المؤرخين الأتراك حمل فيها حملة شديدة على آراء المؤرخ الإنجليزى جيبونز Gibbons الذى بسطها فى كتابه تأسيس الإمبراطورية العثمانية The Foundation of the Ottoman Empire والذى نشره فى سنة ١٩١٦ وخلاصة الدراسة التى انتهى إليها الأستاذ كوبريلى أن الأتراك العثمانيين ينتمون إلى قبيلة وفدت على الأناضول مع السلاجقة الفاتحين . وفى أواخر القرن الثالث عشر كان أرطغرل ثم عثمان من بعده رئيسين لعشيرة صغيرة من عشائر الحدود تنتمى إلى قبيلة قايى ، وكان موطنها إسكى شهر على الحدود التركية البيزنطية . وفى نفس الوقت كان يرابط على حدود الأناضول الغربية عدد من أمراء الحدود يغيرون على حدود بيزنطة كلما واتتهم الفرص ، وما كان أكثرها ، ويعملون فيها السلب . وكان من بين أمراء الحدود من استولى على بعض الاستحكامات والمدن ، ولكن استطاع عثمان فى مثل هذه المنطقة وبين هذه القوى المتنافسة أن يؤسس كيانا سياسيا مستقلا تمثل فى الدولة العثمانية . وتعرض هذا المؤرخ التركى إلى عدة مسائل هامة ، منها ما هو خاص باعتناق العثمانيين الدين الإسلامى ، وحاول إرجاعه إلى عصور سابقة على قدومهم إلى آسيا الصغرى . وتبدو فى كتابته روح التعصب التركى والرغبة فى إبعاد

العثمانيون يعتنقون الإسلام :

وعلى عهد الأمير عثمان وفى وقت مبكر تحدد الوضع الدينى والعسكرى والسياسى للأتراك العثمانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامى وتبعه الأتراك العثمانيون. وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً ، ويحتمل أنهم كانوا فى حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام .

هناك رواية مستقاة من الحوليات العثمانية القديمة تشير إلى الملابسات التى أدت إلى اعتناق عثمان الديانة الإسلامية . تقول هذه الرواية إن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد العلماء المسلمين المتعمقين فى الدراسات الدينية ، واسمه الشيخ أده بالى ، وتطلق عليه المراجع العربية « أدب عالى »، وكان يقيم هذا العالم فى قرية مجاورة لمدينة إسكى شهر . وفى خلال زياراته كان يلمح ابنة الفقيه واسمها « مال خاتون » فراعه جمالها وطلب يدها من والدها ، ولكنه رفض نظراً لما كان هناك من فارق بينه وبين عثمان من الناحية الاجتماعية ، ولكن عثمان داوم على زيارة

= كل مايرى فيه مساساً بالعثمانيين فى هذا الدور المبكر من تاريخهم . ومن ثم كان تحامله الشديد على آراء جيبونز بل وتجريحه . وقد طبع الأصل التركى لهذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٦٢ بمقدمة للمؤلف لم تظهر فى الكتاب الفرنسى، كما أضاف إليه زيادات جديدة. وقد تولى الأستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان أستاذ الدراسات التركية بكلية الآداب بجامعة القاهرة تعريب الكتاب التركى سنة ١٩٦٥ باسم «قيام الدولة العثمانية» ونشر بالقاهرة سنة ١٩٦٧.

ومن الصعب أن نقبل كل الآراء التى تتصل بنشأة الدولة العثمانية والتى وردت فى دراسته لسببين : روح التحامل الشديد ، واعترافه بأن النتائج التى وصل إليها ليست حاسمة ، وقد سجل عليه قلمه هذه الفقرة المعبرة « ومهما يكن من أمر فلابد أن نعترف بأن النتائج التى حصلنا عليها ليست كافية لا كيفاً ولا كماً ، وبأننا لانزال بعيدين عن أن نكون قد حللنا لغز تأسيس الإمبراطورية العثمانية أو حتى أن نكون قد وضحناه بعض الشىء » ص ٧ من النص العربى .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن محمد فؤاد كوبريلى كان من أعوان مصطفى كمال ، استعان به فى دعم فكرة القومية التركية الحديثة عن طريق كتابة التاريخ على النحو الذى أراد مصطفى كمال من تخليه عن المفاهيم الإسلامية كتأييد الإجراءات العلمانية . وقد عينه مصطفى كمال وزيرا للخارجية فى الثلاثينات من القرن العشرين . وبسبب مجموعته الضخمة فى التاريخ التركى أصبح محمد فؤاد كوبريلى يلقب بأستاذ الجيل فى تركيا الحديثة .

الشيخ لما لمسه فيه من العلم والفضل ، أو لأنه كان يجد عزاء وسلوى فى التردد على الدار التى تضم الفتاة التى بلغ حبه لها شغاف قلبه . وكان الشيخ لا يرفض أن يستضيف عثمان كلما نزل فى رحابه ، وفى إحدى المرات غفا عثمان فى منزل الفقيه ورأى فى المنام القمر ينبثق هلالا من صدر هذا الفقيه، ثم نما وكبر فى الحجم حتى اكتمل بدراً ، وعندئذ توارى فى ظهره . ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة باسقة وارفة الظلال امتدت أغصانها ذات اليمين وذات اليسار وغطت الفيافى والقفار عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس وأطلس . ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه فى أنهار الدجلة والفرات والنيل والدانوب . ثم هبت فجأة ريح قوية حولت أوراق الشجر إلى نصل سيف باتر، وكان على مقبضه خاتم مرصع بالياقوت والزمرد، وقد أمسك عثمان بهما معاً عندما استيقظ من هذا الإغفاء ، ولما قص على مضيفه هذه الرؤيا — وكان عالما بتأويل الأحلام — بشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم ، ووافق على أن يزوجه ابنته . وقام تلميذ للشيخ بعقد قران عثمان . وعند ما أصبح عثمان أمير قبيلته شيد تكية لهذا التلميذ أوقف عليها أوقافا عظيمة من القرى والأرض الزراعية .

وتوجد رواية أخرى سابقة عليها ولكنها قريبة منها ومستقاة أيضاً من الحوليات العثمانية القديمة تقول إن أرطغرل ـ والد عثمان ـ قضى ليلة فى دار أحد الزهاد المسلمين . وقبل أن يأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضعه على رف، فسأله عثمان عن هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم ، واستفسر منه عن محتواه ، فقال له صاحب الدار إنه كلام الله أنزله للناس على لسان محمد صلوات الله عليه . وحمل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأه واقفاً حتى الصباح، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكا يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم جيلا بعد جيل على مدى القرون والأدهار لقاء احترامه القرآن .

ويرى جيزة Giese ـ وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين فى الدراسات التركية ـ أو ما يطلق عليها التركيات ـ أن هاتين الروايتين تحاولان لدعم مشروعية حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل إلهى . وقد

حمل المؤرخ التركي المعاصر الأستاذ محمد فؤاد كوبريلي حملة عنيفة على هاتين الروايتين [١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول — وهي دولة إسلامية — كانت عاملا هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة . وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان ، وسار عثمان في حكمه على هدى إيمان عميق وبساطة في الدين ، وكان متحمساً لعقيدته الدينية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين . وكانت العدالة أبرز ما تميز تصرفاته في عصر كان ينضح بالجور والعنف . وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون عند مابعث محمد صلوات الله عليه ، فقد هيأ الإسلام للأتراك العثمانيين وحدة العقيدة وعبأهم بشعور ديني دافق جعلهم جد متحمسين للإسلام . واجتمعت إلى هذه العاطفة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين . وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم ، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون والأدهار .

العثمانيون يطورون أسلوب حياتهم :

ومن ناحية ثانية أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة على وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك . ومن ناحية ثالثة فإن أهم دولتين كانتا في آسيا الصغرى ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الأتراك السلاجقة ، كانتا قد وصلتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذي

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية . ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٨ — ٢٥ .

خاصته كل منهما ضد الأخرى ، ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني ، ونتيجة تعرض دولة الأتراك السلاجقة للغزو المغولي . فكان في شبه جزيرة الأناضول فراغ سياسي ، وكانت الأوضاع السياسية مهيأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض الدولتين المتداعيتين ، ومن ناحية رابعة فإن نشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافة العالم المسيحي — وهو مايسمى دار الحرب ـ وعلى حافة العالم الإسلامي ـ وهومايسمى دارالإسلام[1] ـ قد فرضت عليها سياسة حربية معينة ، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود . والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيباً في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل ، وأنه لم يكن في استطاعة هذه الإمارات الداخلية أن تتطور وتنمو بنفس السرعة التي تطورت ونمت بها إمارات الحدود[2] . واستطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين ، وقد أبدى علاء الدين كيقباذ الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديره العميق لخدمات عثمان فمنحه لقب «عثمان غازى حضرتلرى مرزبان عاليجاه عثمان شاه »[3] ، أى « حضره عثمان الغازى ، حارس الحدود ، العالى الجاه ، عثمان شاه » .

عثمان يعلن استقلاله :

وكان من حظ عثمان أن أغار المغول سنة ١٣٠٠ على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى ، وحدث ما كان متوقعاً إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتوفى

---

(١) يطلق على مثل هذه المواقع في التاريخ الإسلامي لفظ « الثغور » .

(٢) من الأمثلة التي توضح هذه الظاهرة السياسية أن إمارة كرميان على الرغم من أنها كانت تشكيلا سياسياً قوياً — عجزت عن التقدم والنمو حين تحولت إلى إمارة داخلية نتيجة لما أحاط بها من قوى سياسية جديدة أقامها قادة من الكرمياليين أنفسهم ونتيجة أيضاً لتضييق القرماليين .

(٣) كلمة مرزبان فارسية تتكون من (مرز) ومعناها حد ثم (بان) ومعناها حارس ، وهكذا يكون معنى الكلمة كلها حارس أوحافظ الحدود . أما (عاليجاه) فكلمة تركية معناها عالى الجاه أو صاحب المقام الرفيع . وأما (شاه) فهى لفظة فارسية ومعناها عاهل .

السلطان علاء الدين كيقباذ الثالث سنة ١٣٠٧ ، وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً بغيره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميراً[١] أسس كل منهم حكومة مستقلة على أنقاض دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة. وأبدى عثمان اهتماماً عميقاً بدعم الجيش وتنظيم الحكومة ، وتمتع بشهرة عريضة بين معاصريه من الأمراء واعتبر عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية . وقد نسبت الدولة والأمة إليه[٢] فسميتا باسمه كما سبق أن ذكرنا ويقال إنه اتخذ لنفسه لقب سلطان، بينما يرى البعض أن ابنه أورخان كان أول من تلقب بهذا اللقب .

الزواج من الأجنبيات :

أيقن عثمان أن عشيرته التركية بتعدادها القليل لن تستطيع بمفردها تأسيس الدولة التي يتطلع إلى تكوينها ممتدة الأطراف مهيبة الجانب . فرسم سياسته على على أساس مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة ، واستقدام الرقيق بمختلف الوسائل من شتى البلدان ، واستخدام المغامرين الذين تستهويهم الشهرة والمغانم الكثيرة في ميادين القتال ، فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا ، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لإبنه أورخان كما سنرى في موطن قادم . وهكذا نرى أن اقتران السلاطين بالأجنبيات رافق نشوء الإمارة ثم السلطنة .

وقد حمل بعض الباحثين على زواج سلاطين الدولة العثمانية من الأجنبيات ، واعتبروا هذه الزيجات من أسباب اضمحلال الدولة العثمانية وضعفها . والواقع أن الزوجة الأجنبية لم تنس قط وطنها الأصلي أياً كان : الروسيا أو جمهورية البندقية أو غيرها ، ولم تنس قوميتها السابقة ، فاستغلت وضعها في القصر السلطاني بصفتها باش قادين ، أو كازكى Kaséki ، أو كازكى قادين Kaséeki Kadine[٣] .

(١) تذكر بعض المراجع أن عدد هؤلاء الأمراء كان أحد عشر أميراً .

(٢) الصفة من عثمان في اللغة التركية « عثمانلى » بينما هي في اللغة العربية «عثمانى» .

(٣) باش قادين ، لقب يطلق على السلطانة الأولى وهي والدة أكبر أولاد السلطان . أما كازكى فلقب يطلق على أمهات أبناء السلطان، بينما تلقب أمهات بناته كازكى قادين . وكان السلطان يلتزم بحكم الشريعة فلا يتعدى عدد زوجاته الأربع ويطلق عليهن « باش قادينلر » .

واهتمت اهتماماً عميقاً بخدمة مصلحة وطنها الأصلى على حساب مصلحة الدولة العثمانية . وسنرى فى مواطن كثيرة قادمة فى هذه الدراسة أمثلة عديدة لازدواجية الولاء أو بعبارة أكثر دقة تضارب الولاء وتضارب المصالح والمهم أن أولئك الباحثين الذين حملوا على تلك الزيجات ذهبوا إلى أن مساوئها لم تظهر سريعاً ، لأن الدولة كانت فى عنفوان قوتها . ولما أخذت الدولة فى الضعف بدت للعيان أخطار هـذه الزيجات . وفى هذا الصدد يقول أحد أولئك الباحثين « لا ريب فى أن العلل الفتاكة التى تسرى إلى الأجسام فى مقتبل العمر ، وإبان اشتداد الصحة ، قد لا تظهر علاماتها فى عهد الشباب والصحة ، بل يتأخر ظهورها إلى أن تضعف المناعة منذ سن الكهولة . ومن هذا القبيل ما أصاب الإمبراطورية العثمانية من جراء تهافت السلاطين على الزواج من الأجنبيات والتسرى بهن »[1] ، ثم يعود هذا الباحث إلى التفرقة بين نوعين من الزيجات فيقول « إن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان ، اختاروا الزواج من الأجنبيات لغاية سياسية ، غير أن الذين أتوا من بعدهم اقتصرت غايتهم فى هذا الزواج ، على انتقاء الحسناوات من الجوارى والسرارى » ويختتم تعليقه قائلا إن السلاطين العثمانيين قد منوا بحكم المحظيات[2] .

عثمان يوسع رقعة بلاده

اتخذ عثمان من ميخائيل ذى اللحية المفرجنة Michael Fork Beard — وهو بيزنطى مرتد عن المسيحية — نائباً له فى ميـادين الحرب . ومضى عثمان يوسع رقعة بلاده. وكان مسرح نشاطه الحربى مقصوراً على مقاطعة بيثنيا Bithynia إذ أغرته أطرافها الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطورى على شن الإغارات الخاطفة على أراضى الدولة البيزنطية . وقد قام بهذه العمليات الحربية بصفته أميراً فى خدمة السلطان السلجوقى المسلم علاء الدين كيقباذ الثالث ، ثم

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى . أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها . بيروت ، ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤م ، ص ١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٢ — ١٤ .

بصفته — بعد سنة ١٣٠٧ م — أميراً مستقلا بهذه الإمارة تمام الاستقلال ثم سلطاناً عليها .

وعلى هذا النحو مضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وفى سنة ١٣٠٨ وبعد وفاة السلطان علاء الدين الثالث استولى عثمان على قلعة علك حصار ، وباستيلائه عليها أطل العثمانيون على البوسفور، لأن هذه القلعة كانت آخر حاجز أمام زحف العثمانيين فى شبه الجزيرة الضيقة التى تمتد بين نيقوميديا والبحر الأسود والتى تكون الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة الأناضول .

وفى نفس السنة سيطر العثمانيون على الطريق المائى الموصل بين القسطنطينية وبروسة بعد أن استولوا على جزيرة كالوليمنى Kalolimni التى تقع فى بحر مرمرة على مقربة من خليج مودانيا Mudania .

وسقطت فى أيدى العثمانيين أيضاً قلعة تريكوكا Tricocca ويطلق عليها العثمانيون هودج حصار ، وكانت هذه القلعة تشرف على المواصلات بين نيقيا ونيقوميديا .

وسمع عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٢٦ بفتح مدينة بروسة[1]

---

(١) يطلق العثمانيون عليها أيضاً بورسة ، وأصبح لها شأن كبير فى العالم الإسلامى منذ أن اتخذها أورخان بن عثمان مقراً لهوضرب فيها أول سكة فضية لها قيمتها وهى الآقجة سنة ١٣٢٧ (٧٢٧ هـ). ولما فتحت القسطنطينيه واتخذها السلطان محمد الثانى عاصمة للدولة صدرت الأوامرالى سكان بروسه بالنزوح الى العاصمة الجديدة . على أن بروسة استفادت من اتساع رقعة الإمبراطورية إذ غدت مركزاً لقيادة الحملات العسكرية فى الشرق . والأهمية الاقتصادية لمدينة بروسة تفوق أهميتها السياسية فى التاريخ العثمانى ، فهى من أقرب المراكز الإسلامية الى العالم المسيحى . وازداد وصول قوافل الحرير الفارسى الى سوق بروسة، وتخلت هذه القوافل الى حد ما عن أسواقها القديمة مثل طرابزون وحلب . وغدت فى سنة ١٤٠٠ مركزاً من أهم المراكز الدولية لتجارة الحرير وصناعته . وتعتبر صناعة الحرير وتجارته فى بروسة من أسباب الازدهار الاقتصادى الذى تمتعت به المدينة . وكانت كثرة الخانات — المراكز والمستودعات التجارية — فى المدينة إبان القرن الخامس عشر الميلادى والتاسع الهجرى دليلا مادياً على حجم النشاط التجارى فيها . وبروسة عاصمة ولاية خداوندكار .

وكان ابنه أورخان على رأس القوات التى زحفت عليها ، وأوصى عثمان Brousse بأن تنقل رفاته إلى بروسة فى كنيسة القصر التى حولت فوراً إلى مسجد ، وأصبحت بروسة عاصمة جديدة للأتراك العثمانيين فى سلسلة العواصم التى انتقلوا إليها عبر تاريخهم. وشيد السلاطين العثمانيون الأوائل فى هذه المدينة عدداً من المساجد الرائعة، نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة مساجد ، هى : يشيل جامع ، أولو جامع ، ييلدرم .

نخلص من هذا كله إلى أن التحركات الحربية التى قام بها العثمانيون فى هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت نتاج عدة عوامل ، هى : الروح الدينية الجياشة ، والطبيعة العسكرية الصارمة ، والموقع الجغرافى لإمارتهم ، والأوضاع السياسية فى المنطقة المحيطة بهم . وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها، وانفسحوا فى بقاع آسيا وأوروبا وأفريقيا غزاة فاتحين .

نظرة أوروبا إلى الأتراك العثمانيين:

ومنذ أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٧١١ م واجتاحوا بلاد الأندلس فى القرن الثامن الميلادى لم تتعرض المسيحية لمثل هذا الخطر الداهم إلا عندما روعت أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر بزحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ثم اتجاههم إلى قلب أوروبا . وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك العثمانيون ــ فى تقدير أوروبا ــ هم الرمز الحى المجسد للإسلام ، واختلط الأمر على الأوروبيين فى ذلك الوقت فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركى ، وخلطوا بين العرب والأتراك . وكان هذا الخلط فى أذهانهم نتيجة طبيعية . فقد كانت فتوح العثمانيين فى البلقان ووسط أوروبا فتوحاً إسلامية ، وباسم الإسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التى كانت قواعد عسكرية صليبية ، أو مايسمى بالتعبير العسكرى الحديث جيوباً صليبية .وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثانى

القسطنطينية ، وباسم الإسلام قاد السلطان سليمان المشرع[١] ست عشرة حملة عسكرية فى جوف أوروبا ووصل بها إلى أسوار ڤينا ، وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة العرب فى شمالى أفريقيا فى كفاحهم ضد الإسبان، ودكوا القواعد العسكرية الأوروبية أو الجيوب الصليبية التى أقامها الإسبان على امتداد الساحل الشمالى لأفريقيا لتكون محطات عسكرية صليبية تأوى إليها السفن الإسبانية وغيرها فى صراعها ضد القوى الإسلامية .فأسدى العثمانيون خدمات جليلة لعرب شمالى أفريقيا،إذ حفظ الأتراك العثمانيون لهم عروبتهم وإسلامهم .وكان إذا اعتنق أحد المسيحيين الدين الإسلامى قال عنه رفاقه الأوروبيون المسيحيون وعشيرته إنه غدا تركياً، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً حتى إذا كان اعتناقه الإسلام قد حدث فى فاس أو أصفهان .

> "It is curious that while in Turkey the word Turk almost went out of use, in the West it came to be a synonym for Muslim, and a Western convert to Islam was said to have 'turned Turk', even when the conversion took place in Fez or Isfahan". (2)

وعلى الرغم من أن كلمة تركى كان قد بطل استخدمها فى الدولة إلا أن هذه

---

(١) يطلق جمهرة الباحثين على هـذا السلطان صفة القانونى ويقولون سليمان القانونى . ولكن كلمة [المشرع] أكثر دقة من حيث الصياغة اللفظية ، لأن هذا السلطان قد أتاه الله موهبة عظيمة فى وضع التشريعات والتعرض لأدق التفاصيل عند وضع أى تشريع . فلم تكن لتشريعاته تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا تعرضت لها ، فجاءت جامعة مانعة . كما أن هناك فرقا بين هذين المصطلحين : المشرع والقانونى يتضح من تقسيم السلطات فى الدولة إلى ثلاث سلطات : السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . ويلوح أن أحد الباحثين القدامى قد أطلق عن جهالة ودون تمحيص لو ترو صفة القانونى على سليمان ، وجاء الباحثون بعد ذلك وطبقاً للتقليد الأعمى فأطلقوا عليه سليمان القانونى ، والتصقت به هذه التسمية كما التصقت فى أذهان الأجيال المتعاقبة . وجدير بالذكر أن المراجع الفرنسية والإنجليزية تطلق عليه الصفة الصحيحة وهى المشرع على هذا النحو : Soliman Le Législateur.

Suleiman . The Legislator.

(2) Bernard Lewis; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition, London, 1968. p. 13.

الـكلمة كانت مرادفة لـكلمة مسلم فى أذهان الأوروبيين الغربيين[١] .

وهكذا زالت فـكرة العروبة من أذهان الأوروبيين أو كادت،وحلت محلها فكرة الإسلام فى عمومه تمثلها قوة الأتراك العثمانيين بعد أن انتقل مشعل الإسلام إلى سواعدهم القوية . ولم تعد العروبة تثير فى أوروبا سوى ذكريات بعيدة ترجع إلى ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية والفتوح الأولى للمسلمين العرب والحضارة العربية على عهد الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية ، وهى ذكريات تصلح لـكى تـكون موضوعات علمية لدراسات تاريخية مستفيضة بعد أن انزوى العرب من ميادين السياسة الدولية والاقتصاد العالمى وظهر عجزهم عن إقامة كيان دولى خاص بهم قائم بذاته يجمع شتاتهم وسط التيارات والمنافسات والمساومات الدولية فى مطلع العصور الحديثة[٢] .

وفى ضوء هذا الرأى الذى استقر فى أذهان الأوروبيين عن الأتراك العثمانيين اعتبروا أى نصر عسكرى تحققه القوات العثمانية سواء فى البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية. وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية إلى الأتراك العثمانيين فإن المحالفات الدولية التى تـكونت ضد الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل كانت فى لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام أملتها روح صليبية

---

(١) استخدمت لأول مره وبصفة رسمية كلمتا تركيا وتركى للتعبير عن الدولة والمواطن منذ إعلان النظام الجمهورى فى تركيا سنة ١٩٢٣ .

انظر المرجع السابق ص ٣ .

(٢) الدكاترة محمـد بديع شريف وزكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الـكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة . من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، ص ١٩٢ .

وقد أعاد الدكتور عزت نشر الفصلين اللذين كتبهما فى هذا الـكتاب وهما الثالث والسادس فى كتاب جديد بعنوان « دراسات فى تاريخ العرب الحديث » وقد ضم هذا الـكتاب ، فضلا عن هذين الفصلين ، دراستين سبق نشرهما : الأول عن « التقسيم الإدارى لسورية فى العهد العثمانى » ، والثانية عن « دمشق فى منتصف القرن الثامن عشر » ، وأضاف إلى هذا الـكتاب دراستين جديدتين الأولى جاءت إضافية بعنـوان « المسألة الجزائرية فى السياسة الدولية من تأسيس النيابة إلى حملة سنة ١٨٣٠ » والثانية بعنوان « المعالم الرئيسية فى تاريخ القضية الفلسطينية» .

وقد تولت دار النهضة العربية للطباعة والنشر فى بيروت نشر هذا الـكتاب سنة ١٩٧٠ .

ووجهتها روح صليبية . وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التى شهدها الشرق الإسلامى لم تنته بسقوط عـكا آخر معقل للصليبيين فى يد المسلمين على عهد السلطان خليل بن قلاوون فى الثامن عشر من مايو ١٢٩١، بل استمرت متجددة متيقظة فى نفوس الأوروبيين فى العصور الحديثة وإن اختلفت ميادينها وشخصياتها والدول التى شاركت فيها والأسلحة التى استخدمت فيها . وسنتعرض لهذه النقطة عند الـكلام فى مواطن قادمة على خصائص الحروب الصليبية فى العصور الحديثة.

ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الرائعة التى أحرزها الأتراك العثمانيون على الأوربيين قد أضفت عليهم هالة من المجد فى أرجاء العالم الإسلامى، ونظر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الـكبرى يستظلون بظلها الظليل ، ونظروا إلى السلطان العثمانى وهو يخوض الحروب تباعاً ضـد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرتجى فى إعادة المجد الغابر للإسلام . فـكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية وعاهلها بصفته خليفة وسلطانا ، ولم تـكن العاطفة القومية قد وجدت بعد فى نفوس الشعوب الإسلامية فى ذلك الوقت المبـكر من العصور الحديثة . وكانت الوشيجة الدينية هى التى ربطت بعروة وثقى بين الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية سواء التى دانت لحـكمها أوظلت بمنأى عن سيطرتها .

تحامل بعض المؤرخين الأوروبيين :

ويبدى بعض المؤرخين الأوروبيين الأسف العميق لأنه حين استفحل خطر الأتراك العثمانيين على وسط أوروبا فى القرن السادس عشر فى أثناء حكم السلطان سليمان المشرع كانت أوروبا فى شغل شاغل عن هذا الخطر الإسلامى الذى أحدق بها ، وانشغلت على بـكرة أبيها ــ أباطرة وملوكا وأمراء وشعوبا ــ بالصراع الدينى المذهبى بين أنصار الـكاثوليـكية وأنصار الحركة اللوثرية وما تفرع عن الحركة الأخيرة من مذاهب ، فأصبح الأوروبيون فى ذلك الوقت العصيب طرائق قدداً ، واشتعلت بينهم حروب خضبت أرض أوروبا بالدماء . وكان الواجب فى نظر هذا الفريق من المؤرخين أن يسفر تساقط خطوط الدفاع الأوروبية فى

أيدى العثمانيين عن وقف الصراع الدينى المذهبي لتقف الدول الأوروبية كتلة واحدة وفى صف واحد كالبنيان المرصوص لدرء خطر هذا العملاق التركى الذى داهمها . وقد تنامى هذا الفريق من المؤرخين المتاعين المخزونين أن المشروعات الصليبية كانت فى القرن السادس عشر بالذات هى « المودة » La Mode الشائعة فى السياسة الدولية . وقد تكررت ظاهرة إعلامية فى أثناء الحروب الايطالية التى نشبت بين فرنسا وإسبانيا واستطالت خمساً وستين سنة (١٤٩٤ ١٥٥٩)[١] . كان فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة يتنافسان حيناً ويتاجران حيناً آخر بمشروعات صليبية تستهدف إجلاء العثمانيين عن ممتلكاتهم فى أوروبا وغزو إستانبول وطرد الأتراك العثمانيين منها . وقد شهد القرن السادس عشر محالفات صليبية ضد الدولة العثمانية، وحسبنا أن نشير إلى واحدة منها على سبيل المثال ، وهى المحالفة التى عقدت فى سنة ١٥٣٨ بين البابوية وإسبانيا وجمهورية البندقية حين نزلت القوات العثمانية فى أوترانت Otrante فى إيطاليا[٢] . وقد استطاع الأسطول العثمانى تحطيم الأساطيل المتحالفة ضده فى موقعة پريفيزا Prévèze جنوبى جزيرة كورفو .

نخلص من هذه الإشارة السريعة لتحامل بعض المؤرخين الأوروبيين إلى أن الأتراك العثمانيين واجهوا تكتلات دولية صليبية فى القرن السادس عشر ، كما واجهوا أمثال هذه التكتلات من قبل ومن بعد هذا القرن . ولعل الرأى الذى يبديه معظم المؤرخين الأوروبيين يخفى وراءه محاولة للتقليل من شأن الانتصارات

---

(١) أنظر عرضاً لهذه الحروب الإيطالية فى مختلف مراحلها :
دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، ص ص ١٣٦ — ٢٩٦ .

(٢) هى مدينة بحرية جنوبى إيطاليا ، تقع فى إقليم يعرف بهذا الاسم وعلى مقربة من مضيق أوترانت الذى يصل بين البحر الأدرياتيكى والبحر الأيونى ، كما أن إقليم أوترانت يشكل كعب الحذاء الإيطالى le talom de la botte italicnne.

التى حققها الأتراك العثمانيون براً وبحراً ، أو لتبرير الهزائم التى نزلت بالشعوب الأوروبية ، وهو على أى الحالتين يكشف عن نزعة صليبية لا تزال كامنة مستعرة فى نفوس فريق من المؤرخين الأوروبيين فى القرن العشرين . وبقدر أسفهم على ماحدث فى القرن السادس عشر كان ابتهاجهم للموقف السلبى الذى اتخذه الأتراك العثمانيون فى القرن السابع عشر حين اندلعت فى أوروبا حرب دينية طاحنة بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية هى حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ — ١٦٤٨) ، إذ لم ينتهز الأتراك العثمانيون هذه الفرصة للانقضاض مرة أخرى على وسط أوروبا ثم التوغل فى غربيها ، وكانت الدولة العثمانية تمر فى أثناء هذه الحرب بنوبة ضعف أصابتها بالشلل العسكرى .

الفصل الثالث

الخصائص العامة

للدولة العثمانية (١)

أولا : دولة عسكرية

تجمعت فى الدولة العثمانية مجموعة فريدة من الخصائص العامة ، نذكر منها ما يتصل اتصالا مباشراً بموضوع هذه الدراسة . كانت الدولة العثمانيـة دولة عسكرية ، وتيوقراطية un état théocratique أى دينية ، وعالمية ، وذات حكم مطلق ، وطبقية ، وإقطاعية من نوع خاص .

والحق أن العسكرية الصارمة كانت الخصيصة الأولى للدولة . وقد طبعت هذه العسكرية أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطـابع العسكرى العنيف . ولم تـكن النزعة الحربية لدى العثمانيين نزعة طارئة ، بل كانت نزعة أصيلة استمدوها من بيئتهم الأولى فى أواسط آسيا قبل أن يتجهوا إلى آسيا الصغرى . وقد عزز هذه النزعة الحربية الموقع الجغرافى لإمارتهم فى شبه جزيرة الأناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية كان بعضها مسيحياً والبعض الآخر إسلامياً . وكانت العلاقات بين العثمانيين وهذه الـكيانات السياسية علاقات عدائية فى معظم الفترات ، إذ قامت الإمارة العثمانية — كما سبق أن ذكرنا — على سياسة التوسع الإقليمى فى شتى الاتجاهات ، ومن ثم اصطبغت حياة العثمانيـين بالصبغة العسكرية ، وعلى ذلك فإن الحياة العسكرية بكل ما تنطوى عليه من معانى النظام والصرامة والشجاعة واسترخاص الموت والطاعة العمياء كانت مصـاحبة لنشأة إمارتهم . واستمرأ العثمانيون هذه الحياة، فالتصقت بهم والتصقوا بها عبر العصور والأدهار .

كان الشعب العثمانى مدرباً للحرب، مطواعاً للسلاطين ، نظر إلى الحرب على أنها واجبه الأول . واستأثر الجيش بالمكانة الأولى من عناية السلاطين ، ولذلك كان الجيش العثمانى يتميز بالتنظيم العسكرى الصارم والتدريب الدقيق الطويل، والعتاد الوفير وتنوع الأسلحة من مشاة وفرسان ومدفعية . وكان سلاح المدفعية فتاكا رهيباً كفل للعثمانيين انتصارات ساحقة وخاطفة على أعدائهم ، وبخاصة عندما كان هؤلاء الأعداء يعتمدون اعتماداً أساسياً على سلاح الفرسان .

كان المبدأ الأساسى للدولة العثمانية هو أنها بدأت إمارة غزاة محاربين، فاتسعت رقعتها وتطورت إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء، ولكنها تلتزم أولا وقبل كل شىء بنفس المبدأ لا تحيد عنه ، وهو أن الدولة قاعدة لجيش يجب أن تسخر البلاد فى خدمته، وفى تزويده بالقوى البشرية والمادية ، ونشر التعبئة الروحية بين أفراده، وهذا المبدأ هو الذى دان به الأتراك العثمانيون، وكانوا لا يبغون عنه حولا .

وظيفتان للجيش:

وفضلا عن ذلك جعلت الدولة العثمانية للجيش وظيفتين : الحرب والحكم . فهى تعتمد على الجيش وقت السلم كما هو عدتها زمن الحرب . وقيل فى هذا الصدد إن الجيش العثمانى كان بمثابة عملة نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب ، ونقشت على الوجه الآخر كلمة الحكم. وفى ضوء هذا الاختصاص الثنائى للجيش العثمانى كان العسكريون فى الدولة لا يشغلون المناصب العسكرية فحسب ، بل كانوا يشغلون أيضاً الغالبية العظمى من المناصب المدنية القيادية وما دونها ما عدا مناصب القضاء والوظائف الدينية .

وفى ظل هذه النظرة مدت الدولة الاختصاص الثنائى للجيش إلى الولايات العثمانية . وهاتان المهمتان — الحرب والحكم — اللتان جعلتا من اختصاص الجيش العثمانى قد ارتبطا بعضهما ببعض أشد الارتباط . ومن هنا كانت سيطرة الجيش

على أجهزة الحكم وعلى الغالبية العظمى من شتى القطاعات ظاهرة واضحة فى تاريخ الدولة العثمانية .

يقول المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى Arnold Toyenbee إن العثمانيين يستمدون طريقتهم فى حكم الشعوب التى دانت لهم من واقع البيئة الأولى التى نشأ فيها هؤلاء العثمانيون، وهى بيئة البرارى فى أواسط آسيا والتى تسمى أيضاً أراضى الإستبس Steppe Land ، فالسلطان العثمانى كان يمارس حكم تلك الشعوب كما كان العثمانى يمارس رعى الماشية فى أراضى الإستبس أو البرارى . ويقول هذا المؤرخ إن ممارسة الرعى كانت تتكون من ثلاثة عناصر : الراعى والماشية وكلب الحراسة . فالسلطان — فى رأى هذا المؤرخ — هو الراعى ، أما الماشية فهى الشعوب التى خضعت للدولة ، أما كلب الحراسة فهو الجيش العثمانى[1] .

وفى الحروب العديدة المتلاحقة التى خاضها العثمانيون فى أوروبا وبخاصة فى القرن السادس عشر كان المراقبون العسكريون والسياسيون الأوروبيون يذهلون للمستوى الرفيع الذى بلغه الجيش العثمانى تسليحاً وتدريباً وتنظيماً . وقد سجلوا آراءهم عن عظمة الجيش فى تقارير بعثوا بها إلى حكوماتهم . ونذكر منها على سبيل المثال ما كتبه بوسبيك Busbecq السفير النمساوى فى إستانبول عام ١٥٥٤، وقد هالته الفروق الصارخة بين الجيش العثمانى والقوات المسلحة للدولة الرومانية المقدسة . وقال إن دهشة بالغة تعتريه حين يعقد المقارنات بينهما، ثم يفكر فى النتائج التى يسفر عنها الزحف العسكرى العثمانى على أوروبا فتروعه هذه النتائج . وكان مما قاله إن هاتين الدولتين كانتا تقفان فى مواجهة عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما . وفى جانب توجد الدولة العثمانية وهى إمبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء، تحشد جيوشاً جرارة تسودها روح عسكرية عالية. وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ . وفى جانب آخر

(1) Toyenbee Arnold J.; A Study of History. London, 1945, Vol. III. pp. 22-28.

توجد الدولة الرومانية المقدسة ، ويتصف جنودها بالإغراق فى الترف والميل إلى العناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام وحب الشهوات من الخلاعة والدعارة والفجور والإسراف فى الأكل . ويخلص هذا المبعوث النمساوى من مقارناته إلى القول بأن العثمانيين قد أعدوا للغزو وتحقيق الانتصارات ، أما جنود الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أعدوا لتقبل الهزائم[1] . وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح : لأنها صادرة عن رجل معاصر ، ولا يمكن أن يتصف بالتحيز للعثمانيين ، ولأنه رجل عرف بدراساته العميقة فى تاريخ الأتراك العثمانيين ، وهى دراسات تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجالات الدولة العثمانية[2] .

وهناك أستاذ أمريكى — يسمى ليبير Lybyer — توفر على دراسة النظم العثمانية يقول إن الجيش العثمانى كان يجمع بين أفراده جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان . وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لحملة عسكرية كبرى اجتمع الجيش على بكرة أبيه حول السلطان . وفى مسيرة الجيش وفى مرابطته فى المعسكرات وفى خوضه المعارك كان كل فرد فى فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان أيضاً هو المحور الرئيسى الذى ينظم جميع عمليات التشكيل التى تتم فى المعركة ، والكل يدين له بالولاء التام جسماً وعقلاً وروحاً .

---

(1) When I compare the difference between their soldiers and ours I stand amazed to think what will be the event. For on their side there is a mighty strong and wealthy Empire, great armies, experience in war, a veteran soldiery, a long series of victories, patience in toil, concord, discipline, frugality and vigilance. On our side there is public want, private luxury, soldiers refractory, commanders covetous, a contempt of discipline, licentiousness, rashness, drunkenness, gluttony ; and what is worst of all, they are used to conquer, we to be conquered». see Hubbard G. E'; The Day of the Crescent. p. 85.

(٢) من مؤلفات هذا السفير النمساوى نذكر :

a) Legationis turcicae epistolae. leyde, 1633.

b) Opera omnia quae extant. Bale, 1640.

The Sultan was commander-in-chief of the entire army, standing, feudal, and irregular. When the army was summoned for a great campaign, it gathered about him; on the march and in campaign, every body of troops had its place with reference to him; in formation of battle, he was the central point about which the whole vast display was organized. When the army was assembled, and then only, the Sultan stood forth visibly and palpably as the head and center of the ruling Institution and of the Ottoman Nation upon which it rested. His kullar (1) were gathered about him in devotion of body and soul, they were going forth under his leadership against the infidel or the heretic,. . . . They marched, encamped and fought under his eye and command, they formed an honored and privileged nucleus in the midst of a vast, loyal, and ambitious national army. (2)

الأسطول:

وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يكونوا رجال بحر وكانوا يتهيبون أول الأمر ركوب البحار إلا أنهم سرعان ما أدركوا أهمية السفن الحربية فى المحافظة على ممتلكاتهم الجديدة وضم مزيد من الممتلكات، ومن ثم أنشأوا الأسطول البحرى لمنازلة الدول التى كانت تعتمد على السلاح البحرى مثل الدولة الرومانية الشرقية وجمهورية البندقية وجمهورية جنوة وغيرها . وسنفرد فى موطن قادم فى هذه الدراسة فصلا للقوات المسلحة العثمانية بقسميها الجيش والأسطول.

---

(١) لفظة Kullar التى وردت فى المتن الإنجليزى كلمة تركية هى قولار، ومعناها عبيد وهى جمع قول Kul أو Koul أى عبد .

(2) Albert Howe Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent. Harvard University Press. 1913. pp. 109—110.

ثانياً : دولة دينية

والدولة العثمانية دولة دينية . ويقصد بهذه العبارة الطابع الدينى الإسلامى الذى اتسمت به تشريعاتها ومعظم تصرفاتها .

كان للهيئة الإسلامية فى الدولة وضع معترف به ومركز مرموق . وكان يطلق على رئيسها المفتى أو مفتى إستانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شيخ الإسلام . وكانت الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع أو النشاط الدينى تخضع لنفوذه . وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطته ويعملون على استغلالها كلما حزبهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير . كان المفتى يصدر فتوى تجيز الحروب التى تخوضها الدولة دفاعاً أو هجوماً ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام التى واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل ، وكانت الدولة تهتم اهتماماً بالغاً بنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية وصولا إلى « تسخين » الجنود روحياً قبل خوض المعارك .

المساجد الكبرى :

وكان من مظاهر الطابع الدينى الذى اتسمت به الدولة العثمانية العناية الفائقة التى أبداها السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى التى غدت رمزاً مجسداً للفن المعمارى العثمانى وما بلغه من تطور حيث ظهر أثر الفن البيزنطى فيه . ونشير هنا إلى أن السلطان محمد الفاتح لم يقنع بتحويل كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد عقب فتح مدينة القسطنطينية ، بل اهتم ببناء مسجد جديد فى قلب العاصمة بعد أن أطلق عليها إسم إستانبول . وأقام المسجد الجديد على أنقاض الكنيسة الرسولية التى كانت تستخدم فى وقت سابق مدفناً للأباطرة . وأطلق على هذا المسجد الجديد الجامع المحمدى أو جامع السلطان محمد الفاتح . ولما تولى السلطان سليمان المشرع العرش شرع فى سنة ١٥٥٠ — وكانت الدولة قد بلغت أوج قوتها — فى إنشاء

مسجد عظيم فى إستانبول قدر له أن يحجب عظمة المبنى المعمارى الضخم الذى عرف بكاتدرائية القديسة آيا صوفيا. وغدا جامع سليمان من أجمل وأروع المساجد فى الدولة[١]. وازدانت استانبول بمسجد رائع آخر شيده السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ — ١٦١٧) وتناثرت المساجد الكبرى فى المدن العثمانية مثل بروسة وأدرنة وغيرها. ويقول أحد الباحثين إن رصد الإعتمادات المالية الضخمة على تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الدينى المتسلط على الرعايا العثمانيين . ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة. ولم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين[٢] .

ولم يكن إهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصوراً على الأقاليم التى كانت مهاداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم، بل امتد هذا الإهتمام إلى الولايات الإسلامية. ففى مصر — على سبيل المثال — كان الباشوات العثمانيون يشيدون — بناء على أوامر تصدر لهم فى غالب الأحيان من إستانبول — مساجد جديدة لاتزال إلى اليوم تحمل مظاهر العمران فى مصر إبان الحكم العثمانى . ونذكر من هذه المساجد : مسجد سليمان باشا فى القلعة (١٥٢٨) ، والمحمودية (١٥٦٧) ، وسنان باشا (١٥٧١) ، والملكة صفية (١٦١٠)[٣] . وكان السلاطين يعهدون إلى الولاة فى مصر بإصلاح

---

(١) بروكلمان كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس، والأستاذ منير البعلبكى . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩ ، ص ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) محمد جميل بيهم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، الطبعة الوطنية ، بيروت ، ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٣) أنظر بخصوص المساجد التى شيدت فى مصر إبان الحكم العثمانى كلا من :

حسن عبد الوهاب باشا . تاريخ المساجد الأثرية . الناشر وزارة الأوقاف بالقاهرة ، مطبعة دار الكتب جزءان ، ١٩٤٦ ج ١ ص ص ٢٩٥ — ٢٩٨ ، ص ص ٣٠٢ — ٣١١ .

دكتور عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى ، مشروع الألف كتاب . مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٢٤ ، و ص ٧٩ .

دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣١٥، وص ٣١٩ .

وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الجامع الأزهر[١] .

التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية :

ووضح الطابع الديني وعمقه في الدولة من حرصها على تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً من ناحية، وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى. فمن الناحية الأولى كانت الدولة تؤكد في شتى المناسبات أنها تلتزم التزاماً دقيقاً بمبادىء الشرع . ونذكر هنا على سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامه الذي وضعه السلطان سليمان المشرع توجت هذا القانون بجملة مميزة وردت في صدره « قانوننامى سلطانى كى شريعى شريفى موافقاتى محرر أولوب» أي «القانون نامة السلطاني الذي يتفق مع الشريعة الشريفة »[٢] .

أما من الناحية الثانية وهي المحافظة على التقاليد الإسلامية، فنذكر على سبيل المثال أيضاً أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان، ولذلك لم يكن يجرؤ أحد ، مهما كان مركزه ، وسواء كان مسلماً أو غير مسلم ، على أن يأكل أو يشرب في مكان عام في أثناء النهار طوال شهر الصيام . كان ضرب هذا الشخص أو تجريسه من الإجراءات الفورية الرادعة التي تتخذ ضده . وكان التجريس عقوبة مقررة ومعترفاً بها . فكانوا يحلقون نصف لحية المذنب ونصف شاربه ، ثم يضعونه على ظهر حمار ، ووجهه متجه إلى ذيل الحمار ، ويقبض بيده على ذنب الحمار ، ويممون هذا الشخص بعصارين ذبيحة أي

---

(١) عبد الجواد صابر إسماعيل : دور الأزهر في مصر إبان الحكم العثماني رسالة أعدت تحت إشراف المؤلف وأجيزت لدرجة الماجستير بتقدير جيد جدا في التاريخ الحديث من قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٧٠، ص ص ٣٣٧ — ٣٤٤ (لم تطبع الرسالة بعد) .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East. Volume 1, Part 1 and Part II. Oxford University Press. 1962. Vol. I Part 1, p. 23, fn., 2.

بأمعائها ، ويضعون على كتفيه كرشها أو جلدها ، ويطوفون على هذه الصورة المنكرة الشوارع والطرقات ، ورجال أشداء يصفعونه ويضربونه بالنعال ، وكانوا يجمعون حوله الصبية يصرخون ليجتمع حوله مزيد من الناس . وكان التجريس يستخدم إذا كان المفطر مسلماً شاباً قوياً صحيح الجسم . وكان يطلق أيضاً على هذه العقوبة التشهير . وكان لا بد أن يعقب إحدى هاتين العقوبتين توقيع عقوبة أخرى هى الزج به فى الترسيم أى الاعتقال[1] . وكانت العقوبة الأخيرة تطبق على المسلم وغير المسلم على حد سواء .

أربع قوافل رسمية لأداء الحج :

تولت الدولة تنظيم الحج إلى الحجاز وأشرفت عليه إشرافاً فعلياً ، واعتبرت هذا العمل واجباً يقع على عاتقها على الرغم من أن الدولة كانت تمارس الحكم فى نطاق ضيق جداً لم يكن يتجاوز بضعة قطاعات ، مثل الإدارة المالية وتشمل جمع الضرائب من الممولين معتمدة على الملتزمين فى الأرياف وشيوخ الطوائف فى المدن ، ثم المحافظة على الأمن العام ، وتنظيم مرفق القضاء . فكانت قلة التدخل الحكومى من أهم مايتصف به الحكم العثمانى[2] . وقد نظرت الدولة إلى الحج على أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامى ، وأن واجب ولى الأمر تيسير الحج أمام الراغبين فى أداء هذه الفريضة .

---

(١) كانت تستخدم فى بعض المراجع كلمة « العرقانة » بنفس معنى الترسيم . والعرقانة سجن يوضع فيه المعتقلون والذين صدرت عليهم أحكام قضائية .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى . بحث فى إحدى وستين صفحة من القطع الكبير نوقش فى الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (٢٧ مارس — ٥ أبريل ١٩٦٩) وطبع فى المجلد الثانى من بحوث الندوة ، ص ص ٦٦٧ — ٧٢٥ .

فأنشأت الآبار على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز وأقامت فى البادية حصونا لحراسة الآبار وشجعت على تشييد الخانات[١]، وأقامت المخافر، وكانت تتحرك كل سنة أربع قوافل حج رئيسية من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة ووفق نظام رتيب وفى رفقة قوة عسكرية يقودها أحد كبار العسكريين يسمى سردار الحج[٢] . وكانت كل قافلة ترأسها شخصية كبيرة تسمى أمير الحج . وكانت هذه القوافل من حيث الأهمية العددية : قافلة الحج الشامى وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكردستان وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان وحجاج إستانبول نفسها ، وكانت أوفر مدن البحر المتوسط سكاناً بعد البندقية . وكان عدد أفراد قافلة الحج الشامى يتراوح فى كل عام بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً . ثم قافلة الحج المصرى

---

(١) خانات جمع خان وهو فندق أو وكالة معدة لاستقبال التجار الأغراب والحجاج وغيرهم من المسافرين . والخان عبارة عن بناء فى وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تسمى الحوش ، ويحيط بهذا الحوش رواق على الجوانب الأربعة ، والرواق مرتفع على أعمدة . وينزل المسافرون فى الدور العلوى ويسمى الطباق (ومفردها طابق) ، والطباق مقسمة الى عدد من الغرف تطل على الحوش الذى يتوسط الخان . وفى الدور الأرضى كان يخصص محل لإيواء الجمال والخيول وغيرها من الحيوانات التى يركبها المسافرون كما كانت توجد فى الدور الأرضى محلات أومخازن تودع فيها بضائع التجار النازلين فى الخان وفى القرن السابع عشر أدخل تعديل على تصميم الخان ، فأصبحت الساحة الداخلية — الحوش — أقل مساحة . وكان الحوش يسقف بالقباب ، فيتحول الى مستودع إضافى لتكون البضائع بأمن من التقلبات الجوية . وكان يوجد بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد . وكان الخان عنصراً حياً فعالا فى حياة المدن فى تلك العصور .

انظر كلا من :

جان سوفاجيه : دمشق الشام . لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ، تعريب فؤاد أفرام البستانى . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ص ٤٢ — ٤٦ .

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤١١ .

(٢) سردار معناها قائد .

وتضم حجيج مصر وشمالى أفريقيا ، ثم قافلة الحج العراق وتضم حجاج العراق وفارس ، ثم قافلة الحج اليمنى وتجمع حجيج اليمن والهند وماليزيا وإندونيسيا وغيرها.

تشجيع التصوف :

وكان من مظاهر الاتجاه الدينى فى سياسة الدولة تشجيع التصوف بين العثمانيين. وقد تركت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأتباع . وانتشرت هذه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً أول الأمر فى آسيا الصغرى ، ثم انتقلت إلى معظم أقاليم الدولة . وقيل فى هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة الرسميين[١].وقد مدت الدولة يد العون المالى إلى بعض الطرق الصوفية ، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القويمة المذهب وفضلتها على غيرها[٢] . وكان من أهم الطرق الصوفية : النقشبندية ، والمولوية ، والبكتاشية ، والرفاعية أو الأحمدية ، والخلوتية ، والكازرونية نسبة إلى المتصوف الإيرانى أبى الإسحاق الكازرونى ، ولذا تسمى أيضا الطريقة الإسحاقية أو المرشدية[٣] . وقد نجم عن تمدد هذه الطرق الصوفية من ناحية وانتشارها من ناحية أخرى أن بدا الطابع الدينى ملحوظاً بل قوياً فى نفوس العثمانيين وامتازت حياتهم الدينية بالحيوية .

---

(١) بروكلمان كارل: الاتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص١٠٤.

(2) Hourani Albert; Tbe Ottoman Bachground of the Mondern Middle East. Essex, England, 1970. p. 8.

(٣) كان أتباع هذه الطريقة يعتنقون مبدأ الدعوة الدينية ومجاهدة الكفار . وقد دخلوا شبه جزيرة الأناضول فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد الغزو المغولى مباشرة ، وزاولوا نشاطهم فى منطقة الإمارات التى كانت قائمة فى غربى الأناضول ، وظفروا بمركز ممتاز فى دوائر الحكومة العثمانية ، وأضفى السلاطين العثمانيون حمايتهم على أتباع هذه الطريقة للاستفادة بهم فى إذكاء الروح الدينية الإسلامية فى تلك المنطقة الحساسة التى كانت مسرحا لعمليات حربية متعاقبة خاضها العثمانيون ضد الكيانات المسيحية .

انظر : محمد فؤاد كوپريلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨

نظام الفتوة :

وإلى جانب الطرق الصوفية وجد فى الدولة نظام الفتوة الذى كان الطابع الإسلامى للفروسية العربية . وكان هذا النظام موجوداً فى الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية، ولكنه أخذ مظهراً جديداً على يد الأتراك العثمانيين . وعرف أفراد هذا النظام بعدة أسماء منها آخيان روم ، والأخية الفتيان ، والآخيات . وكان الاعتقاد السائد بين جمهرة الباحثين إلى عهد قريب أن كلمة آخيان مأخوذة من اللفظة العربية إخوان ، وأن مفرد آخيان هو آخى . ولكن قرر المستشرق الفرنسى دنى J. Deny أن كلمة آخى جاءت من اللفظة التركية آقى بمعنى الرجل الذى يجمع بين الشهامة والكرم ، وأنها ليست مأخوذة من الكلمة العربية أخى[1] . وهذا التفسير أدنى إلى الحقيقة ، لأن هاتين الصفتين . وهما الشهامة والكرم ـ كانتا من أبرز صفات أفراد هذه الجماعة . وقد التقى بهم الرحالة المسلم ابن بطوطة[2] فى جولاته فى الأناضول فى أثناء رحلته الأولى التى كانت أطول وأهم رحلاته الثلاث ، وقد قضى فى رحلته الأولى مايقرب من خمسة وعشرين عاما[3] . وعاصر اثنين من سلاطين الدولة العثمانية هما عثمان الأول (١٢٩٩ — ١٣٢٦) وابنه أورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) . وقد زار ابن بطوطة بلاد الأناضول فى أثناء حكم هذا

(١) محمد فؤاد كوبريلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين وشهرته ابن بطوطة . وقد ولد فى طنجة فى اليوم السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هـ الموافق الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٣٠٤ م وجاز إلى ربه فى مدينة فاس سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ — ١٣٦٩) م . وكان قد توفى على السابعة والستين من العمر . وفى رواية أخرى أنه توفى سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧) م وله من العمر قرابة أربعة وسبعين عاما . وكان إلى وفاته يتولى القضاء فى فاس .

(٣) بدأ ابن بطوطة رحلته الأولى من طنجة مسقط رأسه « فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام » (١٤ يونيو ١٣٢٥ م) ، وأنهاها فى مدينة فاس التى وصل إليها « يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة » (نوفمبر ١٣٤٩) . وقد انتهى من رحلاته الثلاث فى سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٤ م) .

الابن السلطان أورخان . وقابله وقال عنه إنه أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلاداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن ، وهو فى أكثر أوقاته يتفقدها ، ويقيم بكل حصن أياماً لإصلاح شئونه . وقد أعطى ابن بطوطة صورة واضحة للدولة العثمانية فى دور نشأتها ، إذ وصف الإمارات والدويلات التركية المتعددة قبل أن يجمعها كلها الأتراك العثمانيون فى دولة واحدة [1] . ويهمنا فى هذه الدراسة أن ابن بطوطة خالط الإخوان الأتراك ووقف على نظمهم وزواياهم وأسلوبهم فى الحياة ، ثم تحدث عنهم فى كتابه [2] حديثا شائقاً ضافياً تحت اسم الأخية الفتيان [3] . وقال إنهم كانوا مثلا فريداً فى الشهامة والكرم وقضاء الحوائج والوقوف فى وجه الظلم والاقتصاص من الظلمة ومن لحق بهم من أهل الشر . وكانوا يحملون معهم الأسلحة فى حلهم وترحالهم . وذكر أنهم كانوا يتنافسون على استضافة الغريب

(١) دكتور محمد محمود الصياد : رحلة ابن بطوطة . بحث منشور فى « تراث الانسانية » القاهرة ، المجلد الثالث لسنة ١٩٦٥ ، العدد الثانى ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ص ١٠١ — ١١٦ .

(٢) من التجاوز أن نطلق كلمة « كتابه » ، لأنه لم يضع هذا الكتاب ، فإنه لما انتهى من رحلاته الثلاث ، وكان قد أمضى فيها زهاء ثلاثين سنة سائحا فى الأرض ، حط رحاله فى فاس باستدعاء من السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين ليجلس إلى الناس فى تلك المدينة يحدثهم عن مشاهداته فى البلاد التى زارها . وطلب السلطان من أحد موظفيه وهو محمد بن جزى الكلبى أن يدون أحاديث ابن بطوطة . وقضى فى هذا العمل ثلاثة أشهر يستمع إلى الرحالة ويدون ما يقوله . وفرغ من هذا العمل فى الثالث من شهر ذى الحجة سنة ست وخمسين وسبعمائة (ديسمبر ١٣٥٥ م) ويلوح أن هذا التدوين كان مجرد مسودة للرحلة ، وأعاد صياغتها ، « وكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة » (فبراير ١٣٥٦ م) أى أنه أنفق قرابة ثلاثة شهور فى تبييض المسودة ووضعها فى صورتها النهائية ، وأطلق على الكتاب اسم « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

(٣) البيلونى (محمد بن فتح الله بن محمد البيلونى) : المنتقى من رحلة ابن بطوطة الطنجى الأندلسى . وهى مخطوطة محفوظة فى مكتبة الأزهر برقم ٦٣ ٠ ٤٤ ، وتقع فى ٧١ ورقة أى ١٤٢ صفحة . وقد رجعنا إلى هذه المخطوطة التى تناولت أخبار الأخية الفتيان ص ص ١٨ — ٢٨ .

وقد ظهرت عدة طبعات ومختصرات نقلا عن هذه المخطوطة ورجعنا إلى كتابين آخرين أحدهما : « رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » روجعت وصححت على عدة نسخ خطية بمعرفة لجنة من الأدباء سنة ١٩٦٤ م — ١٣٨٣ هـ ، وهى فى جزءين يقعان فى مجلد واحد ، وقد نشرتها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ص ص ١٨١ — ٢٠٩ والكتاب الآخر يسمى « رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وأفريقيا » للأستاذ محمود الشرقاوى . وتقع هذه الطبعة أيضا فى جزءين فى مجلد واحد ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ج ١ ، ص ص ١٥٦ — ١٦٦ .

الوافد إلى بلدتهم . وكان نظام هذه الجماعة أن ينتخب أهل كل صناعة أو مهنة أو حرفة رئيساً لهم يلقب أخي ، ويشترط أن يكون الرئيس وجماعته من الشبان العزاب المتجردين ، ويقدمون رئيسهم عليهم . ويبنى الرئيس زاوية وداراً للضيافة ويشترك الجميع فى نفقاتها وخدمتها ونفقات ضيوفها . ووصف ابن بطوطة زواياهم وقال إنها منتشرة فى طول البلاد وعرضها ، وأنها توجد فى كل مدينة وبلدة وقرية ، كما توجد فى مناطق الحدود . وكانوا يذهبون سويا إلى المسجد فى صلاة الجمعة والعيدين وفى المناسبات الدينية الأخرى ، ويحيطون بحاكم الإقليم أو المدينة ، وكل منهم يحمل سلاحه .

وينكر الأستاذ محمد فؤاد كوپريلى ـ إستناداً إلى النقوش وشواهد القبور والوقفيات والمصادر التاريخية ـ أنهم كانوا جميعاً عزاباً ، ويقرر أن أعداداً كثيفة العدد منهم كانوا متزوجين ، وأنهم كانوا من أرباب الثروات الضخمة والنفوذ العريض ، وأن من بينهم من تقلد المناصب الإدارية العليا . وكان لهم أدوار خطيرة فى تأسيس الدولة العثمانية وفى إنشاء فرق الإنكشارية فى الجيش . وكان السلاطين العثمانيون وكبار القادة ينزلونهم منازل التكريم [١] .

وقد اختلط أفراد هذه الطائفة بطوائف الصناع فى المدن ، واتصلوا بأصحاب الأراضى فى الريف اتصالا وثيقاً ، ثم انضم إليهم عدد من رجال الدولة فى الأناضول ، ومن القضاة والتجار والمشايخ الذين ينتمون إلى طرق صوفية شتى . والتحق هؤلاء وأولئك بزوايا الآخيان . واختلط الأمر على كثير من الباحثين ، فذهب بعضهم إلى أن الآخيان كانوا يشكلون منظمة لأرباب الحرف ، واعتقد البعض الآخر أنهم كانوا إحدى الطرق الصوفية . ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن أفراد طائفة الآخيان قد اصطبغوا بالطابع الصوفى ، ولكنهم لم يشكلوا طريقة صوفية خاصة بهم . وجدير بالذكر أنهم كانوا يعتنقون المذهب السنى . ولم

---

(١) محمد فؤاد كوپريلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٥٩ — ١٦٢ .

يكن فى استطاعتهم اعتناق المذهب الشيعى لأنهم كانوا يخضعون لرقابة الدولة . وكانت السلطات العثمانية متعصبة جد التعصب للمذهب السنى وقد زاد تعصبها لهذا المذهب حدة طول صراعها مع الدولة الصفوية فى فارس.

اختيار اسم إسلامى بدلاً من القسطنطينية :

ومما تجدر الإشارة إليه — ونحن نتكلم عن الطابع الدينى للدولة العثمانية ـ التسمية الإسلامية التى أطلقها السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية عقب استيلائه عليها فى ٢٩ من مايو ١٤٥٣، فقد استبدل بهذا الاسم اسماً جديداً هو إستانبول[١]، وهى كلمة تركية معناها دار الإسلام . ولا يخفى المغزى الدينى لهذا الاسم الإسلامى الذى أطلقه السلطان على عاصمة دينية وسياسية ظلت قروناً وأعصراً وأدهاراً مقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ـ اليونانية — تهفو إليها قلوب الملايين من أتباع هذه الكنيسة ، كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ أن أنشئت سنة ٣٣٠ م على يد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧)[٢] وظلت القسطنطينية قلعة حصينة صمدت فى وجه المسلمين الأوائل وحالت دون امتداد الفتوح الإسلامية إلى شرق أوروبا حتى جاء الزحف العسكرى العثمانى يطرق بشدة ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية منـــذ مطلع القرن الرابع عشر. واستولى العثمانيون على هذه العاصمة التى كانت يونانية الحضارة واللغة والتراث ، أرثوذكسية المذهب الدينى . ولم يشأ السلطان محمد الفاتح أن يطلق اسمه أو اسم أحد من أسلافه على هذه المدينة على الرغم من أنه كان يملك القدرة على مثل هذا

---

(١) تكتب فى بعض المراجع إستامبول تارة وإسلامبول تارة أخرى .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جزءان، الجزء الأول : التاريخ السياسى ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ، ص ص ٢٠ — ٢١ .

التغيير، ولكنه اكتفى بتغيير اسمها وجعله اسماً إسلامياً، وقدم بنقل عاصمة دولته إليها. وهذان التغييران كانا أبلغ من أى تغيير آخر .

تقليد دينى عند إرتقاء السلاطين العرش :

استن سلاطين الدولة تقليداً دينياً عقب فتح القسطنطينية وإطلاق الاسم الإسلامى «إستانبول» عليها . كان السلطان محمد الفاتح فى قمة ابتهاجه بهذا النصر العظيم الذى حققه بإستيلائه على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وتقديراً منه للدور الذى قام به الصحابى أبى أيوب الأنصارى أحد قادة الجيش الأموى الذى زحف على القسطنطينية سنة ٦٧٠م على عهد يزيد بن معاوية لفتحها واستشهد فى عمليات الحصار وكان كشف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح هذه العاصمة البيزنطية بأيام قد أدى إلى تفجير الشعور الدينى الإسلامى لدى الجيش العثمانى المهاجم — رأى هذا السلطان أن يشيد مسجداً بالقرب من ضريح الشهيد أبى أيوب الأنصارى ، وازدان هذا المسجد بالرخام الأبيض . وإلى جانب هذا المسجد، وفى مقام الشهيد أبى أيوب الذى لا يعدو أن يكون بناء مربعاً بسيطاً تعلوه قبة، كان يقام حفل دينى رسمى عقب إعتلاء كل سلطان جديد العرش. فكان السلطان يذهب فى موكب رسمى حافل إلى هذا المسجد، ثم يدلف إلى ضريح أبى أيوب الأنصارى. وفى جو دينى عابق كان السلطان الجديد يتسلم من يد شيخ الطريقة المولوية ـ بيوك چلبى ـ سيف السلطان عثمان الأول الجد الكبير للسلاطين العثمانيين [٢] .

- اهتمام عميق بالحجاز:

ويبرز الطابع الدينى للدولة فى اهتمامها الكبير بإقليم الحجاز منذ أن غدا ولاية عثمانية . فكانت تبعية الحجاز للدولة قد أضفت عليها مركزاً دينياً مرموقاً فى جميع

---

(١) انظر فصلا فى هذه الدراسة بعنوان فتح القسطنطينية .

(٢) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

أرجاء العالم الإسلامى على أساس أن هـــذه الولاية تضم أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض. وتجلى هذا الاهتمام فى عدة امتيازات قررها السلطان سليم الأول وهو لايزال فى القاهرة لولاية الحجاز دون سائر الولايات العثمانية . وسار على هذا النهج السلاطين العثمانيون الذين تربعوا على عرش الدولة من بعده، وعملوا على دعم هذه الامتيازات بحيث أصبح فى حكم الاستحالة المساس بها . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبى ، فكان الحجاز لايقدم جزية سنوية للدولة على الرغم من أن السلطان كان يحرص على فرض هذا الالتزام على معظم الولايات العثمانية، أما ولاية الحجاز فكانت تتلقى كل عام اعتمادات مالية ضخمة ترصد فى ميزانية الحكومة المصرية [1] . وقد أمر السلطان سليم الأول بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة للحجاز ، كما أمر بأن تتحمل الحكومة المصرية هذه الالتزامات القديمة والمستحدثة . وكان يطلق عليها المصطلح التاريخى «الصرة» وترسل مع قافلة الحج المصرى . وكان إرسال « الصرة » إلى الحجاز يعد من أهم واجبات الباشا العثمانى فى مصر، ويحاسب حساباً عسيراً إذا قصر فى إرسالها . وإلى جانب إعفاء الحجاز ـ كولاية عثمانية ـ من دفع الجزية للدولة تمتع أهل الحجاز ـ من قبيل الرعاية لهم ـ بالإعفاء الضريبى من معظم الضرائب الشخصية والعقارية سوى ضرائب على أصحاب الأغنام والجمال [2] . وتمتع سكان الحجاز أيضاً بالإعفاء من التجنيد أو الخدمة العسكرية، كما أبقت الدولة على الحكم الذاتى

---

(١) كانت هـــذه الاعتمادات تتكون أساساً من حصيلة الأراضى الزراعية وغيرها من العقارات الثابتة التى أوقفها أهل البذل من المسلمين فى مصر زلفى إلى الله لتصرف على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى الأشراف وغيرهم من سكان مدن الحجاز . وبجانب الأموال السائلة كانت تشحن إلى الحجاز كميات من القمح والذرة والأرز .

(٢) انظر كلا من :

حسين بن محمد نصيف : ماضى الحجاز وحاضره. جدة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠ـ١٩٣١م) ص ٩٤ .

حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين . الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)، ص ١٥٢ .

الذى كان يتمثل فى نظام الشرافة وأقامت بجانبه نظاما مدنيا .[١]

لقبان دينيان :

اهتم سلاطين الدولة العثمانية اهتماماً عظيماً للغاية بإبراز لقبين دينيين من بين ألقابهم العديدة ، إذ كان هذان اللقبان يضفيان على سلاطين آل عثمان صبغة دينية لها بريقها ووزنها فى أرجاء العالم الإسلامى . كان أولها لقب « حامى حمى الحرمين الشريفين » أو « خادم الحرمين الشريفين » وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان سليم ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز . وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى . وكان مرد اهتمامهم بهذا اللقب إلى تأكيد زعامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامى ، بعد أن انتصر العثمانيون على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة تشالديران (٢٢ من أغسطس ١٥١٤) ودخلوا تبريز عاصمة فارس التى هبطت إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبعد أن قضى العثمانيون بعد ذلك على دولة المماليك البرجية واستولوا على الشام ثم مصر ، وبعد أن دخل إقليم الحجاز تحت السيادة العثمانية سنة ١٥١٧ وأصبح ولاية عثمانية تضم أهم الأماكن الإسلامية المقدسة يجتمع فوق ثراها كل عام حشود إسلامية كثيفة العدد يأتى أفرادها من كل فج عميق يؤدون فريضة الحج ويشهدون منافع لهم فى بلاد تابعة للدولة العثمانية . ومنذ ذلك الوقت برز فى الدولة الطابع الدينى الإسلامى بروزاً قوياً للغاية ، واشتد هـذا الطابع الدينى كلما مضت السنون فى القرون التالية .

---

(١) أنظر كلا من :

امين سعيد : الثورة العربية الكبرى تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن ، ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، النضال بين العرب والترك . القاهرة ، مطابع عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ١٩٣٤ ص ١٠٤ دكتور سيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ — ١٩٠٩ ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠١ .

أما اللقب الديني الآخر الذى اهتم به سلاطين الدولة فهو لقب خليفة ، وقد بدأ اهتمامهم به فى القرن الثامن عشر واشتد هذا الاهتمام فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . واتخذوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والمكانة وسيلة لمقاومة ضغط الدول الأوروبية الاستعمارية عليها ، وبخاصة الدول التى كان لها رعايا مسلمون مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا . وكان السلاطين يهددون بتحريك هؤلاء الرعايا المسلمين ضد حكومات دولهم الأوروبية عن طريق إعلان الجهاد الديني ، وهو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر . وسنعرض لهذه المسألة فى موطن قادم عند الكلام عن موضوع « الخلافة العثمانية وعلاقتها بتاريخ أوروبا الحديث ». وحسبنا أن نذكر هنا أنه بإلصاق لقب خليفة بالسلطان العثماني — وهو إلصاق متعمد هادف — نستطيع أن نقول إنه أصبح لرئيس الدولة العثمانية لقبان : لقب مدنى هو السلطان ، ولقب ديني هو الخليفة .

رأى الجبرتى فى الدولة العثمانية :

والمؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتى — كأحد كبار رجال الفكر الإسلامى — يستهويه الطابع الدينى البارز فى سياسة الدولة العثمانية ، فيتكلم بإعجاب ، وفى عبارات مسجعة عن اهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم المالك والمملوك » [1] .

نظام الملل :

والدولة العثمانية دولة دينية لأن رعاياها غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام

---

(١) الجبرتى الشيخ عبد الرحمن : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء ، ج ١ ، ص ٢١ .

الملل ، وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذى يدين به هؤلاء الرعايا . وكان يطلق على كل مذهب ديني « ملة » . وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر فى المسائل الدينية ؛ ويقوم ـ مستعيناً ببعض مساعدين من رجال الدين المسيحى ـ بالفصل فى قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بأتباع هذه الملة دون تدخل من جانب الدولة التى تركت لرئيس كل ملة ممارسة هذا الاختصاص . وقد منح نظام الملل الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً . وكان الروم الأرثوذكس ـ أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية ـ أهم ملة غير إسلامية فى الدولة العثمانية . ويندرج تحت هذا الاسم اليونانيون والبلغار وسكان البوسنة والهرسك والجبل الأسود وبعض الألبانيين وغيرهم. وكان مقر رئيس هذه الهيئة فى إستانبول، ويسمى البطريرك، ويطلق عليه أيضاً بطريرك الفنار نسبة إلى حى الفنار، وهو أحد أحياء العاصمة ، وكان يقوم فيه مبنى البطريركية. وكانت تسكن هذا الحى عائلات يونانية عريقة تتمثل فيها أرستقراطية المال والثقافة والمجد الأصيل، ويسمون «الفناريون» Les phanariotes وكانوا يختلفون عن اليونانيين الموجودين فى شبه جزيرة البلقان . ولما كان البطريرك يونانياً ، فقد احتكر اليونانيون عامة السيادة الروحية على الشعوب التى تدين بمذهبهم مثل الصرب والبلغار وغيرهم . وكانت الملة الثانية هى ملة الروم الكاثوليك ، وكانوا أقل شأناً من الروم الأرثوذكس ، ثم الملة الثالثة وهى ملة الأرمن ، وأخيراً ملة اليهود .

ويتعارض نظام الملل مع فكرة الدولة الحديثة التى تنظر إلى رعاياها على أساس المساواة فى الحقوق والواجبات بغض النظر عن دياناتهم . ولكن كانت التفرقة الدينية موجودة فى تلك القرون فى كافة أنحاء العالم . ومع ذلك فقد كانت الدولة العثمانية متقدمة عن الدول الأوروبية المعاصرة لها ، لأنها كانت تسمح بوجود ديانتين هما المسيحية واليهودية ومذاهب دينية مختلفة وعديدة فى بلادها

بجانب الدين الإسلامى . وسنتناول هذا الموضوع بشىء من التفصيل عند الـكلام على الطابع العالمى للدولة .

فقرتان من وثيقتين :

ونقتبس هنا فقرتين جاءتا فى وثيقتين من الوثائق الرسمية التى صدرت عن الدولة العثمانية. جاءت الفقرة الأولى فى الوثيقة المعروفة باسم خطى شريف جلخانة وقد صدرت هذه الوثيقة فى سنة ١٨٣٩ وجاء فيهـا « إن الدولة كانت تراعى الأحكام الشرعية فبلغت قمة المجد • ومنذ مائة وخمسين سنة أهملت الإدارة الشرعية بسبب النوائل وما عرض من حوادث ٠٠ »[١]

أما الفقرة الثانية فجاءت فى الوثيقة المعروفة باسم خطى همايونى. وقد صدرت هذه الوثيقة فى سنة ١٨٥٦ وكان مما ورد فيها « لايخفى أنه منذ ابتـــداء ظهور دولتنا العلية كانت الأحـكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفـة فى غاية المراعاة الـكاملة ، ولذلك كانت قوة سلطنتنا السنية وثبوتها معراحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد فى غاية ما يكون من الـكمال . ولـكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ماطرأ عليها من الحوادث الـكثيرة • ولهذا تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى التعب ، والعمار إلى الدثار، وأية مملـكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول إلى الاضمحلال . . . » [٢] .

تدل هاتان الفقرتان على الطابع الدينى الإسلامى الأصيل فى الدولة العثمانية • فإن السلطان الذى أصدرهما — وهو عبد المجيد الأول (١٨٣٩ — ١٨٦١)— كان يتفق رأياً مـع كبـار رجال حـكومته على أن المجد الذى حققته الدولة

---

(١) دكتور عبد الـكريم غرايبة : سوريا فى القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٦١ — ١٩٦٢ ، ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٨ — ٣١ .

فى عصورها الذهبية إنما مرده إلى التزامها بمبادىء الشريعة الإسلامية، وأنها إذا كان قد أصابها وهن أو « اضمحلال » خلال القرن التاسع عشر فلأنها أهملت لسبب أو لآخر تطبيق مبادىء الشريعة . وقد جاءت الفقرة الثانية أكثر إيضاحا وتفصيلا : فهى تقرر أن الدولة التزمت التزاماً دقيقاً بأحكام الشريعة ، وأن حرصها على اتباع أحكام القرآن الكريم لد صاحب نشأة الدولة ، وأن هذا الحرص قد أدى إلى النتائج التالية : قوة الدولة العثمانية ، استقرارها ، راحة الرعايا ورفاهيتهم ، عمران البلاد . ولما باعدت الدولة بينها وبين تطبيق المبادىء الإسلامية تحولت قوة الدولة إلى ضعف ، وراحة السكان إلى متاعب ، كما توقفت مشروعات الإصلاح والتعمير ، واندثر بعضها . ثم تخلص الفقرة إلى حكم عام شامل تقول فيه إن الدولة التى تبتعد عن الأخذ بمبادىء الشريعة ولا تطبق قوانينها يكون مآلها الاضمحلال . وسنعرض للوثيقين اللتين اشتملتا على هاتين الفقرتين فى الفصل التالى عند الكلام على الخصيصة الثالثة للدولة العثمانية وهى أنها دولة عالمية .

الجامعة الإسلامية :

والدولة العثمانية هى التى احتضنت حركة الجامعة الإسلامية فى القرن التاسع عشر ، وهى حركة كان قد تنادى إليها السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) ، وكانت تدعو إلى وحدة الصف الإسلامى فى محتواه الكبير : شعوباً وحكومات . فى مشارق الأرض وفى مغاربها ، والوقوف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً حول الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية فى العالم فى ذلك الوقت. ولم تستهدف هذه الحركة التفوق السياسى أو السيطرة على العالم أو سيادة الجنس أو اللغة ، ولكن كان غرضها تخليص العالم الإسلامى مما يئن منه من سيطرة أجنبية مسيحية ، وتدخل أوروبى، وأزمات سياسية، واختناقات مالية ، ونهب ثرواته، واستغلال شعوبه . ويلاحظ أن حركة الجامعة الإسلامية عاصرت حركتين أخريين فى العالم المسيحى هما : حركة الجامعة الصقلبية وحركة الجامعة الجرمانية فى

أوروبا[1]، ويلاحظ أيضاً أن حركة الجامعة الإسلامية أعم وأشمل من حركة القومية العربية التي تنادى إليها فريق من القوميين المسيحيين فى بلاد الشام رداً على حركة الجامعة الإسلامية. ومهما قيل فى بواعث وأهداف حركة الجامعة الإسلامية، فإن الدولة العثمانية باحتضانها هذه الحركة كانت رمزاً حياً مجسداً للتضامن الإسلامى للوقوف فى وجه الزحف الأوروبى الاستعمارى على العالم الإسلامى.

وقد أفصح أحد الباحثين الأمريكيين — وهو لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard — عن الضرورة الملحة التى كانت تتطلب من المسلمين الاستجابه لحركة الجامعة الإسلامية. فقال إن العالم المسيحى على اختلاف شعوبه تسوده روح صليبية وتعصب دينى عميق. ويريد تحطيم الدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية، ويريد أيضاً سحق الإسلام. ومضى يقول إن الدول المسيحية فى عدائها وحقدها على الدول الإسلامية تلجأ إلى العدوان المسلح ابتغاء إذلال الدول الإسلامية، كما تعمل دائماً على القضاء على كل حركة إصلاحية يحاولها المسلمون فى بلادهم. وكان مما جاء فى كتابه وهو يبسط آراءه فى موقف المسيحيين الغربيين من دول الشرق بعامة والدول الإسلامية بخاصة « العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه، عرقاً وجنسية، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم، وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ». ويمضى فى كتابه

---

(١) كانت حركة الجامعة الصقلبية تسعى لضم جميع صقالبة أوروبا على اختلاف حضاراتهم ومذاهبهم للتخلص من السيطرة العثمانية والنفوذ الألمانى، ثم تكوين كتلة حضارية سياسية فى شرقى أوروبا ووسطها تقوى على مناهضة غرب أوروبا وتسعى لتحقيق آمال الروسيا فى التفوق.

أما حركة الجامعة الجرمانية فعملت على تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية تعمل أولا للسيطرة على وسط أوروبا ثم على بقية أجزائها، وتقف سداً منيعاً أمام فرنسا من جانب، وأمام الصقالبة من جانب آخر، وتفرض رغباتها على الاثنين.

انظر :

دكتور محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه. القاهرة، ١٩٥٢، دار الفكر العربى، ص ص ١٧ — ١٨.

يقول « والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك[1] من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت ... وجميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً » . ويختتم عرض آرائه بقوله « جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته »[2] .

---

(١) كان بطرس الناسك أحد الدعاة لمشروع الحروب الصليبية أخذ يطوف فى أوروبا بعد المجلس العام الذى عقده البابا اربان الثانى Urban II فى كليرمنت Clermant بجنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ وناقش ضرورة إنقاذ بيت المقدس من المسلمين ! ! وكان بطرس فى خواطره يحث المسيحيين على محاربة المسلمين . وكان رجلا طاعنا فى السن ، على حظ موفور من القدرة على الخطابة وكانت فصاحته وهيئته الغريبة : بثيابه المهلهلة ، وبقدمية العاريتين ، وحماره الأعرج ، جعلتا منه شخصية ذات تأثير على جماهير العامة والدهماء فى غرب أوروبا ونجح فى جمع حشود آدمية كثيفة العدد من الرعاع وخريجى السجون والأشقياء والرقيق . واصطحب كثير منهم نساءهم وأطفالهم . واقترفوا فى طريقهم إلى الشرق جرائم منكرة جعلت سكان المجر ورعايا الدولة البيزنطية يثورون عليهم ووصلوا إلى القسطنطينية . وسارع امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بمساعدتهم على العبور إلى آسيا الصغرى رغبة فى التخلص منهم . وكان عددهم ثلاثمائة ألف رجل . فقابلهم الأتراك السلاجقة فى نيقيا وأوقعوا بهم هزيمة منكرة . ويعتبر بطرس الناسك هو المسئول عن هذه الحملة الحمقاء .

انظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية . جزءان ، ١٩٦٣ ، الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . ج ١ ، ص ص ١٣٥ — ١٤٠ .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى . ترجمة عجاج نويهض . وتعليق الأمير شكيب أرسلان . جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ ج ١ ، ص ص ١٢٧ — ١٣٨ .

الاتحاديون يتمسحون بالشعار الديني :

وقد ظل الطابع الديني الإسلامي ملحوظاً في الدولة على الرغم من أن قادة انقلاب سنة ١٩٠٩ — وهم أعضاء جماعة الاتحاد والترقي ومعظمهم من ضباط الجيش — كانوا قد ابتعدوا عن الخط الإسلامي الواضح ، وتخبطوا بين حركة الجامعة العثمانية(١) وحركة التتريك(٢) والحركة الطورانية(٣)،وأمعنوا في الأخذ بنظام الحكم المركزي الذي وجدوه قائماً حين جاءوا إلى الحكم ، ثم محاولتهم تحطيم نظام الشرافة في الحجاز . حتى إذا داهمهم العدوان الاستعماري الإيطالي على طرابلس الغرب في سنة ١٩١١ عادوا يرفعون شعار الجامعة الإسلامية ابتغاء

---

(١) الجامعة العثمانية تهدف إلى صبغ القوميات المختلفة في داخل الدولة بالصبغة العثمانية أو ما يسمى عثمنة القوميات : فالكل عثمانيون لا فرق بين عرب وأتراك وأكراد وألبان وأرمن . وتطبيق حركة الجامعة العثمانية يؤدي إلى كبت القوميات الخاضعة للدولة العثمانية وحملها على التخلي عن أمانيها القومية . ويشبه أحد المؤرخين حركة الجامعة العثمانية ببنيان يقام على الرمال .

انظر :

Kedourie, Elie; England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire. 1914—1921. London. 1956. p. 59.

(٢) التتريك هو صبغ جميع ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية بالصبغة التركية وفرض اللغة التركية لغة رسمية في المدارس والمحاكم وترجيح مصالح الأتراك بغض النظر عن الإضرار بالرعايا غير الأتراك . وتطبيق سياسة التتريك يؤدي إلى حكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركي ، وتكون الدولة العثمانية دولة تركية لا عثمانية . وقد تطرف فريق من الأتراك فدعوا إلى إزالة أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ووضع أسماء السلاطين العثمانيين الأوائل عليها مثل سليم وسليمان وغيرهما . وقد ظهرت هذه الحركة عقب الحرب البلقانية الأولى .

(٣) الحركة الطورانية تقوم على أن الشعب التركي ينتسب إلى أصول طورانية ، وأن السبيل لبعث الجنس التركي يكمن في اتحاده من جديد مع الشعوب التي تمت إليه بصلة القربى من السلالة الطورانية . وكانت الحركة الطورانية تدعو إلى إحياء أمجاد الأتراك الأوائل وربط الأتراك المعاصرين بتراثهم الحضاري القديم والدعوة إلى تخليص التراث الفكري التركي من المؤثرات الفارسية والعربية التي دخلت عليه . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تأسيس الأكاديمية التركية سنة ١٩١٣ وإلى ترجمة القرآن إلى اللغة التركية . وظهرت الدعوة إلى إنشاء لغة جديدة وأدب جديد وأنشىء اتحاد « يني لسان » أي اللغة الجديدة ، وتبعه اتحاد « يني حياة » أي الحياة الجديدة . ولم يلبث أن اندمج هذان الاتحادان في اتحاد واحد . وقد لقيت

الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية فى العالم واستثارة العاطفة الدينية الإسلامية فى نفوس هذه الشعوب وحكوماتها وهيئاتها وجمعياتها كى تسارع إلى دعم القوات العثمانية — أو المجاهدين كما كان يطلق عليهم — بالمال والأنفس والسلاح والمواد التموينية والمساعدات الطبية لجرحى هؤلاء المجاهدين .

الطابع الدينى فى الحرب العالمية الأولى :

وفى أقل من ثلاث سنوات برز الطابع الدينى الإسلامى للدولة مرة أخرى واضحاً قوياً عقب دخول الدولة الحرب العالمية الأولى فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب دولتى الوسط ـ ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية ـ ضد الروسيا وبريطانيا وفرنسا[1] . ولم تكد تمر ساعات معدودات على دخول

=كلمة «طوران» انتشاراً واسعاً فى الأوساط الرسمية والشعبية حتى أصبحت محلات الحلاقة والمطاعم والفنادق تحمل اسم طوران . وتغنى الصحفيون والمفكرون والكتاب ومن إليهم بطورانيتهم. وقد ظهرت الحركة الطورانية عقب الحرب البلقانية الثانية (١٩١٢ـ ١٩١٣). ومما هو جدير بالذكر أن الحركة القومية التركية الحديثة والجمهورية التركية المعاصرة استمدتا الكثير من مبادىء الحركة الطورانية .

انظر كلا من :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٥١ — ٥٨ .

توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى (١٩٠٨ — ١٩١٤) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ص ٥٨٢ — ٦١٠ .

دكتور محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى . دار الفكر العربى . القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٢٢ — ١٢٩ .

(١) اشتعلت الحرب العالمية الأولى فى ٢٨ من يوليو (تموز) ١٩١٤ حين زحف الجيش النمساوى على بلغراد ، وسارعت ألمانيا فى ٢ من أغسطس (آب) إلى إعلان الحرب على فرنسا وروسيا ، ودخلت بريطانيا الحرب فى منتصف ليلة ٤/٥ أغسطس وتتابع دخول الدول فى هذه الحرب . وتظاهرت تركيا وقتذاك بالحيدة ، ولكن كانت كل الدلائل تشير إلى أنها ستدخل الحرب وشيكا إلى جانب ألمانيا . وكان أنور باشا وزير الحربية التركى قد اقترح فى الثانى والعشرين=

تركيا الحرب حتى صدرت فتوى من شيخ الإسلام فى إستانبول ، ثم لحقت بها فتوى أصدرها السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ — ١٩١٨) بصفته خليفة، ثم أعقبتها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الكبرى[1] والدراسة التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث توضح عدة حقائق تؤكد رغبة الاتحاديين فى إبراز الطابع الدينى للدولة ، منها :

أولا : إن هذه الفتاوى الثلاث موجهة إلى جميع المسلمين فى بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول « عدوة الإسلام »،وهى الروسيا وبريطانيا وفرنسا أو غير هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم.

ثانياً : إن الحرب التى تخوضها الدولة هى حرب دينيه تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين ، والدفاع عن الدولة، وأنه قد وضح — بما لا يدع مجالا للشك — أن النصارى من أعداء الإسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام، لأن الدولة العثمانية هى دولة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الإسلام .

ثالثاً : دعوة جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الاتحاد والاشتراك

= من شهر يوليو (تموز) ١٩١٤ على البارون فون وانجنهايم Baron von Wangenheim السفير الألمانى فى إستانبول عقد معاهدة تحالف مع ألمانيا، وقد وقعت فى اليوم الثانى من أغسطس (آب) ١٩١٤ واتفقت الدولتان على أن تظل المعاهدة سرية وفى ذات اليوم أعلنت الحكومة التركية التعبئة العامة. وتم الاتفاق بين تركيا وألمانيا والإمبراطوريه النمساوية المجرية على أن تلتزم تركيا الحيدة حتى نهاية شهر أكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٤ . وفى نفس الوقت كانت البعثة العسكرية الألمانية تباشر عملها فى تركيا واعتبرت مسئولة عن قيادة الجيش التركى . وكانت هذه البعثة تحت رياسة الجنرال ليمان فون ساندرز General Liman von Sanders وكان قد شغل منصب المفتش العام للجيش التركى منذ يناير (كانون الثانى) ١٩١٤ .

Hurewitz J.C.; Diplomacy in the Near and Middle East. 2 vols. vol 1 (1535—1914) vol. II (1914—1956) New York, 1956. vol II, pp. 1—2.

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب . تاريخ حركة العرب القومية ، تقديم دكتور نبيه أمين فارس، وتعريب دكتور ناصر الدين الأسد ودكتور إحسان عباس. بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، الناشر ، دار العلم للملايين ، ص ٢٢٢ .

فى الدفاع عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينـة المنورة والقدس الشريف .

رابعاً : إن الجهاد الدينى فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر . وعلى المسلمين أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها تلك الفتاوى الشريفة .

خامساً : إن الدولة استهدفت إثارة الشعور الدينى فى جميع أنحاء العالم الإسلامى على بريطانيا وحليفاتها .

حرب المنشورات الدينية :

وعكفت الحكومة التركية بالتعاون مع المستشرقين الألمان على طبع تلك الفتاوى الثلاث مع تعليقات دينية عليها فى كتيبات ومنشورات للتأثير فى الجماهير التى تعتنق الإسلام. وكتبت بجميع اللغات التى كان يتكلم بها المسلمون فى أنحاء العالم الإسلامى . وهربت إلى مصر والسودان والهند وفارس وأفغانستان وماوراءها فضلا عن نيابات شمالى أفريقيا . واختلف أسلوب هذه الكتيبات والمنشورات: كان بعضها يحرض الجنود على الهرب من جيوش بريطانيا وحليفاتها ، وبعضها يدعو إلى القتل والاغتيال وغيرهما من الاعتداءات الفردية ، وبعضها كان يطلب من المسلمين الامتناع عن تقديم أية مساعدة للدول عدوة الإسلام حتى حينما يكونون معرضين لعقوبة الإعدام . ولكن كانت جميع هذه المنشورات تتفق فى إبراز فكرة واحدة ، هى : أن الإسلام معرض للأخطار بسبب أطماع بريطانيا وحليفاتها ، وأن الجهاد فى سبيل الدفاع عن الإسلام إنما هو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر .

إيفاد بعوث دينية إلى العالم الإسلامى :

وعمدت الحكومة التركية إلى إيفاد بعوث دينية تؤيد بالقول واللسان ماتضمنته الكتيبات والمنشورات والبلاغات الرسمية كى يكون لها مزيد من التأثير فى نفوس

المسلمين . وكان الرسل من شتى الفئات : كان من بينهم وعاظ متجولون ، وعلماء ذوو ثقافة دينية ، ومحرضون محترفون ، انتشروا فى جميع البـــلاد التى كان فى استطاعتهم التسلل إليها، فدخلوا الأقاليم الأفريقية التى كانت تحت حكم بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر ، كما ركزوا جهودهم على الشعوب الإسلامية من غير الأتراك رغبة فى استمالتها إلى تلبية دعوة الجهاد الدينى . فمدوا نشاطهم الدعائى إلى الهنود والأفغـان والإيرانيين ، وفى مقدمة هؤلاء العرب تطلب منهم المسارعة إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة .

تلهف الدولة على استصدار إعلان دينى من الشريف الحسين :

وحرصاً على إضفاء مزيد من الطابع الدينى على هذه الحرب طلبت الدولة من الشريف الحسين بن على أمير مكة وشريفها أن يصدر إعلاناً عاماً يوجهه إلى العالم الإسلامى قاطبة يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد الدينى ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث التى صدرت عن إستانبول . ولـكن الشريف أحجم عن الاستجابة لهذا الطلب . وضغطت عليه الحـكومة فى إستانبول ضغطـاً لا هوادة فيه . وانهالت عليه البرقيات والرسائل من العاصمة : من سعيد حليم باشا الصدر الأعظم، وأنور باشا وزير الحربية، وطلعت باشا وزير الداخلية وغيرهم من أعضاء الوزارة ، كما أخذ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع فى دمشق[1] يحث

(١) توجد شخصيتان عسكريتان تحمل كل منهما اسم جمال باشا . أولهما أحمد جمال باشا الذى ورد ذكره فى المتن. وقد كان وزيراً البحرية فى الوزارة العثمانية وعضواً بارزاً فى جمعية الاتحاد والترقى. ووقع عليه الاختيار ليقود الحملة العسكرية على مصر لإجلاء الإنجليز عنها. وقد منح من السلطات بحـكم القانون العسكرى ما أصبح بمقتضاها رئيساً للحكومة فى بلاد الشام وقائداً عاماً للجيش الرابع . وقد وصل دمشق فى الخامس من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٤ ودخـل دمشق فى موكب رسمى . واتخذها مقراً لقيادته . وكان لايشاطر زملاءه فى الأخذ باتجاهات الحركة الطورانية ، بل كان يؤمن بالتضامن الإسلامى . واعتزم فى أول الأمر كسب الرعايا العرب إلى جانب الدولة واستمالة المسلمين إلى المشاركة الفعالة فى الجهاد الدينى ضد بريطانيا وحليفاتها .

=

الشريف الحسين على أن يصدر إعلاناً بالجهاد الديني ، وأن يبعث إلى دمشق راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يحشد جيشاً من قبائل الحجاز . وهكذا أظهرت الدوائر العليا في الدولة تلهفاً على استصدار إعلان الجهاد الديني من الشريف الحسين وكان مرد هذا التلهف إلى المكانة الدينية الفريدة التي كان يتبوؤها الحسين. ويقول أحد الباحثين إن مكانته « لاتعادلها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي ، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه أيضاً . وبينما كانت سلطة جيرانه[1] محصورة في نطاق أراضيهم ، فإن سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ، ويمتد صوته إلى الجموع الغفيرة من سكان العالم الإسلامي ، فهو حفيد النبي والقيم على الأماكن المقدسة . وهذان الأمران اللذان يستوجبان التبجيل وضعاه في منزلة يتفرد بها ولا يطاوله فيها أحد ، بلغت من الرفعة بحيث كان يستطيع أن ينازع سلطان الخليفة نفسه في الشئون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين ، فقد كان أمير مكة ، حاضرة الإسلام ومثابته ، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصم أذنيه عن ندائه ، وخاصة إذا كان مسلماً عربياً. وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس أن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر. وهكذا فإن مؤازرته — في أمر كالدعوة للجهاد — كانت عاملا مهماً بل عاملا حاسماً ، ولذلك كان الأتراك يسعون بلهفة إلى الحصـــول على هذه المؤازرة[2] ». ونضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر هو أن رجالات الدولة في إستانبول كانوا

= أما الشخصية العسكرية الأخرى التي تحمل اسم جمال باشا فهي شخصية محمد جمال باشا . وكان معاصراً لسميه ، وكان قائداً للجيش الثامن في خلال هذه الحرب. وكان مركزه معان. وإذا ذكر اسم جمال باشا فيكون المقصود هو أحمد جمال باشا .

(١) نذكر من بين هؤلاء الجيران : ابن سعود في نجد، الإمام يحيى في اليمن ، ومحمد الإدريسي في عسير ، ومبارك آل الصباح في الكويت ، وابن الرشيد في شمر .

(٢) جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

يدركون جيداً أن الدعوة الوهابية[1] فى شبه الجزيرة العربية ، والثورة المهدية فى السودان ، والمقاومة الإسلامية العنيفة التى لقيها الاستعمار الأوروبى فى الجزائر وتونس والمغرب وطرابلس قد أظهرت أن استخدام الدافع الدينى فى الدعوة إلى الحرب لايزال يحتفظ بقوته القديمة ومقدرته على إثارة النفوس ضد الاستعمار المسيحى . ولكن الشريف الحسين كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، إذ كان فى مفترق الطرق . فهو يفكر فى القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادرة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم العثمانى . وكان قد

---

(١) لا تدل كلمة « الوهابيين » دلالة صحيحة على الحركة الإصلاحية التى نادى إليها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩١) فى إقليم نجد بشبه الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهى أولى الحركات الإصلاحية التى ظهرت فى الدولة العثمانية ، وبعبارة أكثر دقة ، بين الشعوب العربية الخاضعة للدولة العثمانية ، وقد أطلق خصوم هذه الدعوة الإصلاحية عليها أسم « الوهابية » إضعافاً لشأنها وإشعاراً بأنها لا تعدو أن تكون مذهباً جديداً من المذاهب الدينية . وقد نسب هؤلاء الخصوم مجموعة الآراء التى دعا إليها محمد ابن عبد الوهاب إلى اسم والده ، على غرار التسميات التى لحقت بالطرق الصوفية ، فهى تشتق أسماءها من اسماء مؤسسيها . أما أنصار الدعوة فيرفضون تسميتها بالوهابية . ويؤثرون أن يسموا أنفسهم الموحدين أو المسلمين تأسيساً على أن حركتهم الإصلاحية تتلخص فى الرجوع إلى القرآن والسنة ، إلى الإسلام فى حالته الأولى ، إلى التوحيد . وتمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التى هى فى رأيهم مبادىء الإسلام الأولى والصحيحة . وقد حدثت هذه المجادلة فى الفترة الأولى من تاريخهم التى تميزت بالتشدد . أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين ، وقد تأكدت هذه التسمية بصفة رسمية وصريحة فى القانون الذى صدر عن مملكة الحجاز فى ٣١ من أغسطس سنة ١٩٢٦ فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمى هو المذهب السلفى .

انظر كلا من :

Documentation Française, Notes et études dacumentaires, no. 1529, 10 septembre; 1951.

Godchot J. E.; Les Constitutions du Proche et du Moyen—Orient. Paris, 1957, pp. 28—42.

دكتور جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث . الجزء الأول : الهند والجزيرة العربية . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٥٧ ص ص ٥٥ — ٦٦ .

دكتور السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٩ حاشية رقم ١ .

تلقى فى اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٤ عرضاً مؤرخاً فى ٣١ من أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩١٤ من لورد كتشنر Kitchener وزير الحربية البريطانى. وكان هذا العرض يتضمن وعداً قاطعاً للحسين بأنه إذا وقف هو وأبناؤه إلى جانب بريطانيا فى الحرب ضد تركيا ، فإن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه فى منصب أمير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها تحميه من كل اعتداء خارجى . واختتم لورد كتشنر هذا العرض بتلميح يشير إلى أن الشريف الحسين فى حالة مبايعته بالخلافة يستطيع أن يطمئن إلى اعتراف بريطانيا به . وكان تلويح بريطانيا بهذه العروض المغرية أحد الأسباب فى امتناع الشريف عن إصدار دعوة إلى الجهاد الدينى ، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن مكنون قلبه ، فرد على الطلبات المكرورة التى بعث بها إليه رجالات الحكومة فى إستانبول بأنه يؤيد الدعوة إلى الجهاد ويباركها فى صمت ، أما تأييده لها فى العلن فأمر يؤدى إلى عواقب وخيمة ، لأنه يخشى أن يعمد الأسطول البريطانى الموجود فى البحر الأحمر إلى فرض الحصار على ميناء جده وميناء ينبع وسواحل الحجاز الممتدة ، وينقطع وصول المؤن بحراً ، فيواجه السكان أزمات خانقة فى المواد التموينية ، ولا تلبث أن تنقلب إلى مجاعة ، وهو أمر يؤدى إلى اشتعال الثورة بين القبائل[1] .

الحرب النفسية :

كفلم رجال الدولة فى إستانبول عيظهم ، فهم يريدون أن يؤكدوا مراراً وتكراراً أن الحرب التى تخوضها الدولة ضد بريطانيا وحليفاتها هى حرب دينية ، ويريدون أن يعتقد المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أن العثمانيين هم حماة الإسلام وحماة الأماكن المقدسة ، وأن أمير مكة وشريفها يؤيد علناً الدعوة إلى الجهاد . فصدرت التعليمات إلى أئمة المساجد فى ولايات الشام بأن تتضمن خطب أيام الجمعة ما يفيد أن الشريف الحسين قد بارك الدعوة إلى الجهاد الدينى . وصدرت التعليمات أيضاً إلى الصحف العربية بأن تقوم بدورها فى المجال الإعلامى ، وتنشر أن

---

(١) جورج انطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٤ — ٢٢٥

وتضيع الحقيقة التاريخية بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض، ولكل رأى أسانيده وحجيته. ومع ذلك فنشير إلى حقيقتين تفرضان نفسيهما فرضاً فى هذا المجال. وتتمثل الحقيقة الأولى فى أن تعطيل الدستور لم ينجم عنه رد فعل لدى الأتراك العثمانيين. ويقول أحد الباحثين تعليقاً على هذه السلبية « إن عمل السلطان هذا لم يولد أى رد فعل فى البلاد، لأن الحياة الدستورية لم تكن عندئذ مدعومة برأى عام واع، ولا بطبقة قوية من المستنيرين. بل كان من عمل مدحت باشا مع جماعة محدودة من المفكرين ».[1] أما الحقيقة الثانية فإن تعطيل الدستور استمر إحدى وثلاثين سنة لم تفتح خلالها أبواب « صوله باغجه » التى كان يجتمع فيها النواب، وكانت المحافظة على سلامة المبنى تتطلب فتح قاعاته وأبوابه ونوافذه على فترات متقاربة أو متباعدة لتركيب ألواح جديدة من زجاج الأبواب والنوافذ بدلا من تلك التى تحطمت بفعل الرياح والعواصف. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث قط. ويدل التحليل الموضوعى لهاتين الحقيقتين على تأصل روح الحكم المطلق فى السلطان عبد الحميد، فمضى يحكم الدولة فى غيبة دستور أوقف تنفيذ أحكامه بمحض رغبته، وأن الأتراك العثمانيين — كقاعدة جماهيرية عريضة — لم يجدوا غضاضة فى الخضوع لما ألفه آباؤهم وأجدادهم من حكم مطلق كان يمارسه سلاطين الدولة طوال قرون وعصور وأدهار[2].

---

(٢) ساطع الحصرى، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨.

(١) لم يمنع هذا الصمت الذى ران على قلوب الأتراك العثمانيين بعد تعطيل الدستور سنة ١٨٧٨ من وجود قطاعات من ضباط الجيش والمثقفين الأتراك كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بضرورة قيام حكم دستورى يحل محل الحكم المطلق الذى يمارسه السلطان عبد الحميد. وكان لهم نشاط واسع اتخذ طابع السرية مارسوه فى الداخل وفى الخارج مثل جنيف سنة ١٨٩١ وباريس سنة ١٩٠٧ وتكونت جمعيات سياسية سرية فى الداخل وعلنية فى الخارج. وكان من بين المناضلين أحمد رضا — هو الذى انتخب فيما بعد رئيساً لأول مجلس نيابى اجتمع فى المشروطية الثانية بعد كفاح واغتراب استمرا نحو عشرين سنة. وقد أصدر من باريس جريدة « مشورت » ومعناها المشورة.

أما الرأى الموضوعى الذى نطرحه فى هذه الدراسة فيتلخص فى أن تعطيل الدستور بمقولة تفرغ الحكومة لمواجهة المشكلات الخارجية لم يمنع وقوع كوارث ألمية حاقت بالدولة وأظهرتها بمظهر الدولة التى لاقدرة لها على إدارة شئونها . فكان من بين هذه الكوارث : احتلال بريطانيا جزيرة قبرص (١٨٧٨) واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨١) واحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢) وضم الروملى الشرق إلى بلغاريا (١٨٨٥) وفرض الرقابة المالية الدولية على الدولة (١٨٨١) وفرض المراقبة الإدارية على مقدونيا (١٩٠٣)[1] ، وعلى ذلك فإن العودة السريعة إلى الحكم المطلق لم تكن إلا انعكاساً لنزعة أصيلة فى السلطان عبد الحميد لهذا النوع من أنواع الحكم .

وعلى هذا النحو باءت التجربة الدستورية فى حياة الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر بالإخفاق .

وتتكرر التجربة الدستورية فى العقد الأول من القرن العشرين حين اشتد نشاط جمعية الاتحاد والترقى ، وكانت تضم خليطاً من أجناس وأديان شتى ، ولكن كانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك ، ويليهم اليهود . وكان الضباط الأتراك هم أصحاب النفوذ فى مجالس الحزب .

وانتهزت هذه الجمعية فرصة فرض نظام الرقابة الدولية على الشئون المالية وأجهزة الأمن فى ثلاث ولايات هى موناستير Monastir ، وقوصوه ، وسلانيك ، وهى الولايات التى يطلق عليها اسم جماعى هو مقدونيا Macedonia . وكان قوام هذه الرقابة خمس دول هى بريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا وإيطاليا . ووجدت الجمعية فى هذه الولايات الثلاث مناخاً صحياً لمباشرة نشاطها من أجل « إصلاح

---

(١) انظر عرضاً شافياً لبعض هذه الكوارث فى الفصلين السابع عشر والثامن عشر فى كتاب :

— Miller, W.; op. cit., Chapter XVII. pp. 399-426. and Chapter. XVIII. pp. 427-473.

الأحوال العامة فى الدولة العثمانية وإنهاء الحكم المطلق وإعادة الدستور». ولقد نجحت الجمعية فى حمل السلطان عبد الحميد الثانى على إعلان الدستور . وقد تم إعلان هذا الدستور، ويسمى المشروطية الثانية[١]، فى اليوم العاشر من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨ . وعلى غرار ما حدث عند إعلان المشروطية الأولى أطلقت المدافع ابتهاجاً بصدور المشروطية الثانية . وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجتمع فى عهد المشروطية الثانية. وتدخلت جمعية الاتحاد والترقى فى عمليات الانتخابات لصالح مرشحيها[٢] . وكانت الدوائر الانتخابية قد حددت تحديداً يحقق مصلحة العنصر التركى على حساب الأجناس الأخرى . وكان العرب يمثلون أغلبية عددية على الأتراك بنسبة تقارب ثلاثة إلى اثنين[٣] . وجاء تكوين مجلس المبعوثان متعارضاً مع هذه الأغلبية العددية للعرب[٤] .

---

(١) لم تكن المشروطية الثانية سوى المشروع الذى كان قدمه مدحت باشا سنة ١٨٧٦ بكل ما كان يحويه من عيوب أصبحت فى سنة ١٩٠٨ أشد سوءاً . وأعيدت إليه الحياة بجرة القلم . انظر عرضاً لأهم مواده فى :

توفيق على برو : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ — ١٠٤ .

(٢) انظر سياسة جمعية الاتحاد والترقى فى توجيه الانتخابات وجهة تخدم عنصرهم ، فى توفيق على برو ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠٤ — ١١٧ .

(٣) كان تعداد رعايا الدولة العثمانية فى سنة ١٩٠٨ باستثناء مصر قد بلغ اثنين وعشرين مليوناً، من بينهم سبعة ملايين ونصف مليون من الجنس التركى ، وعشرة ملايين ونصف مليون من العرب ، والأربعة ملايين الباقين من اليونانيين والألبانيين والأرمن والأكراد وعناصر أخرى أقل عدداً وأصغر وزناً .

انظر :

جورج انطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ حاشية رقم ١ .

(٤) كان عدد النواب الأتراك فى مجلس المبعوثان ١٤٢ ، وعدد النواب العرب ٦٠ ، وعدد الألبانيين ٢٥ ، واليونانيين ٢٤ ، والأرمن ١٢ ، واليهود خمسة ، والصرب ٣ ، والأفلاخ واحداً .

انظر :

ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

باشا سون شريعة محمدية

فلتعش الشريعة المحمدية :

ولم تكد تمر تسعة أشهر على عهد المشروطية الثانية حتى اندلعت ثورة عارمة فى عاصمة الدولة فى اليوم الأخير من شهر مارس (آذار) سنة ١٩٠٩ تطالب بإلغاء المشروطية وإعلان « الشريعة المحمدية » وإسقاط الحكومة القائمة وفض المجلس النيابى . وضمت هذه الثورة عنصرين هامين : عنصر دينى تمثل فى الدراويش وأئمة المساجد ومن إليهم من رجال الدين ، وعنصر عسكرى تمثل فى جنود الحامية العسكرية المرابطة فى إستانبول . وقد وقع هؤلاء الجنود تحت تأثير الدراويش الذين نجحوا فى إثارتهم على زعم أن المشروطية تخالف الشريعة الإسلامية ، وأن عبد الحميد خليفة المسلمين لا يوافق على المشروطية فى قرارة نفسه ، ولكنه أصدرها تحت الضغط والإكراه . وفى هذه الثورة أريقت دماء غزيرة وبريئة عند ما غادر الجنود ثكناتهم وحاصروا ضوله باغجه ، وهى مقر مجلس المبعوثان ، كما حاصروا الباب العالى ، وقتل الجنود وزير العدلية وأحد الأعضاء العرب فى مجلس المبعوثان ، وقتلوا طائفة من كبار الضباط وصغارهم فى ثكناتهم وفى خارجها ، وأرسلوا وفداً إلى السلطان يطالب بتنفيذ رغباتهم .

وارتاح السلطان عبد الحميد لهذه الحركة أو الثورة المضادة . ولقيت مطالب الثوار استجابة فورية منه، وتألفت وزارة جديدة لتنفيذ هذه المطالب . وقال الثوار: « عند إعلان المشروطية أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة، فيجب أن يتم الاحتفال بإعلان الشريعة المحمدية بإطلاق مائة طلقة وطلقة» . وأخذ جنود الجيش يطوفون الشوارع فى إستانبول، ويطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، ويصيحون بأعلى أصواتهم « باشا سون شريعة محمدية » أى فلتحيا الشريعة المحمدية [1] .

---

(١) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٦ .

وكانت كتائب الجيش تسير على هذا النحو مع دوى طلقات الرصاص وصيحات التحية من الجماهير . وفى مقدمة كل مجموعة من الجيش جماعة من الدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويثيرون الحماس الدائق فى الجنود، ويرددون الهتاف الذى اتخذوه شعاراً لهم وهو : باشا سون شريعة محمدية .

وفى هذه الثورة اتجه الجنود اتجاهاً خطيراً : تعقبوا فى غير هوادة الضباط « المكتبلية » أى الضباط المتخرجين فى المعاهد العسكرية الحديثة . وكان الجنود يبحثون عنهم فى كل مكان لقتلهم بحجة تطهير الجيش منهم ، وحتى لا يبقى فى الجيش سوى الضباط « الآلايلية » ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند ، بناء على خدماتهم وخبراتهم العملية دون أن يتلقوا تعليماً فى المعاهد أو المدارس العسكرية[1] .

وقد واجهت جمعية الاتحاد والترقى هذه الحركة بعمل عسكرى سريع وحاسم . فقررت تحريك الجيش المرابط فى الولايات الثلاث التى كانت مهد المشروطية الثانية إلى الآستانة. واستطاع هذا الجيش الذى عرف باسم جيش الحركة أن يحتل الآستانة. واجتمع أعضاء مجلس المبعوثان مع أعضاء مجلس الأعيان فى أيا استفانوس — الذى أصبح مقراً لجيش الحركة ـ وعقدوا جلسة رسمية قرروا فيها خلع السلطان عبد الحميد وتعيين أخيه الأمير محمد رشاد سلطاناً باسم السلطان محمد الخامس. وكان رجلا طاعناً فى السن بلغ الرابعة والستين من العمر ، ارتضى لنفسه أن يكون دمية يحركها رجال جمعية الاتحاد والترقى أنى شاءوا .

وانفرد رجال الاتحاد والترقى بحكم الدولة خلال الفترة من سنة ١٩٠٨ أو سنة ١٩٠٩ على أحسن تقدير حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ إلا فى فترة زمنية صغيرة . وباشروا حكماً مطلقاً على الرغم من وجود دستور ووجود سلطان يحمل لقب خليفة ووجود مجلسين نيابيين — المبعوثان والأعيان —

---

(١) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ — ١١٢ .

وأسرفوا إسرافاً بعيداً فى الأخذ بنظام الحكم الاستبدادى. وكان الأتراك العثمانيون المعاصرون — الذين عاصروا حكم السلطان عبد الحميد وعاشوا الفترة التى حكم فيها رجال الاتحاد والترقى — يترحمون على حكم السلطان عبد الحميد ويذكرون هذا السلطان بالخير الكثير[١] .

والنتيجة التى ننتهى إليها من هذا العرض السريع هى أن الحكم المطلق كان سمة بارزة فى الدولة العثمانية ، وأن هذا النوع من أنواع الحكم قد صاحب الدولة فى جميع مراحل حياتها : فى نشأتها ، وفى مسيرتها ، وفى اتساعها ، وفى عنفوان قوتها ، وفى اضمحلالها وضعفها .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ .

الفصل الخامس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٣)

خامسا — دولة طبقية

والدولة العثمانية دولة طبقية ، بمعنى أنها كانت تضم أفراداً من العبيد أو الأرقاء ، وأفراداً من الأحرار . وكانت الهيئة الحاكمة العثمانية بأكلها من أصغر فرد فيها إلى الصدر الأعظم — أى رئيس الوزراء — ما عدا أفراد الأسرة السلطانية — عبيداً للسلطان ، ويطلق عليها جميعاً المصطلح التركى .قولار Kullar أى العبيد . ويطلق على كل فرد فى الهيئة الحاكمة لفظ. قول Houl أو Kul أى العبد ،ويقصد به عبد السلطان . وكان هؤلاء الأفراد يوصفون فى أوراق الدولة الرسمية بصفة العبيد [1] وكانوا لا يشعرون بغضاضة فى إلصاق هذه الصفة بهم ، بل كانوا جد فخورين بها .

وكانت الدولة تحصل على هؤلاء العبيد من أربعة منابع : أسرى الحروب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة الغلمان . أما المنبع الأول وهو الأسر فقد حصلت الدولة على عدد كبير من الأسرى فى الحروب التى خاضتها فى أوروبا بوجه خاص . ويصبح هؤلاء الأسرى عبيداً بحكم وقوعهم فى الأسر .وسنعود إلى موضوع أسرى

---

1) D'Ohsson, Ignatius Mouradges; Tableau Général de l'Empire Ottoman, 7 vols., Paris, 1788-1824 , t. VII, p. 203.

وقد ولد هذا المؤلف فى تركيا ، وأقام فيها ردحاً طويلا من الزمن ، وعكف على وضع هذا الكتاب من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨١٨ . ويعد هذا الكتاب بمثابة موسوعة . وقد طبع طبعتين : طبعة فاخرة ، وطبعة عادية . ومما يذكر أنه توفى قبل أن يتم طبع جميع أجزاء الكتاب ، فقام ابنه بالإشراف على طبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة التى كانت متبقية .

الحرب غير المسلمين فى موطن قادم فى هذه الدراسة . أما المنبع الثانى ، وهو الشراء ، فكان يتم فى سوق الرقيق فى عاصمة الدولة وفى غيرها من المدن حيث كانت تعرض نماذج بشرية مختلفة ، كان يجىء بها تجار الرقيق عقب جولاتهم فى شتى أنحاء أوروبا . أما الهدايا وتمثل المنبع الثالث من منابع العبيد ، فمن المعروف لدى المعاصرين والمراقبين السياسيين والعسكريين وقتذاك إن أحب الهدايا إلى قلوب سلاطين الدولة كانت تتمثل فى الشبان الأصحاء الأقوياء . وأخيراً فإن ضريبة الغلمان كانت أخصب المنابع الأربعة حصيلة . وكانت إحدى الدعائم الرئيسية التى استندت إليها الدولة ، سواء فى القوات المسلحة أو فى أجهزة الحكم . وبمضى الزمن انحصرت المنابع الأربعة فى منبعين هما : الأسر ، وضريبة الغلمان .

ضريبة الغلمان :

هى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة فى إستانبول . وكانت تجمع أولادهم ، وهم سن غضة ، وتحولهم إلى الدين الإسلامى ، وتنظم لهم دراسات علمية — مدنية وعسكرية — لتجعل منهم فى نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم فى خدمة الدولة . ويطلق على هذه الضريبة الآدمية المصطلح التاريخى : ديو شيرمة Deuchurmé أى ضريبة الغلمان (١) .

كانت الدولة تبعث مندوبين إلى المناطق التى تقطنها العائلات المسيحية . ويجتمع المندوب بقسيس القرية ويطلب كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم . ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الأولاد . وكانت الحكومة تحدد لكل مندوب عدد الأولاد الذين يتعين إحضارهم للسلطان . ويشكل المجموع الكلى للأولاد الرقم النهائى للغلمان الذين تحتاج إليهم الدولة فى

---

(١) يترجمها المؤرخون والباحثون فى أوروبا وأمريكا The Tribute Boys . أو The Tribute Children .

لفترة معينة لإعدادهم سواء للخدمة فى القوات المسلحة أو فى مناصب الحكومة وما إلى ذلك .

كانت الحكومة تمارس جمع الأولاد من الريف فى العادة ، وكانت تأخذ أولاد المزارعين ، وتستجيب لدواعى الرحمة ، فلا تأخذ الطفل وحيد والديه ، وكانت لا تأخذ الأطفال الذين فى سن الرضاعة ، لأن أمثال هؤلاء الأطفال يشكلون عبئاً ثقيلا على الموظفين المختصين بتنشئة الغلمان ، وكانت الحكومة لا تأخذ الأولاد الذين تجاوزوا الحلم ، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم وعن بيئتهم الأولى . ولذلك كان مندوبو الحكومة يأخذون فى معظم الأحوال الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة[1] . ومنذ أن يتحرك مندوب الحكومة بهؤلاء الغلمان من القرية إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بينهم وبين ذويهم . وكان المندوب الحكومى يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية . وتتمثل الحصيلة المالية فى الرشا التى يحصل عليها من بعض الآباء الموسرين فى سبيل التغاضى عن جمع أولادهم ، وكانت هذه الحصيلة المالية تختلف قلة وكثرة تبعاً لدرجة ثراء الآباء من ناحية ، ومدى جشع المندوبين من ناحية أخرى . أما الحصيلة البشرية فتتمثل فى أولاد يحصل عليهم لحسابه بطريقة غير قانونية ، وفى بنات فاتنات لبيعهن لمن يهوى جمال القوام وفتنة الوجه ووسامة الصبا ، وكان المندوب

---

(١) يقرر بعض المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت تأخذ الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين . انظر Lybyer, op. cit. p. 53 ومن الصعب أن نأخذ بهذا الرأى ، لأن الأولاد فى مثل تلك المرحلة المتأخرة نسبياً فى السن يكون فى حكم الاستحالة عليهم أن ينسوا آباءهم وأمهاتهم وذوى قرباهم وديانتهم والوسط الذى ترعرعوا فيه . وكانت الدولة تحرص حرصاً بالغاً على أن ينسى هؤلاء الأولاد ماضيهم . ولذلك كانت تسرع بمجرد وصولهم إلى العاصمة فى تحويلهم إلى الإسلام وفى تدريبهم تدريباً مدنياً وعسكرياً ابتغاء إسدال ستار كثيف وسريع من النسيان لدى الأطفال ، فلا يتذكرون شيئاً عن ماضيهم . وهو أمر لا يتوفر إلا إذا انتزعوا من أهلهم فى سن مبكرة .

وسيظل موضوع تحديد السن التى كان يؤخذ فيها الغلمان موضع خلاف بين المؤرخين . ولكل فريق أسانيده .

لا يتورع عن عرض هذه الحصيلة البشرية التى جمعها لنفسه ليبيعها فى سوق الرقيق بالعاصمة أو يطوف بها على كبار الموظفين أو على من يأنس فيهم شغفاً بالجنس ومقدرة على اقتناء الآنسات الفاتنات .

وفى عاصمة الدولة كان يتحول الأولاد إلى الإسلام ، وتجرى لهم جراحة الختان La circoncision ، ويتلقون أول الأمر تربية دينية ، فيتعلمون مبادىء الدين الإسلامى ، ويحضرون دراسات فى اللغة التركية ، والتاريخ الإسلامى العام والتاريخ العثمانى ، والنظم العثمانية وما إلى ذلك وفق مناهج وضعت بعناية ، واستهدفت محو كل أثر من آثار أصولهم وعواطفهم المسيحية الأولى . فينشأون على التمسك بالدين الإسلامى والتعلق بالدولة العثمانية . وكانوا إلى جانب هذه الدراسات الدينية يتلقون تربية عسكرية صارمة تزداد عنفاً كلما اشتد ساعدهم .

وكان هؤلاء الأولاد يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية وقدراتهم العقلية ، فيوضعون فى المكان الذى يبدو مناسباً لكل منهم ،

المجموعة الأولى : ويعد أفرادها لشغل وظائف الغلمان فى القصور السلطانية وكانوا فى العادة أجمل الأولاد شكلا . وهؤلاء يتلقون نوعاً من التدريب فى القصور السلطانية فى بروسة ، أو أدرنة ، أو غلطة ، أو غاليبولى ، كما كانوا يلتحقون بمدارس سلطانية خاصة فى قصور إستانبول . وكان يطلق عليهم إيج أوغلانات أى غلمان البلاط[1] ويعدون للخدمة فى القصور السلطانية .

المجموعة الثانية : ويعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة . وهؤلاء أيضاً يتلقون تعليما عسكرياً ومدنياً خاصاً . وكان بعضهم يصل إلى منصب الصدارة العظمى أى رياسة الوزارة . وكان يطلق على أفراد المجموعتين الأولى والثانية المصطلح التاريخى أو التركى « أوج أو غلان » ومؤدى هذا النظام أن الدولة العثمانية سمحت طواعية بجمع أطفال مسيحيين من أبناء رعاياها، ثم حولت

---

(١) مفردها إيج أوغلان .

هؤلاء الأطفال إلى الإسلام ودربتهم تدريباً مدنياً وعسكرياً على أرفع المستويات، ولكن جعلتهم عبيداً أرقاء وسمحت لهم بالزواج من أميرات ومن فى مستواهن، واتخذت من هؤلاء العبيد المسلمين المدربين — وفى وضعهم الجديد الاجتماعى والدينى والرسمى — حكاما يشتركون فى حكم دولة إسلامية ويعيشون فى مستوى رفيع ويجمعون بين الثراء والجاه والنفوذ .

الجموعة الثالثة : كان يعد أفرادها ليكونوا فرق مشاة فى الجيش العثمانى ، ويطلق على أفراد هذه المجموعه : الإنكشارية . وكان تعدادهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين . وسنرجىء الحديث عن أفراد المجموعة الثالثة ، وهم الإنكشارية ، إلى موطن قادم فى هذه الدراسة عند شرح تشكيلات الجيش العثمانى

امتيازات القولار :

تمتع القولار — وهم العبيد أفراد الهيئة الحاكمة فى الدولة — بعدة امتيازات كان من بينها :

أولا : كان شغل المناصب فى الدولة مقصوراً على طبقة القولار ، وكانوا يتدرجون فى هذه المناصب إلى أعلاها ، فتمتعوا بمركز اجتماعى ومادى وأدبى مرموق، ولم يكونوا يشعرون — كما سبق أن ذكرنا — بغضاضة أو امتهان من صفة العبد التى تلحق بكل منهم ، بل إنهم كانوا جميعاً يشعرون بفخر وشرف لأنهم عبيد السلطان ، وطريق العبودية هو الذى سما بهم إلى الدرجات العلى فى حياتهم الوظيفية

ثانياً : تمتع القولار بالإعفاء الضريبي . وقد دافع الأستاذ الأمريكى ليبير Lybyer عن هذا الإعفاء ، قائلا إنه من المتناقضات أن يقوم السلطان بالإنفاق على هؤلاء الأفراد العبيد إنفاقاً كافياً يشمل المسكن والمأكل والملبس وغير ذلك من وجوه الإنفاق ، ويغدق عليهم فى ذات الوقت المرتبات والامتيازات ، ثم يفرض

1) Lybyer, A.H., op. cit., p 114.

عليهم ضرائب . ثم يقول إن السلطان لم يوفر لهم كل ضرورات الحياة فحسب ، بل هيأ لهم — أو لعدد كبير منهم — حياة مترفة حافلة بالكماليات بفضل الدخول المالية التي كانت الدولة تقدمها لهم تحت مختلف الأسماء . ويخلص من تعليقه إلى القول بأن السلطان كان يريد من العبيد أفراد الهيئة الحاكمة أن يتفرغوا تفرغاً تاماً لخدمة السلطان والدولة ، كل في الموقع الذي يعمل فيه ، وكان لا يريد أن يشغلوا أذهانهم بأي تفكير في مسألة طارئة أو خارجة عن صميم عملهم .

وهذا القول هو دفاع واه، لا يأخذ به أي باحث محايد، فلا يعتبر دفع الضرائب لخزانة الدولة أمراً يدعو الفرد إلى الانصراف عن مهام منصبه أو عائقاً يشغله عن التفرغ لعمله . والحكومات لا تعفى أصحاب الدخول الكبيرة أو المتوسطة من دفع الضرائب ، بل إنها على العكس تتصاعد بنسب الضرائب كلما ازداد حجم الإيراد العام للممولين . وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول إن الإعفاء الضريبي الذي قررته الدولة لطائفة القولار هو تعميق للنظام الطبقي الذي أخذت به الدولة ، وأحدث جذوة متقدة من الحقد في نفوس الجماهير الكادحة ، وبخاصة بعد أن مدت الدولة الإعفاء الضريبي إلى الهيئة الحاكمة الأخرى وهي الهيئة الإسلامية .

ثالثاً : الإعفاء من الخضوع للقضاء العادي الذي كان يخضع له رعايا الدولة الذين هم خارج نطاق العبيد أفراد الهيئة الحاكمة . وكان القضاء العادي يتمثل في المحاكم الإسلامية حيث كان القضاة المسلمون يفصلون في القضايا التي ترفع إلى هذه المحاكم . وشعر العبيد أفراد الهيئة الحاكمة بغضاضة بل وكراهية لخضوعهم قضائياً للمحاكم الإسلامية العادية ، لأن قضاة هذه المحاكم كانوا يتبعون الهيئة الإسلامية ، وهم بذلك ينتمون إلى تشكيل طبقي آخر . وكان العبيد يرون أيضاً أن الدراسة التي تلقاها القضاة كانت مقصورة على القانون ، بينما كان تعليم العبيد يشمل الدراسة المدنية والعسكرية . وخرجوا من هذه المقارنة إلى أن تعليمهم كان أرقى وأعمق وأكثر تعدداً من دراسة رجال القضاء .

رأى السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١–١٥١٢) — وكان يميل إلى السلم — أن يرضى غرور هؤلاء القولار ، فقرر إعفاءهم من الخضوع للقضاء العادى ، وإنشاء محاكم خاصة بهم تتكون من ضباط منهم ، تنظر فى القضايا الخاصة بهؤلاء العبيد ، سواء كانوا من القوات المسلحة ، أو من أعضاء البلاط السلطانى ، أو من رجال الإدارة . وكان إعفاء القولار من الخضوع للمحاكم العادية تغييراً جذرياً فى النظام القضائى للدولة وإكثاراً من امتيازات العبيد وتعميقاً للفروق بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية . وسرعان ما ظهرت آثار هذا النظام القضائى ، مما أدى إلى فصل القولار عن بقية سكان الإمبراطورية ، كما أصبح هؤلاء العبيد يكونون قومية قائمة بذاتها ، أو كما يقول المؤرخ الأمريكى ليبير « قومية منفصلة[1] a separate nationality » .

وعلى الرغم من هذه الامتيازات فقد كان وضع القولار شائكاً دقيقاً ، كانوا محرومين من الحقوق المدنية ، إذ كانوا يعتبرون ملكاً للسلطان . وفى استطاعته أن يأمر بإعدام من يشاء منهم دون الالتجاء إلى إجراءات قضائية ، وفى وسعه أيضاً أن يصادر ما يشاء من ثرواتهم عقب وفاتهم ، بل قبل أن يحتويهم القبر[2] . وقد تناسى نفر من الباحثين هذه الصورة القاتمة من حياة القولار ، واستقرت فى أذهانهم الصورة الأخرى الوضيئة ، وهى امتيازاتهم . والدراسة الموضوعية تتطلب أن نذكر كلا الجانبين — القاتم والوضىء — ونخلص إلى أن هذا النظام ، على الرغم من المآخذ التى سجلناها عليه ، قد أخرج للدولة رجالا على جانب كبير من الكفاية ، ولكنه أوجد بمضى الزمن حقداً طبقياً ، وعمل على تفتيت وحدة الصف بين العاملين فى خدمة الدولة .

حقد الرعايا المسلمين الأحرار على العبيد :

ذكرنا أن القولار — وهم طبقة العبيد — قد انفصلوا قضائياً ومالياً وضريبياً

1) Lybyer A.H., op. cit., p 116
2) D'Ohsson ; op. cit., t., VII, p. 148 .

واجتماعياً عن رعايا الدولة . وأصبح العبيد يشكلون طبقة قائمة بذاتها تتمتع بحقوق وامتيازات لم يتمتع بها سائر رعايا الدولة. وكان هذا الفصل بين العبيد ورعايا الدولة الأحرار فى الحقوق والامتيازات من أهم الأسباب التى أدت إلى نفور الرعايا الأحرار من العبيد وتزايد الحقد الطبقى ، مما أدى إلى فصم ما يمكن أن نسميه الوحدة أو الالتحام بين القاعدة الجماهيرية فى الدولة وبين الهيئة الحاكمة فيها . وقد أدى هذا الانفصال من ناحية ، والامتيازات التى أغدقت على القولار من ناحية أخرى، إلى انهيار هذا النظام ، فلم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان النظام القائم على وجود هيئة حاكمة من العبيد قد تهاوى . إذ انتزع المسلمون الأحرار تقريباً كل الوظائف التى كان يحتكرها أفراد طبقة القولار[١] . وكانت هذه النهاية أمراً طبيعياً ومتوقعاً ، لأن احتكار العسكريين العبيد لمناصب الدولة العسكرية والمدنية معاً ، وحجب هذه الوظائف عن رعايا الدولة الأحرار ، والحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الاشتراك فى شئون الحكم والإدارة وإيجاد فئتين : فئـــة ممتازة ومتميزة هى فئة العسكريين أو أهل الثقة ، وفئة مبعدة هى فئة أصحاب التخصصات العلمية الرفيعة ، أو أهل الخبرة ، كل أولئك أدى إلى عدة نتائج ، كان من بينها دمغ الحكم العثمانى بالطابع العسكرى المتعصب، والحقد الطبقى ، وحرمان البلاد من كفايات كثيرة ، بحيث لم يعد لدى الدولة رصيد من العناصر غير العسكرية تستطيع أن تدفع بها عجلة الإصلاح إلى الأمام . ولم يدرك المصلحون كل هذه العيوب إلا فى وقت متأخر[٢] .

وكان رعايا الدولة المسلمون الذين ولدوا مسلمين من آباء وأمهات مسلمين Moslem born subjects يشعرون بفداحة الظلم الواقع عليهم ، لأنه كان محرماً عليهم الانتماء إلى الهيئة الحاكمة التى احتكرت مناصب الدولة فى البلاط السلطانى والحكومة والجيش . وزاد من مرارة هؤلاء المسلمين أن أجدادهم وآباءهم أراقوا

---

1) Gibb, Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I. Part I. p 44

(٢) دكتور عبد الكريم غرايبة ، مرجع سبق ذكره ص ٣٢ .

دماءهم غزيرة على ثرى الأراضى التى فتحوها انتصاراً للعقيدة الدينية ، ثم لقى حفدتهم المقت ، فلا تسمح لهم الدولة بتقلد الوظائف ، بينما تغدق الامتيازات إغداقاً على أولئك العبيد الحديثى عهد بالإسلام ، لأنهم ولدوا جميعاً مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات . وانتهى الأمر بأن وضعت شئون الدولة فى أيدى أناس جاءوا إلى الحياة الدنيا مسيحيين ثم أخذتهم الدولة وحملتهم على اعتناق الإسلام ودربتهم على شئون الحكم والإدارة والحرب وفتحت لهم أبواب الرزق الوفير على مصاريعها .

The Moslem born population came to feel that somewhere there was a great injustice. They whose ancestors had shed their blood for the faith were, in the lands which their fathers had conquered, denied admittance to the class which not only filled most of the offices of army and state but enjoyed high privileges. Some of the conquered inhabitants, infidel-born, might alone become nobles paid by the state rather than contributing to its expenses, not subject to the judges trained from boyhood in the Sacred Law; which their own Moslem sons were riding excluded from the honored class, were oqliged to bear a part in the burdens of the statb with amall hope of sharing its glory, and were expected to take their chances before the same courts to which Christians and Jews were brought for civil and criminal cases. The very extent of the Kullar made toward the break-down of the system.(1)

---

1) Lypye, A. H., op. cit., r. 117.

وقد أسفر نظام القولار — العبيد — عن وجود طبقتين مسلمتين كلتاهما من العبيد أو الأرقاء : طبقة عسكرية تتمثل فى فيالق المشاة ، وهم الإنكشارية ، وطبقة حاكمة تتولى المناصب القيادية فى البلاط السلطانى وفى الإدارة وفى حكم الولايات . وقد دربت كل من هاتين الطبقتين للغرض الذى خصصت له . فالحرب والحكم فى الدولة العثمانية كلاهما علم يحصل عليه بالدراسة والتدريب الأفراد العبيد وهم الهيئة الحاكمة . وبذلك كانت الكفاية هى المعيار الأول فى الالتحاق بالجيش أو فى تقلد المناصب الإدارية الكبرى . ومن هذه الناحية كانت الدولة العثمانية تختلف عن الدول الأوروبية المعاصرة لها . فقد كان تقلد المناصب الكبرى فيها مقصوراً على عراقة الأصل وكرم المحتد ، فلا تشغل فى معظم الأحوال إلا طبقاً لنظام الوراثة يتقلدها النبلاء والبارونات والأدواق ومن إليهم من أصحاب الرتب والألقاب الموروثة .

طبقة الأحرار :

وإلى جانب طبقة القولار — الأرقاء أو العبيد — وكان أفرادها يشغلون مناصب قيادية وغير قيادية فى العديد من القطاعات الحكومية العسكرية والمدنية ويتمتعون بإعفاءات وامتيازات شتى ، كانت توجد طبقة أخرى من الأحرار يتولى أفرادها وظائف قيادية وغير قيادية فى قطاعات حكومية أخرى معينة ذات طابع دينى إسلامى . وينتمى أفراد هذه الطبقة إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة The Religious Islamic Ruling Institution وهو مصطلح جرت به أقلام الباحثين الأمريكيين والأوروبيين . وكان أفراد هذه الهيئة أحراراً ، بمعنى أنهم لم يكونوا قط عبيداً ، ولم يسلكوا الطريق الذى سار فيه القولار . وكان آباؤهم مسلمين ، وولدوا مسلمين أحراراً ، ونشأوا وترعرعوا أحراراً ، وظلوا أحراراً . وكانت هذه الهيئة تضم جميع المسلمين فى الدولة العثمانية خارج الهيئة الحاكمة التى

كان أفرادها فى مستوى أعلى من مستوى المسلم العادى [١] . وكانوا يتولون مناصب القضاء والإفتاء وإدارة الأوقاف ، وينظرون فى جميع المسائل التى تتعلق بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويباشرون مهنة التعليم ويشرفون على المساجد وسائر المنشآت الدينية والمؤسسات الخيرية ، وكان لهم نظام تعليمى خاص يختلف عن النظام التعليمى الذى خضع له القولار .

ولذلك كان أهم اختلاف بين الهيئة الإسلامية والهيئة الحاكمة — القولار — أن أعضاء الهيئة الإسلامية جاءوا إلى الحياة من عائلات مسلمة ، وظلوا على الإســـلام فى شتى مراحل حياتهم ، بينما جاء أعضاء الهيئة الحاكمة من عائلات مسيحية ، ثم جمعتهم الدولة طبقاً لنظام ضريبة الغلمان ، ثم حولتهم إلى الإسلام ، ودربتهم تدريباً خاصاً توطئة لشغل وظائف معينة فى البلاط السلطانى أو فى مناصب إدارية أو مراكز عسكرية .

وكان السلطان على رأس الهيئة الإسلامية، وهو الذى يعين من أعضائها كبار المسلمين فى المناصب العليا فى الهيئة الإسلامية ، وله الإشراف على دخلها المالى ، ويعين مشرفين يتولون المراقبة على شئونها المالية . وعلى ذلك فالهيئتان الرئيسيتان فى الدولة العثمانية ، وهم القولار والهيئة الإسلامية الحاكمة ، كانتا تلتقيان فى شخص السلطان ، كما كانتا تلتقيان فى المستويات الأقل فى العلاقات الماليـــة الحكومية وغيرها . ونظراً لأهمية هذا الموضوع على أساس أن الدولة العثمانية كانت ذات طابع دينى إسلامى عميق ، سنفرد فى موطن قادم فى هذه الدراسة فصلا مستقلا عن الهيئة الإسلامية كهيئة حاكمة .

---

(١) يحدد الأستاذ الأمريكى ليبر تكوين الهيئة الإسلامية وعضواها فى الدولة العثمانية على النحو التالى :

It (The Religious Islamic Ruling Institution of the Ottoman Empire) included all those Mohammedans in the Ottoman Empire,. outside of the Ruling Institution, who were in any way lifted above the level of the ordinary believer ,.

Lybyer A. H., op. cit , p. 199.

الفصل السادس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٤)

سادسا : دولة إقطاعية من نوع خاص

والدولة العثمانية دولة إقطاعية من نوع خاص . وتمثل طابعها الإقطاعى فى نظامين . نظام الإقطاع الحربى من ناحية ، ونظام الالتزام من ناحية أخرى . وسنعرض أولا عرضاً سريعاً للملامح العامة لنظام الإقطاع الحربى ، ثم نستكمل عرض بعض ملامح أخرى لهذا النظام فى موطن قادم فى هذه الدراسة عند تناول تشكيلات الجيش العثمانى وتكوينها واختصاصاتها .

نظام الإقطاع الحربى :

طبقاً للنظام الإقطاعى الحربى كان السلطان يمنح أرضاً زراعية لأفراد من سلاح الفرسان ـ أو الخيالة بمصطلح ذلك العصر ـ ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين . وكانت هذه الأراضى تسمى إقطاعات[1] ، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الإقطاع الحربى اسم السباهية الإقطاعية[2]

---

(١) كان يطلق على هذه الإقطاعات اسم « ديريلكات » أى رزق . ومفردها « ديريلك » . وقد استخدم هذا المصطلح للدلالة على أى مورد رزق يقدمه السلطان لمن يخدمونه ، سواء كان هذا المورد فى صورة أموال سائلة أو على شكل أرض .

(٢) السباهية كلمة تركية مأخوذة من أصل فارسى ومعناها الفرسان . وتكتب فى صيغة المفرد سپاهى. وتجمع فى اللغة التركية سپاهيان. وتظهر فى المراجع الفرنسية والإنجليزية فى عدة صياغات لاتينية مختلفة مثل :

Sipah — Sipabi — Spabi
Spacoillain — Spai — Spachi

Feudal Spahis . وكان هذا النوع من الفرسان الإقطاعيين[١] لا يتداولون مرتبات نقدية من الحكومة ، بل كانوا يعتمدون فى معيشتهم على المحاصيل الزراعية التى تغلها لهم الإقطاعات الممنوحة ، ولذلك كانوا يمدون الفلاحين عادة بالماشية والبذور . وفى هذه الحالة كان السباهية الإقطاعيون يستولون على نصف المحصول[٢] ، كما كانوا يعتمدون على حصيلة العشور وغيرها من الضرائب المقررة على الفلاحين — الأرض أو المحاصيل — ويقومون بجبايتها منهم لحسابهم . وكانت الإيرادات التى يستولون عليها يطلق عليها المصطلح التركى « مال مقاتلة » بمعنى مال المقاتلة . وهاتان الكلمتان عربيتا الأصل .

وفى مقابل هذه الامتيازات كان على هؤلاء الفرسان الإقطاعيين أن ينضموا للجيش — حالما تشتبك الدولة فى حرب — ومعهم عدد من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان عدد هؤلاء الفرسان الإقطاعيين يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحربى ومع الإيراد الذى تغله هذه الأرض الإقطاعية .

أنواع الأراضى الإقطاعية :

وكانت الأراضى الإقطاعية على ثلاثة أنواع رئيسية ، هى :

أولا : إقطاع مساحته صغيرة نسبياً ، ويسمى « تيمار[٣] » Timar وكان

---

(١) تقتضى الدقة فى الصياغة اللفظية أن تقرن كلمة « إقطاعيين » بلفظة فرسان أو سباهية تمييزاً لهم عن ست فرق من فرق الخيالة فى الجيش الثابت Standing Army وكان يطلق على هذه الفرق الست : الخيالة الثابتة standing Cavalry كانت من بينها فرقتان تسميان « علوفه جى » أى الرجال الذين يتناولون مرتبات ، وفرقتان تسميان « غرباء » وفرقتان تسميان السلحدارات ، بمعنى حملة السلاح أو السيوف . وسنعرض لهذه الفرق الست بالشرح عند الكلام على الجيش العثمانى .

(٢) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I, Part I, p. 247.

(٣) تيمار كلمة فارسية اقتبسها العثمانيون من اللغة الفارسية ، وهى ترجمة الكلمة pronoia اليونانية ، وهى تقابل فى اللغة اللاتينية لفظة cura ، واشتقت منها curator الإنجليزية ، curateur الفرنسية . ومعناها . ناظر وقف ، أو وصى ، أو وكيل تركة ، أو ولى ، أو قيم .

يطلق على التابع الإقطاعى « تيمارجى »[١] . ويغل هذا التيمار على صاحبه إيراداً يبلغ ثلاثة آلاف آقجة، وهى عملة عثمانية من الفضة[٢] . وكان على التابع الإقطاعى أن يقدم إلى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة بخيولهم وأسلحتهم[٣] .

ثانياً : إقطاع أكبر مساحة من الإقطاع السابق ، ويسمى « زعامت »[٤] يمنحه السلطان للفارس إذا أظهر كفاية قتالية . وكان يطلق على صاحب « الزعامت » اسماً جديداً هو « زعيم » . ويغل هذا الإقطاع على صاحبه دخلا يصل إلى مائة ألف آقجة . وفى مقابل هذا الدخل الكبير نسبياً كان على الزعيم أن يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان هذا العدد يتحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف آقجة

وكان هذان النوعان من الإقطاع الحربى – تيمار وزعامت – يخضعان لنظام التفتيش يقوم به موظفو الحكومة المختصون ، ويسمون «الدفترداريون»[٥]

---

(١) كان يطلق أيضاً على صاحب التيمار: تيمار صاحبى، أو أهل تيمار ، أو تيمار ارى .

(٢) الآقجة عملة فضية صغيرة الحجم، واسمها بالكامل آقجة عثمانى. والمقطع الأول من الكلمة « آق » مأخوذ من اللغة التركية ومعناه أبيض، والمقطع الثانى من الكلمة « جه » مأخوذ من اللغة الفارسية وهو تصغير لكلمة أبيض . وكان يطلق على الكلمة فى معظم الأحيان عثمانى . وقد ضربت هذه العملة على عهد السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) وكانت تستخدم فى كافة أنحاء الدولة كعملة رسمية لم يتغير وزنها أو طرازها حتى نهاية القرن السابع عشر . وكان المؤرخون الأوروبيون عندما يتعرضون للعملة العثمانية يذكرون كلمة أسبر Aspre أو Asper وهى كلمة يونانية بمعنى أبيض . ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن كلمة آقجة قد استخدمها الأتراك السلاجقة قبل الأتراك العثمانيين وكان وزنها لا يزيد على ربع مثقال من الفضة الخالصة بنسبة ٩٠ ٪ ولم تكن قيمتها مستقرة . انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen. op. cit., Vol 1, Part II, p. 49, f. n. 2

(٣) كان السلاح أول الأمر القوس والنشاب ، ثم تدرج إلى الرمح الخفيف والسيف القصير ، ثم المقصرة الحديدية ، والمجن الصغير المستدير ، وأخيراً الدرع والخوذة الشائكة .

(٤) زعامت اشتقت من الكلمة العربية « زعامة » .

(٥) الدفترداريون مفردها الدفتردار ، والدفترداريون هم فئة من كبار رؤساء الموظفين المتخصصين فى الشئون المالية سواء فى الحكومة المركزية أو حكومات الولايات العثمانية .

وكانت تربية الخيول والعناية بها وتدريبها تدريباً متواصلاً أموراً تعد فى مقدمة واجبات صاحب الإقطاع الحربى . فإذا استبان لموظفى الحكومة فى أثناء دوراتهم التفتيشية على الإقطاعات الحربيه إهمال أو تراخ من صاحب الإقطاع فى تربية الخيول كان هذا الإهمال أو التراخى سبباً كافياً لانتزاع الإقطاع منه .

وكانت الإقطاعات التى من نوع « تيمارات » و « زعامات » توجد فى ولايات الدولة المحكومة من إستانبول رأساً سواء فى أوروبا أو فى آسيا. ومع ذلك فلم تطبق الدولة هذا النظام على جميع تلك الولايات ، كما أن هذه الإقطاعات لم تكن تخضع تماماً لنظام واحد فى جميع المناطق. ومن الأقاليم التى طبق فيها نظام الإقطاع الحربى : الروملى ـ بودا ـ البوسنة ـ طمسفار[1] Temesvar ـ ديار بكر ـ أرضروم ـ دمشق ـ حلب ـ بغداد ـ شهر زور ـ إيالات الأناضول ـ جزر الأرخبيل ـ قرمان ـ مرعش ـ سيواس .

وكان أصغر السباهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون أتباع ، راكبين خيولهم، ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم .

التليمج والترق :

وكانت الأرض الممنوحة سواء كانت « تيمارات » أو «زعامت» تتكون فى العادة من جزءين هما . الأرض الأصلية ، وتسمى « قليج »[2] ، وإضافات تسمى « ترق »[3] وكانت هذه الإضافات تمنح بقصد توفير عشر الدخول التى يدرها « القليج » . وكانت أجزاء الإقطاع المتكونة من هذه الإضافات تسمى

---

(١) طمسفار أحد أقاليم المجر. وقد قسم فى سنة ١٩١٩ بين يوغوسلافيا ورومانيا .

(٢) قليج لفظة تركية بمعنى سيف . وكانت الأرض الأصلية من الإقطاع تسمى بهذا الاسم، لأن الإيرادات التى تغلها هذه الأرض الأصلية تعتبر كافية لتغطية نفقات السباهى وإعالته. ومن هنا كانت تعد السلطان بسيف فى أثناء الحرب .

(٣) اقتبست هذه اللفظة من الكلمة العربية: ترقى .

أيضاً « حصة »[١] . وكانت الحكومة تلجأ إلى انتزاع هذه الحصص من حوزة إقطاعى وإضافتها إلى إقطاعى آخر. وقد استغلت الحكومة هذه القاعدة لتشجيع كل سباهى على الوفاء بالتزاماته على أكمل وجه ، لأنه يرى رأى العين أن الإقطاعى الذى يظهر تراخياً فى عمله تعاقبه الحكومة بتجريده من الحصص وإضافتها إلى إقطاعى آخر . ويعتبر هذا الإجراء بمثابة إنذار للإقطاعى المتراخى فى عمله . فإذا استمر متكاسلا لجأت الحكومة إلى إجراء أكثر حزماً وأشد قسوة ، وهو تجريده من الأرض الأصلية ـ قليج ـ بصفة مؤقتة أو دائمة . ولكن ما حدث كان العكس تماماً ، فإن التيمارجية ـ وهم أدنى درجات السباهية العاديين من أصحاب التيمارات ـ كانوا يطمحون فى فجر تاريخ الدولة العثمانية إلى الترقى إلى مرتبة « زعيم » أى صاحب « زعامت »[٢] .

ثالثا : إقطاع أكبر مساحة من النوعين الأولين ويسمى «خاص» . وفضلا عن مساحته الكبيرة ، وهذه كانت فى حد ذاتها ميزة، كانت له ميزة أخرى تتمثل فى عدم خضوعه لتفتيش الدفتردار أو غيره من موظفى الحكومة. وكان هذا الإقطاع « الخاص » يمنح للولاة الذين فى الخدمة الحكومية . فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الوفاة أو العزل أو الترقية إلى منصب آخر ، نزع منهم الإقطاع « الخاص ». وجدير بالذكر أن بعض « التيمارات » و « الزعامات » كانت تمنح لبعض شاغلى المناصب الكبرى فى الدولة، فكانت تشبه الإقطاع « الخاص » الذى كان يرتبط بالمناصب .

وقد طبقت الدولة النظام الإقطاعى الحربى منذ وقت مبكر جداً يرجع إلى بداية حكم الأتراك العثمانيين حين كانوا يشكلون إمارة صغيرة فى الشمال الغربى

(١) جاءت هذه الكلمة من لفظة عربية هى « حصة » بمعنى نصيب الفرد من تقسيم إيراد ممتلكات عقارية مثلا .

2) Gibb Hamilton and Harold Bowen : op. cit., vol I, Part I, p 49

لآسيا الصغرى ، ثم توسعت الدولة فى تطبيق هذا النظام الإقطاعى الحربى . وكان يشترط فى الأتباع الإقطاعيين أن تكون أصولهم عثمانية بحتة ، فإذا تطرق الشك إلى أن أصولهم غير عثمانية سرحوا فوراً وانتزع منهم الإقطاع الحربى وما يستتبعه من امتيازات .

خواص همايون – يورتلقات:

وبجانب هذه الإقطاعات الحربية كانت بعض الإقطاعات التى من نوع « الخاص » ملكاً خاصاً للسلطان ويطلق عليها «خواص همايون » [1] وكانت أكبر وأهم الإقطاعات جميعاً من حيث المساحة وجودة الأرض ،وكان السلطان يمنح أجزاء منها لبعض أعضاء الأسرة الحاكمة من أميرات وسيدات من حريمه . كما كانت هنـاك أراض أخرى لها الطـابع الاقتصادى العسكرى تأسيساً على أن الإيراد الذى تغله هذه الأراضى يخصص لإنفاقه على الأغراض العسكرية مثل أفراد حرس الحصون والحاميات المحلية وعلى السلاح البحرى فى إستانبول . وكانت هذه الأراضى تعرف باسم اليورتلقات[2] و « الأوجاقلقات »[3] .

توزيع الإقطاعات الحربية :

كان نصف الأراضى الإقطاعية فى أيدى السباهية ، وتوزع على شتى فئات

---

(١) سبق أن شرحنا معنى هذه اللفظة فى هذه الدراسة ، ص٩٧ ، حاشية رقم ٤ .

(٢) يورتلقات ومفردها يورتلق ، معناها الخيمة ، أو البيت، أو مسقط الرأس ، أو الوطن . والإضافة فى نهاية الكلمة وهى « لق » فى صيغة المفرد ، ولقات فى صيغة الجمع معناها « ملك له » وبذلك يكون المعنى الكلى : ملك البيت أو الخيمة أو لمسقط الرأس أو للوطن .

(٣) أوجاقلقات كلمة تركية مشتقة من أوجاق بمعنى موقد ، أو فرقة عسكرية . ويستخدمها المؤرخ على هذا النحو : وجاقلى أى رجل منتسب إلى فرقة عسكرية. وكان هذا المؤرخ يجمعها وجاقلية .

والإضافة الواردة فى نهاية هذه الكلمة : أوجاقلقات وهى لقات هى صيغة الجمع ، بينما لق هى صيغة المفرد ، ومعناها ملك لـ . . . . وبذلك يكون معنى الكلمة المذكورة فى المتن هو أرض إقطاعية تتبع أوجاق أو أرض ملك للفرقة العسكرية .

العسكريين الإقطاعيين . فكانت الأرض الإقطاعية ذات الدخل في صنجق[١] عادى توزع على النحو الآتى :

---

(١) صنجق لفظة تركية لها عدة معان : (١) علم أو بيرق une bannière
(٢) لواء أو فرقة، أى تشكيل من تشكيلات الجيش une brigade (٣) قسم إدارى كبير
أو ولاية يحكمه أحد البكوات une circonscription territoriale administré
par un bey (٤) الحاكم على هذا القسم الإدارى الكبير ، كما كان يطلق على الإقليم الذى يحكمه صنجقية .

وفى تاريخ مصر إبان الحكم العثمانى كانت ترد كلمة صنجق فى أحد معنيين : أولهما مجرد رتبة أو وظيفة titre ou fonction فإذا كان يحمل الرتبة ولايشغل منصباً ، أطلق عليه « صنجق بطال » وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة بطالة أى عدم وجود عمل . وكان الباشا العثمانى فى القاهرة يمنح رتبة الصنجقية . وكان يصحب منح هذه الرتبة ترقية صاحبها إلى رتبة بك . وكان يقام حفل كبير فى القلعة يطلق عليه الصطبة والقفطان . أما المعنى الثانى لاستخدام كلمة صنجق فهو أحد أعضاء « هيئة صناجق مصر » أو « جماعة أمراء محافظين مصر المحروسة » وكان عددهم فى معظم الأحيان أربعة وعشرين صنجقاً . ويسمى كل منهم « صنجق طبلخانة » وتكتب أحيانا « صنجق طبل خانة » أى تدق له الطبول عند مطلع الشمس وفى غروبها ، وعند تحركاته وذلك تقديراً لعلو مركزه وسمو مقامه . وقد احتفظت حكومة إستانبول لنفسها بحق تعيين أربعة منهم هم صناجق الثغور المهمة الثلاثة وهى الاسكندرية ، ودمياط والسويس، وكذلك وكيل الباشا العثمانى فى القاهرة ويسمى الكتخدا. ويلاحظ أن عدد البكوات الصناجقة فى مصر لم يكن دائما أربعة وعشرين ، فتارة كان يقل من هذا الرقم ، وتارة أخرى يتجاوزه . وعلى العموم كان البكوات الصناجقة المماليك يحكمون الأقاليم الإدارية الكبرى الخمسة وهى الغربية ، المنوفية ، الشرقية ، البحيرة ، جرجا ، كما كانوا يشغلون مناصب كبرى مثل الدفتردار ، أمير الحج ، أمير الخزينة الإرسالية أى قائد القوة العسكرية المرافقة لخزينة مصر المرسلة إلى إستانبول ، قيادة الحملات العسكرية التى ترسل من مصر للانضمام إلى الجيش العثمانى فى وقت الحرب . ويلاحظ أيضاً أن مصطلح « صنجق طبلخانة » كان متداولا فى مصر فى العصر المملوكى قبل العثمانى ، إذ أن بعض الأمراء فى دولة المماليك كانوا أمراء طبل خانة أى يكسبهم مركزهم أن تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية التى تتكون منها طبلخانة السلطان المملوكى .

انظر :

Gaudefroy—Demombynes:

La Syrie à l'Epoque des Momeloukes d'après les Auteurs Arabes, Paris, 1923, p 38

وتكتب كلمة صنجق بحرف الصاد تارة ، وبحرف السين تارة أخرى ، كما تكتب فى صيغ مختلفة ، منها :

$\frac{٢}{٥}$ مساحة الإقطاع من نوع التيمارات

$\frac{١}{١٠}$ مساحة الإقطاع من نوع الزعامات .

$\frac{١}{٥}$ مساحة الإقطاع من نوع الخواص .

$\frac{١}{١٠}$ مساحة الإقطاع من نوع أوجاقلقات

$\frac{١}{٥}$ أوقاف .

وكان العسكريون الإقطاعيون يتمتعون بحقوق وراثيـة ،ولذلك ارتبطت مصالحهم ومصالح عائلاتهم بهذا النظام، ونجم عن تقرير حق الوراثة فى الإقطاعات

=سنجق — صنجاق — صايجاق
سنجق — سنجاق — سانجاق
ونجمع على النحو التالى .
صناجق — صناجيق
سناجق — سناجيق

[١] انظر

Barbiar de Meynard; Dictionaire turco—francais, 2 vols., Paris, 1881-1886, vol. II, p. 63, 100, et 218.

Boctor; Dictionaire francais—arabe, revu et augmenté par A. Caussin de Perceval. 2 vols., Paris, 1829, vol. I, p. 94.

Bozy; Supplément aux dictionaires arabes, 2 ème édition : eyde—Paris, 1927, t. I, p· 691, 846.

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٥٨ .
حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ ، ص ١٤ ، ص ١٦ ، ص ١٧

أن انتفى احتمال قيام حركات تمرد أو منافسة من جانب أفراد هذه الطبقة للسلاطين[1]. وسنتناول نظام الوراثة فى الإقطاعات الحربية بشىء من التفصيل فى موطن قادم فى هذه الدراسة عند الكلام على القوات المسلحة العثمانية .

مزايا الإقطاع الحربى :

من مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقى والرأسى فى زراعـــة مساحات شاسعة من الأراضى داخل الأقاليم العثمانيـة فى أوروبا وفى آسيـا . واطمأنت الدولة إلى أن جهوداً صادقة تبذل للنهوض بزراعتهـا بدافع المصلحة المشتركة بين الأتباع الإقطاعيين وبين الفلاحين . كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول وقت زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبلـغ فى بعض الأوقات مائتى ألف رجل[٢] دون تـكاليف تذكر ، لأن التابع كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه . وفضلا عن ذلك فقد وفر هذا النظـام على الدولة مرتبـات العسكريين سواء فى زمن الحرب أو فى أوقات السلم . وقد طبق هذا النظام على سلاح الخيالة - سلاح الفرسان — ولم يطبق على سلاح البيادة — سلاح المشاة. وفوق كل هذه المزايا وأهمها نذكر المستوى الحربى العالى الذى كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون . وقد قرر أحد كبار المؤرخين الأتراك وهو أحمد جودت « أن أقوى قوات قتالية فى الدولة العلية كانت تتكون من أصحاب التيمارات والزعامات»[٣] وتضاف إلى مزايا الإقطاع الحربى مزايا أخرى . فقد ربط العسكريين بالأرض ، وحال دون اتخاذ الفتوح العثمانية طابع الاحتلال العسكرى .

---

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I, Part I, p 52

2) Loc. cit.

3) op. cit, p. 53, f.n. 1

نقلا من أحمد جودت : تاريخ جودت ، ١٢ جزءاً ، إستانبول ١٣٠٩ هـ ، « دولت عليه نك أن جسيم قوت عسكريا أرباب تيمار وزعامت أيدى » . ج ١ ، ص ٩٠ .

وأخيراً فقد خفف نظام الإقطاع الحربى عن الإدارة المالية فى الدولة عبء جمع الضرائب من الفلاحين فى الأراضى التى طبق عليها هذا النظام .

عيوب الإقطاع الحربى :

لم يخل نظام الاقطاع الحربى من عيوب . فإن ارتباط أصحاب التيارات والزعامات بالأرض قد جعل بعضهم يتقاعس عن مبارحة أراضيهم عند دعوة الحكومة لهم بالالتحاق بالجيش عند نشوب الحرب . فإذا استجابوا للنفير العام وأخذوا أماكنهم فى ساحة القتال ، تحرقوا شوقاً إلى العودة إلى أراضيهم . ولذلك كانت تحرص الحكومة على أن يكون نفوذها عليهم قوياً خشية أن تصبح هذه القوة عديمة الفائدة إذا تراخت قبضة الحكومة عليهم .

كما كان بعض أصحاب الإقطاع الحربى يهملون المران الشاق الطويل سواء لهم شخصياً أو لأتباعهم الأمر الذى كان يؤثر على كفايتهم القتالية . كما كان البعض الآخر لا يعنى العناية التامة بتربية الخيول وهى عماد سلاح الخيالة . وفى أمثال هذه الحالات كانت الحكومة تتدخل وتنزع منهم أراضى الإقطاع وتجردهم من امتيازاتهم .

ويؤخذ على نظام الإقطاع الحربى أيضاً أنه جعل الفلاحين أداة مسخرة فى يد العسكريين فى أوقات السلم . كان الأولون ينصرفون إلى فلاحة الأرض واستثمارها تحت إشراف العسكريين الذين كانوا يفوزون بالنعم الأكبر مادياً وأدبياً وأصبحوا فى وضع يشبه وضع السادة . وبقى الفلاحون فى وضع أقل بكثير من وضع العسكريين ، بل إنهم كانوا فى حكم الأرقاء . وفى ضوء هذه المقارنة بين الإقطاعيين العسكريين والفلاحين يتهاوى الرأى الذى يقرره بعض الباحثين بأن الفلاحين والفرسان الإقطاعيين اعتبروا أنفسهم بمضى الزمن شعباً واحداً مهما

كانت أصولهم الجنسية ، وذلك باستثناء الحالات التى كانت الاختلافات الدينية تحول دون ذلك[1] .

لم يبتكر العثمانيون الإقطاع الحربى :

وكان أخذ الدولة العثمانية بالنظام الإقطاعى الحربى أمراً طبيعياً ، لأنها كانت دولة عسكرية بكل ما تحمله هذه العبارة من معان . وكان الجيش يظفر — كما سبق أن ذكرنا — بأعظم قسط من اهتمام الدولة وعنايتها ، وفرت له جميع الإمكانيات البشرية والمادية ليغدو أكبر قوة عسكرية ضاربة .

ولم تبتكر الدولة العثمانية نظام الإقطاع الحربى ، فقد كان هذا النظام سمة بارزة فى الدولة السلجوقية التى كانت ذات صبغة حربية ، كما أن مصر قد عرفت نظام الإقطاع الحربى وبخاصة عندما أدخله السلطان صلاح الدين الأيوبى فيها أيام الدولة الأيوبية . وكان صلاح الدين قد شاهد ومارس الإقطاع الحربى فى الدولة الزنكية على عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى الذى أسس دولته ذات العاصمتين : حلب والموصل ، وأوغل فى حروبه ولجأ إلى تعميم نظام الإقطاع ، ودرج على ذلك ابنه نور الدين . وتوطد نظام الإقطاع الحربى فى مصر والشام زمن السلاطين الأيوبيين الذين أورثوا هذا النظام لدولتى المماليك البحرية والشراكسة . وهكذا نجد أن النظام الاقتصادى العسكرى ساد مصر إبان حكم الدول ذات الطابع الحربى والتى قامت فيها .

كان فى مصر زمن صلاح الدين وخلفائه سلاطين الدولة الأيوبية نوعان من الإقطاع : الإقطاع الحربى ، ولم يكن يختلف فى أصوله وقواعده ومظاهره عن الإقطاع السلجوقى، إذ اقترن بما يؤديه صاحب الإقطاع من خدمات حربية زمن خضوعه لسيطرة الحكومة المركزية .

---

(1) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., vol I, Part I pp. 46-47.

ومن أهم هذه الخدمات تقديم عدد معين من الفرسان بخيولهم وسلاحهم إلى الجيش عندما تشترك الدولة فى حرب ما . وأصبحت مصر مقسمة إلى إقطاعات لأبناء البيت السلطانى الأيوبى وإقطاعات لأمراء الأجناد وإقطاعات للعربان . أما النوع الثانى فهو الإقطاع الإدارى واختص به الأمراء من الأسرة الأيوبية الحاكمة وكبار الموظفين . وكان السلطان يوصى أرباب الإقطاع الحربى بأن يكونوا دائما « فى التأهب للخدمة كالسهم الموضوع فى وتره » وأن يكثروا من الفرسان بزيادة العطاء لهم[1] . وكان من وجوه النقص الإقطاعى فى التنظيم الأيوبى أن المقطعين كانوا يذهبون إلى إقطاعاتهم للإشراف على جمع المحصول وتخزينه . والتزم السلاطين الأيوبيون بذلك، فكان إذا خرج أرباب الإقطاع إلى ساحات القتال ثم حلت مواعيد الحصاد ، فإنهم يعودون سراعاً إلى إقطاعاتهم، بينما تكون العمليات الحربية دائرة فى منتهى الضراوة .

ومع ذلك فإن الدولة الأيوبية قد نجحت إلى حد بعيد فى حماية الفلاحين الخاضعين للإقطاع الحربى من سادتهم الإقطاعيين العسكريين ، فكانت تحدد الإيجارات والجبايات التى يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعى ، وتراقب تنفيذ هذه الالتزامات مراقبة دقيقة منعاً لاستغلال العسكريين للفلاحين . ومن هنا انطلقت العبارة المشهورة وهى أن السادة الإقطاعيين العسكريين فى العصر الأيوبى كانوا فى نعمة محدودة[2] .

---

(١) انظر :

دكتور السيد الباز العرينى : الإقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى . حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ .

دكتور حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين . مطبوعات كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٤، ص ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

وجرت دولة المماليك الشراكسة[1] على توزيع الأراضى — وموارد أخرى فى بعض فترات الحكم — إقطاعات بين السلطان والأمراء والأجناد. وكانت الأراضى المقطعة ثلاث درجات من حيث الرى والخصوبة ووفرة الإنتاج. وأطلق على ديوان الجيش ديوان الإقطاع دلالة على إيغال الدولة فى تطبيق نظام الإقطاع الحربى. وكان هذا الديوان يتولى إصدار الوثائق الإقطاعية الأولى، ثم يقوم ديوان الإنشاء بإعداد الصياغة اللفظية النهائية للمقطع، ويعرف هذا المستند باسم المنشور، ويتسلمه المقطع، وبذلك يأخذ الإقطاع الصبغة القانونية. وكان يعرف إقطاع السلطان باسم « الخاص السلطانى » أو « بلاد الخاص » أو « الخاص الشريف » تمييزاً له عن « الأملاك السلطانية » المتمونة بالشريفة، فالخاص هو الإقطاع الذى يحوزه السلطان بوصفه سلطاناً، وهو إقطاع استغلال كغيره من الإقطاعات، فهو يحوزه لكنه لا يملك رقبته، ولذلك ينتقل إلى غيره بزوال السلطنة عنه، أما الأملاك الشريفة السلطانية فهى التى يشتريها السلطان بماله من إيراداته المتنوعة. وكان أولاد السلاطين يحوزون إقطاعات حربية كبيرة وهم لايزالون صغار السن فى بعض الأحيان، ويحوزون أيضاً الرتب العالية فى الجيش المملوكى وكانت أهم فرقة فى هذا الجيش من حيث حيازة الإقطاع الحربى هى فرقة أجناد الحلقة. وكانت هذه الفرقة هى الأصل فى حيازة الإقطاع الحربى، وكانت تليها فرقة المماليك السلطانية ثم فرقة أجناد الأمراء[2]. وكانت الدولة تمنح إقطاعات للعربان والتركمان والأكراد. وكانت

---

(١) آثرنا أن نتكلم عن إحدى دولتى المماليك كمثال للإقطاع الحربى المملوكى، من قبيل الاختصار، وبذلك نكون قد تكلمنا عن الدولة الأيوبية ودولة المماليك الشراكسة من ناحية الملامح العامة للإقطاع الحربى عموما ونحيل من يريد الاطلاع على هذا النظام فى دولة المماليك البحرية إلى دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى الخ مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٤٨ — ٣٥٢، كتابه الآخر : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية القاهرة، ١٩٥٩، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ص ١٩٧.

(٢) دكتور ابراهيم على طرخان : الإقطاع الإسلامى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. المجلد السادس، سنة ١٩٥٧).

وانظر أيضا لنفس المؤلف : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ص ٢١٥ — ٢٣٩.

هذه العناصر الثلاثة الأخيرة تخدم الدولة عن طريق حماية الحدود ورد غارات القبائل التركمانية الأخرى المعادية . وكان لهؤلاء العربان والتركمان والأكراد سجل خاص فى ديوان الجيش تدون فيه جميع البيانات عن إقطاعاتهم الحربية .

على هذا النحو كان سلاطين الدولة الأيوبية ودولتى المماليك يقطعون الأمراء أراضى زراعية وغيرها لاستغلالها تسمى إقطاعات . وكان كل إقطاع يختلف عن الآخر من حيث حجمه ، أى مساحته ، وموقعه ، وخصوبة تربته مما يؤثر فى النهاية على مايغله من إيراد . وكان صاحب الإقطاع لايتقاضى عن خدماته فى الجيش مرتبات نقدية أو عينية من الدولة ، بل كان يؤدى للدولة ، نظير الإقطاع الممنوح له ، خدمات حربية ومالية ومدنيه . وكان أهمها الخدمات الحربية . فعند ماتنشب الحرب كان يتعين على كل مقطع — أى صاحب إقطاع — أن يتدم إلى الجيش عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم وملابسهم وذخيرتهم . وكان هذا العدد يتناسب مع مساحة الاقطاع ومميزاته[1] .

وكان السلاطين يعمدون إلى حرمان المقطع من إقطاعه إذا بدا منه تقصير فى تربية الخيول أو إعداد الفرسان . وكانت الدولة تلجأ — كإجراء وقائى — إلى تفتيت الإقطاع بحيث لا يكون كتلة إقليمية واحدة خشية أن يستقل بهـا صاحب الإقطاع أو يزداد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وكان يجوز نقل الإقطاع من شخص إلى آخر .

---

(١) تمثلت الخدمات المالية التى كان يؤديها صاحب الإقطاع فى أن يؤدى من حصيلة الأموال التى قام بجبايتها التزامات الدولة ، مثل أداء جزية الجوالى — وهى جزية الرأس المقررة على أهل الذمة من اليهود والنصارى البالغين دون النساء والصبية والرهبان والأرقاء والمجانين فضلا عن الشيوخ والفقراء — وكذلك نصيب الدولة فى الأتبان — أى التبن — والفراريج — أى الدجاج . . وكان رسم الأتبان يقسم إلى ثلاثة أقسام : اسم لديوان الجيش وقسم المقطع ، وقسم المزارع وكان رسم الفروج أو الفراريج يقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام : دجاج للدولة ، ودجاج المقطع ، وفائض بمقدار الثلث يسمى أتعاب التربية أى أجرة التربية ويخصص للفلاح

أما الخدمات المدنية التى كانت مفروضة على صاحب الإقطاع فتنحصر فى صيانة الجسور وإمداد الفلاحين بالتقاوى والاهتمام بالزراعة بوجه عام .

انظر .

دكتور حسنين محمد ربيع التنظيم المالية ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٥ — ٣٩

تلك ملامح سريعة جـداً للنظام الحربى الذى طبقته الدول ذات الطابع الحربى والتى تأسست فى مصر قبل الفتح العثمانى لها ، وهى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ودولة المماليك الشراكسة . ومن هذه الملامح يتضح أن كلا النظامين الإقطاعيين : العثمانى من ناحية ، والأيوبى والمملوكى من ناحية أخرى يتشابهان فى بعض الجوانب ويختلفان فى جوانب أخرى . ولـكن الفـكرة الأساسية وراء منح الإقطاعات الحربية كانت واحدة فى ذهن ولى الأمر ، وهو السلطان فى هذه الدول الأربع ، وهذه الفـكرة هى ضمان حصول الدولة على قوات قتالية بمجرد إعلان التعبئة العامة . أما وجوه الاختلاف فـكانت تنصب على مسائل شكلية فى أثناء التطبيق العملى لهذا النظام فى كل دولة من هذه الدول الأربع .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى أول ما طبقته فى الولايتين الأصليتين اللتين تعرفان باسم الأناضولى[١] والروملى[٢] . وتغطى الولاية الأولى الأناضول أو شبه جزيرة الأناضول أو آسيا الصغرى ،وتشمل الثانية بلاد البلقان فى أوروبا . ولما فتحت الدولة معظم الأقاليم العربية فى آسيا وإفريقية فى القرن السادس عشر شرعت فى تطبيق الإقطاع الحربى أو نظام الالتزام أو كليهما معاً فى الولايات العربية . ولم يكن هذا التطبيق تطبيقاً حرفياً لما كان عليه العمل فى تـكلتا الولايتين ، لأن القوانين والإجراءات التى صدرت لهما فى القرن الخامس عشر كانت تعـكس الأحوال السائدة فى الأناضول وبلاد البلقان وقتذاك . ولذلك يمكن القول إن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى على نحو من الأنحاء فى الولايات العربية .

وسنتكلم هنا ـ كمثال ـ عن ثلاثة من الأقاليم العربية التى وقعت تحت السيادة العثمانية وهى مصر وبلاد الشام والعراق

---

(١) يطلق عليها فى بعض المراجع إيلى أناضولى

(٢) يطلق عليها فى بعض المراجع إيلى روملى .

نظام الإلتزام :

أما النظام الآخر الذى كان يحمل الكثير من سمات النظام الإقطاعى فهو نظام الإلتزام . وقد طبقته الدولة العثمانية فى الأقاليم أو المناطق التى لم تخضع لنظام الإقطاع العسكرى . وجدير بالذكر أولا أن الدولة العثمانية لم تبتكر نظام الإلتزام . فقد وجدته معمولاً به فى بعض الأقاليم التى خضعت لها سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى شمال العراق . ولما فشل نظام المقاطعات أو الأمانات فى مصر وأسفر تطبيقه عن عيوب كثيرة[1] ، رأت الدولة أن تستبدل بهـذا

(١) عن نظام المقاطعات أو الأمانات انظر كلا من :

Shaw Stanford J., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt. (1517-1798) Princeton University Press, Princeton. N J., 1962. p. 27 & pp. 352—362.

Shaw Stanford J.; The Ottoman Archives as a source for Egyptian History.
in
Journal of the American Oriental Society vol. 83. (1963), p. 448.

Shaw Stanford J., Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt pp. 94—95, 99.

. وهو أحد بحثين تقدم بها ستانفورد شو الأستاذ بجامعة برنستون Princeton بالولايات المتحدة الى مؤتمر دولى عقد فى شهر ابريل ١٩٦٥ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ الى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل إن بعض البحوث قد امتدت الحلقة التاريخية التى تناولتها الى سنة ١٩٦٢ وشملت نمو الإنتاج الزراعى فى مصر من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٩٦٢ . وكان موضوع البحث الآخر الذى قدمه ستانفورد شو : المصادر التركية عن التاريخ المصرى . وقد جمعت البحوث التى ألقيت فى المؤتمر ، وتولى الأستاذ هولت ب . م أستاذ تاريخ العالم العربى فى جامعة لندن نشر هذه البحوث فى كتاب جعل عنوانه :

Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic; edited by P.M. Holt. London, 1968.

Holt P.M. =

النظام نظاماً آخر هو نظـام الإلتزام . وسنلم إلماماً سريعاً بالملامح العامة لهذا النظام .

وبمقتضى نظام الإلتزام كانت الدولة تعهد — بعد إجراءات معينة — إلى شخص من دوى النفوذ والثراء فى العادة بجباية الضرائب المربوطة على الأراضى الزراعية والمقررة على الفلاحين فى قرية أو أكثر من قرية لمدة زمنية محددة أول الأمر . وكان يطلق على هذا الشخص المصطلح التاريخى « الملتزم » . وكان عليه ، قبل أن يباشر عمله كملتزم ، أن يدفع مبلغاً من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التى يمارس فيها اختصاصاته ، وكانت هذه المنطقة تسمى « دائرة الإلتزام » .

إجراءات الحصول على حق الإلتزام

كانت الحكومة تعطى هذا الحق بطريقة المزاد بين راغبى الحصول على حق الإلتزام أو بطريقة الاتفاق. وكان إجراء المزاد هو أكثر الطريقتين تطبيقاً[1] . وكان تطلق على المزاد لفظة « مزايدة »[2] .

وكانت جلسات المزاد تعقد فى أوائل شهر توت من كل سنة ، أى أوائل شهر سبتمبر ، لأن المصريين اعتادوا أن يربطوا كأسلافهم مواسم الزراعة ومواعيد الفيضان ووقت الوفاء بشهور التقويم القبطى لاتساق مواعيده ، ولكن

= in

Bulletin of the School of Oriental and African Studies. University of London. vol. 26, 1, 1963, pp. 185 – 186

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1, Part 2, p. 21 n.

1) Arminjon Pierre; La Situation Economique et Financière de L'Egypte Le Soudan Egyptien. Paris, 1911; p. 678

2) Shaw Stanford J ; Landholding etc, op. cit., p. 95.

كانت الحكومة تنص فى وثائق الإلتزام على التاريخ الهجرى الموافق للتاريخ القبطى ، لأن سداد المال الميرى كان يتم حسب أشهر التقويم الهجرى[١] .

وطبقاً لنظام الإلتزام كانت الأرض الزراعية فى القرية تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطا . وهذا التقسيم لاعلاقة له بقراريط الفدان المعروفة . فقد يصل القيراط فى نظام الإلتزام إلى عشرات الأفدنة[٢] . ومن المعروف أن المزاد يرسو على من يعرض أكبر مبلغ بين المتزايدين. وعقب سداد المبلغ فى ديوان الروزنامة[٣] ، يحمل هذا الشخص بصفة رسمية لقب ملتزم ، ويتلقى ثلاثة مستندات رسمية ،أولها « تقسيط الإلتزام » ويحدد فيه تحديداً دقيقاً المال الميرى الواجب سداده ، واسم القرية أو القرى الملتزمة ، وعدد قراريطها ، ومساحة هذه القراريط .

---

(١) ابراهيم المويلحى : الأرض والفلاح فى العصر العثمانى . بحث منشور فى « الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور » الناشر : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل السابع ، ص ص ٢٢٥ — ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تتكون كلمة روزنامه من جزءين : روز ، وهى كلمة فارسية معناها النهار ونامة بمعنى دفتر الحوادث أى دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومى ، ثم أصبح معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات فى الدفاتر الرسمية . وكان رئيس هذا الديوان يسمى روزنامجى .وكان فى أول الأمر عثمانياً يحضر من إستانبول اشغل منصبه . وظل منصب الروزنامجى على هذا الوضع إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر حين شغله الأمراء المماليك ذوو النفوذ .

عن القسم الأول الخاص بشرح مصطلح الروزنامة ، انظر :

دكتور حسن عثمان : تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) فى كتاب : المجمل فى التاريخ المصرى تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول سابقا (جامعة القاهرة) . القاهرة ١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م ، ص ص ٢٣١ — ٢٨٤ انظر ص ٢٦١ ، حاشية رقم ١

ومن القسم الثانى الخاص بشخصية الروزنامجى،انظر : يوسف الملوانى (ابن الوكيل) تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب . مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ ، ص ١٠٣ .

أما المستند الثانى الذى يصدر إلى الملتزم فكان يسمى « التمكين » [1] وكان بمثابة عقد . ولهذا يطلق عليه بعض الباحثين « عقد الإلتزام » وكان يحمل ختم لباشا العثمانى والدفتردار [2] . وتوضح فيه منطقة إلتزامه ومقدار الأموال الأميرية المقررة عليها ، كما يرد فى هذا المستند نص صريح موجه إلى الملتزم بضرورة معاملة الفلاحين وسائر الأهالى بالرحمة والعدل [3] ،« وأن يكون متسامحاً مع الفلاحين ، وألا

(١) التمكين وجمعها التمكينات يقول عنها الاستاذ محمد شفيق غربال إنها من أهم مصطلحات العصر العثمانى فى مصر « فلا بد من تمكين قديم أو جديد ، والمعى أو وهمى ، لاكتساب حق أو الانتفاع بحق . ومن أهم التمكينات إذ ذاك التقاسيط التى يصدرها الباشا للملتزمين ويمكنون بواسطتها من حصص التزامهم » .

انظر :

حسين أفندى : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندى أحد أفندية الروزنامة فى عهد الحملة الفرنسية . نشر وتعليق الأستاذ محمد شفيق غربال تحت عنوان « مصر عند مفرق الطرق » (١٧٩٨ — ١٨٠١) المقالة الأولى . مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، ص ص ١ — ٧٠ ، ص ١١ ، حاشية رقم ١

واستخدم فى مصر فى أثناء الحكم العثمانى مصطلح آخر يسمى كدك بفتح الكاف الأولى وهى كلمة تركية وتجمع كدكات ، ومعناها التمكين من مزاولة صناعة ما

انظر المرجع السابق ، ص ٢٦ حاشية رقم (١)

(٢) الدفتردار هو رئيس الديوان الدفترى . وكان هذا الديوان بمثابة وزارة المالية بالمصطلح الحديث ، كما كان حسب النظام المالى القائم على نظام الإلتزام ، كان يتبعه ديوان الروزنامة . وكان الدفتردار عثمانياً فى أوائل العصر العثمانى فى مصر ، ويختار من بين كبار رجال الخزانة السلطانية المركزية فى إستانبول ، ويرد ذكره فى الأوراق الرسمية بلقب « دفتردار أفندى » أو « دفتردار خزينة عامرة » . ولما تركزت السلطة فى يد الأمراء المماليك احتكروا هذا المنصب لأنفسهم منذ أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر .

انظر :

دكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى . رسالة دكتوراه فى التاريخ الحديث من كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٥ — رسالة دكتوراه لم تطبع بعد — ص ٢٨٤ .

(٣) انظر كلا من :

يعقوب أرتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية . تعريب سعيد عمون ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، ص ٤٥

محمد البحيرى وعبد الله غنام : شرح القوانين واللوائح الزراعية ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٢٨٥ .

يظلم أحداً منهم »[1]. وكان الملتزم يتسلم فى ذات الوقت مستنداً يطلق عليه تميقة أو ثاميك . ويرد هذا المصطلح فى المراجع الفرنسية Vahmik [2]. ويكتب هذا المستند على ورقة لايعدو حجمها راحة اليد . وهذا المستند بمثابة أمر موجه من الحكومة إلى فلاحى منطقة الإلتزام تبلغهم بأنهم أصبحوا منذ ذلك الوقت مساعداً فى حوزة الملتزم ، فعليهم أن يلتزموا بطاعته [3].

وفى ذات الوقت كانت تصدر عن ديوان الروزنامة « تذاكر ديوانية » إلى سكان كل قرية يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال الميرى المربوط على أراضى القرية وغير ذلك من التزامات مالية ، وذلك من قبيل الرعاية لمصالح الفلاحين فلا يطالبهم الملتزم بأكثر مما هو مقرر عليهم .

فئات الملتزمين :

إذا أخذنا مصر كمثال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام نجد أن الملتزمين كانوا أخلاطاً شتى من المجتمعات التى وجدت فى مصر إبان الحكم العثمانى. كان من بينهم عسكريون ومدنيون وسيدات . فمن العسكريين رجال الأوجاقات أى فرق الحامية العثمانية ، والضباط العثمانيون المتقاعدون ، وهؤلاء كانوا يمضون شهور السنة فى التنقل بين القاهرة وإستانبول [4]. وكان من بين الملتزمين العسكريين أيضاً أصحاب العصبيات كأمراء المماليك ومن ينتمون إليهم مثل الجلابية ، وهم المماليك الذين لم يولدوا فى مصر ، بل جلبوا من خارجها، ويسمون أيضاً الأجلاب . أما الملتزمون المدنيون فكان من بينهم الأشراف وكبار علماء الأزهر ، وفيهم شيخ الأزهر ، وأرباب السجاجيد وهم طائفة تمتع أفرادها بالإحترام العميق من

---

(١) ابراهيم المويلحى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٧

(٢) Arminjon Pierre; op. cit., p. 679.

(٣) دكتور أمين مصطفى عفيفى عبدالله : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ ؛ ص ٣٨١ .

(٤) Shaw Stanford J.; Landholding etc.; op. cit., p. 96

المصريين تكريماً لأجدادهم الأولين من كبار الصحابة [١]. وكان من بين الملتزمين المدنيين أيضاً التجار ومشايخ العرب مثل الهوارة وغيرهم ، ثم دخلت النساء ميدان الإلتزام فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وطرأت على الريف المصرى هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة ، وهى وجود سيدات ملتزمات إلى جانب الملتزمين ، وازدادت هذه الظاهرة وضوحاً وبروزاً فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر [٢]. وكان يطلق على السيدات الملتزمات مصطلح تركى عربى هو

---

(١) كان أرباب السجاجيد ينتمون إلى عدة أسر ، هى أسرة الشيخ البكرى وتنحدر من أصلاب أبى بكر الصديق ، وأسرة الشيخ السادات وتنتمى إلى أسرة على بن أبى طالب ، وأسرة الشيخ العنانى وتتسلسل أفرادها من عمر بن الخطاب ، وأسرة الشيخ الخضيرى وترجع أصولها الأولى إلى الزبير بن العوام .

ولما فتح السلطان سليم الأول مصر اهتم بأمر أرباب السجاجيد اهتماماً كبيراً جداً ، ورتب لهم موارد رزق سخية ودائمة ، وأعطاهم بلاداً ومكنهم فيها . وكانوا أعضاء فى ديوان القاهرة . وكان الباشا العثمانى فى مصر وكبار موظفى الحكومة يرجعون إلى أرباب السجاجيد — وكان معظمهم ينتمى إلى شرف المحتد غزارة العلم — فيرجعون إليهم عندما تستغلق عليهم دقائق المسائل الهامة ، ويسترشدون بآرائهم . وكانوا يتلقون « القادم » أى الهدايا من الباشا العثمانى عند تعيينه فى منصبه وقدومه إلى مقر منصبه . وكانوا يصعدون إليه فى القلعة فى أول كل شهر عربى لتهنئته بحلول الشهر . وكان يقدم لهم فى شتى المناسبات على مدار السنة فراوى سمور ، وهو الرداء الرسمى لشاغلى المناصب الكبرى والشخصيات الكبيرة .

(٢) يقرر الأستاذ محمد شفيق غربال فى تعليقه على إجابة حسين أفندى — وهو أحد أفندية ديوان الروزنامة الذى قال إن الإلتزام أصبح « للمريعات » — أنه يجزم أن هذا الأفندى لم يقصد إطلاقاً أن يقول إن الملتزمين فى عهده كانوا جميعاً من النساء . . ولكن الأستاذ غربال يقول فى ذات التعليق إنه من الصعوبة تفسير « ماذا يريد أن يقول » حسين أفندى .

وقد يكون أحد الأبواب الذى دخلت منه السيدات ميدان الإلتزام هو حق التوريث الذى تقرر للملتزمين فى القرن الثامن عشر أو أواخر القرن السابع عشر على حصص إلتزاماتهم قد أتاح عديد الفرص أمام الزوجات ، فورثن عن أزواجهن نصيبهن الشرعى فى حصة الإلتزام بعد أن أتممن الإجراءات التى كان يتطلبها القانون من حيث تقديم الطلب ودفع الحلوان ، وهو الرسم المقرر ، كما سنرى بعد قليل .

انظر : حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

خواتين، والخواتين جمع تكسير عربي لكلمة خاتون التركية ومعناها سيدة[1] .
وكانت السيدة الملتزمة تطبق عليها ذات الإجراءات التي يخضع لها الرجال الملتزمون فكانت السيدة تدخل مزاد الإلتزام، فإذا رسا عليها المزاد كان اسمها يدرج في دفاتر الروزنامة . وتعين المعاونين لها في منطقة الإلتزام، وتزور المنطقة من حين لآخر لتطمئن على سير الأمور وكانت تهدد هذا، وتنهر ذاك، وتشهد ضرب الفلاحين الماطلين . وكان المشد[2] يصحبهم من شوار بهم. وتتسلم الأموال فتأخذ نصيبها وتسدد لديوان الروزنامة الضرائب المقررة وتستلم المخالصات واستمر العنصر النسائي في نظام الإلتزام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين ألغى محمد على نظام الالتزام كلية في سنة ١٨١٤ بعد أن قرر تقديم تعويضات هزيلة مالية أو عينية للملتزمين والملتزمات[3] . ويشير المؤرخ الجبرتي إلى نشاط السيدات الملتزمات في مقاومة محمد على حين قرر إلغاء نظام الالتزام وقيامهن بمظاهرة إلى الجامع الأزهر حيث طلبن من علمائه تعطيل الدراسة في الأزهر والوقوف بجانبهن في وجه هذا الوالي[4] .

---

(١) ابراهيم المويلحي، مرجع ذكره، ص ٢٠٢ .

(٢) المشد هو الشخص المكلف بضبط وإحضار الفلاح الماطل وضربه، ويستعرض له بعد قليل عند الكلام على معاوني الملتزم في أراضي الإلتزام .

(٣) لم يلغ محمد على نظام الإلتزام في جباية الأموال الأميرية دفعة واحدة ، بل مر الإلغاء بعدة مراحل بدأت في سنة ١٨٠٩ وانتهت في سنة ١٨١٤ . وفي تلك السنة ترك لفريق من الملتزمين أراضي الوسية بصفة ملك منفعة يستغلونها على مدى حياتهم دون أن يدفعوا عنها ضرائب ، ثم ترد إلى بيت المال عقب وفاتهم . وقرر لفريق آخر من الملتزمين معاشات سنوية نقدية تعادل دخلهم من نظام الإلتزام بناء على تقديراتهم . وكانت هذه التقديرات أقل بكثير من « الفائض » ، وهو دخلهم الذي كانوا يحصلون عليه ، لأنهم لم يكونوا يعلمون وقت تقديرها الغرض الذي طلبت من أجله هذه التقديرات .

انظر :

دكتور محمد فهمي لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة . القاهرة ، ١٩٤٤ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ص ص ١١٣ — ١١٥ .

(٤) الجبرتي، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ص ٢٠٤ حوادث اليوم الخامس من شهر ربيع أول سنة ١٢٢٩ الموافق اليوم السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨١٤ .

أرباح الملتزم :

كان الملتزم يحقق فى ظل نظام الإلتزام أرباحاً مادية وعينية تنوعت أشكالها وطبيعتها . فهو أولاً يحصل على « الفائض » وهو الفرق بين ما يدفعه أو يتعهد يدفعه للحكومة[1] وبين حصيلة ما يجبيه فعلاً من فلاحى القرية أو القرى الواقعة فى دائرة الإلتزام . وفضلا عن هذا « الفائض » كان الملتزم يحتفظ لنفسه بجزء من الأرض يسمى أرض « الوسية »[2] وكانت هذه الأرض تعادل من حيث مساحتها عشر مساحة الأراضى التى فى أيدى الفلاحين والواقعة فى منطقة الإلتزام[3] . وكانت أرض الوسية أيضاً معفاة من الضرائب . وهذا الإعفاء الضريبى المقرر لأرض الوسية كان إمتيازاً فى ذاته ،وأضيف إليه إمتياز آخر، هو تكليف الفلاحين بزراعة هذه الأرض بالمجان وفقاً لنظام السخرة. وعلى الرغم من هذين الإمتيازين كان بعض الملتزمين يفضلون تأجير أرض الوسية للفلاحين . وقد وجد هذا الفريق من الملتزمين أن تأجير هذه الأرض يحقق لهم كسباً مالياً يفوق الكسب الذى يعود عليهم من زراعتها لحسابهم الخاص[4] .

---

(١) كان الملتزم يتعهد بدفع المال الميرى السنوى على ثلاثة أقساط تسمى :

ا ـ مال شتوى يطلق عليه ثلث أول

ب ـ مال شتوى موقوف الى زمن صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثان .

ح ـ مال صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثالث .

انظر : ابراهيم المويلحى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .

(٢) ترد هذه اللفظة فى بعض المصادر والمراجع مكتوبة « الأوسية » وقد آثرنا استخدام اللفظة الأولى لسهولتها وشيوع استخدامها .

(٣) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit , vol. I, Part 1, p. 261.

(٤) Il leur (moultezims) était d'autre part alloué des terres comprises dans les limites de leur *iltizam*, partie pour leur usage personnel, partie en vue de subvenir aux charges de leurs concessions, telles que les frais d'hotellerie, l'entretien des mosquées et celui des écoles. Ces terres étaient dites *oussieh*. Les fellahs devaient les cultiver par voie de corvées au profit du moultezim qui trouvait parfois plus reumenérateur de les leur affermer.

voir

Arminjon Pierre; op. cit , p. 679

معاونو الملتزم فى أرض الإلتزام :

كان الملتزم يفضل الإقامة فى القاهرة، ولذلك كان لا يذهب إلى منطقة إلتزامه إلا مرات معدودة وعلى فترات متباعدة على مدار السنة ولا يقيم فى كل مرة أكثر من أيام قليلة . وكان يستهدف من الزيارة تحقيق مصلحته الشخصية، فيشرف بنفسه على بيع محصول الوسية . ولذلك كان الملتزم فى حاجة إلى أعوان يقيمون ويعملون بصفة مستديمة فى دائرة الإلتزام . وكان من بين أعوان الملتزم :

شيخ البلد :

كان بمثابة وسيط — أو ضابط اتصال بالتعبير الحديث — بين الملتزم وأهل القرية ، يبلغهم أوامر الملتزم ويعرض عليه طلباتهم . وكان يقوم بالإشراف على الأراضى ويراقب تصرفات الأهالى واتجاهاتهم وتحركاتهم إذا فكروا فى ترك الأرض التى يعملون فى فلاحتها أو فكروا فى الهجرة كلية من القرية . وكانت الحكومة حريصة الحرص كله على منع هروبهم أو هجرتهم حتى لا تترك الأراضى الزراعية دون استغلال . وقد تضمن قانون نامه سليمان النص الآتى : « حين يبقى الحقل دون زراعة نتيجة لخطأ الزراع ، فعليهم (أى على الكشاف والمفتشين ومن إليهم) ألا يدخروا جهداً فى ضبط وإحضار هؤلاء الزراع . وبعد أن تتم إعادة كل فلاح إلى قريته ، وبعد توقيع العقوبة عليه ، يقوم الكاشف أو المفتش بإجباره على بذر البذور فى حقله »[١] . وكان على شيخ البلد فى ضوء هذا النص وغيره من النصوص[٢] إبلاغ الملتزم اسماء الفلاحين العصاة أو المشاغبين .

---

(١) Gibb Hamilton and Harlod Bowen; op. cit., vol. 1, Part 1, p. 260.

(٢) « يجبر الفلاحون الذين غادروا قراهم بعد تاريخ الفتح (العثمانى) على العودة إليها مهما انتحلوا من أعذار ».

المرجع السابق ، نفس الصفحة ، حاشية رقم ٦

وكان شيخ البلد يعين من أهل البلدة، ويختار من بين العائلات العريقة الثرية ، وكان يعتبر رئيس الموظفين المحليين فى القرية ، ويحل محل الملتزم فى أثناء غيابه ، ولذلك كان يطلق عليه لقب « قائمقام »[١] . وكان يوفر الأمن للفلاحين الذين يزرعون الأرض فى منطقة الإلتزام . ويرتب قوة يطلق على أفرادها الخفر يمنعون السرقات ، ويقومون بتنبيه الأهالى عند اقتراب غارات العربان من القرية .

ولم يكن شيخ البلد يمارس سلطته على المزارعين فحسب ، بل على جميع سكان القرية . وكان يتميز بالغلظة والخشونة والفظاظة . ولكن كان الفضل يعود إليه فى حفظ تماسك القرية ، ولذلك كان يوصف بأنه حجر الزاوية فى مجتمع القرية، وأصبحت كل قرية وحدة مكتفية بذاتها self contained unit تحكمها التقاليد والعادات والعرف ولا تتأثر بالأحداث الخارجية . وكانت علاقتها بالحكومة تكاد تكون مقصورة على شيخ البلد والملتزم . وتؤدى الضرائب نقداً وعيناً وعملاً . وكانت كل قرية تضم بجانب المزارعين وأعوان الملتزم إمام المسجد، والنجار ، والحداد، والحلاق، وكانوا يتناولون مرتبات عينية موسمية ، ويلتزمون بأداء الخدمات لسكان القرية .

وكان شيخ البلد يتمتع بعدة إمتيازات مادية : كانت له قطعة أرض معفاة من الضرائب تسمى « طين مسموح بالمال الحر من غير مصروف»[٢] ، وكان يطلق على هذه الأرض أيضاً « مسموح المشايخ »، كما كان له مخصصات مالية كان يدون مقدارها فى كشوف المصروفات فى نظير الخدمات التى يؤديها ، وفى مقابل استضافة أو استقبال الضيوف الذين يفدون إلى القرية — وهم فى العادة رجال

---

(١) قائمقام لقب اصطلاحى يطلق في العادة على كل من يقوم مقام أحد فى أثناء غيابه مثل قائمقام الصدر الأعظم أى الوزير الذى يحل محل الصدر الأعظم فى أثناء غياب الأخير فى الحرب ، وقائمقام الباشا أى الشخص الذى يمارس اختصاصات الباشا العثمانى فى مصر عندما يكون منصب الباشا شاغراً أو فى أثناء الفترة التى تنقضى بين سفر الباشا المنقول من مصر وحضور الباشا الجديد ، وقائمقام الملتزم أى وكيل الملتزم .

(٢) حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

الحكومة — وأخيراً يتعين على الملتزم أن يقدم إلى شيخ البلد ملابس تسمى الكساوى. وفى مقابل هذه الملابس كان على شيخ البلد أن يقدم للملتزم التقادم[١] على فترات متباعدة كل سنتين أو ثلاث سنوات . وكان من حق الملتزم أن يعين أكثر من شيخ بلد إذا كانت مساحة الأرض التابعة له كبيرة . وكان كل شيخ يختص بقرية أو عدة قرى من أرض الإلتزام . وكان أكبر المشايخ سناً يسمى « شيخ المشايخ »[٢] . وبمضى الزمن استفحل نفوذ مشايخ البلد ، فغدوا فى القرن الثامن عشر هم الحكام الحقيقيين والفعليين فى الريف المصرى بدلا من الموظفين العثمانيين[٣] .

المباشر :

كان بمثابة وكيل القائمقام ويباشر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر القائمقام إلى القاهرة لمقابلة الملتزم . وكان من اختصاصه قيد كل ما يدفعه فلاحو الإلتزام بالتفصيل فى سجل خاص به

المشد :

ينفذ أوامر شيخ البلد أو شيخ المشايخ فيقوم بضبط و إحضار الفلاحين المتأخرين فى سداد الضرائب المستحقة عليهم . وينفذ العقوبات التى يأمر الملتزم بتوقيعها على

(١) المقدمة جمعها تقادم . والتقادم مصطلح قانونى ومصطلح تاريخى. والمصطلح القانونى نوعان: التقادم المسقط والتقادم المكسب، وهو خارج عن موضوع هذه الدراسة. أما المصطلح التاريخى فمعناه الهدايا التى تقدم فى المناسبات السارة ، وهى عادة درج عليها المجتمع فى مصر فى أثناء الحكم العثمانى بوجه خاص . ويكثر الجبرتى من ترديدها عند قدوم الباشا العثمانى الى مصر ليتقلد مهام منصبه، أو عودة أحد كبار الحجاج من الحجاز، أو زواج ابنة شخصية كبيرة، أو إجراء عملية ختان لإبن أحد كبار رجال المجتمع فى مصر ، أو عند زواجه.

(٢) دكتور محمد فهمى لهيطة . مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٣) Shaw Stanford J., The Financial etc,. op. cit., pp. 22-25.

الفلاحين إذا توقفوا عن دفع الضرائب أو امتنعوا عن أداء الأعمال التى يطلب الملتزم أو شيخ البلد منهم أداءها فى أرض الوسية بالمجان ، أو إذا أظهروا تراخياً فى أدائها . وكان الجلد هو العقوبة الشائعة التى يتعرض لها الفلاحون. وكان المشد يحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع فلاحى منطقة الإلتزام . وكان يتقاضى أجره من الملتزم .

الشاهد :

يحتفظ بسجلات الأراضى ويدون فيها كافة البيانات التفصيلية عن مساحتها من حيث عدد الأفدنة ، والأحواض ، وأسماء الفلاحين المستثمرين لها ، ومقدار الضرائب المقررة عليها . وكان الشاهد يختار من بين أهل البلدة ، ويعتمد فى دخله على مصدرين : مخصصات يطلق عليها « عوائد من داخل المخرجات »[1] ، وعوائد يلتزم الفلاحون بأدائها إليه . وكان يطلق عليه فى بعض الأحيان لقب « العادل »[2] ، لإشاعة الطمأنينة فى قلوب الفلاحين نظراً لأن اختصاصاته تمس

---

(١) المخرجات هى الأموال التى يجمعها الملتزمون ، ولكنها لاتدخل فى حساب أموال السلطان .

انظر :

حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٩ .

(٢) Estève le Comte; Mémoire sur les finances de l'Egypte, depuis sa Conquête par le Sultan Selym Ier, jusqu' à celle du Général en chef Bonaparte.

dans:

Description de l'Égypte; ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française. Seconde édition, celle de Panchouche, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols. de texte in 8 o et le même nombre de planches t. XII, pp. 41—248.

Voir particulièrement les deux sujets suivants :

a) de l'administration des villages. pp. 65—68.

b) des perceptions. pp. 68—88.

أوضاع الفلاحين ، إذ كان فى مقدوره — إذا لم يكن على مستوى خلق رفيع — تغليب مصالح فريق من الفلاحين على حساب مصالح فريق آخر منهم .

الصراف :

مهمته جباية الضرائب من الفلاحين طبقاً — من الناحيـة النظرية — للتوزيع المدون فى سجلات الشاهد. وهو شرط لم يكن يحترم فى حالات كثيرة . وكان من مهام الصراف تسليم مايجمعه من ضرائب — نقداً أو عيناً ـ للملتزم . ومن المعروف أن الضرائب فى أى بلد تؤدى نقداً أو عيناً أو عملا . والمستوى الاجتماعى والاقتصادى فى البلد هو الذى يحدد نوعيـة الوسيلة التى تؤدى بهـا الضرائب . وكان لكل صراف ضامن كفيل فى القاهرة يضمنه لدى الملتزم . فإذا وقع منه أى تصرف مخل بالشرف والأمانة فإن الضامن يكون ملزماً بأداء المبالغ التى استولى عليها بغير حق أو سند من القانون . والصراف يشبـه الشاهـد من حيث اعتماده فى دخله على ذات المصدرين الماليين .

وكان الملتزم يختار الصراف عادة من الأقباط .وقد تأصل هذا التقليد أو العرف فى الريف المصرى حتى أصبحت الغالبية الساحقة من الصيارفة أقباطاً[1] ، وذلك لأمانتهم . وحذقهم المسائل الحسابية والمالية وعدم تحيزهم[2] . ويؤيد هذا الرأى أيضاً إستيف Estève مدير خزانة الحملة الفرنسية على مصر ثم مدير الشئون المالية فى أواخر عهد الحملة[3]. ويعارضه فى هذا الرأى جيرار Girard وهو من

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1, Part 1, p. 262.

2) Loc. cit., p. 265.

3) Estéve Le Comte,.
d*ans*;
Description de l'Egypte; t. XII, Des perceptions. pp. 68-88.

علماء الحملة ومتخصص فى شئون الرى ودرس ترع مصر [1] . وهناك رحالة فرنسى يسمى ڤولنى Volney يؤيد رأى جيرار ، ويقول إن الصيارفة الأقباط قد استغلوا الأمية التى كانت فاشية بين الفلاحين أسوأ استغلال ، إذ كانوا يتناسون تقديم إيصالات للفلاحين عن الضرائب التى دفعوها ، وكان يطلق على هذه الإيصالات « ورقة الفلاق » أى المستند الدال على السداد ، فيضطر الفلاحون إلى أداء الضرائب مرتين [2] . ويعطى أحد المصريين الذين عاشوا فى العصر العثمانى فى القرن الحادى عشر الهجرى أى القرن السابع عشر الميلادى صوراً قاتمة عن خراب ذمة الصيارفة الأقباط وإسرافهم فى ظلم الفلاحين الذين كانت ترتعد فرائصهم عند ما يترامى إلى أسماعهم نبأ وصول الصراف إلى القرية . وكان الفلاحون يطلقون على وصوله « نزلة الصراف » ويتسابقون إلى إكرامه وتقديم الأطعمة الفاخرة له ويتنافسون فى التقرب إليه حتى يكف أذاه عنهم [3] . ومهما يكن من أمر ، فلم يكن هذا الحكم عاماً ، ولم يشمل جميع الصيارفة الأقباط ، بل

---

1) Girard P.S.; Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte.

dans

Description de l'Egypte; op. cit., t. XVII. pp. 1—436.

Voir spécialement les trois sections suivantes:

Section IV. De l'état des cultivateurs en Egypte. Quelques notions sur l'administration des villages. pp. 37—48

Section VII De l'aménagement des terres dans les différentes provinces de l'Egypte. pp. 133—148.

Section IX. Du droit de propriété et de la perception de l'impôt. pp. 189 - 197.

(٢) ڤولنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(٣) يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى : هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف . القاهرة ، مطبعة بولاق . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠) وهو كتاب يصور بالفكاهة الساخرة والنكتة اللاذعة ما كان عليه الشعب وريف مصر إبان الحكم العثمانى من فقر وجهل واضح . وتوجد عدة نسخ من هذا الكتاب مودعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة . وقد رجعنا إلى النسخة المحفوظة بها تحت رقم ٢٧٦٣ (أدب) ، ج ١ ، ص ١٨ ، ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧ .

كان كثير منهم مثالاً طيباً للإخلاص والنزاهة والتفانى فى الخدمة . وتبوأ هذا الفريق من الأقباط مراكز اجتماعية مرموقة ، وجمعوا ثروات ضخمة بعيداً عن وسائل الكسب غير المشروع، وتمتعوا بنفوذ كبير وبخاصة الذين عملوا مع كبار الملتزمين من الأمراء البكوات المماليك .

المساح :

كان يقوم بمسح أرض الالتزام ، وتقدير المساحات البور فيها والمساحات الزراعية [1] .

معاونو الملتزم فى أرض الوسية :

لما كان من بين امتيازات الملتزم الانتفاع بأرض الوسية والتى تشكل - كما سبق أن ذكرنا — عشر مساحة دائرة الالتزام ، كان يعين لها معاونين للإشراف على زراعتها . وكانوا جميعا يأخذون أجورهم منه . ومن هؤلاء :

الوكيل : يقوم بحفظ الغلال وغيرها من المحاصيل التى تنتجها أرض الوسية، ويحتفظ بأدوات الزراعة مثل النوارج والمحاريث والفؤوس وغيرها من الأدوات التى تتعلق بأرض الوسية .

الخولى : يختص بقياس الأرض الزراعية بعد ريها وقبل الشروع فى زراعتها، ويفصل فى المنازعات التى قد تثار فى هذا الشأن ، ويجمع الفلاحين الذين يسخرون فى زراعة أرض الوسية .

الكلاف : يعنى بالماشية على اختلاف أنواعها والخاصة بالوسية ويقوم بتطبيبها أى بعلاجها فى ضوء مفاهيم الطب البيطرى فى تلك الأزمنة الغابرة إذا أجيز لنا

(١) ابراهيم المويلحى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩ .

استخدام هذا المصطلح . كما يقوم بتطبيب ماشية الفلاحين التابعين لدائرة الالتزام خوفاً من انتقال المرض إليها واتخاذه شكل وباء .

السقا : يملأ أزيار الوسية بماء الشرب (١) .

وضع الملتزم :

وقد أصبح الملتزم بفضل هذا العدد من الموظفين، والإختصاصات الواسعة التي خولها له القانون والعرف، يمارس سلطات واسعة على الفلاحين في القرية أو مجموعة القرى التي تقع في دائرة الإلتزام . وحلّ الملتزم محل السلطات العثمانية في مباشرة اختصاصات الحكومة . وأصبح من حيث الواقع الفعلي هو الشخصية الأولى في

---

(١) لم تكن المصطلحات التي ذكرناها خاصة بمعاوني الملتزم سواء في أراضي الالتزام أو في أرض الوسية هي المصطلحات الوحيدة المتصلة بنظام التزام الأراضي . فقد كانت هناك مصطلحات أخرى نذكر منها على سبيل المثال « التذكرة جي » وهو الذي يحرر تقاسيط الالتزام، و« التاريخجي » وهو الذي يضع تاريخ كل مستند رسمي ، و « أمين الصناديق» وهو أمين محفوظات الروزنامة ، و« كاغد أمين » وهو أمين الأوراق الرسمية ، و « المهر دار» وهو حامل أختام الروزنامة .

وقد يظن البعض أن المصريين في العصر العثماني قد امتلأت أذهانهم بمثل هذه المصطلحات الفنية والإدارية تنطلق بها ألسنتهم ، وأن هذه الظاهرة قد تسللت إلى أعماق الريف المصري بوجه خاص مع نظام الإلتزام. والحق أن ظاهرة المصطلحات الجديدة لم تكن الأولى من نوعها في مصر إبان الحكم العثماني . فقد شهد — على سبيل المثال — حكم الدولة الأيوبية ودولتي المماليك البحرية والشراكسة — وهي الدول ذات الإقطاع العسكري — أمثال هذه المصطلحات التركية وغيرها نفد مع سلاطين هذه الدول وعلى سبيل المثال عرف المجتمع في مصر سواء في الريف أو الحضر في العصر الأيوبي مجموعة من المصطلحات كان بعضها غير مألوف تطلق على الجهاز الإقطاعي في الريف المصري وعلى شاغلي المناصب في الدواوين الحكومية التي تشرف على الإيرادات والمصروفات ، مثل الناظر ، شاد الدواوين ، المستوفى ، المعين ، الناسخ ، العامل ، الكاتب ، الجهبذ ، الأمين ، الماسح ، الدليل ، الحايز ، الخازن ، الحاشر ، المشارف ، النايب إلى غير ذلك من مصطلحات .

القرية والشخصية الثانية فى الكاشفية[1]. وظهر الملتزم فى غضون القرن الثامن عشر كأنه المالك الحقيقى للأرض التى يمارس فيها حق الإلتزام. وغدا بأجهزته الإدارية والمالية والفنية عبارة عن حكومة داخل الحكومة *Imperium in imperio*

(١) الكاشفية وجمعها كاشفيات هى وحدة إدارية صغيرة فى مصر فى أثناء الحكم العثمانى وتقابل فى الوقت الحاضر (١٩٧٦) «مركز» وجمعها «مراكز» فى التقسيم الإدارى للمحافظات. وقد اشتق منها لفظ كاشف وهو الذى يحكم الكاشفية، أى كان بمثابة مأمور مركز. كما كان الكاشف ينوب عن الصنجق الذى كان يحكم الصنجقية، وهى إحدى الأقاليم الإدارية الكبرى فى مصر وتقابل إحدى محافظات مصر بالتعبير الحديث. فكان الكاشف يحل محل الصنجق فى أثناء تغيب الأخير عن مقر منصبه وتفضيله قضاء معظم شهور السنة فى القاهرة. وكان هناك نوع ثان من الموظفين يحمل كل منهم لقب كاشف. وكان هؤلاء الكشاف هم وكلاء الباشا العثمانى الذين يشرفون على قرى الكاشفيات التى كان دخلها مخصصاً للباشا فى أقاليم معينة فى مصر.

ومما هو جدير بالذكر أن كثيرة من المراجع العربية والفرنسية تذكر كلمة «كشوفية» kouchoufyeh بدلا من كاشفية وتجمعها كشوفيات بدلا من كاشفيات. وقد رأينا — أخذاً بالأحوط — أن نستخدم لفظة كاشفية وجمعها كاشفيات طالما أن مصطلح الكاشفية مأخوذ منه ومنسوب إلى كلمة كاشف.

وكان الكشاف من العسكريين من ذوى الرتب الكبيرة، وينتمون إلى إحدى فرق الحامية العثمانية السبع. وكان من عادتهم فى أثناء جولاتهم فى مناطق عملهم أن يركب الواحد منهم جواده، وحوله جنوده يقرعون الطبول لبث الرهبة والرعب فى قلوب الفلاحين، فيسارعون إلى تقديم الهدايا إليه على الرغم من أن الأوامر كانت تصدر مشددة إلى الكشاف بضرورة رعاية الفلاحين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم. وبمضى الزمن تأصلت عادة فى الريف المصرى، وهى أنه أصبح من حق الكاشف أن يأخذ من كل قرية كبيرة يمر بها الهدايا الآتية أو التقادم بلغة ذلك العصر:

عدد	
٣	رءوس من الغنم
٣	أرادب من الشعير
١	كيلة من الكعك
١	كيلة من البرغل
٥	أرطال من السمن
٥	دجاجات

وضع الفلاح فى ظل نظام الإلتزام :

وبمقتضى نظام الإلتزام كان الملتزم يوزع الأرض على الفلاحين ، كل على حسب قدرته على الزراعة . وكانت تقسم الأرض من حيث الجودة إلى ثلاثة أنواع : عال ، وسط ، دون . وكان على الفلاحين أن يؤدوا للملتزم القيمة الإيجارية التى يتفق عليها معهم .وقد آثرنا استخدام عبارة «القيمة الإيجارية» لأنها كانت تصور الأمر الواقع بين الملتزم والفلاحين . وكانت القيمة الإيجارية أعلى بكثير من المال الميرى المقرر على الأرض . والفلاح فى ظل نظام الإلتزام كان لا يملك الأرض التى يزرعها بل يحوزها . وتفريعاً من هذه القاعدة كان الفلاح لا يملك حق بيع الأرض أو رهنها أو غير ذلك من أشكال التصرفات . فجميع أراضى مصر كانت تعتبر ملكاً للسلطان بحق الفتح طبقاً لمبادىء الشريعة الإسلامية . وكانت تنص على أنه إذا فتحت بلد عنوة فإنها تكون ملكاً للفاتح . أما إذا فتحت صلحاً فتكون فيئاً للمسلمين ، أى يتفق الفاتحون مع أهل البلاد المفتوحة على مقدار الجزية

= ومن كل قرية صغيرة كان الكاشف يأخذ فى صورة تقادم:

٢ رأس من الغنم
٢ أردب من الشعير
٣ أرطال من السمن
¼ كيلة كشك
¼ كيلة برغل

وكانت تكاليف هذه الهدايا أو التقادم توزع على سكان القرية.

ابراهيم المويلحى ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٤

وكان يستخدم فى العصر العثمانى مصطلحان آخران يلتبس فيهما الأمر على بعض الباحثين ، وهما مال الكاشفية ، وميرى مال الكاشفية . أما مال الكاشفية فعبارة عن نفقات الإدارة المحلية فى الأقاليم مثل مرتب الكاشف وترميم الجسور وتطهير الترع ومرتبات العسكر المحليين . وكان أهالى القرى يدفعون هذه الرسوم للكاشف أما ميرى مال الكاشفية فهو مايدفعه كل كاشف للحكومة .

والخراج الذى يدفع للفاتحين دون أن يمسوا الأرض أو يأخذوها منهم عنوة وقهراً[١] .

أرض الأثر :

وكان لبعض فلاحى الإلتزام مساحات زراعية صغيرة يطلق عليها المصطلح التاريخى «أرض الأثر» يقومون بخدمتها وزراعتها والحصول على محصولها، وفى بعض الحالات يحصلون على جزء من هذا المحصول. ولكنهم لا يستطيعون التصرف فيها بالبيع أو الهبة أو التنازل أو الايجار ، ولا تورث لذراريهم من حيث هى أرض ، وإنما متوارثون حق زراعتها والتصرف فى المحاصيل التى تغلها . وكان الفلاح يستمر فى التمتع بحق الانتفاع بهذه الأرض طالما كان مواظباً على أداء التزاماته المالية نحو الملتزم ، وطالما كان مستمراً فى زراعتها . وكان الملتزم لا يستطيع طرده من أرضه ، إلا إذا توقف عن دفع المطلوبات المقررة عليه أو ثبت عجزه عن فلاحة الأرض[٢] .

والأصل فى أرض الأثر أنها كانت ملكاً لعائلات عاشت عليها وانصرفت إلى زراعتها أحقاباً وأجيالا ، ولكن لما تمت عملية مسح الأراضى الزراعية فى مصر فى أول الحكم العثمانى لم تستطع هذه العائلات إثبات ملكيتها للأرض بأى مستند قانونى لطول العهد ، ولكنها أثبتت ملكيتها بشهادة الشهود . ورأت السلطات العثمانية ترك هذه العائلات تنتفع بتلك الأرض باعتبارها أثراً لملكية غير ثابتة بحجة شرعية . ويعلق أحد الباحثين المتخصصين فى تاريخ مصر إبان الحكم العثمانى بأن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية كان تصرفاً إنسانياً « ويمكن إضافته أيضا إلى حسنات النظام العثمانى فى مصر قبل تشويهه ، إذ كان فى مقدور الحاكم العثمانى نزع ملكية مثل هذه الأراضى . ومن حسناته أيضا أنه منع الملتزم من طرد الفلاحين من أثرهم إن عجزوا عن دفع المال الميرى المربوط عليهم . ولكن الملتزم تجاهل هذا النص أيضا وراح يعاقب الفلاح الماطل بطرده من أثره

---

(١) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ الناشر دار النهضة العربية ، ص ٣٠٩ .

(٢) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 20-21.

عقاباً له »[١] وقد تدخلت السلطات العثمانية فى مصر لوقف هذا التصرف الجائر الذى كان يصدر عن الملتزم. وأصدر الوالى العثمانى مسيح باشا فرماناً فى سنة ٩٨٥ هـ (٧٧ / ١٥٧٨ م) بمنع الملتزم من طرد الفلاح من أرض الأثر إذا عجز عن الوفاء بالتزاماته المالية بسبب عدم استطاعته زراعة أثره، كما نص هذا الفرمان على إرغام كل من الملتزم والكاشف على مساعدة الفلاح بمده بالبذور اللازمة، على أن يقيد ثمن هذه البذور فى سجلات الشاهد لتحصيلها من الفلاح بعد بيع محصوله[٢].

واكتسب الفلاح فى القرن الثامن عشر حقاً جديداً — بعد الحق الذى كان قد تقرر له فى القرن السابق بتوريث الفلاح حق الانتفاع بأرض الأثر بالشروط المعلومة — وبمقتضى الحق الجديد أصبح للفلاح الحق فى أن يؤجر لمدة سنة أو أكثر من سنة أرض الأثر لأى شخص آخر يتفق معه لقاء ثمن معين فى مقابل هذا الإيجار أو يرهن جزءاً من أرض الأثر رهناً كان يطلق عليه « الفاروقة »[٣]. أما إذا مات الفلاح دون عقب أو كان ورثته ضعفاء لا يستطيع أحد منهم فلاحة الأرض أو الوفاء بالإلتزامات المفروضة عليها، فإن الأرض ترجع إلى الملتزم الذى يعطيها إلى مزارع آخر طبقاً لقانون « بيت المال » الذى يجعل زراعتها أمراً ضرورياً حتى لا يحرم من مالها الذى ينفق منه على عمارة البلاد[٤].

وقد أطلقت على الأرض التى يعطى للفلاح حق حيازتها والانتفاع بها فى الوجه البحرى عدة اسماء، مثل: أرض الأثر، أثر الفلاح، الأرض المؤثرة فى

(١) ابراهيم المويلحى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الفاروقة: عقد يلسلم بمقتضاه الدائن أرض الفلاح المدين ويستغلها الدائن ويتنمم بمحصولها نظير فائدة دينه حتى يسدد المدين هذا الدين.

(٤) دكتور أمين مصطفى عفيفى عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١.

الفلاحين ، الأطيان الأثرية ، وقد استهدفت هذه التسميات التمييز بين أرض الفلاحين وهى الأثر ، وأرض الملتزمين وهى الوسية [١].

أرض المساحة :

وقد لقى الفلاح فى الصعيد الكثير من العنت والتعنت معاً بسبب الحالة المتغيرة لفيضان النيل كل سنة . إذ كان مقرراً من الناحية النظرية أن الأرض التى تصلها مياه الفيضان هى وحدها التى يدفع الفلاح عنها الضرائب . فإذا جاء الفيضان فى إحدى السنوات شحيحاً وتعرضت الأرض الزراعية للشرّق ، أو جاء الفيضان عالياً هادراً وتعرضت الأرض للغرق ، كانت هذه الأراضى وتلك تحدد مساحتها بإجراء قياس لها ، وتخصم نسبتها من المجموع الكلى للضرائب المربوطة على القرية ما عدا ضريبة الميرى التى تبقى دون أى تخفيض. ولذلك كان يطلق على الأرض التى يزرعها الفلاح فى الوجه القبلى مصطلح آخر هو « أرض المساحة ». أما من الناحية العملية فإن هذه الرحمة بالفلاحين كانت رحمة ظاهرية، لأنه إذا جاءت السنة التالية رعيدة بالنسبة للفيضان ،فإن التخفيض الضريبى عن السنة السابقة كان يضاف إلى ضرائب السنة الجديدة [٢] .

---

(١) حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥١ — ٥٢ ، حاشية رقم ١ ، وانظر إجابات حسين أفندى عن التطورات القانونية التى مرت بها أرض الأثر . الباب الحادى عشر ، الأسئلة والأجوبة من رقم ٢ حتى رقم ٥

وانظر أيضاً :

دكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٩١ — ٣٩٢ حاشية رقم ٣ .

(٢) Lancret Michel-Ange, Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des provinces de l'Egypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks.

dans

Description de l'Egypte, op. cit., tome XI, pp. 461—571.

Voir spécialement les trois sujets suivants : =

تطور المركز القانونى للملتزم :

وكان الإلتزام يعطى فى البداية لمدة سنة واحدة ثم لعدد من السنين ، ثم أصبح يعطى مابقى الملتزم على قيد الحياة ، وتطور الوضع القانونى للملتزم بعد ذلك ، فتقرر أن يكون حق الإلتزام وراثياً فى عقبه إذا كان للملتزم المتوفى ورثة قادرون على الوفاء بمسئوليات الإلتزام [١] . وكان يطلق على حصص الإلتزام التى يموت ملتزموها « بلاد الأموات » . وكان فى استطاعة الورثة نقل هذه الحصص إليهم بشرطين، أولهما أن يتقدم أحدهم بطلب إلى ديوان الروزنامة يطلب صدور « تمكين » له أى تجديد تقسيط الإلتزام أو عقد الإلتزام . أما ثانى الشرطين فكان يتمثل فى دفع مبلغ من المال يسمى « الحلوان » أو « حلوان بلاد الأموات » وهو بمثابة رسم تسجيل . ويحدد مقدار هذا الحلوان بثلاثة أمثال فائض الملتزم أى ثلاثة أضعاف الدخل السنوى للملتزم المتوفى من عملية الإلتزام . أما إذا لم يكن للملتزم المتوفى ورثة قادرون على زراعة الأرض ، فإن هذه الأرض ، وهى بلاد الأموات بمصطلح ذلك العصر [٢] ، تطرح فى المزاد وتعطى لملتزم جديد . ونخلص من هذا العرض إلى أن حصص الإلتزام لم تكن تعود للحكومة ولا يسقط حق الملتزم فيها إلا فى حالات قليلة ، منها : انقراض ذرية الملتزم أو عدم رغبة أحد من ورثته فى الانتفاع بالحصة أو مصادرة

---

a) Des différentes manières dont les terres sont possédées; des titres de propriété et des impositions principales. pp. 466—476.

b) De l'administration des terres. pp. 476—487.

c) De quelques usages particuliers à la Haute-Egypte. pp. 487—492.

(١) كان يتمتع هذا الحق أيضاً لمماليك الملتزم البيض .

(٢) كان يطلق على مثل هذه الحصص مصطلح آخر هو المحلول ، أو الحصة المحلولة . انظر كلا من :

دكتور أحمد أحمد الحتة . تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ، القاهرة ، الناشر دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ص ٣٠ — ٣١

Shaw Stanford J. : Landholding etc, op. cit., p. 96.

الحصة نتيجة وقوع اضطرابات سياسية عنيفة وتغير ميزان القوى فى البلاد، فيلجأ الأمراء المنتصرون إلى الانتقام من خصومهم بمصادرة حصص إلتزامهم .

مزايا نظام الإلتزام :

وارتاحت الحكومة العثمانية إلى نظام الإلتزام فيما يختص بجمع الأموال الأميرية ، لأنه يوفر عليها متاعب الاتصال بالفلاحين وغيرهم لجباية الضرائب والرسوم ، وألقت هذا العبء على كاهل الملتزمين . كما أن نظام الإلتزام كان يتمشى مع طبيعة الحكم العثمانى للولايات التى خضعت لسيادة الدولة ، إذ كان من أهم خصائص الحكم العثمانى قلة تدخل السلطات العثمانية فى حياة الجماهير ، بحيث كان هذا التدخل فى أضيق نطاق ممكن .

وذهب أحد الباحثين الأمريكيين إلى القول بأن نظام الإلتزام كان مثالياً بالنسبة لمصر إبان الحكم العثمانى فى ظل الملابسات التى كانت سائدة قبل القرن الثامن عشر ، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذا النظام أتاح لخزانة الحكومة تدفقاً مستمراً من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من النفقات أو التكاليف الإدارية ، وأعطى للملتزمين مصلحة دائمة ومستمرة فى العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض حتى لا يسرفوا فى استغلالها أو إنهاك التربة الزراعية والحرص على عدم إخراج المزارعين منها ، كما أن نظام الإلتزام أخضع المزارعين لنظام ضريبى منتظم وحال بينهم وبين التعرض لإجراءات تعسفية [1] .

والحق أن هذه المزايا كانت تتحقق للسلطان [2] والملتزم والفلاح طالما كان

---

1) Shaw Stanford J ; Landholding etc , op. cit., p. 102

(٢) كان « بدل الإلتزام » — وهو المبلغ الذى يدفعه كل ملتزم لخزانة الحكومة فى مقابل شراء حق الإلتزام — يذهب معظمه إلى السلطان كجزء من المال الميرى ، وكان توجيه حصيلة بدل الإلتزام إلى خزينة السلطان أمراً ذا مغزى سياسى وقانونى: فهو يؤكد السيادة المستمرة للسلطان على مصر ، ويجسد ملكية السلطان التامة على الأرض .

انظر :

Shaw Stanford J.; Landholding etc., op. cit., p. 95

الباشا العثمانى فى مصر ومعاونوه قادرين على تحقيق تفوق نفوذ الدولة السياسى والحربى فى البلاد . فنظام الإلتزام كان نظاماً ملائماً للفلاح الصغير بوجه خاص ويوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار . وكانت تتلاقى مصلحة الفلاح مع مصلحة الملتزم فى عدم إرهاق الفلاح فى العمل فى أرض الوسية طبقاً لنظام السخرة، وعدم ابتزاز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل ،وفرض ضرائب جزافية عليه ، ومراعاة حالة فيضان النيل كل سنة .

تدهور نظام الإلتزام :

تدهور نظام الإلتزام من الناحية التطبيقية فى مصر فى أثناء القرن الثامن عشر وذلك بحكم الملابسات التى أحاطت بتطبيقه. فقد غدا الأمراء المماليك مراكز القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية فى مصر وبخاصة فى الفترة من ١٧١١ حتى قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨[١] . وتركزت حصص الإلتزام ، فى أيديهم وأيدى مماليكهم وزوجاتهم وأولادهم[٢] . وكانوا ينتهزون كل فرصة لدعم مركزهم الإلتزامى ، فإذا خلت حصة من حصص الإلتزام ، لسبب أو لآخر ، كانوا يعينون الملتزمين الجدد من بين أتباعهم . وكان ديوان الروزنامة والديوان الدفترى يرضخان لرغبة الأمير المملوكى ويتغافلان عن إجراء مزاد بين الراغبين فى الإلتزام . وفى بعض الأحيان كان الأمراء المماليك — أصحاب السلطة الفعلية فى مصر، ومنهم الدفتردار

---

(١) Holt P.M.; The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798, pp. 86—90.

وهو أحد بحثين تقدم بهما هولت أستاذ تاريخ العالم العربى فى جامعة لندن إلى المؤتمر الدولى الذى عقد فى شهر أبريل ١٩٦٥ عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ إلى مابعد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ والذى سبقت الإشارة إليه. وكان موضوع بحثه الآخر « مصر العثمانية ١٥١٧ — ١٧٩٨ المصادر التاريخية العربية » . وقد نشر هذان البحثان فى الكتاب الذى ضم بحوث المؤتمر وسبقت الإشارة إليه . ويعد الاستاذ هولت أحد كبار العلماء المتخصصين فى تاريخ مصر إبان الحكم العثمانى ، وقد وضع عدة بحوث تناولت هذا العصر بالدراسة التحليلية الموضوعية .

(٢) Shaw Stanford J.; The Financial etc., op. cit., p. 33.

والروزنامجى — يحاولون إضفاء نوع من الشرعية على هذا التعيين التعسفى ، فأطلقوا على هذا الأسلوب فى تعيين الملتزمين « المصالحة » ويدفعون مبلغاً من المال يسمى « بدل المصالحة » وهو يقابل « الحلوان » [١] . وفى أحيان أخرى كانت تحدث مزادات صورية ، أى على الورق ، تسفر عن تعيين الأتباع والمقربين إلى مراكز القوى ، وفى ذات الوقت كانوا يمنحون الإعفاء من دفع « الحلوان » ، وفى أحيان ثالثة كان الإلتزام يتحول من شخص إلى آخر قسراً على الرغم من أن القانون يمنع هذه القسر منعاً باتـاً .

انعكست هذه الأوضاع على حالة الفلاح المصرى ، وعانى الكثير من الاستبداد والجور ، سواء من الملتزم وأعوانه ، أو من الأمراء المماليك وأتباعهم ، إذ كانوا يقومون على فترات متقاربة بجولات فى الريف ينهبون فيها المحاصيل الزراعية والماشية ، كما كانوا يقتحمون بيوت الفلاحين بحثاً عن مدخراتهم ، والويل كل الويل لمن تلحق به مظنة الثراء ، وكان الفلاح يدفع للملتزم أكثر مما هو مقرر عليه رسمياً ، وانتشرت المجاعات والأوبئة مثل الطواعين . وكان أشدها فتكاً طاعون إسماعيل بك ، وتأخرت الزراعة وتناقص تعداد الفلاحين وعمدوا إلى ترك الأراضى ، بل والهجرة كلية من القرية والكاشفية . ويذكر ڤولنى Volney أنه شاهد المصريين فى سوريا سنة ١٧٨٥ أفواجاً وجماعات . وقال إن أزقة صيدا وحيفا وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تعج بالمصريين ، وقد توغل فريق منهم فى اتجاه الشمال حتى حلب وديار بكر [٢] . وقد أفاض الجبرتى فى وصف حالة الشقاء التى عاش فيها الفلاحون وغيرهم من الطوائف المنتجة .

---

(١) Shaw Stanford J., Landholding etc., op. cit., p. 100.

(٢) ڤولنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

الجمارك ونظام الإلتزام .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الإلتزام على الجمارك التى كانت قائمة فى جميع موانىء الدولة[1]. وكان يطلق على هذه الموانى كلمة أساكل[2] des échelles

1) Combe Etienne; l'Egypte Ottomane de la conquête par Sélim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). p. 88

dans

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. Tome troisième. Imprimé par l'Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire 1933,

(٢) أساكل ومفردها أسكلة ، اقتبست من الكلمة الإيطالية سكالا Scala بمعنى ميناء أو ثغر . وهى تكتب فى المصادر والمراجع العربية التاريخية فى أشكال شتى :

فى صيغة المفرد : أسقالة ـ سقالة ـ صقالة ـ أسكلة .

فى صيغة الجمع : أسقالات ـ سقالات ـ صقالات — أساكل ـ أساكيل .

وترد أحياناً فى بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر ، وهى مقتبسة من اللغة الإسبانية ، ومعناها ميناء للعابرين أو المارين .

انظر كلا من :

Recueil des textes du quatorzième congrès des Orientalistes, p. 441

Colin, Notes de dialectologie.

dans

Bulletin de l'Institut français, XX, pp. 51, 68, 73, et 202.

Brunot; Notes lexicologiques, sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 61.

Barbier de Meynard, op. cit., vol. 1, p. 55.

Boctlor, op cit, vol. 1, pp. 288 - 289.

Dozy; op. cit., t. 1, p 23, 660 et 839.

الجرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، ج ٤ ، ص ١٢ .

كما كان يطلق على إيرادات الجمارك « محصول أسكلة » . وكانت تباع رسوم كل جمرك[1] إلى الشخص الذى يرسو عليه المزاد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة، ويصبح لقبه الملتزم ، ثم يشرف هذا الملتزم على جباية الرسوم الجمركية. وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتى فى المرتبة الثانية بعد ضرائب الأراضى الزراعية بالنسبة لإيرادات الحكومة.وكان الملتزم لا يدير الجمرك ، بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم موظف يسمى« كمرك أمينى » أى أمين جمرك. وكان يطلق عليه أحياناً جمركى . وكان هذا الجمركى فى العادة رجلاً يهودياً ، وبخاصة فى الجمارك التى تقوم فى الموانىء الكبرى ذات النشاط التجارى الكثيف . وكان اسم الجمركى فى الولايات العربية يذكر مسبوقاً بكلمة « المعلم » .

وإذا أخذنا مصر مرة أخرى كمثال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام على جماركها فى سائر الموانىء سواء كانت الموانىء البحرية أو النيلية نجد أنه كان فى مصر إبان الحكم العثمانى عدة جمارك ، وكان أهمها جمرك الإسكندرية ، وكان يتبعه جمركان فرعيان فى أبى قير ورشيد ، ثم جمرك دمياط ، ثم جمرك البرلس . وكان نشاط هذه الجمارك منصباً على التجارة الخارجية — استيراداً وتصديراً — مع الدول المتوسطية ، أى الدول التى تقع فى حوض البحر المتوسط ، والدول التى تقع فيما وراء هذا البحر . وعلى الرغم من أن حركة التجارة الخارجية كانت فى نطاق ضيق فى مصر على عهد الحكم العثمانى ، فقد كانت لها أهميتها فى الحياة الاقتصادية فى مصر فى ذلك العصر . وكان هناك أيضا جمرك البهار ، وهو يقع على الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس، وكانت تحصل فيه الرسوم الجمركية

---

(١) يذكر بعض المؤرخين أن كلمة جمرك أصلها كركيه ، وهى كلمة يونانية Koumerké ، ثم انتقلت إلى اللغة اللاتينية كوميركيوم Commercium ، وحرفت فى اللغة العربية إلى جمرك ،وفى اللغة التركية إلى كمرك .

انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen;op. cit; vol I Part 2. p.12 fn.5

على السلع الواردة من بلاد الحجاز والتى تشحن من ميناء جدة أو ميناء ينبع، ثم البضائع الواردة من ميناء مخا فى اليمن . وكان البن أهم السلع الواردة من اليمن ، ثم تجارة الهند التى كان جزء منها يرد إلى مصر فى طريقه إلى أوروبا على الرغم من كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وأخيراً كان هناك جمرك فى ميناء بولاق النهرى يقوم بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع التى تنقلها السفن النيلية من بلاد الوجه البحرى . وكان لهذا الجمرك جمرك آخر يتبعه ويقع فى مصر القديمة — عند ساحل أثر النبى — لاستقبال السفن النيلية القادمة من أقاليم الوجه القبلى وتدفع فيه الرسوم الجمركية [١] .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية التى يتم تحصيلها من كل جمرك تخصص لجهة مثل مرتب الباشا العثمانى،ضباط الحامية ،أى جيش الاحتلال،الصرة وهى الأموال التى ترسل إلى الحجاز فى كل سنة مع قافلة الحج المصرى ، وجزية السلطان . وكان جمرك البهار التزاماً للباشا العثمانى [٢]. وكان أوجاق الإنكشارية [٣] فى مصر يلتزم ببعض الجمارك مثل إسكندرية ودمياط وجمرك بولاق وجمرك مصر القديمة ، فيدفع مال الميرى المقرر على الجمرك ويستولى الأوجاق على الأموال الباقية .

ونظراً للظروف السياسية التى مرت بمصر فى العصر العثمانى المملوكى لم يطبق نظام الإلتزام على الجمارك تطبيقاً سليماً . فقد أسرف الملتزمون وأعوانهم فى ابتزاز الأموال من المشتغلين فى تجارة الاستيراد والتصدير . وكانت غالبيتهم من الأجانب مثل البنادقة واليونانيين والفرنسيين وبعض الإنجليز .

---

(١) Combe Etienne op cit., p. 88.

(٢) دكتور حسن عثمان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٠ .

(٣) كان أوجاق الإنكشارية أهم الأوجاقات السبعة التى كانت تتألف منها الحامية العثمانية فى مصر . وكان لقائد هذا الأوجاق وهو أغا الإنكشارية — الرياسة العليا فى حفظ النظام فى مدينة القاهرة وينتسب لهذا الأوجاق عدد من أكبر أصحاب المناصب فى مصر ، منهم وكيل الباشا — الكتخدا — وسردار الحج أى قائد القوة العسكرية التى ترافق قافلة الحج المصرى ، وسردار الخزينة وهو قائد القوة المرافقة للخزينة المرسلة إلى السلطان . وكانت تنقل براً من القاهرة إلى استانبول . وكان يطلق على أوجاق الإنكشارية أوجاق السلطان أحياناً ، وأحياناً أخرى أوجاق مستحفظان أى رجال الحفظ .

ولما انفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨ — ١٧٧٣) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق نظام الإلتزام على الجمارك [١]. فأبعد الملتزمين اليهود وأحل محلهم سوريين مسيحيين كانوا قد نزحوا من دمشق إلى القاهرة والإسكندرية فى مطلع القرن الثامن عشر. وكانوا فى أول الأمر قلة عددية لم يتجاوزوا أفراد ثلاث عائلات . ولكن الأرباح التى حققوها من إلتزام الجمارك بعد إبعاد اليهود ومن نشاطهم التجارى جذبت عائلات سورية مسيحية بلغ عددها خمسمائة أسرة حقق أفرادها أرباحاً وفيرة [٢] . وبعد وفاة على بك الكبير عادت تطل برأسها عيوب تطبيق نظام إلتزام الجمارك .

ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين وهو فولنى — وقد زار مصر والشام وقضى فيهما سنوات ثلاث ١٧٨٣ — ١٧٨٥ — أنه فى عهد الحكومة الثنائية التى كان يتولاها فى مصر إبراهيم بك ومراد بك ، كانت هناك ظاهرة تكررت ، وهى أنه كلما احتاج هذان الأميران المملوكيان إلى أموال وفيرة تصل قيمتها فى كل مرة إلى خمسمائة ألف ليرة ، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ ، فلا يتردد الملتزم فى أداء ما يطلبان . وارتاح الملتزم إلى أمثال هذه المطالبات ، لأن الأميرين ابراهيم بك ومراد بك كانا يطلقان يد الملتزم فى رفع الرسوم الجمركية بصورة غير رسمية تعويضاً له عن المبالغ التى دفعها ، وهكذا كان الملتزم لا يتقيد بالتعريفة الجمركية . كان يفرض ما شاء له جشعه من رسوم إضافية لا تغطى المبالغ التى

---

(١) ومما يذكر أن على بك أبقى نظام الالتزام على الأراضى والسابق لعصره دون أى تغيير ، واكتفى بأن أبعد عناصر الحامية عن ميدان التزام الأراضى الى حد بعيد ولم يسمح بذلك إلا لمن تأكد من إخلاصهم له . أنظر : دكتور محمد رفعت رمضان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٢) تجمعت فى أيدى هؤلاء السوريين المسيحيين ثروات ضخمة وراودتهم الآمال فى جمع مزيد من الثروات . وأصبحت لهم مطامع يخشى منها أن يصيروا إلى ماصار إليه اليهود . وقد اعتقد الناس أن ساعتهم قد دنت وآذنت ، حين هرب رئيسهم أنطون فرعون الى ليفرنو Livourne فى إيطاليا سنة ١٧٨١ خوفاً من أن يفتضح أمره ، وفضل أن يقضى بقية حياته =

يدفعها للأمراء المماليك فحسب ، بل لتحقق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو تلاقت أو التحمت مصالح ملتزمى الجمارك مع مصالح الأمراء المماليك ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجمركية كمورد مالى لا ينضب معينه . وقد ارتفعت أصوات التجار بالشكوى من تصرفات ملتزمى الجمارك . ووقف قناصل الدول فى مصر إلى جانب مواطنيهم التجار . وتظاهر مراد بك برغبته فى القضاء على عيوب تطبيق نظام إلتزام الجمارك وقرر أن ينفرد هو دون سواه بالإشراف على الجمارك[1] . و ازداد الموقف تدهوراً ، إذ لم يكن هدفه الإصلاح ، وإنما الإستيلاء على حصيلة الرسوم الجمركية دون أن يشاركه فيها زميله فى الحكم الأمير المملوكى الكبير إبراهيم بك. ومن المعروف أن هذه الحكومة الثنائية ظلت رابضة على قلوب المصريين حتى قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فعصفت بها .

الإقطاع الحربى والإلتزام فى بلاد الشام:

وإذا انتقلنا من مصر إلى إقليم عثمانى آخر هو بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية المتعددة نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيها نظام الإقطاع الحربى ونظام الإلتزام . وكانت هناك الأراضى العامة ، ويطلق عليها ميرى ، وتعتبر ملكاً للحكومة ، وبعض إقطاعات عسكرية وفقاً للأنواع الثلاثة المعروفة : تيمار ، زعامت ، خاص ، لحكام الولايات والألوية والجنود الإقطاعيين ، على أن يقوم الإقطاعيون عند نشوب الحرب بإعداد وتجهيز عدد من الفرسان المحاربين يتناسب مع إيراد الإقطاع الحربى.

= فى جو آمن يستمتع بثروته الضخمة.

انظر :

فولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١) Combe Etienne : op. cit., p. 89.

وتميزت بلاد الشام بوجود عصبيات إقطاعية محلية اختلفت قوة وعدداً وثراء ونفوذاً . وكانت هذه العصبيات على نوعين : عصبيات مذهبية كالإسماعيلية ، والنصيرية والدروز والموارنة ، وعصبيات عنصرية كالأكراد والتركمان والعرب ، وبذلك وجد فى بلاد الشام نوعان من الإقطاع : الإقطاع الحكومى والإقطاع الطائفى . وكان الإقطاع الطائفى أرسخ جذوراً من الإقطاع الحكومى ، ولاسيما فى لبنان حيث كانت توجد عائلات أرستقراطية من الدروز والموارنة وغيرهم من بيوت العصبيات الإقطاعية . ويعرف زعماء هذه البيوتات بالمشايخ ، ويدير الشيخ شئون مقاطعته ويتربع (أمير الجبل) فوق هذا البناء الإقطاعى والذى له الرياسة العليا على الأمراء والمشايخ والعامة .

وكان نظام الإلتزام فى بلاد الشام أشد قسوة على الفلاحين من مثيله فى مصر . كان الملتزمون ينتمون إلى كبار الإقطاعيين العسكريين أو العشائريين أو رؤساء الطوائف الدينية . كان الملتزمون يجمعون الخراج والأموال السلطانية من الفلاحين ويسددون مقداراً معلوماً للباشا العثمانى فى دمشق أو الباشا فى صيدا بواسطة حاكم الجبل .

وقد أدخلت الدولة على نظام الإلتزام فى بلاد الشام فى أواخر القرن السابع عشر نظام المالكانة . وبمقتضى هذا النظام كانت الدولة تمنح الملتزمين حق الإلتزام مدى الحياة حتى يستطيعوا تحقيق أرباح معقولة لهم على مدى الأيام . ولكن جاء هذا النظام بنتائج عكسية بالنسبة للفلاحين والدولة . فقد كان الملتزم — وقد استقر وضعه ورسخت أقدامه فى دائرة الإلتزام — يعتبر نفسه مالكاً حقيقياً للأرض ومن عليها يستبد بالفلاحين ويسومهم سوء العذاب ضرباً أو سجناً أو مصادرة لأموالهم وحاصلاتهم . أما الدولة فقد أصبح من الصعب عليها مواجهة الزيادة فى النفقات بموارد مالية ثابتة وقديمة غير قابلة للزيادة . ولذلك لم يكن فى مقدورها زيادة الدخل الحكومى من مصادر الإيراد إلا عند

وفاة أحد الملتزمين تطرح إلتزامه فى مزاد من جديد وفقاً للأسعار السائدة[1] .
ومن الخصائص التى تميز بها نظام الإلتزام فى بلاد الشام أن السلطات العثمانية كانت تطلب من الملتزمين أن يعينوا مصرفيين فى العاصمة كى يتم دفع الأموال المطلوبة فى المواعيد المحددة والمنصوص عليها فى عقد الإلتزام . وكان المصرفيون من المسيحيين واليهود ويشكلون طبقة وراثية ممتازة . وكان لابد لكل مصرفى أن يحصل على براءة موقعة من السلطان بعد أن يدفع مبلغاً باهظاً للسلطان وبعد أن تتأكد الدولة أنه على حظ موفور من الثراء بحيث يستطيع أن يسدد للخزانة الأموال المطلوبة من الملتزم حالما يحل موعد سدادها[2] . وكان الدافع للدولة العثمانية على إدخال نظام المصرفيين هو أنها تبينت أن الملتزمين كانوا يسوفون فى أداء إلتزاماتهم المالية أو يتهربون من الوفاء بها. ورضخ الفلاحون لعسف الملتزمين، وكان لا يحق للفلاح أن يجأر بالشكوى أو يغادر قريته وعاش الفلاح حياة الضنك والكفاف . وقرر بعض المعاصرين أنه لم يكن يأكل اللحم طوال السنة إلا فى المناسبات كالأعياد وحفلات العرائس[3]

وأسرف أصحاب الإقطاع الحربى والملتزمون فى طغيانهم والاستهانة بالسلطات العثمانية . فكانوا يتفقون مع بعض الولاة على القيام بحركات تمرد ، ولايؤدون الخدمات المقررة عليهم للدولة . وواجهت الحكومة العثمانية هذه الانحرافات باتخاذ بعض التدابير للتخفيف من مساوىء كلا النظامين . كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) ينتهز فرصة وفاة صاحب الإقطاع الحربى أو الملتزم ويستولى على أراضيه ، وكان يطلق على مثل هذه الأراضى التى يتوفى عنها أصحابها اسم

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية (١٨٦٤ — ١٩١٤) ،دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٢ ،حاشية رقم ٢
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ ،حاشية رقم ٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

الأراضى المحلولة — ويضمها إلى أراضى الأوقاف العامة لينفق إيرادها على إنشاء الجيش الجديد الذى شرع فى تكوينه بعد إلغاء نظام الانكشارية . وسار على هذه السياسة السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩)

وحدث تحول هام فى نظام الإقطاع ونظام الإلتزام فى بلاد الشام فى أثناء العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ — ١٨٣٩) خلال الحكم المصرى لهذه البلاد . فقد كان من الطبيعى — بعد أن نجح محمد على فى إلغاء نظام الإلتزام فى مصر ونجح فى فرض التجنيد العسكرى الإجبارى — أن ينهج هذا النهج بشقيه فى بلاد الشام . فعمد إلى إلغاء الإقطاع الحربى وإلى حل القوات العسكرية الإقطاعية وإلى تجريد السكان من السلاح بالقوة دون تفرقة بين الأشراف والأعيان وبين عامة الشعب . وعمد محمد على أيضاً إلى إدخال نظام التجنيد العسكرى الإجبارى وإلى إلغاء نظام الإقطاع ونظام الإلتزام وإلى منح الفلاحين حق رفع الشكوى على الملتزمين ، وأعلن المساواة بين جميع الطوائف والمذاهب . ولكن لما انتهت فترة الحكم المصرى فى بلاد الشام عادت الأمور إلى أوضاعها السابقة على الرغم من أن الدولة أعلنت فى وثيقتين هامتين صدرتا فى سنتى ١٨٣٩، ١٨٥٦ سبق أن أشرنا إليهما [١] وسنعود إليهما بعد حين ، إلغاء نظام الإلتزام وتقرير التجنيد لجميع رعايا الدولة بدون تمييز بسبب الدين أو الجنس أو المذهب .

الإقطاع الحربى والإلتزام فى العراق :

إذا انتقلنا من بلاد الشام إلى إقليم عثمانى آخر هو العراق نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيه كلا النظامين: الإقطاع العسكرى والإلتزام . ولم ينجحا النجاح المرتجى بسبب ضعف الحكم العثمانى فى الولايات الأربع التى كان يتألف منها العراق بعد أن استكملت الدولة العثمانية فتحها للبلاد العراقية . وكانت هذه

(١) انظر ص ٩٦ — ٩٨ فى هذه الدراسة .

الولايات هى الموصل[١] ، وشهر زور (كردستان)[٢] ، وبغداد[٣] ، والبصرة[٤] .
وكان ظهور العصبيات المحلية فى العراق من الأسباب التى أدت إلى عدم نجاح كلا النظامين ، وكذلك الصدام الذى كان يحدث بين القوات الإقطاعية وقوات الإنكشارية . وكانت الدولة تحشد قوات كثيفة العدد من الإنكشارية فى المدن الكبرى فى العراق ، وظهور المماليك كعصبية حاكمة فى بغداد . وكان من نتائج هذه العوامل مجتمعة أن أصبح فرسان الإقطاعات العسكرية — تيمار وزعامت — يتهربون من الخدمة العسكرية . وكان من بين الدوافع التى سيقت لتبرير مسلكهم العملى كثرة الحروب المتعاقبة التى كانت تخوضها الدولة تباعاً سواء ضد فارس فى جبهتين أو ضد دول أخرى فى أوروبا ، فكانت هذه الحروب تجبرهم على الابتعاد فترات طويلة عن إقطاعاتهم ، وكانوا يخشون انخفاض دخلهم من هـــذه

(١) كانت ولاية الموصل تمتاز عن بقية الإيالات العراقية بتطبيق نظام الإقطاع العسكرى فيها بكثرة لم تعهدها الإيالات الأخرى فى العراق .

انظر :

دكتور عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا . القاهرة ، ١٢٨٨ هـ — ١٩٦٨ م ، ص ٧

(٢) كانت إيالة شهر زور مليئة بالإمارات والعشائر الكردية السنية . وقد شدت أزر الدولة العثمانية فى أثناء الحروب الفارسية العثمانية . وكان من بين هذه الإمارات : الإمارة السورانية ، والبهدينانية ، والبابانية . وقد اعترفت الدولة العثمانية بحكم العصبيات المحلية ، وانتهى الأمر بامتداد هذه العصبيات بالسلطة ولم يعد للوالى العثمانى سلطات فعلية يمارسها هناك .

(٣) كانت ولاية بغداد أهم الولايات العراقية حتى أن ولاية البصرة هبطت إلى مجرد متسلمية تابعة لبغداد فى أوائل القرن الثامن عشر ، كما أصبحت ولاية شهر زور تحت إشراف والى بغداد .

(٤) لم تطبق الدولة نظام الإقطاعات العسكرية فى ولاية البصرة ، وملحق بها الأحساء . وسرعان ما أصبحت الأحساء تحت حكم العشائر . أما البصرة فقد تبادل حكمها الولاة العثمانيون وشيوخ المنتفق .

الإقطاعات التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم . ويضاف إلى هذه الأسباب سبب آخر هو أن عدداً كبيراً من أصحاب الإقطاعات العسكرية كانوا من غير أهل العراق، إذ كانوا بصفة خاصة من العسكريين الأتراك، فكانوا يولون وجوههم شطر إستانبول ، وكانت مشاعرهم مرتبطة بها أكثر من ارتباطها بولايات العراق ، ولذلك كان دورهم في تاريخ العراق ضعيف الأثر أو دوراً هامشياً .

وتسلل نظام الإلتزام في العراق — كما تسلل في مصر — إلى مختلف نواحي الدخل الحكومي مثل الأراضي الزراعية والجمارك . وكانت المدن والقرى تمنح بالإلتزام، كما كان شيخ العشيرة يلتزم بجمع الأموال الأميرية من أفراد عشيرته[1] . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر تعرض الاقتصاد العثماني لهزات عنيفة وتدهورت قيمة العملة العثمانية وارتفعت الأسعار . ولجأت الحكومة إلى زيادة الضرائب ، ولجأ الملتزمون بدورهم إلى نفس الوسيلة ، وأرهقوا الفلاحين من أمرهم عسراً ، وفرضوا مزيداً من الضرائب والرسوم الجزافية التعسفية . وتكدست الأموال في أيدي الملتزمين ،وظهرت في المجتمع العراقي طبقة جديدة من كبار الملتزمين جمعوا بين الثراء العريض والنفوذ الكبير وأطلق عليهم « أعياني مملكت »[2] ومارس أفراد هذه الطبقة شبه سيادة إدارية ومالية وقضائية على المناطق التي تولوا أمرها في الوقت الذي كانت في حاجة ماسة إلى مزيد من الأموال للإنفاق العسكري .

محاولات إلغاء نظام الإلتزام:

ذكرنا أن نظام الالتزام قد اختفى من مصر كلية على يد محمد على في سنة

---

(١) دكتور عبد العزيز سليمان نوار ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧

(٢) أي أعيان البلاد كما يترجمها الأستاذ برنارد لويس .

انظر :

Lewis Bernard; The Emergence etc., op. cit., p. 38.

١٨١٤ . ولكن ظل هذا النظام قائماً فى سائر أو معظم ولايات الدولة ، ثم صدر في ٣ من نوفبر (تشرين ثان) ١٨٣٩ « خطى جلخانة » ، وقد تقرر فيه إلغاء نظام الإلتزام. وقد حمل هذا الفرمان السلطانى حملة عنيفة على نظام الإلتزام وأبرز بعض عيوبه ونعته بأنه أداة من أدوات الخراب لأنه عبارة عن تسليم المصالح السياسية والأمور المالية فى منطقة ما لإدارة أحد الناس . وقد يسيء هذا الشخص استخدام سلطاته إذا كان رجلا شريراً ولا ينظر إلا لتحقيق مصالحه . وخلص المرسوم إلى أنه من الضرورى أن يحل محل نظام الإلتزام نظام جديد يتقرر بمقتضاه فرض ضريبة على كل مواطن فى المجتمع العثمانى ، وأن يتحدد مقدار هذه الضريبة فى ضوء ثراء المواطن وإمكانياته، وبذلك يكون فى حكم الاستحالة تحصيل مبالغ من المواطنين أكثر مما هو مقرر عليهم[١] .

وفى شهر ديسمبر (كانون أول) ١٨٣٩ صدر قانون تقرر فيه أن يجمع حكام الولايات اعتباراً من أول مارس (آذار) ١٨٤٠ الضرائب القانونية فقط

---

(١) هذا هو النص الحرفى لجزء الخاص بنظام الإلتزام وضرورة إلغائه كما ورد فى المرسوم السلطانى خطى شريف جلخانة.

"A fatal custom still exists, although it can only have disastrous consequences; it is that of venal concessions, known under the name of *Iltizam*.

"Under that name the civil and financial administration of a locality is delivered over to the passions of a single man; that is to say, sometimes to the iron grasp of the most violent and avaricious passions, for if that contractor is not a good man, he will only look to his own advantage.

"It is therefore necessary that henceforth each member of Ottoman Society should be taxed for a quota of a fixed tax according to his fortune and means, and that it should be impossible that anything more could be exacted from him ... ".

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, pp. 113—116

وأن يتولى جمعها جباة مدنيون، وأن كل موظف سوف يتقاضى مرتباً معيناً ثابتاً، وأن الترقية فى الوظائف الحكومية تقوم على أساس الجدارة والكفاءة[١]. وقد لقيت الإصلاحات التى يضمها خطى جلخانه ومجموعة القوانين التى أعقبت صدوره معارضة عنيفة من مختلف طوائف الشعب — مسلمين ومسيحيين — وكان أن صدر فى مستهل سنة ١٨٤١ قرار بعزل مصطفى رشيد باشا رائد الإصلاح العثمانى. وتوقف العمل بالنظم الجديدة وعادت الحكومة إلى نظام الإلتزام وإلى الحكام العسكريين وسحبت جباة الضرائب المدنيين ، واستعاد هؤلاء العسكريون مهمة جمع الضرائب فى فبراير (شباط) ١٨٤٢ . ولما عاد رشيد باشا إلى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦ استعادت حركة الإصلاح نشاطها السابق[٢] .

وصدر فى ١٨ من فبراير (شباط) ١٨٥٦ مرسوم سلطانى يعرف باسم خطى همايونى . وقد أكد المرسوم الجديد المبادىء التى وردت من قبل فى خطى جلخانه ومنع منعاً باتاً تدخل الموظفين وأعضاء المجالس فى أن يشتركوا فى أى إلتزام كخطوة نحو القضاء على هذا النظام نهائياً .

وعلى الرغم من تلك المحاولات المذكورة فقد ظل نظاما الإقطاع الحربى والإلتزام قائمين فى عدد من الولايات العثمانية . ففى بلاد الشام باشرت الدولة بعد صدور خطى جلخانة تحصيل الضرائب من الفلاحين واعتمدت على موظفين فى خدمتها حلوا محل أصحاب الإقطاع الحربى والملتزمين . وكان هؤلاء الموظفون يتبعون دفتردارية الولاية وهى الإدارة المالية فيها . ولكن لم يقدر لهذا النظام أن يؤتى ثماره المرجوة لقلة عدد الموظفين ذوى الأمانة ، فعاد نظام الإلتزام مرة أخرى بعد الحد من مساوئه . وأصدرت الدولة فى سنة ١٨٥٨ قانون الأراضى

---

(١) Lewis Bernard, The Emergence etc., op. cit., p. 385

(٢) عزل رشيد باشا من منصب الصدارة العظمى فى سنة ١٨٥٢ . وقد توفى سنة ١٨٥٨ . انظر لمحة سريعة عنه فى المرجع السابق ، ص ص ١٠٥ — ١٠٦ .

العثمانى وبمقتضاه قسمت الأراضى فى الولايات العثمانية خمسة أقسام هى الأراضى المملوكة ، والأراضى الأميرية . وكانت تعتبر ملكاً لأصحاب الإقطاع الحربى (التيمار — الزعامت) وقد ألغيت وأصبح التصرف فيها للدولة فتبيع منها ما تريد لمن تريد ، والأراضى الموقوفة ، والأراضى المتروكة ، والأراضى الموات . وليست هذه الدراسة مجالا لشرحها ، ولكن حسبنا أن نذكر أن إصدار هذا القانون الذى جاءت صياغته فى ١٣٢ مادة وخاتمة كان محاولة جادة لسيطرة الدولة على أراضيها[1] . وفى سنة ١٨٦١ صدر قانون تسجيل الأراضى المعروف باسم الطابو .

أما فى العراق فكانت الأراضى فى مطلع القرن التاسع عشر تنقسم إلى عدة أنواع منها :

١ — أراض عشائرية .

٢ — أراضى التيمار والزعامت وهى إقطاعات عسكرية .

٣ — أراض أميرية ملك الدولة وكانت تشكل معظم مساحة العراق المزروعة .

٤ — أراض ملك للأفراد .

وقد عشش نظام الإقطاع العسكرى على نحو من الأنحاء فى أراضى التيمار والزعامت ، بينما بقى نظام الإلتزام مطبقاً فى الأراضى العشائرية والأميرية ، إذ كان الشيخ يسند إليه إلتزام ديرة عشيرته فى المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية . أما فى الأراضى الزراعية مثل منطقة المنتفق فقد طرح إلتزام ديرة المنتفق فى المزايدة منذ حوالى منتصف القرن التاسع عشر . وكان الشيخ الذى يقدم أكبر عرض مالى يحصل على التزام الديرة واستمر هذا الأسلوب متبعاً حتى جاء مدحت باشا إلى العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢) ووضع نظاماً جديداً . فقد قام بتوزيع الأراضى الأميرية على الأهالى بأسعار مخفضة تشجيعاً للملكية الفردية ولكن لم تسفر

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

هذه المحاولات عن النجاح الذى كان يرتجيه لها ، فقد كانت الأموال وفيرة لدى شيوخ العشائر وكبار الموظفين والعشائر والتجار فأقبلوا جميـــعاً على شراء الأراضى الخصبة ، وظل الفلاح العراق بعيداً عن الملكية الزراعية . ومن ناحية أخرى خصصت ديرة لكل عشيرة يدفع شيخها عنها مبلغاً من المال كان يوضع فى المزايدة كل سنة . وظل هذا النظام المالى العشائرى معمولا به حتى توقف فى أواخر القرن التاسع عشر . وفى خلال فترات التحول من نظام الإلتزام إلى نظام الملكية الفردية استطاعت إدارة البلاط السلطانى — الإدارة السنية — أن تستولى على مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، ولكنهـــا أخضعت للقيود المالية التى فرضت على أراضى السلطان بسبب توقفه عن دفع الديون وبخاصة بعد مرسوم سنة ١٨٨١ ، ثم صدر فى سنة ١٨٩٠ فرمان يجعل أراضى الدولة كلها ملكاً للسلطان . وقد ثبت أن هـذا الفرمان لم يطبق من الناحية العملية،وإن ظل قائماً من الناحية النظرية . وظل الأمر على هذا النحو حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

ونخلص من هذا العرض إلى أن الصفة الإقطاعية كانت خصيصة بارزة من خصائص الدولة العثمانية وكانت لصيقة بها فى معظم مراحل حياتها عبر العصور والأدهار .

* * *

الفصل السابع

السياسة العليا للدولة العثمانية

فى ضوء خصائصها العامة (١)

من تلك الخصائص العامة الست التى تميزت بها الدولة العثمانية ، كما وضحت فى مجالات التطبيق العملى فى أرجاء الدولة، وهى الخصائص العسكرية ، والدينية ، والمالية ، والحكم المطلق،والطبقية ، والإقطاعية ، يمكن أن نستخلص السياسة العليا للدولة فى ضوء هذه الخصائص ومن معالم التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية خلال العصور المتعاقبة التى عاشتها.

أولا : أن تكون دولة الإسلام الكبرى :

جعلت الدولة العثمانية من نفسها دولة الإسلام الكبرى بعد أن عقدت لها زعامة العالم الإسلامى منذ أن خاضت بنجاح فى أوائل القرن السادس عشر الصراع الحربى ضد الدولة الصفوية فى فارس ، ثم نجاحها فى القضاء على دولة المماليك الشراكسة فى الشام أولا ، وفى مصر ثانياً ، وبسط سيادتها على إقليم الحجاز ، فدخلت فى حوزتها أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على الإطلاق،وهى: الكعبة الشريفة ، فى مكة المكرمة ، والمسجد النبوى ، فى المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، فى بيت المقدس ، ثم مضيها فى سياسة التوسع الإقليمى فى البلاد الإسلامية فى منطقة الشرق الأوسط وفى شمالى إفريقية حتى إقليم الجزائر. وقد سبق هذا التوسع فى البلاد الإسلامية ثم صحبه ، ولحقه ، توغل الدولة فى قلب أوروبا ، وضمها أقاليم أوروبية شاسعة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة إلى

دار الإسلام ونجاحها فى انتزاع بعض الجزر فى البحر المتوسط والتى كانت تعتبر قواعد عسكرية صليبية أو جيوباً صليبية تهدد أمن الدولة فى هذا البحر مثل جزيرة رودس ، وقد طردت منها فرسان القديس يوحنا ، ومواجهتها بتكتلات دولية أوروبية صليبية كان بابا روما يرأس بعضها . وكان الجدود العثمانيون يحملون السلاح فى أيديهم ويحملون العقيدة الدينية في قلوبهم . ونظر العالم فى ذلك الوقت إلى الحروب التى كانت تخوضها الدولة ضد الدول المسيحية فى أوروبا على أنها حروب مقدسة [(١)] ، وأضفى هذا النشاط على الدولة الطابع الدينى .

وتعددت صور هذا الطابع الدينى فى السياسة العليا للدولة من اتخاذ السلاطين لقب «حامى الحرمين الشريفين» تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامى ، ثم اتخاذهم لقب «خليفة» لنفس الغرض ، ونجاح الدولة فى إدخال تعديل على اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر ـ تشرين أول ـ ١٨٨٨) الخاصة بحرية المرور فى قناة السويس كان من شأنه إعفاء السفن الحربية العثمانية من القيود المفروضة على سفن الدول المتحاربة إذا كانت الدولة فى صدد الدفاع عن ممتلكاتها الإسلامية فى الحجاز واليمن . [(٢)] ومن بين هذه الصور أيضا تيسير أداء فريضة الحج أمام الراغبين فيه ، وتنظيم أربع قوافل رئيسية كل سنة تبدأ مسيرتها من أنحاء الدولة وتنقل الحجيج تحت حراسة عسكرية مشددة ، ثم الدعوة إلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإنشاء سكة حديد الحجاز . وقد ظل الطابع الدينى الإسلامى غالباً على السياسة العليا للدولة حتى إبان الحرب العالمية الأولى . وهكذا جعلت الدولة العثمانية الدين

---

(١) Lewis Bernard; The Emergence etc., op. cit., p. 26.

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى :
الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتى قناة السويس والبريد الجديدة .
بحث منشور فى حوليات كلية الآداب — جامعة القاهرة ، المجلد الثانى والعشرون . العدد الأول . سنة ١٩٦٠ ومطبوع سنة ١٩٦٤ ص ص ١ — ٩٣ .

من دعائم الدولة ، وعبأت الشعور الديني الجارف في أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية ، وعملت على إعلاء شأن الشريعة الإسلامية ، وأضفت على رجالها الكثير من الرعاية والنفوذ والامتيازات ، وأنشأت هيئة كانت من أقوى الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وشجعت التصوف وطوائف الدراويش .

وكان من مبادىء السياسة العليا للدولة فى القطاع الدينى أيضا منع تسلل المذهب الشيعى إلى منطقة الشرق الأوسط وشمالى إفريقية . وقد جعل العثمانيون من أنفسهم حماة للمذهب السنى فى العالم الإسلامى .

ثانياً : جعل البحر الأحمر بحراً إسلامياً مغلقاً :

جعلت الدولة البحر الأحمر بحراً إسلامياً مغلقاً فى وجه السفن غير الإسلامية. فكان يحرم عليها تجاوز موقع ميناء مخا فى اليمن . وكانت أمثال هذه السفن تفرغ حمولتها فى هذا الميناء ، ويعاد شحنها فى سفن إسلامية تبحر بها إلى جدة أو ينبع أو السويس أو غيرها من موانىء البحر الأحمر . وبذلك أغلقت هـذا البحر فى وجه الزحف الاستعمارى الأوروبى الذى حاول أن يتسلل من باب المندب إلى الأقاليم الإسلامية التى تطل على هذا البحر من شاطئيه . وكان البحر الأحمر لا يزال مغلقاً فى جزئه الشمالى ، لأن قناة السويس لم تكن قد أنشئت بعد . ولذلك انصرف اهتمام الدولة إلى مدخله الجنوبى عند باب المندب . وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح فى الفصل الأول من هذه الدراسة .

ثالثاً : نشاط حكومى محدود :

انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : الحروب ، والدين ، والحكم على أساس النظام البيروقراطى ، والزراعة . ولم تباشر نشاطاً يذكر فى مجالات

الصناعة والتجارة ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين[١] . ولم تهتم بتحسين المواصلات مثل إنشاء الطرق البرية أو حفر القنوات الملاحية أو إصلاح الموانىء ، كما أنها لم تبد اهتماماً بالنهوض بالتعليم العام بصفة عامة بين رعايا ولاياتها ، ولم تضع لهم فى برامجها رعاية الصحة العامة ، أوما يسمى الطب الوقائى ، فضلا عن الطب العلاجى ، وبعبارة أخرى أغفلت الدولة إقامة منشآت ومرافق عامة تسهر على تحسين أوضاع الرعايا العثمانيين من النواحى الاقتصادية والصحية والاجتماعية والثقافية وما إليها . وكانت الدولة العثمانية تسير فى هذا الصدد على النهج الذى كانت تسير عليه الدول الأوروبية ودول الشرق بصفة عامة فى تلك العصور قبل أن يشرق عصر النهضة فى مطلع العصور الحديثة على دول أوروبا الغربية . ولكن يؤخذ على الدولة العثمانية أنها لم تواكب التطور الذى طرأ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنظم السياسية والإدارية فى الدول الأوروبية من حيث نوعية وحجم الخدمات التى تؤديها هذه الدول للجماهير . ولما حاولت الدولة العثمانية الأخذ بهذه الاتجاهات جاءت محاولاتها متأخرة وفى وقت كان الاضمحلال قد دب فى أوصالها وبات العلاج متعذراً .

مارست الدولة سلطانها فى نطاق ضيق للغاية لم يتجاوز عدة قطاعات ،مثل المحافظة على الأمن الداخلى ، وجمع الضرائب بطريقة غير مباشرة مثل نظام الإلتزام فى الريف ، ونظام الطوائف فى المدن ، ثم تنظيم القضاء . وقد جعلت إجراءاته وأحكامه متمشية مع مبادىء المذهب الحنفى الذى اتخذته الدولة مذهباً رسمياً لها . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنواع القضايا الجنائية والمدنية والأحوال الشخصية ، كما كانت ولاية القضاء الجنائى والمدنى تمتد إلى جميع المقيمين فى الدولة لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عثمانى وأجنبى . واستمر

---

(١) Lewis Bernard; The Emergence etc., op cit., p. 26.

هذا النظام القضائى الشامل تغطى مظلته جميع المقيمين فى أنحاء الدولة حتى أخذت الدولة بنظام الامتيازات الأجنبية Capitulations ويستند هذا النظام إلى معاهدات عقدتها الدولة مع الدول الأوروبية واستهدفت تنظيم حياة رعايا هذه الدول المقيمين فى أملاك الدولة بحيث جعلت لهم هذه المعاهدات كياناً شبه مستقل عن السلطات العثمانية الحاكمة .

هذا النطاق الضيق الذى مارست فيه الحكومة العثمانية سلطانها على رعاياها جعل الحكم العثمانى سطحياً متحرجاً من أن يتغلغل فى حياة الجماهير من ناحية ، كما جعل الجماهير من ناحية أخرى لا تشعر بحاجتها إلى الاتصال اليومى المباشر بالسلطات العثمانية للتعامل معها . فكان كل فرد يلوذ بشيخ الطائفة التى ينتمى إليها ، وهو رئيس المهنة أو الحرفة التى يزاولها ، ويعرض عليه مشكلاته فيعمل على تسويتها ، سواء بنفسه أو بالاتصال بأولى الأمر . ولذلك قيل إن الفرد فى الأقاليم التى دانت للحكم العثمانى كان يولد ويعيش ويموت دون أن يشعر فى يوم ما بالحاجة إلى مقابلة أحد من الحكام العثمانيين

ونجم عن ذلك أن الدولة لم تحاول فى البلاد التى فتحتها أن تقيم نفوذها على أسس علمية من الاستعمار المنتج ، وهى الأسس التى أرساها الاستعمار الأوروبى بعد ذلك لصالحه فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين قبل أن ينقشع من البلاد التى خضعت له سواء فى العالم الإسلامى أو فى غيره من البلاد الإفريقية والآسيوية . وتأسيساً على هذه الحقيقة كان الحكم العثمانى بعيداً عن استغلال الشعوب أو اعتصار مواردها الاقتصادية . كانت إستانبول تستوفى نصيبها من الجزية السنوية المقررة على الولايات العثمانية ، وكانت كل ولاية تنفق الباقى من الموارد المالية الحكومية فى داخل الولاية ذاتها . وإذا أخذنا مصر مثالا لولاية عثمانية نجد أنها لم تكن إبان الحكم العثمانى

مزرعة لإستانبول، كما كانت فى أثناء الحكم الرومانى مزرعة لروما تمدها بالحبوب، أو كما كانت إبان الاحتلال البريطانى مزرعة أقطان تمد المصانع الإنجليزية فى مانشستر وليفربول وغيرهما بالقطن لصناعة المنسوجات القطنية .

رابعاً : الاعتماد على العسكريين فى الحكم كأهل ثقة :

استخدمت الدولة رجالها العسكريين كأهل ثقة تطمئن إلى ولائهم فى تقلد معظم المناصب المدنية فى حكومات الأقاليم التى فتحتها . وقد سبق أن ذكرنا أنه كان للجيش العثمانى وظيفتان : الحرب والحكم . وقيل فى هذا الصدد إن الجيش العثمانى كان بمثابة عملة معدنية نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب ، ونقشت على الوجه الآخر لفظة الحكم . وكان لهذه السياسة ـ وهى إيثار العسكريين بالمناصب المدنية القيادية والمتوسطة آثار سيئة . كان أولئك العسكريون على درجة كبيرة من الاستعلاء والغرور والجهل بالمسائل الفنية . وكان من نتائج هذه السياسة أن حدثت عزلة بين الحكام والمحكومين ، وانعدمت الثقة بين الطرفين . وانصرف معظم المدنيين من الأتراك العثمانيين عن الاشتغال بالسياسة والحكم ، فلم يكن لدى الدولة رصيد من الكفايات المدنية لاستخدامها فى دفع عجلة الإصلاح . ولم يدرك المصلحون إلا فى وقت متأخر عواقب هذه السياسة غير الحكيمة .

خامساً : تجنب إدخال تعديلات جذرية تمس النظم القائمة :

لم تفرض الدولة على الأقاليم التى فتحتها تعديلات جوهرية تمس النظم الأساسية القائمة فيها إلا ما كان يتعارض منها مع سيادة الدولة ، فكانت فى هذه الحالة تدخل تعديلات تتمشى أو تخدم أو تساند « الوجود العثمانى » ، وفيما عدا ذلك تركت رعاياها يمارسون حياتهم وفق الأسلوب الذى ألفوه من قبل محافظين على لغاتهم وثقافاتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، لا يضيرهم إلا المظالم التى كانت

تنهال عليهم من الحكام المحليين فى عصر اضمحلال الدولة وتدهور نظمها . وأكثر من هذا، تركت لبعض العناصر الأصلية نصيباً فى حكم البلاد مع وضع ضمانات تكفل لها الحفاظ على السيادة والسيطرة والحصول على الجزية المقررة . أما تحويل الشعوب المسيحية فى الأقاليم الأوروبيـة التى فتحها العثمانيون إلى الإسلام فقد تأرجحت السياسة العليا للدولة تجاه هذه المسألة . كانت تارة تحمل الرعايا المسيحيين على اعتناق الدين الإسلامى ، وتارة أخرى تكتفى بتشجيعهم على الدخول فى الإسلام بمنحهم امتيازات مادية وأدبية ، وتارة ثالثة تقف موقفاً سلبياً أو حيادياً . وسنتناول هذه المسألة بشىء من التفصيل فى الفصل التاسع لأنها أكثر التصاقاً بموضوع عثمنة الشعوب التى دانت لحكم العثمانيين .

سادساً : بسط السيادة العثمانية على المضايق والبحر الأسود :

مارست الدولة سيادتها على المضايق ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . ونقصد بالمضايق The Straits فى تاريخ الدولة العثمانية البوسفور وبحر مرمرة والدردنيل ، فهذه كلها فى الواقع تشكل مضيقاً طبيعياً واحداً يوصل بين البحر الأسود وبحر إيجه الذى هو جزء من البحر المتوسط . وليس للبحر الأسود مخرج آخر غير تلك المضايق الطبيعية ، فالبحر الأسود يتصل بالبحار العامة والمحيطات عن طريق تلك المضايق .

وقامت السياسة العليا للدولة العثمانية على ممارسة سيادتها كاملة على المضايق . واستندت فى هذه الممارسة على القاعدة القانونية التى تقول إنه إذا كان المضيق واقعاً فى أرض دولة واحدة ، وكان اتساعه لا يزيد على ستة أميال فإن مياهه تعتبر مياهاً إقليمية وتتبع هذه الدولة . وإذا زاد اتساعه على ستة أميال فإنه لا يدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من ناحيتيه ، على أنه يجوز اعتبار المضيق كله فى هذه الحالة تابعاً للدولة صاحبة

شاطئيه ، إذا كان العرف قد جرى بذلك[١] . ومارست أيضاً سيادتها على البحر الأسود استناداً إلى أن هذا البحر كان يعتبر جزءاً من أملاك الدولة .

وقد نجحت الدولة العثمانية فى فرض سيادتها على البحر الأسود ما بقيت الدولة قوية شامخة ، فكان لها حرية التصرف كاملة بخصوص الملاحة فى البحر الأسود والمرور منه وإليه . وكانت تفتحه لسفن بعض الدول باتفاقات خاصة استثنائية[٢] .

كانت مسألة المضايق — بوجه خاص — مشكلة دقيقة ، بل كانت صورة حساسة لمركز الدولة العثمانية من حيث القوة والشموخ ، أو الاضمحلال والضعف . ففى العصور التى كانت هذه الدولة خلالها قوية مهيبة الجانب استطاعت فرض سيادتها على المضايق والبحر الأسود واحترمت الدول هذه السيادة إلى حد أنه إذا أراد الرعايا الروس ممارسة التجارة بين موانىء البحر الأسود كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثمانى . وفى العصور التى اضمحلت فيها الدولة ووضح ضعفها تعرضت لضغوط سياسية حيناً وعسكرية أحيانا من الدول الأوروبية التى تسابقت فيما بينها للظفر — فى معاهدات سنشير إليها — بحقوق لسفنها التجارية والحربية بالمرور فى المضايق وبالملاحة فى البحر الأسود فى زمن السلم ووقت الحرب . وقد بلغ الهوان بالدولة أنها اعترفت فى إحدى المعاهدات بأن الدفاع العسكرى عن المضايق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين الروسيا مما يعد انتهاكاً لسيادة الدولة العثمانية وعصفاً بسياستها العليا . وكان هذا الامتهان هو الدرك الأسفل من الضعف الذى هوت إليه . وكان مرده إلى

---

(١) الدكتور محمود سامى جنينه بك . القانون الدولى العام . القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢٣٠ .

(٢) دكتور عبد الله رشوان . المركز الدولى لقناة السويس ونظائرها . القاهرة ، ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م ، ص ٢٨١ .

الهزائم العسكرية التى تعاقبت عليها والأخطار التى جثمت عليها وضعف شخصية سلاطين الفترة الثانية[١] ، وهكذا أصبحت مسألة المضايق بمثابة الترمومتر أو المقياس الذى تقاس به قوة الدولة العثمانية أو ضعفها .

واختلطت مسألة المضايق بالسياسة الدولية ، وأصبحت هذه المسألة تشكل ركناً أساسياً فى علاقات الدولة العثمانية بالدول الأوروبية منذ السبعينات من القرن الثامن عشر ، بل غدت المضايق من أبرز مشكلات السياسة الدولية ، واحتلت مكان الصدارة فى خطط الدول وتفكير رجال القانون الدولى العام وفى مؤلفاتهم . وفى القرن التاسع عشر كان يضرب المثل بالمضايق على أنها أم المشكلات الدولية ، وأنها سبب اضطراب العلاقات الدولية وإزعاج الدول الأوروبية. ومما يذكر فى هذا الصدد أن لورد إلنبوروEllenboroughوهويعترض على مشروع قناة السويس قال فى مجلس اللوردات بجلسة ٦ من مايو (إيار) سنة ١٨٦١« إن بوسفوراً واحداً ـ أى المضايق ـ كان مبعث متاعب كثيرة لنا. وإنى اعتقد أن هذا المشروع ـ قناة السويس ـ الذى نحن بصدده، إنما هو محاولة لإنشاء بوسفور آخر ووضعه فى أيدى الفرنسيين» . [٢] وقد رددت الصحافة الإنجليزية هذا الرأى ، وذهبت إلى أن قناة السويس ليست إلا بوسفوراً فرنسياً [٣] . وقد يقال إن مرور السفن الحربيه والسفن التجارية مسموح به فى قناة السويس وفق قيود محددة فى اتفاقية الآستانة (٢٩من أكتوبر ـ تشرين أول ـ سنة ١٨٨٨) ومع ذلك فليس فى مرور هذه السفن مساس بسيادة مصر على قناتها وأراضيها . ولكن حين يصل الأمر إلى أن تعترف الدولة العثمانية بأن الدفاع عن المضايق هو

---

(١) سنتكلم فى الفصل العاشر عن فئتين أو طائفتين أو مجموعتين من سلاطين الدولة ، هما : سلاطين الفترة الاولى وسلاطين الفترة الثانية .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى . قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بإنشائها . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧١ ص ١٤٣ .

(٣) المرجع السابق .

عبء يقع على عاتق هذه الدولة والروسيا معاً، فهذا هو المساس الصريح بسيادة الدولة على المضايق ، وهو خروج على السياسة العليا للدولة . ومع ذلك فإن قناة السويس سبق أن تعرضت لمثل هذا الوضع المهين فى معاهدة غير متكافئة (٢٦ من أغسطس ـ آب ـ ١٩٣٦) تقرر فيها أن تتولى القوات البريطانية بالاشتراك مع الجيش المصرى الدفاع عن القناة وكفالة حرية الملاحة فيها وسلامتها التامة، وأن ترابط القوات البريطانية فى منطقة القناة ومناطق أخرى ، وأن يظل هذا الوضع قائماً وما يستتبعه من استمرار الاحتلال البريطانى حتى تتفق بريطانيا ومصر على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع أن يكفل بمفرده الدفاع عن القناة وحماية أمنها .

* * *

الفصل الثامن

السياسة العليا الدولة العثمانية
فى ضوء خصائصها العامة (٢)

سيادة الدولة على المضايق والبحر الأسود
بين المعاهدات الثنائية والجماعية والتطبيق العملى

تكلمنا فى الفصل السابق عن حرص الدولة العثمانية على بسط سيادتها على منطقة المضايق والبحر الأسود ، واعتبار هذه السيادة عنصراً جوهرياً من عناصر السياسة العليا للدولة . ونمر فى هذا الفصل مروراً سريعاً على أهم المعاهدات التى ورد فيها ذكر لهذا الموضوع ، والتى أبرمتها الدولة بحريتها واختيارها مع غيرها من الدول ، أو التى فرضت عليها فرضاً فى أعقاب هزائم عسكرية نزلت بها [١] . وبمعنى آخر ، سواء كانت هذه المعاهدات التزاماً بسياستها العليا أو خروجاً عليها ، وسواء كانت معاهدات ثنائية traités bilatérales أو معاهدات جماعية traités collectifs ونستقى المادة العلمية لهذه الدراسة الوثائقية من واقع نصوص هذه المعاهدات . كما نشير إشارة عابرة إلى بعض الأحداث العسكرية الهامة التى تعرضت لها منطقة المضايق من جانب بعض الدول الأوروبية الكبرى ، ومدى صلابة الأتراك العثمانيين واستبسالهم فى الحفاظ على سيادة دولتهم على هذه الجبهات .

---

(١) تباينت آراء فقهاء القانون الدولى العام فيما يشوب بعض المعاهدات من عنصر الإكراه الذى هو أحد عيوب الرضاء ، وهى الخطأ ، والتدليس ، والغبن ، والإكراه . ويذهب فريق منهم إلى أن الإكراه يبطل المعاهدة بطلاناً نسبياً .

(أ) معاهدة بلجراد ١٧٣٩ :

لما بدت فى الأفق السياسى نذر اضمحلال الدولة العثمانية حاولت الروسيا فى الثلاثينات من القرن الثامن عشر إقامة وجود عسكرى بحرى لها على الساحل الشمالى للبحر الأسود كمقدمة لخطوات تالية نحو بسط سيطرتها العسكرية على منطقة المضايق وتمكين سفنها الحربية والتجارية من عبور البوسفور والدردنيل وقت السلم وزمن الحرب دون أية قيود أو شروط أو عوائق انطلاقاً إلى الوصول إلى البحار الدافئة . وكانت الوسيلة لتحقيق أهدافها القريبة والبعيدة هى السيطرة على مصاب بعض الأنهار التى تصب فى الساحل الشمالى للبحر الأسود مثل نهر دنيستر Dniester ، بج Bug ، دنيبر Dnieper، دن Don ، كوبان Kuban ، واشتعلت فى سنة ١٧٣٥ الحرب بين الدولتين . وأخفقت الروسيا فى تحقيق أهدافها ، وعقدت معاهدة بلجراد فى اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر ـ أيلول ـ ١٧٣٩ ، وتقرر فيها الاحتفاظ بالحدود القديمة للدولتين كما حددتها المعاهدات المعقودة من قبل بينهما (المادة ٢) ، كما تقرر هدم قلعة آزوف Azov ، وأن تترك الأرض المقامة عليها هذه القلعة فى داخل الحدود التى رسمتها معاهدة سنة ١٧٠٠ ، وأن تستخدم كحاجز بين الدولتين . وسمحت المعاهدة كتعويض للروسيا بأن تبنى قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة فى نهر دون بالقرب من آزوف ، وأن يسمح للدولة العثمانية بإقامة قلعة بالقرب من آزوف ، كما تقرر عدم السماح للروسيا ببناء أو إبقاء أساطيل لها أو سفن أخرى فى البحر الأسود (المادة ٣) ، كما قررت المعاهدة أن يمارس رعايا الروسيا نشاطهم التجارى فى البحر الأسود على سفن تركية (المادة ٩)[١] .

---

(١) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I. pp 47-51

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى ٢٨ من ديسمبر ـ كانون أول ـ سنة ١٧٣٩

وقد استمرت معاهدة بلجراد سارية المفعول مدة تزيد على ربع قرن . وكانت خلالها أساس العلاقات بين الدولة العثمانية والروسيا ، إلى أن عقدت بين الدولتين معاهدة خطيرة هي كتشك كينارجي .

(ب) معاهدة كتشك كينارجي ١٧٧٤ :

جاءت معاهدة كتشك كينارجي[1] Kucuk Kaynarca ضربة قاصمة للسياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على البحر الأسود والمضايق . عقدت هذه المعاهدة في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو – تموز – سنة ١٧٧٤ بعد حرب دامية استطالت ست سنوات بين الدولة العثمانية والروسيا منيت فيها القوات المسلحة العثمانية بهزائم أليمة . وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية بحتة إلى بحيرة عثمانية روسية بعد أن تقرر للروسيا الحق في إنشاء عدة قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل هذا البحر، وبذلك أصبحت الروسيا إحدى دول البحر الأسود المعترف بها ، كما تقرر لها الحق في أن تستخدم سفنها التجارية المضايق للخروج من هذا البحر إلى البحار العامة والدخول منها إليه .

وتهمنا في معاهدة كتشك كينارجي النصوص التي وردت بها خاصة بمسألتين : أولاهما ، الحقوق الملاحية التي تقررت للروسيا في البحر الأسود والمضايق . وثانيتهما ، الوجود العسكرى البحرى والبرى الذى تقرر لها في البحر الأسود أما عن المسألة الأولى فقد تقرر أن تكون الملاحة في هذا البحر حرة ومفتوحة وغير مقيدة بشروط للسفن الروسية التجارية ، والتي يصبح لها الحق في حرية المرور في المضايق بين البحر الأسود والبحر المتوسط وحرية دخول الثغور والموانى .

---

(١) كتشك كينارجي اسم قرية صغيرة تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب بالقرب من سيلستريا Silistra .

الواقعة على سواحل البحر الأسود . كما قررت المعاهدة أن تسمح الدولة العثمانية لرعايا الروس بممارسة التجارة فى جميع ولايات الدولة فى البر والبحر وفى نهر الدانوب ، وأن يطبق السلطان العثمانى على هؤلاء الرعايا نظام الامتيازات الأجنبية Capitulations الذى سبق له أن منحه لرعايا الدول الأكثر رعاية مثل بريطانيا وفرنسا ، وأن يكون للرعايا الروس الحق فى استيراد وتصدير جميع أنواع البضائع وتفريغ شحنات سفنهم فى كل ثغور وموانىء البحر الأسود وفى سائر البحار الأخرى ، وأن تكون إستانبول من بين الثغور التى يسمح لسفنهم بدخولها والمرابطة فيها لتفريغ شحناتها وشحن حمولات جديدة منها ، وذلك بعد دفع الرسوم المقررة (المادة ١١) .

أما المسألة الثانية فقد قررت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة الروسيا بصورة كاملة ودائمة ولا تقبل نقاشاً عدة قواعد ومواقع ، نذكر منها :

(ا) قلعة كينبرن Kinburn التى تقع عند مصب نهر دنيبر Dnieper، وأن يلحق بها القسم الواقع على طول الشاطىء الأيسر لهذا النهر والزاوية التى تشكل الإقليم الصحراوى المحصور بين نهر دنيبر ونهر بج Bug (المادة ١٨) .

(ب) قلعة جنيكال Jenicale وقلعة كيرتش Kertsch الواقعتين فى شبه جزيرة القرم ، وأن تمتد هذه السيطرة إلى جميع موانيها والمنشآت المقامة فيها ، فضلا عن جميع أجزائها وأقسامها التى تحيط بها القلعة ، ويحدها خط يبدأ من البحر الأسود ويتبع الحدود القديمة لقلعة كيرتش إلى مكان يسمى بوجاك Bugak ، ومن بوجاك يتجه الخط مستقيماً نحو الشمال إلى بحر آزوف (المادة ١٩) .

(ج) مدينة آزوف Azow بمنطقتها وحدودها التى وضعت سنة ١٧٠٠ (المادة ٢٠) .

وقد فاقت معاهدة كتشك كينارجى جميع المعاهدات السابقة التى عقدت بين

الدولتين ، كما شكلت هذه المعاهدة نموذج العلاقات العثمانية الروسية إلى قيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ . كما أن الشروط المهينة التى فرضت على الدولة العثمانية فى تلك المعاهدة قد أثارت مزيداً من الأطماع القيصرية ، كما أنها أوجدت مشكلات استعصى حلها فى العلاقات بين الدولتين وفرضت نفسها فرضاً فى مجال السياسة الدولية حتى منتصف القرن العشرين (١) .

(ج) تعهد عثمانى للنمسا ١٧٨٤ :

وحصلت النمسا على حق الملاحة الحرة غير المقيدة بشروط لسفنها التجارية فى البحر الأسود وفى عبور هذه السفن المضايق . وقد حصلت عليها فى وثيقة يطلق عليها *Senet* بمعنى « تعهد » أصدرها حامد باشا الصدر الأعظم فى اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير ـ شباط ـ سنة ١٧٨٤ (٢) .

(د) معاهدة تحالف دفاعى بين الدولة العثمانية والروسيا (١٧٩٨) .

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ عقدت الدولة العثمانية مع الروسيا معاهدة تحالف دفاعى فى إستانبول فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر ـ كانون أول ـ سنة ١٧٩٨ (٣) .

وكانت مدة هذا التحالف الدفاعى ثمانى سنوات . وفى مواد سرية مفصلة

---

(١) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol .I, pp54-61

وقد استبعد الأستاذ هيورويتز منها المادة (١٦) والفقرة الأولى من المادة (٢٤) بمقولة أنهما تخصان البلقان .

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى ٢٤ من يناير ـ كانون ثان ـ سنة ١٧٧٥

(٢) Noradounghian Gabriel; Recueil d'actes internationaux de l'Empire Ottoman. 4 vols. Paris, 1897. Vol 1., pp. 379-386

(٣) تذكر بعض المراجع أن هذه المعاهدة قد عقدت فى ٣ من يناير ـ كانون ثان ـ ١٧٩٩

تعهدت فيها الروسيا بأن تمد الدولة العثمانية باثنتى عشرة قطعة حربية، وإذا تطلب تطور الحوادث الحربية تعزيز القوات العثمانية فإنها تمدها بقوات برية يتراوح عددها بين خمسة وسبعين ألفاً وبين ثمانين ألف جندى روسى . وفى مقابل هذه المساعدات العسكرية الروسية تعهدت الدولة العثمانية « هذه المرة فقط » بمنح الروسيا الحق فى أن تمر سفنها الحربية فى المضايق مروراً حراً[1] .

وقد عقدت هذه المعاهدة على عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ـ١٨٠٧) والقيصر بول الأول (١٧٩٦ – ١٨٠١) . ويقول أحد المؤرخين الأمريكيين تعليقاً على سماح الدولة العثمانية للسفن الحربية الروسية بعبور المضايق إن بول الأول قيصر الروسيا استطاع أن يغمد الطرف الرفيع المدبب لسيفه فى باب السلطان بعقد معاهدة التحالف الدفاعى مع السلطان سليم الثالث . ويمضى متهكماً فيقول إن الفضل فى عقد هذه المعاهدة يرجع إلى نابليون وحملته على مصر[2] . والحق أن تصرف السلطان سليم الثالث كان خروجاً على السياسة العليا التى سار عليها أسلافه . وكانت تعوزه رباطة الجأش ، إذ كان منزعجاً إلى أبعد حدود الانزعاج بسبب احتلال فرنسا لمصر . وكان أول احتلال عسكرى أوروبى مسيحى لولاية عثمانية إسلامية فى التاريخ الحديث .

(هـ) « تحرير » عثمانى لبريطانيا (١٧٩٩):

ولم تكد تمر بضعة أشهر على عقد هذه المعاهدة حتى أصدر السلطان سليم الثالث مذكرة رسمية يطلق عليها « تحرير » ومؤرخة فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر ـ تشرين أول ـ ١٧٩٩ منح فيها بريطانيا حرية الملاحة فى البحر الأسود لسفنها التجارية وكذلك حق عبور هذه السفن المضايق[3] .

(١) نشرت المواد الملنة فى معاهدة التحالف العثمانى الروسى فى :
Noradounghian G. ; op. cit., Vol 2, pp. 24-27
Hurewitz J.C. ; op. cit, vol. I, p. 65 والمواد السرية فى
(٢) Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1., p 72
(٣) rialet E., Turkey Treaties.p. 270

ويلاحظ أن هذا الإذن كان مقصوراً على السفن التجارية، ولم يشمل السفن الحربية على الرغم من أن بريطانيـــا كانت تعتبر الدولة البحرية الأولى فى غربى أوروبا .

(و) معاهدة سلام بين الدولة العثمانية وفرنسا (١٨٠٢) :

ولما عاد السلام إلى أوروبا مؤقتاً عقب عقد صلح Amiens بين فرنسا وبريطانيا فى اليوم السابع والعشرين من شهر مارس ـ آذار ـ سنة ١٨٠٢ استطاعت فرنسا أن تعيد علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة العثمانية ، فعقدت معها معاهدة سلام Treaty of Peace فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو ـ حزيران ـ سنة ١٨٠٢، وكان أهم ماجاء فيها خاصاً بموضوع المضايق أن الدولة العثمانية منحت فرنسا لأول مرة الحق فى أن تمارس سفنها التجارية والتى تحمل العلم الفرنسى حق عبور المضايق والملاحة فى البحر الأسود ودون أن تقام فى وجهها عوائق، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة معاملة السفن التجارية التى تبحر فى البحر الأسود والتى تتبع الدول الأخرى (المـــادة ٢)[1]

(ز) تجديد معاهدة التحالف الدفاعى بين الدولة العثمانية والروسيا (١٨٠٥):

استطاعت الروسيا فى سنة ١٨٠٥ أن تجدد معاهدة التحالف الدفاعى مع الدولة العثمانية والتى كانت قد عقدت كما رأينا فى سنة ١٧٩٨. وقد تقرر تجديدها لمدة تسع سنوات بتأييد الحكومة البريطانية . وفى ظل هذا التجديد نجحت الروسيا فى أن تنتزع من الباب العالى امتيازات أشد خطراً من أية امتيازات سابقة منحها الباب العالى للروسيا. فقد اعترفت الدولة العثمانية فى المعاهدة المجددة

---

(١) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. I, pp. 71-72

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى باريس فى ٨ من سبتمبر ــ أيلول ــ سنة ١٨٠٢ .

التى أبرمت فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر — أيلول — سنه ١٨٠٥، بأن الدفاع عن المضايق إنما هو مسئولية مشتركة تقع من حيث المبدأ على عاتق الدولة العثمانية والروسيا .

اشتملت المعاهدة على جزءين: جزء معلن فى أربع عشرة مادة، وجزء سرى يقع فى تسع مواد . والجزء الأخير هو الذى يدخل فى نطاق هذه الدراسة . نصت المادة الأولى فى فقرتها الأخيرة على أن يسمح السلطان العثمانى للسفن الحربيــة الروسية وناقلات الجنود بعبور المضايق زمن الحرب . وجاء فى المادة الرابعة أن قيصر الروسيا قد قرر باسمه واسم خلفائه من بعده سلامــة الجزر الأيونية والذود عنها من كل اعتداء خارجى . ولما كان الموقف السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية يجعل من الضرورى استمرار الاحتلال الروسى للجزر الأيونية، فإن هذا الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التى دعت إليه لاتزال قائمــة . وتعهدت الحكومة العثمانية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية عبر المضايق من أجل خدمة وتموين القوات الروسية التى تحتل الجزر الأيونية ، ثم جاءت المادة السابعة فى الملحق السرى أخطر المواد على الإطلاق إذ نصت على أن الدولتين العثمانية والروسية ،وقد قررتا إغلاق البحر الأسود بحيث لا يسمح بأن تمر عبر المضايق السفن الحربية التابعة للدول الأخرى، فإن كل محاولة من جانب دولة أخرى مهما كانت لانتهاك هذا القرار يعتبر عملاً عدائياً موجهاً للدولتين العثمانية والروسية . وعلى ذلك فهما يتعهدان باستخدام كل قواتهما البحرية فى وجه كل سفينة حربيه وكل سفينة تحمل مواداً حربية تحاول دخول البحر الأسود .

The Two Contracting Parties, having agreed on the closure of the Black Sea, declare that any attempt by any Power whatsoever to violate it shall be considered a hostile act against them. Consequently, they pledge to oppose with all

their naval forces the entrance into that sea of every vessel of war and every ship carrying military stores(1).

ويلاحظ أن النسخة الروسية لهذه المعاهدة جاءت مختلفة عن النسخة التركية. وقد نشر الأستاذ هيوروويتز Hurewitz باللغة الإنجليزية كلا النصين عن النسخة التركية والنسخة الروسية التي ننشرها هنا مترجمة أولا إلى اللغة العربية بتصرف

« إن الطرفين الساميين المتعاقدين يوافقان على أن يكون البحر الأسود بحراً مغلقاً ، ولا يسمحان بأن تظهر في مياهه أية سفينة حربية أو أية سفينة مسلحة لأية دولة مهما كانت . وإذا حاولت أية سفينة أن تظهر مسلحة في داخل هذا البحر ، فالطرفان الساميان المتعاقدان يعتبران مثل هذه المحاولة باعثا عدائياً ، ويتعين عليهما مقاومتها بكل قوانهما البحرية . ويعتبران هذه المقاومة هي الوسيلة الوحيدة التي تكفل أمنهما المتبادل والمشترك ، ومن المفهوم أن المرور الحر في المضايق سوف يستمر بالنسبة للسفن الحربية الروسية والنقل الحربي الروسي . ويجب في كل الأحوال على الباب العالي أن يقدم إلى حضرة صاحب الجلالة إمبراطور جميع الروس كل المساعدات والتسهيلات التي قد يحتاج إليها » .

The Two High Contracting Parties agree to consider the Black Sea as closed and not to permit the appearance therein of any flag o[illegible] or armed vessel of any Power whatsoever, and if any should [illegible]mpt to appear there in arms, the Two High Contracting Parties undertake to regard such an attempt as a *casus foederis* and [illegible] oppose it with their naval forces, as being the only means [illegible]f assuring their mutual tranquillity ; it is understood that the free passage through the canal of Constantinople will continue in effect for the vessels of war and military transports of His Imperial Majesty of All the Russias, to which in each instance the Sublime Porte will furnish every assistance and grant every facility that may be required."(2)

---

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة وموادها العلنية وموادها السرية في :
Hurewitz, J. C , op. cit., vol. I., pp 72-77
وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في استانبول في ٢٩ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٨٠٥.

(٢) Loc. cit., p. 76, f. 1

التطورات الدولية ساعدت الدولة على إنهاء المعاهدة الجائرة :

كان تقرير هذا المبدأ ـ الدفاع المشترك عن المضايق ـ فى مقدمة الأخطـــاء الصارخة التى سقط فيها السلطان سليم الثالث ودليلا على حقه السياسى . فلم يحدث من قبل أن منح سلطان عثمانى للروسيا هذا الحق الذى يشكل خروجاً تاماً على السياسة العليا للدولة . وقد خفف من خطورة هذه المعاهدة غـــير المتـكافئة أن التغييرات السريعة التى طرأت على الموقف العسكرى والسياسى فى أوروبا فى سنة ١٨٠٦ قد عجلت بإنهاء العمل بتلك المعاهدة، وأطاحت بعرى التحالف الثلاثى بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا ، كما أدت إلى تعرض الدردنيل والبوسفور لاقتحام من جانب الأسطول البريطانى .

انتصارات نابليون العسكرية :

أحرز نابليون انتصارات عسكرية رائعة على النمسا فى موقعة أولم ULM فى ٢٠ من أكتوبر ـ تشرين أول ـ عام ١٨٠٥ ودخل فينا فى ١٣ من نوفمبر — تشرين ثان — ثم انتصر انتصاراً ساحقاً على القوات النمساوية والروسية فى موقعة أوسترلتز Austerlitz أو موقعة الأباطرة الثلاثة فى ١٢ من ديسمبر ـ كانون أول . وقد تقهقر قيصر الروسيا إلى بلاده، وأكره إمبراطور النمسا على التوقيع على معاهدة برسبرج Pressberg فى ٢٦ من ديسمبر ـ كانون أول ـ وتنازل فيها لفرنسا عن أقاليم أوروبية هامة[1]، كما كان لهذه المعاهدة نتائج بالغة الأهميـــة، وجاء فى

---

(١) شكان من شروط هذه المعاهدة تنازل النمسا لفرنسا عن البندقية ، ودلماشيا ، وأوستريا ، والتيرول .

أعقابها أحداث خطيرة[1]. وانتصر نابليون أيضاً على بروسيا فى موقعة يينا Jena فى ١٤ من أكتوبر ـ تشرين أول ـ عام ١٨٠٦ ، ودخل برلين فى ٢٧ من ذات الشهر . وأصدر مراسيم برلين فى نوفمبر ـ تشرين ثان ـ عام ١٨٠٦ وهى المراسيم التى اشتهرت باسم النظام القارى Le Blocus Continental وبها أعلن نابليون حصار الجزر البريطانية وحرم على جميع الدول الأوروبية الخاضعة أو الموالية له فتح موانيها للاتجار معها . وبمقتضى هذه المراسيم تكون السفن البريطانية التى تدخل موانىء فرنسا أو موانى حليفاتها عرضة للمصادرة . وكان لهذه الانتصارات الحربية من حيث حجمها ومن حيث أهمية مواقع الأقاليم التى استولى عليها نابليون ما جعل نفوذه يعلو علواً كبيراً عصف بمبدأ التوازن الدولى فى القارة الأوروبية .

أصداء الانتصارات فى إستانبول:

وكان لانتصارات نابليون العسكرية والسياسية أصداؤها فى إستانبول إذ غدا للنفوذ الفرنسى فى دوائر الباب العالى الصدارة والغلبة على نفوذ سائر الدول الكبرى . وتضاءل نفوذ الروسيا فى العاصمة العثمانية إلى حد بعيد حتى لم يعد لاتصالات إيتاليسكى Italinsky السفير الروسى وزن كبير فى دوائر الباب العالى . وأخذت هذه الدوائر تناقش حق الروسيا فى مرور قواتها فى البوسفور والدردنيل

---

(١) كان من بين نتائجها وأحداثها اللاحقة اعتراف النمسا فى ١٢ من يوليو — تموز — سنة ١٨٠٦ باتحاد الراين Confédération du Rhin الذى تكون من بافاريا ، وورتمبرج Wurtemberg ، وبادن Baden ، وثمانى ولايات أخرى ، وكبير مستشارى الإمبراطورية الألمانية (الأمير كارل دالبرج) ، ووضع هذا الاتحاد تحت حماية فرنسا . ومن نتائج المعاهدة أيضا إجبار إمبراطور النمسا فى ٦ من أغسطس — آب — سنة ١٨٠٦ على التخلى عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك زال إلى غير رجعة شبح هذه الدولة الكبيرة .

انظر تفصيلات وافية عن الموقف الدولى فى أوروبا فى سنتى ١٨٠٦، ١٨٠٧ فى : دكتور محمد فؤاد شكرى: الصراع بين البورجوازية والإقطاع (١٧٨٩ ـ ١٨٤٨) ٣ مجلدات، الناشر دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، المجلد الثانى ، الفصل الثالث ، ص ص ٦٨ ـ ٩٠ .

بعد أن بسطت فرنسا سيطرتها على إيطاليا وبعد أن أصبح نفوذ الروسيا فى الجزر الأيونيه سرابًا . وقد ذهب الباب العالى فى موقفه العدائى من الروسيا إلى حد أنه ألغى فى شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٠٦ جميع الامتيـــازات التى كانت ممنوحـة أو مقررة من قبل للبحـــارة الروس . وتدخل شـــارل أربثنوت Charles Arbuthnot السفير البريطانى لتأييد زميله السفير الروسى . ولـكن كان النفوذ البريطانى فى إستانبول قد تضـاءل بل وصل إلى الحضيض ، وطلب السفير البريطانى من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضـــايق تسانده فى اتصالاته مع دوائر الباب العالى . وكان الجنرال سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى قد وصل فى ١٠ من أغسطس — آب — عام ١٨٠٦ إلى إستانبول حيث ظفر باستقبال رسمى حافل غير مسبوق بمثال . واستبان للسفير البريطانى المكانة العاليه التى يتبوأها سريعاً السفير الفرنسى فى دوائر الباب العـــالى ، فـكتب إلى حكومته فى ١٥ من سبتمبر — أيلول — عام ١٨٠٦ يقول إذا لم تتحرك بريطانيا بأساطيلها فإن الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات العسكرية فى المضايق ، ويكون هذا العمل موجهاً ضد بريطانيا . وقد تحققت تنبؤات السفير البريطانى فى الأيام القليلة التالية . فقد قدم السفير الفرنسى مذكرة فى ١٦ من سبتمبر — أيلول — إلى الباب العالى طلب فيها إغلاق البوسفور والدردنيل فى وجه السفن الحربيـة الروسية ، وقرر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يكون عملاً عدائياً موجهاً ضد فرنسا . وفى هذه الحالة فإن القوات الفرنسية الزاحفة الجرارة ، والمرابطة فى إيطاليا ، سوف تجتاز الأقاليم العثمانية لمهاجمة الروس . وقال إن كل تحالف جديد أو استمرار العمل بتحالف قديم بين الدولة العثمانية وبين أعداء فرنسا مثل بريطانيا والروسيا لن يكون نقضاً صريحاً لمبدأ الحياد ، ولـكنه يعد إسهاماً إيجابياً واضحاً من جانب الدولة العثمانية فى الحرب التى تشنها بريطانيـا والروسيا على فرنسا .

وأكد السفير الفرنسي في مذكرته أن الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات تتمشى مع مصالحها ومع كرامتهـا ، وأن القوات الفرنسية السكثيفة المرابطة في دلماشيا ـ وهي قوات مقصود بها أساساً الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية ضد أطماع بريطانيا والروسيا — ستوجه إلى أغراض تتعارض تعارضاً جذرياً مع الغرض الأول الذي من أجله أرسلت إلى دلماشيا .

الدولة تفسخ معاهدتيها مع الروسيا وبريطانيا :

وصل النفوذ الفرنسي في إستانبول إلى الأوج حين أقدمت الحكومة العثمانية بإرادتها المنفردة وفي يوم واحد هو ١٤ من شهر نوفمبر ـ تشرين ثان ـ عام ١٨٠٦ على فسخ معاهدة التحالف الدفاعي المجددة بينها وبين الروسيا في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ـ أيلول ـ عام ١٨٠٥ ، فكأن هذه المعاهدة الجائرة ظلت نافذة بعد تجديدها ثلاثة عشر شهراً وواحداً وعشرين يوما . كما أقدمت الدولة العثمانية في ذات اليوم وبإرادتها المنفردة على فسخ معاهدة التحالف الدفاعي المعقودة بينها وبين بريطانيا في الخامس من يناير ـ كانون ثان ـ سنه ١٧٩٩ .

ومن المبادىء المجمع عليها في القانون الدولي العام أن فسخ المعاهدة بالإرادة الانفرادية لإحدى الدول الأطراف فيها أمر غير جائز طالما أن المعاهدة لا تخول أطرافها هذا التصرف تأسيساً على أنه يؤدي إلى زوال الاستقرار في العلاقات الدولية، ويجعل الدول في حل من تنفيذ التزاماتها الدولية متى شاءت، ويسلب المعاهدات قدسيتها، ويجعل بقاءها أو انقضاءها متوقفاً على السلطة التحكمية الانفرادية للدول الأطراف فيها. ومن ناحية أخرى فإن الدولة التي تفسخ المعاهدة بإرادتها الانفرادية تستند عادة إما إلى حق الضرورة، وإما إلى خرق الطرف الآخر لأحكام المعاهدة، والنتيجة العملية لفسخ المعاهدة بمقتضى الإرادة الإنفرادية هي أن ينتهي الأمر إلى الخروج من دائرة القانون إلى دائرة السياسة والأمر الواقع le fait accompli ويؤدي في

غالبية الأحيان إلى تغلب الدولة التى تتوفر لها أسباب القوة المادية[1] . ويبدو من الملابسات التى أحاطت بهذا الإجراء أن الدولة العثمانية قد أقدمت على فسخ معاهدتيها مع الروسيا وبريطانيا بتشجيع من فرنسا وشعوراً منها بأن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارض مع سياستها العليا فى بسط سيادتها كاملة على المضايق والبحر الأسود .

وكان هذا الإجراء الدبلوماسى المزدوج من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين كل من الروسيا وبريطانيا وقيام الحرب . وفعـــلا نجحت دبلوماسية نابليون فى أن تجر الدولة العثمانية إلى الحرب ضد الروسيا فى عام ١٨٠٦ وضد بريطانيا فى عام ١٨٠٧ :

بريطانيا ترسل أسطولاً يقتحم المضايق:

على أن الحكومة البريطانية أقدمت قبيل قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وقبيل مغادرة السفير البريطانى والرعايا البريطانيين إستانبول على عدة إجراءات ردت بها على الدولة العثمانية وعلى نابليون . كانت الوزارة القائمة فى الحكم هى وزارة جرنفيل Grenville وقد جاءت إلى الحكم فى شهر فبراير ـ شباط ـ عام ١٨٠٦ خلفاً لوزارة وليم بت Pitt ، وواجهت الموقف الدولى المضطرب والشائك . وأصدر وندهام W. Wındham وزير الحربية فيها مذكرة مؤرخة فى ٢١ من نوفمبر ـ تشرين ثان ـ عام ١٨٠٦ واعتبرها سرية للغاية إلى الجنرال موكس Fox القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية ، وكان مما جاء فيها « إن بعض التصرفات التى صدرت عن الباب العالى أخيراً جعلت اتخاذ إجراءات سريعة وحاسمة تجاه الحكومة العثمانية أمراً ضرورياً لا غناء عنه . ولذلك فقد كلفت بإبلاغكم أن أوامر قد صدرت إلى لورد نائب الأدميرال كولنجود Vice -Admıral lord Collingwood لإرسال قوة كافية من سفن حضرة صاحب الجلالة ، تحت قيادة ضباط ذوى مقدرة وتجارب ، وإعطائهم تعليمات بأن

---

(١) دكتور حامد سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص ص ٢٦٩ — ٢٧٠

يتقدموا دون إضاعة لحظة واحدة من الوقت إلى مضايق إستانبول حيث يتخذون موضعاً يتيح للأسطول ممارسة أعمال عدائية ضد إستانبول فى حالة فشل المساعى التى كلف مستر أربثنوت Mr. Arbuthnot (السفير البريطانى) القيام بها لدى الحكومة العثمانية[١] .

وقد وقع الاختيار على أحد كبار ضباط البحرية وهو نائب أمير البحر سير جون دكورث Vice - Admiral Sir John T. Duckworth لقيادة الأسطول المتجه إلى الدردنيل والبوسفور . وعهد إليه أن يلقى الأسطول مراسيه فى مياه البوسفور تجاه العاصمة فى مظاهرة عسكرية بحرية تأييداً لموقف السفير البريطانى فى إستانبول، وأن يقدم إلى الحكومة العثمانية مذكرة بمطالب الحكومة البريطانية ، ومن بينها أن يقطع الباب العالى علاقاته مع الحكومة الفرنسية ، ومايترتب على هذا القطع من مطالبة السفير الفرنسى بمغادرة إستانبول، وأن يتبع الباب العالى خطة سياسية جديدة تقوم على التعاون ودعم العلاقات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية، أى أن الحكومة البريطانية أرادت إجراء ما يسمى «مفاوضات مسلحة » armed negotiations مع الباب العالى لفرض مطالبها عليه . فإذا رفض الباب العالى الأخذ بما جاء فى المذكرة البريطانية ،اعتبر هذا الرفض دليلا على أن الحكومة العثمانية ماضية فى تعاونها مع باريس ومصممة على موقفها العدائى من بريطانيا. وفى هذه الحالة يقوم دكورث قائد الأسطول بتبليغ هذا الرفض إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية ، فيسارع الأخير إلى إرسال جزء من قواته إلى الإسكندرية لاحتلالها كى تتخذ بريطانيا من الإسكندرية نقطة ارتكاز لتحركات القوات البريطانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ضد فرنسا وضد الدولة العثمانية[١] . وكانت بريطانيا تعتقد أن نابليون يعاود الكرة

---

(١) Douin G. et Mme Fawtier E. C.; L'Angleterre et L'Egypte. La Campagne de 1807. Le Caire, 1928; doc. No. 1, pp. 1-2

لتحقيق أحلامه فى الشرق وتنفيذ أطماعه فى تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية، كما كانت تعتقد أنها ارتكبت خطأ عسكرياً وسياسياً فاحشاً حين وافقت على الجلاء عن مصر تنفيذاً لصلح أميان Amiens (٢٧ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٢) وقد تم الجلاء فى مارس ١٨٠٣ ثم استؤنفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك بشهرين. فكان ذلك الإجراء الحربى البريطانى ذو الشقين - اقتحام المضايق لتقديم المطالب البريطانية كى يأخذ بها الباب العالى أو احتلال الإسكندرية، يقوم على استخدام الضغط ووسائل التخويف مع الحكومة العثمانية لحملها على فصم عرى «التحالف» مع فرنسا [(١)]. وقد عبرت وزارة الحربية البريطانية عن أهدافها من هذه الإجراءات العسكرية بأنها «أرادت إكراه الباب العالى على التخلص من نفوذ فرنسا وحمله على إعادة علاقاته مع بريطانيا العظمى والروسيا».

" . . . to compel the Porte to shake off the influence of France and to return to her connextion with Great Britain and Russia".(٢)

الأسطول البريطانى يقتحم المضايق:

تمكن دكورث من عبور الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور دون عناء، ورسا بأسطوله أمام إستانبول فى ١٩ من فبراير - شباط - سنة ١٨٠٧ كما سبق أن ذكرنا. ويلاحظ أن هذه هى المرة الوحيدة التى دخل فيها الأسطول البريطانى منطقة المضايق

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى: مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١ ثلاثة أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٢) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.; op. cit.
وثيقة رقم ٥٤، ص ص ٦٦ - ٦٨، مذكرة سرية مؤرخة فى ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ من لورد كاسلريه وزير الحربية البريطانية إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية.

وهو فى حالة « غير سلم » ، وسنرى بعد قليل أنه عجز عن اقتحام مضيق الدردنيل سنة ١٩١٥ فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، بعد هذا الحادث بأكثر من قرن من الزمان . ولما بلغ الأسطول مياه العاصمة كان شارل أربثنوت Charles Arbuthnot السفير البريطانى قد غادرها ومعه جميع الرعايا البريطانيين ، كما رحل عنها من قبله إيتاليناسكى Italinsky السفير الروسى . وقدم قائد الأسطول البريطانى إلى الباب العالى مذكرة حكومته . وكان موقف الباب العالى ضيقاً حرجاً . ولم يكن حرج مركز الحكومة العثمانية راجعاً إلى أنها تفضل إحدى هاتين الدولتين العملاقتين على الأخرى . وهذا هو خطأ المراجع الفرنسية . وكانت تود لو تركها لشأنها الإنجليز والفرنسيون معاً . ولكن كان الطرفان يضغطان عليها ضغطاً لا هوادة فيه وكان عليها أن تفكر ملياً فى تقدير الموقف السياسى والعسكرى ، وهل خطر الإنجليز أكثر من خطر الفرنسيين أو العكس . وعمدت الحكومة العثمانية إلى أسلوبها الدبلوماسى المألوف وهو التسويف . ولم يكن فى مقدورها طرد الجنرال سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى ، لأن شخصيته كانت قوية ، ولأن نابليون فى القارة الأوروبية كان طاغياً ، وبخاصة بعد أن مد السيطرة الفرنسية إلى أقاليم فى شرق أوروبا على مقربة من الممتلكات العثمانية هناك . وانتهت الحكومة العثمانية رأياً إلى أن فرنسا أشد خطراً عليها من خطر بريطانيا

ورأى قائد الأسطول أن الحكومة العثمانية لا ترد على مطالبه ، وأدرك أن هذا الصمت هو رفض للمطالب البريطانية ، ثم كان ما هو أشد خطراً . إذ لاحظ أن أعمال التحصينات العسكرية على ضفاف البوسفور والدردنيل قائمة على قدم وساق ، وأن السفير الفرنسى يشرف عليها بشخصه ، ففكر دكورث فى الخروج من منطقة المضايق والعودة من حيث أتى قبل أن يتحرج مركزه ويغلق الطريق على الأسطول . وكان تقدير دكورث للموقف الحربى سليماً ، فما كاد يتحرك للخروج من منطقة المضايق فى طريقه إلى البحر المتوسط حتى ألقت مدفعية

السواحل قذائفها على الأسطول وأصيبت بعض وحداته بعطب ، ولـكنها لم تغرق[١] . وكان ذلك فى اليوم الثانى من شهر مارس ـ آذار ـ سنة ١٨٠٧ بعد أن استطال مكثه فى منطقة المضايق نحواً من اثنى عشر يوماً. وقد جاء فى مذكرة سرية مؤرخة فى ٢٥ من أبريل ـ نيسان ـ سنة ١٨٠٧ وضعها وزير الحربية البريطانية أن دكورث وجد نفسه مضطراً إلى الانسحاب بأسطوله من مياه البوسفور دون أن يحقق شيئاً ضد إستانبول . وعندئذ شرع دكورث ينفذ الشطر الثانى من خطة الحـكومة البريطانية وهى إبلاغ الجنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية رفض الحـكومة العثمانية الاستجابة للمطالب البريطانية فيبادر فوراً بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية . ويقع فى خطأ المؤرخ الفرنسى الـكبير إدوارد دريو Ed. Driault مدير معهد الدراسات النابليونية فى باريس حين يذكر أن بريطانيا لم تحتل الإسكندرية إلا بعد أن عجزت عن احتلال إستانبول ، وأنها أرادت أن تعوض فشلها الحربى فى مياه البوسفور بنجاح عسكرى على ضفاف النيل[٢] .

وقد جرد القائد العام للقوات البريطانية فى صقلية حملة قوامها زهاء خمسة آلاف جنـدى[٣] بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser ولم يكن جميع جنود الحملة من الإنجليز ، بل كان من بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة من الإيطاليين دخلوا خدمة الإنجليز[٤] . وكانت لدى قائد الحملة أوامر صريحة بأن هدف الحملة هو احتلال الإسكندرية دون غيرها من البلاد المصرية[٥]

---

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C; op. cit, doc. no. 24, 7th March, 1807. Duckworth to Fox.

(٢) Driault Ed; La Poltique Orientale de Napoléon. Paris

(٣) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.; op cit., وثيقة رقم ٧ ، ص٦ .

(٤) الوثائق رقم ٩ ، ١٧ ، ٢٠ فى المرجع السابق .

(٥) الوثائق رقم ١ ، ٧ ، ٩ ، ٣٦ ، ٧٧ فى المرجع السابق .

ولو كان الإنجليز يريدون احتلال مصر لما كان هذا العدد الصغير يكفى لاحتلال البلاد، لأنهم كانوا قد مروا بتجربتين خلال سنوات قليلة سابقة[1]. ولما بلغت الحملة الإسكندرية[2] فى ٦ من مارس — آذار — سنة ١٨٠٧ استولت على ثلاث قطع بحرية عثمانية كانت راسية فى الميناء الغربى[3]. وقد سلم المدينة إلى الإنجليز حاكمها أمين أغا ويسمى أيضاً أمين قبطان السكريتلى[4] بعد أن وقعت شروط التسليم[5]. واحتل الإنجليز الميناء والمدينة وقلاعها وضواحيها[6] وحققوا الهدف الأساسى للحملة.

---

(١) كانت التجربة الأولى عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ وكانت تتكون من ٣٥ ألف جندى ولم يكن هذا العدد كافياً لبسط السيطرة الفرنسية التامة على مصر. وكانت التجربة الثانية عندما قرر الإنجليز الإسهام فى إخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ وكان عددهم ١٢ ألف جندى كما كان معهم جيش عثمانى.

(٢) لم تكن الإسكندرية حتى سنة ١٨٠٧ تتبع إدارياً حكومة القاهرة، بل كان يحكمها أحد العسكريين ويتبع مباشرة قبودان باشا، أى قائد عام الأسطول العثمانى إلى إستانبول. ومما يذكر أن أحمد خورشيد باشا — وهو آخر وال عثمانى على مصر قبل محمد على كان فى أول أمره حاكماً على الإسكندرية ثم رقى والياً على مصر. وكان من نتائج احتلال الإنجليز للإسكندرية سنة ١٨٠٧ أن أصبحت الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة إدارياً، وكأن محمد على هو المستفيد الوحيد من حملة فريزر.

(٣) وثيقة رقم ٣١ مؤرخة فى ٢٣ مارس — آذار — سنة ١٨٠٧ فى المرجع المذكور فى الحاشية رقم ١ فى ص ٢١١.

(٤) يلاحظ أن قائد البحارة البحرية العثمانية التى كانت راسية فى الإسكندرية واستسلمت للانجليز كان يسمى صالح أغا قومندان البحرية.

(٥) نشر دوان باللغة الإيطالية شروط التسليم، الوثيقة رقم ٢٧، ص ص ٢٣ — ٢٤ من المرجع السابق، ونشرها معربة الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى، ج ٢، ص ص ٦٠٥ — ٦٠٦، ونشر الجبرتى صورة من شروط التسليم كما عرفت لأهل القاهرة فى ذلك الوقت. (الجبرتى ج ٤، ص ص ٤٥ — ٤٦ حوادث محرم سنة ١٢٢٢.

(٦) تضاربت الأقوال حول تاريخ تسليم الإسكندرية للانجليز فتذكر هذه التواريخ ١٦، ١٧، ٢٠، ٢١ من مارس — آذار — ١٨٠٧. لكن البلاغ الرسمى الذى أذاعته قيادة الحملة جاء فيه أن الاحتلال قد تم فى يوم ١٦ مارس — آذار.

أنظر الوثيقة رقم ٢٦، ص ص ٢٢ — ٢٣ من:

Douin et Fawtier, op. cit.

وليست هذه الدراسة مجالا لبحث الأسباب التي حملت قائد الحملة على مد العمليات الحربية إلى رشيد . وكان يزمع مدها بعد ذلك إلى دمياط أيضاً[1] .

---

(١) كان القنصل العام لبريطانيا في الإسكندرية ـ وهو الميجور ميسيت Major Misset رجلا عسكرياً على درجة كبيرة من الحمق والغرور والجهالة بالمسائل العسكرية . وكان من أنصار ضم مصر إلى بريطانيا . وتعددت رسائله إلى الحكومة البريطانية في المدة من سنة ١٨٠٣ إلى أوائل سنة ١٨٠٧ يطالبها باحتلال مصر . ولما بلغت الحملة الإسكندرية اعتقد لحمقه أن هذه القوة البريطانية الضئيلة العدد تكفي لاحتلال مصر كلها . ولم يكد يمر يومان على احتلال الإسكندرية حتى أرسل القنصل العام إلى فريزر يصف له خطورة الموقف بالتموين للحملة نظراً لقلة المواد الغذائية في الإسكندرية مما يعرض حياة الجنود للخطر ، وذكر له أنه استطاع بصعوبة تدبير كمية من اللحوم تكفي تموين جنود الحملة يوماً واحداً ، كما قرر في ذات المذكرة أنه استولى على جزء من القمح المخصص لاستهلاك سكان المدينة . وأوضح له أن علاج الموقف يتطلب ضرورة احتلال رشيد والرحمانية ودمياط وترك حاميات بريطانية فيها . ولما لمس القنصل العام من جانب قائد الحملة تردداً في تنفيذ اقتراحه ، ألف القنصل وفداً من أعيان الإسكندرية لمقابلة فريزر وأوضحوا له القلق الذي يساورهم من نقص المواد الغذائية في المدينة . وذكروا له أنها تحصل على حاجاتها من داخل البلاد عن طريق الرحمانية ورشيد . واقتنع فريزر بهذه الأسانيد ، وجرد للضرورة الحربية قوة برية من الحملة وجهها إلى رشيد ولقيت الهزيمة ولقى مصرعه الميجور جنرال وشوب Major General Wauchope قائد القوة الإنجليزية ، كما قتل أربعمائة جندي بريطاني . (٣١ من مارس ـ آذار — ١٨٠٧) ووصف فريزر هزيمة الإنجليز في رشيد بأنها ضربة قاسية جدا وغير متوقعة a very heavy and unexpected stroke upon us وأرسل قوة ثانية استهدفت عدة أغراض منها : الغرض التمويني ، الثأر لهزيمة رشيد ، والحفاظ على سمعة بريطانيا العسكرية ، وعهد بقيادتها إلى الجنرال ستيوارت Stewart ولقيت هزيمة منكرة في معركة الحماد (٢١ من أبريل ـ نيسان ـ ١٨٠٧) وتراوح عدد القتلى والجرحى بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ وحرج مركز الإنجليز ، فالقوة المتبقية لديهم لا يتجاوز عددها ثلاثة آلاف ، ولم يعد لهم في مصر صديق أو حليف وتعذر على بريطانيا إرسال نجدات لهم . فاستقر رأي قائد الحملة على تركيز كل قواته في الإسكندرية . ولم يفكر محمد علي في مهاجمة الإنجليز . وقد ألقى كل من قائد الحملة والقنصل العام مسئولية الهزيمة في رشيد والحماد على الآخر ، وتبادلا الاتهامات . وفي سياق الدفاع عن نفسه قال القنصل العام إن العالم ستعتريه الدهشة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبي .

" . . . the world will be astonished to hear that such a town as Rosetta could not be taken by an European army.

وقد تم جلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في ١٩ من سبتمبر ـ أيلول ـ ١٨٠٧ وعادت إلى قواعدها في جزيرة صقلية .

بريطانيا تصرف النظر عن إعادة اقتحام المضايق :

تولى وزارة الحربية البريطانية لورد كاسلريه Castlereagh فى ٢٥ من مارس – آذار – سنة ١٨٠٧ خلفاً لوندهام Windham . وقد انتقد الوزير الجديد الأسلوب الذى اتبعه سلفه فى تنفيذ عملية اقتحام الدردنيل والبوسفور وإرسال جيش لاحتلال الإسكندرية . وقد وضع مذكرة سرية مؤرخة فى ٨ من مايو – آيار – سنة ١٨٠٧ بعث بها إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية استهلها بعرض الملابسات التى أحاطت بحملة دكورث إلى منطقة المضايق . وقال إنه من الواضح أن الأتراك العثمانيين قد قاموا بتعزيز الاستحكامات الدفاعية على سواحل منطقة المضايق منذ مدة طويلة سبقت إرسال حملة دكورث ، وقد قاموا بهذه التعزيزات العسكرية تحت إشراف الخبراء الفرنسيين ، كما أن العثمانيين استطاعوا حشد قوات كبيرة للدفاع عن إستانبول مما يجعل أية عملية حربية أخرى عديمة الجدوى إلا إذا استطاعت بريطانيا حشد قوات تفوقها عدداً وعدة وبشرط ألا يؤثر حشدها على سلامة جزيرة صقلية . وذهب وزير الحربية إلى أن مثل هذه القوات المطلوبة من حيث حجمها تفوق الإمكانيات المتاحة لبريطانيا فى البحر المتوسط حتى لو انضمت القوات الروسية المرابطة فى جزيرة كورفو إلى القوات البريطانية . وتأسيساً على هـذه الحقائق استقر رأى الحكومة البريطانية على صرف النظر عن إرسال حملة أخرى إلى المضايق ، وقررت تشديد الحصار على موانىء الإمبراطورية العثمانية وتضييق الخناق على تجارتها حتى تعود الحكومة العثمانية إلى صوابها وتستأنف علاقاتها الطبيعية مع بريطانيا[1] .

---

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones, E.C.; op. cit.
وثيقة رقم ٧٠ ، ص ٩٨ — ١٠٠

رأى الخبراء العسكريين فى حملة دكورث :

وفى تقرير نشر لأول مرة فى سنتى ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ [1] جاء فيه أن وجه الغرابة فى حملة دكورث إلى منطقة المضايق أنها لم تكن مصحوبة بقوات برية . وأن الجيش البريطانى الذى أرسل إلى الإسكندرية لاحتلالها كان يجب توجيهه أصلاً وأساساً مع الأسطول البريطانى إلى منطقة المضايق وإستانبول بدلا من الإسكندرية ، وأن هذا هو وجه الخطأ الذى وقع فيه المخططون لحملة دكورث . فإن وجود جيش مع الأسطول كان يسدى أجل الخدمات للحملة البريطانية ، لأن الجيش كان فى استطاعته احتلال بعض النقط أو المراكز الإستراتيجية فى منطقة المضايق بحيث تؤمن هذه المراكز انسحاب الأسطول ، كما أن وجود جيش بريطانى كان يضفى مزيداً من الأهمية والتأثير حين ظهور الأسطول فى مياه البوسفور تجاه إستانبول وبخاصة أن المفاوضات التى كان مزمعاً إجراؤها كانت مفاوضات مسلحة . وجدير بالذكر أن هذا الرأى الذى ورد فى ذلك التقرير قد سبق أن أفصح عنه لورد كاسلريه وزير الحربية البريطانية فى مذكرة سرية مؤرخة فى ٢٥ من أبريل – نيسان – سنة ١٨٠٧ والتى سبق أن أشرنا إليها .

تقسيم منطقة المضايق يحبط مشروع اقتسام الدولة :

من المشروعات التى فكر فيها نابليون عقب انتصاره على قوات روسيا وبروسيا فى موقعة فريدلاند Friedland (١٤ من شهر يونيو — حزيران —

---

(١) عنوان هذا التقرير :

Notes on an Expedition to Alexandria in the Year 1807.

وقد نشر فى United Service Journal ويتضح من دراسة هذا التقرير أن واضعه، الذى لم يكشف عن شخصيته واكتفى باسم عام هو مايلز Miles ، كان معاصراً لأحداث حملة دكورث وأنه كتبه فى موضوعية وحيدة ودقة .

وقد أعاد نشر هذا التقرير الضابط المؤرخ الفرنسى دوان وزميلته مدام فوتير جونس فى كتابهما

L'Angleterre et l'Egypte, op. cit., pp. 183-235.

١٨٠٧) إعداد حملة برية فرنسية روسية مشتركة لغزو الهند . وسواء كان هذا المشروع يستهدف حقيقة غزو الهند أو كان مشروعاً خيالياً أراد به نابليون إرهاب بريطانيا لإجبارها على قبول السلم فى أوروبا وفق الأوضاع التى أراد فرضها ، فقد اقترن هذا المشروع بمشروع آخر يرمى إلى تقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية الكبرى . وقد عرض فكرة هذا المشروع هاردنبرج Hardenbourg وزير خارجية بروسيا على كل من نابليون وقيصر الروسيا إسكندر الأول . وكان الباعث له على تقديم هـذا المشروع أن تنال بلاده — بروسيا — حظاً مضاعفاً من المكاسب والمزايا : فهى تستولى على نصيب من ممتلكات الدولة العثمانية [1] وفى ذات الوقت يشغل نابليون وقته وجهده فى هذا المشروع فيبتعد عن مسرح الأحـــداث السياسية والعسكرية فى غربى أوروبا بعامة وبروسيا بخاصة .

ولم يرفض نابليون مشروع اقتسام ولايات الدولة العثمانية لأول وهلة ، ولم يقبله لأول وهلة ، وهذا دائماً شأن الرجل السياسى الحصيف وشأن الرجل العسكرى المتزن . وقد عهد إلى سفيره لدى قيصر الروسيا بمناقشة موضوع اقتسام أملاك الدولة العثمانية فى حالة موافقة القيصر على مشاركة فرنسا فى تسيير حملة برية مشتركة ضد بريطانيا إلى الهند . وقد وافق القيصر على اقتراح نابليون بخصوص الحملة المشتركة ، وكان قد تلق خطاباً فى فبراير ـ شباط ـ ١٨٠٨ أوضح فيه نابليون أهداف الحملة ومسارها وفوائدها ، ثم انتقل القيصر والسفير الفرنسى لمناقشة الموضوع الثانى . ولكن لم تكد تبدأ مناقشة التفاصيل حتى تعذر الاتفاق

(١) جاء مشروع تقسيم أملاك الدولة العثمانية عام ١٨٠٨ على النحو التالى :
الروسيا : بلغاريا ـ ولاشيا ـ مولداڤيا ـ إستانبول مع البوسفور والدردنيل
فرنسا : بلاد اليونان وجزر الأرخبيل
النمسا : البوسنة والهرسك وسائر أنحاء الصرب
بروسيا : سكسونيا
ملك سكسونيا : يستولى على بولندا بعد إعادة تكوينها .

حول مسألة المضايق . فقد تمسك القيصر بأن تؤول إلى بلاده منطقة المضايق ، بينما أصر السفير الفرنسى على أن تكون منطقة المضايق من نصيب بلاده . ولما وصلت المناقشة إلى طريق مسدود اقترح السفير الفرنسى حلا وسطاً من وجهة نظره ، وهو أن تستولى الروسيا على مدينة إستانبول والبوسفور الذى تطل مياهه على العاصمة ويعد فى ذات الوقت المخرج من البحر الأسود وأن تستولى فرنسا على الدردنيل الذى يؤدى إلى البحر المتوسط . ومن المعروف أنه يقع على مقربة من الدردنيل فى هذا البحر مجموعة من الجزر ذات أهمية إستراتيجية بالغة تجعل منها قواعد عسكرية من الطراز الأول.وقد رفض هذا الاقتراح ووصفه بأنه غير عملى . وكان مما قاله إن أيا من البوسفور والدردنيل لا قيمة له بدون الآخر . وكانت مسألة ملكية المضايق هى الصخرة التى تحطم عليها مشروع اقتسام أملاك الدولة العثمانية فى عام ١٨٠٨[١] .

(ح) معاهدة الدردنيل بين الدولة العثمانية وبريطانيا (١٨٠٩) :

كان صلح تلست Tilsit الذى أمضيت شروطه فى السابع من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٧ بين نابليون وإسكندر الأول قيصر الروسيا قد أطاح بالتقارب البريطانى الروسى ، ومهد الطريق لقيام تقارب بين الدولة العثمانية وبريطانيا . ومن ثم عقدت بين هاتين الدولتين فى الخامس من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٨٠٩ معاهـــدة الدردنيل ، أطلق عليها أيضاً معاهدة السلام والتجارة والتحالف السرى Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance وقد قررت هذه المعاهدة إعادة سريان المعاهدات والاتفاقيات التى سبق عقدها بين الدولتين فيما يختص بنظام الامتيازات الأجنبية والتجارة فى البحر الأسود ، واعتبار هذه المعاهدات والاتفاقيات سارية منذ إبرامها ، وكأنها لم تتعرض لفترة

(١) arriott, J.A.R.: op. cit, p. 184.

توقف أو تعطيل أو إلغاء (المادة ٤) ، كما نصت هذه المعاهدة على منع السفن الحربية فى وقت السلم وزمن الحرب من عبور المضايق والدخول فى البحر الأسود . وبذلك أصبحت بريطانيا أول دولة أوروبية تعترف بحق الباب العالى فى غلق المضايق فى وجه السفن الحربية الأجنبية فى جميع الأوقات « بشرط أن تراعى كل دولة فى المستقبل هذا النظام القديم فى الإمبراطورية العثمانية »[1] . وبذلك أكدت معاهدة الدردنيل ركناً رئيسياً من أركان السياسة العليا للدولة العثمانية كانت تتمسك به فى عصور قوتها .

(ط) معاهدة أدرنة بين الدولة العثمانية والروسيا ١٨٢٩ :

وتطورت الثورة التى قام بها الشعب اليونانى طلباً للاستقلال تطوراً أدى إلى نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا فى السادس والعشرين من شهر أبريل — نيسان — سنة ١٨٢٨ وانتهت بإبرام معاهدة أدرنة فى الرابع عشر من شهر سبتمبر — أيلول — سنة ١٨٢٩ ، ونصت على أن يكون للسفن الروسية التجارية من أى حجم الحق فى المرور عبر المضايق وفى الملاحة فى البحر الأسود وفى التمتع بحرية التجارة فيه ، كما تقرر هذا الحق بالنسبة للدول الأخرى التى تكون فى حالة سلم مع الدولة العثمانية . ونصت المعاهدة أيضاً على أن تصبح ولاية الأفلاق والبغدان — رومانيا حالياً — مستقلتين فى إدارتهما الداخلية تحت حماية الروسيا[2] . وكان هذا النص تدعيماً لمركز الروسيا فى البحر الأسود

---

(١) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz, J.C.; op. cit., t. I, pp. 81—84.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى ٢٧ من يوليو — تموز — سنة ١٨٠٩ .

(٢) أصبحت الرابطة الوحيدة التى تربط هاتان الولايتان بالدولة العثمانية تنحصر فى حق السلطان فى تعيين أمراء الهوسبدار Hospodars الحاكمين ، وفى دفع الجزية السنوية للباب العالى .

كإحدى دول هذا البحر ، ونجم عن هذا النص أن تقلصت السيادة العثمانية عن جميع مصاب نهر الدانوب فى البحر الأسود [١] مما يعد خروجاً على السياسة العليا للدولة .

(ى) معاهدة تجارة وملاحة بين الدولة العثمانية والولايات المتحدة الأمريكية (١٨٣٠) :

وفى غمار أطماع بعض الدول وتطلعات البعض الآخر عقدت الدولة العثمانية مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارة وملاحة Treaty of Commerce and Navigation فى السابع من شهر مايو ـ آيار ـ سنة ١٨٣٠ تقرر فيها معاملة سفن الولايات المتحدة معاملة سفن الدول الأكثر رعاية وذلك بمنحها الحق فى عبور المضايق والدخول إلى البحر الأسود والخروج منه سواء كانت هذه السفن محملة أو غير محملة [٢] .

(ك) معاهدة هنكار إسكلسى بين الدولة العثمانية والروسيا (١٨٣٣) .

وعلى أثر الانتصارات التى حققها الجيش المصرى على الجيش العثمانى فى حرب الشام الأولى عقدت الدولة العثمانية فى الثامن من شهر يوليو ـ تموز ـ سنة ١٨٣٣ مع الروسيا معاهدة تحالف دفاعى هى معاهدة هنكار إسكلسى Hunkar Iskelesi وكان النص الرسمى لهذه المعاهدة قد وضع باللغة الفرنسية وحاول كل فريق بعد ذلك فى ترجمته لمواد المعاهدة أن يفسرها طبقاً لمصلحته ،

(١) Miller, W.; op, cit., pp. 130—131.

(٢) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة فى:

Hurewitz, J.C.; op. cit., t. I., pp. 102—105.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى ٥ من أكتوبر ـ تشرين اول ـ ١٨٣١ .

ونشأت عن ذلك ثلاثة تفسيرات مختلفة يطلق عليها ثلاث مدارس. ولن نخوض فيها فى هذه الدراسة. وقد تقرر أن تكون مدة التحالف الدفاعى ثمانى سنوات. وقد ألحقت بالمعاهدة مادة سرية نصت على أن يغلق السلطان المضايق فى وجه أية سفينة حربية أجنبية ما عدا السفن الروسية الحربية التى يكون لها وحدها دون سواها من السفن الأجنبية حق عبور المضايق (١). وقد أنشأت هذه المعاهدة للروسيا مركزاً ممتازاً فى الدولة العثمانية وعصفت بالسياسة العليا للدولة. ودخلت وحدات من الأسطول الروسى إلى البوسفور فى شهر فبراير ـ شباط ـ عام ١٨٣٣ ثم قدمت حملة روسية بحرية وبرية إلى البوسفور وأذنت حكومة السلطان للقوات البرية بأن تعسكر على الساحل الآسيوى بحجة حماية السلطان من واليه الثائر محمد على باشا. وكان عام ١٨٣٣ سنة مهمة لأن الروسيا سيطرت فيها للمرة الأولى والأخيرة على إستانبول وعلى المضايق العثمانية. وإذا كان خطر محمد على قد ذهب إلى حين، فقد ظل خطر الروس قايماً فى منطقة المضايق عاصفاً بالسياسة العليا للدولة.

وقد نظرت كل من بريطانيا وفرنسا إلى المعاهدة على أنها أداة تجعل من الدولة العثمانية دولة تسير فى ركاب الروسيا، ولذلك بادرتا فى السادس والعشرين من شهر أغسطس ـ آب ـ سنة ١٨٣٣ إلى الاحتجاج رسمياً لدى الباب العالى على عقد هذه المعاهدة (٢).

---

(١) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى

Hurewitz J.C., op. cit., vol. pp.105—106

وقد تم تبادل وثائق التصديق عليها فى إستانبول فى ٢٠ من أغسطس ـ آب ـ ١٨٣٣

(٢) Op. cit., p. 106.

Miller W.: op. cit., pp. 147—148.

(ل) معاهدة لندن بين الدولة العثمانية وأربع دول أوروبية (١٨٤٠) :

ون معاهدة لندن التي أبرمت في الخامس عشر من شهر يوليو ـ تموز ـ سنة ١٨٤٠ بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا وبروسيا والنمسا لتسوية المسألة المصرية وإنهاء النزاع بين السلطان ومحمد علي ـ وقد انضمت فرنسا إلى هذه المعاهدة في الخامس عشر من شهر مارس ـ آذار ـ سنة ١٨٤١ فأصبحت معاهدة جماعية سداسية ـ وردت في أكثر من موضع نصوص صريحة على أن الباب العالي يلتزم التزاماً دقيقاً بمنع السفن الحربية الأجنبية من المرور في المضايق . وجاء في هذه المعاهدة أنه إذا أقدم محمد علي والي مصر على توجيه قواته البرية والبحرية للزحف على إستانبول ، فإن الدول الأطراف في المعاهدة توافق ـ بناء على الطلب الصريح الذي يصدر عن السلطان ـ على الاستجابة لطلبه وتتخذ الإجراءات لحماية عرشه عن طريق التعاون الذي يتم بموافقة مشتركة من الدول الموقعة على المعاهدة ، وبذلك تصبح المضايق وكذلك باقي الأراضي العثمانية في مأمن من كل اعتداء . كما تقرر أن تظل قوات الدول المتعاقدة مرابطة في مواقعها طالما كان وجودها أمراً يطلبه السلطان العثماني . وحين يرى الأخير أن وجود تلك القوات أصبح أمراً غير ضروري ، فإنها تنسحب في وقت واحد وتعود إلى مواقعها الأصلية سواء في البحر الأسود أو البحر المتوسط (مادة ٣)

وورد في المعاهدة أيضا أن التعاون المشترك بين الدول الموقعة عليها والهادف إلى وضع المضايق وإستانبول في مأمن من العدوان المصري يعد إجراء عسكرياً استثنائياً اتخذ في هذه الحالة الوحيدة بناء على طلب صريح من السلطان للدفاع عنه . ومن المتفق عليه أن مثل هذا الإجراء لا ينتقص بأية درجة وعلى أي نحو من النظام الذي درج عليه الحكم في جميع الأوقات في الإمبراطورية العثمانية ، وبمقتضاه كانت تمنع السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضايق . ونصت المعاهدة على أنه فيما يتعلق بالحالة المشار إليها وهي مرابطة قوات الدول الموقعة عليها ، في المضايق ،

فإن السلطان يعلن قراره الثابت بأن يلتزم فى المستقبل بهذا المبدأ الذى أرسيت قواعده إرساء لايتغير كنظام قديم سار عليه الحكم فى الإمبراطورية العثمانية . وطالما كان الباب العالى فى حالة سلم ، فإنه لايسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضايق وعبورها . ومن ناحية أخرى فإن أباطرة وملوك الدول الموقعة على المعاهدة يتعهدون باحترام قرار السلطان والالتزام بهذا المبدأ (المادة الرابعة)

وألحق بالمعاهدة بروتوكول جاء فيه أن السلطان مع التزامه بمنع جميع السفن الحربية الأجنبية من عبور المضايق فى جميع الأوقات فإنه يحتفظ لنفسه بالحق فى إصدار تصاريح بالمرور عبر الدردنيل والبوسفور للسفن الحربية الخفيفة الموضوعة فى خدمة السفارات والقنصليات التابعة للدول الصديقة [1] .

ووقعت بريطانيا والنمسا والروسيا وبروسيا فى السابع عشر من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٤٠ بروتوكولا أطلق عليه بروتوكول انتفاء الغرض Self- Denying Protocol ألحق بمعاهدة لندن وقررت فيه هذه الدول الأربع - إذ لم تكن فرنسا قد انضمت بعد إلى المعاهدة - ألا يسعى أى منها للحصول على أراض أو الاستئثار بنفوذ أو الظفر بامتيازات تجارية لرعاياها لم تحصل عليها كل دولة أخرى على قدم المساواة [2] .

(م) اتفاقية المضايق (١٨٤١) :

كان انضمام فرنسا فى الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ إلى معاهدة لندن المبرمة فى الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - من السنة السابقة كفيلا

(١) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. I, I, pp. 116—119.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى لندن فى ١٧ سبتمبر - أيلول - ١٨٤٠ .

(٢) Thomas Erskine Holland, The European Concert in the Eastern Question, Oxford. 1885, p. 97

بعودة وحدة الصف إلى الدول الأوروبية الكبرى فيما يختص بتسوية المسألة الشرقية. فلما انتهت الأزمة العثمانية المصرية توصلت الدول الكبرى الست ـ وهى الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا وبروسيا ـ إلى عقد اتفاقية جماعية فى الثالث عشر من شهر يوليو ـ تموز ـ سنة ١٨٤١ ومن ثم أطلق عليها إتفاقية لندن بخصوص المضايق Convention of London regarding the Straits وقد أرست هذه الاتفاقية نظاماً للمضايق ظل معمولا به بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ . وتقع الاتفاقيـة فى ثلاث مواد . نصت الأولى على أن السلطان ، من ناحية ، يعلن تصميمه الثابت على أن يلتزم فى المستقبل بالمبدأ الذى أرسيت قواعده من قبل ولم يتغير كنظام قديم فى حكم الإمبراطورية ، وبمقتضاه حرم فى جميع الأوقات على كل السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية دخول المضايق ، وأنه طالما كان الباب العالى فى حالة سلم ، فإن السلطان لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضايق . ومن ناحية أخرى يعلن أباطرة وملوك الدول الموقعة على الاتفاقية أنهم يتعهدون باحترام تصميم السلطان وبالتزام هذا المبدأ . واحتفظ السلطان لنفسه فى المادة الثانية بحق منح تراخيص بمرور السفن الحربية الخفيفة التى سوف تستخدم ، وفقاً للعادة المتبعة ، فى خدمة السفارات والقنصليات التابعة للدول الأجنبية . والتزم السلطان فى المادة الثالثة بتبليغ هذه الاتفاقية إلى جميع الدول التى تربطه بها علاقات صداقة يدعوهم إلى الموافقة عليها[1] . وكانت هذه الاتفاقية الدولية الجماعية تتمشى نصاً

---

(١) نجد النص الرسمى لهذه الإتفاقية فى

Hurewitz, J.C.; op. cit., p. t I, p. 123

انظر أيضاً كلا من :

Goriainow, S.; Le Bosphore, chap. 10.

Phillipson, C. and Buxton N.; The Bosphorus, part 2, chap 4.

Webster, C.; The Foreign Policy of Palmerston (1830—1841), vol 2, pp, 758—767.

Mischef, P.H.; La Mer Moire, chap. 5

Shotwell, J.T. and Deak F.; Turkey at the Straits, chap 4

وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتهـا على المضايق . واكتسبت الدولة العثمانية قوة دولية بإشتراك خمس دول أوروبية كبرى معها فى تقرير حق الباب العالى فى غلق المضايق فى وجه السفن الحربية الأجنبية . وتعتبر هذه الاتفاقية نصراً للدبلوماسية البريطانية ، لأنها — أى الاتفاقية — قد ألغت ضمنياً معاهدة هنكار أسكلسى التى كانت تعطى الروسيا امتيازاً عسكرياً خطيراً انفردت به دون سائر الدول ، فوقفت هذه الاتفاقية الجماعية سداً منيعاً فى وجه الأطماع الروسـيـة التى كانت ترمى إلى تحقيق نوع من السيطرة العسكرية على المضايق والاستيلاء على إستانبول فى نهاية المطاف ، سواء بالاشتراك مع الدولة العثمانية فى الدفاع عن المضايق أو بعبور أسطولها الحربى البوسفور والدردنيل .

(ن) معاهدة بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا لتقديم مساعدات حربية دفاعاً عن المضايق (١٨٥٤) :

ولـما اندلعت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروسيا فى سنة ١٨٥٣ استطاع الأسطول الروسى فى ٣٠ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٨٥٣ تدمير قوة بحرية عثمانية كانت راسية تجاه سينوب Sinape — وهى ميناء عثمانى على الساحل الجنوبى للبحر الأسود — وأثارت هذه الكارثة عاصفة من السخط فى أوساط الرأى العام فى إنجلترا ضد الروسيا ، وأطلق الشعب الإنجليزى على هذه الموقعة : مذبحة سينوب Massacre of Sinope ، وقامت مظاهرات فى إستانبول تطالب بالثأر من الروسيا . وكانت الحكومتان البريطانية والفرنسية

قد أمرتا فى ٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عندما تدهور الموقف بين الدولة العثمانية والروسيا - الأسطولين البريطانى والفرنسى بالتحرك نحو خليج بزيكا Besika خارج الدردنيل ليكونا على مقربة من مسرح الأحداث . وأذنت الحكومة العثمانية للأسطولين فى اجتياز منطقة المضايق بصفتهما قوات حليفة تقف إلى جانب الدولة ضد الروسيا والتى كانت قد قامت بعدوان على بعض ممتلكاتها واحتلت ولايتى الداتوب - الأفلاق والبغدان - وأظهر الشعب التركى العثمانى مظاهر الابتهاج بوصول وحدات من الأسطولين البريطانى والفرنسى واستقبلهما على ضفاف البوسفور استقبالاً حماسياً . وترتب على معركة سينوب أن دخل الأسطولان البريطانى والفرنسى البحر الأسود فى ٤ من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٤(١) واشتعلت الحرب فى شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٤ بين الروسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا ثم مملكة سردينيا أو بيدمنت فيما بعد من ناحية أخرى (٢) .

وفى الثانى عشر من شهر مارس عام ١٨٥٤ عقدت معاهدة ثلاثية قامت على تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا أطلق عليها معاهدة من أجل المساعدة العسكرية للباب العالى Treaty of Military Aid to the Sublime Porte. جاء فيها أن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا قد استجابا لطلب السلطان

---

(١) تذكر بعض المراجع أن الأسطولين البريطانى والفرنسى دخلا البحر الأسود فى نهاية أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٥٣ .

(٢) انظر تفاصيل الاتصالات الدبلوماسية المكثفة بين الدول الكبرى ، ثم المذكرة المشهورة التى عرفت باسم النقط الأربع ، وهى المذكرة التى وجهت دبلوماسية حرب القرم . وكان من بين هذه النقط وأهمها النقطة الثالثة وهى إعادة النظر فى اتفاقية المضايق لعام ١٨٤١ من أجل حفظ وتحقيق توازن القوى فى أوروبا وللحد من تفوق الروسيا البحرى فى البحر الأسود . ثم اجتماع مؤتمر فينا فى ١٥ من مارس - آذار - عام ١٨٥٥ فى أثناء الحرب .

أنظر هذه التفصيلات وغيرها فى كل من :

Miller W. ; op. cit., pp. 199—242.

دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٤ - ٤٩ .

مساعدته لصد العدوان الروسى الذى هدد سلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأنها قد أمرا قواتهما البحرية بالتقدم نحو إستانبول ، وقواتهما البرية للدفاع عن الأراضى العثمانية فى أوروبا وفى آسيا ضد هذا العدوان (المادة الأولى) . وقررت المعاهدة أنه حالما يتحقق هدف المعاهدة بإنزال الهزيمة بالقوات الروسية وعقد الصلح ، فإن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا يتخذان التدابير للانسحاب الفورى ، لقواتها البحرية والبريه التى اشتركت فى الحرب . وحددت المعاهدة لجلاء القوات البريطانية والفرنسية فترة أربعين يوماً أو أقل من ذلك إذا كان ممكناً من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع الروسيا (١).

(س) معاهدة باريس ١٨٥٦ ومشكلة المضايق والبحر الأسود :

أسفرت حرب القرم بعد سقوط سباستبول فى ٨ من سبتمبر — أيلول — ١٨٥٥ فى يد الحلفاء ، وكانت مملكة سردينيا قد انضمت إليهم ، عن معاهدة باريس فى الثلاثين من شهر مارس — آذار — عام ١٨٥٦ . ويهمنا فى هذه الدراســة المواد المتعلقة بالمضايق والبحر الأسود .

أكدت معاهدة باريس المبدأ التقليدى ، وهو منع السفن الحربية الأجنبية من المرور فى المضايق . وقالت إن الدولة العثمانية لا تحيد عن هذا المبدأ ، وإن اتفاقية المضايق التى عقدت فى ١٣ من شهر يوليو — تموز — عام ١٨٤١ والتى تؤكد هذا المبدأ تقرها الدول الموقعة على معاهدة باريس وتعتبرها من ملاحق هذه المعاهدة ، ولها نفس القوة والمشروعية ، وإنها تشكل جزءاً لا ينفصل عن المعاهدة (المادة العاشرة) . وهكذا أكدت معاهدة باريس السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بالمضايق . وكانت المادة العاشرة من تلك المعاهدة نصراً للدولة .

---

(١) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. ; op cit , vol 1 ; pp 144—145

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة فى إستانبول فى الثامن من شهر مايو — آيار — عام ١٨٥٤ .

وقررت المعاهدة أيضاً أن يكون البحر الأسود بحراً محايداً فى مياهه وموانيه ومفتوحاً للسفن التجارية التابعة لجميع دول العالم ، ولكن تظل مياهه وموانيه رسمياً وإلى الأبد منطقة محرمة على السفن الحربية سواء سفن الدول التى لها سواحل تطل عليه أو لا تطل عليه فيما عدا استثناءين وردا فى المادتين رقم ١٤ ورقم ١٩ من معاهدة باريس (المادة الحادية عشرة) . ونصت المعاهدة على ألا تقام عوائق أمام التجارة فى موانىء ومياه البحر الأسود وعلى ألا تخضع هذه الموانئ والمياه إلا للوائح الصحية والعادات ونظم الشرطة التى توضع بروح تستهدف نمو المعاملات التجارية ، ولكى يتوفر الأمان المطلوب أمام المصالح التجارية والبحرية لكل الدول ، تسمح الدولة العثمانية والروسيا بتعيين قناصل للدول الأجنبية فى الموانىء الواقعة على سواحل البحر الأسود فى النطاق الذى تجيزه قواعد القانون الدولى العام (المادة الثانية عشرة) . وقالت معاهدة باريس أيضاً إن إنشاء ترسانات بحرية حربية على سواحل البحر الأسود أو الإبقاء على الموجود منها يصبح أمراً لامبرر له تأسيساً على حيدة البحر الأسود . وبناء على ذلك تتعهد الدولة العثمانية والروسيا بعدم إنشاء أو إبقاء أية ترسانات بحرية عسكرية على سواحل هذا البحر (المادة الثالثة عشرة)[1] وهكذا حافظت معاهدة باريس إلى حد كبير على السياسة العليا للدولة العثمانية حين جعلت البحر الأسود منطقة محرمة على السفن الحربية التابعة لجميع الدول بما فيها الروسيا.

(ع) اتفاقية جماعية خاصة بالمضايق عام ١٨٥٦ :

وفى ذات اليوم الذى أبرمت فيه معاهدة باريس (٣٠ مارس — آذار — عام ١٨٥٦) عقدت اتفاقية خاصة بالمضايق وقعتها جميع الدول الأطراف فى معاهدة باريس ، وجاء فيها أن السلطان يعلن عن عزمه الثابت على التمسك فى قابل الأيام بالمبدأ الذى أرسيت قواعده وهو مبدأ غير قابل للتغيير ، وهو مبدأ خاص بالنظام الذى جرى عليه العمل فى حكم الإمبراطورية

---

(١) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, pp. 153—156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة فى باريس فى ٢٧ من أبريل — نيسان — ١٨٥٦

العثمانية ، وبمقتضاه منعت فى جميع الأوقات السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضايق ، وأنه طالما كان الباب العالى فى حالة سلم فإنه لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضايق . ومن ناحية أخرى فإن جميع الدول الموقعة على معاهدة باريس تتعهد باحترام هذا القرار من جانب السلطان وبالالتزام بهذا المبدأ (المادة الأولى) . وقد استبقى السلطان فى هذه الاتفاقية حقه الاستثنائى القديم فى السماح بمرور المراكب الحربية الخفيفة الموضوعة فى خدمة السفارات والقنصليات (المادة الثانية) . واستحدثت الاتفاقية استثناء آخر خاصاً بالسفن الحربية الأجنبية التابعة للدول الموقعة على معاهدة باريس والمسموح لكل منها بالمرابطة فى مصاب نهر الدانوب فى البحر الأسود ضماناً لتنفيذ اللوائح الموضوعة لكفالة حرية الملاحة فى هذا النهر بحيث لا يزيد عدد هذه السفن عن اثنين لكل دولة (المادة الثالثة)(١) وقد ألحقت هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس .

(ف) اتفاقية ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية لكل منهما فى البحر الأسود (١٨٥٦) .

وعقدت فى ذات اليوم أيضا اتفاقية ثنائية بين الدوله العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية التى تحتفظ بها كل منهما فى البحر الأسود لخدمة سواحلها المطلة عليه بحيث لا تتجاوز أية دولة منهما العدد المقرر للسفن الخفيفة وقوتها وحجمها وحمولتها وعدد أفرادها . وهى تفاصيل حددتها المادة الثانية من الاتفاقية (٢) . وقد تقرر إلحاق هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس على أن تكون لهذه الاتفاقية نفس القوة ونفس المشروعية وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعاهدة . وتأسيساً على هذا الوضع القانونى لهذه الاتفاقية الثنائية العثمانية الروسية ، تقرر عدم إلغائها أو تعديلها بدون موافقة الدول الأطراف فى معاهدة باريس (المادة الرابعة عشرة) .

---

(١) تجد نص هذه الاتفاقيه فى :
Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, p. 156

(٢) Loc. cit.

(ص) معاهدة جماعية لضمان تنفيذ أحكام معاهدة باريس ١٨٥٦

ورغبة فى إضفاء مزيد من الضمانات لتنفيذ أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، ورغبة فى تبديد كل أمل قد يراود الروسيا فى تعديل أو إلغاء أو تجاهل المواد الخاصة بالمضايق وتحييد البحر الأسود ، وقعت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا والنمسا معاهدة فى الخامس عشر من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ جاء فيها أن الدول الثلاث تضمن استقلال وسلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأن كل إخلال بأية مادة من مواد معاهدة باريس يكون سبباً للحرب *Casus Belli* . وفى هـــذه الحال تتفق الدول الثلاث مع الدولة العثمانية على الإجراءات التى ترى هذه الدول الأربع أنها ضرورية لاستخدام قواتها البرية والبحرية (١) .

(ق) معاهدة لندن (١٨٧١) لتعديل أحكام معاهدة باريس بخصوص المضايق والبحر الأسود .

وقد تحققت مخاوف الدول الكبرى من نيات الروسيا نحو مسألة المضايق والبحر الأسود . فقد انتهز إسكندر الثانى قيصر الروسيا (١٨٥٥ - ١٨٨١) فرصة اندلاع الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا ، وتحرك دبلوماسياً ، وطالب الدول الكبرى بتعديل النصوص التى وردت فى معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ والخاصة بمسألة المضايق والبحر الأسود . وكان هذا القيصر يعتبر ماورد بشان هذه المسألة فى تلك المعاهدة وصمة عار فى تاريخ بلاده . واختار لتحركه الدبلوماسى وقتاً عصيباً ، إذ كانت الأعصاب مشدودة لتطور الموقف العسكرى والسياسى فى أوروبا وعجز فرنسا الجريحة وتقاعسها عن الانضمام إلى بريطانيا أو غيرها من الدول فى وجه الروسيا . فتقدم إلى الدول الكبرى الموقعة على معاهدة باريس بمذكرة مؤرخة فى ٣١ من أكتوبر

---

(١) تجد نص هذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. ; op. cit., ti. I., p. 156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة فى باريس فى ٢٩ أبريل - نيسان - ١٨٥٦ .

تشرين أول ـ ١٨٧٠ وأردفها بأخرى مؤرخة فى أول نوفبر ـ تشرين ثان ـ ١٨٧٠ (١) قرر فيها أن معاهدة باريس قد وضعت الروسيا فى مركز سيء بالنسبة لبقية الدول الأطراف فى هذه المعاهدة ، وهو المالك يرى نفسه مضطراً لأن يجيز لنفسه أن يعلن أن الاتفاقية التى تحدد عدد وحجم ونوعية السفن الحربية التى يكون للدولة العثمانية وللروسيا الحق فى الاحتفاظ بها فى البحر الأسود ـ وهى الاتفاقيـة الملحقة بمعاهـدة باريس والتى أشرنا إليهـا من قبل تحت بند ف ـ أصبحت غير ذات موضوع . وكان لهذا التصرف الروسى وقع سيء للغاية فى الدوائر البريطانية التى اعتبرت تصرف القيصر إهداراً لمبدأ احترام المعاهدات الدولية وعملا انفرادياً من جانبه . وتدخل بسمارك المستشار الألمانى ، واقترح عقد مؤتمر دولى لإعادة النظر فى النصوص الخاصة بمسألة المضايق والبحر الأسود . وكان بسمارك يريد مكافأة الروسيا لأنها التزمت الحيدة فى أثناء الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا . وانصاعت بريطانيا لرأى المستشار الألمانى (٢) . وعقد مؤتمر فى لندن فى المدة من ١٧ يناير ـ كانون ثان ـ إلى ١٣ مارس ـ آذار ـ سنة ١٨٧١ أسفر عن عقد معاهدة جماعية من الدول الكبرى فى الثالث عشر من شهر مارس ـ آذار ١٨٧١ عرفت باسم معاهدة لندن . وتقرر فيها إلغاء النصوص الخاصة بحيدة البحر الأسود والمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ والتى سبق أن بسطنا مضمونها عند التعرض لمعاهدة باريس ، كما ألغيت الاتفاقية الخاصة بتحديد القوات البحرية للدولتين فى البحر الأسود . وحلت النصوص الآتية محل المواد الملغاة والاتفاقية الثنائية الملغاة .

تقرر فى معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ أن يظل نافذاً مبدأ غلق المضايق على النحو الذى كان مقرراً فى الاتفاقية المنفصلة والمعقودة فى ٣٠ مارس ـ آذار ـ ١٨٥٦ ، وتخويل السلطان العثمانى الحق فى فتح المضايق فى أوقات السلم أمام السفن الحربية التابعة للدول الصديقة والمتحالفة فى حالة إذا رأى الباب

(١) Sir Edward Hertslet ;Map of Europe, vol. 3 pp. 1892—1897

(٢) Shotwell J.T. and Deak . ; Turkey at the Straoits, chap. 6

العالى أن مرور مثل هذه السفن فى المضايق أمر يضمن تنفيذ أحكام معاهدة باريس (المادة ٢)، كما نصت المعاهدة على أن يظل البحر الأسود بحراً مفتوحاً أمام التجارة البحرية لجميع الشعوب (المادة ٣) ، وقررت المعاهدة أن الدول الأطراف فيها تجدد وتؤكد كل الشروط الواردة فى معاهدة باريس الموقعة فى ٣٠ من مارس — آذار — ١٨٥٦ وكذلك ملاحقها التى لم يمسسها إلغاء أو تعديل فى المعاهدة الجديدة ١ (المادة) .

(ر) معاهدة برلين (١٨٧٨) .

أيدت معاهدة برلين التى عقدت فى الثالث عشر من شهر يوليو — تموز — سنة ١٨٧٨ النصوص التى لم تتعرض للإلغاء أو التعديل فى معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ وفى معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ (٢) وعلى ذلك لم تأت معاهدة برلين بجديد على نظام عبور السفن التجارية والحربية والملاحة فى البحر الأسود . وظلت أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ تحكم نظام العبور والملاحة . وسارت الأمور سيراً عادياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فلم تقع سوى مخالفات قليلة للنظم المقررة حين مرت فى المضايق سفن روسية فى أثناء الحرب الروسية اليابانية فى سنة ١٩٠٤ ، وكانت فى طريقها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط لتجتاز قناة السويس . وكانت هذه السفن الروسية تحمل العلم التجارى الروسى على الرغم من أنها كانت تحمل قوات وذخائر وأسلحة(٣) . وحدث أيضا أن قامت السلطات العثمانية ببث الألغام فى مياه المضايق فى أثناء الغزو الإيطالى لولايتى برقة وطرابلس فى سنة ١٩١١ فتعطل المرور فى المضايق . وكان سندها فى ممارسة

(١) تجد نص المعاهدة فى :

Hurewitz J.C., op. cit. t.I. pp 173—174

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة فى لندن فى ١٥ مايو — آيار — سنة ١٨٧١ .

(٢) دكتور محمود سامى جنينه ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٢ .

هذا الإجراء الحربى حق الدفاع عن النفس ورغبتها فى الحيلولة دون مرور السفن الحربية الإيطالية فى منطقة المضايق(١) .

الروسيا تسعى إلى احتلال المضايق :

حاولت الروسيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر خلق حالة دولية خطيرة تتيح لها احتلال البوسفور والدردنيل . وفى ٢١ من فبراير -شباط- سنة ١٩١٤ عقد اجتماع هام للغاية فى سان بطرسبرج برياسة قيصر الروسيا حضره قادة الجيش والأسطول وكبار رجال السياسة لبحث مشكلة المضايق(٢) . وانتهوا فى هذا الاجتماع إلى أنه يجدر بالحكومة الروسية أن تتخذ الإجراءات لضمان سيطرتها العسكرية على البوسفور والدردنيل ، وألا يكون أسلوبها فى العمل لبلوغ هذه الغاية هو طريق الصراع الحربى المحلى المحصور بينها وبين الدولة العثمانية ، وإنما يتعين عليها إثارة أزمة سياسية مع الأتراك والسعى لتصعيد هذه الأزمة حتى تنقلب إلى حرب أوروبية تتخذها الروسيا ذريعة لإرسال قواتها المسلحة لاحتلال البوسفور والدردنيل فى وقت مبكر بحيث يكون فى يدها زمام المبادأة ووضع الأتراك والدول الأوروبية أمام الأمر الواقع . وكان هناك رأى يقول إنه يجب بصفة مؤقتة خلق جو سياسى موات للقيام بأى عمل يؤدى إلى احتلال المضايق .

وقد كتب السفير الفرنسى فى إستانبول إلى حكومته يقول إن قيصر الروسيا يرى أنه يجب إعادة فتح المضايق حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة (٣) . وكان قيصر الروسيا يعلق أغلب الآمال على فرنسا فى مساعدته على الوصول إلى اتفاق وثيق مع بريطانيا . ومن المعروف أن هذه الدول الثلاث : بريطانيا وفرنسا والروسيا كانت تؤلف فيما بينها

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٣ .

(٢) Montgelas M., The Case for the Central Powers. 1925, pp. 94—95

(٣) Documents Diplomatiques Français. (1871—1914). 3ème Serie ; vol. X, p. 200 .

الوفاق الثلاثى فى مواجهة التحالف الثلاثى الذى كان قوامه ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وقد حال دون تنفيذ المخطط الروسى لاحتلال البوسفور والدردنيل سير إدوارد جراى Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الذى لم يكن يفكر فى ذلك الوقت فى استخدام القوة فى أى مكان أو فى عقد اتفاق جديد مع الروسيا يزيد الموقف الدولى حساسية . وكان شديد الإيمان بفكرته فى عقد مؤتمر أوروبى لتسوية المشكلات الدولية . فهذه الطريقة هى المثلى فى حل الأزمات ، واعتقد أنها هى التى أبعدت شبح الحرب عن أوروبا فى سنة ١٩١٣(١) .

بريطانيا توافق على استيلاء الروسيا على إستانبول والمضايق :

فى أثناء حملة الدردنيل فى سنة ١٩١٥ ، وسنتكلم عنها فى الفقرة التالية ، رأت بريطانيا أن تقدم وعداً للروسيا ، بصفتها حليفة لها فى الحرب العالمية الأولى ، بالموافقة على استيلائها على مدينة إستانبول والساحل الأوروبى لمنطقة المضايق ومجموعات من الجزائر المتناثرة فى هذه المنطقة . وجاء ذلك الوعد وهذه الموافقة فى اتفاق عرف باسم اتفاق إستانبول بين الروسيا وبريطانيا وفرنسا (٤ من مارس — آذار — أبريل — نيسان — ١٩١٥) ولم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يندرج تحت النوع الذى يعرف فى القانون الدولى العام باسم الاتفاقات الدولية فى الشكل المبسط (٢) Traités en forme simplifiée وقد جاء هذا الاتفاق فى صورة مذكرات متبادلة بين سان بطرسبرج ولندن

---

(١) Grant A.J. and Harold Temperley ; op. cit., p. 382.

(٢) يقصد بها الاتفاقات الدولية التى تنعقد بين دولتين أو أكثر فى صورة تبادل مذكرات يسجل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إجراء التصديق عليها أو للاستغناء عن تدخل رئيس الدولة فى إبرامها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والتبسيط وتلجأ إليها مختلف الدول لإبرام الاتفاقات .

وباريس خلال فترة امتدت خمسة أسابيع . وقام ديمتريفتش سازونوف Dmitriyevich Sazonov وزير الخارجية الروسية بوضـــع الصياغة اللفظية للمذكرات المتبادلة ، واشترك معـــه السفيران البريطانى والفرنسى فى سان بطرسبرج فى المدة من ١٩ من فبراير – شباط – إلى ٤ من مارس – آذار – سنة ١٩١٥ وسجل فيها رغبات الحكومة القيصرية . وكانت تنحصر فى ضم إستانبول والمضايق عند انتهاء الحرب العالمية بانتصار بريطانيا وحليفاتها وإبرام ما سمى اتفاق الانتصار Entente Victory وقد جاء فى المذكرة الروسية ما يلى :

« إن مجرى الحوادث الأخيرة جعل حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور نقولا يعتقد أن مسألتى إستانبول والمضايق يجب أن تحلا بصفة نهائية طبقاً للأمانى الروسية .

« وإن أية تسوية تكون ناقصة وقاصرة وغير مستقرة إذا لم تدمج فى الإمبراطورية الروسية كل من مدينة إستانبول والساحل الغربى للبوسفور وبحر مرمرة والدردنيل وكذلك تراقيا الجنوبية .

« وإن المصالح الخاصة بفرنسا وبريطانيا العظمى فى الإقليم المذكور أعلاه ستحترم بدقة زائدة

« وإن الحكومة الإمبراطورية يحدوها الأمل فى أن الحكومتين الحليفتين سوف تتقبلان بعطف الاعتبارات السابقة » . ومضت المذكرة الروسية تؤكد لحكومتى فرنسا وبريطانيا قيام تفاهم مماثل من جانبها من أجل تحقيق خطط قد تضعها الحكومات الثلاث بالنسبة لأقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية العثمانية أو أقاليم أخرى فى جهات أخرى فى العالم . وجاء الرد بموافقة الحكومتين الفرنسية والبريطانية على المذكرة الروسية (١) .

---

(١) بلغ عدد المذكرات التى تبودلت بين سان بطرسبرج وباريس ولندن تسع مذكرات وتجد نصها فى

= Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. II, pp. 7 — 11

ويلاحظ أن بريطانيا بموافقتها على أن تأخذ روسيا كلا من إستانبول والمضايق عند تصفية الإمبراطورية العثمانية قد أقدمت على تغيير جذرى فى سياستها الخارجية . فقد وقفت بريطانيا فى وجه الروسيا أكثر من قرنين تحول دون استيلائها على إستانبول ومنطقة المضايق . وكان الدافع لبريطانيا على هذا التغيير الجوهرى هو رغبتها فى شد أزر الروسيا ورفع روحها المعنوية بعد الهزائم المنكرة التى أنزلتها بها القوات الألمانية فى تاننبرج Tannenberg (٢٥–٣١ من أغسطس–آب–سنة ١٩١٤) ثم عند البحيرات الماسورية Masurian Lakes (٨–١٥ سبتمبر–أيلول–سنة ١٩١٤) . وكانت هاتان الموقعتان من أعظم المعارك التى انتصرت فيها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتجلت فيها العبقرية العسكرية الألمانية بفضل القائد الألمانى الفذ العجوز هندنبرج Hindenburg ورئيس أركانه لودندورف Lodendorf . وهكذا كانت رغبة بريطانيا فى تشجيع الروسيا على مواصلة الحرب وعدم إلقاء السلاح هى السبب الأول فى عقد اتفاق إستانبول . كما كانت هذه الرغبة ذاتها فى مقدمة أسباب حملة الدردنيل .

حملة الدردنيل سنة ١٩١٥ :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى مطلع شهر أغسطس – آب – سنة ١٩١٤ ودخلتها الدولة التركية (العثمانية) فى الخامس من شهر نوفمبر – تشرين ثان – فى ذات السنة إلى جانب دولتى الوسط – ألمانيا والنمسا والمجر – قامت السلطات التركية ببث حقول خفية من الألغام البحرية فى مياه المضايق .

= وهذا الاتفاق غير الاتفاق المعروف باسم سايكس بيكو والمعقود بين بريطانيا وفرنسا والروسيا فى المدة من ٢٦ أبريل – نيسان – إلى ٢٣ أكتوبر – تشرين أول – سنة ١٩١٦ وأخذ أيضاً صورة مذكرات متبادلة بلغ عددها إحدى عشرة مذكرة وتحدد فيها مطالب الروسيا فى الأقاليم العثمانية الواقعة فى المنطقة الشمالية الشرقية من الأناضول . وكان من بين الجهات التى نصت عليها أرضروم ، وطرابزون ، وفان ، وبطليس إلى نقطة تحدد فيما بعد على ساحل البحر الأسود غربى طرابزون ، ثم معظم إقليم كردستان . واحتفظت الحكومة الروسية بحقوقها فيما يختص بالملاحة البحرية الكبرى فى البحر الأسود وأبدت رغبتها فى بحث هذا الموضوع بطريقة ودية فيما بعد بمعرفة حكومات الأطراف المختصة .

وكانت الشائعات قد استفاضت بقرب هجوم بريطانيا وحليفاتها على الدردنيل والبوسفور واحتلال إستانبول . ولم تلبث أن تحققت هذه الشائعات فى ذات الشهر الذى دخلت فيه تركيا الحرب .

بواعث حملة الدردنيل :

فى الحرب العالمية الأولى وفى مستهل دورها الثانى (سبتمبر — أيلول — سنة ١٩١٤ — مارس — آذار — سنة ١٩١٨)(١)، وبينما كان موقف الروسيا الحربى يزداد خطورة ، رأت بريطانيا إرسال حملة تحتل الدردنيل والبوسفور لتفتح الطريق أمام الأساطيل البريطانية والفرنسية إلى البحر الأسود ؛ لأن منطقة المضايق كانت تفصل بريطانيا وفرنسا عن الروسيا وتحول دون إمدادها بالذخائر والأسلحة التى كانت فى مسيس الحاجة إليها ، لأن الروسيا كانت قد استنفدت احتياطيها من الذخائر ، ولم يكن فى مقدورها أن تلبى سوى ثلث حاجياتها اليومية من الذخائر التى تنتجها مصانعها من الذخائر ، على الرغم من أنها كانت تملك قوات لا حصر لها من الرجال . وكانت بريطانيا تخشى أن تضطر الروسيا إلى الخروج من الحرب لنقص الذخائر لديها . فإذا نجحت بريطانيا وحليفاتها فى بسط سيطرتها العسكرية على الدردنيل والبوسفور كان فى استطاعتها إرسال الذخائر والأسلحة والقوات البحرية فى جميع فصول السنة إلى الروسيا لشد أزر القوات الروسية وهى تعانى أشد العناء من الحصار الألمانى ، كما ترفع الروح المعنوية لدى الشعب الروسى ، وكانت بريطانيا قد وعدت الروسيا بإستانبول عروس البوسفور هدية لها . ولذلك علقت

---

(١) اتفق العسكريون رأياً على تقسيم هذه الحرب إلى ثلاثة أدوار :

الدور الأول : من أغسطس — آب — سنة ١٩١٤ إلى سبتمبر — أيلول — من ذات السنة ، ووقع فيه الهجوم الألمانى الذى أوقف عند حد نهر المارن، وأعطى بريطانيا الفرصة لتنظيم المقاومة.

الدور الثانى : من سبتمبر — أيلول — ١٩١٤ إلى مارس — آذار — ١٩١٨ ويسمى حرب الخنادق ، ولم يسفر عن نتيجة حاسمة .

الدور الثالث : وهو أحداث سنة ١٩١٨ وقد بدأ بهجوم ألمانيا وانتهى بارتدادها هى وحليفاتها فى كل الميادين .

الروسيا أعذب الآمال على حملة الدردنيل، لأن أى كسب عسكرى تحرزه قواتها يتضاءل أمام استيلائها على هذه العاصمة العتيدة . وكان استيلاؤها عليها يعد تعويضاً عن خسائرها الفادحة فى البحيرات الماسورية وفى بولندا وفى غاليسيا . يضاف إلى هذه الاعتبارات أن نجاح حملة الدردنيل يجعل فى متناول بريطانيا وحليفاتها المحاصيل الوفيرة من القمح وغيره من مواد التموين التى تنتجها الأقاليم الجنوبية فى الروسيا . وكان رسو أسطول بريطانى فى مياه الدردنيل والبوسفور كفيلا بشطر الجيش التركى شطرين وفتح الطريق إلى نهر الدانوب . وكانت بريطانيا وحليفاتها ترجو أيضاً أن تكون حملة الدردنيل حافزاً لليونان ورومانيا على الانضمام إلى المعسكر البريطانى وإلحاق الهزيمة ببلغاريا وتشجيع العرب على القيام بثورة ضد الأتراك مما يؤدى فى النهاية إلى تحطيم الدولة العثمانية تحطيماً تاماً .

هذه بإيجاز شديد بواعث الحملة العسكرية التى أطلق عليها حملة الدردنيل وقد اختلطت فيها البواعث العسكرية والسياسية .

فشل اقتحام مضيق الدردنيل بحرياً :

فى أوائل شهر نوفمبر–تشرين ثان–سنة ١٩١٤ اقتربت بضع مدمرات بريطانية من مياه الدردنيل وألقت قنابلها على بعض الاستحكامات العسكرية الأمامية المقامة فى هذه المنطقة . وقيل إن هذا الإجراء الحربى كان بمثابة جس النبض لمعرفة مدى استعداد الأتراك للدفاع عن منطقة المضايق . ومن المعروف أن مضيق الدردنيل هو أول مضيق تقابله السفن القادمة من البحر المتوسط والمتجهة إلى البحر الأسود ، فكان عليها أن تعبر الدردنيل ، ثم بحر مرمرة ، ثم البوسفور ، ثم تدلف إلى البحر الأسود . ومهما يكن من أمر ، فقد وقف الأتراك موقفاً سلبياً من هـذه الحركة الاستطلاعية التى قام بها الأسطول البريطانى . وقد تكون هذه السلبية أمراً مقصوداً أريد به استدراج الأسطول إلى داخل مضيق الدردنيل حتى يسهل ضربه وتحطيمه من الضفتين . وقد عادت هذه الحركة الاستطلاعية بالضرر على بريطانيا بقدر ما عادت به من النفع على الدولة العثمانية . كانت مثل هذه الحملة تتطلب السرية التامة حتى

يتوفر لها عنصر المفاجأة . وهو عنصر هام فى إحراز النصر . ولكن الأتراك علموا بما لا يدع مجالا للشك أن بريطانيا وحليفاتها تعتزم اقتحام الدردنيل كمقدمة لاحتلال بقية منطقة المضايق ، ومن ثم استعدوا استعداداً واسعاً لصد هذا الغزو .

كانت نتيجة الحركة الاستطلاعية مشجعة لبريطانيا على المضى فى إنفاذ الحملة البحرية . فوجهت قوات عظيمة من الأسطول إلى الدردنيل فى يناير — كانون ثان — سنة ١٩١٥ منذ انقضاء شهرين أو أكثر من شهرين من الحركة الاستطلاعية . وكانت الحملة تتطلب أيضاً سرعة التنفيذ بجانب السرية التامة . واتضح أن هذين العنصرين لم يكونا متوفرين . واستؤنف الضرب مرة ثانية فى أواخر فبراير — شباط — وفى ١٨ من مارس — آزار — قام الأسطول البريطانى باقتحام مضيق الدردنيل ، ولكن أخفق الأسطول إخفاقا ذريعاً ، إذ أصيب بأضرار جسيمة بسبب انفجار حقل خفى من الألغام فى مياه الدردنيل . وكان لهذا الإخفاق أصداء واسعة وبعيدة فى أرجاء العالم سواء فى دوائر بريطانيا وحليفاتها أو فى دوائر معسكر دول الوسط . ولم تحاول بريطانيا اقتحام الدردنيل بحرياً مرة ثانية ، وهو أمر انتقده الخبراء البحريون بعد ذلك .

إخفاق اقتحام منطقة الدردنيل برياً :

وأمام هذا الفشل البحرى المتلاحق الذى منى به الأسطول البريطانى فى اقتحام مضيق الدردنيل ، رأت بريطانيا وحليفاتها تعزيز الهجوم البحرى على الدردنيل بهجوم برى . على أن يكون دور القوات البرية هو الدور الأساسى ، وأن يكون دور الأسطول مقصوراً على إمداد القوات البرية بما تحتاج إليه من مواد تموينية وأسلحة وذخائر ومساعدتها فى النزول إلى البر وحماية النقط أو المواقع البرية التى تنزل فيها . وكانت القوات البريطانية البرية يتألف معظمها من جنود إستراليين ونيوزيلنديين ، وكان معروفاً عنهم أنهم محاربون ذوو بأس شديد . وكانت هذه القوات بقيادة سير إيان هاملتون Sir Ian Hamilton ، كما عززت بقوة برية فرنسية يقودها الجنرال جورو G. Gouraud

وصلت القوات البرية فى شهر أبريل — نيسان — ١٩١٥ ، ووقع اختيارها

على بعض نقط قليلة فى شبه جزيرة غاليبولى للنزول فيها . ولما تكامل عددها بدأ نزولها تحت نار حاصدة فى ٢٥ من ذات الشهر بعد أن أضاعت وقتاً طويلا وثميناً . كان نزولها فى شبه جزيرة غاليبولى سبباً فى إطلاق بعض المراجع على هذه الحملة إسم حملة شبه جزيرة غاليبولى ولكن الاسم الغالب عليها هو حملة الدردنيل ، لأن الاسم الأخير يشمل هجوم القوات البرية والبحرية على منطقة المضايق . ويقرر الخبراء العسكريون أن القيادة البريطانية الفرنسية قد أخطأت فى اختيار المناطق التى نزلت فيها ، لأن أرض هذه المناطق تنحدر تدريجياً نحو ساحل البحر مما كفل للأتراك المدافعين عنها مواقع صالحة لاصطياد المهاجمين البريطانيين والفرنسيين بمجرد محاولتهم التقدم من الساحل نحو الداخل . وكان الأتراك والألمان قد أكملوا استعداداتهم لمواجهة نزول البريطانيين والفرنسيين . وقد لقيت القوات البرية المهاجمة صلابة وشدة وبسالة من الأتراك .

وبينما كان القتال يدور فى ضراوة بالغة أحرز الجنود المهاجمون نصراً محلياً فى السادس من شهر أغسطس — آب — بعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة ، ونجحوا فى النزول فى خليج سولفا Sulva حيث أخذوا الأتراك على غرة . وكان فى مقدور ستوب فورد Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن يتخذ من هذا الموقع نقطة انطلاق وينتشر فى شبه جزيرة غاليبولى وينتزع تل أنافرتا Anafarta الذى كان مفتاح الموقف . ولكنه تباطأ فى التحرك بقواته نحو ثمان وأربعين ساعة استطاع خلالها إنقاذ الموقف ضابط تركى شاب هو مصطفى كمال بك — كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركيا فيما بعد (١٨٨١— ١٩٣٨) فقد عين قائداً للكتيبة رقم ١٩ وكانت لا تزال فى دور التكوين فى تكيرداج Takirdag على الساحل الأوروبى لبحر مرمرة . وخف على رأس هذه الكتيبة إلى شبه جزيرة غاليبولى . واستطاع إجلاء المهاجمين عن هذا الموقع . وكان نجاح الجنود الأتراك البواسل فى صد المهاجمين وإجلائهم عن موقعهم يعد أحد الانتصارات القليلة والرائعة التى أحرزها الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١) . وقد أنقذ هذا النجاح إستانبول من خطر الغزو

---

(١) Lewis Bernard ; The Emergence etc., op. cit., p. 244.

الأجنبي . وفى ذات الوقت كان فشل القوات البريطانية والفرنسية فى الاحتفاظ بالموقع قمة المأساة بالنسبة لهم وكان نصرهم مؤقتاً .

ومما هو جدير بالذكر أن القيادة الألمانية العليا قررت القيام بغزو الصرب والجبل الأسود وفتح الطريق إلى تركيا لإمدادها مباشرة بالأسلحة والذخائر والرجال والأموال . ونجحت ألمانيا فى تنفيذ هذا المخطط فى شهر ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩١٥ .

ورأت بريطانيا وفرنسا سحب قواتهما من شبه الجزيرة بعد أن فقدتا الأمل فى الاستيلاء على منطقة المضايق . وبدأت عمليات الانسحاب فى ١٨ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩١٥ حتى ٨ من يناير — كانون ثان — سنة ١٩١٦ بعد أن كلفت الحملة بريطانيا وحليفاتها مائة وعشرين ألفاً من القتلى والجرحى ، وأخفقت حملة الدردنيل فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو الاستيلاء على المضايق . وكان الفشل مزدوجاً : فى الهجوم البحرى على الدردنيل وفى الهجوم البرى على شبه جزيرة غاليبولى لتتقدم منها قوات بريطانيا وحليفاتها لاحتلال المضايق والاستيلاء على إستانبول .

وهكذا حققت الدولة العثمانية نصراً باهراً فى الدفاع عن منطقة المضايق والحفاظ على سيادة الدولة على هذه المنطقة الحساسة . وكان فى مقدمة أسباب هذا الانتصار الرائع الأسلوب الذى اتبعه الأتراك فى استدراج وحدات الأسطول البريطانى إلى مياه مضيق الدردنيل واصطيادها بسهولة وسط حقل خفى من الألغام البحرية ، ثم الصلابة التى أبداها الجنود الأتراك فى دفاعهم عن الدمار . وهى بسالة أذهلت الأعداء كما أذهلت الأصدقاء ؛ واستعادت الدولة العثمانية سمعتها الحربية القديمة كدولة حربية من الطراز الأول ، ووقفت شامخة فى وجه أكبر وأقوى دول العالم فى ذلك الوقت .

لقد أرادت بريطانيا وفرنسا والروسيا أن تكون حملة الدردنيل الضربة الكبرى التى توجهها هذه الدول الثلاث إلى الإمبراطورية العثمانية لقصم ظهرها عقاباً لها على انضمامها إلى ألمانيا . فلم تكد تمر أيام ذات عدد على دخولها الحرب

فى الخامس من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩١٤ حتى أرسلت بريطانيا بعض المدمرات إلى مياه الدردنيل فى حركة إستطلاعية لكشف قدرة الاستحكامات التركية على المقاونة وكمقدمة لإرسال الحملة البحرية الكبرى والتى باءت بالفشل واقترنت بخسائر فادحة فى القتلى والجرحى . ومما زاد فى فداحة الهزيمة وشدة وقعها فى الدوائر البريطانية بوجه خاص أن انسحاب الحملة تم فى وقت كان شديد الإظلام بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . كانت سنة ١٩١٥ تلفظ أنفاسها الأخيرة وكانت الهزائم والكوارث تحيط بهذه الدول : أبيدت الصرب والجبل الأسود ، وإنضمت بلغاريا إلى النمسا ، وحاقت بالروسيا هزائم تبدد كل أمل لها بعدها فى الانتصار ، وعجزت إيطاليا عن إحراز أى نجاح حقيقى ، وهوت إلى الحضيض سمعة الأسطول البريطانى بعد فشله فى حملة الدردنيل وإخفاقه فى الوصول إلى إستانبول . وإنتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تنجح فى اقتحام المضايق قوات عدائية سواء كانت بريطانية أو فرنسية أو روسية . أو أية جنسية أخرى .



الفصل التاسع

السياسة العليا للدولة العثمانية
فى ضوء خصائصها العامة (٣)

هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى
أطاحت بسيادتها على المضايق والبحر الأسود

هدنة مدروس واحتلال المضايق وإستانبول :

عرض وتحليل ونقد :

جاز إلى ربه السلطان محمد الخامس فى الثالث من شهر يوليو – تموز – سنة ١٩١٨ على أثر إصابته بإنفلونزا لم تمهله سوى أيام ذات عدد ، فكانت وفاته شبه فجائية . وتولى العرش بعده أخوه وحيد الدين أفندى باسم السلطان محمد السادس ، وهو فى الثامنة والخمسين من عمره . وكان الموقف الحربى عصيباً للغاية بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا . كان الأتراك قد فقدوا الولايات العربية التى كانت خاضعة للدولة العثمانية فى الشرق العربى الآسيوى : الحجاز ، العراق ، شرق الأردن ، فلسطين ، الشام ، فضلا عن الهزائم والخسائر التى نزلت بهم فى الميادين الأخرى . وفى شهر أكتوبر – تشرين أول – استقال جميع وزراء جماعة الاتحاد والترقى نتيجة فشل سياستهم الداخلية والخارجية والحربية ، ثم فر كبارهم إلى خارج البلاد حيث لقوا حتفهم تباعاً . وكان الرأى السائد فى الدوائر العالمية وقتذاك أن ألمانيا وحليفاتها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من طلب الصلح . ورأى السلطان الجديد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ووقع اختياره على رجل عسكرى هو الجنرال أحمد عزت باشا وعينه صدراً أعظم وعهد إليه الاتصال ببريطانيا ابتغاء عقد هدنة . وسرعان ما شكلت الحكومة وفداً برياسة رءوف بك وزير البحرية لعقد

الهدنة . وهكذا كانت تركيا أسبق من ألمانيا فى عقد هدنة مع أعدائها بأحد عشر يوما (١) . فقد أبرمت هدنة منفصلة مع تركيا فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩١٨ سميت هدنة مدروس Mudros نسبة إلى ميناء يحمل هذا الاسم فى جزيرة لمنوس(٢) Lemnos حيث كانت ترسو فى هذا الميناء باخرة إنجليزية اسمها أجاممنون Agamemnon ، وقد دارت على ظهرها مفاوضات الهدنة . ولم يستغرق إجراؤها أكثر من أسبوع . وقد وقعت عليها بريطانيا عن نفسها ونيابة عن حليفاتها . وقد نصت هدنة مدروس على المبادئ العامة الآتية فيما يختص بمسألة المضايق :

أولا : فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه .

ثانياً : قيام بريطانيا وحليفاتها باحتلال القلاع والاستحكامات المقامة فى منطقتى الدردنيل والبوسفور .

ثالثاً : تعهد السلطات التركية بالكشف عن مواقع الألغام وغيرها من المتفجرات فى المياه التركية بما فيها مياه الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود – للسلطات البريطانية وسلطات الدول الحليفة لها (٣).

وبعد أن تم التوقيع على الهدنة قدم أحمد عزت باشا الصدر الأعظم استقالته من منصبه على أساس أنه أنجز المهمة التى عهد بها إليه السلطان . وخلفه أحمد توفيق باشا . وكان هناك إعتباران ملحوظان فى إختياره لمنصب الصدارة العظمى . أولها أنه كان سفيراً لبلاده فى لندن ، واكتسب تقدير

---

(١) طلب لودندورف القائد الألمانى للميدان الغربى الهدنة رسمياً فى الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من عام ١٩١٨ على أساس الأربعة عشر شرطاً التى أعلنها ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكيه كدستور للتسوية .

(٢) جزيرة لمنوس إحدى جزر بحر الأرخبيل .

(٣) تجد النص الرسمى الكامل لهدنة مدروس فى :

Great Britain ; Parliamentary Papers, 1919, Cmd. 53, pp. 20—27 ; 30 October 1918.

الدوائر العليا فى بلاط سان جيمس فى هذه العاصمة . وكان الأمل معقوداً عليه أن يكون موضع ثقة بريطانيا فى هذه المرحلة الدقيقة التى كانت تتطلع فيها تركيا إلى إعادة علاقاتها مع بريطانيا إلى سيرتها الأولى ؛ وثانيهما أن أحمد توفيق باشا سبق له أن تولى منصب الصدارة العظمى .

وأهم ما يلاحظ على هدنة مدروس أن بريطانيا حققت فيها ما عجزت عن تحقيقه فى ساحات القتال فى أثناء الحرب العالمية الأولى . فقد أملت شروطها على تركيا . وكان من بينها فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين دخول البحر الأسود والخروج منه ، كما قررت لنفسها حق احتلال المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية فى منطقة المضايق إلى غير ذلك . وكانت هذه الشروط الخاصة بالدردنيل والبوسفور والبحر الأسود نذراً بمبادىء وقواعد جائرة تستند إلى مبدأ القوة وتتضمنها معاهدة الصلح التى سوف تضعها بريطانيا وحليفاتها وتفرضها على تركيا . وقد جاء فى أعقاب هدنة مدروس تنفيذ عملى لما تضمنته من مبادىء واتجاهات . فقبل أن ينقضى أسبوعان على إبرام الهدنة حتى كانت الأساطيل الحربية لبريطانيا وحليفاتها تتخذ طريقها إلى منطقة المضايق من البحر المتوسط. واجتازت ستون قطعة حربية مضيق الدردنيل ثم بحر مرمرة ثم البوسفور . والتزمت مدفعية السواحل التركية الصمت العميق إزاء هذه المظاهرة البحرية العدائية . وفى ١٣ من نوفمبر — تشرين ثان — ألقت بعض هذه القطع الحربية مراسيها فى ميناء إستانبول . وفى ٨ من ديسمبر — كانون أول — كان قد استكمل فى إستانبول إنشاء إدارة عسكرية دولية من بريطانيا وحليفاتها ، واحتلت القوات الأجنبية المتحالفة شتى أحياء العاصمة ، وفرضت رقابة عسكرية صارمة على الميناء ، وأخضعت لهذه الرقابة أيضا قوات الشرطة وقوات الأمن الداخلى — الجندرمة — وكذلك المرافق العامة حتى على خطوط الترام وعرباتها .

إستانبول تشهد مسرحية هزلية :

وتعرضت إستانبول لمسرحية هزلية كشفت عن شماتة السكان اليونانيين فى العاصمة بهزيمة الأتراك من ناحية ، وتفاهة بعض العسكريين من ناحية

أخرى . فنى الثامن من فبراير — شباط — سنة ١٩١٩ دخل إستانبول القائد الفرنسي الجنرال فرانشيه دسبرى General Franchet d'Espérey ممتطياً صهوة جواد أبيض أهداه إليه السكان اليونانيون فى إستانبول . وكانت حجتهم فى تقديم هذا النوع من الهدية أن السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام دخلها لأول مرة راكباً حصاناً أبيض اللون (١) ، فأراد هؤلاء اليونانيون أن يكون احتفالهم بدخول قوات بريطانيا وحليفاتها عاصمة الأتراك واعلان ابتهاجهم بهذه المناسبة التاريخية على غرار ما حدث من أربعمائة وست وستين سنة خلت . ولم يلبث أن أعلن البطريرك اليونانى فى إستانبول استقلال « الرعايا » اليونانيين عن الحكومة التركية ، وقطع فى ٩ من مايو — آيار — ١٩١٩ علاقاته مع الباب العالى . وتناسى البطريرك والرعايا اليونانيون ما كانوا يظفرون به من معاملة كريمة وممتازة فى ظل الحكم العثمانى .

وفى ذات الوقت تقريباً كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية قد احتلت عدة مواقع فى منطقة المضايق . وكان الأسطول البريطانى يرابط فى بحر مرمرة وفى مياه البوسفور تجاه العاصمة . فكان احتلال بريطانيا وحليفاتها لمنطقة المضايق احتلالا بحرياً وبرياً .

والحق أن هدنة مدروس وما ترتب عليها من أحداث مباشرة وسريعة كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة العثمانية ، وإنتهاكاً لسيادتها على منطقة المضايق ، وإنتقاصاً من استقلالها ، ونذيراً بشروط قاسية تمليها بريطانيا وحليفاتها فى معاهدة الصلح التى سوف تفرضها على الدولة ، وهى معاهدة سيفر .

معاهدة سيفر :

عرض وتحليل ونقد :

كانت بريطانيا وفرنسا قد فرغتا فى ٢٦ (٢) من شهر أبريل — نيسان —

---

(١) Lewis Bernard; The Emergence etc, op. cit., p. 240.

(١) كانت هاتان الدولتان قد فرغتا فى اليوم السابق — ٢٥ من أبريل نيسان — من تسوية مسألة الانتدابات على الأقاليم العربية التى كانت خاضعة للدولة العثمانية فى الشرق العربى الآسيوى .

١٩٢٠ من إقرار معاهدة الصلح مع تركيا فى إجتماع المجلس الأعلى فى سان ريمو San Remo ، وهى بلدة إيطالية على ساحل الريفيرا . واتضح أن الهدف من هذه المعاهدة هو تصفية الإمبراطورية العثمانية أو كما يقول ذوو البراعة فى النكتة دفن رجل أوروبا المريض الذى طال مرضه وطال احتضاره أكثر من اللازم وقد سلمت هذه المعاهدة للوفد التركى فى باريس فى ١١ من مايو - آيار - وكان هذا الوفد يمثل السلطان العثمانى محمد السادس ووزراءه ، ولكنه لم يوقع عليها إلا مكرهاً فى ١٠ من أغسطس - آب - ١٩٢٠ أى بعد إنقضاء ثلاثة أشهر . وقد تم التوقيع فى مدينة سيفر Sèvres وهى مدينة فرنسية على نهر السين تشتهر بوجود مصنع فرنسى للأوانى الخزفية المتناهية فى جمالها ودقتها . وقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا والملك حسين بن على فى الحجاز التوقيع عليها . ومما هو جدير بالذكر أنه بعد أن تم توقيع معاهدة سيفر تسلل إلى مصنع الخزف الضابط مصطفى كمال ونسفه .

ويلاحظ أن معاهدة سيفر قد عقدت مع الدولة التركية The Turkish State ، ونفهم من بين ثنايا السطور على أنها امتـداد للدولة العثمانية مصغرة . ولذلك جاء فى بعض موادها ذكر للسلطان على أنه رأس الدولة ، وجاء ذكر إستانبول (القسطنطينية) على أنها العاصمة ، ونص فيها على أن حقوق الحكومة التركية على إستانبول لا تمس ، وأن مقر السلطان والحكومة التركية هو إستانبول بصفتها عاصمة الدولة التركية .

وقد تعرضت معاهدة سيفر لمسألة المضايق فى المواد من ٣٧ إلى ٤٠ فنصت المادة (٣٧) على أن الملاحة فى المضايق ، وتشمل على سبيل التحديد الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور ، تكون فى المستقبل مفتوحة فى وقت السلم وزمن الحرب لكل سفينة تجارية أو حربية ، وللملاحة الجوية العسكرية والتجارية دون أى تمييز بين الدول . ولا تكون مياه هذه المضايق عرضة للحصار ولا يباشر فيها أى حق حربى أو أى عمل عدائى إلا تنفيذاً لقرار يصدر عن مجلس عصبة الأمم .

ونصت المادة (٣٨) على أن الحكومة التركية تقر أنه بات من الضرورى

اتخاذ مزيد من الاجراءات لضمان حرية الملاحة المنصوص عليها فى المادة السابقة . وبناء على ذلك ، فهى تعهد إلى لجنة تسمى لجنة المضايق بمراقبة حركة الملاحة فى مياه المضايق . وتتعهد الحكومة اليونانية أيضاً إلى هذه اللجنة بذات التفويض وتتعهد بأن تقدم لها فى جميع الأحوال نفس التسهيلات ، على أن تمارس هذه المراقبة باسم الحكومتين التركية واليونانية ووفقاً للطريقة المنصوص عليها فى المادتين التاليتين .

وقررت المادة (٣٩) أن سلطة لجنة المضايق تمتد على كافة المياه المحصورة بين مصب البحر المتوسط فى الدردنيل وبين مصب البحر الأسود فى البوسفور ، كما تمتد إلى مسافة ثلاثة أميال فيما وراء كل من هذين المصبين ، ويجوز أن تمارس هذه السلطة على الساحل إلى الحد الذى يكون ضرورياً لتنفيذ الشروط الواردة فى هذا القسم من المعاهدة الخاص بمسألة المضايق .

وتعرضت المادة (٤٠) لطريقة تشكيل لجنة المضايق وطريقة التصويت . فقررت أنها تنتظم عشرة أعضاء يمثل كل عضو دولة واحدة . وهذه الدول هى الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، اليابان ، الروسيا ، اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، تركيا . وشملت المادة تحفظات على عضوية بعض هذه الدول ، فقالت إن الروسيا ، وبلغاريا ، وتركيا لا يسمح لها بالانضمام إلى لجنة المضايق إلا إذا دخلت فى عصبة الأمم . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد ترك أمر عضويتها إلى رغبة حكومة واشنجطن ، فقالت « إذا أرادت ومتى أرادت هذه الحكومة أن تسهم فى أعمال لجنة المضايق » . ونصت نفس المادة على أن يكون لممثل كل من أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا وإيطاليا ، واليابان ، والروسيا صوتان . أما ممثلو اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وتركيا فيكون لكل منهم صوت واحد . وأخيراً نصت المادة على أن ممثل كل دولة غير قابل للعزل إلا بمعرفة حكومته (١) .

---

(١) تجد النص الرسمى الكامل لمعاهدة سيفر فى .

Great Britain, Parliamentary Paperes, 1920, Treaty Series No. 11 ، Cmd, 964, pp. 16—32. 10, August. 1920,

وقد جاءت معاهدة سيفر بمجموعة من المبادئ والقواعد العامة يمكن إدراجها تحت ثلاثة أنواع ، النوع الأول كان معروفاً ومعمولا به من قبل ومعترفاً به فى الأسرة الدولية بحيث غدا من المبادئ العامة فى القانون الدولى العام ، النوع الثانى فينطوى على شذوذ وخروج على قواعد القانون الدولى العام ، النوع الثالث فيتمثل فى مبادئ العمل على إشفاء الأحقاد بدلا من العمل على إزالتها ، وإيثار مبادئ الاستعمار على مبادئ العدالة والحرية .

أما النوع الأول فيتمثل فى تقرير حرية المرور فى الدردنيل والبوسفور لجميع السفن التجارية والحربية فى جميع الأوقات دون تمييز بين جنسية السفن مع تحريم فرض الحصار على المضايق أو ممارسة أى حق حربى أو عمل عدائى إلا إذا كان الإتيان بمثل هذا العمل تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . وهذا المبدأ العام مقرر فى إتفاقية الآستانة المعقودة فى ٢٩ من أكتوبر — تشرين أول — ١٨٨٨ والخاصة بتنظيم حرية مرور السفن فى قناة السويس . كما أنه مقرر فى كل من معاهدة هاى — پونسفوت [(١)] Hay Pauncefote — فى المادة الثالثة البند الأول والمبرمة فى ١٨ من نوفمبر — تشرين ثان — ١٩٠١ والخاصة بقناة بناما التى كان مزمعاً حفرها — وقد افتتحت هذه القناة للملاحة فى ١٥ من أغسطس — آب — سنة ١٩١٤ — وفى معاهدة هاى — بونو ڤاريلا[(٢)] — Hay Bunau Varilla فى المادة الثامنة عشرة والمبرمة فى ١٨ من نوفمبر — تشرين ثان — ١٩٠٣ والخاصة بقناة بناما أيضاً . فهذا المبدأ العام كان معمولا به فى قناة السويس ومقرراً للتطبيق عند افتتاح قناة پناما . غير أن معاهدة سيفر أجازت ممارسة الأعمال العدائية فى منطقة المضايق إذا كانت هذه الأعمال تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . ومثل هذه الإباحة غير موجودة فى اتفاقيات قناتى السويس وپناما . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن عصبة الأمم لم تكن قد رأت النور فى سنة ١٨٨٨ أو سنة ١٩٠١ أو

---

(١) كان هاى وزير الخارجية الأمريكية ، وبونسفوت جوليان هو السفير البريطانى فى واشنطن .

(٢) بونو ڤاريلا هو ممثل بناما فى واشنطن .

سنة ١٩٠٣ ، كما يلاحظ أيضاً أن معاهدة سيفر قد أجازت الملاحة الجوية التجارية والعسكرية لجميع الدول فوق منطقة المضايق بينما جاءت اتفاقيات قناتى السويس وبناما خالية من مثل هذه الإباحة . وقد تداركت بريطانيا هذا الأمر بعد ذلك ، فنصت عليه فى معاهدة ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ بالنسبة للطيران البريطانى . أما قناة پناما فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستأثر بالنفوذ عليها استناداً إلى اتفاقيات عقدتها مع الدولة صاحبة الإقليم وهى پناما التى سامت لهــا بهذا المركز الانفرادى المتميز وقنعت بالاحتفاظ بسيادة اسمية وأعطت الولايات المتحدة حق ممارسة جميع المظاهر العملية لهذه السيادة الفعلية .

أما النوع الثانى الذى جاءت به معاهدة سيفر فينطوى على مبدأ جائر وشاذ ، إذ جعلت فى الدولة العثمانية سيادة مزدوجة إحداهما للحكومة التركية والأخرى للحكومة اليونانية . وجعلت المعاهدة هاتين الحكومتين هما مصدر التفويض للرقابة الدولية على تنظيم حرية مرور السفن فى الدردنيل والبوسفور . وكانت هذه الرقابة الدولية ممثلة فى لجنة المضايق. فأصبحت هذه اللجنة تستمد وجودها وكيانها وسلطاتها واختصاصاتها من الحكومتين معاً . وجعلت المعاهدة الحكومة اليونانية شريكة لصاحب الإقليم الأصلى فى إصدار تفويض لهذه اللجنة فى قيامها ومباشرة عملها . وهذا هو وجه الشذوذ فى معاهدة سيفر ، ولايجد الباحث تفسيراً أو تبريراً لهذا الشذوذ سوى رغبة بريطانيا فى إذلال الشعب التركى عقب هزيمته عقاباً له على انضمامه إلى ألمانيا . وقد تجلت روح الانتقام فى كافة المعاهدات التى فرضتها بريطانيا وحليفاتها على الدول المهزومة مثل معاهدة ڤرساى Versailles مع ألمانيا فى ٢٨ من يونيو — حزيران — سنة ١٩١٩ ، ومعاهدة سان جرمان (١)

(١) توجد فى فرنسا عدة أماكن تحمل اسم سان جرمان ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد المكان المقصود . ويقصد بسان جرمان فى هذه الدراسة Saint-Germain-en-Laye وهى مدينة وعاصمة مقاطعة سين واواز Seine-et-Ois وعلى مقربة من ڤرساى ضاحية باريس .

St. Germain مع النمسا فى ١٠ من سبتمبر — أيلول — سنة ١٩١٩ ، ومعاهدة نويلى[1] Neuilly فى ٢٧ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩١٩ مع بلغاريا ، ومعاهدة تريانو[2] Trianon فى ٤ من يونيو — حزيران — سنة ١٩٢٠ مع المجر .

وهناك تبرير آخر هو أن اليونان كانت قد احتلت أزمير فى ١٥ من مايو — آيار — سنة ١٩١٩ وسعت منذ ذلك الوقت نحو توسيع منطقة احتلالها . واعتقدت بريطانيا أن الاحتلال اليونانى لأزمير سيطول أمده وسيتسع مداه . وتناست بريطانيا أن الأتراك وهم من أشد المحاربين صلابة وبسالة واسترخاصاً للموت لن يقبلوا هذه الأوضاع ، ومن ثم أقبلت بريطانيا على مجاملة اليونانيين . ولا ننسى أنهم كانوا حلفاءها فى الحرب العالمية الأولى . ومن ثم جاء هذا الشذوذ فى المبادىء التى انطوت عليها معاهدة سيفر .

والمبدأ الثالث الذى جاءت به معاهدة سيفر فيما يختص بمسألة الدردنيل والبوسفور هو فرض رقابة دولية لضمان حرية مرور السفن فى منطقة المضايق . وقد أخذت هذه الرقابة الدولية شكل لجنة أطلق عليها لجنة المضايق The Straits Commissiou وقوامها عشرة أعضاء يمثلون عشر دول أوروبية وآسيوية وأمريكية ، ولم تكن إفريقية ممثلة بأية دولة فى اللجنة . ويلاحظ أن تمثيل الدول لم يكن على قدم المساواة ، فبعض الدول كان لممثلها صوتان ، وللبعض الآخر صوت واحد ، كما أن عضوية بعض الدول فى لجنة المضايق كانت مقيدة بشرط حتمى هو قبول هذا الفريق من الدول فى عصبة الأمم .

---

(١) توجد فى فرنسا عدة أماكن تحمل اسم نويلى ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد المكان المقصود . ويقصد بكلمة نويلى فى هذه الدراسة Neuilly sur Seine وهو اسم مدينة هى عاصمة مقاطعة السين وتقع على نهر السين ، وعلى مقربه من غابة بولونا Bois de Boulogne وخلف سان دنى Saint Denis

(٢) تريانو اسم يطلق على قصرين صغيرين فى منتزهات فرساى ، يطلق على القصر الأول تريانو الكبير Le Grand Trianon وقد شيده الملك لويس الرابع عشر ، ويطلق على القصر الثانى تريانو الصغير Le Petit Trianon وقد بناه الملك لويس الخامس عشر .

وكانت لجنة المضايق تشبه إلى حد ما لجنة القناصل التى نصت عليها المادة الثامنة من اتفاقية ٢٩ من أكتوبر — تشرين أول — ١٨٨٨ الخاصة بقناة السويس مع فروق هامة هى أن اتفاقية القناة قد حددت تحديداً دقيقاً اختصاصات لجنة القناصل وميزت بين الاجتماعات الطارئة والاجتماعات الدورية التى تعقدها مرة كل سنة ، وطريقة مواجهة الأحداث التى تهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها ، ورياسة اللجنة فى كل نوع من نوعى اجتماعاتها . أما لجنة المضايق فإن معاهدة سيفر لم تتعرض لمثل هذه التفصيلات الهامة والضرورية . ولذلك كان الغموض يحيط باللجنة من يمين وشمال.

ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا سبق لها أن عارضت معارضة عنيفة للغاية فرض رقابة دولية على حرية مرور السفن فى قناة السويس ، وذلك فى أثناء الجلسات التى عقدتها لجنة باريس الدولية فى الفترة من ٣٠ من مارس — آذار — إلى ١٣ من يونيو — حزيران — سنة ١٨٨٥ لوضع مشروع اتفاقية قناة السويس . ووقفت بريطانيا فى وجه الدول الأوروبية الكبرى وهى فرنسا ، الروسيا ، ألمانيا ، والنمسا والمجر ، الدولة العثمانية . وقد شكلت هذه الدول تكتلا دولياً فى اللجنة ضد بريطانيا نكاية فيها لاحتلالها مصر . وتأرجح موقف إيطاليا بين الطرفين المتصارعين . ولما وجدت بريطانيا إصراراً من الدول الكبرى على قيام الرقابة الدولية على قناة السويس عملت بكل ثقلها على التخفيف من قيود هذه الرقابة . ومع ذلك فلما تقررت الرقابة الدولية فى شكل لجنة تتكون من وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدين فى مصر استغلت بريطانيا نفوذها المتفوق الانفرادى فى مصر بسبب احتلالها مصر وعملت على منع اجتماعات لجنة القناصل سواء الاجتماعات الطارئة أو الاجتماعات الدورية منعاً باتاً سواء على عهد الاحتلال أو الحماية أو الاستقلال الشكلى فضلا عن العهود اللاحقة[1] وهكذا فإن بريطانيا ، لمصلحتها الخاصة ، عارضت

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع : —

فى سنة ١٨٨٥ قيام رقابة دولية على قناة السويس ؛ وفرضت فى سنة ١٩٢٠ رقابة دولية على منطقة المضايق نكاية فى تركيا ، ورغبة فى دعم موقفها الاستعمارى فى منطقة الشرق الأدنى .

لم تكن الحكومة التركية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مدروس فى وضع عسكرى أو سياسى يسمح لها بالاعتراض على ماجاء فى معاهدة سيفر سواء فيما يختص بمسألة الدردنيل والبوسفور أو بالمسائل الأخرى التى تعرضت لها المعاهدة ، فالمنتصر وهو فى قمة الانتصار ونشوة الابتهاج يشتط ويملى شروطه ويفرض إرادته على الدولة المنهزمة . وقد قيل فى هذا الصدد « ويل للمغلوب » وهى عبارة تصدق على الحاضر كما صدقت على الماضى . ويعلق أحد كبار المؤرخين الإنجليز على معاهدة سيفر بقوله إنها كانت فى موادها وأحكامها وشروطها أكثر قسوة على تركيا من شروط معاهدة فرساى التى فرضت على ألمانيا(١)، مع أن الدولتين — ألمانيا وتركيا — كانتا حليفتين وهزمتا فى حرب واحدة على يد دول واحدة . وقد قضت معاهدة سيفر على تركيا كدولة أوروبية من الناحية العملية(٢).

تجميد معاهدة سيفر :

كان السلطان محمد السادس ووزراؤه يعيشون فى إستانبول تحت تهديد الأسطول البريطانى ، وقد ألقى مراسيه فى مياه البوسفور ، بينما كانت قوات

= دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : تكتل الدول لتدويل قناة السويس ، نكاية فى بريطانيا .

بحث منشور فى جزءين فى حوليات كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

الجزء الأول ، المجلد الثالث والعشرون — الجزء الأول — مايو ١٩٦١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ١١ — ١٥٤ .

الجزء الثانى ، المجلد الثالث والعشرون — الجزء الثانى — ديسمبر ١٩٦١ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ١ — ٤٧ .

(١) Lewis Bernard ; The Emergence etc., op. cit., p. 247.

(٢) Miller W. ; op. cit., p. 451.

بريطانيا وحليفاتها تحتل إستانبول وكانت قد أقيمت فيها - كما سبق أن ذكرنا - إدارة عسكرية تمثل دول المعسكر الغربى التى أقامت رقابة صارمة على شتى مرافق العاصمة . وفى جو الهزيمة الكئيب أرغم السلطان ووزراؤه على التوقيع على معاهدة سيفر ، ووقفت الغالبية الساحقة من الشعب التركى ضد المعاهدة الجائرة ، واعتبرت يوم التوقيع عليها يوم حداد عام فى أرجاء تركيا .

وقد اعتقد البعض أن موافقة السلطان على المعاهدة هى بادرة طيبة لتنفيذها . ولكن سرعان ماتكشفت عدة عوامل جعلت تنفيذ شروطها أمراً متعذراً إن لم يكن مستحيلا . لقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا وحسين بن على ملك الحجاز هذه المعاهدة كما ذكرنا . وكانت اليونان قد خرجت بمكاسب إقليمية وسياسية هائلة ، ولكنها لم تقنع بها ، وأرادت مزيداً من مكاسب أخرى على حساب تركيا لتكوين دولة تضم - فيما تشمل عليه - النصف الغربى من الأناضول ، ثم تصاعدت بطلباتها فعرضت على بريطانيا وحليفاتها أن تسمح لها باحتلال إستانبول مما زاد الموقف فى تركيا اشتعالا . غير أن العامل الحاسم فى تدهور الموقف بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها كان الشعب التركى . فقد أبى الاستسلام وهاله أن تتمزق بلاده على هذا النحو المزرى تحتلها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والفرنسية والإيطالية واليونانية ، وهو الذى خاض أشد الحروب هولا وكون إمبراطورية امتدت فى ثلاث قارات . فثار على الأوضاع التى جاءت بها معاهدة سيفر . وقاد مصطفى كمال حركة ثورية واتخذ من الأناضول ، وهى منطقة منيعة محصنة بالهضاب الوعرة الجرداء ، مركزاً لحركته الثورية وألب الجيش للتمرد والمقاومة ، وتحدى الدول التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى وفرضت معاهدة سيفر على بلاده فرضاً .

رأى مصطفى كمال فى الموقف بعد هزيمة بلاده :

نعى مصطفى كمال على رجال الاتحاد والترقى سياستهم التى جعلت تركيا تواكب ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتتعرض للانهيار السريع . وقد أرجع

التدهور الذى أصاب الدولة قبل الحرب إلى عوامل عديدة ومتشابكة : زجت بنفسها فى حبائل الدول الأوروبية الكبرى ، وخضعت لتهديداتها ، وظلت متخلفة فلم تساير ركب الحضارة ، وبددت جهودها فى حكم شعوب غير تركية . وإذا كانت بريطانيا وحليفاتها قد احتلت فى تلك الحرب العراق وفلسطين وسوريا ، ومن قبل الحرب تونس ومصر وليبيا وغيرها فإنه يقبل سلخ هذه الولايات وغيرها من الأقاليم غير التركية التى كانت خاضعة للدولة . ولكن لابد فى مقابل هذه التضحيات من الاحتفاظ بالأناضول بصفته الوطن الأصلى للأتراك وإقليم تراقيا الشرقية وإستانبول ، والحفاظ على الاستقلال التام للشعب التركى وسلامة أراضيه ، وسيادة الدولة على جميع بقاع الوطن التركى بما فيه منطقة المضايق . وكان شعاره تركيا للأتراك [١] Turkey for the Turks وتطلب تنفيذ هذه المبادىء التحرر من الحكم الأجنبي فى جميع صوره وأشكاله ومظاهره .

ولن نتعرض لتاريخ تركيا فى الفترة من توقيع هدنة مدروس (سنة ١٩١٨) إلى إبرام معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) إلا بالقدر الذى يتصل بموضوع المضايق والبحر الأسود وبالقدر الذى جعل بريطانيا وحليفاتها تغير سياستها تغييراً جذرياً تجاه تركيا المنهزمة ، فتقرر إلغاء معاهدة سيفر ووضع معاهدة جديدة هى معاهدة لوزان تستبعد منها معظم الشروط الجائرة التى جاءت بها المعاهدة الأولى . وعلى سبيل المثال تقرر إبعاد اليونان من الاشتراك مع تركيا فى عمل من صميم سيادة الدولة على منطقة المضايق ، كما تقرر إعادة إقليم تراقيا الشرقية إلى تركيا . وكانت اليونان قد ظفرت بهذا الإقليم فى معاهدة سيفر . مما يدل على أن لبريطانيا مصالح دائمة ولكن ليس لها أصدقاء دائمون .

تزاحم ثلاث مشكلات :

واجه مصطفى كمال موقفاً مظلماً كثيف الإظلام . كان جيش يونانى قد نزل فى أزمير فى ١٥ من مايو — آيار — سنة ١٩١٩ تحت حماية ثلاثة

---

(١) Miller W. ; op. cit., p. 556.

أساطيل هى الأساطيل البريطانية والفرنسية والأمريكية . واحتل اليونانيون الميناء والمدينة والمنطقة المحيطة بها واتخذوها موقعاً إستراتيجيا للتوسع فى داخل الأناضول فى اتجاه الشرق . وقيل فى تفسير أو تبرير اشتراك أساطيل ثلاث دول كبرى فى إنزال القوات اليونانية إن بريطانيا وحليفاتها أرادت قطع خط الرجعة على إيطاليا التى طالبت بتنفيذ ادعاءاتها فى منطقة الأناضول بما فيها أزمير وجزر الدوديكانيز وجهات أخرى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكانت هذه الادعاءات موضوع اتفاقات عقدت فى أثناء الحرب العالمية الأولى : منها اتفاق لندن السرى المعقود بين دول الوفاق الثلاثى وإيطاليا فى ٢٦ من أبريل — نيسان — ١٩١٥[1].وكان إبرام هذا الاتفاق هو ثمن خروج إيطاليا على حليفتيها دولتى الوسط وإعلانها الحرب على النمسا فى ٢٣ من مايو — آيار — سنة ١٩١٥[1] ، ثم الاتفاقية الثلاثية المعروفة باسم سان جان دى مورين Saint-Jean de Maurienne المبرمة بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية (١٩ من أبريل — نيسان — ٢٦ من سبتمبر — أيلول — ١٩١٧) وقد اجتمع رؤساء الوزارات البريطانية والفرنسية والإيطالية فى عربة قطار وقف بهم فى محطة سان جان دى موربين ، وهى قرية جبلية صغيرة على الحدود الفرنسية الإيطالية[2] . وقد اقترف اليونانيون فى نزولهم أزمير الكثير من ضروب

---

(١) تجد نص هذه الاتفاقية فى :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Misc. No. 7. Cmd, 671.

تحت عنوان :

Secret (London) Agreement : The Emtente
Powers and Italy. 26 April, 1915.

(٢) تجد نص هذه الاتفاقية فى :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. II, pp 23—25

تحت عنوان :

Tripartite Saint-Jean de Maurienne
Agreement for the Partition of the
Ottoman Empire : Britain, France, and
Italy. (19 April–26 September 1917).

الوحشية وجرائم الحرب . وقد ألهب الاحتلال اليونانى لأزمير مشاعر الأتراك ، واعتبروه إذلالا لهم ، وأزكى فى نفوسهم تصميماً على طردهم ، إذ كانوا يحتقرون اليونانيين على أساس أنهم شعب خضع للأتراك أعصراً وأدهاراً وأحقاباً . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز لو أن الإيطاليين قد احتلوا أزمير ما أثار احتلالهم هذه الموجدة العارمة التى أثارها الاحتلال اليونانى فى نفوس الأتراك[1] . ويضيف إلى ذلك قوله إن منظر الراية اليونانية المزدواة وهى تخفق فوق أصقاع من الأناضول كان يعد من جانب كل تركى وطنى إهانة لا تغتفر .وكان مما أثار سخط الأتراك التصريحات المكرورة التى كان يعلنها اليونانيون من وقت لآخر ، وهى أن احتلالهم أزمير ومنطقتها ليس احتلالا مؤقتاً ينحسر بعد فترة ، إنما هو عملية ضم نهائى ، وسيتسع مداه ليشمل الأناضول لتكوين إمبراطورية هيلينية كبرى ، برية وبحرية ، وتمتد فى آسيا وفى أوروبا ، وتشمل السواحل الشرقية والغربية لبحر إيجه فضلا عن منطقة المضايق . وكان اليونانيون يعتمدون فى تحقيق هذه المشروعات على تأييد بريطانيا . وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ضالعاً معهم ، ويشعر بكراهية شديدة نحو الأتراك ، ويتمنى لو استطاع اليونانيون سحقهم نهائياً وأن يتموا العمل الذى قام به الجنرال مود Maude فى العراق والجنرال اللنبى Allenbey فى فلسطين عند مانجحا فى طرد الأتراك وإنهاء الحكم التركى فى هذين الإقليمين . ولذلك كانت اليونان الدولة البلقانية المدللة لدى بريطانيا وقفت إلى جانبها تؤيد الوجود العسكرى اليونانى فى منطقة أزمـــير . كانت اليونان قد ظفرت من بلغاريا — بمقتضى معاهدة نويـــلى Nelly (٢٧ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩١٩) — بإقليم تراقيا الغربية ، وظفرت من تركيا — بمقتضى معاهدة سيفر (١٠ من أغسطس — آب — سنة ١٩٢٠) بإقليم تراقيا الشرقية ، فأصبحت اليونان على مسافة بضعة أميال من إستانبول ، وراودتها أعذب الآمال فى الاستيلاء على العاصمة التركية العتيدة . وكانت تركيا قد تخلت لليونان بمقتضى معاهدة

---

(١) Fisher H.A.L. ; A History of Europe ; op. cit., p. 1179.

سيفر أيضاً عن كل حقوقها على إمبروس Imbros وهى جزيرة فى بحر إيجه على مقربة من الدردنيل ، وعلى تنيدوس Tenedos وهى جزيرة فى نفس المنطقة على ساحل الأناضول. وكان الوجود العسكرى اليونانى فى هاتين الجزيرتين يمثل خطراً مزدوجاً ، فهو ، من ناحية ، يدعم مركز اليونان فى لجنة المضايق وفى مباشرة سلطاتها على تنظيم حرية مرور السفن فى الدردنيل والبوسفور ، وبالتالى التحكم فى الإشراف على حركة الملاحة فى البحر الاسود باعتبار اليونان إحدى الدولتين اللتين تستمد منها لجنة المضايق شرعيتها ووجودها واختصاصاتها، ومن ناحيـة أخرى فإن وجود اليونان فى تلكما الجزيرتين وعلى مقربة من أزمير مما يدعم السيطرة العسكرية لليونان على الساحل الغربى للأناضول . ويلاحظ أنه كان لليونانيين نشاط واسع فى الأناضول حيث انتشروا فى هضابها ومدن ساحلها الغربى المطل على بحر إيجه وكانوا يبلغون فى تقدير البعض مليوناً،وفى تقدير البعض الآخر نصف مليون . وكان من بينهم التجار وزراع التبغ والكروم وصناع الطنافس إلى جانب رجال المال وأصحاب المصارف المالية .

وكان فنزيلوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، والزعيم السياسى الكبير ، والكريتى المولد ، قد وضع مشروع إنشاء إمبراطورية شاسعة الأرجاء على أنقاض الدولة العثمانية التى تداعت ، وتحل الإمبراطورية الهيلينية المرتجاة محل هذه الدولة فى الإشراف على مرور السفن فى منطقة المضايق وتكون لها الكلمة المسموعة فى تنظيم حركة وحرية الملاحة فى البحر الأسود . وأخذ فنزيلوس على عاتقه تنفيذ معاهدة سيفر بمساعدة قرض من بريطانيا .

فالاحتلال اليونانى كان يمثل إحدى المشكلات التى واجهها مصطفى كمال .

وكانت هناك مشكلة الاحتلال الدولى لإستانبول ومنطقة المضايق . وتمثل هذا الاحتلال ، كما سبق أن ذكرنا ، فى قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية . وتنبثق عن هذه المشكلة مشكلة إشراك اليونان مع تركيا كدولتين تستمد لجنة المضايق منهما أساس وجودها ، ثم الإشراف الدولى على تنظيم حرية

لمرور فى المضايق على النحو الذى جاءت به معاهدة سيفر . وكانت هناك مشكلة ثالثة تطل برأسها وتفرض نفسها فرضاً على قيادة الثورة الكمالية ، وهى مشكلة السلطان محمد السادس وأعضاء حكومته فى إستانبول . وكانوا يشكلون فى مجموعهم أداة طيعة لينة فى يد بريطانيا يأتمرون بأوامرها وتستخدمهم أداة لضرب الثورة . وقد تطلبت المشكلة الثالثة يقظة دائمة ودبلوماسية مرنة وقدرة على التحرك السريع لمواجهة أى إجراء يتخذه السلطان وحكومته لوأد الثورة الكمالية وهى فى مهادها الأولى أو العصف بها حين يكتمل نموها ويشتد ساعدها .

مؤتمر أرضروم :

كانت المجموعات الأولى للمقاومة الشعبية قد تكونت فى ديسمبر — كانون أول — ١٩١٨ عقب التوقيع على هدنة مدروس . وأطلق عليها جمعيات الدفاع عن الحقوق — مدافعى حقوق — وقد ظهرت طلائع هذه الجمعيات فى تراقيا وأزمير وبعض جهات فى الأناضول . ووجهت نشاطها ضد اليونانيين بوجه خاص . ثم تكونت فى مدينة أرضروم[1] فى ٣ من مارس — آذار — سنة ١٩١٩ جمعية الدفاع عن حقوق شرقى الأناضول . ودعت إلى عقد مؤتمر اجتمع فى ذات المدينة فى ٢٣ من يوليو — تموز — سنة ١٩١٩ وحضره مندوبون عن الأقاليم فى شرقى الأناضول ، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر فى اليوم الأول الذى اجتمع فيه ، وقد استمرت اجتماعاته حتى ١٧ من أغسطس — آب — سنة ١٩١٩ ، وكان أهم إنجاز قام به المؤتمر هو وضع مشروع التصريح الذى عرف فيما بعد باسم الميثاق الوطنى أو ملى ميثاق .

---

(١) يطلق على هذه المدينة أيضاً اسم أرزن الروم — بفتح الألف وسكون الراء وفتح الزاى — وهى قصبة ولاية أرمينية التركية . وكانت هذه المدينة من أهم الحصون الواقعة على الحدود الشرقية للدولة . وكان الفرس ينتزعون هذه المدينة من الأتراك ، ولكن كان الأخيرون ينجحون دائماً فى استعادتها . وتشغل المدينة حيزاً كبيراً فى تاريخ الدولة العثمانية .

مؤتمر سيواس :

وفى ٤ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ عقد المؤتمر الثانى فى مدينة سيواس[١] وكان يفوق مؤتمر أرضروم من حيث الأهمية ، وحضره مندوبون من جميع أنحاء البلاد . وانتخب مرة أخرى مصطفى كمال رئيساً له ، وأيد المؤتمر قرارات مؤتمر أرضروم ، وكان من بينها المحافظة على سلامة أراضى الدولة ، والاستمساك باستقلال الشعب ، ومباشرة العمل المسلح عند الضرورة ضد الدول التى تحتل البلاد . وكان اهتمام المؤتمر موجهاً بوجه خاص إلى إتاحة جو إعلامى مناسب لإذاعة قرارات مؤتمر أرضروم وكسب التأييد الشعبى لها فى جميع أنحاء تركيا . وفى هذا المؤتمر تغير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول إلى اسم أكثر شمولا هو « جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروملى » « أناضولو وروميلى مدافعى حقوق جمعيتى » مع تشكيل لجنة دائمة من بعض أعضاء المؤتمر يرأسها مصطفى كمال . وأصبحت هذه اللجنة هى رائدة الكفاح الوطنى وأداته .

إثارة الأكراد على الكماليين :

وقد ردت حكومة إستانبول بتشجيع من بريطانيا على نشاط الكماليين ، فأثارت قبائل الأكراد الضاربة فى شرقى الأناضول ضد حركة مصطفى كمال . ولم تسفر هذه المحاولة عن نتائج ذات بال ، بل جاءت بنتيجة عكسية ، إذ كانت من العوامل التى أدت إلى سرعة قطع العلاقات بين حكومة إستانبول والكماليين . ويلاحظ أن مصطفى كمال ظل حريصاً معظم الوقت على ألا يبدو بمظهر الثائر على الحكومة الشرعية فى إستانبول . ولما أصدر السلطان « إرادة » بعزله من منصبه كمفتش عام للجيش الثالث - وكان مقر قيادته فى سامسون على ساحل البحر الأسود شمالى الأناضول - امتثل لهذه « الإرادة » وكف عن لبس الزى العسكرى وارتدى الملابس المدنية .

---

(٢) سيواس مدينة تقع فى شمالى الأناضول .

برلمان إستانبول يتعاطف مع الكماليين :

اكتسبت حركة مصطفى كمال أنصاراً لها فى طول البلاد وعرضها ؛ وتحمس لها الكثيرون من سكان إستانبول مقر حكومة السلطان . ولما أجريت انتخابات جديدة فى ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩١٩ للبرلمان العثمانى الذى اجتمع فى إستانبول فى ١٢ من يناير — كانون ثان — سنة ١٩٢٠ فاز بالأغلبية فيه أنصار مصطفى كمال والمتعاطفون مع حركته . ولم يلبث أن أقر البرلمان الجديد — بعد مضى أسبوعين — صياغة الميثاق الوطنى فى ضوء قرارات مؤتمرى أرضروم وسيواس(١) . وقد جاء فى صياغة هذا الميثاق موافقة البرلمان على أن تنسلخ من جسم الدولة العثمانية الولايات غير التركية التى كانت خاضعة لها . ولكن تمسك المجلس فى مقابل هذه «التضحيات» بعدة مطالب منها : الحفاظ على الأناضول متحرراً من كل نفوذ أجنبى بصفة هذا الإقليم هو الموطن الأصلى للأتراك العثمانيين ، وعلى إقليم تراقيا الشرقية ، وعلى بقاء إستانبول فى نطاق الدولة التركية تأسيساً على أن هذه المدينة هى « مركز خلافة الإسلام وعاصمة السلطنة ، ومقر الحكومة » وأن يكون بحر مرمرة بمنأى عن كل خطر أجنبى . ومعنى هذه الفقرة تحرير منطقة المضايق من الوجود العسكرى لدول المعسكر الغربى . وجاء فى الميثاق أيضاً أن تركيا تقبل فتح البوسفور والدردنيل لمرور التجارة العالمية مع ضرورة إسهامها فى النظام الذى يوضع لمرور التجارة العالمية(٢) . ويلاحظ أنه لم يرد نص فى الميثاق لمرور السفن الحربية سواء للدول

---

(١) لم تطل الحياة بهذا البرلمان ، فقد عقد آخر جلسة له فى ١٨ من مارس ـ آذار — سنة ١٩٢٠ حيث أصدر قراراً بالإجماع بالاحتجاج على القبض على بعض أعضائه ، ثم قرر تأجيل اجتماعاته إلى أجل غير مسمى .

ويبدو أن السلطان ساءه إقرار البرلمان صياغة الميثاق الوطنى ، فأصدر فى ١١ من أبريل — نيسان — ١٩٢٠ قراراً بحل البرلمان وقد وضع هذا القرار نهاية للحياة النيابية فى إستانبول

(٢) Toynbee Arnold J. ; The Western Question in Greece and Turkey. London., 1922, pp. 209—210.

الصديقة أو الدول العدوة أو فى وقت السلم أو زمن الحرب . وقال الميثاق إن هذه المبادىء هى التى تكفل قيام سلام عادل ودائم .

تعزيز الاحتلال الأجنبي لإستانبول سنة ١٩٢٠ :

نشط أنصار مصطفى كمال فى إستانبول وساعدوا الحركة الثورية قولا وعملا ، فأخذوا يهاجمون مستودعات الأسلحة والذخائر التابعة لقوات بريطانيا وحليفاتها ، ويرسلون ما يستولون عليه إلى الأناضول كغنائم حرب . واتخذت بريطانيا وحليفاتها إجراءات مضادة وسريعة . حامت شكوكها حول على رضا باشا الصدر الأعظم واتهمته بأنه ضالع مع الكماليين ، وطلبت سلطات الاحتلال من السلطان إقالته من منصبه . والحق أن على رضا باشا لم يكن مؤيداً للكماليين قلباً وقالباً ، ولكنه كان متعاطفاً معهم . واستجاب السلطان لطلب سلطات الاحتلال بصورة أو أخرى. فاستقال الصدر الأعظم فى ٣ من مارس — آذار — سنة ١٩٢٠ وكان خروجه من رياسة الوزارة أقرب إلى الإقالة منها إلى الاستقالة ، وعين مكانه صالح باشا وزير البحرية فى ٨ من ذات الشهر . وقرر المجلس الأعلى للقوات المتحالفة فى ذات اليوم تعزيز قوات الاحتلال فى إستانبول . ودخلت فى ١٦ من مارس — آذار — قوات بريطانية رابطت فى شتى أحياء العاصمة إلى جانب القوات السابقة . وأمر الجنرال ولسن Wilson القائد العام للقوات المتحالفة بالقبض على المشتبه فى أنهم من أنصار الكماليين ، ثم أمر بنفيهم إلى مالطة . وبلغ عددهم ١٥٠ كان من بينهم عدد من النواب . ولم يطلق سراحهم إلا فى سنة ١٩٢١ فى مقابل الإفراج عن ضباط بريطانيين اختطفهم الكماليون فى الأناضول واحتفظوا بهم كرهائن حتى تفرج الحكومة البريطانية عن الوطنيين المعتقلين فى مالطة .

المجلس الوطنى الكبير :

دعا مصطفى كمال فى ١٩ من مارس — آذار — سنة ١٩٢٠ ، وهو اليوم التالى لتأجيل اجتماعات برلمان إستانبول ، إلى إجراء انتخابات تجرى فى مدة وجيزة لعقد مؤتمر طوارىء يجتمع فى أنقرة حيث كانت اللجنة الدائمة قد

اتخذتها مقراً لها منذ ٢٧ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩ . وقد قدر لهذه المدينة الجبلية الصغيرة فى الأناضول أن تصبح مقراً لحركة المقاومة الوطنية ثم تغدو عاصمة لجمهورية تركيا . واجتمع فى ٢٣ من إبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ فى أنقرة ماعرف باسم المجلس الوطنى الكبير . وكان مؤلفاً من ٢٧٠ عضواً أضيف إليهم ثمانون كانوا قد غادروا إستانبول فى يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ وحاول أعضاء المجلس إلى ذلك الوقت الوقت الإبقاء على علاقات ودية مع السلطان وألا يتخذوا مظهر الثوار . وفى ضوء هذه المحاولة أعلن الأعضاء ولاءهم لمحمد وحيد الدين بصفته سلطاناً للإمبراطورية وخليفة للإسلام وأعربوا عن رغبتهم فى « إنقاذه من أيدى الأعداء » .

الصراع السافر بين السلطان والكماليين :

جاءت هذه المحاولة بنتيجة عكسية ، إذ ظن السلطان أنها دليل الضعف ، فخاض صراعاً عنيفاً سافراً ضد الكماليين ، كان من مظاهر هذا الصراع :

(ا) عين السلطان فى ٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ داماد(١) فريد باشا صدراً أعظم . وكان معروفاً بعدائه الشديد للكماليين .

(ب) استصدر السلطان من شيخ الإسلام - مفتى إستانبول سابقاً - واسمه درى زاده عبد الله أفندى - فتوى تبيح قتل العصاة بناء على أوامر الخليفة . ويعتبر درى زاده عبـــد الله أفندى قتلهم فرض عين على كل مسلم بالغ قادر .

(ج) أصدر الصدر الأعظم إعلاناً دمغ فيه بالبطلان الانتخابات التى دعا إليها مصطفى كمال ، واتهم الأعضاء بأنهم منافقون مخادعون ، وأنهم لا يمثلون الشعب التركى .

(د) أنشأت الحكومة فى ١٧ من أبريل - نيسان - قوات عسكرية أطلقت عليها قوات نظامية - قوة انضباطية - لمحاربة الكماليين .

---

(١) كلمة تركية معناها صهر

(هـ) صدرت في ١١ من مايو — آيار — أحكام غيابية من محاكم عسكرية في إستانبول بإعدام مصطفى كمال ورفاقه .

وهكذا استخدم السلطان وأعضاء حكومته جميع ما في جعبتهم من أسلحة دينية وعسكرية وقضائية وسياسية للقضاء على القوة الجديدة التي ظهرت ونمت سريعاً في الأناضول .

وقد رد الكماليون على السلطان وحكومته رداً عملياً بنفس الأسلحة وكان من بينها :

(ا) في ليلة ٣ — ٤ مايو — آيار — سنة ١٩٢٠ عين المجلس الوطني الكبير مجلس وزراء في أنقرة .

(ب) في ٥ من مايو — آيار — أصدر مفتي أنقرة واسمه بوركشي زاده محمد رفعت أفندي فتوى وقع عليها ١٥٢ مفتياً في الأناضول جاء فيها أن الفتوى الصادرة من شيخ الإسلام فتوى باطلة تأسيساً على أنها صدرت تحت الضغط الأجنبي . ودعت الفتوى المسلمين « لتحرير خليفتهم من الأسر » .

(ج) أعلن المجلس الوطني الكبير أن داماد فريد باشا خائن[1].

ويلاحظ أن قرارات الكماليين جاءت ماسة بثلاث شخصيات كانت أكبر الشخصيات على الإطلاق التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية عبر تاريخها الطويل ، وكانت محل التبجيل العميق من الجماهير التركية ورعايا الدولة المسلمين ، ونعني بهذه الشخصيات : السلطان ، وشيخ الإسلام ، والصدر الأعظم . ولذلك لم يكن استقبال الشعب لهذه القرارات فاتراً فحسب ، بل قامت مظاهرات احتجاجاً عليها . وكانت حكومة إستانبول تشجع هذه المظاهرات .

معاهدة سيفر تخدم الكماليين في وقت عصيب :

اكفهر الجو السياسي أمام الكماليين ، ولكنها كانت أزمة عابرة ، وبدأ الموقف يتحول لصالحهم . كان الوفد التركي الذي يمثل حكومة السلطان لدى

(١) Lewis Bernard ; op. cit., p. 252

مؤتمر الصلح قد وقع فى ١٠ من أغسطس — آب — سنة ١٩٢٠ على معاهدة سيفر. وقد أثار هذا الحادث موجه عارمة من السخط على المعاهدة وعلى الموقعين عليها. ونظرت الجماهير إلى السلطان وحكومته على أنهم رمز للهزيمة والتفريط فى حقوق البلاد. وسمت مكانة الكماليين. وكان نجاحهم فى محاربة اليونانيين قد ربط بين الكماليين والقضية الوطنية، وجعل معارضة الحركة الكمالية — بدلا من تأييدها — بمثابة خيانة للوطن.

حكومتان فى تركيا :

ونجم عن ثورة مصطفى كمال أن وجدت فى تركيا حكومتان فى وقت واحد : حكومة فى إستانبول لا حول لها ولا قوة، يرأسها السلطان محمد السادس وهو حاكم شرعى[١] de jure يستمد وجوده من حق توارث العرش العثمانى، وحكومة فى أنقرة ذات سلطات واسعة متعددة يرأسها مصطفى كمال وهو حاكم فعلى[٢] de facto أى حاكم يستند فى ممارسة سلطاته إلى الأمر

---

(١) مصطلح قانونى معناه يستند إلى القانون والحق Le droit

(٢) مصطلح قانونى معناه يستند إلى الأمر الواقع Le fait

وفى العلاقات الدولية يستخدم هذان المصطلحان عند التفرقة بين نوعين من اعتراف الدول بدولة جديدة ناشئة أو بحكومة جديدة قامت بانقلاب فى دولة قديمة قائمة وأدى إلى قيام نظام جديد nouveau régime للحكم فيها، فيقال الاعتراف القانونى de jure أو Reconnaissance de droit وهو الاعتراف الصريح المباشر، والاعتراف بالواقع de facto أو Reconnaissance de fait ويكون هذا الاعتراف عن طريق إنشاء علاقات مع الدولة الجديدة دون التعرض بصفة رسمية صريحة لموضوع وجودها القانونى. وهذا ما حدث فعلا لحكومة أنقرة فقد اعترف بها بعض الدول مثل الاتحاد السوفيتى وفرنسا وفارس وأفغانستان فى الوقت التى كانت لاتزال حكومة إستانبول قائمة برياسة السلطان محمد السادس ومعه أجهزة الحكم مثل الصدر الأعظم ومفتى إستانبول والوزراء. ومرد التفرقة فى الاعتراف إلى حيطة الدبلوماسيين حتى لا يؤخذ عليهم التسرع فى الاعتراف نهائياً بدولة ناشئة إذا كانت ظروف قيامها تتطلب التريث فى الاعتراف بها من ناحية، وحتى لا تتأخر ممارستها لنشاطها الخارجى لحين استقرار وضعها تماماً من ناحية أخرى، فتعمد الدول إلى الاعتراف بواقع وجودها أولا حتى يستقر لها الأمر=

الواقع . وكانت توجد إلى سنوات ذات عدد فى التاريخ المعاصر حالة مماثلة للحكومة المزدوجة فى دولة واحدة هى الصين (١).

= فتصدر لها اعترافها القانونى . وللتفرقة بين الاعتراف بالواقع والاعتراف القانونى وزن فى المجال الدبلوماسى ، ولكن لا أثر لهذه التفرقة فى المحيط القانونى ، فالاعتراف ، سواء كان اعترافاً قانونياً أو اعترافاً بالواقع ، تترتب عليه ذات الآثار بالنسبة للدولة الصادر منها والدولة الصادر إليها . وجدير بالذكر أن فقهاء القانون الدولى العام يفرقون بين الاعتراف بالدولة ، ومحل صدوره ظهور دولة جديدة ، والاعتراف بحكومة جديدة أقامت نظام حكم جديد فى دولة قديمة قائمة ، مع مراعاة هذا المبدأ الأساسى الذى لا يقبل نقاشاً ، وهو أن لكل دولة مطلق الحرية فى أن تتخذ نظام الحكم الذى يتراءى لها ، دون أن يكون للدول الأخرى سلطان عليها فى هذا الأمر ، وإلا كان ذلك تدخلا فى شئونها الخاصة . ويكفى من أجل الاعتراف بالحكومة الجديدة أن يثبت أنها تمارس شئون الحكم فعلا داخل الدولة ، وأن فى استطاعتها وفى نيتها الوفاء بالتزاماتها الدولية .

دكتور على صادق أبوهيف : القانون الدولى العام . الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٩ ، ص ص ١٥٩ — ١٧٢ .

(١) بدأت المشكلة فى سنة ١٩٤٩ على أثر انتصار قوات ماوتسى تونج الشيوعية على قوات حكومة تشانج كاى شيك الوطنية ، واستيلاء الأولى على مقاليد الحكم فى الصين وتطبيق النظام الاشتراكى فى أرجاء البلاد ، والتجاء الثانية إلى جزيرة فرموزا وإقامة الحكم فيها باسم الصين الوطنية. وبذلك أصبح فى الصين حكومتان فى وقت واحد : حكومة جديدة يرأسها ماوتسى تونج هى حكومة الصين الشعبية وتسيطر على كل أقاليم الصين فى آسيا بمساحاتها الشاسعة وما يزيد على ٧٥٠ مليون نسمة . والحكومة القديمة برياسة تشانج كاى شيك ، واقتصر سلطانها على جزيرة فرموزا والجزر الصغيرة المجاورة لها ، وتعدادها لا يزيد كثيراً على ستة ملايين نسمة . واعترفت بعض الدول بحكومة بكين ، بينما رفضت الدول الأخرى الاعتراف بها . وتجمد الوضع على هذا النحو زهاء ٢٢ سنة . وزاده حدة مشكلة عضوية الصين فى الأمم المتحدة ، لأن الصين إحدى الدول الخمس التى تتمتع بالعضوية الدائمة فى مجلس الأمن . وكان مقتضى المنطق القانونى لهذا التطور أن تحل الصين الشعبية محل الصين الوطنية فى عضوية الأمم المتحدة ، وما يترتب على ذلك من حق العضوية الدائمة فى مجلس الأمن ، لأن الفقرة الأولى من المادة ٢٣ من الميثاق عند ما أشارت إلى الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن ذكرت الصين مجردة من كل وصف . ويلاحظ أن منظمة الأمم المتحدة قد نشأت قبل قيام الثورة الاشتراكية فى الصين . وقد وقفت دول الغرب وتكتلت لمنع الصين الشعبية من عضوية الأمم المتحدة . وانتهى هذا الصراع فى الدورة السادسة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة، إذ وافقت بجلسة ٢٥ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٧١ على إحلال الصين الشعبية محل الصين الوطنية . =

من أسباب نجاح الثورة الكمالية :

كانت محاربة اليونانيين هى المشكلة الأولى التى فرضت نفسها على الكماليين ، واحتلت مكان الصدارة فى خططهم اعتقاداً منهم أن إجلاء اليونانيين عن أزمير وطردهم من الأناضول هما مفتاح جميع المشكلات التى سوف تتوارى أو تخف حدتها تلقائياً ، الأمر الذى يؤدى فى نهاية الكفاح إلى إلغاء معاهدة سيفر .

كان اليونانيون عند نزولهم أزمير سنة ١٩١٩ أكثر عدداً وعدة، وأنزلوا بالأتراك هزائم متتالية واستولوا على بروسة وتوغلوا فى الأناضول . ولكن بدأ الموقف مع بداية سنة ١٩٢١ يتطور تطوراً سريعاً لصالح الكماليين . وكان هناك عاملان حاسمان فى هذا التطور : أولهما شجاعة الأتراك كشعب محارب من الطراز الأول عقد العزم على إنزال الراية اليونانية المزدراة فى عينه والتى كانت تخفق عالية فوق أزمير وبقاع أخرى فى الأناضول وتراقية وغيرها . وثانيهما تصدع الجبهة الداخلية فى اليونان ، فقد انتزع الموت فجأة إسكندر ملك اليونان الشاب على أثر عضة قرد أليف . وفى أعقاب هذا الحادث جرت انتخابات عامة أسفرت عن تنحية فنزيلوس عن رياسة الوزارة فى ١٤ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩٢٠ ومغادرته البلاد (١) . وتعرض

= انظر تفصيلات عن هذا الموضوع فى :

دكتور عبد العزيز محمد سرحان : التنظيم الدولى . الناشر مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ص ٣٥٢ — ٣٥٤ .

ومما هو جدير بالذكر أن الزعيم ماوتسى تونج وافاه الأجل فى الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة من صباح الخميس ٩ من شهر سبتمبر — أيلول — عام ١٩٧٦ بتوقيت بكين (فى الساعة الثامنه والدقيقة العاشرة من مساء الأربعاء ٨ من شهر سبتمبر — أيلول — بتوقيت القاهرة) عن ٨٢ عاما ، وكان آخر عمالقة العصر الذى قاد مسيرة الصين الطويلة من عالم التخلف والفقر لتصبح واحدة من قوى العالم الأساسية فى التاريخ المعاصر .

(١) أنظر أسباب صدوف الشعب اليونانى عن فنزيلوس فى

Miller W.: op. cit., p. 543.

العرش اليونانى لهزات عنيفة فى تلك الفترة. عين أحد كبار ضباط البحرية اليونانية وصياً على العرش(١) ثم حدث، كانه بعد شهر وبعض شهور الملكة الوالدة أولجا (٢) Olga ، ثم أجرى استفتاء عام جاءت نتيجته لمصلحة قسطنطين الملك الأسبق، وكان قد أقصى عن العرش سنة ١٩١٧ لميوله الصارخة تجاه ألمانيا ، فعاد إلى العرش فى ٥ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩٢٠ ومعه حاشيته الألمانية، وامتنعت دول المعسكر الغربى فترة طويلة عن الاعتراف به. والحق أن إقصاء ڤنزيلوس عن الحكم قد حرم اليونان من عطف بريطانيا وبعض قطاعات الرأى العام بها ، كما ضيع عليها فرصة الاستيلاء على الأناضول أو نصفه الغربى على الأقل نظراً لما كان يتمتع به هذا الزعيم السياسى من تقدير عميق من رجال السياسة فى أوروبا للخدمات الجليلة التى أسداها للمعسكر الغربى، وما كان يتحلى به من عقلية رحيبة الآفاق ودهاء وبعد نظر وقيادة حكيمة .

كان الملك قسطنطين مغامراً متهوراً ، بينما كان ڤنزيلوس حذراً يتجنب التوغل داخل الأناضول بعيداً عن الساحل لمهاجمة الكماليين . وقد صمم الملك على أن يزحف على أنقرة وينطلق فى الهضاب الصخرية الجرداء المحيطة بهذه المدينة أملا فى فرض شروطه على الكماليين من مرتفعات الأناضول . وكان الدافع له على هذه الخطة الحربية حرصه على عرشه وتحقيق مصلحة أسرته . وكان يأمل فى أن يجد من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية عوناً مادياً وتأييداً أدبياً يكفلان له النجاح . وتوقع الخبراء العسكريون فى أوروبا

---

(١) كان هذا الضابط البحرى هو الأدميرال كونتوريوتس Admiral Kountouriotes وقد ظل وصياً على العرش فى الفترة من ٢ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢٠ حتى ١٦ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩٢٠ ، ثم عين وصياً على العرش مرة أخرى فى الفترة من ٢٠ ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩٢٣ حتى ٢٥ من مارس — آزار — سنة ١٩٢٤ تاريخ إعلان قيام الجمهورية الهيلينية ، وانتخب رئيساً للجمهورية فى ١٤ من أبريل — نيسان — سنة ١٩٢٤ وأعيد انتخابه فى ٢٤ من أغسطس — آب — سنة ١٩٢٦ .

(٢) ظلت الملكة الوالدة وصية على العرش فى الفترة من ١٧ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩٢٠ حتى ٤ من ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩٢٠ .

وقتذاك فشله فى الوصول إلى مشارف أنقره . وكان من تصرفاته التى اتسمت بالحماقة وسجلت عليه أنه طرد من الخدمة عدداً لا يستهان به من ضباط الجيش بحجة أنهم من أنصار فنزيلوس مما أدى إلى حرمان الجيش من كفايات عالية فى وقت عصيب كان يتطلب حشد جميع الجهود والارتفاع بالمستوى القتالى ليستطيع الجيش الصمود أمام الكماليين .

الانتصارات الأولى للثورة على اليونانيين :

أتاح هذا التصدع فى الجبهة الداخلية اليونانية فرصة مواتية أمام الكماليين لإنزال ضربات موجعة باليونانيين . ففى ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢١ تصدت قوة تركية بقيادة عصمت لليونانيين فى واد قريب من إينونو . ودارت معركة استمرت يومى ٣١ مارس - آذار - وأول أبريل - نيسان - وردت اليونانيين على أعقابهم خاسرين . ولقى عصمت تقديراً عميقاً . أطلق عليه عصمت إينونو تمجيداً لبطولته فى إيقاع الهزيمة باليونانيين ، كما رقى إلى رتبة عميد . ولم يلبث أن قام اليونانيون بزحف جديد بدأ فى يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ والتقوا بالكماليين عند نهر سقارية حيث نشبت معركة كبرى . وكان مصطفى كمال يقود القوات التركية ، وأحرزت إنتصاراً رائعاً وانسحب اليونانيون مرة أخرى فى اتجاه الغرب. وفى غمرة الابتهاج بهذا الانتصار أصدر المجلس الوطنى الكبير قراراً بمنح مصطفى كمال لقب « غازى » ومعناه فى اللغة التركية « الظافر فى حرب مقدسة » . وكان لانتصار الكماليين فى سقارية أصداء بعيدة : اعترف بهم دولياً كقوة عسكرية وسياسية لها وزنها فى تركيا ، بينما اعترف البعض بهم كحكومة قائمة على أساس من الأمر الواقع de facto فى تركيا .

اليونانيون يسعون لانتصار رخيص :

وقد سعى اليونانيون وسط هذه الهزائم التى نزلت بهم إلى إحراز نصر رخيص . فتقدمت الوزارة اليونانية الائتلافية بمذكرة فى يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٢ إلى بريطانيا وحليفاتها طالبت فيها بأن تسمح هذه الدول الحليفة

للقوات اليونانية باحتلال إستانبول . وجاء فى المذكرة أن احتلالها والاستيلاء عليها هو الذى يؤدى - فى نظر الوزارة اليونانية - إلى استتباب السلام فى المنطقة . ومن المعروف - كما ذكرنا - أن القوات التابعة لبريطانيا وحليفاتها كانت تحتل إستانبول.ومعنى المذكرة اليونانية أن تتخلى القوات المتحالفة عن مواقعها وتغادر العاصمة التركية لتحتلها القوات اليونانية دون أن تطلق طلقة رصاص واحدة . وقد رفضت المذكرة جميع الدول عدا بريطانيا التى تأرجحت فى موقفها . وهددت تلك الدول بأنها سوف تستخدم القوة إذا حاولت اليونان تنفيذ مشروعها . وكان مرد هذا الرفض إلى أن دول المعسكر الغربى كانت تعلم علماً يقينياً أن الاحتلال اليونانى لإستانبول سيؤدى إلى تصعيد الموقف فى المنطقة تصعيداً خطيراً . وإذا كان الكماليون قد نظروا إلى احتلال اليونانيين لأزمير على أنه إهانة لاتطاق، فإنهم سينظرون إلى احتلال اليونانيين لإستانبول عاصمة الإمبراطورية على أنه كارثة وطنية تتضاءل أمامها جميع الكوارث . وسيحملون السلاح فى وجه اليونانيين فى إستانبول الأمر الذى يؤدى إلى إشعال حرب فى العاصمة ومنطقتها مما يعرض السفن فى عبورها البوسفور لشتى الأخطار .

الكماليون يتفقون مع الروس على مستقبل البحر الأسود والمضايق :

وكما كانت سنة ١٩٢١ هى سنة الانتصارات العسكرية التى حققها الكماليون ، فقد كانت أيضا سنة انتصارات دبلوماسية حققوها فى المجالات الدولية . فقد رأوا دعماً للحركة الكمالية إنشاء علاقات صداقة مع عدد من الدول . وسرعان ما حدث لقاء سياسى ودبلوماسى مع حكومة موسكو . استغلت الحكومة الأخيرة الصعوبات التى كانت تواجهها الحركة الكمالية ، إذ كانت بريطانيا تؤيد قلباً وقالباً اليونانيين واحتلالهم أزمير ، وتساند استمرار الاحتلال الفرنسى والإيطالى لمناطق هامة فى الأناضول ، ومن ثم سعى النظام السياسى الجديد فى الروسيا ليكتسب تأييداً شعبياً واسعاً ضد بريطانيا وحليفاتها التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، أملاً فى احتضان الشعوب المقهورة ، والتظاهر بمساعدتها ضد قاهريها من الدول

الأوروبية . عملت الحكومة الاشتراكية فى موسكو على إنشاء علاقات دبلوماسية مع أنقرة منذ ٢٤ من أغسطس — آب — سنة ١٩٢٠ . وقد وصل إلى موسكو فى ٨ من نوفمبر — تشرين ثان — أول مبعوث دبلوماسى تركى يمثل الحركة الكمالية ليشغل منصبه . وتوصلت الحكومتان إلى عقد معاهدة فى موسكو فى ١٦ من مارس — آذار — سنة ١٩٢١ أطلق عليها معاهدة الصداقة بين تركيا والروسيا . وأطلق على تركيا فى هذه المعاهدة اسم حكومة المجلس الوطنى الكبير فى تركيا ، كما أطلق على الروسيا اسم الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية (١) R. S. F. S. R. .

وقد جاء فى مقدمة المعاهدة أو الديباجة Le Préambule — وفقاً للمصطلح القانونى — أن هاتين الحكومتين تشتركان فى دعم مبادىء حرية الشعوب وفى تأييد حق كل أمة فى تقرير مصيرها ، وتضعان فى اعتبارهما الكفاح المشترك الذى تخوضه كل منهما ضد الاستعمار ، وتدركان أن الصعاب التى تواجهها إحدى الحكومتين تنعكس على الحكومة الأخرى مما يجعل مركزها أكثر سوءاً . وجاء أيضا فى مقدمة المعاهدة أن تلكما الحكومتين تحدوهما رغبة فى إنشاء علاقات صداقة دائمة تقوم على المصالح المشتركة ، وأنهما قررتا عقد اتفاق يؤكد علاقات المودة والصداقة بين البلدين .

اشتملت أحكام المعاهدة Le Dispositif على ست عشرة مادة . وقد جاءت المـــادة الأولى من المعاهـــدة بعدة مبادىء هامة استهدفت دعم مركز الثورة الكمالية فى مواجهة بريطانيا وحليفاتها وفى مواجهة حكومة السلطان فى إستانبول . ومن بين هذه المبادىء رفض حكومة موسكو الاعتراف بمعاهدة سيفر التى فرضت على تركيا فى السنة السابقة (١٠ من أغسطس — آب — عام ١٩٢٠) ، وفى ذات الوقت وفى نفس المادة اعترفت

---

(١) تمثل هذه الحروف ، الاسم الرسمى للروسيا فى ذلك الوقت (سنه ١٩٢١)
Russian Socialist Federal Soviet Republic
ويرمز إلى اسمها حالياً (سنة ١٩٧٧) بالحروف التالية .U.S.S.R أى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتختصر هذه الحروف عادة إلى حرفين هما : .Soviet Union S.U أى الاتحاد السوفيتى .

موسكو بالميثاق الوطني التركي ، وأعادت تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا . نصت هذه المادة على أن الطرفين المتعاقدين قد اتفقا على رفض الاعتراف بأية معاهدة سلام أو أى اتفاق دولى آخر يفرض على الطرف الآخر ضد رغبته . وخلصت من هذا المبدأ العام إلى القول بأن الحكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية توافق على عدم الاعتراف بأى اتفاق دولى يخص تركيا ولم توافق عليه الحكومة الوطنية فى تركيا والتى تتمثل فى ذلك الوقت فى المجلس الوطنى الكبير . ومضت المادة الأولى من المعاهدة تقرر أن تعبير تركيا فى هذه المعاهدة يعنى الأقاليم التى حددها الميثاق الوطنى المؤرخ فى ٢٨ من يناير — كانون ثان — سنة ١٩٢٠ والذى صدر عن مجلس النواب العثمانى فى إستانبول وأبلغ فى ذلك الوقت إلى الصحافة وإلى جميع الحكومات الأجنبية . وأخيراً تناولت المادة الأولى تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا .

ونصت المادة الثانية على أن تتنازل تركيا لجورجيا عن حق السيادة على مدينة وثغر باطوم على البحر الأسود وأن يمارس سكانهما قسطاً وافراً من الحكم الذاتى يضمن لكل طائفة حقوقها الثقافية والدينية،ويسمح لهم بوضع القوانين الزراعية طبقاً لرغبات هؤلاء السكان . ولكن تقرر منح تركيا حق المرور المجانى لجميع الصادرات والواردات التركية فى ثغر باطوم بدون دفع ضرائب أو رسوم جمركية وبدون معوقات أو تأخير ، كما تقرر حق تركيا فى استخدام ثغر باطوم بدون مصاريف خصوصية .

وتعرضت المادة الخامسة لموضوع مرور السفن عبر المضايق والوضع السياسى للبحر الأسود ، فجاءت صياغتها على النحو التالى :

« من أجل ضمان فتح المضايق لتجارة جميع الشعوب،يوافق الطرفان المتعاقدان على أن يعهدا بوضع الصياغة النهائية لاتفاق دولى خاص بالبحر الأسود إلى مؤتمر يتكون من مندوبين يمثلون الدول الساحلية (لهذا البحر) بشرط ألا يكون من طبيعة قرارات هذا المؤتمر المساس بالسيادة الكاملة لتركيا وبسلامة إستانبول عاصمتها » .

In order to assure the opening of the Straits to the commerce of all nations, the Contracting Parties agree to entrust the final elaboration of an international agreement concerning the Black Sea to a conference composed of delegates of the littoral States, on condition that the decisions of the abovementioned conference shall not be of such a nature as to diminish the full sovereignty of Turkey or the security of Constantinople, her capital.

ويلاحظ على هذه المادة أنها جاءت مقتضبة وانطوت على مبادىء عامة ، دون أن تتعرض لأية تفصيلات ، فهى تقرر حرية المرور لجميع السفن التجارية فى الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور ، وأغفلت ذكر السفن الحربية سواء السفن التابعة لتركيا أو الروسيا ، وسواء السفن التابعة للدول الأخرى . وكان هذا الإغفال متعمداً . كما سجلت تلك المادة عزم الحكومتين على عقد مؤتمر يمثل تركيا والروسيا وبلغاريا ورومانيا بصفتها دولا تطل على الأسود لتقرير الوضع السياسى لهذا البحر فيما عدا ثغر باطوم على النحو الذى أشارت إليه المادة الثانية كما سبق أن ذكرنا . واحتاطت المادة الخامسة بالنص على عدم المساس بالسيادة الكاملة لتركيا ، وعلى بقاء إستانبول عاصمة لتركيا وعلى المحافظة على سلامتها أى تحريرها وتحرير مياهها الإقليمية من القوات الأجنبية .

وجاء فى المادة السادسة أن الطرفين المتعاقدين يوافقان على أن المعاهدات التى أبرمت إلى ذلك الوقت بين الحكومتين لا تتمشى مع مصالحهما المشتركة . وعلى ذلك فقد اتفقا على اعتبار هذه المعاهدات ملغاة . كما نصت ذات المادة على موافقة حكومة موسكو على إعفاء ذمة الحكومة التركية من جميع ديونها والتزاماتها المالية التى تقررت فى معاهدات سبق أن عقدت بين تركيا والحكومة القيصرية السابقة .

وجاء فى المادة السابعة أن الحكومة الاشتراكية فى موسكو توافق على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا(١) تأسيساً على أن هذا النظام لا يتمشى

(١) كانت معاهدة سيفر قد أعادت هذا النظام إلى تركيا ، على الرغم من أن الحكومة العثمانية كانت قد أرسلت منشوراً إلى الدول الأجنبية مؤرخاً فى ٩ من شهر سبتمبر – أيلول – ١٩١٤ تخطرها بإلغاء هذا النظام اعتباراً من أول أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩١٤ .

مع الممارسة الكاملة لحقوق السيادة ومع التقدم الوطنى فى أى بلد . وقد تناولت المواد من ٨ إلى ١٦ فى تلك المعاهدة مسائل لا تدخل فى نطاق هذه الدراسة[١] .

مزيد من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية :

حققت الحركة الكمالية مزيداً من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية. كانت القوات الإيطالية والفرنسية تحتل مناطق هامة فى جنوبى الأناضول مما يجعل نفوذ تركيا فى شمالى الحوض الشرقى للبحر المتوسط سرابا . مضت قوات الاحتلال الإيطالية والفرنسية توطد مواقعها ولا تبغى الجلاء عنها . وخاض الكماليون حرب استنزاف ضارية.ورأت إيطاليا سحب قواتها من الأناضول،وتم جلاؤها فى ٥ من شهر يوليو — تموز — سنة ١٩٢١ فكانت إيطاليا أول دولة تجلو عن الأناضول . ولكنها احتفظت بجزر الدوديكانيز

أما فرنسا فقد استمرت تحتل مناطق هامة فى جنوبى الأناضول ، وشدد الكماليون ضغطهم على القوات الفرنسية ولجأوا إلى حرب العصابات وأنزلوا خسائر فادحة متعاقبة بالقوات الفرنسية وبخاصة فى كيليكيا Cilicie — وهى منطقة جبلية تقع فى إقليم طوروس ، فى جنوب شرق الأناضول وشمالى سوريا — وعلى الرغم من الهدنة المؤقتة التى عقدت فى ٣٠ من شهر

---

(١) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة فى كل من :

British and Foreign State Papers, Vol. 118, pp 990—996.
Survey of International Affairs, 1920—1923, pp 361—376.

وانظر أيضاً كلا من :

Dennis A.L.P.; Foreign Policies of Soviet Russia, chaps. 9,10.
Fischer L., Soviets in World Affairs, Vol I, Chap. 12.

وانظر كذلك مقالا بعنوان :

Les Relations Russo—Turques depuis l'avenèment du Bolchevisme

فى مجلة

Revue du Monde Musulman, No. 25 (Decembre, 1922) pp. 181—206.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى مدينة قارس فى ١٣ من شهر سبتمبر — أيلول — سنة ١٩٢١ .

مايو — آيار — سنة ١٩٢٠ فقد استمرت العمليات الحربية بين الكماليين والفرنسيين تدور فى عنف بالغ . ورجحت كفة الكماليين ، واضطرت فرنسا إلى إعادة تقدير الموقف الحربى والسياسى فى منطقة الشرق الأدنى كلها ، ومن ثم قررت فى مارس — آذار — سنة ١٩٢١ الاعتراف بالحكومة الكمالية de facto ، ولم تمض ستة أشهر حتى قررت الجلاء عن منطقة كيليكيا كى تتفرغ لتركيز جهودها على سوريا ولبنان . وقد عقد اتفاق accord فى مدينة أنقرة فى ٢٠ من شهر أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢١ عرف باسم اتفاق فرانكلين بويو Henri Franklin - Bouillon وهو المندوب الفرنسى الذى وقع على الاتفاق(١). وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق لم يتعرض لمشكلة مرور السفن التجارية والحربية فى المضايق ولا لتقرير السيادة التركية على منطقة المضايق إلا أنه تناول مسائل بالغة الأهمية . فقد قرر إنهاء حالة الحرب بين الكماليين والفرنسيين، وجلاء القوات الفرنسية كلية عن منطقة كيليكيا ، وأعاد تخطيط الحدود بين تركيا وسوريا على نحو أفضل من الحدود التى قررتها معاهدة سيفر من وجهة المصالح التركية ، واستولى الكماليون على كميات وفيرة من الذخائر والأسلحة كانت فى مستودعات الجيش الفرنسى فى كيليكيا ، واستعادوا الأسرى الذين كانوا فى أيدى الفرنسيين(٢) . واستطاع الكماليون تعزيز قواتهم التى كانت تحارب فرنسا وتوجيهها إلى تصفية الاحتلال اليونانى وطرد اليونانيين كلية من

---

(١) كان المندوب التركى هو يوسف كمال بك وزير خارجية الحكومة الوطنية فى أنقرة .

(٢) تجد النص الرسمى الكامل لهذا الاتفاق فى :

League of Nations. Treaty Series, No 1284, Vol. 54 (1926—27), pp. 178—193.

وانظر أيضاً كلا من :

Temperley H.W.V., History of the Paris Peace Conference, Vol, VI pp. 33—35.

Cumming H.H., Franco British Rivalry in the Post—War Near East. chapter XII.

Vere-Hodge E.R., Torkish Foreign Policy, 1918—1948, pp. 33—37.

وقد أقرت الحكومة الفرنسية هذا الاتفاق ودخل فى دور التنفيذ ابتداء من ٢٨ من شهر أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢١ .

الأناضول . ويعد هذا الاتفاق أول اتفاق يعقد بين الحكومة الكمالية فى أنقرة وبين دولة أوروبية غربية . وقد كشف هذا الاتفاق عن عمق الاختلاف بين السياسة الفرنسية والسياسة البريطانية تجاه المشكلات الخاصة بتصفية ممتلكات الدولة العثمانية فى منطقة الشرق الأدنى .

كان من نتائج المعاهدة التركية الروسية والاتفاق التركى الفرنسى(١) وانسحاب القوات الإيطالية والفرنسية من الأناضول أن تدعم مركز الكماليين سواء فى الداخل تجاه حكومة السلطان ، أو فى الخارج تجاه اليونان وبريطانيا . وحصل الكماليون على كميات وفيرة إضافية من الأسلحة . وكان على اليونانيين أن يواجهوا بمفردهم الموقف الحربى أمام الكماليين دون الاعتماد على مساعدات أجنبية .

الكماليون يحرزون انتصاراً حاسماً على اليونانيين بطردهم من الأناضول :

فى ٢٦ من شهر أغسطس — آب — سنة ١٩٢٢ كان اللقاء الحاسم فى حرب التحرير التى خاضها الكماليون ضد اليونانيين فى الأناضول ، فقد أحرزوا انتصاراً ساحقاً على اليونانيين فى دملبينار Dumlupinar وساقوا اليونانيين أمامهم حتى دخلوا أزمير فى ٩ من شهر سبتمبر — أيلول — سنة ١٩٢٢ وأشعلوا النيران فى جميع الأحياء اليونانية فى المدينة وذبحوا جميع من صادفوهم من الجيش اليونانى .وأنقذت سفن بريطانيا وحليفاتها جموعاً كثيفة العدد من المسيحيين هاموا على وجوههم فراراً من الكماليين . ولم يضع هذا الانتصار الساحق نهاية للحكم اليونانى فى الأناضول فحسب ، بل كان من نتائجه أنه وضع نهاية لمقام اليونانيين فى هذا الإقليم ، لأن مصطفى كمال لم يقنع بطرد أو ذبح جميع الجنود اليونانيين فقط ، بل طرد كل يونانى كان يقطن الأناضول ، خشية أن يقوم بقايا اليونانيين فى الأناضول بتكوين طابور خامس أو تشكيل جيوب يونانية قد تنقلب على الكماليين فى قابل الأيام . وطارت أحلام اليونانيين فى إنشاء دولة لهم فى الأناضول . واشتد سخط

---

(١) نجحت حكومة أنقرة أيضاً فى عقد معاهدات صداقة مع جمهورية القوقاز وفارس وأفغانستان . وكان إبرام هذه المعاهدات دعماً سياسياً وأدبياً كبيراً للحركة الكمالية .

اليونانيين على مليكهم قسطنطين ، واعتبروه المسئول الأول عن هذه الكارثة التي أرجعوها إلى سوء تدبيره واندفاعه في توغله في هضاب الأناضول بعيداً عن الساحل ، واستقروا رأياً على أن « وجوده على العرش قد حرم أصدقاء اليونان الأقوياء من مساعدتها »(١). وفي ذات الشهر أكره على التنازل عن العرش ، وكتب وثيقة التنازل عن العرش بالقلم الرصاص في ٢٧ من شهر سبتمبر — أيلول — سنة ١٩٢٢ وغادر البلاد إلى بالرمو Palerme في جزيرة صقلية. ولم تطل به الحياة فقد وافاه الأجل في ١١ من شهر يناير — كانون ثان — سنة ١٩٢٣ .

أثر تغيير وزاري في بريطانيا على الكماليين :

استعد مصطفى كمال لمواصلة الصراع الحربي في تركيا الأوروبية لطرد اليونانيين من تراقيا الشرقية . وكان عليه في هذه المرحلة أن يعبر الدردنيل ، وكانت تحتله قوات تابعة لبريطانيا وظل البريطانيون في مواقعهم لا يبغون عنها حولا. ولاح أن صداماً مسلحاً وشيك الوقوع بين الكماليين والبريطانيين أمر لامفر منه . فرئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ، متعاطف مع اليونانيين كما ذكرنا ، وقد صرح بأنه سيدافع عن « حرية المضايق » وأنه سيقف في وجه هجوم الكماليين ويمنعهم من العبور إلى أوروبا . وهو تهديد سافر أزعج أقطاب حزب المحافظين وخشوا اندلاع حرب جديدة في منطقة الشرق الأدنى The Near East كما كانت تسمى في ذلك الوقت . وخشوا أن يمتد لهيب هذه الحرب إلى أوروبا ، فعقدوا اجتماعاً في مقر حزبهم في أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢٢ وقرروا الانسحاب من الوزارة الائتلافية ، واضطر لويد جورج إلى تقديم استقالة الوزارة . وجاءت إلى الحكم وزارة المحافظين برياسة ستانلي بلدوين Stanley Baldwin، عقب انتخابات عامة وتخلص الكماليون من خصم قوي عنيد كان يضمر الكراهية للأتراك بصفة عامة .

---

(١) Miller W., op. cit., p. 546.

الفصل العاشر

السياسة العليا للدولة العثمانية
فى ضوء خصائصها العامة (٤)
الكماليون يمحون عار سيفر

تراجع بريطانيا وحليفاتها :

لم تجد معاهدة سيفر من ينفذها ، أو كما يقول أحد قدامى المؤرخين الإنجليز المتخصصين فى تاريخ الدولة العثمانية إن إكراه تركيا على تنفيذ معاهدة سيفر لم يكن أمراً سهلا[1]. وقد أدركت الدوائر السياسية فى دول المعسكر الغربى أن الموقف فى تركيا يزداد تفاقماً يوماً بعد يوم بسبب إصرار الكماليين على التخلص من الوجود العسكرى اليونانى فى الأراضى التركية ، وعلى تجريد اليونان من حقوقها فى السيادة على المضايق ، وهى الحقوق التى جاءت بها معاهدة سيفر ، وعلى إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذى أعادته هذه المعاهدة وغير ذلك من مآخذ . وانتهت تلك الدوائر رأياً إلى أن إلغاء معاهدة سيفر أمر لا مفر منه لاستقرار الأمور فى المنطقة ، وأنه يتعين فى ضوء هذا الرأى وضع معاهدة سلم جديدة . ثم جاء انتصار الكماليين على اليونانيين ودخولهم أزمير فى ٩ من سبتمبر – أيلول – سنة ١٩٢٢ معززاً هذا الرأى لدى بريطانيا وحليفاتها . وتتابعت الأحداث سراعا ، فى ١١ من أكتوبر – تشرين أول – عقدت هدنة فى مودانيا Mudanya تقرر فيها موافقة بريطانيا وحليفاتها على أن تسترد تركيا سيادتها على إستانبول والمضايق وتراقيا الشرقية (٢) . وقد احتلت الإقليم الأخير فوراً قوة من الجندرمة

---

(١) Miller W: op. cit., p. 542.

(٢) Lewis Bernard; op. cit., p. 254.

التركية قوامها ثمانية الآف جندى . وعلى تسلم تركيا بقية الأقاليم حتى يتم التوقيع على معاهدة سلام جديدة. وإذا كانت دول المعسكر الغربى قد ارتضت عقد الهدنة، فقد اقتفى اليونانيون سياسة أسيادهم، فأبرموا هدنة مع الكماليين فى ١٤ من أكتوبر — تشرين أول — أى بعد مضى يومين من الهدنة الأولى . ثم اجتاز رفعت باشا البوسفور ودخل إستانبول فى رفقة لجنة تمثل المجلس الوطنى الكبير ، وكان ذلك فى ١٩ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢٢ .

وكورقة أخيرة فى يد الاستعمار حاولت بريطانيا وحليفاتها أن تستغل وجود حكومتين فى تركيا لتضرب وقت الحاجة إحداهما بالأخرى، أو تتخذ من إحداهما أداة للضغط على الأخرى . فوجهت دول المعسكر الغربى فى ٢٧ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢٢ الدعوة إلى كل من الحكومة السلطانية فى إستانبول والحكومة الكمالية فى أنقرة لحضور مؤتمر يعقد فى لوزان ، وهى مدينة فى سويسرا تقع شمالى بحيرة جنيف ، لوضع معاهدة جديدة لإقرار السلام بدلا من معاهدة سيفر التى اتضح استحالة تنفيذها . وقد أجابت الحكومة الكمالية بأنها وحدها ودون سواها الحكومة الشرعية التى تمثل تركيا . وكان توجيه دعوة مزدوجة إلى الحكومتين فى تركيا دافعاً لمصطفى كمال على اتخاذ إجراء سريع لحسم هذا الموضوع الخطير ، وهو ازدواج الحكومة فى تركيا . ولكى يضع مصطفى كمال العالم كله أمام الأمر الواقع، استصدر فى أول نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩٢٢ من المجلس الوطنى الكبير فى أنقرة قراراً بإلغاء نظام السلطنة ، ونص فى القرار على أن يكون هذا الإلغاء بأثر رجعى يرجع إلى ١٦ من مارس — آذار — سنة ١٩٢٠ أى قبل تاريخ صدور القرار بسنتين ونصف سنة . وكان الهدف من إرجاع إلغاء السلطنة إلى هذا التاريخ (١) هو بطلان جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التى ارتبط بها السلطان وحكومته واعتبار معاهدة سيفر باطلة ، ويذهب الوفد الكمالى إلى لوزان وهو مطلق اليدين غير مقيد

(١) يرجع اختيار هذا التاريخ وهو ١٦ من مارس — آزار — سنة ١٩٢٠ إلى أنه فى هذا اليوم دخلت قوات بريطانية جديدة الأحياء التركية فى إستانبول لتعزيز قوات الاحتلال فيها .

بأية قيود جاءت بها معاهدة سيفر . واستصدر مصطفى كمال من المجلس الوطنى الكبير فى ذات اليوم قراراً بالإبقاء على نظام الخلافة وأن تظل قائمة فى البيت العثمانى بشرط أن تستند كنظام إلى الدولة التركية ، وأن يختار المجلس الوطنى من بين أعضاء البيت العثمانى خليفة يكون فى عمله وفى خلقه أكثرهم جدارة بهذا المنصب وأكثرهم ملائمة له . وبعد ثلاثة أيام أعلن المؤتمر أن حكومة السلطان فى إستانبول قد فقدت أسباب وجودها raison d'être وأصبح لا وجود لها.وهرب السلطان محمد السادس فى ١٧ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩٢٢ على ظهر طراد إنجليزى أبحر به إلى مالطة. وعلى هذا النحو المزرى كانت نهاية آخر سلاطين الدولة العثمانية الذين حكموا إمبراطورية كانت من أعظم الإمبراطوريات العالمية . وباختفاء محمد السادس من الحياة السياسية كان الطريق ممهداً أمام المجلس الوطنى الكبير ،فانتخب فى ١٩ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٩٢٢ أميراً عثمانياً هو عبد المجيد خليفة للمسلمين لا سلطانا . ولم يقدر له أن يظل فى منصب الخلافة أكثر من عام وبعض عام ، ثم أخرج إخراجاً غير كريم مع جميع أفراد أسرته من الأراضى التركية فى فجر اليوم الرابع من شهر مارس —آذار— سنة ١٩٢٤ ، فجاءت نهاية آخر خليفة عثمان على غرار نهاية آخر سلطان عثمان(١) .

مؤتمر لوزان (١٩٢٢ — ١٩٢٣) :

ذهب الوفد التركى إلى لوزان يمثل حكومة واحدة . وكانت الشروط أو ورقة العمل التى حملها معه هى التى كانت قد تحددت فى الميثاق الوطنى قبل

---

(١) أصدر المجلس الوطنى الكبير فى ٣ من مارس — آذار — سنة ١٩٢٤ قراراً بعزل الخليفه عبد المجيد ، وإلغاء نظام الخلافة ، ونفى جميع أعضاء البيت العثمانى من الأراضى التركية. واتخذت الحكومة إجراءات أمن متشددة خشية أن تقوم مظاهرات إحتجاجاً على طرد الخليفة . وتم نقله — فى فجر اليوم التالى لصدور القرار — فى عربة أقلته إلى محطة سكة حديد صغيرة تقوم خارج إستانبول ، وتم وضعه فى قطار الشرق السريع . ويلاحظ أنه لم يستقل القطار من المحطة الحديدية الرئيسية وهى محطة شركس . ولما استيقظ الشعب فى الصباح وجد أن جميع إجراءات ترحيل الخليفه وأسرته قد تمت دون أن تتاح له الفرصة لإلقاء نظرة أخيرة على خليفة المسلمين (السابق) .

ذلك بنحو ثلاث سنوات . وتمسك الوفد التركى بالمحافظة على إستانبول وضرورة إسهام تركيا فى النظام الذى يوضع لتنظيم مرور السفن فى المضايق وللملاحة فى البحر الأسود وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية إلى غير ذلك

مقترحات أمريكية تتعارض مع السياسة العليا للدولة العثمانية :

حين استفاضت الأنباء بعزم بريطانيا وحليفاتها على إجراء مفاوضات فى لوزان لوضع تسوية جديدة مع تركيا فى صورة معاهدة تحل محل معاهدة سيفر أدلت بدلوها الدوائر المعنية فى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد وضعت هذه الهيئات ثلاث مذكرات تناولت فيها عدداً من المسائل السياسية والاقتصادية فى منطقة الشرق الأدنى ، وطالبت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بمراعاة المصالح الأمريكية عند بحث هذه المسائل وعند وضع الصياغة النهائية لأحكام المعاهدة الجديدة مع تركيا. وأوضحت أن الولايات المتحدة حريصة على حماية المصالح الأمريكية فى هذه المنطقة .

وكان من بين هذه الموضوعات موضوع مرور السفن فى المضايق التركية وتحديد المركز القانونى للبحر الأسود . وأوضحت رغبتها فى تقرير مبدأ حرية مرور السفن التجارية والحربية فى الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور وقت السلم وزمن الحرب بدون أدنى تمييز بين جنسية السفن . وشرحت الوسائل التى تراها كفيلة بتقرير هذا المبدأ من ناحية ، وضمان تنفيذه تنفيذاً سليماً من ناحية ثانية . وفيما يتصل بموضوع البحر الأسود أرادت أن تجرده من صفته القديمة التى لازمته حين كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها وهى أنه كان بحيرة عثمانية تخص الدولة العثمانية بمفردها أو تخص الدولة العثمانية والروسيا معاً . وأضفت على هذا البحر طابع البحر العام ووصفته بأنه جزء من طريق تجارى هام من الطرق البحرية العالمية ، وتعتمد عليه فى حياتها الاقتصادية الدول المطلة عليه ودول وسط أوروبا والتى يجرى فى أراضيها نهر الدانوب الذى يصب فى البحر الأسود . وخلصت الحكومة الأمريكية من هذا الرأى إلى أن البحر الأسود والمضايق تعتبر المنفذ البحرى أو عنق

الزجاجة الذى تمر منه تجارة الروسيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ، ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وبلغاريا . .

ونعرض موجزاً لهذه المذكرات الثلاث .

أولا : مذكرة الحكومة الأمريكية :

أرسلت الحكومة الأمريكية مذكرة مؤرخة فى ٣٠ من شهر أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩٢٢ إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبدى فيها رغبتها فى أن تشارك كمراقب فى أعمال المؤتمر المقترح عقده . وجاء فى هذه المذكرة أن الولايات المتحدة لم تكن فى حالة حرب ضد تركيا ، ولم تكن أحد الأطراف فى هدنة مدروس Mudros التى وقعت فى ٣٠ من شهر أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩١٨ مع تركيا ، وهى لا ترغب فى أن تسهم فى مفاوضات السلام النهائية ، ولا أن تأخذ على عاتقها مسئولية التعديلات السياسية والإقليمية التى سوف تتقرر . ومضت الحكومة الأمريكية تقول إنها بينما هى تصر على هذا التحفظ فى صدد مراحل معينة فى تسوية مشكلات الشرق الأدنى ، فإنها لاترغب فى أن يستقر فى الأذهان أنها تنظر إلى مصالحها نظرة تقل عن نظرة الدول الأخرى إلى مصالحها ، أو أنها لا تتمسك بالحقوق المشتركة التى تتمتع بها دول أخرى ، أو أنها لا تكترث بالفرص التجارية المناسبة ، أو أن المشروعات الإنسانية القائمة فى منطقة الشرق الأدنى أمر لا يعنيها .

واستعرضت الحكومة الأمريكية فى مذكرتها ما أسمته شروط المساهمة الأمـــريكية فى مؤتمـــر لوزان Conditions of American Participation in the Lausanne Conference وأوضحت طبيعة المصـــالح الأمريكية التى ترغب فى حمايتها وبالتالى فى أن تكون موضع اعتبار المؤتمر .وكان عدد هذه المصالح سبعاً (١) ، كان من بينها وضع ضمانات لممارسة حرية مرور السفن

(١) كانت هذه المصالح حسب ترتيب ورودها فى مذكرة الحكومة الأمريكية :

ا — الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا على أساس ضرورته لحماية المصالح غير الإسلامية .

—

فى المضايق . واستطردت المذكرة فقررت أن هذا الموجز يصلح لتوضيح المصالح الأمريكية . ومن أجل حماية هذه المصالح ، ومن أجل تبادل وجهات النظر بسهولة ، ومنعاً لأى سوء فهم ، فإن حكومة الولايات المتحدة على استعداد لإيفاد مراقبين إلى المؤتمر المقترح عقده إذا رأت الدول المعنية أن هذا الإجراء مناسب لها . وأضافت المذكرة إلى ذلك أن المراقبين الأمريكيين لن يشتركوا فى مفاوضات معاهدة السلام ، بل ستكون مهمتهم مقصورة على شرح وجهات نظر الحكومة الأمريكية بطريقة أكثر فاعلية من وضع مذكرات ، ويكون فى استطاعتهم تزويد الحكومة بموقف الدول الأخرى من المسائل ذات المصالح المشتركة والتى سوف تعرض على بساط البحث .

وحملت الحكومة الأمريكية فى مذكرتها على المعاهدات والاتفاقيات السرية ، وقالت إنها لاتقر هذا الأسلوب فى العلاقات الدولية . وإن الاتفاقات التى سبق أن عقدت لتقسيم الأقاليم العثمانية إلى مناطق نفوذ تجارى واقتصادى تتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص . وأعربت عن رغبتها فى أن تكف الدول المتحالفة عن تنفيذ مثل هذه الاتفاقيات السابقة . وختمت مذكرتها بقولها إن الولايات المتحدة الأمريكية لا ترغب فى أن تتصرف تصرفاً يعرقل الجهود التى تبذلها الدول المتحالفة للوصول إلى السلام ، وليست لها مطالب تؤدى إلى صدام مع مصالح الدول الأخرى ، وهى لاتريد أن تميز نفسها أورعاياها بامتيازات لا تتمتع بها الدول الأخرى . ولكنها تريد توفير الحماية لمواطنيها الذين يرغبون فى المضى فى عملهم الإنسانى الذى حملوه على عاتقهم جيلا بعد

= (ب) حماية المؤسسات الخيرية والتعليمية والدينية وذلك بتقرير ضمانات مناسبة .

(ج) تكافؤ الفرص أمام الجميع فيما يتصل بالمشروعات التجارية بعدم منح امتيازات خاصة أو تمييز البعض على البعض .

(د) تعويض الخسائر التى وقعت على الأمريكيين فى تركيا نتيجة أعمال تعسفية وغير قانونية .

(هـ) وضع شروط مناسبة لحماية الأقليات .

(و) وضع ضمانات لكفالة حرية المرور فى المضايق .

(ز) إتاحة فرص معقولة للبحث عن الآثار وإجراء الدراسات .

جيل فى الشرق الأدنى وأصبح فى ذلك الوقت أكثر ضرورة عن ذى قبل . وكان هذا العمل الإنسانى يشمل البحث عن الآثار ، وإجراء الدراسات ، واستئناف المؤسسات التعليمية والتنصيرية والخيرية نشاطها السابق[1] .

ثانيا : مذكرة وزير الخارجية الأمريكية :

وفى مذكرة سرية ومنفصلة عن المذكرة السابقة ومؤرخة فى ذات اليوم (٣٠ من شهر أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩٢٢) بعث بها شارل إيفانز هيوز Charles Evans Hughs وزير الخارجية الأمريكية إلى سفراء الولايات المتحدة فى لندن وباريس وروما ، قال إن الحكومة الأمريكية لن توقع على معاهدة السلام المزمع عقدها مع تركيا ، ولن تشترك فى المؤتمر المقترح اجتماعه لإجراء مفاوضات لإبرام هذه المعاهدة ، وإن هذا الامتناع المزدوج مرده إلى أن الولايات المتحدة لم تكن فى حالة حرب ضد تركيا ، ومع ذلك فإنه فى حكم الاستحالة من الناحية العملية أن يمضى « الحلفاء » فى إجراء مفاوضات بدون أن يتناولوا مسائل تهم الحكومة الأمريكية . وإذا تركت الحكومة الحلفاء يقومون بإجراء المفاوضات وإبرام المعاهدة مع الأتراك بدون أية محاولة منها لعرض وجهات نظرها أو الحصول على ضمانات لحماية المصالح الأمريكية ، فإن مثل هذا الموقف السلبى يضع الحكومة الأمريكية أمام الأمر الواقع فى موضوع العلاقات بين الحلفاء والأتراك . وخلص وزير الخارجية إلى القول بأن رأى وزارة الخارجية قد استقر على وضع مذكرة توضح طبيعة ومجال ومدى المصالح الأمريكية فى منطقة الشرق الأدنى كى يسترشد بها المفاوضون عند تناول الموضوعات التى لها علاقة بهذه المصالح ، ثم استعرض المصالح التى ترغب الحكومة فى حمايتها ، وهى : (١) نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا وانتهى رأياً إلى ضرورة الإبقاء عليه . وسرد الأسباب التى تحمل الحكومة الأمريكية على المطالبة باستمرار هذا النظام .

---

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

U.S. *Aide Mémoire* to Britain, France and Italy, 30 October, 1922. in

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol·2, pp. 114-115.

(٢) حماية المؤسسات الأمريكية فى تركيا سواء المؤسسات التعليمية أو الخيرية أو الدينية ، وإعادة فتح المؤسسات الأمريكية التى أغلقتها حكومة تركيا منذ عام ١٩١٤ ، وإنشاء مدارس جديدة ، واستخدام اللغة الإنجليزية فيها ، ومنح المؤسسات الأمريكية الاعفاءات الضريبية والجمركية وغيرها من الامتيازات الممنوحة لمثيلاتها المؤسسات التركية (٣) حماية المصالح الأمريكية التجارية وإلغاء نظام مناطق النفوذ ، وانتهاج سياسة الباب المفتوح ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، واتباع نظام ضريبى موحد (٤) التعويض عن الخسائر التى نزلت بالأمريكيين منذ عام ١٩١٤ (٥) حماية الأقليات . واهتمت المذكرة بالأقليات المسيحية دون غيرها وبخاصة بالمسيحيين فى إستانبول وبالمسيحيين المبعثرين فى آسيا الصغرى وبالأرمن (٦) حرية المرور فى المضايق،وقالت وزارة الخارجية إن هذه المسألة لها شطران ، يتمثل الشطر الأول فى حرية المرور وقت السلم ، والشطر الثانى فى حرية المرور زمن الحرب . ولا تميل الحكومة الأمريكية إلى أن تزج بنفسها فى الشطر الثانى حتى لا تلتزم باتخاذ سياسة معينة تجاه مرور السفن زمن الحرب ، وبخاصة إذا كانت تركيا أو الدول الكبرى فى أوروبا دولا متحاربة . أما بخصوص تنظيم مرور السفن وقت السلم « فإن المصلحة الجلية للولايات المتحدة أن تحصل على تأكيدات فعالة وقوية بأن تظل المضايق مفتوحة فى وقت السلم للسفن التجارية والحربية لتعبر المضايق وتمضى إلى إستانبول والبحر الأسود ، فهذا البحر هو طريق للتجارة ويجب ألا يكون تحت الرقابة الانفرادية لتركيا والروسيا » . .

وانتقلت مذكرة وزير الخارجية الأمريكية فى فقرتها السابقة إلى موضوع لجنة الرقابة الدولية على الدين العثمانى العام،وطالبت بمزيد من الاهتمام بالمسائل المالية والتجارية . وفى الفقرة الثامنة والأخيرة أشارت إلى موضوع المؤسسات الأمريكية التى تقوم بالتنقيب عن الآثار فى الأراضى التركية وضرورة توفير الجو المناسب لها كى تمضى فى أعمالها الكشفية وفى إجراء الدراسات .

وفى نهاية المذكرة قال وزير الخارجية إنه ليس من الطبيعى ولا من المرغوب فيه أن تسهم حكومة الولايات المتحدة فى مؤتمر السلام أو تقحم

نفسها فى مفاوضات تتناول مسائل سياسية لم تشارك فى وضعها أو التخطيط لها ، إلا أنه من الضرورى أن تكون وزارة الخارجية على علم تام بالموضوعات التى تتناولها المفاوضات وكيفية معالجتها ، والوزارة حريصة على حماية المصالح الأمريكية ، وهى على استعداد لأن تلقى بكل ثقلها ونفوذها للحصول على ضمانات خاصة بحرية الملاحة فى المضايق وحماية الأقليات . وإن الولايات المتحدة كدولة مستقلة تحافظ على سلامة موقفها، وهى لم تزج بنفسها فى غمار المنافسات الدولية التى جعلت من الشرق الأدنى فى معظم الأحيان مسرحاً للحروب(١).

ثالثا : مذكرة البحرية الأمريكية :

ولم يقف الأمر بالسياسة الأمريكية تجاه موضوع المضايق عند هاتين المذكرتين ، بل تدخل أيضاً مجلس البحرية الأمريكية العام ، ووضع مذكرة فى ١٠ من شهر نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٩٢٢ تناول فيها توصيات سياسية بخصوص البحر الأسود والمضايق التركية . وجاء فى هذه المذكرة أن الدردنيل طريق عام ذو أهمية عظمى أوجدته الطبيعة ، وهو يؤدى من ناحيته الشمالية إلى البحر الأسود الذى تطل عليه تركيا والروسيا ، ورومانيا وبلغاريا ، وبعض دول صغرى أخرى، وتصب فيه مياه خمسة أنهار كبرى . وتأسيساً على هذه الحقائق فإن هذا البحر لايخص دولة واحدة كما كان الأمر من قبل . وكان واضعو المذكرة يقصدون تركيا بهذه الدولة الواحدة . ثم مضت المذكرة تقول إن البحر الأسود يخص العالم كله كجزء من طريق تجارى . فأية محاولة لغلق هذا البحر أو إعاقة وصول التجارة المنقولة بحراً إلى البحر الأسود هى عمل تخريبى يتعارض مع المصالح العالمية ويحدث اضطراباً فى العلاقات الدولية يؤدى إلى تجدد الحرب .

---

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

Secretary Hughes' Instructions to U.S. Ambassadors at London, Paris and Rome, 30 October, 1922.

In

Hurewitz J.C., op. cit., Vol. 2., pp. 115-117 .

وقالت المذكرة إن الروسيا — وهى من أكبر دول العالم — تصدر فى الأوقات العادية نصف محاصيلها عن طريق البحر الأسود . وليس أمام الروسيا مخرج بحرى آخر يمكن أن يقارن فى أهميته بطريق الدردنيل، وسوف تزداد أهمية هذا المخرج البحرى زيادة كبيرة بالنسبة للروسيا تبعاً لزيادة الكثافة السكانية فيها ، وتبعاً لتحسين وسائل النقل الداخلى فى المناطق الروسية . فإذا حيل بين دولة كبرى مثل الروسيا وبين استخدام البحر الأسود بمنع سفنها من عبور الدردنيل ومنعها من الانطلاق إلى المحيطات والبحار ، فإن هذا العمل ، وهو حجز الأسطول التجارى فى مياه البحر الأسود ، لايحمل فى طياته عناصر الاستقرار والدوام لأية تسوية تتناول مشكلة المضايق التركية .

ومضت مذكرة البحرية الأمريكية تقول إن شطراً كبيراً من تجارة النمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ينقل عن طريق نهر الدانوب إلى البحر الأسود حيث يعاد شحنها فى سفن كبرى تعبر الدردنيل إلى البحار العامة . فهذه التجارة تحتاج بدورها إلى حرية المرور عبر المضايق ، وعلى ذلك فإن تقرير مبدأ حرية مرور السفن فى كلا الاتجاهين عبر الدردنيل ضرورة لاجدال فيها . وقد وافقت الدول ومن بينها تركيا على مبدأ حرية المرور عبر الدردنيل للسفن التجارية التابعة لجميع الشعوب .

واستدركت المذكرة فقالت إن التجارب فى بقاع كثيرة فى العالم قد دلت على أن قبول مبدأ ما لايكون دائماً كافياً لضمان تطبيقه تطبيقاً محايداً ، ولا يكفى أن تعلن الدول موافقتها على قبول مبدأ عام ، بل يجب أن تكون هذه الموافقة مقرونة بتنفيذ أو تطبيق هذا المبدأ . فالموافقة على مبدأ معين وتنفيذ هذا المبدأ عمليتان مرتبطتان بعضهما ببعض بعروة وثقى لا انفصام لها . وكل عملية منهما لا تقل أهمية عن الأخرى. وإلى أن تستقر الأمور فى منطقة الشرق الأدنى ، فإن خير وسيلة لضمان تكافؤ الفرص هى إسهام الدول المعنية إسهاماً يقوم على قدم المساواة فى الرقابة على حرية المرور فى المضايق .

وانتقلت مذكرة مجلس البحرية العام إلى موضوع المصالح الأمريكية

فى المضايق فقالت إن تقرير حرية مرور السفن فى الدردنيل لا يعد فى حد ذاته عملا كافياً كى يضمن للسفن الأمريكية نفس الفرص التى تتمتع بها السفن التجارية التابعة لدول أخرى. فلابد أن تضمن الحكومة الأمريكية ، عن طريق اتفاقات ، المساواة فى الحقوق وفى الامتيازات التى تتمتع بها الدول الأجنبية فى كل ما يتصل بالعمليات التجارية والبحرية . وذكرت المذكرة على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الحقوق والامتيازات ، فقالت إن السفن التجارية فى حاجة إلى استخدام أجهزة ترديد الصوت ، والأسلاك البحرية الغليظة « الكابلات » ، والانتفاع بالأرصفة فى موانئ المضايق ، والصنادل ، وخدمات الإرشاد ، والرسو ، والسحب ، والقطر ، وتسهيلات التفتيش على السفن . فإذا لم تكن هناك معاملة واحدة لجميع السفن فى مثل هذه المسائل وغيرها ، فإن السفن الأمريكية تجد فى أثناء عبورها وتواجدها فى منطقة المضايق إعاقة تجعلها فى مركز أقل من مركز السفن التابعة لدول أخرى .

ووجهت المذكرة النظر إلى حقيقة كانت تعلق عليها حكومة الولايات المتحدة آمالا كبارا ؛ وهى حالة ازدهار التجارة بتزايد حجمها تزايداً جديداً وكبيراً فى جميع الأقاليم المطلة على البحر الأسود والأقاليم التى تجرى فى أراضيها أنهار تصب فى هذا البحر . وقد جاء هذا الازدهار التجارى نتيجة للأحوال السياسية والاقتصادية التى سادت فى تلك الأقاليم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد تولدت عن هذا النشاط الاقتصادى الضخم المكثف مجالات واسعة للمشروعات التجارية الدارة . وقالت المذكرة إن الخطوات التى تتخذ والترتيبات التى توضع فى ذلك الوقت قد تؤثر تأثيراً عميقاً على الحياة التجارية للولايات المتحدة فى قابل الأيام . وخلصت البحرية الأمريكية إلى القول بأنها لاتطالب بحقوق خاصة بها ، ولكنها تطالب ، بل تصر على أن تكون لها حقوق مساوية لحقوق الدول الأخرى . وهو مطلب ينبثق عن رغبة الولايات المتحدة فى تحقيق عدالة مطلقة وكاملة فى محيط العلاقات الدولية .

وحاولت مذكرة البحرية الأمريكية أن تعالج مشكلة حرية مرور السفن الحربية فى المضايق ، فقالت إن هذه المشكلة أكثر تعقيداً من مسألة عبور السفن التجارية ، وهى لا تتيح فرصاً لوضع تسوية دائمة لها مثل الفرص التى تتيحها مسألة السفن التجارية . وقالت إن هناك مبدأ عاماً يجب أن يوضع فى الاعتبار ، وهو أن أية حقوق للملاحة فى المضايق تمنح لدول بعيدة عن البحر الأسود يجب أن يمنح مثلها للدول المطلة على هذا البحر .

وخلصت البحرية الأمريكية إلى أن الحل الطبيعى هو تقرير الحرية التامة للملاحة عبر المضايق للسفن الحربية أيضاً ، وساقت عديد الأمثلة الافتراضية التى تساند هذا الرأى ، كما أنها انتهت رأياً إلى أن هذا الحل يعد الحل الأمثل للمصالح الأمريكية وللنفوذ الأمريكى فى شئون العالم .

واستطردت مذكرة البحرية الأمريكية فقالت إنه ليس هناك مجال للمقارنة بين مركز كل من المضايق التركية ، وقناة بناما ، ولذلك يجب الفصل بينهما . فالاثنتان تختلفان بعضهما عن بعض اختلافاً جذرياً ومن عدة وجوه . فتاريخ المضايق التركية ملىء بعدم الاستقرار والمصالح المتضاربة ومعاملة السفن معاملة تقوم على التمييز بينها ، وجعل حق مرور السفن فى الدردنيل مقصوراً على سفن دولة واحدة ، بالإضافة إلى أن المضايق التركية طريق مائى طبيعى بينما قناة بناما ممر مائى صناعى . وتقتضى العدالة ألا تكون هذه المضايق تحت سيطرة دولة واحدة تتصرف فيها كما تشاء ، بل يجب أن تكون طريقاً عالمياً . وفضلا عن ذلك فإن كل حل تم الوصول إليه واستهدف فرض رقابة على هذه المضايق لمصلحة دولة واحدة ضد دول أخرى كان بمثابة تسوية تقوم على الاستفزاز والتحرش وإثارة الحقد، وأدى إلى الاضطراب فى العلاقات الدولية. ولذلك لم تتم إطلاقاً تسوية مسألة المضايق، لأن جميع التسويات التى تمت كانت تتسم بطابع التحيز للدولة التى كانت تتمتع بالقسط الأوفى من السيطرة والقوة فى ذلك الوقت .

وخاضت مذكرة البحرية الأمريكية فى مجموعة من التنبؤات والافتراضات تنم فى مجموعها عن اتجاه السياسة الأمريكية تجاه مشكلة المضايق ، فقالت إذا

فرضت رقابة على حرية مرور السفن فى المضايق وأزيلت الاستحكامات القائمة فى منطقتها فإن تلك الرقابة سوف تقع على عاتق الأسطول البريطانى بسبب شدة بأسه وبطشه . وإذا جردت من السلاح والتحصينات كل من ميتلين Mitylene ولمنوس Lemnos ، وإمبروس Imbros وساموتراكى Samothraki فإن هذا التجريد يتمشى مع الرقابة المستقبلة على المضايق ، وتمارسها القوات البحرية بـــدلا من الاستحكامات الثابتة . وراحت المذكرة تؤكد مرة أخرى قيام رقابة بريطانية على المضايق تأسيساً على أن الأسطول البريطانى فى ذلك الوقت—سنة ١٩٢٢—بقواعده المتناثرة هو أقوى الأساطيل. وذهبت المذكرة إلى القول بأنه ليس هناك على الأرجح معاهدة أو قانون يمنع الحصر البحرى فى زمن الحرب إذا كانت الدولة التى تمارس هذا الحصر ذات بأس شديد فى البحر .

وناقشت المذكرة كيفية قيام الرقابة على المضايق ، وناقشت ثلاثة آراء : رقابة انفرادية من جانب تركيا ، ورقابة انفرادية تختص بها دولة أجنبية واحدة ، ورقابة دولية جماعية . فقالت عن الرأى الأول إن التجارب قد دلت على أن قيام تركيا بممارسة الرقابة على المضايق لم يتسم بسياسة محايدة ولا ثابتة ، وإن تركيا كانت لا محالة تتأثر بالضغوط الخارجية . وإذا وضعت الرقابة فى يد دولة أجنبية واحدة فمن المتوقع ألا تفعل هذه الدولة أكثر من محاباة سفنها وتجارتها بغير وجه حق على حساب سفن وتجارة الدول الأخرى . بقى الرأى الثالث فقالت إن فرض رقابة دولية جماعية على المضايق فى الظروف القائمة وقتذاك لن يكون محل اعتراض من جانب الأسرة الدولية على عكس إذا ما تقرر قيام رقابة انفرادية من جانب تركيا .

وأخيراً لخص المجلس العام للبحرية الأمريكية هذه المذكرة الضافية بقوله إن المصالح الأمريكية فى منطقة المضايق تتطلب إدراج المبادئ التالية فى المعاهدة المقترح عقدها مع تركيا .

أولا : إذا أنشئت لجنة دولية للرقابة على المضايق فيجب أن تكون

الولايات المتحدة ممثلة فى هذه اللجنة وفى جميع المواقع والمراكز التابعة لهذه اللجنة ، وتكون على قدم المساواة مع أية دولة أجنبية أخرى .

ثانياً : إن المضايق — وهى تشمل الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور — يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن التجارية التابعة لجميع الدول بدون تمييز أو تفضيل .

ثالثاً : يكون للولايات المتحدة ومواطنيها ذات الحقوق والامتيازات فى مياه المضايق والمياه المتاخمة كما هى ممنوحة فى الماضى والحاضر أو تمنح مستقبلا لأية دولة أجنبية أخرى أو لمواطنيها . وجاء ذكر تلك الحقوق وهذه الامتيازات على النحو الذى ورد فى سياق المذكرة وأشرنا إليه .

رابعاً : إن المضايق—بأجزائها الثلاثة المعروفة — يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن الحربية التابعة لجميع الدول .

خامساً : عدم مباشرة أى حق حربى وأى عمل عدائى فى داخل المضايق التى تشمل الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور .

سادساً : إزالة جميع التحصينات التى تسيطر على مياه المضايق ، ولا يسمح بإقامة تحصينات جديدة(١) .

تحليل الموقف الأمريكى من مشكلة المضايق والبحر الأسود :

من هذه المذكرات الأمريكية الثلاث يتضح موقف الولايات المتحدة بوجه عام من مشكلة المضايق والبحر الأسود . ويمكن إيجاز هذا الموقف فى عدة نقاط ، منها : أن المضايق طريق عالمى للتجارة فلا تخضع للسيطرة

---

(١) أنظر نص المذكرة بعنوان :

Policy Recommendations on the Turkish Straits by the General Board of the U.S. Navy, 10 Noember 1922.

in

Hurewitz J·C; op. cit, volz, pp. 117-119.

الانفرادية لتركيا ، تقرير حرية الملاحة عبر المضايق فى وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية والحربية التابعة لجميع الدول دون تمييز لجنسيتها ، تجريد منطقة المضايق وعدد من الجزر فى بحر إيجه من الاستحكامات العسكرية وعدم السماح بإقامة منشآت عسكرية جديدة بها تمشياً مع حرية المرور عبر المضايق ، إنشاء رقابة جماعية فى شكل لجنة دولية لضمان تنفيذ مبدأ حرية مرور السفن بكافة أنواعها فى جميع الأوقات . أما البحر الأسود فهو — فى نظر الولايات المتحدة — لا يخص تركيا وحدها أو الروسيا بمفردها ، بل هو بحر عالمى مفتوح لجميع الدول والشعوب ، يمر منه شطر لا يستهان به من تجارة الروسيا ودول وسط أوروبا — وتستحسن تجريده من القواعد البحرية العسكرية وتعد محاولة إغلاقه عملا تخريبياً .

هذه المبادئ تعصف بالسياسة العليا للدولة العثمانية وتسلب حقها فى ضمان تنفيذ مبدأ حرية المرور عبر المضايق التى هى جزء من الإقليم التركى ، وتخويل هذا الحق للجنة دولية . فالولايات المتحدة تضع مصالحها التجارية فى منطقة الشرق الأدنى فوق كل اعتبار ، وهى لا تبدى مثل هذا الاهتمام بمصالحها الإستراتيجية فى تلك المنطقة ، إذ لم تكن قد تكونت لها فى ذلك الوقت مصالح من هذا النوع ، ولم تكن قد احتضنت الحركة الصهيونية الاحتضان السافر الذى ظهرت به فيما بعد . ولم تكن قد وقفت موقفاً غير ودى من حكومة موسكو السوفيتية .R.S.F.S.R بل على العكس أظهرت مذكرة المجلس العام للبحرية الأمريكية تحمساً لرعاية المصالح الروسية الاقتصادية بتوفير السبل لنقل محاصيلها عبر البحر الأسود والمضايق . وإن كان وزير الخارجية الأمريكية قد أشار فى مذكرته إشارة لها مدلولها فى هذا الوقت المبكر من تاريخ العلاقات الأمريكية السوفيتية إذ قال ، وهو يتناول موضوع الأقليات المسيحية فى تركيا ، إنه من الممكن عند عودة الأوضاع الأكثر استقراراً فى الروسيا أن توافق الحكومة الروسية على منح أكراد تركيا ملجأ فى القوقاز يقيمون فيه .

تلك هى المقترحات الأمريكية وضعت قبل أن يعقد مؤتمر لوزان جلساته بأيام قلائل . وهى مقترحات لها أهميتها من النواحى الأكاديمية والعلمية والتاريخية .

جلسات عمل مؤتمر لوزان :

عقد مؤتمر لوازن جلساته على فترتين . بدأت الفترة الأولى فى ٢٠ من نوفمبر – تشرين ثان – عام ١٩٢٢ ، وقسمت أعماله بين ثلاث لجان : اختصت اللجنة الأولى بمشكلة نظام المرور فى المضايق والملاحة فى البحر الأسود والقضايا العسكرية ومشكلة الأقليات والمشكلات الإقليمية.واختصت اللجنة الثانية بقضايا الأجانب فى تركيا.واختصت الثالثة بالقضايا الاقتصادية والمالية . وقد استمرت اجتماعات المؤتمر حتى ٤ من فبراير – شباط –١٩٢٣ حين انفض بسبب رفض الحكومة التركية قبول مشروع معاهدة الصلح . ورفض المجلس الوطنى الكبير فى ٦ مارس – آذار – ١٩٢٣ مشروع معاهدة الصالح لمخالفته الميثاق الوطنى ، ولكنه خول الحكومة التركية إعادة فتح باب المفاوضات مع بريطانيا وحليفاتها . وفى ٨ مارس – آذار – ١٩٢٣ أرسل عصمت باشا وزير الخارجية التركية ورئيس الوفد التركى إلى المؤتمر رسالة ومعها اقتراحات تركية إلى الدول الأعضاء فى المؤتمر . وقد وافقت هذه الدول على بحث المقترحات التركية . وفى ٢٣ أبريل – نيسان – ١٩٢٣ استأنف مؤتمر لوزان عقد جلساته،وبذلك بدأت الفترة الثانية واستمرت حتى ٢٤ من يوليو – تموز – سنة ١٩٢٣ حيث تم فى هذا اليوم التوقيع على المعاهدة التى حملت اسم معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ . وتتميز من بين جميع معاهدات الصلح التى أبرمت لتسوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى بأنها المعاهدة الوحيدة التى عقدت نتيجة مفاوضات مضنية للغاية اشترك فيها الأطراف المعنيون لتحل محل معاهدة جائرة وضعها المنتصرون ، واستطاع المنهزم بالدبلوماسية المرنة حيناً ، والدبلوماسية ذات العصا الغليظة حيناً آخر أن يحمل المنتصرين على إلغائها . وقد وقع على معاهدة لوزان ثمانى دول ، هى : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، واليابان ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتركيا .

معاهدة لوزان تفرد اتفاقية خاصة بالمضايق :

لم تتعرض معاهدة لوزان لمسألة مرور السفن فى المضايق ، ولكن

سجلت تنازل تركيا عن حقوقها فى مصر والسودان وجزيرة قبرص لبريطانيا ، وتنازلها لإيطاليا عن حقوقها فى ليبيا وفى ثلاث عشرة جزيرة كانت تحتلها إيطاليا وقتذاك ، كما سجلت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية وتقرر إخلاء إستانبول من القوات الأجنبية وإعادة تراقيا الشرقية بما فيها أدرنة إلى تركيا ، وكذلك منطقة كراجاتش Karagatch فى تراقيا الغربية . واستردت تركيا جزءاً لايستهان به من أملاكها فى أوروبا ، كما تقرر إعادة الجزء الغربى من الأناضول وسائر المراكز التى كانت تحتلها اليونان فى هذا الإقليم إلى تركيا . وقد تناولت المعاهدة العديد من المسائل التى لاتدخل فى نطاق دراستنا .

وتقديراً من الدول الأطراف فى معاهدة لوزان لموضوع المضايق أفردت اتفاقية خاصة بهذه المسألة وأرفقتها بالمعاهدة ، وأصبحت جزءاً منها وأطلقت عليها اتفاقية نظام المضايق Convention on the regime of the Straits وتقع فى ثمانى عشرة مادة وجاءت بعدة مبادئ ، نذكر منها :

أولا : مرور السفن فى المضايق :

نصت المعاهدة فى مادتها الأولى على تقرير مبدأ حرية المرور وحرية الملاحة بحراً وجواً فى منطقة المضايق . وقالت إن المضايق اسم عام يشمل على وجه التحديد مضيق الدردنيل ، وبحر مرمرة ،ومضيق البوسفور ، ونصت المادة الثانية على أن حرية المرور وحرية الملاحة تشمل السفن التجارية والحربية والطائرات التجارية والحربية فى زمن السلم ووقت الحرب . ثم وضعت تفاصيل لحرية المرور أدمجتها فى ملحق يتبع المادة الثانية وأطلقت عليه قواعد لمرور السفن التجارية والطائرات التجارية والسفن الحربية والطائرات الحربية . وتناولت فى القسم الأول من هذا الملحق السفن التجارية وقالت إنها تشمل أيضاً سفن المستشفيات واليخوت[1] ومراكب الصيد والطيران غير الحربى . وقالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

---

(١) يخوت جمع يخت yacht ، وهى سفينة السياحة الخاصة .

الحالة الأولى: وقت السلم فتتقرر حرية تامة للملاحة والمرور نهاراً وليلا لجميع السفن بدون تمييز بين جنسياتها. ويصرف النظر عن نوعية الشحنات التى تحملها وبدون دفع رسوم سوى الرسوم المقررة للارشاد والإضاءة والجر والقطر وما إليها ، وذلك بدون الإضرار بالحقوق التى تمارسها فى هذا الصدد الشركات التى تعمل فى وقت إبرام المعاهدة بموجب امتيازات منحتها لها الحكومة التركية .

الحالة الثانية : زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة : فتتقرر الحرية التامة للملاحة والمرور على النحو الذى جاء فى الحالة الأولى ، مع مراعاة أن حقوق وواجبات تركيا كدولة محايدة لا تجيز لها أن تتخذ أية اجراءات من شأنها تعتبر تدخلا فى الملاحة عبر المضايق التى تكون مياهها وأجواؤها حرة تماماً وقت الحرب التى تتخذ فيها تركيا موقف الحياد .

الحالة الثالثة: زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها: فتتقرر حرية الملاحة للسفن المحايدة وللطيران غير الحربى التابع للدول المحايدة بشرط ألا تقدم أمثال هذه السفن والطائرات مساعدات للعدو ، وبوجه خاص لا تنقل قوات أو بضائع ممنوعة أو رعايا الدول المتحاربة . ويكون لتركيا الحق فى زيارة وتفتيش أمثال هذه السفن والطائرات . ولهذا الغرض يجب على الطائرات أن تهبط على الأرض أو على البحر فى مساحات تحددها وتعدها تركيا لهذا الغرض . ومن المتفق عليه أيضاً ألا تمس حقوق تركيا فى تطبيق الاجراءات المقررة فى القانون الدولى العام على سفن الأعداء . ولتركيا السلطة التامة فى اتخاذ أمثال هذه الاجراءات حين ترى أنه من الضرورى منع سفن الأعداء من استخدام المضايق ، على ألا يكون من طبيعة هذه الاجراءات منع سفن الدول المحايدة من المرور فى المضايق ، وتوافق تركيا على أن تمد أمثال هذه السفن بالتعليمات الضرورية أو تزودها بالمرشدين لعبور المضايق .

وتناولت اتفاقية المرور فى القسم الثانى من الملحق موضوع السفن الحربية . وقالت إنها تشمل أيضاً السفن المعاونة للأساطيل والسفن الناقلة للجنود والطائرات الحربية والطائرات الحاملة ذخائر أو أسلحة أو قوات . وعلى

غرار القسم الأول قالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

الحالة الأولى : وقت السلم.فتتقرر حرية كاملة لمرورها نهاراً وليلا بدون تمييز بين جنسياتها ، ولكنها تخضع للقيود التالية بالنسبة لقوتها الكلية . فيكون الحد الأعلى للقوة التى تستطيع أية دولة أن تمررها عبر المضايق لدخول البحر الأسود لاتتجاوز أقوى أسطول للدول الداخلية الواقعة على البحر الأسود والتى تكون موجودة فى هذا البحر فى وقت مرور هذه القوة . وتقرر أيضاً أن تحتفظ الدول لنفسها دائماً بالحق فى أن ترسل إلى البحر الأسود فى جميع الأوقات وفى كل الظروف قوة لاتتجاوز ثلاث سفن لا تزيد حمولة الواحدة منها عن عشرة الآف طن . وجاءت فقرة أخيرة تقرر عدم مسئولية تركيا فيما يختص بعدد السفن الحربية التى تعبر المضايق .

الحالةالثانية: زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة . فتتقرر الحرية الكاملة للمرور نهاراً وليلا بدون تمييز بين جنسياتها مع مراعاة القيود المذكورة فى الحالة السابقة،ومع ذلك فإن هذه القيود لاتطبق على أية دولة متحاربة تطبيقاً يضر بحقوقها الحربية فى البحر الأسود ، كما أن حقوق تركيا وواجباتها كدولة محايدة لا تجيز لها اتخاذ أية اجراءات من شأنها تعتبر تدخلا فى الملاحة عبر المضايق التى تظل جميع مياهها وأجوائها حرة تماماً فى زمن الحرب طالما كانت تركياً دولة محايدة كما يحدث تماماً وقت السلم . وتقرر أيضاً منع السفن الحربية والطيران الحربى التابع للدول المتحاربة من مباشرة أية عملية من عمليات الأسر أو مباشرة حق الزيارة والتفتيش أو القيام بأى عمل عدائى آخر فى المضايق .

الحالة الثالثة : زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها. فتتقرر الحرية الكاملة لمرور السفن الحربية المحايدة مع مراعاة تطبيق القيود المنصوص عليها فى الحالة الأولى فى هذا القسم (القسم الثانى) . ونص على أن الاجراءات التى تتخذها تركيا لمنع سفن وطائرات الأعداء من استخدام

المضايق لا يكون من شأنها منع المرور الحر للسفن المحايدة والطيران المحايد . وعلى تركيا أن تزود أمثال هذه السفن والطائرات بالتعليمات الضرورية أو بالمرشدين للغرض المذكور . ويقوم الطيران الحربى التابع للدول المحايدة بالمرور الجوى فوق المضايق على مسئوليته ويخضع للتفتيش عن طابعه . ولهذا الغرض فإن على أمثال هذه الطائرات أن تهبط على الأرض أو فى البحر فى المساحات التى تحددها وتعدها تركيا لهذا الغرض .

وقد تعرضت الاتفاقية فى ذات الملحق التابع للمادة الثانية لغواصات الدول التى فى حالة سلم مع تركيا، فنصت على أن يكون عبورها المضايق وهى فوق سطح الماء . كما تناولت مسائل تنظيمية خاصة بمرور السفن الحربية وضرورة إخطار الحكومة التركية بوصولها وعددها ، وضرورة مرورها فى أقصر وقت ، وتحريم مرابطتها داخل المضايق إلا فى حالتين : هما إصابة السفينة بعطب أو اضطراب البحر واشتداد عواصفه .

والملحوظة التى نخرج بها من الدراسة التحليلية لهذا الجزء من الاتفاقية هى أنه لم يشمل التفاصيل الدقيقة عن تنظيم مرور السفن بنوعيها التجارية والحربية فى المضايق على عكس ما جاء فى اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٨٨٨) الخاصة بتنظيم مرور السفن فى قناة السويس . فقد تضمنت هذه الاتفاقية أدق التفاصيل عن هذا الموضوع . ونذكر على سبيل المثال تقييد تموين السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة (المادة الرابعة فقرة ٢ من اتفاقية الآستانة) ، منع السفن الحربية المتحاربة من إنزال وشحن القوات والمهمات الحربية (المادة الخامسة) ، مرور الغنائم[1] (المادة السادسة) .

ثانيا : لجنة المضايق :

نصت اتفاقية المضايق على إنشاء لجنة دولية يطلق عليها لجنة المضايق

---

(١) يقصد بالغنائم Les Prises السفن الحربية أو التجارية المغنومة التى تمر فى المضايق وهى بهذه الصفة ، أى تكون فى حوزة السفينة القابضة عليها ، على أن يكون اغتنامها قد تم خارج منطقة المضايق ، إذ لا يجوز داخل هذه المنطقة القبض على السفن المعادية واغتنامها ، لأن حق الاغتنام من الحقوق الحربية التى حرمت الاتفاقية مباشرتها فى هذه المنطقة .

تختص بالإشراف على حرية المرور فى المضايق ، ويكون مقرها إستانبول ، وتكون لتركيا دون سواها من الدول رياسة هذه اللجنة، بمعنى أن تكون رياستها ذات صفة دائمة . وأن تشمل عضوية اللجنة: فرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، بلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والاتحاد السوفيتى ، ويوغوسلافيا.[1] وقد روعى فى اختيار هذه الدول لعضوية اللجنة أنها الدول الأطراف فى معاهدة لوزان . ونص على ألا تبدأ أى منها فى مباشرة عملها فى لجنة المضايق إلا من تاريخ تصديقها على المعاهدة . وورد فى ذات المادة أنه إذا انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى المعاهدة فيكون لها الحق فى عضوية اللجنة . وبنفس هذه الشروط تقرر أن أية دولة مستقلة تطل على البحر الأسود ولم يرد ذكرها فى الاتفاقية وتنضم إليها يكون لها نفس الحق (المادة ١٢) .

وتباشر لجنة المضايق عملها تحت رعاية عصبة الأمم ، وتكون مسئولة أمامها ، وعليها أن ترفع إلى العصبة تقريراً سنوياً تعرض فيه نشاطها وتذكر كل المعلومات التى تكون ذات قيمة ونفع لصالح التجارة والملاحة . وعلى اللجنة – تمكيناً لها من تحقيق هذا الهدف – أن تكون على اتصال بمصالح الحكومة التركية المختصة بالملاحة عبر المضايق (المادة ١٥) .

لجنة المضايق ولجنة الدانوب :

ومما هو جدير بالذكر أن لجنة المضايق الدولية لم تكن شيئاً جديداً على المجتمع الدولى فى ذلك الوقت . فقد سبق لهذا المجتمع أن عرف هيئات ذات

---

(١) جاءت الصياغة اللفظية فى المعاهدة لاسم يوغوسلافيا على هذا النحو :

The Serb – Croat – Slovene State

أى الدولة الصربية الكرواتية السلافية .

ويطلق عليها حالياً (سنة ١٩٧٧) اسم اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وتتكون من ست جمهوريات ومن خمس قوميات هى الصرب – كرواتيا – سلوفينا – الجبل الأسود – مقدونيا . وفيها ثلاث لغات : الصربية ، والكرواتية ، السلوفينية . وفيها أربع ديانات : الإسلام ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والمسيحية الكاثوليكية ، واليهودية . وهى جارة لسبع دول .

طابع دولى واختصاصات واسعة مثل لجنة الدانوب الأوروبية التى تكونت لتنظيم حرية الملاحة فى نهر الدانوب والإشراف عليها والقيام بأعمال الصيانة والتحسين وتطهير قاع النهر من العوائق لمواجهة الاحتياجات الدولية للملاحة الحرة(١). وتقرر أن يكون لهذه اللجنة شخصية متميزة ذات طبيعة دولية. وأن تتمتع بالحصانة ، ولا تستطيع دولة محاربة أن تحد من نفوذ هذه اللجنة ، وأن يكون جميع موظفيها ومكاتبها والأشغال التى تقوم بها على طول النهر بمنأى عن العمليات الحربية ، وأن يكون للجنة علمها ، وكأنها دولة ، ولها الحق فى رفعه على سفنها ومكاتبها ومبانيها الرسمية ، ويكون لها ميزانية تتألف من حصيلة رسوم المرور ، وتنفق منها على شتى أوجه نشاطها . وقد أبيحت الملاحة البريئة فى نهر الدانوب لسفن المتحاربين . ونص على حياد هذا النهر مع تحريم إقامة تحصينات أو منشآت عسكرية على ضفتيه . ومع ذلك فإن المضايق التركية لا يمكن أن يقاس بينها وبين نهر الدانوب الذى يجرى فى أراضى عدة دول . ولا يعد إنشاء لجنة الدانوب مبرراً لإنشاء لجنة المضايق

---

(١) أنشئت هذه اللجنة بمقتضى معاهدة أبرمت فى عام ١٨١٦ فى ضوء القواعد التى كان قد قررها مؤتمر فينا فى سنة ١٨١٥ بشأن الملاحة فى الأنهار الدولية . ثم تعرضت هذه اللجنة للتعديل من حيث تشكيلها واختصاصاتها فى معاهدة باريس عام ١٨٥٦، ثم فى معاهدة جالاتز Galatz فى ٢ من نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٨٦٥ ، وفى مؤتمر برلين لسنة ١٨٧٨ أدخلت تعديلات جديدة على اختصاصات اللجنة ، ثم أبرم اتفاق لندن فى ١٠ من مارس — آذار — عام ١٨٨٣ منحت اللجنة بمقتضاه اختصاصات قضائية ، وجعل منطقة نفوذها ممتداً من « جالاتز » إلى « برايلا » Brailla . وفى معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وضعت نصوص استهدفت توسيع اختصاصات لجنة الدانوب وزادت من سلطتها .

أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوى : تكتل الدول لتدويل قناة السويس نكاية فى بريطانيا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٦٨ — ١١٤ ويبين فى هذه الصفحات من المناقشات الضافية التى خاضها أعضاء لجنة باريس الدولية عام ١٨٨٥ أوضاع لجنة الدانوب .

وانظر أيضا :

دكتور مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . ج ٣ ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ ، ص ص ٥١٤ — ٥١٧ .

الدولية . وإذا كان القانون الدولى العام يعترف بحرية الملاحة فى المضايق ، إلا أنه لا يخضعها لإشراف لجنة دولية تقيم فى إقليم الدولة التى تخترق المضايق أراضيها .

مقارنة بين لجنة المضايق ولجنة القناصل فى مصر :

وسمع المجتمع الدولى بعد ذلك عن تكوين لجنة دولية فى مصر هى لجنة قناصل الدول لمراقبة تنفيذ اتفاقية الآستانة المبرمة فى ٢٩ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٨٨٨ الخاصة بتنظيم حرية المرور فى قناة السويس . والرقابة نوع من الضمان لتنفيذ المعاهدات . وفى اتفاقية المضايق وفى اتفاقية قناة السويس استقر رأى الدول على أن تكون الرقابة على تنفيذها ذات طابع دولى . ومن ثم جاءت اتفاقية قناة السويس بلجنة القناصل وجاءت اتفاقية المضايق بلجنة المضايق . ولما كانت لجنة القناصل تتعلق بقناة السويس التى هى ممر مائى تمر فى مصر التى كانت تحت السيادة العثمانية فى ذلك الوقت طبقاً لقواعد القانون الدولى العام ، فسنعرض مقارنة سريعة جداً بين هاتين اللجنتين حتى تتضح فى الأذهان صورة عن هذه الهيئات التى صنعها الاستعمار ثم فرضها على الدولة العثمانية وعلى بعض أقاليمها فى عصر الاضمحلال ضارباً عرض الحائط بالسياسة السياسة العليا للدولة العثمانية واحترام سيادتها على أراضيها .

كانت لجنة القناصل تتكون من تسعة أعضاء يمثلون فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وهولندا ، والروسيا ، وتركيا . وكان هؤلاء الأعضاء جميعاً ، باستثناء تركيا ، هم قناصل الدول الأطراف فى اتفاقية الآستانة أو طبقاً للنص الوارد فيها « وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدون بمصر » ولذلك لم يكونوا متفرغين لعملهم فى اللجنة .

أما لجنة المضايق فكانت — وفقاً للتعديل الذى جاءت به معاهدة لوزان — تتكون من عشرة أعضاء يمثلون تركيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، وبلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والروسيا ، ويوغوسلافيا .

وتركت الاتفاقية الباب مفتوحاً لانضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليها ، وكذلك أية دول مستقلة تطل على البحر الأسود لم يرد ذكرها من بين اسماء الدول الأعضاء .

وقد نص فى اتفاقية القناة على أن تعقد لجنة القناصل نوعين من الاجتماعات : اجتماعات طارئة فى كل حالة تتهدد فيها سلامة القناة أو حرية المرور بها . وتعقد هذه الاجتماعات بناء على دعوه ثلاثة من أولئك القناصل ، وتكون تحت رياسة عميدهم على أن يكون بطبيعة الحال من ممثلى الدول الأطراف فى الاتفاقية ، وإلا كانت الرياسة لأعلاهم درجة أو أقدمهم فى المنصب أو أكبرهم سناً طبقاً للعرف السائد فى تعيين عميد السلك السياسى أو القنصلى فى عاصمة كل دولة . ويكون الهدف من الاجتماعات الطارئة هو إجراء التحقيقات اللازمة ، ثم قيامهم بإبلاغ الحكومة المصرية بالخطر الذى يتبينونه حتى تتخذ هـــذه الحكومة الاجراءات التى تكفل حماية القناة وحرية استخدامها .

أما النوع الثانى من الاجتماعات فهو الاجتماعات التى تعقد مرة كل سنة للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وأضاف النص أنه يجوز أن يشترك فى الاجتماعات السنوية مندوب يمثل الحكومة المصرية . وتعقد الاجتماعات السنوية برياسة مندوب خاص تعينه الحكومة العثمانية لهذا الغرض . وفى حالة غيابه يحل محله فى الرياسة مندوب الحكومة المصرية . أما لجنة المضايق فجعلت رياسة اجتماعاتها لمندوب تركيا بصفة دائمة . ويكون الهدف من الاجتماعات السنوية للجنة القناصل هو التحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية فى السنة السابقة على الاجتماع . وعلى اللجنة أن تطلب إلغاء كل عمل أو تفريق كل حشد ، على أحد جانبى القناة ، يمكن أن يكون الغرض منه أو يؤدى إلى المساس بحرية الملاحة وسلامتها التامة . ويرى أحد أساتذة القانون أن الهدف من الاجتماعات السنوية هو المحافظة على ديمومة مهمة لجنة القناصل والتنبيه إلى قيامها حتى لا يأتى عليها مرور الزمان ويطويها فى زوايا النسيان . فقد تسير الأمور بشكل طبيعى لسنوات كثيرة مما لا يتطلب عقد اجتماعات

طارئة ، فيكون فى الاجتماعات السنوية مايدعو إلى وجود رقابة ، ولو شكلية ، على تنفيذ الاتفاقية يتولاها ممثلو الدول الموقعة عليها(١) . وعلى مبلغ علمنا لم تعقد لجنة القناصل أى اجتماع طارىء أو دورى ، لأن بريطانيا كانت تعارض إنشاء هذه اللجنة من حيث المبدأ خشية أن تعصف اللجنة بالنفوذ البريطانى الانفرادى المتفوق فى منطقة القناة المستند إلى الاحتلال العسكرى ، فبقيت لجنة القناصل مجرد نص قانونى ميت لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ الفعلى . أما لجنة المضايق فقد ظلت تمارس اختصاصاتها إلى أن استطاعت الحكومة التركية التخلص من أحكام اتفاقية المضايق ، وعقدت اتفاقية مونتريه فى ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وتسلمت اختصاصات اللجنة وأعادت تحصين المضايق وتولت بنفسها مهام الدفاع عنها .

ثالثا : تجريد منطقة المضايق من السلاح :

ونصت الاتفاقية على تجريد الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق من السلاح ، وأن يمتد هذا التجريد ليشمل جميع الجزر الموجودة فى بحر مرمرة وعدة جزر فى بحر إيجه . واستثنيت من نزع السلاح بعض جزر صغيرة تركية ويونانية . وقد حددت المادة الرابعة من الاتفاقية تحديداً دقيقاً المناطق التى ينزع سلاحها(٢) . كما جاء فى الاتفاقية أن هذه المناطق تجرد من السلاح والتحصينات العسكرية تجريداً تاماً ، فينقل من جميع أرجائها سلاح المدفعية والسلاح الجوى الحربى والقواعد البحرية وألا ترابط فيها قوات مسلحة ، ويسمح فقط بوجود قوات الشرطة والجندرمة للمحافظة على الأمن العام . وذهبت الاتفاقية إلى أبعد من ذلك فحددت الأسلحة التى

---

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٦ .

(٢) بالإضافة إلى الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق وكذلك الجزر ، جردت من السلاح منطقة برية شاسعة تشمل الجزء الشرقى من إقليم تراقيا الشرقية وقد استردت تركيا هذا الإقليم بمقتضى معاهدة لوزان . وشمل التجريد من السلاح أيضاً جزءاً من الأراضى اليونانية .

تزود بها هذه القوات ، فقالت إنها المسدسات والسيوف والبنادق وأربعة مدافع من طراز لويس . ولا تحتفظ هذه القوات بأى سلاح أو عتاد أو أدوات حربية من سلاح المدفعية فى الجيش التركى . أما المياه الإقليمية للمناطق والجزر المنزوعة السلاح فيسمح بوجود غواصات فيها بعد أن تنزع منها الآلات وأدوات الحرب بحيث تغدو هذه الغواصات فى وضعها الجديد مجرد سفن عادية (المادة ٨) .

نتائج نزع السلاح من منطقة المضايق :

كان تجريد المضايق والجزر من السلاح وما ترتب عليه من آثار سجلت فى صلب المعاهدة هو أسوأ ما جاءت به معاهدة لوزان بخصوص موضوع المضايق ، فقد كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة ، وانتهاكاً لسيادتها وانتزاعاً لحق مقدس لها هو الدفاع عن أراضيها . ولم يكن فى مقدور الوفد التركى وهو يمثل دولة هزمت فى الحرب العالمية الأولى ويتفاوض مع دول أوروبية كبرى خرجت منها منتصرة أن يستخلص لبلاده أكثر مما حصل عليه . وقد اتبع الوفد التركى فى مفاوضات لوزان ما يسمى «الدبلوماسية المرنة» . فقد حصل على مكاسب كثيرة وضخمة لا شك فيها.وحسبه أن معاهدة لوزان قد محت عار معاهدة سيفر.وكان إصرار الدول الأطراف فى معاهدة لوزان على ضمان حرية المرور فى المضايق هو الذى اتخذ ذريعة لنزع سلاح هذه المنطقة . ومع ذلك فقد حاولت هذه الدول استرضاء تركيا أو تعويضها عن تجريد هذه المنطقة من السلاح ، فتعهدت الدول الكبرى منها بضمان سلامة المضايق والمناطق المجاورة لها من كل اعتداء ، وما قد يتطلبه هذا الضمان من التدخل الحربى لأربع دول كبرى دفاعاً عن الأراضى التركية ، مما يجعل المضايق منطقة مشمولة بحماية دولية . وقد جاءت المادة (١٨) من اتفاقية المضايق على النحو التالى :

« إن الدول السامية المتعـاقدة ، وهى ترغب فى أن تؤكد أن نزع سلاح المضـايق والمناطق المجاورة لهـا لن يشكل خطراً

غادراً (١) على الأمن الحربى لتركيا ، وأن أى عمل حربى لن يعرض للخطر حرية المضايق أو سلامة المناطق المجردة من السلاح ، فقد اتفقت على الآتى :

« إذا تعرضت للخطر حرية الملاحة فى المضايق أو سلامة المناطق المنزوعة السلاح نتيجة الإخلال بتنفيذ المواد الخاصة بحرية المرور ، أو نتيجة هجوم مفاجىء ، أو بعض أعمال حربية ، أو تهديد بالحرب ، فإن الدول السامية المتعاقدة ، وبخاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان ، تعمل معاً ، لمواجهة مثل هذا الإخلال ، أو الهجوم ، أو أى عمل حربى آخر ، أو التهديد بالحرب بجميع الوسائل التى يقررها مجلس عصبة الأمم لهذا الغرض .

« وحالما ينهى الظرف الذى تتطلب اتخاذ الإجراء المنصوص عليه فى الفقرة السابقة ، ينفذ تنفيذاً دقيقاً النظام الموضوع للمضايق وفقاً لنصوص هذه الاتفاقية »(٢) .

تقييم معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضايق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة بديلة لها هى معاهدة لوزان انتصاراً للقومية التركية . فقد استطاع مصطفى كمال أن يتحدى بريطانيا

---

(١) غير قابل للتبرير أو العذر un danger injustifiable

(٢) تجد النص الرسمى الكامل لمعاهدة لوزان فى :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No.16, Cmd. 1929.

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Turkey No. 1. Cmd, 1814, "Lusanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923" (Proceedings) .

وقد دخلت المعاهدة دور التنفيذ اعتباراً من اليوم السادس من شهر أغسطس — آب — عام ١٩٢٤ بعد أن أودع فى باريس العدد المطلوب من تصديقات الدول الأطراف فى المعاهدة .

ومما هو جدير بالذكر أن حكومة موسكو وقعت على اتفاقية المضايق فى الرابع عشر من شهر أغسطس — آب — عام ١٩٢٣ ، ثم امتنعت عن التصديق عليها .

وحليفاتها ، وأن يحملها على إلغاء معاهدة فرضتها على بلاده وهى فى حالة الهزيمة والانكسار . والمعنى الهام الذى انطوى عليه عقد معاهدة لوزان هو إعادة إنشاء سيادة تركية كاملة على معظم الأقاليم التى تتكون منها فى الوقت الحاضر جمهورية تركيا(١) ، كما قررت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان يعد انتقاصاً لسيادة الدولة فى المجالات التشريعية والقضائية والتنفيذية والاقتصادية . ولذلك كان إلغاء الامتيازات الأجنبية استكمالا لسيادة الدولة .

ومن بين جميع الدول التى لقيت الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى كانت تركيا هى الدولة الوحيدة التى نجحت ، بصلابة أبنائها واستبسالهم فى الكفاح وتمسكهم باستقلال بلادهم ، فى أن تستبدل معاهدة جديدة بمعاهدة ظالمة غير متكافئة . وتعد معاهدة لوزان فى مجموعها اعترافاً دولياً بالمطالب التركية القومية كما وردت فى الميثاق الوطنى . ويرى بعض المؤرخين العرب أن معاهدة لوزان تعد من وجوه عديدة خاتمة فصول المسألة الشرقية ، لأنه كان واضحاً أن بريطانيا وحليفاتها المنتصرة الاستعمارية حاولت فى معاهدة سيفر تصفية الإمبراطورية العثمانية تصفية نهائية وتصفية المسألة الشرقية معها ، لولا نهضة تركيا الحديثة الكمالية وقيامها من أنقاض الموت والدمار . فاضطرت الدول الحليفة — وقد انشقت فيما بينها فى سياستها نحو تركيا — إلى عقد مؤتمر لوزان ، وفيه نالت تركيا الحديثة امتيازات كثيرة واعترف بكيانها دولة مستقلة واستطاعت فيما بعد التخلص من قيود معاهدة لوزان(٢) .

وإذا كانت اتفاقية المضايق قد قررت تجريد منطقة المضايق من السلاح ، إلا أنها حافظت على إبقاء هذه المنطقة جزءاً لا يتجزأ من الوطن التركى ، وعلى إبقاء إستانبول داخل نطاق الوطن التركى . وكانت اليونان حريصة

---

(١) Lewis Bernard; op. cit, p. 254.

(٢) دكتور فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦

الحرص كله على ضم هذه العاصمة إليها . وكانت اتفاقية المضايق خطوة نحو استكمال سيادة الدولة عليها بإقامة التحصينات العسكرية فيها وبقيام القوات المسلحة التركية بالدفاع عنها ، وهو ما تقرر فى اتفاقية مونتريه Montreux المبرمة فى ٢٠ من شهر يوليو – تموز – عام ١٩٣٦ ، واشتركت فى التوقيع عليها عشر دول كما سنشير إليها إشارة سريعة فى موطن قريب فى نهاية هذا الفصل . ويمكن تشبيه معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضايق بالمعاهدة البريطانية المصرية التى عقدت فى ٢٦ من شهر أغسطس – آب – عام ١٩٣٦ فقد كانت هذه المعاهدة خطوة نحو الاستقلال التام الذى تحقق بعقد اتفاقية الجلاء فى ١٩ من أكتوبر – تشرين أول – عام ١٩٥٤ واستعادت مصر سيادتها التامة على منطقة القناة وحقها الكامل فى إقامة الاستحكامات العسكرية على ضفتى قناة السويس وانفرادها بالدفاع عنها وحماية أمنها .

وإذا كانت اتفاقية المضايق قد قررت حرية المرور فى المضايق للسفن الحربية والتجارية فى وقت السلم وزمن الحرب ، إلا أنها جاءت بأحكام كانت تقتضيها المصلحة العليا لتركيا ، وهى تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول فى حالة حرب مع تركيا .

لقد جاءت معاهدة لوزان بما سبق أن جاءت به معاهدة سيفر فيما يتصل بالرقابة على المضايق . ولكنها جاءت بهذه الرقابة مخففة بأن جعلت لتركيا الرياسة الدائمة للجنة المضايق ، وهبطت باليونان عضواً عادياً فى لجنة المضايق فأقصتها عن مركزها الممتاز كعضو – مع تركيا – لسلطات واختصاصات لجنة المضايق ، كما سبق أن ذكرنا ، وقضت على التمايز بين أعضاء اللجنة فجعلت لكل عضو صوتاً واحداً بصرف النظر عما إذا كان العضو يمثل دولة كبرى أو وسطى أو صغيرة . وقد حاول باحثان اشتركا فى مؤلف واحد إعطاء صورة عامة عن معاهدة لوزان وماجاءت به من مبادىء ، فقالا إن هـــذه المعاهدة قد أنشأت نظاماً لمرور السفن فى المضايق وللرقابة الدولية على هـــذا المرور . وهـــذا النظام عبارة عن مواءمة بين مصالح الدول المطلة على البحر الأسود وبخاصة مصالح الروسيا التى

كانت تتطلع إلى معاملة تميزها عن غيرها من الدول وبين دول المعسكر الغربى وبخاصة بريطانيا التى كانت تطمع فى تقرير حرية تامة للسفن فى عبورها المضايق (١).

ونخلص من هذا التقييم لمعاهدة لوزان أنها كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة وانتقاصاً لسيادتها على جزء من أراضيها على الرغم من أنها كانت تفضل من عدة وجوه معاهدة سيفر .

وقد أصدر مجلس النواب التركى(٢) قراراً فى ٢٣ من شهر أغسطس — آب — عام ١٩٢٣ بالموافقة على معاهدة لوزان . وكان هذا المجلس قد أصدر قبل ذلك بعدة أيام قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية . (٣) وفى ٢ من أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩٢٣ تم جلاء آخر قوات الاحتلال من إستانبول ، وقد دخلتها فى اليوم السادس من ذات الشهر القوات التركية تحت قيادة شكرى نايلى . ومن المصادفات العجيبة أنه فى هذا اليوم كان الداماد فريد باشا الصدر الأعظم السابق والخصم اللدود لمصطفى كمال ورفاقه وأحد أقطاب حكومة السلطان محمد السادس يلفظ أنفاسه الأخيرة فى مدينة نيس بجنوبى فرنسا .

---

(١) Shotwell J. T. and Deak F. ; Turkey at the Straits. p. 117.

(٢) كان المجلس الوطنى الكبير قد حل نفسه فى ١٦ من شهر أبريل — نيسان — عام ١٩٢٣ استعداداً لإجراء انتخابات جديدة جاءت بمجلس نواب يتكون من ٢٨٦ عضواً . وبدأ المجلس جلساته فى ١١ من شهر أغسطس — آب — عام ١٩٢٣ .

(٣) لما كانت جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميلى قد نجحت فى تحقيق أهدافها فى أثناء الكفاح من أجل تحرير الوطن التركى ، رأى مصطفى كمال تحويل هذه الجمعية إلى حزب سياسى حقيقى يخضع للتنظيمات الحزبية . وقد أصدر مصطفى كمال فى ٦ من شهر ديسمبر — كانون أول — سنة ١٩٢٢ أول بيان للصحافة عن تأسيس حزب جديد يسمى حزب الشعب . وطلب من المثقفين فى تركيا موافاته بآرائهم بالكتابة إليه شخصياً . وقد اجتمع حزب الشعب فى ٩ من شهر أغسطس — آب — عام ١٩٢٣ — أى قبل اجتماع مجلس النواب بيومين — واتخذ قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية وقد اتخذ هذا الحزب فى نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٩٢٤ اسماً آخر هو حزب الشعب الجمهورى تأكيداً فى أذهان الشعب للنظام الجمهورى . وتشير المراجع الأجنبية إلى اسم الحزب مختصراً على هذا النحو The R.P.P. أى The Republican People's Party.

إستانبول تفقد مركزها كعاصمة :

غدت إستانبول ، بعد تجريدها من السلاح طبقاً لاتفاقية المضايق ، مدينة مكشوفة معرضة للهجوم عليها براً وبحراً . ورأى مصطفى كمال نقل العاصمة إلى أنقرة وهى المدينة التى تقع فى قلب الأناضول ، الوطن التركى الأصيل ، وتتمتع بحصانة طبيعية تجعلها بمنأى عن هجوم الأعداء ، ومقبرة لهم إذا حاولوا اجتياز الجبال والهضاب المحيطة بها للوصول إليها أو الاقتراب منها . وقد اتخذ مجلس النواب التركى فى ١٣ من شهر أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢٣ قراره بنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة (١) . وكان نقل العاصمة ضربة عنيفة لإستانبول ، فقد حرمت من مركز ظلت تشغله أربعمائة وسعين سنة كعاصمة لإمبراطورية إسلامية وعاصمة من أكبر عواصم العالم وكبرى عواصم الشرق على الإطلاق .

ويرى أحد كبار المؤرخين الإنجليز أن هذا الإجراء كان بمثابة عملية قطع أو فصل لماضى الدولة العثمانية عن حاضر تركيا . ويبرر نقل العاصمة بأنه كان نتيجة منطقية لإلغاء نظام السلطنة ، فقد ذهب السلطان ، ولم تعد إستانبول فى ظل الأوضاع الجديدة مكاناً صحياً لتكون مقراً لحكومة الثوار الذين أطاحوا بالسلطان العثمانى . ويمضى هذا المؤرخ فيقول إن الماضى الحافل بالأمجاد عالق بالأذهان : القصور الرائعة والمساجد الفخمة والمبانى العظيمة التى تزخر بها إستانبول ، وضاحيتها بيرا Pera موطن السفارات الدبلوماسية وموئل الجاليات الأجنبية والتجارة من مختلف الجنسيات ، كل أولئك كان مرتبطاً أشد الارتباط بالماضى فى الواقع الملموس ومستقراً فى أذهان الشعب التركى . فلم تكن إستانبول صالحة لتكون مركزاً لتركيا الحديثة التى أراد مصطفى كمال أن يقيمها ، ومن ثم اختيرت مدينة أخرى لتكون عاصمة جديدة كى تكون رمزاً يجسد التغييرات التى أراد إدخالها . فالدولة الجديدة

---

(١) كان حزب الشعب قد وافق فى ٩ من أكتوبر — تشرين أول — عام ١٩٢٣ ، بناء على اقتراح عصمت باشا ، باتخاذ أنقرة عاصمة للدولة الجديدة بدلا من إستانبول . وبعد أربعة أيام وافق مجلس النواب على هذا التعديل .

لم تستند إلى أسرة حاكمة ، ولم تقم على إمبراطورية ، ولا على عقيدة Faith ، وإنما قامت على الشعب التركى ، ومن ثم كانت عاصمة هذه الدولة فى قلب الوطن التركى(١) . وهذا الرأى يحمل فى معظم عناصره طابع التبرير أكثر مما يحمل من طابع التفسير ، لأن التصرفات الأولى لمصطفى كمال كانت تنم عن اتجاهه إلى الأناضول بصفتها الوطن التركى الأصيل يتخذ منها مهاداً لحركته الثورية . فنى الأناضول تكونت فى شهر ديسمبر — كانون أول — عام ١٩١٨ المجموعات الأولى للمقاومة . وفى الأناضول اجتمع مؤتمر أرضروم ثم مؤتمر سيواس فى ٢٣ من شهر يوليو — تموز — وفى ٤ من شهر سبتمبر — أيلول — عام ١٩١٩ على التوالى : ووقع اختيار مصطفى كمال فى وقت مبكر على أنقرة ، وكانت وقتذاك قرية جبلية صغيرة ، واتخذ منها منذ اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر — كانون أول — عام ١٩١٩ مقراً للجنة الدائمة المنبثقة عن «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميلى» وهى اللجنة التى كانت بمثابة مركز قيادة الثورة ، وكان مصطفى كمال رئيساً للجمعية واللجنة معاً . وفى أنقرة اجتمع المجلس الوطنى الكبير فى ٢٣ من شهر أبريل — نيسان — عام ١٩٢٠ واتخذها مقراً رسمياً دائماً للمجلس . وفى أنقرة تكون أول مجلس وزراء شكلته قيادة الثورة فى ليلة ٣ — ٤ من شهر مايو — آيار — عام ١٩٢٠ . وكانت حكومة أنقرة هى التى عقدت اتفاقيات دولية مع كل من الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية R.S.F.S.R وجمهورية فرنسا ومعاهدات صداقة مع كل من جورجيا وفارس وأفغانستان . وأصبحت أنقرة مقرونة فى أذهان الرأى العام التركى والرأى العام الدولى باسم الثورة الكمالية التى نجحت فى تحرير الوطن من دنس الاحتلال البريطانى والفرنسى والإيطالى واليونانى . كما أن رجال حكومة أنقرة هم الذين قاموا بإجراء مفاوضات لوزان التى انتهت بعقد المعاهدة . فكل هذه شواهد أو دلائل تنم عن اتجاه مصطفى كمال لنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة . أما الرأى

---

(١) Lewis Bernard, op. cit., pp. 260-261.

الذى يذهب إليه الأستاذ لويس برنارد بأن جمهوريه تركيا لم تقم على أساس أسرة حاكمة ، فإن إستانبول لم تكن مسقط رءوس السلاطين الأوائل ولم تكن مرتعاً لصباهم . وإذا كانت إستانبول تزخر بالقصور والمساجد وغيرها من المنشآت التى تعد من روائع الفن المعمارى ومظهراً مجسداً للحضارة العثمانية ، فإن جمهورية تركيا هى امتداد للدولة العثمانية ، وهى دولة ذات ماض حافل بالأمجاد . والاثنتان — السلطنة والجمهورية — تطاولان الزمان وجوداً .

والواقع أنه كانت هناك ثلاثة بواعث أملت على مصطفى كمال نقل العاصمة من إستانبول .

أولا : كانت إستانبول فى متناول قذائف الأساطيل البحرية للأعداء ، كما كان يسهل حصارها برياً ومهاجمتها على عكس أنقرة .

ثانياً : كانت إستانبول تعج بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية اليونانية ، وكانت كثيفة العدد يقيم أفرادها فى حى الفنار . وكان هذ الحى لايزال مقراً للبطريرك اليونانى ومقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . ومما هو جدير بالذكر أن أعضاء الوفد التركى فى مفاوضات لوزان طلبوا نقل مقر البطريرك والكنيسة خارج إستانبول . ولم يجدوا استجابة لطلبهم (١).

ثالثاً : كانت إستانبول فى نظر مصطفى كمال مقراً لعلماء الدين وأنصار السلطنة . وكان يخشى أن يقوموا بحركات مضادة تهدد النظام الجمهورى الوليد . أما أنقرة فكانت مدينة ثورية لحماً ودماً .

ومع ذلك فعلى الرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على حرمان إستانبول من مركزها كعاصمة للدولة ، فإنها لاتزال أكبر مدن تركيا من حيث الكثافة السكانية ، فطبقاً لتعداد سنة ١٩٧٥ بلغ عدد سكان جمهورية تركيا زهاء ٤١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة موزعة على ٦٧ مقاطعة . وبلغ عدد سكان

(١) Miller W., op. cit., 556-557.

إستانبول أربعة ملايين نسمة ، بينما يبلغ تعداد العاصمة الجديدة ، أنقرة ، زهاء مليون ونصف مليون نسمة ، تليها مدن أزمير ، وأضنا ، وإسكى شهر ، وبورصة (بروسة) ، وسمسون ، وقيسرى ، وغازى عنتاب ، وسيواس ، وديار بكر . فضلا عن كنوزها وثرواتها الفنية التى تتمثل فى قصورها التاريخية ومساجدها ومبانيها ومتاحفها .

مقارنة بين معاهدتى سيفر ولوزان فيما يختص بالمضايق :

يلاحظ أن هاتين المعاهدتين قد قررتا إنشاء لجنة المضايق . وقد قامت هذه اللجنة فى المعاهدتين على تأكيد مبدأ الإشراف الدولى على تنظيم مرور السفن والطائرات فى منطقة المضايق . ولكن جاءت معاهدة لوزان بعدة مبادىء كانت فى مصلحة تركيا . كان أول هذه المبادىء أنها استبعدت اليونان كدولة تشارك تركيا فى السيادة على منطقة المضايق التى هى جزء من الوطن التركى ، وهو مبدأ خطير كانت قد استحدثته معاهدة سيفر حين نصت على أن لجنة المضايق تستمد من تركيا ومن اليونان مصدر وجودها وسلطاتها واختصاصاتها ، وبعبارة أخرى كانت تركيا واليونان شريكتين فى مصدر السيادة . ثم جاءت معاهدة لوزان فجعلت تركيا الدولة الوحيدة التى تستند إليها لجنة لمضايق فى وجودها ، وأصبحت اليونان عضواً عادياً فى لجنة المضايق . كما قررت معاهدة لوزان انفراد تركيا بالرياسة الدائمة للجنة المضايق ، وشجبت لوزان التمايز بين أعضاء اللجنة الذى جاءت به معاهدة سيفر التى جعلت لبعض أعضاء اللجنة صوتين لكل منهم وجعلت للبعض الآخر صوتاً واحداً . وكانت تركيا من الفريق الثانى ذى الصوت الواحد . فساوت معاهدة لوزان بين مندوبى جميع الدول الكبرى والصغرى بأن جعلت لكل مندوب دولة صوتاً واحداً . ولم يرد فى معاهدة لوزان الشرط الحتمى الذى جاءت به معاهدة سيفر وهو أن تكون الدول الممثلة فى لجنة المضايق أعضاء فى عصبة الأمم بحيث لا تباشر عملها فى اللجنة إلا بعد قبولها فى عصبة الأمم . وكان المقصود بهذه الدول وقتئذاك الروسيا وتركيا وبلغاريا . أما معاهدة لوزان فقد قررت أن يكون تصديق كل دولة على المعاهدة هو

شرط ممارستها لعضويتها فى نشاط اللجنة ، وهو شرط أدنى إلى العدالة والاعتدال. لأنه قد تقوم عقبات تحول دون انضمام الدولة إلى عصبة الأمم ، بينما التصديق على المعاهدة هو عمل تمارسه الدولة بمحض رغبتها وإرادتها ولا يتطلب إصداره موافقة دول أو هيئات أجنبية (١) .

---

(١) التصديق La Ratification هو قبول المعاهدة رسمياً من السلطة التى تملك عقد المعاهدات نيابة عن الدولة . وهذه السلطة هى إما رئيس الدولة منفرداً ، وإما رئيس الدولة مشتركاً مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعاً للنظام الدستورى المعمول به فى كل دولة من الدول الأطراف فى المعاهدة من حيث السلطات التى تمنحها الدساتير لرؤساء الدول فى شأن إبرام المعاهدات والتصديق إجراء واجب لنفاذ المعاهدة فى الدائرة الدولية يؤيد ضرورته القانون الدولى الوضعى وكذلك العرف المتواتر بين الدول .

وقد اعتمد فقه القانون الدولى العام فى ضرورة التصديق على المعاهدات على عدة أسانيد ، منها خطورة الالتزامات الدولية المنصوص عليها فى المعاهدات ، وإتاحة الفرصة لحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيها وللهيئات النيابية فيها لإعادة النظر فى المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية ، فقد ترى فيما اتفق عليه مندوبوها تعارضاً مع مصالحها أو انتقاصاً من حقوقها أو قد تطرأ ظروف تدعوها إلى العدول عما كانت تراه من قبل فتمتنع عن التصديق . وبهذا الامتناع تسقط المعاهدة تلقائياً بالنسبة لها . وأخيراً فإن من بين أسانيد التصديق الرغبة فى تفادى مايحتمل التعلل به من أعذار بعد التوقيع بمقولة تجاوز المفاوضين لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق على المعاهدة أية مسئولية دولية، ولكن لا يلحق المعاهدة فى هذه الحال وصف النفاذ . فالتصديق لا يعتبر مجرد إجازة للمعاهدة ، بل هو الإعلان الحقيق لإرادة الدولة فى الالتزام بأحكام المعاهدة، وهو الذى يحدد اللحظة التى تصبح فيها المعاهدة ملزمة .

وهناك اجراء شكلى يستكمل به اجراء التصديق ، ويسمى تبادل وثائق التصديق أو إيداعها . فلكى ينتج التصديق آثاره القانونية فى الدائرة الدولية يجب أن تعلم به الدول الأخرى الأطراف فى المعاهدة . ويتحقق هذا العلم ، فى حالة المعاهدات الثنائية ، عن طريق تبادل الوثائق التى تفيد التصديق . أما فى حالة المعاهدات الجماعية فيتم عن طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، هى فى العادة عاصمة الدولة التى تم التوقيع فى إقليمها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذى تدخل به المعاهدة فى دور التنفيذ الدولى .

أنظر كلا من :

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، صص ٢١٤ — ٢٢٠

دكتور محمد حافظ غانم : مبادىء القانون الدولى العام . دراسة لضوابطه الأصولية ولأحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٢٦ .

فضل الثورة الكمالية فى تحسين وضع المضايق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة لوزان ومانجم عنها من تحسين الوضع السياسى نسبياً لمنطقة المضايق ثمرة من ثمار الثورة الكمالية. ولا جدال فى أن نجاح هذه الثورة كان مرده إلى القيادة الحكيمة التى اتسم بها مصطفى كمال ، فلم يلجأ إلى اجراءات تعسفية من اعتقال المواطنين بالآلاف وتعذيبهم وإهدار كرامتهم بل وآدميتهم ومصادرة أموالهم وتقديمهم إلى محاكمات صورية تصدر فيها أحكام بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة بناء على أوامر مسبقة . وكان حريصاً منذ بدء الثورة على إنشاء مجلس نيابى وفر له الاستقرار الزمنى والحماية الدستورية ، فاستطاع أن يقدم للمجتمع التركى الكثير من الخدمات . وكان رفاق مصطفى كمال مثالا حياً فى النزاهة والأخلاق والبعد عن استغلال النفوذ والإثراء غير المشروع وهتك الأعراض وما إلى ذلك . ولم يشكل هؤلاء الرفاق والأعوان ، كما فعل غيرهم فى دول أخرى ، مراكز قوى حتى أصبح كل منهم بمضى الأيام حكومة داخل الحكومة *imperium in imperio* . وتحضرنا فى هذه المناسبة جملة معبرة حكيمة ذكرها نيقولا مكيافيلى وهو يتكلم عن الأمير . وكان يقصد بالأمير فى هذه الجملة الحاكم أياً كان لقبه : إمبراطوراً أو ملكاً ، أو أميراً . وقد جاء فيها أن رجحان عقل الأمير وكفايته يقاسان بصفات الأفراد الذين يحيطون به والذين اختارهم لمعاونته فى شئون الحكم . فإذا كانوا على حظ موفور من الأمانة والكفاية والخلق كان ذلك دليلا ساطعاً على حكمة الأمير ، وإلا كان الرأى فى الأمير على عكس ما تقدم(١) .

موقف موحد لبريطانيا وحليفاتها من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية :

من المواقف السياسية والعسكرية الجديرة بالملاحظة أن بريطانيا

---

(١) انظر عرضاً لحياة مكيافيلى وآرائه السياسية فى كتابنا :
أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، الفصل الثانى وعنوانه :
ثلاثة من أعلام الفكر الأوروبى الحديث فى مطلع عصر النهضة . الجزء الخاص بمكيافيلى ، ص ص ٧١ — ٨٧ .

وحليفاتها وقفت موقفاً موحداً من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية التى فى أراضى كل منهما . ولذلك كان موقف هذه الدول من المضايق التركية مشابهاً إلى حد كبير لموقفها من قناة كييل La Canal de Kiel وهذه القناة تصل بحر الشمال ببحر البلطيق عبر الأراضى الألمانية(١). وقامت ألمانيا بحفرها دون أى تدخل أجنبى وافتتحت للملاحة سنة ١٨٩٦ ، وكانت تسمى أيضاً قناة غليوم نسبة إلى غليوم الثانى إمبراطور ألمانيـا وقتذاك (١٨٨٨ - ١٩١٩) . وكان الهدف من إنشائها حربياً أكثر منه تجارياً ، واعتبرت طريقاً ألمانياً بحتاً فى صميم الأراضى الألمانية . وكانت ألمانيا تمارس على هذه القناة جميع حقوق الملكية والسيادة والإدارة والاستغلال. ولم توضع اتفاقية دولية تقيد سلطة ألمانيا عليها ، فكان لها مطلق الحرية فى تكييف مركز هذه القناة ، وفى أن تمنع مرور أية سفينة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ولقيت فيها ألمانيا الهزيمة . وكان من الطبيعى أن يكون لقناة كييل نصيب ملحوظ فى أحكام معاهدة فرساى التى فرضت على ألمانيا . فقد نصت على تجريد هـــذه القناة ومداخلها من السلاح وتحطيم التحصينات العسكرية التى كانت موجودة فيها وتحريم إقامة تحصينات جديدة (المادة ١٩٥)، وهذه المادة تشبه ما تقرر فى اتفاقية المضايق من نزع سلاح منطقة المضايق ، كما أدرجت فى ذات المعاهدة أحكاماً تضفى على قناة كييل صبغة دولية نسبية. وجاءت هذه الأحكام فى سبع مواد (من ٣٨٠ إلى ٣٨٦) . ويهمنا فى هذه الدراسة بوجه خاص المادة ٣٨٠ فقد نصت على أن « تكون قناة كييل ومنافذها حرة ومفتوحة دائماً على قدم المساواة التامة للسفن الحربية والتجارية لجميع الشعوب التى فى حالة سلم مع ألمانيا» . ويتفق هذا النص مع ماورد فى اتفاقية المضايق حين نصت على أنه فى زمن الحرب وإذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيكون المرور عبر المضايق مقصوراً على سفن الدول المحايدة ، بمعنى تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول فى حالة حرب مع تركيا .

---

(١) تبدأ القناة من ميناء كييل الحربى على بحر البلطيق إلى مصب نهر الإلب Elbe على بحر الشمال .

وقررت معاهدة فرساى فى المادة ٣٨١ تطبيق مبدأ المساواة على السفن التى تستخدم قناة كيل تطبيقاً دقيقاً بالنص على أن حق المرور بالشكل الذى تقرر لجميع الدول التى فى حالة سلم مع ألمانيا يجب أن تتمتع به هذه الدول وكل ما يتبعها من أشخاص وأموال وسفن ومراكب على قدم المساواة التامة دون تمييز بينها وبين رعايا وأموال وسفن ومراكب ألمانيا أو الدولة الأولى بالرعاية . « وألا تعوق مرور الأشخاص والسفن والمراكب عوائق أخرى إلا ما كان نتيجة النصوص الخاصة بالشرطة أو الرسوم أو التدابير الصحية أو الهجرة أو المهاجرة ، وكذلك النصوص الخاصة باستيراد أو تصدير البضائع الممنوعة ، ويجب أن تكون هذه القيود مناسبة وتطبق على وجه التساوى وألا تعوق الحركة دون مبرر » . وفى اتفاقية المضايق نصوص مشابهة إلى حد كبير وتستهدف عدم التمييز بين جنسيات السفن على النحو الذى مر بنا وعدم السماح لتركيا — كدولة محايدة أو محاربة — باتخاذ أية إجراءات تعتبر تدخلا فى الملاحة عبر المضايق أمام سفن الدول المحايدة .

وجاءت المادة ٣٨٢ خاصة بتنظيم الرسوم وتحديد أنواعها ، فقررت ألا يفرض على السفن سوى الرسوم التى تغطى على وجه عادل نفقات صيانة وتنظيم الملاحة أو تحسين القناة أو مداخلها ، وأن يكون تقدير الرسوم على نحو لا يحتم فحص حمولة السفينة بالتفصيل حتى لا يتعطل مرور السفن. ونظمت المادة ٣٨٣ مسألة البضائع المارة Transit وجعلت إنزال وشحن البضائع وركوب المسافرين ونزولهم بالقناة مقصوراً على الموانىء التى تحددها ألمانيا . وعادت المادة ٣٨٤ إلى موضوع الرسوم فقررت عدم جواز جباية أى رسم فى القناة وفى مداخلها غير ما ورد ذكره فى هذه النصوص .

وقررت المادة ٣٨٥ أنه « يتعين على ألمانيا أن تتخذ الاجراءات المناسبة لإزالة العوائق والأخطار التى تهدد الملاحة ، وأن تكفل توافر شروط صلاحية الملاحة . ولا يجوز لها إقامة أشغال من طبيعتها عرقلة الملاحة بالقناة أو مداخلها » . ويفسر أحد اساتذة القانون المصريين الفقرة الأولى من هذه

المادة بأنها تعطى ألمانيا مهمة الدفاع عن قناتها واتخاذ سائر التدابير اللازمة لسلامة الملاحة بها وطمأنينتها على الدوام[١]. والواقع أن نص هذه الفقرة يكتنفه الغموض فهو لا يشير صراحة إلى تخويل ألمانيا حق الدفاع عن القناة لأن عبارة « إزالة العوائق والأخطار التى تهدد الملاحة » عبارة عامة .

وحددت المادة ٣٨٦ جهات الاختصاص للفصل فى المنازعات التى تنشأ نتيجة مخالفة أحكام المواد التى قررتها معاهدة فرساى فيما يختص بقناة كييل أو نتيجة الخلاف على تفسير هذه المواد ، فأجازت للدولة صاحبة الشأن أن تلجأ إلى « جهة القضاء التى تقيمها لهذا الغرض عصبة الأمم » وجهة القضاء هذه ليست إلا محكمة العدل الدولية الدائمة . كما نصت ذات المادة على أنه « لتفادى عرض المسائل القليلة الأهمية على عصبة الأمم تقيم ألمانيا فى كييل سلطة محلية تحاط بالمنازعات فى مرحلتها الأولى ، ولها حق إعطاء الترضية الممكنة للشكاوى التى يقدمها المندوبون القنصليون للدول المختصة » أى تقيم ألمانيا فى ميناء كييل محكمة محلية أو لجنة قضائية أو ما أشبه كدرجة أولى من درجات التقاضى تنظر فى المخالفات البسيطة وتقدم عنها الترضية الممكنة لقناصل الدول التى تقع المخالفات فى مواجهة ما يتبعها من سفن أو رعايا أو ممتلكات[٢] .

ومن مجموعة هذه المواد التى جاءت بها معاهدة فرساى يتضح أن قناة كييل خرجت من النطاق الوطنى البحت بعد أن كانت تعتبر فى ظله قناة داخلية تحت السلطان الكامل لألمانيا ، فأصبحت لها صفة دولية وتقررت حرية مرور جميع السفن التجارية والحربية على قدم المساواة لجميع الشعوب التى فى حالة سلم مع ألمانيا . وهذا الوضع السابق والوضع اللاحق لقناة كييل عقب معاهدة فرساى يشبهان الوضع الذى آلت إليه المضايق التركية عقب معاهدة لوزان .

---

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .

استمرت نصوص معاهدة فرساى نافذة إلى أن أعلنت ألمانيا فى ١٤ من نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٩٣٦ إلغاء هذه المعاهدة وتحللها من أحكامها ومنها ما يتعلق بقناة كييل . ولم يحتج على هذا الإلغاء من الدول الأطراف فى المعاهدة سوى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا (١) . واستردت ألمانيا سلطتها المطلقة على القناة وأخضعتها إخضاعاً تاماً لمصالحها .

ومرة أخرى يجىء التوقيت واحداً بالنسبة للمضايق التركية وقناة كييل . فقد استطاعت الحكومة التركية بالطرق القانونية الشرعية التى تتمثل فى الدبلوماسية المرنة والمصابرة واستغلال تطور الظروف الدولية — إلغاء النصوص الجائرة التى جاءت فى اتفاقية المضايق وعقدت معاهدة جديدة هى معاهدة مونتريه فى ٢٠ من يوليو — تموز — عام ١٩٣٦ وسنعرض لها بعد قليل .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ منعت ألمانيا أعداءها من المرور فى قناة كييل . ولما خرجت من هذه الحرب منهزمة واحتلت الدول المتحالفة الأربع الكبرى الأراضى الألمانية كان نصيب بريطانيا احتلال المنطقة التى تقع فيها قناة كييل فعادت الملاحة فى القناة حرة للجميع دون أن تنتظر بريطانيا إبرام معاهدة دولية لتوضيح المركز القانونى لقناة كييل ، وبذلك كانت حرية المرور فى قناة كييل تستند إلى الأمر الواقع ، بعد أن طويت معاهدة فرساى . ومرة أخرى طلبت حكومة موسكو فى عام ١٩٤٥ — بعد الحرب العالمية الثانية — وضع نظام جديد للمضايق التركية . .

اتفاقية مونتريه سنة ١٩٣٦ :

اشتد ساعد الجمهورية التركية فى المجال الدولى . وكانت قد ضاقت ذرعاً بالأحكام الجائرة المتصلة بموضوع المضايق والتى جاءت بها معاهدة لوزان ، وبخاصة تجريد منطقة المضايق وجزرها من السلاح وقيام اللجنة الدولية —

(١) Oppenheim L., International Law. London 1937, Part I. P. 379.

لجنة المضايق — بالإشراف على حرية المرور فى المضايق . وأرادت أن تتخلص من هذه القيود لتتولى الدفاع بنفسها عن المضايق وإلغاء لجنة المضايق تأكيداً لسيادة الدولة على هذه المناطق التى هى جزء من الوطن التركى .
ومنذ سنة ١٩٣٣ قامت الحكومة التركية باتصالات دبلوماسية مع الدول ابتغاء تعديل أحكام معاهدة لوزان فيما يختص بموضوع المضايق . وجاء اضطراب العلاقات الدولية فى سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ عاملا ساعدها على تحقيق مطالبها . فقد جاء الغزو الإيطالى للحبشة فى هاتين السنتين نذيراً بتزايد الخطر الفاشستى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وأحدث بدوره تقارباً بين تركيا وبريطانيا . وعقد مؤتمر فى مونتريه Montreux بسويسرا فى الفترة من ٢٢ يونيو — حزيران — إلى ٢٠ يوليو — تموز — سنة ١٩٣٦ اشتركت فيه عشر دول، هى : أستراليا وبلغاريا وفرنسا واليونان واليابان ورومانيا والاتحاد السوفييتى ويوغوسلافيا فضلا عن بريطانيا وتركيا . وقد أسفر هذا المؤتمر عن عقد اتفاقية مونتريه فى ٢٠ من يوليو — تموز — سنة ١٩٣٦ .

وقد استردت تركيا بمقتضى الاتفاقية الجديدة حقها فى تحصين منطقة المضايق . ولم تتوان فى مباشرة هذا الحق استكمالا لسيادتها على هذه المنطقة والتى كانت قد سلبت جزءاً منها معاهدة لوزان . كما استردت حقها فى الدفاع عن هذه المنطقة التى غدا شأنها شأن سائر أجزاء الوطن التركى .

كما خولتها اتفاقية مونتريه اختصاصات اللجنة الدولية ، وعدلت لصالح الحكومة التركية شروط مرور السفن التجارية والحربية سواء فى وقت السلم أو زمن الحرب . ولن نتعرض لتفاصيل هذه الاتفاقية لأنها تتصل بتاريخ جمهورية تركيا ، ولا نريد التوسع فى تاريخ هذه الفترة .

---

(١) تجد نص هذه الاتفاقية فى كل من :

Actes de la Conférence de Montreux concernant le régime de détroits. Liège, 1936.

Survey of International Affairs, 1936, pp. 584-651.

المذكرة السوفيتية سنة ١٩٤٦ :

ولنفس السبب لن نتعرض لتفاصيل المذكرة السوفيتية التى قدمتها حكومة الاتحاد السوفيتى فى ٧ من أغسطس — آب — سنة ١٩٤٦ إلى حكومات تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وطلبت فيها تعديل أحكام اتفاقية مونتريه تأسيساً على أن اتفاقية مونتريه لم تحقق سلامة دول البحر الأسود، ولم تضمن عدم استخدام المضايق لأغراض معادية لهذه الدول ، إذ دخلت ، فى خلال الحرب العالمية الثانية ، بعض السفن المعادية التابعة لدول المحور ، البحر الأسود ، عبر المضايق وباشرت نشاطاً معادياً للاتحاد السوفيتى ، وتأسيساً على أن الدول الكبرى كانت قد وافقت فى مؤتمر بوتسدام—ضاحية برلين—والذى عقد فى الفترة من ١٧ من يوليو— تموز إلى ٢ من أغسطس— آب — سنة ١٩٤٥ عقب تسليم ألمانيا على ما رأته الحكومة السوفيتية من ضرورة وضع نظام جديد للمضايق يتناسب مع مركزها الجديد بعد أن خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية . وكانت المذكرة السوفيتية قد طالبت بخمسة مبادىء تكون أساساً لتعديل اتفاقية مونتريه (١) . وكانت هذه المبادىء هى :

١ — تظل المضايق مفتوحة دائما لمرور السفن التجارية التابعة لجميع الدول .

٢ — تظل المضايق مفتوحة دائما لمرور السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود .

٣ — عدم السماح بمرور السفن الحربية التابعة لدول من غير دول البحر الأسود إلا فى أحوال خاصة محددة .

٤ — تقع مسئولية تحديد نظام للمضايق — وهى الطريق الوحيد للبحر الأسود — على عاتق تركيا وبقية دول البحر الأسود .

---

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨٦ — ٣٨٧

٥ - تتعاون تركيا والاتحاد السوفييتي - باعتبارهما أكثر الدول مصلحة وأقدرها على ضمان حرية الملاحة وسلامة المضايق في تنظيم الدفاع عن المضايق ومنع الدول الأخرى من استخدامها في أغراض معادية لدول البحر الأسود (١).

وقد أظهرت تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا ميلا إلى قبول المطالب أو المبادئ الثلاثة الأولى. ولكنها عارضت المبدأين الرابع والخامس. ورأت تركيا في المبدأ الخامس مساساً بسيادتها لأنه يؤدي إلى إشراك الاتحاد السوفييتي معها في الدفاع عن منطقة المضايق، وهي جزء من الوطن التركي، وتعتبر هذه المشاركة مساساً بالسياسة العليا للدولة. واقترحت الولايات المتحدة أن تتولى هيئة الأمم المتحدة الإشراف على الملاحة عبر المضايق(٢).

* * *

من هذا العرض لتاريخ البحر الأسود ومنطقة المضايق ولسلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية أو فرضت عليها نجد أن الدولة كانت تمارس سيادتها على الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور والبحر الأسود في معظم عصور تاريخها ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب. وكانت هذه الممارسة الفعلية إحدى الدعائم الأساسية التي قامت عليها سياستها العليا. كان البحر الأسود بحيرة عثمانية داخلية. وكانت منطقة المضايق بوجه خاص ذات صبغة عثمانية بحتة، فلم تكن الدولة بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ تسمح لأية سفينة حربية أجنبية بعبور المضايق في أوقات السلم فضلا عن زمن الحرب. أما السفن التجارية فكان اجتيازها المضايق متوقفاً على إرادة السلطان العثماني وحده. ثم أخذت تفقد تدريجياً هذه الصبغة العثمانية البحتة وتتجه نحو الدولية نتيجة عدة عوامل، منها نجاح الروسيا في غزو شبه جزيرة القرم في القرن الثامن عشر، دخول الدولة في دور الاضمحلال، وأطماع الدول

(١) دكتور مصطفى الحفناوي، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ص ٦٣٨ - ٦٣٩.

(٢) المرجعان السابقان. وانظر نصوص المذكرات المتبادلة بين حكومات موسكو وأنقرة وواشنجتن في كتاب الدكتور الحفناوي ص ص ٦٢٨-٦٤٥.

الأوروبية الكبرى فيها ، وكانت الروسيا ثم النمسا فى مقدمة هذه الدول ثم تبعتهما كل من بريطانيا وفرنسا ، وازدياد حدة التنافس الاستعمارى الأوروبى ورغبة الدول فى الاستئثار بالمناطق الحساسة فى الدولة ، وكان من بينها منطقة المضايق ، وازدياد أهمية الملاحة البحرية العالمية ، والنمو المطرد فى حجم وعدد الأساطيل التجارية والحربية لدول العالم ، والتحسن المستمر فى بناء واستخدام هذين النوعين من الأساطيل ، وتشعب مصالح الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . وكانت الدولة العثمانية فى أدوار اضمحلالها تواجه حيناً ضغطاً من دولة واحدة مثل الروسيا ، وأحياناً تواجه تكتلا من الدول الأوروبية الكبرى لفرض أنظمة معينة على منطقة المضايق كان فيها مساس بسيادة الدولة وتجريد لها من سلطانها على المضايق .



الفصل الحادي عشر

السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٥)

عدم صبغ الشعوب بالصبغة العثمانية :

لم تحاول الدولة عثمنة الشعوب التي دانت لحكمها سواء الشعوب الأوروبية أو الشعوب الإسلامية. ونقصد بالعثمنة L'Ottomanisation صبغ هذه الشعوب بالصبغة العثمانية أو ربطها برباط الحضارة العثمانية ، وهي حضارة ، مهما تهجم عليها بعض الباحثين ، فكانت حضارة قائمة فعلا واستقت مقوماتها وعناصرها من منابع متعددة كما سنوضح ذلك في كتاب قادم نفرده للنظم العثمانية . والحق أن السياسة العليا للدولة العثمانية اتسمت بالسلبية حيال عثمنة شعوبها . وكان مرد هذه السلبية إلى عاملين . كان العامل الأول هو سطحية الحكم العثماني بحيث مارست الدولة نفوذها في نطاق ضيق للغاية . وقد سبق أن شرحنا هذا العامل في فصل سابق . أما العامل الثاني فكان الاستعلاء الذي كان من السمات البارزة في الخلق العثماني . وقد اشترك في هذا الاستعلاء السلاطين والأتراك العثمانيون على السواء .

وقد بلغ الاستعلاء بالسلاطين حداً جعلهم يترفعون عن مخاطبة أباطرة أوروبا وملوكها بألقابهم المتعارفة في محيط العلاقات الدولية . كانوا يعتبرون الدول الأوروبية في عداد الإمارات أو الولايات ، ويعتبرون الأباطرة والملوك غير نظراء لهم . كانت صياغة الاتفاقات التي يعقدها السلاطين مع ملوك الدول الأوروبية تنم عن استعلاء بالغ على هؤلاء الملوك . وفي اتفاقيات الهدنة بين الدولة العثمانية والنمسا ترد هذه الديباجة « منحت هذه الهدنة عن تفضل من السلطان أبدى الانتصار إلى ملك النمسا المغلوب دوما » . كان

السلطان العثمانى إذا ما وعد أحد ملوك أوروبا بالمساعدة يأبى تسجيل هذا الوعد كتابة ، بل يكتفى به مجردا . وقد ظل سلاطين الدولة العثمانية أمداً طويلا يرفضون تعيين سفراء للدولة لدى الدول الأوروبية اعتقاداً منهم أنهم فى غنى عن سائر العالم ، وأن على رجال الدول التى تحتاج إليهم أن يحضروا إلى إستانبول باعتبارها عاصمة العالم كله . كان على سفراء الدول أن يقدموا كل سنة هدايا ثمينة على سبيل الجزية . أما البعثات السياسية التى يوفدها ملوك أوروبا إلى السلاطين من وقت إلى آخر فكان على أعضاء البعثات أن يرفعوا إلى القصر هدايا ثمينة رمزاً لعلو مركز السلطان بالنسبة لأولئك الملوك(١).واستمر هذا التقليد المسمى « التقدمة » معمولا به حتى ألغاه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) . كانت مقابلة السفراء والمبعوثين السياسيين للسلاطين تتم وسط مراسيم وتقاليد مزرية بكرامة أولئك السفراء . وقد قضت على معظم هذه التقاليد معاهدة ستيفاتوروك،ويطلق عليها البعض من قبيل الاختصار معاهدة توروك Torok (١١ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٦٠٦) التى عقدت بين الدولة العثمانية والنمسا ووضعت نهاية رسمية وشكلية لحرب استطالت ثلاث عشرة سنة تحت حكم ثلاثة سلاطين تعاقبوا على عرش الدولة (٢).

واستعلاء السلاطين كان نزعة أصيلة فى نفوسهم اشترك معهم فيها الأتراك العثمانيون كشعب نظر إلى الحرب على أنها مهمته الأولى ، ونظر إلى أصوله الجنسية الأولى على أنها أنقى وأرقى من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى ، فكان حفيظاً على هذه الأصول ، ضنيناً بالزواج من غير التركيبات العثمانيات. ونظر إلى الشعوب الأوروبية المسيحية نظرة ازدراء ، ونظر إلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء .

---

(١) محمد جميل بيهم . فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمتها . بيروت ، ١٩٢٥ ، انظر فيه : مظاهر العظمة فى التقاليد والمعاملات ص ص ٢٩١ — ٢٩٥ .

(٢) كان من بين أحكام هذه المعاهدة إلغاء السيادة العثمانية على إقليم ترانسلفانيا ، وقيام العلاقات بين الدولة العثمانية والنمسا على قدم المساواة .

سياسة الدولة تجاه الولايات الأوروبية المسيحية :

وقد أدى هذا الاستعلاء فى خلق العثمانيين إلى نتيجة طبيعية هى عزلة اجتماعية عاش فيها العثمانيون بعيدين عن الشعوب الأوروبية التى خضعت لهم. وكان العثمانيون أقلية عددية بالنسبة للسكان أصحاب البلاد الأصليين. وقد أدت هذه العزلة الاجتماعية بدورها إلى نتيجة أخرى هى عدم التزاوج بين الأتراك العثمانيين وبين سكان البلاد الأوروبية المفتوحة. ويلاحظ أن الإسلام يبيح زواج المسلمين من الكتابيات ، ولكن الأتراك أو الغالبية الساحقة جداً منهم لم يقبلوا على الزواج منهن . وكان موقفهم من المسيحيات شبيهاً بموقفهم من المسلمات فى الولايات الإسلامية . وقد أصبحت هذه الظاهرة وهى عدم الاتصال الجنسى الشرعى بين الفريقين تقليداً حرص عليه العثمانيون وارتاحوا إليه ارضاء للنزعة الاستعلائية التى كانت تغمر نفوسهم ، وبالتالى لم يحدث ما يمكن أن نطلق عليه « تتريك جنسى» للشعوب الأوروبية التى دانت لهم . وكان عدم نشر اللغة التركية بين هذه الشعوب هو الحصيلة النهائية للاستعلاء والازدراء والعزلة الاجتماعية وعدم التزاوج وعدم الانصهار وعدم الامتزاج بين الفريقين ، لأن الدولة لم تعمل على توفير الجو الصحى لانتشار اللغة التركية ، فظلت الشعوب الأوروبية التى خضعت للعثمانيين محافظة على لغاتها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها ودياناتها فى الأعم الأغلب وغير ذلك من مقومات حضاراتها . ومن هنا كان الأثر الحضارى للعثمانيين فى تلك الشعوب الأوروبية قليلا للغاية ، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية لا تدين لهم ثقافياً أو حضارياً. يقول المؤرخ الإنجليزى فيشر Fisher H. A. L « إن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوروبية وزناً ، ولم يدركوا قيمتها يوماً من الأيام ، ولذا عاش العثمانى غريباً أجنبياً فى أوروبا ، لانصيب له فى تقاليدها ، ولا يتعدى تفكيره فى لزوميات الحكم الإمبراطورى مبادىء الأوليجاركية — أى حكومة الأقلية — الاستئثارية ، وهى المبادىء التى

تعتمد على الرقيق ، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لاتصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية » (١) .

وإلى جانب انعدام وحدة اللغة ووحدة الفكر ووحدة الثقافة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن هناك وحدة فى الطقوس أو الأعياد أو التقاليد أو المثل أو غير ذلك من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، وبعبارة أخرى لم تكن هناك عناصر حضارية واحدة تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوروبية . وكانت نتيجة ذلك أن الشعوب الأوروبية التى خضعت للعثمانيين لم تتجاوب بشعور واحد مشترك بالولاء للسلطان العثمانى .

والحق أن « الوجود » العثمانى فى أوروبا قد عجز عن أن ينبت جذوراً تمده بالعناصر التى تحفظ عليه حياته حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة . فلما زال هذا « الوجود » العثمانى من أوروبا لم يخلف من بعده أثراً ذا بال سوى بصمات باهتة فى بعض الأقاليم البلقانية . ومضت الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية فى البلاد الأوروبية التى دانت لحكم العثمانيين فى مسارها العادى دون أن تشعر الجماهير أن زوال هذا السيد التركى المسلم الوافد عليها ، قد أعاق استئناف مسيرتها ، أو أن اختفاءه قد أدى إلى تغييرات جذرية فى حياتها ، سوى تخلصها من حكم إسلامى كانت تنظر إليه شذراً ويضيق صدرها به .

سياسة الدولة تجاه الولايات الإسلامية :

كانت سلبية العثمانيين فى البلاد الإسلامية التى استولوا عليها تضارع سلبيتهم فى الأقاليم الأوروبية التى دانت لهم . فلم يحاولوا صبغ الولايات الإسلامية بالصبغة العثمانية . وكانت تلك السلبية ترجع إلى ذات السببين أو العاملين اللذين تكلمنا عنهما ونحن نستعرض السياسة العليا للدولة تجاه ممتلكاتها الأوروبية ، وهما سطحية الحكم العثمانى والاستعلاء . وقد حال هذا

---

(١) فيشر هربرت : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . ترجمة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة وزميليه . قسمان . دار المعارف . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، القسم الثانى ، ص ٤٥٨ .

الاستعلاء الذى تعددت مظاهره دون قيام تقارب بين الحكام والمحكومين وجعل العثمانيين يعيشون بمنأى عن الشعوب الإسلامية ، ولولا الوشيجة الدينية التى كانت تربط بين الفريقين بعروة وثقى ،ولولا المذهب السنى الذى كان يوحد بينهما لكان التباعد بينهما تاماً . ولكن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية . وكان الدين عاملاهاماً فى تكوين عواطف الجماهير ، وبالتالى فى التخفيف من حدة هذا التباعد بين العرب والأتراك العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى القاهرة والتى امتددت زهاء ثمانية أشهر بعد دخوله العاصمة فى اليوم الثالث من شهر محرم سنة ٩٢٣ حتى مغادرته لها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣ (٢٦يناير –كانون ثان) إلى ١٠ سبتمبر–أيلول–١٥١٧–فى طريقه براً إلى إستانبول – قد ترامت إلى مسامعه أن الأتراك العثمانيين قد أقبلوا على الزواج من أرامل المماليك الذين لقوا حتفهم فى المعارك الرهيبة التى دارت بين الأتراك العثمانيين والقوات المملوكية . فأصدر أمراً إلى العثمانيين بالكف عن الزواج منهن ، كما أصدر أمراً عاماً إلى جميع قضاة مصر – ولم يكن النظام العثمانى قد نفذ بعد فى مرفق القضاء – بأن يمتنعوا عن عقد مثل هذه الزيجات (١). فانصرف الأتراك العثمانيون إلى الزواج من المصريات . وثارت ثائرة السلطان سليم الأول ، وأصدر أمراً توعد فيه بالشنق كل عثمانى تسول له نفسه الزواج من مصرية . يقول ابن إياس – وكان لا يزال معاصراً لهذه الأحداث . « وفى يوم الأربعاء الرابع من هذا الشهر(جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ (٢٤ يونيو – حزيران – ١٥١٧) «نادى السلطان فى عسكره أن كل من كان متزوجاً بأمرأة من نساء أهل مصر يطلقها ، وإلا يشنق من غير معاودة ، فمنهم من طلق زوجته ، ومنهم من أبقاها فى عصمته »(٢) . ومنذ ذلك الوقت غدا عدم زواج الأتراك العثمانيين بالمصريات وغيرهن من سيدات الشعوب الإسلامية التى خضعت لهم تقليداً حرص عليه

---

(١) ابن إياس، مصدر سبق ذكره، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ج ٥ ، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

العثمانيون وارتاحوا له بمضى الزمن إرضاء للنزعة الاستعلائية التى كانت تغمر نفوسهم .

وعلى غرار ماحدث فى الولايات العثمانية فى أوروبا انتهجت الدولة العثمانية نفس السياسة فى الولايات الإسلامية من حيث عدم الاندماج وعدم الانصهار بين الأتراك العثمانيين وأهالى الولايات الإسلامية. ولم يحدث تتريك جنسى لهذه الشعوب الإسلامية . وانكمشت اللغة التركية على نفسها فى مصر وفى غيرها من الولايات الإسلامية. فلم تكن تستخدم إلا فى دواوين الحكومة — وكانت قليلة العدد — ولا يتحدث بها إلا الأتراك العثمانيون فيما بينهم ، وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان . وكانت السلطات العثمانية تعمد إلى ترجمة الفرمانات الهامة والأوامر الحكومية إلى اللغة العربية ، وتتلى فى المساجد الكبرى وفى الأسواق والقياسر وغيرها من أماكن التجمعات الجماهيرية، أو يطوف بها المشاعلية كرجال إعلام(١). وهكذا تعددت مظاهر العزلة الاجتماعية بين الفريقين . وقنعت الدولة بالجزية السنوية ترسل إليها من كل ولاية ماعدا إقليم الحجاز(٢) وبذكر اسم السلطان مقروناً بالدعاء له على منابر المساجد فى

(١) المشاعلية مصطلح تاريخى له عدة مدلولات فى العصر العثمانى :

أولا : الرجال الذين يطوفون الشوارع والحارات يذيعون الأوامر والأنباء الحكومية الهامة. وكان يطوف فى معظم الأحيان أربعة من المشاعلية معاً ينادى اثنان منهم باللغة التركية والثالث باللغة العربية ، وفى بعض الأحيان كان يطوف اثنان فقط من المشاعلية معاً أحدهما ينادى باللغة التركية ، والآخر باللغة العربية . وكان المشاعلية يسيرون فى العادة ليلا يحملون المشاعل. ومن هنا جاءت تسميتهم المشاعلية . وكانوا يسمون أيضاً الضوية نسبة إلى الضوء .

ثانيا : السيافة والجلادون وهم الذين ينفذون أحكام الشنق والجلد. وجرت العادة على أن يكون المشاعلى الذى يقوم بهذه المهمة يهودياً عثمانياً أو مسيحياً عثمانيا .

ثالثاً : المشتغلون بالحرف الدنيئة مثل نزح الآبار والحمامات والمجارى

ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ١٤٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ٣٢٩ ، ٣٦٢ — ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ .

(١) كان من بين الامتيازات المقررة لهذه الولاية إعفاؤها من أداء الجزية ، وأن ترسل إليها كل عام الإيرادات المالية والعينية التى تغلها الأوقات المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأشراف والقائمين على خدمة الأماكن المقدسة هناك وعلى الفقراء المقيمين فى هذه البقاع . ولما جاء السلطان سليم الأول إلى مصر أمر بالإبقاء على هذا الامتياز بشقيه : الاعفاء من أداء الجزية وتقديم إيرادات الأوقاف مع تعزيزها .

خطب أيام الجمعة والأعياد ، وبالعملة تضرب باسمه ، وبوال عثمانى نائباً عن السلطان فى كل ولاية وهو يحمل رتبة الباشوية أو البكوية ، ويحمل ثلاثة أطواخ أو طوخين(١)،وبقوة عسكرية عثمانية ترابط فى البلاد ويطلق عليها أهل الولاية اسم « الحامية العثمانية » . وكان حصاد هذه السياسة أن احتفظت الشعوب الإسلامية وهى فى ظل الحكم العثمانى بلغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وغيرها من عناصر حضارتها . وكانت من أهم المقومات التى استندت إليها حركة القومية العربية فى أواخر القرن التاسع عشر .

ومن الملاحظات ذات المغزى العميق والتى ذكرها نابليون الأول فى مذكراته التى أملاها وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجنرال برتران Bertrand قوله إنه لما جاء إلى مصر قائداً عاماً للحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وجد أن المصريين لايتكلمون اللغة التركية ، وأنهم يجهلونها ، وأن هذه اللغة كانت غريبة عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غريبة عليهم سواء بسواء(٢) .

دراسة مقارنة بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

يجرنا هذا الموضوع إلى عقد دراسة مقارنة بين حركة الفتوح العثمانية وحركة الفتوح الإســلامية العربية التى قامت بها حكومة الخلفاء الراشدين فى المدينة المنورة ، ثم حكومة الأمويين فى دمشق ، ثم حكومة العباسيين فى بغداد . فإلى جانب السلبية المطلقة التى اتسمت بها سياسة الدولة العثمانية من حيث عدم محاولة عثمنة الشعوب الأوروبية والإسلامية التى دانت لها ، نجد السياسة الإيجابية النشيطة فى السياسة العليا للدولة الإسلامية – تخطيطاً وتنفيذاً ومتابعة – لتعريب الشعوب التى فتحت بلادها فى العراق والشام

---

(١) سنعرض لشرح هذا اللفظ فى ص ص ٣٦٤–٣٦٦ فى الفصل الثانى عشر عند الكلام على الوزراء .

(٢) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie(1798- 1799.) Mèmoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-meme à Sainte Héléne et publiés par Général Bertrand. Paris, 1847 2 vols. t II. 151.

ومصر وشمالى إفريقية وإسبانيا وغيرها(١)، ثم اتخاذ الوسائل السلمية لنشر الإسلام نشراً هادئاً بعيداً فى معظم الحالات عن العنف أو الإكراه .

الفروق بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

أولا : إن الفتوح الإسلامية العربية والفتوح العثمانية قامت بها دولتان إسلاميتان ابتغت كل منهما على نحو من الأنحاء نشر الإسلام فى الاتجاهات التى رسمتها ظروف كل منهما . وقد كان واضحاً وملحوظاً وبارزاً أن نشر الإسلام كان هدفاً رئيسياً من فتوحاتهما . وفى حالة الدولة العثمانية نجد أن فتوحاتها فى الأقاليم المسيحية قد تمت باسم الإسلام . وكانت الدولة العثمانية عقب نجاحها فى فتح إقليم مسيحى هام أو مدينة مسيحية ذات أهمية كبرى تبعث الرسل إلى حكام العالم الإسلامى وإلى الشعوب الإسلامية تزف إليهم وإليها أنباء الانتصارات الحربية فى تلك الأقاليم . ونذكر على سبيل المثال ما فعله فى هذا الصدد السلطان محمد الثانى حين فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ وحول اسم العاصمة إلى إستانبول ومعناها دار الإسلام. وجاء إلى القاهرة مبعوث من لدن السلطان العثمانى(٢) فى تلك السنة(٣) لإبلاغ إينال سلطان دولة المماليك الشراكسة الحاكم وقتذاك (١٤٥٣ — ١٤٦٠) أنباء هذا الانتصار الإسلامى الحربى الخطير . فأمر السلطان إينال

---

(١) يستثنى من هذه القاعدة من قواعد الحكم الإسلامى خارج الجزيرة العربية : بلاد فارس التى قبلت الإسلام ديناً ، ولكنها احتفظت بصبغتها الفارسية لأسباب ليست هذه الدراسة مجالا لشرحها .

(٢) يطلق ابن إياس عليه المصطلح التاريخى ، فيقول « وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان » ويطلق على القسطنطينية اسم القسطنطينية العظمى .

ابن إياس : نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى بعنوان صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢ (١٤٥٣ — ١٤٦٨) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٥ .

(٣) بلغ القاهرة فى يوم السبت ٢٣ من شوال ٨٥٧ (٢٧ من أكتوبر — تشرين أول — ١٤٥٣) ، وأقام فى القاهرة شهراً وغادرها يوم السبت ٢٢ من ذى القعدة ٨٥٧ (٢٤ من شهر نوفمبر — تشرين ثان — ١٤٥٣) .

بإقامة الزينات فى الأسواق والطرقات وإيقاد الشموع فى الشوارع وعلى المآذن، ودق البشائر السلطانية فى القلعة عدة أيام (١) .

ثانياً : إن القوات الإسلامية العربية فتحت أقاليم لم يكن سكانها يتكلمون اللغة العربية . وفتحت القوات العثمانية بلاداً لم يكن أهلها يتحدثون اللغة التركية . فوقف كل من الدولة الإسلامية العربية والدولة العثمانية كان متشابهاً من هذه الناحية .

ثالثاً : إن القوات الإسلامية العربية كانت تمارس عملياتها الحربية فى بلاد لم يكن أهلها يدينون بالإسلام . أما القوات العثمانية فمارست نشاطها الحربى فى ميدانين متباينين أشد التباين : الأقاليم المسيحية فى الأناضول والأقاليم الأوروبية فى البلقان وشرقى أوروبا ووسطها. وكان سكانها لايعتنقون بطبيعة الحال الدين الإسلامى. وفى ذات الوقت غزت بلاداً إسلامية كان أهلها يدينون بالإسلام . وكانوا يعتنقون المذهب السنى فيما عدا بلاد الدولة الصفوية فى فارس . وكان العثمانيون قد أقاموا من أنفسهم حماة للمذهب السنى فى العالم الإسلامى . وفى الميدان الأخير كانت الدولة العثمانية تحارب فى جو صحى ، وفى يدها ورقة رابحة . ومع ذلك فلم تقم — أو لم تحاول — التغلغل فى حياة الشعوب الإسلامية ابتغاء صبغها بالصبغة العثمانية . أما الفاتحون المسلمون العرب فقد واجهوا فى صدر الإسلام الموقف الشائك الصعب بسياسة مرسومة لتعريب الشعوب التى دانت لهم وتشجيعها على اعتناق الاسلام طوعاً عملا بالآية القرآنية الكريمة « لا إكراه فى الدين » وتابعوا فى إصرار تنفيذ هذه السياسة العليا المزدوجة .

اندفع المسلمون العرب فى موجات بشرية متلاحقة من قلب الجزيرة

(١) أبو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ص ص ٤٣٦ — ٤٣٨ .

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر . مرجع سبق ذكره، مجلة الجمعية التاريخية المصرية . المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو — آيار — ١٩٥١ ، ص ص ١٩٧ — ٢٢٨ .

Wiet Gaston; Histoire de la Nation Egyptienne t. IV, pp. 587-588.

العربية إلى خارجها فى أعقاب الفتوح الإسلامية لينتشروا فوق الرقعة الفسيحة الممتدة من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ثم استداروا مهاجرين حتى مصب نهر السنغال فى الوقت الذى عبرت فيه بعض البطون العربية إلى إسبانيا واستقرت فيها وصبغتها بالصبغة الإسلامية العربية التى ظلت تلازمها أحقاباً وأدهاراً وأعصراً .

وطبقاً للمخطط الإسلامى العربى وضعت الدولة الإسـلامية العربية أول الأمر قيوداً على اختلاط الجنود بأهالى البلاد الأصليين ، فأقامت لهم مهاجر ، كانت عبارة عن مدن جديدة أو معسكرات فى البصرة والكوفة فى العراق ، وفى بعض الأجناد فى بلاد الشام ، وفى الفسطاط فى مصر ، وفى القيروان فى تونس ، وفى بعض المراكز العسكرية فى بلاد المغرب الأقصى . وكانت السياسة العليا للدولة الإسلامية فى أول عهدها هى الاعتماد على العنصر العربى وحده فى الفتوح الإسلامية ، فالعرب هم عدة الحرب، وهم وقود الجهاد . ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يظل العنصر العربى محتفظاً بامتيازاته العسكرية كاملة ، وأن تظل شعلة الحماسة فيه متقدة لا تخبو . ولذلك حيل بين الأجناد العرب وبين الاشتغال بالزراعة . وكانت الدولة لا تجند فى الجيش إلا العرب وتعين لهم الأرزاق والأعطيات للإنفاق على عائلاتهم . ولكن بمضى الوقت لم تستطع الدولة المضى فى هذه السياسة بسبب زيادة الأعباء المالية على بيت المال، ولأن الأوضاع الإسلامية العربية فى البلاد المفتوحة كانت قد استقرت إلى حد بعيد. فبدأت الدولة الإسلامية فى العصر الأموى ترفع تدريجياً هذه القيود عن الجنود العرب المدونين ، فانطلقوا إلى حيازة الأرض والاشتغال بالزراعة إلى جانب حصولهم على العطاء من بيت المال . وعلى ذلك غادر هذا الفريق من الجنود العرب مراكز تجمعاتهم فى المعسكرات والمدن الكبرى وأقاموا فى المناطق الزراعية وبعثوا إلى ذويهم فى الجزيرة العربية يطلبون منهم القدوم إلى موطنهم الجديد(١).

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود : المجتمع العربى . القاهرة ، ١٩٦٠ ، الباب الثانى. تكوين المجتمع العربى . صص ١٥ — ٤٣ .

فحدث نوع من الاقتراب بين العرب والمهاجرين وبين أهالى البلاد المقيمين فى تلك المنطقة . واشتد هذا الاقتراب فى القرن الثانى الهجرى ومطلع القرن الثالث (الثامن الميلادى وبعض التاسع) حين ألغت الدولة الامتيازات التى كانت تعطى للعسكريين وفرضت عليهم الضرائب أسوة بغيرهم . وقد أدت هذه الإجراءات فى النهاية إلى انسياح العرب فى المناطق الزراعية واشتغالهم بالزراعة واختلاطهم بالسكان الأصليين والتزاوج معهم مما أدى إلى نتائج خطيرة من حيث التكوين الإثنوجرافى لذرارى هؤلاء السكان ونتائج أخرى خطيرة دينية ولغوية ، كان لها آثارها البعيدة فى الأقاليم التى فتحها العرب .

الارتباع :

غير أن المسلمين العرب لم يتقيدوا تماماً أول الأمر بهذا المخطط الذى كان أحد أركان السياسة العليا للدولة الإسلامية ، فقد بدأت طلائع الاقتراب بينهم وبين أهالى البلاد فى زمن مبكر جداً يرجع إلى أول عهد الفتوح الإسلامية الكبرى . وكان الارتباع هو أحد المسارب الأولى التى لجأ إليها الجنود العرب فى البلاد التى فتحوها.فى مصر على سبيل المثال كان الوالى يأذن لهم عند حلول فصل الربيع بمغادرة تجمعاتهم فى مدينة الفسطاط والتحرك داخل البلاد للإصابة من خيراتها ، فينطلقون يصطادون ، ويشربون اللبن الذى يقدمه المصريون إليهم ، ويأكلون الخراف التى يحصلون عليها منهم ، ويطلقون خيولهم ترعى فى حقول البرسيم لتسمن وتقوى ، وليس يخاف أن سلاح الفرسان كان يشكل القوة الرئيسية فى الجيش الإسلامى العربى.وأطلق على هذه العملية نظام الارتباع ، لأنها تتم إذا أقبل فصل الربيع وتستمر طيلة شهور الربيع الثلاثة ، حتى إذا جاء الصيف عادت القبائل العربية إلى الفسطاط. وكان الارتباع نوعاً من العطلة والاستجمام من مشاق القتال . ولكنه لم يكن يتم كيفما اتفق ، بل وضع له منذ اللحظة الأولى نظام مرسوم ، فكان يراعى أن ترتبع كل قبيلة فى مكان مخصص لها يسمى المرتبع لايتغير كل سنة . ويلاحظ أن الجيش الإسلامى العربى كان منظماً على أساس قبلى ، بمعنى أنه كان يراعى فى تكوين الكتيبة أن تكون من أفراد

قبيلة واحدة ؛ فإذا لم يتوافر العدد المطلوب كان يستكمل عددها من أفراد قبيلة أخرى متقاربة . وعلى الرغم من أنه كان يترك للكتيبة اختيار المنطقة التى تفضل الارتباع فيها ، سواء فى الدلتا أو فى الصعيد ، فإن الوالى كان يصدر أمراً كتابياً يحدد فيه القرية التى تذهب إليها الكتيبة وكميات اللبن التى يسمح لها بالحصول عليها من المصريين . وكان عمرو بن العاص والى مصر يوصى جنوده عند حلول موسم الارتباع بأن يحسنوا معاملة الأقباط عند ما يتصلون بهم فى فترة الارتباع . وكان يصدر أوامر صريحة ومشددة بأن يكفوا أيديهم عن أموال الأقباط . وكانت من أهم مناطق الارتباع — أو المرتبعات كما تسمى — منوف ، الحوف الشرقى، منف ، الفيوم ، البهنسا ، أهناسيا ، وهى مناطق تتمتع بخصوبة أرضها إلى جانب متاخمتها للصحراء حيث كان يتهيأ للجند العرب عديد الفرص للصيد وتدريب الخيول مع الإقامة فى جو قريب من جو البادية . ويلاحظ أيضاً أن المرتبعات كانت تتركز حول الفسطاط أو على مقربة منها (١).

وكان نظام الارتباع بمثابة هجرة داخلية تتجدد كل سنة وتتحرك من التجمعات العسكرية الإسلامية العربية وتتغلغل فى أعماق الريف المصرى وتهيىء عديد الفرص للاتصال المباشر بين العرب الفاتحين وأهالى البلاد . وكان الارتباع هو أقدم أشكال الاتصال بين العرب وسكان البلاد،ويعد اللبنة الأولى فى تعريب المصريين . وليس أدل على ذلك من أن قبائل بعينها انتهى بها الأمر إلى اتخاذ مرتبعاتها أماكن للإقامة الدائمة بعد أن تركت الفسطاط نهائياً .

الرباط :

لم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة التى اقترب بها الجند المسلمون العرب من سكان البلاد واختلطوا بهم . فقد كانت هناك وسيلة ثانية هى

---

(١) دكتور عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة.الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، صص ٤٥-٤٩ .

الرباط[١] . ونعنى بهذا المصطلح العسكرى العربى مرابطة جزء من القوات الإسلامية العربية فى الثغور والسواحل بصفة دائمة . فقد تطلبت المحافظة على وضع مصر كجزء من دولة الإسلام توزيع قوات الجيش الإسلامى العربى بين الفسطاط والإسكندرية وسائر الثغور والسواحل المصرية مثل رشيد والبرلس ودمياط وأشتوم والعريش وغيرها . وكان يطلق على هذه المناطق العسكرية اسم المواحيز [٢]. ولم تكن هذه القوات تقيم فى معسكرات خاصة بها أو فى مدن مقفولة ومخصصة لها مثل الفسطاط ، ولكنها كانت تقيم فى مساكن الأهلين العادية .

وكان عمرو بن العاص هو الذى وضع التنظيم الأساسى للرباط بعد أن فرغ من العمليات التى انتهت بفتح مصر ، فخصص ربع قواته للمرابطة فى الإسكندرية وحدها،والربع الآخر للمرابطة فى سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقى فقد استبقاه فى الفسطاط . وبمضى السنين تزايد عدد القوات الإسلامية فى مصر فبلغت القوة المرابطة فى الإسكندرية وحدها سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) على عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان اثنى عشر ألفا ، أى ما يساوى عدد الجيش الذى فتح مصر كلها سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . وكانت القوات المرابطة يستبدل بها غيرها مرة كل ستة شهور صيفاً وشتاء[٣]. ولا ريب أن إقامة أفراد هذه القوات بين أهالى البلاد أدت إلى اقترابهم منهم ثم اختلاطهم معهم . وإذا كانت حركة الارتباع لم تمتد إلى ثغور مصر لبعدها من جهة، ولعدم صلاحيتها لأنها ليست ريفاً منجهة أخرى،إلا أن

---

(١) الرباط تجمع وبط بضم كل من الراء والباء .

(٢) المواحيز جمع ماحوذ ، وهو الموقع الذى يكون بين القوم وبين عدوهم ، وهو مصطلح يستخدمه أهل الشام ومعناه الحدود .

أنظر :

دكتورة سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، الطبعة الثانية ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، صص ٤٩ — ٥٠

مرابطة هذه الأعداد الهائلة من القوات العربية فى الثغور منذ الأيام الأولى للفتح وأسلوب استيطانها كانا لهما أثرهما فى تعريب هذه الثغور ، فالرباط قام تقريباً بذات الدور الذى أداه الارتباع .

الليوانات :

كانت اتفاقيات الصلح تنص على تخويل العرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم . وتستمر هذه الضيافة ثلاثة أيام كان على المصريين خلالها القيام بجميع واجبات الضيافة نحو العرب(١). وقد نظمت مسألة الضيافة ، فكان أهالى كل قرية يخرجون من زمامها الذى سيقدر الخراج على أساسه عدداً من الأفدنة ينفق ريعها على المرافق العامة مثل الكنائس والحمامات والمعديات ولضيافة المسلمين(٢) والعبارة الأخيرة تشمل موظفى الولاية وأفراد الجيش العربى . وكان المسلمون ينزلون فى الليوان أو الإيوان ، وهو المضيفة أو قاعة الاجتماعات التى لاتزال تحيط بالكنيسة فى كثير من قرى الصعيد والدلتا (٣). ويلاحظ أن رصد اعتمادات مالية للإنفاق على الضيوف المسلمين دليل على أن هذه الضيافة كانت ظاهرة عامة مألوفة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت. وسواء كان العربى ينزل ضيفاً على المصرى فى بيته الخاص أو فى المضيفة العامة فقد كانت هذه الضيافة نوعاً من أنواع الاتصال كان لها أثرها فى حدوث التقارب ثم الاختلاط بين العرب والمصريين (٤).

وعلى ذلك لم يكن اختلاط العرب بالمصريين مقصوراً على المدن وحدها وإنما امتد إلى جوف الريف . ويقول أحد الباحثين الفرنسيين إن العرب هم

---

(١) ابن عبد الحكم : عبدالرحمن بن عبدالله : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، صص ٥٠ — ٥١ .

(٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحتين .

الذين اختلطوا بالمصريين أكثر من اختلاط المصريين بالعرب(١). والحق أن عمليات الاختلاط قامت من الجانبين : العرب الوافدين والمصريين المقيمين فى بلادهم . فكانت هذه العمليات فى واقع الأمر قوة استقطاب ضخمة ذات محورين : فالعرب استقطبوا المصريين جنسياً ولغوياً ودينياً وثقافياً . والمصريون استقطبوا العرب اجتماعياً ثم حضارياً أول الأمر . وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دماء المصريين دون أن يتعرضوا للفناء أو التلاشى(٢) . وظاهرة تعريب مصر ظاهرة نادرة خارقة ، فمصر الفرعونية التى سيطرت على مناطق كثيرة فى الشرق الأوسط ونجحت فى تصدير حضارتها المادية لم تستطع أن تمد لغتها خارج حدودها ، فى حين أن العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ولم يكن لهم فى ذلك الوقت رصيد من الحضارة المادية خارج نطاق الدين واللغة استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حيثما ذهبوا . أما الأتراك العثمانيون فقد أخفقوا فى نشر اللغة التركية حتى على الشعوب التى خضعت لهم عسكرياً وسياسياً(٣) . وما ينطبق على مصر ينطبق على سائر الأقاليم التى فتحها المسلمون العرب باستثناء فارس، كما سبق أن ذكرنا ، فقد نجح العرب فى فارس دينياً وأخفقوا لغوياً .

ومع ذلك فهناك اتجاه بين فريق من المؤرخين المحدثين لايخلو من رأى سديد، يقول إنه بجانب الأجناد العرب الذين وقع عليهم عبء الفتوح الإسلامية والاشتغال بالسياسة والإدارة ، وفدت قبائل عربية فى خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخ الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من أجزاء الدولة الإسلامية حيث انتشر عشرات الألوف

---

(١) Chantre E., Recherches Anthropologiques dans l'Afrique Orientale, Egypte, 1904, pp. 302 – 303

(٢) محمد العزب موسى : وحدة تاريخ مصر الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) دكتور جمال حمدان : شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان، الناشر دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٢ .

من أفراد هذه القبائل . وكانت الأرض واسعة وفى رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين . وإذا كان عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين قد حرم على جند العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة، إلا أن هذا المنع لم يمتد إلى العرب عامة، لأنه من غير الطبيعى ومن غير المعقول أن يحرم عمر العمل على عربى عادى هاجر بنفسه وأهله إلى بلد كمصر ليرتزق ويعيش . والعرب الذين انتشروا فى أجزاء دولة الإسلام لم يكونوا جميعاً جنداً مدونين . وكانت النتيجة أن وجدت فى مصر والعراق والشام وغيرها من بقاع دولة الإسلام جماعات عربية مدنية هى التى اشتغلت بالزرع والضرع وشئون المعاش دون أن يكون فى ذلك مخالفة لأمر عمر . وهذه الجماعات هى التى انبثت من أول الأمر بين الأهلين فى كل ناحية واختلطت بهم ، وهى صاحبة الفضل الأكبر فى عمليتى التعريب ونشر الإسلام . وجدير بالذكر أن هؤلاء العرب سواء الذين اشتغلوا بالعلم أو بطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربى ، وتزاوجوا معهم ، وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية . فأولاد العرب خرجوا إلى الحياة عرباً مسلمين تكلموا العربية، وكل منهم كان لايزال فى المهد صبياً، ومن ثم زاد تعدادهم . وكانت لهم امتيازات مادية ومعنوية بحكم الدين والأصل واللغة ، وكانت هذه الامتيازات مما حبب إلى الناس الانتساب إليهم ودخول الإسلام واتخاذ اسماء عربية ، بل اصطناع أنساب عربية(١) .

وكانت أمام العرب المدنيين الذين وفدوا من الجزيرة العربية إلى أجزاء دولة الإسلام عديد الفرص للاتصال بأهالى البلاد اتصالا مباشراً ، إذ كان هؤلاء العرب ، ومعظمهم من العرب اليمانية ، ذوى خبرة بالأعمال الزراعية وصناعة المنسوجات وبناء السفن وغير ذلك من ضروب النشاط الصناعى

(١) انظر بحثاً عميقاً وضافياً للأستاذ الدكتور حسين مؤنس بعنوان « تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون » فى المجلد الثانى من تاريخ الحضارة المصرية. نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى (بدون تاريخ الطبع) ، ص ص ٣٢٣ - ٤١٧ .

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار(١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ – ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين فى هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت فى تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هى أسرة چاندارلى(٢) Gandârli تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب(٣). وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا–يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر فى منصب رئيسى فى نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك فى قيام تواطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه فى ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين فى هذا

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part I, p 109.

(٢) يرد اسم هذه الأسرة فى المراجع الإنجليزية والفرنسية فى صيغ مختلفة منها :
Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

أ – قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ – ١٣٨٨) .

ب – ابنه على ، وقد عين على عهد السلطان أبى يزيد الأول (١٣٨٨ – ١٤٠٣) .

ج – ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ – ١٤٢١) . والسلطان مراد الثانى (١٤٢١–١٤٥١)

د – ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثانى والسلطان محمد الثانى (١٤٥١ – ١٤٨١)

المنصب مقصوراً على القولار أى طبقة العبيد . وفعلا عين فى منصب الوزير الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصدور العظام والوزراء يعينون من الموظفين العبيد(٢) .

وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثـانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزيرلرى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تباعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فيسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة — هو الوزير الثانى عادة — ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال « قائمقام » ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال « السردار » . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

---

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وُجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١—١٥١٢) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧—١٤٩٩) .

الفاتح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شئ مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمضى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والدسائس التى لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى نظام وزراء القبة كلية فى أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالى :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث فى القصر السلطانى . وفى ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع [1] (١٦٤٨ — ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شاسعاً فخماً يقيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمه وحرسه فى أحد أجنحته ، وتخصص باقى الأجنحة لاجتماعات كبار موظفى الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى فى سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقراً لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التى كان لها مبنى خاص يسمى « دفتردار قابيسى » أى « بوابة الدفتردار » وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سنرى فى موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالى من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى «باشى قابيسى» ، أى بوابة الباشا ، «وبابى عالى» ، أى بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة فى التاريخ وهو الباب العالى [2]

---

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذى أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالى ، وأنه ضاعف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .

أنظر :

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٢) يرى هامر أنه من المحتمل أن مصطلح بابى عالى كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمى للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلا على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشئون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فغدا الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شئون الدولة ، الداخلية والخارجية ، المدنية والعسكرية .

المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير — شباط — ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلديز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شئون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part 1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحريم والبلاط الداخلى . وكان لايسمح لأحد بدخول جناح الحريم إلا للسلطان والخصيان والنسوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الحاشية يقومون على خدمة السلطان لقص شعره وتقليم أظافره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جميعاً الباش جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلديز ومابين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدحم بالخدم الخصوصيين للسلاطين .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة فى الدولة (٢)

الديوان الإمبراطورى (الهمايونى)

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايونى (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذى تخلف عن حضور جلساته وتخلى عن رياسة الديوان للصدر الأعظم . فأصبح الديوان فى وضعه الجديد يتكون – فضلا عن رئيسه الصدر الأعظم – من الوزراء وعدد من كبار موظفى الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أى أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه فى تسيير دفة أمور الدولة نلم أولا إلماماً سريعاً بشاغلى المناصب الكبرى فى الإدارة المركزية فى الدولة والمصطلح التاريخى الذى كان يطلق على كل منهم . وهم : الريس أفندى ، النشانجى باشى ، الجاوش باشى ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، الدفتر أمينى .

الريس أفندى :

يلاحظ أولا أن كلمة أفندى فى تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان«الريس أفندى»فى العصر

---

(١) همايون كلمة فارسية معناها الحرفى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ.وتستخدم بمعنى ملكى أو سلطانى أو إمبراطورى . وتاسيساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايونى معناها الديوان السلطانى أو الديوان الإمبراطورى .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشانجى باشى أو الكاخيا باك أو الجاوش باشى أو الدفتردار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الريس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى المجالات التالية :

أولا : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية. وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة « خزينة عامرة » .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل العلم والقابجى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إعانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقى . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikji يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى بيليك قلمى Beylik Kalemi أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين — غير بيليك قلمى — لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «تحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « رءوس» وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم إسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرءوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكردات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ — القانونجى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ — الإعلامجى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والنص القانونى الذى عالجها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ — المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤—٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسه دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس النقود . وكان للريس أفندى « كيسه دار » مستقل وخاص به(١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيايكجى .

رابعاً : كان الريس أفندى مسئولا عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit. Vol I., Part 1, p. 122. *Bm.* No. 5.

هذه المحررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الريس أفندى فى هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمدجى »، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الآمدجى بمثابة مساعد للريس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الريس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص فى عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت فى أول الأمر فى نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يملى رغباته ، فإذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة — إستانبول — قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الريس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات. كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان انزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحيلت مسائل السياسة الخارجية تباعاً إلى الريس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام .. ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلى

والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحتد . وقد سبق أن التقينا بهم فى هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرهم بالتعيين فى المناصب الكبرى التى تحتاج إلى خبرات خاصة فى الباب العالى وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتى الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التى تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التى يتناولها الريس أفندى سواء فى مقابلاته مع سفراء الدول أو فى مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين — ويطلق عليه ديوان ترجمانى أى مترجم الديوان — يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الريس أفندى للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التى كانت تمر بإستانبول . والباحث المتعمق فى تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية فى القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهى سعى السفير فى إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الريس أفندى ليبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التى يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً فى نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية فى العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالريس أفندى . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون فى مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الريس أفندى el Reis effendi وكان هذا الريس أفندى فى نظر الدبلوماسيين الأوروبيين فى ذلك الوقت هو الشخص الثالث فى الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

النشانجى باشى :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشانجى يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

---

(١) انظر ص ٦٨ فى هذه الدراسة

(٢) Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

والطغراء هى شارة السلطان العثمانى ، وهى نقش متداخل معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهى العملات الذهبية أو الفضية التى تسك على عهده فى الضربخانة، أى دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشانجى إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشانجى مقروناً بكلمة الباشى فيقال الناشنجى باشى ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشى (١).وكان للنشانجى مقعد فى الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذى يشغله وبدليل أن شاغلى بعض المناصب القيادية فى الإدارة المركزية مثل الريس أفندى ، وكاخيا بك لم يحصل أى منها على مقعد فى الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسى للنشانجى كان ختم الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التى يختمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسايرتها للقوانين المعمول بها ، وتفرع عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور(٣) . وفى ضوء هذا الحق أصبح النشانجى يشبه إلى حد ما « المفتى » الذى كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشانجى يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشانجى لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرمانى » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part 1., p. 118.

(٣) Loc. cit., p. 125.

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشانجى فى هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل فى « الدفترخانة » أى دار السجلات كان النشانجى يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كمستند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل فى قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب — النشانجية — يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التى تقدم لهم لكى يختموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث [١] (١٧٠٣ — ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشانجى أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والهامة التى أعطيت للنشانجى تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة القولار — العبيد — فى شغل منصب النشانجى . ويقول ليبير الأمريكى تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التى جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هى التى جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشانجى [٢] .

وكان النشانجى يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الريس أفندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ فى تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشانجى يعتبر فى السلم الوظيفى نداً لمدير الإدارة المالية — الدفتردار — ويظل فى هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشانجى إلى الوزارة أو إلى الرتبة التى تليها مباشرة وهى رتبة حاكم بلاد الروم — البلقان — بكلربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشانجى فى الأفول فى الوقت الذى ارتفع فيه مركز

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, p. 126.

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186.

الريس آفندى . ومرد هذا الأفول إلى سببين : أولها انزواء السلطان فى أجنحة الحريم. فأضعف احتجابه الصلة التى كانت تربط السلطان بالنشانجى. وثانيهما التوسع فى إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تخلى عنها للريس أفندى الذى قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التى يمارسها وزراء الخارجية فى الدول الأوروبية وغير الأوروبية فى الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبى له، وارتفع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشانجى هبوطاً شديداً .

الجاوش باشى :

الجاوش معناها فى اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشى يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلا وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التى يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات، ويحضرون الجلسات التى تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون فى مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطانى ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحروب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق الجاوش باشى وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشى صفة أحد كبار موظفى الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط فى البلاط السلطانى . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسى إلى أنه رقى إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم فى أثناء حكم السلطان أحمد الثالث [1] (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

---

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., vol. VII., p. 159 et suiv.

حدثت فعلا أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بوون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الريس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له(٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رياسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المحافظة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. p. 118, *fn.* no.2.

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit, p. 183.

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم فى مكاتبهم حتى ينظر فى التهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبى .

وكان الجاوش باشى ، فى النطاق القضائى الذى كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة.وكان يطلق على أحد هذين الموظفين«بيوك تذكرجى» أى التذكرجى الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر«كچوك تذكرجى»أى التذكرجى الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذى يتخذه الأخير فى كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التى كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفى لهذين الموظفين ، جاء فى القانون نامة الذى صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنهما يتمتعان بالأسبقية على كتبة الريس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشى قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلا . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكرى والطابع القضائى . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً فى شتى مجالات الإدارة المركزية .

كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم فى المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار — أى عبيد السلطان — سواء فى خدمة القصور أو فى الجيش(١). وكان كاخيا باك الصدر الأعظم فى الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 183.

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفى الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الداخلية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يقومون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات فورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هـامة أو ظهرت أزمات فجائية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبجى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشريفاتجى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفى الدولة . وأخيراً كان للكخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتبى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر «قره قولاق» أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلا على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه – أى الكاخيا بك – والمكتوبجى والتشريفاتجى كانوا يتناولون الطعام يومياً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولا به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

---

(١) يصفه ليبير بأنه السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يقول عنه بوون إنه السكرتير العام للصدر الأعظم .

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

(٢) Loc. cit., p. 121.

وكان الكاخيا بك والمكتوبجى والتشريفاتجى يعتمدون فى دخلهم على النصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون ممن شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها فى النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفترى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المالية للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية المجر ومنطقة الدانوب(٣) . ولما فقدت الدولة إقليم المجر فى أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردارلق الخاصة بالمجر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش دفتردار — يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

---

(١) Loc. cit.

(٢) انظر ص ١٤٨ ، حاشية رقم ٢ فى هذه الدراسة .

(٣) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit.; t. VII, p. 261.
Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

فى شمالى العراق والشام . فإن هذه الحركات لم تستهدف الانفصال عن الدولة والاستقلال بحكم بعض الأقاليم الإسلامية ، وإنما كانت فى لحمتها وسداها تهدف إلى الانفراد بحكم الولاية مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية . وإذا أخذنا حركة على بك الكبير فى مصر كمثال لهذا النوع من الحركات ، نجد أنه شل نفوذ « بيوك ديوان » أى الديوان الكبير وهو ديوان مصر أو « ديوان محروست مصر » كما تسميه الوثائق ، كما شل نفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، ثم تخلص من الباشا العثمانى فى سنة ١٧٦٨ (١) كما امتنع فى ذات السنة عن إرسال الجزية إلى السلطان (٢) .

وإذا كان على بك الكبير قد التمس مساعدات عسكرية من كاترين الثانية قيصرة روسيا دعماً لحركته فإنه لم يجرؤ على إعلان استقلاله بمصر استقلالا تاماً . لقد سك على بك بعد انفراده بحكم مصر عملة فضية ثم أخرى ذهبية تحمل كل منهما على أحد وجهيها اسم مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ — ١٧٧٤)، وتحمل على الوجه الآخر اسمـه بطريقة ملتوية (٣) ، كما أمر بضرب إمام مسجد الداودية فى القاهرة لأنه دعا فى خطبته فى أحد أيام الجمعة فى أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (وكان يقع فى الفترة من ٢٩ ديسمبر — كانون أول — ١٧٦٩ حتى ٢٧ يناير — كانون ثان — ١٧٧٠) للسلطان ثم دعا لعلى بك الكبير . فأظهر الأخير امتعاضاً من تصرف الخطيب ، وكان يريد أن يكون دعاء الخطيب مقصوراً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة (٤) .

---

(١) الجبرتى ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ص ٣٣٤ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ، ٢١٨ ، وهو يترجم للأمير قاسم بك أبى سيف فى وفيات ١٢١٧ هـ .

(٣) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، مرجع سبق ذكره ص‌ص٦٢-٦٤ .

(٤) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر . مرجع سبق ذكره ، ص‌ص ٦١ — ٦٣ وحاشية رقم ١ ، ص ٦٢ .

ويلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك أى تجاوب بين زعماء مثل هذه الحركات وبين الجماهير أى القاعدة الشعبية العريضة التى بقيت على ولائها للسلطان . وهكذا شدت العاطفة الدينية للرعايا المسلمين إلى السلطان وأوجدت نوعاً من التماسك بين الدولة وولاياتها الإسلامية . وكان هذا التماسك يزداد قوة وصلابة كلما أوغلت الدول الأوروبية فى أطماعها الاستعمارية . كانت رواسب الحروب الصليبية لاتزال عالقة فى أذهان المسلمين . وكان المسلمون لايعرفون عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذى يتمثل فى الحروب الصليبية وفى أطماعها الاستعمارية . ورأى الرعايا المسلمون فى السلطان الرمز الحى المجسد لمجد الإسلام والذى يقف على رأس دولة عسكرية دينية مترامية الأطراف فى أوروبا وآسيا وإفريقية بحيث غدت بحق دولة الإسلام الكبرى . ورأى المسلمون فى السلطان أيضا السياج القوى الذى يحمى بلادهم من الزحف الأوروبى الاستعمارى . ومن ثم أخذت الشعوب الإسلامية التى امتدت إليها الفتوحات العثمانية تتقبل السيادة العثمانية على بلادها . ونجحت الدولة فى حماية الشرق الإسلامى من هذا الزحف ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب . وارتاح السلطان لوضعه السياسى والدينى فى الدولة ، وعمل على دعمه فى أذهان المسلمين وفى أوروبا على السواء ، وكان أن بعث سلاطين الدولة لقب « خليفة » ليظهروا أن للسلطان نفوذاً روحياً على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

(ب) نفوذ السلطان على الطوائف غير الإسلامية :

لم ينعم السلطان العثمانى بطبيعة الحال بمثل هذا النفوذ الروحى سواء على الأقليات المسيحية واليهودية فى العالم الإسلامى الخاضع له أو بين سكان القسم الأوروبى المسيحى من أملاك الدولة ، على الرغم من التدابير التى كان يتخذها السلطان عند تعيين الرؤساء الروحيين للطوائف غير الإسلامية . كان البطريرك اليونانى يتلقى من السلطان فرمان تعيينه فى منصبه . وكان هذا البطريرك يعتبر أكبر رئيس روحى غير مسلم فى الدولة . وكان يتبعه الروم المسيحيون الأرثوذكس ، وله مكانة مرموقة فى نفوسهم وتهفو إليه أفئدتهم . ومع ذلك

كان هذا البطريرك فى خدمة الدولة نظرياً . وكان يرد فى فرمان تعيينه نص يوجب على الأساقفة ومن إليهم من رجال الإكليروس التابعين للكنيسة الشرقية وكذلك أتباعها طاعة البطريرك طاعة تامة فى نطاق الاختصاصات المخولة له . وكان السلطان يصدر فرمانات أخرى بتعيين الرؤساء الدينيين لرعايا الدولة المسيحيين الذين يدينون بمذاهب أخرى ، وكذلك لحاخامات اليهود . وكانت تدرج فى جميع تلك الفرمانات نصوص توجب طاعة كل طائفة لرئيسها الروحى فى المسائل الدينية دون غيرها ، وأخيرا فالامتيازات التى كان يتمتع بها الأجانب فى الدولة العثمانية اعتمدت على منح صدرت عن السلطان أو تطبيقاً للمعاهدات التى أبرمتها الدول الأجنبية مع السلطان .

ومع ذلك فقد كان تاريخ الدولة العثمانية يموج بحركات انفصالية فى عهد اضمحلالها وتدهورها ، أى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى الولايات الأوروبية المسيحية مثل اليونان والصرب وولايتى الأفلاق والبغدان ، ويطلق عليهما أيضا مولداڤيا وولاشيا ، وهما — رومانيا حالياً — وبلغاريا والبوسنة والهرسك — يوغوسلافيا حالياً — وغيرها . كان الرعايا المسيحيون فى أوروبا بوجه خاص ينظرون شزراً إلى تبعيتهم لحاكم مسلم هو سلطان الدولة العثمانية . واستهدفت حركاتهم استقلال بلادهم عن الدولة . وكان مرد هذه الحركات إلى نمو الروح القومية وتأصل النزعة الدينية بينهم ، وكانت بعض الدول الأوروبية الكبرى مثل روسيا والنمسا أول الأمر تغذى هذه الحركات الانفصالية بين الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة وتسوق لها شتى الذرائع سواء اختلاف الدين ، فلا يجوز فى تقدير هذه الدول أو الشعوب أن تخضع شعوب مسيحية لحاكم مسلم ، أو أن هذه الشعوب ذات ماضى حضارى مجيد يفوق حضارة العثمانيين . ولذلك ينطبق على حركات القسم الأوروبى صفة الثورات أو الحركات الاستقلالية أو الحركات التحررية أو الحركات الانفصالية (١) .

نخلص من هذا العرض إلى أن نفوذ السلطان العثمانى فى الولايات الاسلامية كان قوياً ، وأن مركزه كان مدعماً بسبب العاطفة الدينية الإسلامية أولاً وبسبب

(١) Toynbee and Kirkwood, Turkey. London. 1926. pp. 16—18.

المصالح المشتركة بين الطرفين ثانياً ، ولذلك لم تر الشعوب الإسلامية فى الاحتلال العثمانى لبلادها نوعاً من الاستعمار الأجنبى بالمعنى المعروف فى العصر الحديث . وقد أطلقت هذه الشعوب اسم الحامية العثمانية على جيش الاحتلال العثمانى المرابط فى بلادها ، بينما رأت الشعوب المسيحية فى الاحتلال العثمانى لبلادها استعماراً كريهاً بسبب اختلاف الجنس والدين واللغة وما إلى ذلك ، ورأت أنه يتعين عليها السعى لإنهاء هذا الاحتلال والتحرر من التبعية لحاكم مسلم.ويقرر أستاذان إنجليزيان كبيران أن الدين كان عاملا قوياً من العوامل التى أثارت الاضطرابات فى وجه السلطان من جانب الصربيين وأهالى الجبل الأسود والبلغار والألبان المسيحيين والمقدونيين . وعلى الرغم من أن هذه الشعوب كانت تضم أعداداً كبيرة من المسلمين ، فإن المسيحية كانت هى الغالبة بمذهبها الأرثوذكسى بين أكثرية هـــذه الشعوب . وكان قيصر روسيا هو الرئيس الرسمى للكنيسة الأرثوذكسية . ومابرح الدين يتخذ فى شبه جزيرة البلقان طابعاً سياسياً عنيفاً (١) وبمعنى آخر كان نفوذ السلطان فى الولايات الإسلامية يستند فى المقام الأول إلى الوشيجة الدينية والمصلحة السياسية ، بينما كان نفوذ السلطان فى الولايات الأوروبية المسيحية يستند فيما يستند إليه إلى القوة العسكرية والثقل السياسى فى مجال السياسة الدولية ، ثم فى عصور الاضمحلال إلى قرارات المؤتمرات الدولية التى توالى عقدها فى العواصم الأوروبية لبحث ما عرف باسم « المسألة الشرقية » دعماً لمركز الدولة أو تقسيما لممتلكاتها أسلاباً فيما بين الدول الأوروبية . وكان من بين هذه المؤتمرات مؤتمر لندن (١٨٣١) ، ومؤتمر باريس (١٨٥٦) ، ومؤتمر برلين (١٨٧٨) ، ومؤتمر لندن (١٩١٣) .

٢ — القولار

القولار هم طبقة العبيد رفعتهم الدولة مكاناً علياً ، فشغلوا شتى المناصب الحكومية من أدناها إلى أعلاها حتى منصب الصدارة العظمى أى رياسة الوزارة ، ولم تستثن الدولة من هذه المناصب سوى وظائف القطاع الدينى أو ما عرف باسم « الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة » . وقد جاء هؤلاء العبيد إلى الحياة أطفالا

(1) Grant and Temperley ; op. cit., p. 211.

مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات ، ثم انتزعتهم الدولة ، وهم فى سن غضة من عائلاتهم وأبعدتهم عن الجو العائلى وحولتهم إلى الإسلام وأعدت لفريق منهم دراسات دينية ومدنية ، كما نظمت لفريق آخر دراسات دينية وعسكرية لتتخذهم فى نهاية المطاف أدوات للحكم والحرب ، وأضفت عليهم الدولة الكثير من الرعاية المادية والأدبية وأغدقت عليهم الامتيازات فى شتى صورها وأشكالها بحيث أصبحوا طبقة متميزة فى المجتمع العثمانى . وقد تكلمنا فى موطن سابق فى هذه الدراسة عن دور الدولة فى تنشئة هذا الفريق من العبيد فى القطاع المدنى(١) . ونشير هنا إلى بعض المناصب القيادية المدنية التى تولاها القولار فأصبحوا يشكلون إحدى الهيئات الحاكمة فى الدولة .

الصدر الأعظم ووزراء القبة
(صدر أعظمى وقبة وزير لرى)

الإسلام ونظام الوزارة :

عرف العالم الإسلامى نظام الوزارة قبل قيام الدولة العثمانية . ولكن لم تأخذ وظيفة الوزير مكانها ضمن وظائف الدولة الإسلامية على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو الخلفاء الراشدين أو الأمويين . ولكنها أنشئت أيام الدولة العباسية . وقد نقلها الخلفاء العباسيون عن الفرس ، ورسخ نظام الوزير كأساس للإدارة العباسية . ويلاحظ أنه ورد فى القرآن الكريم ذكر الوزير مرتين : المرة الأولى على لسان موسى عليه السلام « واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » (٢) . والمرة الثانية « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً » (٣) .

البيرقانجى :

وكان لمنصب الوزير عند أول عهد الدولة العثمانية بهذا المنصب أهميته

---

(١) انظر ص ص ١٢٠-١٢٨ فى هذه الدراسة .
(٢) سورة طه ، الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية رقم ٣٥ .

وخطورته . فقد كان بمثابة المستشار الأول للسلطان . وفى عهد السلاطين العثمانيين الأوائل لم يكن يطلق على صاحب هذا المنصب لقب وزير ، بل كان يسمى پيرڤان [(١)] Pervane أو پيرڤانجى Pervaneci وهو مصطلح فارسى اقتبسه العثمانيون من سلاجقة قونية [(٢)] ، ومداول هذا المصطلح قائد ، أو مفتش ، أو صاحب رتبة صدرت بها براءة ملكية أو براءة سلطانية . وكان للپيرڤان حق التصرف فى نطاق السلطات الواسعة المخولة له من لدن السلطان . ولذلك كان يعتبر الپيرڤان وزير تفويض ولم يكن وزير تنفيذ [(٣)] . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن السلاطين العثمانيين الأوائل كانوا منصرفين إلى العمليات الحربية التى لم تكن تتوقف أو تهدأ ابتغاء توسيع رقعة الدولة فتركوا للپيرڤان سلطات متعددة وواسعة مارسها نيابة عن السلطان . ويستثنى من هذا الحكم العام وزراء ثلاثة سلاطين هم محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) ، وسليم الأول وهو ياوز سليم (١٥١٢ — ١٥٢٠) ، وسليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦). فقد كانوا على خط موفور من الحيوية والنشاط والقدرات العقلية واستطاعوا أن يجمعوا بين القيام بأعباء الحكم وقيادة الجيوش . ومن ثم كان الوزراء الأول والوزراء على عهودهم وزراء تنفيذ . وظلوا على هذه الصفة حتى السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان حين تزوج روكسلانه Roxelana الروسية وأحبها حباً بلغ

---

(١) Gibb Hamilton & Bowen Harold;op. cit., Vol. I. Part 1, p. 108.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة وزير .

(٣) اتفق فقهاء المسلمين على تقسيم الوزراء إلى نوعين . فالنوع الأول هم وزراء تنفيذ حين يكون ولى الأمر — خليفة كان أو سلطاناً أو ملكاً — منصرفاً إلى تصريف أمور الدولة بنفسه مستعيناً بالوزراء لتنفيذ أوامره . أما النوع الثانى فهم وزراء التفويض حين يكون ولى الأمر منصرفاً إلى حرب خارجية ، أو متغيباً عن الدولة يؤدى فريضة الحج مثلا ، أو كان ضعيفاً أو مشغولا بملذاته ، أو لغير ذلك من الأسباب العامة أو الشخصية فيترك أمور الدولة يتصرف فيها الوزير كما يريد ، أو على أحسن الفروض يتصرف فى النطاق الذى يضعه له ولى الأمر . أنظر :

الماوردى (على بن محمد بن حبيب المصرى البغدادى) ، أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك ، ١٩٢٩ . وهذا الكتاب من كتب النظم تناول المؤلف فيه نظام الوزارة من النواحى التنظيمية وأرسى قواعدها . واستقى مادته العلمية من الأحداث التاريخية ، وحدد الشروط التى يجب توافرها فى كل من يشغل كل نوع من نوعى الوزارة وواجباته وحقوقه .

شغاف قلبه ، وأصبح لايطيق عنها بعداً ، فانزوى عن الحياة العامة وغدا وزيره الأول وزير تفويض . ومنذ ذلك الوقت وطوال حكم خلفائه سلاطين الفترة الثانية إلا فى حالات نادرة كان الوزراء على اختلاف درجاتهم وزراء تفويض .

إنشاء منصب الوزير الأول (الصدر الأعظم)

ولما اتسعت الدولة اتساعاً إقليمياً سريعاً ومذهلا ، ازدادت أهمية مركز الوزير ، وتصاعدت اختصاصاته ، وسيطر على إدارات الحكومة ، وأنشئ منصب الوزير الأول .

ولما جمعت قوانين الدولة على عهد السلطان محمد الفاتح وأدخلت عليها تعديلات وإضافات شتى أصبح مجموعها يشكل القانون الأساسى للدولة والمعروف باسم قانون نامه . وقد حددت فى هذا القانون نامه مراكز موظفى الدولة المختلفين واختصاصاتهم تحديداً دقيقاً ، فأشير إلى الوزير الأول على أنه « الوكيلى المطلق » وهو مصطلح مقتبس من اللغة العربية بمعنى « الوكيل المطلق » أو الممثل المطلق للسلطان The Sultan's absolute representatitive . وأبطل استخدام لفظة پيرڤان أو پيرڤانجى ، ثم استبدلت الدولة بهذا اللفظ مصطلحاً جديداً هو « أولو وزير » Ulu Vezir أى الوزير الأول أو « وزيرى أعظم » Vezîri A'zem أى الوزير الأعظم . وبذلك عادت الدولة العثمانية إلى التقليد الإسلامى باستخدام لفظة الوزير ، ولكنها أضافت كلمة أعظم تمييزاً له عن اللقب الذى كانت الدولة قد منحته بالفعل لعدد من الأفراد على أساس أن لقب وزير كان شعاراً لرتبة . وكان هؤلاء الأفراد الأخيرون الذين يحملون لقب وزير هم فى العادة حكام الولايات الكبرى مثل مصر . فكان السلطان يمنحهم اللقب ويخولهم سلطات واسعة يستطيعون بمقتضاها إصدار فرمانات « محلية » لها قوة القانون دون الحاجة إلى الرجوع إلى إستانبول لاستصدار فرمانات سلطانية إلا فى المسائل التى تقتضى طبيعتها عرضها على السلطان أو الوزير الأول الذى أصبح لقبه فى عهد سلاطين الفترة الثانية الصدر الأعظم ، ومعنى هذا المصطلح التاريخى أعظم كبار الموظفين ؛

الصدر الأعظم فى قانون نامه :

وقد رفع السلطان محمد الفاتح الوزير الأول ـ أو الصدر الأعظم كما لقب فيما بعد ـ مقاماً علياً فى الدولة . فقد جاء فى القانون الأساسى للدولة العثمانية والمسمى قانون نامه مانصه « لتعلم أولا أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء . إنه أعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحية المطلقة فى إدارة شئون الدولة . أما القيّم على أملاكى فهو الدفتردار . غير أن الصدر الأعظم هو رئيسه . وللصدر الأعظم فى حركاته وسكناته ، وفى قيامه وقعوده ، حق التقدم على جميع موظفى الدولة » (١) فكان هذا القانون قد وضع الصدر الأعظم فى المكان الثانى بعد السلطان مباشرة ، أو كما يقول المؤرخ الفرنسى رامبو غدا الصدر الأعظم نائب السلطان أو نائب الإمبراطور (٢) . أما المستشرق الألمانى بروكلمان فيقول إن قانون نامة قد جعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على الإمبراطورية ، مطلق الصلاحية ، يسيطر على فروع الإدارة كلها ، ويفصل فى جميع شئون الدولة ، وفى مسائل الموت والحياة أيضاً ، منفرداً مطلق السلطة(٣) .

الصدر الأعظم والخاتم السلطانى :

على أن أعظم امتياز ظفر به الصدر الأعظم كان فى الواقع الحق الذى خوله له سلاطين الدولة فى حمل الخاتم السلطانى رمزاً لثقتهم العميقة فيه ، إذ كان الصدر الأعظم يوقع بهذا الخاتم على الفرمانات السلطانية ، كما كانت تختم به المخازن الهامة وهى : مخزن السجلات المالية (مالية دفترخانة سى) ، والخزانة الخارجية للسراى (ديش خزينة) ، والمخزن العام للمحفوظات (الدفترخانة) ، والحقيبة اليومية (روزنامة كيسه سى) (٤) . وكان المؤرخون العثمانيون فى تعليقهم

---

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٤ ، حاشية رقم ١٦

(٢) Lavisse et Rambaud : Histoire Générale. t IV. L'Empire Ottoman. L'Apogée (1481 — 1566), p. 753.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص‌ص ٩٤ — ٩٥ .

(٤) Gibb Hamilton and Bowen, Harold op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 112, fn. no.3.

على تسلم الصدر الأعظم الخاتم السلطانى يقولون إنه حصل على شعار عاهل العالم « نائل مهر شهر يارى چهان أولمشرى » (١) . وكان الصدر الأعظم فى العهد الأول يضع خاتم التوقيع السلطانى فى أصبعه ، أما فى العهد اللاحق فكان يضعه فى جيبه فى حافظة من القماش المذهب . وكان السلطان فى العهد الأول يبعث بخاتمه إلى الصدر الأعظم فى مسكنه يحمله إليه أحد موظفى البلاط ، ثم تغير هذا التقليد منذ عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ – ١٦١٧) ، إذ كان السلطان يتولى شخصياً تقديم خاتمه إلى الصدر الأعظم . وكان سحب الخاتم من الصدر الأعظم بمثابة أمر سلطانى بإقالته من منصبه . وكان السلطان يوفد أحد موظفى البلاط لسحب الخاتم منه . وكان يتعين على الصدر الأعظم فى هذه الحالة مغادرة العاصمة فوراً .

سلطات أخرى للصدر الأعظم :

امتدت سلطات الصدر الأعظم إلى الإدارة المركزية فى الدولة وإلى إدارة الولايات . كان الصدر الأعظم هو رئيس الديوان ، وسنتكلم فى الفصل التالى عن هذا الديوان من حيث تشكيله واختصاصاته ودوره البارز فى حكم الإمبراطورية – وكان الصدر الأعظم يهيمن أيضاً على شئون الجيش ، وكان يقود المعارك الحربية حين تدعو الضرورة . وفى هذه الحالة كان له الحق فى حمل البيرق النبوى – راية النبى صلوات الله وسلامه عليه – إلى ساحة القتال . وهو حق كان ينفرد به السلطان دون سواه (٢) . وكان يرأس المحكمة العليا ويشترك معه قضاة الشريعة الإسلامية . وكان الصدر الأعظم يقوم بجولات فى العاصمة ويتفقد أسواقها ويرافقه فى هذه الجولات قاضى القضاة ، والمشرف على الأسواق ، وكان يسمى « احتساب آغاسى » بمعنى الرقيب ويقابل هذا المصطلح العثمانى المصطلح العربى « المحتسب » ، ورئيس الفيالق الإنكشارية ، ورئيس شرطة المدينة (٣) .

---

(١) Loc. cit., fn ; no. 2.

(٢) Loc. cit., p. 112.

(٣) Lybyer A. H. ; op. cit., p. 166.

وكان بعض السلاطين يزوجون الصدور العظام – لثقتهم العميقة فيهم وتقديرهم الكبير لهم – من بناتهم أو شقيقاتهم أو أخواتهم . وفى هذه الحالة يلحق باسم الصدر الأعظم لقب داماد ، وهى كلمة تركية بمعنى صهر . ويذكر هذا اللقب قبل اسم الصدر الأعظم مباشرة ، فكان يقال : داماد صوقاو محمد باشا .

فيض من مظاهر العظمة على الصدر الأعظم :

وقد أضفت الدولة على الصدر الأعظم الكثير من مظاهر العظمة والأبهة .

كان يتقبل الصدر الأعظم فى أيام محددة بعضها كل أسبوع والبعض الآخر كل شهر ولاء موظفى البلاط والدولة على غرار ما كان يفعل السلطان . فكان على كل من رئيس الإنكشارية والقضاة والبكوات الصناجق وقادة الجيش ومن إليهم من شاغلى المناصب القيادية زيارة الصدر الأعظم زيارة رسمية (١) . وكانت تتكرر هذه الزيارات فى عيد الفطر وعيد الأضحى . وكان على جميع الموظفين المدنيين وأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة – عدا شيخ الإسلام أن يقبلوا طرف رداء الصدر الأعظم حين يدخلون مجلسه . وكان يذهب إلى صلاة الجمعة فى موكب رسمى تشترك فيه فرقة من حرس السلطان وفرقة المتفرقة بملابس التشريفة – الملابس العسكرية الرسمية – وكان الجاوش باشى (٢) وقوة من رجاله يصحبون الصدر الأعظم كل يوم فى ذهابه من مسكنه إلى مقر الديوان وفى عودته إلى إلى داره . وكان فريق من رجال الخدمة فى القصور السلطانية يقومون على خدمة الصدر الأعظم مرة كل أسبوع . وكان سماح السلطان بهذه الخدمة يعد تشريفاً كبيراً للصدر الأعظم .

رجال الخدمة الداخلية للصدر الأعظم :

وكان يقوم على حراسة حريم الصدر الأعظم جماعة من الخصيان يتراوح عددهم بين أربعة وخمسة ، وكان له خدمة داخلية وخدمة خارجية . ويرأس الخدمة الداخلية أربعة وعشرون غلاماً ، كان أكبرهم سلاحدار أغا – حامل

---

(١) ذكر المؤرخ ليبير أيام الأسبوع التى كانت تتم فيها هذه الزيارات الرسمية ؛ انظر : Lybyer A.H. ; op. cit., p. 166.

(٢) شرحنا اختصاصات هذا الموظف فى الفصل الثالث عشر فى هذه الدراسة .

السيف وحارسه — وكان من بينهم القهوة جى باشى ، وكانت مهمته أن يعد القهوة ويقدمها للصدر الأعظم ولضيوفه ، وأبر يقدار باشى ، وكانت مهمته أن يحمل إبريق الماء ويصب الماء منه على يدى الصدر الأعظم حين يرغب فى غسلها ، وبشكيرآغا وهو حامل البشكير « المنشفة » يمسح الصدر الأعظم به يديه بعد غسلها ، وصاريق جى باشى ، وهو الذى يلف العمامة ويضعها على رأس الصدر الأعظم ، وبربرباشى وهو الذى يقص شعر الصدر الأعظم ، وجوقه دار أغا أى رئيس الخدم الخصوصيين ، وهم جميعاً يطابقون رجال الخدمة الداخلية فى القصر السلطانى — الخاص أوطه ليه — ممن يحملون نفس الألقاب . كما كان للصدر الأعظم مفتاح آغا ، يطابق الآنختار أغا الخاص بالسلطان (١) . وكان للصدر الأعظم أيضاً ذهبية خاصة يقوم عليها طاقم من البحارة، ويقود الأوطه باشى هذه الذهبية ، فيمسك بالدفة بينما يجدف الآخرون .

متاعب وأخطار الصدر الأعظم :

وعلى الرغم من هذه المظهرية البراقة وذلك النفوذ الواسع العريض ، فقد كان الصدر الأعظم تحت رحمة مؤامرات ودسائس الحريم السلطانى والخصيان فى القصور السلطانية ، وسنعرض لهما عند كلامنا على مراكز القوى فى الدولة ، وحسبنا أن نذكر هنا إبراهيم باشا الذى وقع عليه اختيار السلطان سليمان المشرع ليشغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٥٢٤ . وكان والده يونانياً من پرْغه . وقد ظفر بتقدير السلطان سليمان إلى حد بعيد حتى أنه زوجه من أخته . ولم تكن مصاهرته للسلطان بعاصمة له من الدسائس التى تعرض لها . فقد نشطت دوائر الحريم السلطانى للإيقاع به ، وروجت شائعات تتهمه بأنه طامع فى عرش المجر . ولما أخفقت هذه الدسيسة ، وجهت إليه تهمة أخرى أشد خطراً ، هى أنه يرنو ببصره لاعتلاء عرش الدولة اعتماداً على المصاهرة

---

(١) الآنختار لفظة تركية معناها مفتاح . والآنختار أغاسى ضابط يقوم بأعمال الشرطة ثم أدخلت تعديلات على اختصاصاته .

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold op. cit., Vol I. Part I. Appendix B. p 335 & 341.

التى تربطه بالأسرة العثمانية الحاكمة . وعلى الرغم من أن التهمتين لم يقم عليهما أى دليل مادى ، فقد اغتيل بأمر السلطان فى مساء ٥ مارس — آذار — سنة ١٥٣٦ وطويت صفحته بعد أن لبث زهاء اثنتى عشرة سنة كان خلالها المرجع فى كافة شئون الدولة . ونضيف إلى ذلك أنه لم يكن للصدر الأعظم أيه سلطة مباشرة على الهيئة الإسلامية ولا على خدم القصور . وكان الصدر الأعظم يتساوى فى هذا الصدد مع الوزراء سواء بسواء . وكثيراً ماكانت والدة السلطان وزوجاته الأربع تصدرن الأوامر إلى الصدر الأعظم ينقلها إليه شفوياً كبير الخصيان فيصدع بما يؤمر به .

وكان هنالك خطر آخر داهم يتهدد حياة الصدر الأعظم بحكم أنه كان ينتمى إلى طبقة القولار — عبيد السلطان — فكانت حياته مرتبطة برضاء السلطان عنه . فإذا غضب عليه لم يكن السلطان ليقنع بعزله من منصبه ، بل كان فى غالب الأحوال يقرن عزله بإنهاء حياته . ويذكر ليبير المؤرخ الأمريكى أن حوالى المائتين تولوا منصب الصدارة العظمى فى خمسة قرون أعدم السلاطين عشرين صدراً أعظم منهم (١) . والحق أن المفارقات كانت عجيبة بين هذه النهاية المفجعة وبين السلطات الواسعة والحياة الرغيدة والمظهرية المتألقة التى عاشها كل منهم . لقد كانت الدولة تحرص على ألا يظهر الصدر الأعظم أمام الجماهير إلا فى مواكب رسمية تضم حاشية تجمع صفوة العسكريين ونخبة المدنيين يحيطون به من يمين ويسار ، ومن أمام وخلف ، وتتقدمه سارية تحمل خمسة أطواخ .

الوزراء وعدد الأطواخ :

كان لكل وزير ثلاثة أطواخ — جمع طوخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الغين على هذا النحو : طوغ وأطواغ ، وتكتب فى بعض المراجع غير العربية أحياناً Tugh وأحياناً أخرى Tug — والطوخ هو ذيل حصان معلق فى سارية وفى أعلاها كرة من النحاس المطلى بالذهب .

وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التى ترفع أمامهم فى

---

(١) Lybyer A.H., op. cit., p. 167.

المواكب والحفلات الرسمية ، حيث كانت تتقدمهم سارية تحمل الطوخ أو الأطواخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطواخ هو الذى يحدد مراكز كبار رجال الدولة (١) . فالسلطان له تسعة أطواخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطواخ . أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطواخ وكذلك الذين يحملون رتبة الباشوية . وكان البك يحمل طوخاً واحداً أو طوخين تبعاً للمركز الذى يشغله ، فاذا كان يحكم وحدة إدارية هى الصنجقية فإنه يحمل طوخاً واحداً ، وإذا كان حاكما لولاية صغيرة أو متوسطة فإنه يحمل طوخين . وإذا صدر فرمان سلطانى بمنح أحد البكوات رتبة الباشوية فإنه يحمل بقوة القانون ثلاثة أطواخ بصرف النظر عن المنصب الذى يشغله . وكان يحدث أن تسند ولاية دمشق أو حلب أو بغداد أو مصر إلى ولاة سبق لهم تقلد منصب الصدر الأعظم أو كانوا وزراء ، فى مثل هذه الحالات كان يسمح لهؤلاء الولاة بالاحتفاظ بحقهم المقرر لهم من قبل فى عدد الأطواخ على الرغم من أن منصب الوالى كان يقل عن منصب الصدر الأعظم (٢).

ويدل استخدام الأطواخ على أن العثمانيين كانوا متمسكين بالحفاظ على التقاليد التى تتمثل فى بعض الرموز أو الشعارات المستمدة من أصول قبلية تركية قديمة . ويرى بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون هذا التقليد مستمداً من أصل طوطمى (٣) Totemic origin وكانت الأطواخ تؤخذ أول الأمر من ذيول الياكات Yaks . ثم رأت الدولة أن تستبدل ذيول الخيل بذيول الياكات .

مجموعتان من الصدور العظام :

يلاحظ أولا أن المدنيين والعسكريين تعاقبوا على منصب الصدارة العظمى .

---

(١) Hourani Albert H., The Ottoman Background etc., op. cit., p. 7.

(٢) دكتور عبد الكريم غرايبة ، سوريا فى القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ ، ص ٤٣ .

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold, op.. cit., Vol. I, Part 1, p 139.

فلم يكن هذا المنصب وقفاً على فريق دون فريق . ولكن كانت الحاجة ماسة فى عهد سلاطين الفترة الثانية إلى شغل هذا المنصب بالعسكريين ، لأن الصدر الأعظم كان يقود المعارك الحربية بدلا من السلطان الذى كان يؤثر السلامة والعزلة عن الجماهير وتلمس أسباب المتعة بشرب الخمر أو الإقامة فى أجنحة الحريم (١) .

وقد حفل تاريخ الدولة بعدد من الصدور العظام كانوا على حظ موفور من الكفاية والإخلاص والنزاهة . نهض بعضهم بالدولة بينما أنقذها البعض الآخر من الانهيار فى أواخر القرن السابع عشر مثل كوپريلى . وقد تولى خمسة من أفراد هذه الأسرة — وهى أسرة ألبانية — منصب الصدارة العظمى(٢) ، وأسدى أربعة منهم على الأقل خدمات جليلة للدولة وسنلتقى ببعض أفراد أسرة كوپريلى فى هذه الدراسة .

---

(١) من بين العسكريين الذين تولوا منصب الصدارة العظمى ، نذكر منهم :

١- غازى حسن باشا (١٠٢٣-١٠٢٤هـ/١٦١٤-١٦١٥م) .

٢- سلحدار محمد باشا (١١٤١-١١٤٣ هـ/١٧٢٨-١٧٣٠ م) .

٣- سلحدار سيد محمد باشا (١١٤٨-١١٥٠ هـ/١٧٣٥-١٧٣٧م) .

٤- سلحدار ماهر حمزه باشا (١١٨٢-١١٨٢هـ/١٧٦٨-١٧٦٩ م) .

٥- سلحدار محمد باشا (١١٨٤-١١٨٥هـ/١٧٧٠-١٧٧١م) .

٦- حلمى إبراهيم باشا أغا الإنكشارية (١٢٢١-١٢٢٢ هـ/١٨٠٦-١٨٠٧م) .

٧- سلحدار مصطفى باشا (١٢٢٣-١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ م) .

٨- سلحدار على باشا (١٢٣٩-١٢٤٠ هـ/١٨٢٣-١٨٢٤م) .

ويلاحظ أن هؤلاء الصدور العظام قد تولوا هذا المنصب إبان عهد سلاطين الفترة الثانية . انظر

محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص‌ص ٣٤-٣٥ .

(٢) محمد كوپريلى باشا تولى تولى الصدارة العظمى من سنة ١٦٥٦ إلى وفاته سنة ١٦٦١ .

(ب) ابنه فاضل أحمد باشا وقد عين صدراً أعظم بعد وفاة والده مباشرة فى سنة ١٦٦١ وظل فى منصبه حتى جاز إلى ربه سنة ١٦٧٦ .

(ج) فاضل مصطفى باشا ابن محمد باشا عين صدراً أعظم سنة ١٦٨٩ إلى أن قتل فى حملة حربية سنة ١٦٩١ .

(د) حسين باشا ابن أخ محمد باشا عين صدراً أعظم سنة ١٦٩٧ إلى أن اعتزل الخدمة سنة ١٧٠٢ .

ولئن حفل تاريخ الدولة بهذا الطراز الطيب من الصدور العظام فقد اتشح تاريخها أيضا بعدد آخر يصدق عليهم وصف المتسلقين . فقد كانوا إما جهلة وإما وصلوا إلى منصب الصدارة العظمى بطرق غير شريفة أو غير كريمة . وقد وضع أحد الباحثين ثبتاً بأسماء ثلاثة وعشرين شخصاً بدأوا حياتهم خدماً فى القصور السلطانية ، ثم دارت الأيام دورتها ، فإذا هم يتولون منصب الصدارة العظمى الذى كان المنصب الثانى فى الدولة بعد السلطان . وفى هذا الثبت ذكر الباحث نوع الحرفة أو العمل الذى مارسه كل منهم قبل أن يشغل ذلك المنصب الخطير ، كما ذكر السنة التى تولى فيها منصب الصدر الأعظم وسنة وفاته أو عزله أو إعدامه . ومن هذا الثبت نقف على حقائق مذهلة : كان من بينهم من كان مربياً للسلطان ، أو خادماً ، أو بستانياً ، أو حطاباً فى القصور السلطانية(١) . وحامت الشبهات حول عدد منهم من حيث عدم النزاهة ، استغلوا نفوذ المنصب الكبير الذى سما إليه كل منهم وتفننوا فى ابتداع وسائل الكسب غير المشروع إبتغاء إنماء ثرواتهم . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد الصدر الأعظم صوقلو محمد باشا . وكان صقلبياً من مواليد قرية صوقل فى إقليم البوسنة . وكان اسم صوقلو الذى اشتهر به هو تتريك اسمه الأصلى صوقوليڤيتش (٢) Sokolevich وقد تزوج إسمات الأميرة ابنة السلطان سليم الثانى فاكتسب لقب داماد ، وغدا اسمه داماد صوقلو محمد باشا . وظل متربعاً فى منصب الصدر الأعظم مدة تراوحت بين خمسة عشر عاما وثلاث عشرة سنة (٣) .

= (هـ) نعمان باشا وهو ابن مصطفى باشا . وقد شغل منصب الصدر الأعظم من سنة ١٧٠٢ إلى سنة ١٧١٠ وقد تزوج من عائشة سلطان أخت السلطان مصطفى الثانى فأصبح اسمه داماد نعمان باشا .

انظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold op. cit., vol. I. Part I, p. 110, fn. 3

(١) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ص ٣٤-٣٥

(٢) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I. p. 110, fn. No. 3.

(٣) يقول البعض إنه تولى منصب الصدر الاعظم فى سنة ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع ، وإنه خدم هذا السلطان فى منصبه كصدر أعظم خمسة عشر شهراً ، بينما يقرر البعض الآخر أنه شغل منصبه سنة ١٥٦٨ بعد سنتين من وفاة السلطان سليمان وفى أثناء حكم =

زين له جشعه وخلقه السيء أن يفرض على حكام الولايات العثمانية أن يعيدوا شراء مناصبهم كل سنة ، بعد أن كانت عملية الشراء تتم مرة واحدة عند التعيين لأول مرة فى المنصب . وكانت عمليات تجديد الشراء السنوية تقترن بأن يقدم كبار الموظفين إلى صوقلو باشا هدايا نقدية وعينية تتناسب مع المركز القيادى الذى يشغله كل منهم والموارد المالية التى يدرها هـذا المركز القيادى . ومما يذكر فى هذا الصدد أن الباشا العثمانى فى مصر كان يدفع ما يزيد على مائة ألف بندقى (١) كل سنة إلى محمد صوقلو باشا لقاء تجديد شراء منصبه أو بعبارة أخرى تجديد تعيينه وإبقائه والياً على مصر لمدة سنة أخرى(٢) . أما إذا توفى أحد شاغلى المناصب فكان صوقلو باشا يعين خلفاً له من يدفع أعلى ثمن للوظيفة التى كان يشغلها المتوفى . وامتدت أطماعه إلى العلاقات الخارجية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية . وحسبنا أن نذكر مثالا واحدا لهذا النوع من التصرفات ، فقد نجحت جمهورية البندقية فى أن تشترى من صوقلو باشا صلحا فى سنة ١٥٧٣ لقاء خمس عشرة ألف دوكة (٣) . ولقى هذا الصدر الأعظم مصرعه فى سنة ١٥٧٩ جزاء وفاقاً لما فعله من شرور فى حق دولة آوته ورفعته مكاناً علياً فى حياته الوظيفية . كان صوقلو محمد باشا قدوة سيئة أمام موظفى الدولة فى شتى فروع الإدارة سواء الإدارة المركزية أو حكومات الولايات وبخاصة أنه استمر سنوات طوالا فى موقعه ، ويعتبر الرجل الثانى فى

ابنه سليم الثانى ، ويتفق الجميع على أنه ظل يشغل منصبه حتى قتل سنة ١٥٧٩ على عهد السلطان مراد الثالث . وعلى ذلك فإن داماد صوقلو محمد باشا عاصر وهو يشغل هذا المنصب ثلاثة سلاطين (سليمان المشرع ، وسليم الثانى ، ومراد الثالث) فى رواية ، وعاصر سلطانين اثنين (سليم ومراد) فى رواية أخرى .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ج ٢ مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٤-٣٥

(٢) البندقى عملة ذهبية تنسب إلى جمهورية البندقية .

(٣) كارل بروكلمان ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ ويضرب هذا المستشرق الألمانى أمثلة أخرى على الوسائل غير المشروعة التى كان يلجأ إليها صوقلو باشا فى استغلال منصبه وإنماء ثروته .

(٤) الدوكة وجمعها دوكات وهى عملة ذهبية، وهى على أنواع منها الدوكات النمساوية ، وقد أطلق العثمانيون عليها إسم مجر آلتينى أى الذهب المجرى ، ومنها الدوكات البندقية ، وقد أطلق العثمانيون عليها إسم فلورى أو يالديز آلتينى

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار(١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ – ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين فى هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت فى تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هى أسرة چاندارلى(٢) Gandârlî تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب(٣). وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر فى منصب رئيسى فى نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك فى قيام تواطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه فى ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين فى هذا

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part I, p 109.

(٢) يرد اسم هذه الأسرة فى المراجع الإنجليزية والفرنسية فى صيغ مختلفة منها : Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

أ – قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ – ١٣٨٨) .

ب – ابنه على، وقد عين على عهد السلطان أبى يزيد الأول (١٣٨٨ – ١٤٠٣) .

ج – ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ – ١٤٢١) . والسلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١)

د – ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثانى والسلطان محمد الثانى (١٤٥١ – ١٤٨١)

المنصب مقصوراً على القولار أى طبقة العبيد . وفعلا عين فى منصب الوزير الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصدور العظام والوزراء يعينون من الموظفين العبيد(٢) .

وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزيرلرى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تباعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فيسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة — هو الوزير الثانى عادة — ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال « قائمقام » ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال « السردار » . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

---

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١—١٥١٢) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧—١٤٩٩) .

الفاتح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شئ مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمضى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والدسائس التى لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى نظام وزراء القبة كلية فى أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالى :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث فى القصر السلطانى . وفى ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع [1] (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شاسعاً فخماً يقيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمه وحرسه فى أحد أجنحته ، وتخصص باقى الأجنحة لاجتماعات كبار موظفى الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى فى سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقراً لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التى كان لها مبنى خاص يسمى « دفتردار قابيسى » أى « بوابة الدفتردار » وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سنرى فى موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالى من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى «باشى قابيسى» ، أى بوابة الباشا ، «وبابى عالى» ، أى بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة فى التاريخ وهو الباب العالى [2]

---

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذى أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالى ، وأنه ضاعف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .

أنظر :

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٢) يرى هامر أنه من المحتمل أن مصطلح بابى عالى كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمى للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime ، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلا على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشئون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فغدا الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شئون الدولة ، الداخلية والخارجية ، المدنية والعسكرية .

المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير – شباط – ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتهما إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلديز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شئون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part 1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحريم والبلاط الداخلى . وكان لايسمح لأحد بدخول جناح الحريم إلا للسلطان والخصيان والنسوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الحاشية يقومون على خدمة السلطان لقص شعره وتقليم أظافره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جميعاً الباش جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلديز ومابين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدحم بالخدم الخصوصيين للسلاطين .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة فى الدولة (٢)

الديوان الإمبراطورى (الهمايونى) .

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايونى (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذى تخلف عن حضور جلساته وتخلى عن رياسة الديوان للصدر الأعظم . فأصبح الديوان فى وضعه الجديد يتكون — فضلا عن رئيسه الصدر الأعظم — من الوزراء وعدد من كبار موظفى الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أى أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه فى تسيير دفة أمور الدولة نلم أولا إلماماً سريعاً بشاغلى المناصب الكبرى فى الإدارة المركزية فى الدولة والمصطلح التاريخى الذى كان يطلق على كل منهم . وهم : الريس أفندى ، النشانجى باشى ، الجاوش باشى ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، الدفتر أمينى .

الريس أفندى :

يلاحظ أولا أن كلمة أفندى فى تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان «الريس أفندى» فى العصر

---

(١) همايون كلمة فارسية معناها الحرفى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ. وتستخدم بمعنى ملكى أو سلطانى أو إمبراطورى . وتاسيساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايونى معناها الديوان السلطانى أو الديوان الإمبراطورى .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشانجى باشى أو الكاخيا باك أو الجاوش باشى أو الدفتردار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الريس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى المجالات التالية :

أولا : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية. وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة « خزينة عامرة » .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل العلم والقابجى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إعانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقى . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikji يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى بيليك قلمى Beylik Kalemi أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين — غير بيليك قلمى — لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «تحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « رءوس» وهو تعبير يطلق على البراءات التى تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التى تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم إسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرءوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكردات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ — القانونجى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ — الإعلامجى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والنص القانونى الذى عالجها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ — المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤—٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسه دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس النقود . وكان للريس أفندى « كيسه دار » مستقل وخاص به(١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيليكچى .

رابعاً : كان الريس أفندى مسئولا عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit. Vol I., Part 1, p. 122. *Bm.* No. 5.

هذه المحررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الريس أفندى فى هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمدجى »، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الآمدجى بمثابة مساعد للريس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الريس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص فى عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت فى أول الأمر فى نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يملى رغباته ، فإذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة — إستانبول — قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الريس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات. كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان انزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحيلت مسائل السياسة الخارجية تباعاً إلى الريس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلى

والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحتد . وقد سبق أن التقينا بهم فى هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرهم بالتعيين فى المناصب الكبرى التى تحتاج إلى خبرات خاصة فى الباب العالى وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتى الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التى تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التى يتناولها الريس أفندى سواء فى مقابلاته مع سفراء الدول أو فى مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين — ويطلق عليه ديوان ترجمانى أى مترجم الديوان — يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الريس أفندى للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التى كانت تمر بإستانبول . والباحث المتعمق فى تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية فى القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهى سعى السفير فى إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الريس أفندى ليبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التى يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً فى نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية فى العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالريس أفندى . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون فى مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الريس أفندى el Reis effendi وكان هذا الريس أفندى فى نظر الدبلوماسيين الأوروبيين فى ذلك الوقت هو الشخص الثالث فى الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

النشانجى باشى :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشانجى يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

---

(١) انظر ص ٦٨ فى هذه الدراسة

(٢) Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

والطغراء هى شارة السلطان العثمانى ، وهى نقش متداخل معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهى العملات الذهبية أو الفضية التى تسك على عهده فى الضربخانة ، أى دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشانجى إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشانجى مقروناً بكلمة الباشى فيقال النشانجى باشى ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشى(١). وكان للنشانجى مقعد فى الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذى يشغله وبدليل أن شاغلى بعض المناصب القيادية فى الإدارة المركزية مثل الريس أفندى ، وكاخيا بك لم يحصل أى منهما على مقعد فى الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسى للنشانجى كان ختم الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التى يختمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسايرتها للقوانين المعمول بها ، وتفرع عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور(٣) . وفى ضوء هذا الحق أصبح النشانجى يشبه إلى حد ما « المفتى » الذى كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشانجى يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشانجى لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرمانى » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part 1., p. 118.

(٣) Loc. cit., p. 125.

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشانجى فى هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل فى « الدفترخانة » أى دار السجلات كان النشانجى يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كمستند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل فى قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب — النشانجية — يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التى تقدم لهم لكى يختموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ — ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشانجى أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والهامة التى أعطيت للنشانجى تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة القولار — العبيد — فى شغل منصب النشانجى . ويقول ليبر الأمريكى تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التى جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هى التى جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشانجى (٢) .

وكان النشانجى يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الريس أفندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ فى تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشانجى يعتبر فى السلم الوظيفى نداً لمدير الإدارة المالية — الدفتردار — ويظل فى هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشانجى إلى الوزارة أو إلى الرتبة التى تليها مباشرة وهى رتبة حاكم بلاد الروم — البلقان — بكلربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشانجى فى الأفول فى الوقت الذى ارتفع فيه مركز

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, p. 126.

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186.

الريس أفندى . ومرد هذا الأفول إلى سببين : أولها انزواء السلطان فى أجنحة الحريم. فأضعف احتجابه الصلة التى كانت تربط السلطان بالنشانجى. وثانيهما التوسع فى إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تخلى عنها للريس أفندى الذى قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التى يمارسها وزراء الخارجية فى الدول الأوروبية وغير الأوروبية فى الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبى له، وارتفع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشانجى هبوطاً شديداً .

الجاوش باشى :

الجاوش معناها فى اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشى يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلا وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التى يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات، ويحضرون الجلسات التى تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون فى مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطانى ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق الجاوش باشى وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشى صفة أحد كبار موظفى الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط فى البلاط السلطانى . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسى إلى أنه رقى إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم فى أثناء حكم السلطان أحمد الثالث [١] (١٧٠٣—١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., vol. VII., p. 159 et suiv.

حدثت فعلا أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بوون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الريس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له(٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رياسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المحافظة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. p. 118, *fn*. no.2.

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit, p. 183.

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم فى مكاتبهم حتى ينظر فى التهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبى .

وكان الجاوش باشى ، فى النطاق القضائى الذى كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة.وكان يطلق على أحد هذين الموظفين«بيوك تذكرجى» أى التذكرجى الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر«كچوك تذكرجى»أى التذكرجى الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذى يتخذه الأخير فى كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التى كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفى لهذين الموظفين ، جاء فى القانون نامة الذى صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنهما يتمتعان بالأسبقية على كتبة الريس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشى قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلا . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكرى والطابع القضائى . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً فى شتى مجالات الإدارة المركزية .

كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم فى المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار — أى عبيد السلطان — سواء فى خدمة القصور أو فى الجيش(١). وكان كاخيا بك الصدر الأعظم فى الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 183.

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفى الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الداخلية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يتمتعون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات فورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هـامة أو ظهرت أزمات داخلية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبجى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشريفاتجى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفى الدولة . وأخيراً كان للكخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتبى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر«قره قولاق»أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلا على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه — أى الكاخيا بك — والمكتوبجى والتشريفاتجى كانوا يتناولون الطعام يومياً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولا به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

---

(١) يصفه ليبر بأنه السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يعرف عنه بوون بأنه السكرتير العام للصدر الأعظم .

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

(٢) Loc. cit., p. 121.

وكان الكاخيا بك والمكتوبجى والتشريفاتجى يعتمدون فى دخلهم على النصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون ممن شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها فى النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفترى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المالية للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية المجر ومنطقة الدانوب(٣) . ولما فقدت الدولة إقليم المجر فى أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردارلق الخاصة بالمجر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش دفتردار — يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

---

(١) Loc. cit.

(٢) انظر ص ١٤٨ ، حاشية رقم ٢ فى هذه الدراسة .

(٣) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit.; t. VII, p. 261.
Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

وكان الدفتردار يحتفظ بالدفاتر أو السجلات التى تبين الموارد المالية للدولة سواء كانت هذه الموارد أموالا سائلة أو عينية ، ومقدار الأموال المتحصلة والمنتظر إنفاقها ، والفائض والاحتياطى ، وكيفية الحصول على موارد مالية أخرى حين يطرأ عجز على موازنة الحكومة . وكان للدفتردار سكرتارية فنيـــة خاصة به تسمى « مالية قلمى » . كما كان يعمل تحت إدارته عدد كبير من الموظفين المتخصصين فى الشئون المالية . وكانت تتبعه محكمة تفصل فى المنازعات التى تقوم بين الحكومة والأفراد فيما يتعلق بالمسائل المالية .

وكانت رتبة الدفتردار باشا تعادل رتبة النشانجى باشا . وكان يلى الصدر الأعظم باستثناء وزراء القبة وكبار رجال الهيئة الإسلامية . وكان الدفتردار هو الموظف الوحيد فى الإدارة الذى يتمتع بحق تقديم العرائض بنفسه إلى السلطان . وكان لا يشاركه فى هذه الميزة سوى « قضاة العسكر » أى روساء القضاة ورئيس الخصيان .

وقد جاء فى مقدمة قانون نامه الذى أصدره السلطان محمد الفاتح أن الدفتردار هو القيّم على أملاك السلطان . وكان له الحق فى حمل الطغراء واستخدامها فى الفرمانات — أى المراسيم — المتعلقة بالشئون المالية . وكان هذا الحق أساساً للنشانجى ، ثم منح هذا الحق بصورة جزئية للدفتردار فى الشئون المالية ، ومنح أيضاً لرؤساء القضاة فى القرارات المبنية على قواعد الشريعة الإسلامية .

وهناك تشبيه للدولة العثمانية مستمد من البيئة الرعوية — الإستبس — التى كانت المهاد الأولى للأتراك العثمانيين . فيقال إن الدولة العثمانية كانت بمثابة خيمة نصبت على الأرض ، وشدت بحبال مربوطة بأربعة أوتاد مثبتة فى الأرض . وكانت هذه الأوتاد الأربعة فى حالة الدولة العثمانية هى الدعائم التى استندت إليها : الصدر الأعظم والوزراء، قضاة العسكر، مجموعة الدفتردارين،

والنشانجى [1] .

الدفتر أمينى :

كان يشرف على الدفترخانة ، وهى دار السجلات . وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام . ويطلق على القسم الأول « إجمال » وتحفظ فيه الوثائق التى توضح توضيحاً دقيقاً حدود كل ولاية من ولايات الدولة وأقسامها ، وكذلك حدود كل الإقطاعات . ويسمى القسم الثانى « مفصل » أى السجل المفصل وتحفظ فيه وثائق ومستندات مشابهة ، ولكن تتعلق بالملكيات الخاصة Private Property، وهى تقابل فى الوقت الحاضر فى مصر سجلات مصلحة الشهر العقارى . أما القسم الثالث فيسمى « روزنامة » . وقد سبق أن شرحنا مدلول هذه الكلمة عندما تعرضنا لنظام الالتزام [2] . وكانت الروزنامة فى هذا المقام العام تختص بتسجيل التغييرات التى تطرأ على عمليات نقل الإقطاعات من شخص إلى آخر .

وكانت الفرص مهيأة أمام الدفتر أمينى للترقية إلى منصب الدفتردار الذى كان الطريق أمامه ممهداً للترقية إلى مرتبة وزير .

تشكيل الديوان :

كان يتكون الديوان من :

١ — الصدر الأعظم رئيساً .

٢ — الوزراء وكان يختلف عددهم بالزيادة من عصر إلى آخر .

٣ — قاضى عسكر الأناضول . وقاضى عسكر معناها كبير القضاة أو قاضى القضاة .

٤ — قاضى عسكر الروم إيلى أى بلاد البلقان وأوروبا .

---

(١) Lavisse et Rambaud; op cit., t. IV, p. 753.

(٢) انظر ص ١٤٧ حاشية رقم ٣ فى هذه الدراسة .

٥ — قاضى عسكر عن إفريقية . وقد ظفر هذا القاضى بعضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية فى إفريقية فى القرن السادس عشر .

٦ — دفتردار الروم إيلى وهو الباش دفتردار .

٧ — دفتردار الأناضول .

٨ — دفتردار ثالث أضيف إلى عضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية فى العالم الإسلامى .

٩ — قائد فيالق الإنكشارية بصفته ممثلا للجيش .

١٠ — قبودان باشا — قائد الأسطول البحرى — بصفته ممثلا للسلاح البحرى بالتعبير العسكرى الحديث .

١١ — النشانجى باشا .

وكان يحضر جلسات الديوان عدد من المساعدين من ذوى الخبرة فى شتى المسائل . كان بعضهم يجلس على الأرض فى قاعة الاجتماع ، والبعض الثانى يظل واقفاً ، والبعض الثالث يجلس فى غرف مجاورة لقاعة الاجتماع للدخول إلى قاعة الاجتماع إذا استدعاهم رئيس الديوان للاستماع إلى رأيهم الفنى فى مسألة مطروحة على الديوان .

ويتضح من هذا التشكيل أن عضوية الديوان لم تكن مقصورة على كبار موظفى الهيئة العامة من طبقة القولار — عبيد السلطان — بل كانت الهيئة الإسلامية ممثلة فى الديوان عن طريق رؤساء القضاة الذين كان يطلق عليهم قضاة العسكر . ويتضح أيضاً من هذا التشكيل الخطأ الذى يقع فيه بعض الباحثين حين يقررون أن الديوان فى الدولة العثمانية كان هو مجلس الوزراء بمعناه المتعارف عليه فى التاريخ المعاصر ، وهو خطأ مادي لا يتحمل اختلافاً فى وجهات النظر .

جلسات الديوان زمن السلم :

وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع

هى السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفى خـــلال شهر رمضان كان يتوقف عقد الجلسات . وكان الديوان يعقد جلساته منذ الضحوة حتى وقت الأصيل، فكان الاجتماع يستغرق وقتاً يتراوح بين سبع ساعات وثمانى ساعات. ويتخلل الاجتماع فترة وتعقبها فترة أخرى عند نهاية الاجتماع . وتخصص الفترتان لتناول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقتضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن إليهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تقدمه لهم على مدار السنة ، وكان يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة (١) .

اجتماعات الديوان أيام الحرب :

وفى زمن الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته فى خيمة الصدر الأعظم التى تقام على مقربة من مخيم السلطان . ولما كان كبار الموظفين فى الدولة يصحبون السلطان إلى ساحات القتال ، فإن إجراءات عقد الديوان تكون مماثلة تقريباً للنظام المتبع فى إستانبول . أما إذا كان السلطان متغيباً عن العاصمة فى رحلة ومعه الصدر الأعظم ، فإن الديوان يعقد اجتماعاته يومى السبت والأحد فقط . ويحضر هذه الاجتماعات العدد القليل من كبار الموظفين أو أركان الدولة الذين يظلرن فى العاصمة . وفى حالة الضرورة فى زمن الحرب أو فى حالة طوارئ خطيرة كان أعضاء الديوان يجتمعون وهم على ظهور الخيل ، وهى عادة قديمة درجت عليها الدولة العثمانية حيناً من الدهر وهى لا تزال فى مرحلة الإمارة ، وكانت تعتمد فى تصريف شئونها على النظم القبلية . فكان يعقد وقتذاك مجلس عام يضم جميع رؤساء الدوائر فى الإمارة أو الدولة الوليدة ، ويجتمعون وهم على ظهور الخيل ، ويبحثون الموضوعات الهامة مثل خوض الحرب أو تقرير السلم . ويرى بعض المؤرخين أن هذا

---

(١) Lybyer A.H., op. cit., p. 190.

المجلس كان نواة نظام الديوان ، أى أن الديوان هو نظام متطور بتطور الدولة نتيجة نموها السريع واتساعها الإقليمى وتشعب مصالحها .

لماذا تخلى السلاطين عن رياسة الديوان ؟

قلنا إن السلاطين كانوا يحرصون أول الأمر على حضور جلسات الديوان ثم أوقف السلطان سليمان المشرع هذا التقليد (١) . وأناب عنه الصدر الأعظم واكتفى بالاستماع إلى المناقشات التى تدور فى الاجتماع ، وذلك من وراء ستار أو من نافذة تطل على قاعة الاجتماع . وقد حمل بعض المؤرخين ، وكان من بينهم كوشى بك Kochi الفيلسوف التركى ، على السلطان سليمان تخلفه عن حضور اجتماعات الديوان . وبخاصة بعد أن اتخذ خلفاؤه سلاطين الفترة الثانية هذا التغيب عن جلسات الديوان تقليداً التزموا به بعد أن اعتزل معظمهم الحياة العامة واحتجبوا فى أجنحة الحريم بالقصور السلطانية واستناموا إلى حياة الدعة أو إشباع شهواتهم مع النساء أو تعاطى الخمور حتى أطلق على بعضهم اسم السكير وما إلى ذلك من صور المتعة التى انغمسوا فيها ، فلم يرتفعوا إلى مستوى سلاطين الفترة الأولى . ويعزو هذا الفريق من المؤرخين اضمحلال الدولة إلى ذلك التقليد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين مثل ليبير الأمريكى أنه كان لامناص أمام السلطان سليمان المشرع من التخلف عن حضور جلسات الديوان الذى كان يعقد أربع جلسات أسبوعية تستغرق كل جلسة اليوم بطوله مما كان يصرفه عن التفرغ لمهام أخرى كانت تتراكم أمامه . وكان حكمه حافلا بجلائل الأعمال الحربية والإنجازات التشريعية والإدارية وغيرها . ويقول ذلك المؤرخ الأمريكى دفاعاً عن السلطان سليمان أو تبريراً لتصرفه إن أعضاء الديوان كانوا يتناقشون ويتصرفون وكأن السلطان سليمان ماثل أمامهم . وقد حدث فى إحدى المرات أن أمر هذا السلطان

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 188.

ويقرر بوون أن السلطان الذى استن هذا التقليد هو السلطان محمد الفاتح حين تقدم له أحد الرعايا بشكوى وكان ثائراً ، ولم يظهر الاحترام الواجب نحو السلطان

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vo. 1, Part I, p. 116.

بإعدام حشمت باشا الصدر الأعظم بعد أن استمع بطريقته الخاصة إلى مناقشاته فى الديوان . واستعاض السلطان سليمان عن حضور جلسات الديوان باستقبال أعضائه عند انتهاء الاجتماع ويعرض عليه الصدر الأعظم القرارات التى اتخذها الديوان فى ذلك اليوم فيوافق عليها أو يطلب إدخال تعديلات عليها . وكان فى أحيان أخرى يملى بنفسه رداً على رسالة بعث بها أحد السفراء الأجانب .

نظام الحضور والدخول والجلوس فى الديوان :

وكان حضور أعضاء الديوان إلى مقر الاجتماع ودخولهم إليه وجلوسهم وانصرافهم كل أولئك يخضع لنظام دقيق . كانوا يصلون مبكرين إلى مقر الديوان ليكونوا فى استقبال الصدر الأعظم الذى يصل محاطاً بحاشيته . ويقفون فى صفين متقابلين لاستقباله . ويمر الصدر الأعظم بين الصفين ، ثم يسير خلفه الأعضاء وفقاً لترتيب ونظام موضوعين . وكان الصدر الأعظم يجلس — طبقاً للطريقة التركية العثمانية — وسط أريكة طويلة تمتد حول ثلاثة جوانب من قاعة الاجتماع . وتأخذ الأريكة شكل حرف U فإذا استوى على الأريكة جلس إلى يمينه الوزراء ثم كل من باشا الأناضول وباشا البلقان ثم رئيس الإنكشارية ثم قبودان باشا ، وفى نهاية طرف الأريكة يجلس النشانجى باشا ويجلس إلى يسار الصدر الأعظم وقضاة العسكر الثلاثة ثم الدفتردارون الثلاثة وكبير المترجمين . ويجلس على الأرض الريس أفندى ، كما يحضر اجتماع الديوان كل من التذكرجى ويتولى قراءة الشكاوى المقدمة إلى الديوان ، وقابيجيلر كخياسى Kapujilar kiayasi وينعته المؤرخ بوون بأنه مفتش حراس البوابات (١) بينما يقول عنه ليبير إنه كبير الياوران (٢) . أما الموظفون الذين

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 83.

(٢) Lybyer A.H ; op. cit., p. 190.

ويلاحظ أن الياوران جمع ياور . وفى اللغة التركية إذا أضيف حرفا الألف والنون إلى نهاية الاسم اكتسب هـذا الاسم صيغة الجمع ، مثل المستحفظان أى رجال الحفظ ، والمبتديان أى المبتدئين .

قد يحتاج إليهم أعضاء الديوان فينتظرون فى غرف مجاورة ، بينما يقف الحرس وأفراد الحاشية على مسافات متقاربة خارج وداخل الردهة. وقد يحتاج الديوان فى أثناء الجلسة إلى الاستنارة بآراء بعض المختصين . فكان يستدعى بعض قادة الجيش أو كبار موظفى الدولة المدنيين للاستماع إلى آرائهم . ولهذا الغرض كانت توجد فى غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع مجموعة من العسكريين على أهبة الاستعداد للتحرك السريع لاستدعاء من يرى الديوان حاجة إلى حضورهم . وعند ما يبدأ الديوان النظر فى المسائل القضائية كان بيوك تذكرجى ، أى التذكرجى الكبير ، يقف أمام الصدر الأعظم ويتولى قراءة الشكاوى والعرائض المقدمة للديوان للفصل فيها ، ثم يكتب القرار الذى يتخذه الديوان فى شأن كل عريضة أو شكوى .

وكان فى مقدور أى فرد من رعايا الدولة أن يتقدم بشخصه إلى الديوان عارضاً مظلمته فينظرها الصدر الأعظم مستعيناً بقضاة العسكر وبعض الموظفين المختصين . وكان فى بعض الأحيان يحيلها إلى الجهة المختصة لدراستها ولكن أدى طول الوقت الذى كانت تستغرقه الاجتماعات الأربعة التى كان يعقدها الديوان أسبوعياً ، وازدحام جدول أعماله بالعديد من المسائل المتنوعة إلى استبعاد المسائل الفردية وتخصيص وقته لبحث المسائل العامة (١) .

اختصاصات الديوان ودوره فى حكم الدولة :

انتقلت إلى الديوان اختصاصات المحكمة العليا التى كان يرأسها السلطان من قبل ، لأن الصدر الأعظم كان قد حصل على تفويض عام من السلطان بحكم تقلد الأخير وظيفة الإمامة . وتأسيساً على هذا التفويض كان الصدر الأعظم يتولى القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة قضاة الشريعة بعد أن تم تطعيم الديوان بأكبر العناصر القضائية التى تمثل الشريعة الإسلامية . وكانت الكلمة العليا فى هذا المجال لهؤلاء القضاة الكبار بحكم ثقافتهم وتعمقهم فى مسائل الشريعة ، أو وفقاً للمصطلح الحديث لأنهم كانوا من أهل الخبره . ولكن لما

---

(١) انظر تفصيلات وافية عن الديوان فى :

D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., vol, vII, pp. 211—232

كان الصدر الأعظم أعلى من القضاة فى السلم الوظيفى بحكم منصبه ، كانت الأحكام والتصرف فى القضايا تصدر عنه من الناحية الشكلية . وهكذا أصبح من اختصاصات الديوان النظر فى المسائل القضائية ، أى تطبيق القانون من ناحية ، والنظر فى المسائل الإدارية من ناحية أخرى . ويبرر المؤرخ الأمريكى ليبير اختصاصات الديوان فيقول إنه طالما كان القانون فى الدولة العثمانية موضوعاً ومحدداً ، وطالما كان أى تشريع يصدر عن الدولة يرتكز حول شخص واحد هو السلطان ، فإن مجال المناقشات وتبادل الآراء يكون مقصوراً على المسائل الإدارية والقضائية (١) . وهذا التبرير لايصور الحقيقة كلها فيما يتصل باختصاصات الديوان ودوره فى حكم الدولة . وسنرى أنه عاد بعد ذلك فأعطى للديوان أبعاده الحقيقية سواء من ناحية اختصاصاته أو دوره الفعال فى إيجاد رقابة دقيقة ومحكمة على أعمال الحكومة سواء فى الإدارة المركزية أو فى الولايات العثمانية .

لم يكن الديوان هيئة تشريعية تضع التشريعات للدولة ، ولكنه كان هيئة تجمع بين سمات الوزارة Cabinet ومحكمةعليا Court Suprême ويقول أحد رجال القانون — وهو هايدبورن — فى تقييمه لذلك الديوان إنه كان نوعاً من مجلس الدولة نوقشت فيه المسائل السياسية الهامة ، وفى ذات الوقت كان بمثابة محكمة عليا خولت الحق فى أن تنقل أمامها كل قضية وأن تنظر فى القضايا بين العثمانيين والأجانب والتى تزيد قيمة المبالغ المتنازع عليها على ثلاثة الآف أسبر .

Le divan était à la fois une sorte de Conseil d'Etat, où se discutaient les affaires politiques importantes, et une Cour suprême autorisée à év- oquer tout litige devant elle et à connaitre notamment des procés entre Ottomans et étrangers qui dépassaient la valeur de 3000 aspres. (٢)

أما المؤرخ الأمريكى ليبير فيعلق على اختصاصات الديوان وعلى الدور

---

(١) Lybyer A.H.; op. cit., p. 187.

(٢) Heidborn A. ; Manuel de Droit Public et Administratif de l'Empire Ottoman. Vienne, 1909, p. 141.

الذى قام به فى إدارة شئون الإمبراطورية العثمانية تعليقاً قال فيه إنه على الرغم من أن هذا الديوان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا إلا إنه لم تكن هناك أوجه للشبه بين الديوان وهاتين الهيئتين . كان رئيس الديوان هو الصدر الأعظم ، وهو معين بفرمان سلطانى . وكانت موافقـــة السلطان على قرارات الديوان أمراً ضرورياً حتى تكتسب القرارات الصبغة القانونية وتأخذ طريقها إلى التنفيذ . ولا يحضر السلطان جلسات الديوان . وكل عضو فيه مسئول أمام السلطان . ولم تكن هذه المسئولية محصورة فى تصرفات العضو فحسب ، بل فى حسن سلوكه وإلا كان جزاؤه الإعدام (١) . وفى ذات الوقت كان الديوان أعلى محكمة فى الإمبراطورية كلها ، وهى محكمة من طراز فريد . فليست لها اختصاصات محكمة الاستئناف أو حتى محكمة أول درجة ، أى المحاكم الابتدائية . وكان لا يدخل فى اختصاصات محكمة الديوان مناقشة شرعية القوانين ، ومع ذلك فإن الديوان كمحكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التى ترفع إليه من أى جزء من أجزاء الإمبراطورية ، ونجم عن ذلك أن سلطته القضائية لم تكن مقيدة . ولكن من ناحية أخرى لا تصبح أحكامه القضائية نهائية إلا بعد موافقة السلطان عليها . ويمضى ذلك المؤرخ الأمريكى فى تعليقه فيقول إنه على الرغم من أوجه القصور التى تؤخذ على نظامه واختصاصاته ، فقد كان الديوان ذا فائدة كبرى للحكومة العثمانية . كان الديوان أدنى درجة من السلطان ، ولكنه كان يعلو جميع الهيئات فى الدولة . سواء الهيئة الحاكمة من طبقة العبيد — القولار — أو الهيئة الإسلامية . وكان يربط بينهما بحكم وجود أعضاء فيه يمثلون هاتين الهيئتين . ويلتقى بهما فى شخص السلطان الذى هو رأس الهيئتين . وكان الديوان بمثابة المحور الذى تدور حوله كل الوحدات المتنوعة فى الحكومة العثمانية ، وهى حكومة ذات حكم مطلق . وفى رحاب الديوان كان يجتمع أكثر رجال الدولة كفاية ومقدرة وخبرة .

(١) كان هذا الجزاء لايسرى على قضاة العسكر الأعضاء فى الديوان بحكم أنهم كانوا أحراراً ولم يكونوا من طبقه القولار — عبيد السلطان — وكان الأخير يملك إعدامهم بدون مساءلة .

ويقع الاختيار على كل عضو فيه بعد عملية دقيقة تمر فى عدة مراحل . وأعطت الدولة كلا منهم مستوليات ضخمة ومنحتهم سلطات واسعة كى ينفذوا بدون إبطاء ، فى النطاق المحدد لكل منهم ، القرارات التى تصدر عن الديوان ويوافق عليها السلطان . فالديوان كان يساير ويدعم بطريقة بارعة وممتازة النظام العثمانى العام للإدارة المركزية فى الدولة . وبفضل الديوان كان فى استطاعة الحاكم بأقل جهد ممكن أن تكون رقابته على كل جزء فى الإمبراطورية رقابة دقيقة ومحكمة عن طريق حكام على قدر كبير من الذكاء والمقدرة ، وكانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة هى مزيج من المشاعر التى تتمثل فى العرفان بالجميل والمصلحة الذاتية والتطلع إلى مزيد من الترقيات والخوف من بطشه . وفضلا عن ذلك كان الديوان بمثابة مدرسة تدرب فيها القضاة ورجال الإدارة ورجال الحكم ، كما كان مجالا لتنمية معلوماتهم وزيادة تجاربهم . وكلما كانت حصيلتهم من هـذه وتلك كبيرة أتيحت لهم عديد الفرص للترقية إلى وظائف أعلى . فالصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان يتصل بهم اتصالا مباشراً ومستمراً أربع مرات فى الأسبوع . والسلطان على مقربة منهم يتابع نواحى نشاطهم . وفى يد الإثنين : السلطان والصدر الأعظم سلطة ترقيتهم . وفوق هذا كله ، لم يكن الديوان مجرداً من أى نفوذ على التشريع . فالقوانين كانت تصدر بإسم السلطان وبعد موافقته النهائية عليها . ولكن المادة القانونية التى تضمنتها هـذه القوانين قد اشترك فى إعدادها أعضاء الديوان ، وهم الذين قاموا بمعاونة مساعديهم بوضع الصياغة القانونية لهذه القوانين . ولكل هذه الاختصاصات والأسباب وغيرها كان الديوان ، برياسة الصدر الأعظم ، وهو يراقب الإدارة ويفصل فى القضايا الهامة ويترك بصماته فى مجال التشريع ، يحكم الدولة العثمانية نيابة عن السلطان ومن أجله ولمصلحته (١) .

نخلص من هذه الآراء السياسية والقانونية التى بسطناها لباحثين أحدهما نمساوى والآخر أمريكى إلى أنه إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية

(١) Lybyer A. H. op. cit., p. p. 192—193.

والإدارية فى الدولة قد تركزت فى يد السلطان ، فإن إنشاء الديوان الهمايونى أو الإمبراطورى لايعنى أن هذا الجهاز قد سلب اختصاصات السلطان أو جزءاً منها ، إذ لم يكن للديوان سلطة قطعية فى المسائل التى تعرض عليه أو فى القرارات التى تصدر عنه ، لأن موافقة السلطان عليها كانت شرطاً أساسياً *Sine quanon* لتنفيذها . ولم يكن أعضاء الديوان سوى موظفين اقتصرت مهمتهم على بحث المسائل أولا ، ثم تحضير القرارات ثانياً ، ثم تنفيذها ثالثاً إذا أقرها السلطان . وكان إنشاء الديوان ضرورة أملاها اتساع الدولة ، وتزاحم المشكلات بشتى أنواعها ، والتوسع فى إنشاء مناصب جديدة وعدد من أجهزة الحكم ، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم التى فتحت ، وما استتبع ذلك من زيادة عدد الهيئات الحكومية وازدياد عدد الموظفين .



الفصل الرابع عشر

الهيئات الحـاكمة فى الدولة (٣)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

الهيئة الإسلامية والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

كانت الدولة العثمانية تضم بين رعاياها فريقين من المسلمين . ويطلق على الفريق الأول القولار . كانوا فى نشأتهم الأولى مسيحيين انتزعتهم الدولة وهم فى سن غضة من آبائهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الإسلام، وهيأت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً، وجعلت منهم أدوات للحرب والحكم ، ولكنهم كانوا عبيداً للسلطان ، ومن ثم أصبح وضعهم الدينى والقانونى والاجتماعى : من حيث لأمر الواقع مسلمين عبيداً. ويطلق على الفريق الثانى ، وهو خارج عن نطاق الفريق الأول ، الهيئة الإسلامية . وكانت هذه الهيئة تضم جميع رعايا الدولة المسلمين الأحرار بما انضم إليهم من مسيحيين اعتنقوا الإسلام طوعاً فأصبحوا بدورهم مسلمين أحرارا . وكان هؤلاء الأخيرون قلة عددية نسبياً، ولكنهم كانوا مع أقرانهم أفراد الطائفة الأولى الذين جاءوا من عائلات إسلامية يشكلون نسبة عددية كبيرة جداً بالنسبة لفريق القولار . وبذلك كان رعايا الدولة المسلمون طائفتين :

١ — المسلمين العبيد ويطلق عليهم القولار .

٢ — المسلمين الأحرار ويطلق عليهم الهيئة الإسلامية .

وأفراد الهيئة الإسلامية متساوون جميعاً ، وهيأت لهم الدولة مبدأ تكافؤ الفرص ، بمعنى أن الذين حصلوا منهم على قسط وافر من التعليم فى علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات كانوا يشغلون شتى المناصب فى سلك القضاء والإفتاء والتدريس وما إلى ذلك . وكانوا يتدرجون

فى هذه المناصب حتى يصلوا إلى أعلاها ، وكان من بينها منصب المفتى الذى أطلق على شاغله فيما بعد شيخ الإسلام . وكانت أمنية كل والد ينتمى إلى الهيئة الإسلامية أن يرى ابنه يتدرج فى سلك تلك المناصب حتى يصل إلى أعلى درجاتها . أما أفراد الهيئة الإسلامية الذين لم يصلوا فى تعليمهم إلى نهاية الشوط ، فكانوا يشغلون المناصب الصغرى فى القطاع الدينى وفى وظائفه الإدارية التى تتفق مع حجم التعليم الذى حصلوا عليه . فكان الباب مفتوحاً أمام الجميع ولا يشترط سوى معيار الكفاية والذى يتمثل فى حجم حصيلته من العلم . فالفكرة قامت على أساس ديمقراطى : المساواة وتكافؤ الفرص . وقد أطلق على أفراد الهيئة الإسلامية الذين تلقوا تعليماً دينياً أياً كان حجمه وشغلوا مناصب القطاع الدينى : الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو The Religious Islamic Ruling Institution كما اصطلح على تسميتهم المؤرخون والباحثون . وهذه الهيئة هى موضوع دراستنا فى هذا الفصل .

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمنظمات المسيحية :

وتختلف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية فى طبيعتها وتكوينها عن جميع المنظمات الدينية المسيحية فى أوروبا . فالدين الإسلامى لا يعترف بوجود طبقة دينية مما يطلق عليها فى الغرب الكهنوت وما إلى ذلك من مسميات . والإسلام يتميز بالبساطة ويبتعد عن التعقيدات ، ولا يقيم وسيطاً بين العبد وخالقه . ويقول سبحانه وتعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (١) . وقد اختلط الأمر على البعض فأصبحوا يتكلمون عن وجود طبقة فى الإسلام أطلقوا عليها إسم طبقة رجال الدين. والحق أنه لا توجد مثل هذه الطبقة فى الإسلام، بل يوجد أفراد تفقهوا فى الدين أى تثقفوا بثقافة دينية عميقة واسعة سواء فى علوم أصول الدين أو علوم الشريعة وما يتصل بها . والاسم الصحيح لهم هو علماء الدين ، ولكنهم لا يشكلون طبقة خاصة بهم . والإسلام لا يعترف بالأرستقراطية الدينية ، أو الرهبانية ، أو الطبقية الدينية

---

(١) سورة البقرة ، آية رقم ١٨٦ .

مثل الكرادلة ، والأساقفة ، والقسيسين ومن إليهم . وفى ظل هذه النظرة الإسلامية السمحة يستطيع أى مسلم بالغ ملم بأصول الدين أن يؤذن للصلاة، أو يلقى خطب الجمعة والعيدين، أو يؤم المصلين، أو يصلى على ميت أو غير ذلك من الأعمال التى تتصل بإقامة الشعائر الدينية . ولا يشترط الإسلام مكاناً معيناً لأداء مثل هذه الشعائر ، ولا يشترط شخصا معيناً يقوم بها بحيث يكون أداؤها باطلا إذا قام بها شخص عادى .

تشكيل الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

إذا كان السلطان هو رئيس الهيئة الإسلامية بمدلوليها العام والخاص ، فإن شيخ الإسلام كان الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمهيمن عليها . وكانت هذه الهيئة تضم أربعة عناصر :

١ — شيخ الإسلام .

٢ — القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم .

٣ — المفتون .

٤ — أساتذة الشريعة وأصول الدين .

٥ — هيئات التدريس فى المدارس الإسلامية .

٦ — ويلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإداريون فى القطاع الدينى . وكان مستواهم العلمى لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً .

شيخ الإسلام

كان يطلق على شيخ الإسلام أول الأمر مفتى العاصمة، وأحياناً المفتى الأكبر . وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية . كان الصدر الأعظم والوزراء، وفى بعض الأحيان السلطان نفسه، يلتمسون رأيه فى بعض المسائل الهامة ، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل إقرارها بصفة نهائية. ويطلبون منه الرأى فى مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكان بحال

إلى شيخ الإسلام القضايا الجنائية التى يرى القاضى الحكم فيها بإعدام المتهم أو المتهمين فيها قبل إصدار الحكم بإعدامهم . وهو إجراء كان يستهدف الإطمئنان إلى سلامة إجراءات التحقيق والمحاكمة وتوفر الأدلة على ثبوت التهمة . وكان هناك نوع ثالث من الاختصاصات على درجة قصوى من الأهمية بل والخطورة يباشرها شيخ الإسلام بإصدار فتاوى ذات طابع سياسى ، وتتناول موضوعات تتصل بالسياسة العليا للدولة . كان السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، بل إن هذه الحرب لها أسبابها القوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية . وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة يعلنون أن الحرب المقدمة عليها الدولة هى حرب دينية ، وأن الجماهير يجب أن تقف صفاً واحداً تؤيد قلباً وقالباً الجيش وهو يخوض الحرب ، ومنها أيضاً الفتاوى التى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها ، وكذلك الفتاوى التى تجيز عزل السلطان الحاكم لسبب أو لآخر . وكانت الحالة الأخيرة هى قمة الاختصاصات التى كان يباشرها شيخ الإسلام . وقد ذكرنا من قبل أمثلة لبعض أنواع هذه الفتاوى وسنشير إلى أمثلة لاختصاصاته الأخيرة سواء فى مجال السياسة العليا أو فى عزل للسلاطين بعد أن نشرح الملابسات التى آحاطت بتغيير لقبه من المفتى إلى شيخ الإسلام ، ثم مركزه فى البروتوكول العثمانى .

إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتى العاصمة :

وتقديراً للمسئوليات الجسام التى كان يضطلع بها مفتى العاصمة أو المفتى الأكبر ،رأت الدولة أن تميزه عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون فى معظم الأقاليم والمدن الكبرى فى أنحاء الإمبراطورية ، وكان عددهم يصل إلى قرابة مائتى مفتياً ، فأطلقت على مفتى العاصمة لقب « شيخ الإسلام» فأصبح هو الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *de facto* وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية *de juri*

وقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد الوقت الذى

أطلق فيه على مفتى العاصمة هذا اللقب . فيرى أحدهم وهو قانونى نمساوى يسمى هايدبورن Heidborn [1] أن السلطان مراد الثانى (١٤٢١—١٤٥١) هو أول من أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى أدرنة التى كانت عاصمة الدولة وقتذاك، وأن خلفه السلطان محمد الثانى أمر بنقل مقر شيخ الإسلام إلى القسطنطينية بعد فتحها وبعد أن اتخذها عاصمة جديدة للدولة ، وأنه أطلق عليه لقباً جديداً هو رئيس العلماء [2] . ويرى فريق من المؤرخين على رأسهم دوسون D'Ohosson الفرنسى [3] وليبير Lybyer الأمريكى [4] أن السلطان محمد الثانى (١٤٥١—١٤٨١) هو الذى أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى القسطنطينية بعد أن فتحها . ويرى فريق ثالث منهم جب وبوون Gibb and Bowen الإنجليزيان [5] أن السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠—١٥٦٦) هو صاحب التسمية ، وأخيراً ذهب أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد جميل بيهم ، إلى أن إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول قد حدث فى عصر متأخر يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . ويضيف إلى ذلك قوله إن السلطان محمود الأول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) هو الذى أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول . وكان ذلك فى سنة ١٧٤١ م الموافقة لسنة ١١٥٤ هـ [6] .

---

(١) Heidborn, A. ; op. cit., p. 215.

(٢) فى قانون نامه الذى صدر على عهد السلطان محمد الثانى أشير إلى شيخ الإسلام بأنه رئيس العلماء .

(٣) D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., t. IV, p. 500.

(٤) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 208.

(٥) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, part II, p. 84.

(٦) أنظر كتابيه :

أ— فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمتها. بيروت ، فبراير (شباط) ١٩٢٥ ، ص ٢٩٨ . —

وهو رأى ضعيف لا تؤيده الشواهد التاريخية ، وكذلك الرأى القائل بأن السلطان مراد الثانى هو أول من أطلق ذلك اللقب على مفتى العاصمة . بقى بعد ذلك الرأيان الآخران المنسوبان إلى السلطان محمد الثانى، وإلى السلطان سليمان المشرع . والرأى الأدنى إلى الحقيقة منهما هو أن السلطان محمد الثانى هو الذى استحدث لقب شيخ الإسلام فى تاريخ الدولة العثمانية ، فإنه بعد أن فتح هذا السلطان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وبعد أن نقل عاصمة دولته إليها ، وبعد أن حول كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية إلى مسجد، وبعد أن أطلق على العاصمة الجديدة اسماً إسلامياً عثمانياً هو إستانبول أى دار الإسلام ، نقول إنه بعد أن أتم هذه الإنجازات أطلق لقب شيخ الإسلام على المفتى فى دار الإسلام متمشياً مع الجو الدينى والسياسى العابق للدولة وهى تعيش أجمل أيامها وفى قمة أفراحها بفتح القسطنطينية وسقوط الدولة البيزنطية . أما القول بأن هذا السلطان قد أطلق لقب « رئيس العلماء » على المفتى فهو من قبيل التزيد ، لأن شيخ الإسلام بحكم منصبه هو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة العثمانية ، فإذا أضيف إلى منصبه ذى الاختصاصات العديدة المتشعبة —والتى يتصل بعضها بالسياسة العليا للدولة — هذا اللقب الجديد الذى حصل عليه وهو شيخ الإسلام فإنه يعتبر رئيساً للعلماء ، ويشملون القضاة ورجال الإفتاء وأساتذة الشريعة وأصول الدين ومن إليهم من أصحاب المناصب الرفيعة وغيرها فى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فهو يجبهم على بكرة أبيهم جباً . أما السلطان سليمان المشرع فقد ازداد على عهده مركز شيخ الإسلام تألقاً (١) ، وارتفع مكاناً علياً حتى غدا من الناحية الافتراضية أو التقديرية نداً للصدر الأعظم (٢) . وكان الجانب

— ب — العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم ١ .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة شيخ الإسلام .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part II, p. 86.

الحضارى المتعدد الألوان والصور من أبرز الجوانب فى شخصية السلطان سليمان إلى جانب الإنجازات الحربية التى تمت إبان حكمه الطويل والذى استطال زهاء ستة وأربعين عاما . وستظل التشريعات التى تم وضعها من مفاخر حكمه ومن مفاخر الدولة فى تاريخها الحضارى . ومن هنا كان دور شيخ الإسلام على عهد سليمان دوراً بناء خلاقاً . ويلاحظ أن الفترة التى حكم فيها كل من السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان المشرع بنوع خاص قد شهدت نشاطاً ملحوظاً وغير عادى فى وضع التشريعات العثمانية . وكان يطلق على هذه التشريعات التى تصدر فى حكم كل سلطان قانون نامه . وكان لشيخ الإسلام دور رئيسى فى وضع وصياغة هذه التشريعات ، يدل على ذلك أن جزءاً كبيراً منها كان عبارة عن مجموعات فتاوى فى صورة أسئلة وجهتها السلطات الحاكمة فى الدولة وإجابات شيخ الإسلام عليها . ومن المحتمل أن يكون اللبس الذى حدث فى تحديد اسم السلطان الذى أمر بتغيير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام إنما مرده إلى الأضواء التى سلطت على شيخ الإسلام إبان حكم السلطان سليمان المشرع وكثرة ما كتب عن إنجازاته التشريعية مما جعل البعض يعتقدون أن سليماناً هو الذى أطلق اللقب على مفتى العاصمة ، مع أن جميع القرائن تدل على أن السلطان محمد الثانى هو الذى أحدث هذا التغيير بعد أن فتح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام .

ويلاحظ أن فريقاً من الباحثين ، وبعضهم من الأوروبيين والأمريكيين لا يلتزمون بالفاصل التاريخى الخاص بهذا اللقب بين المفتى وشيخ الإسلام ، ويخلطون بين اللقبين ، فيذكرون فى بحوثهم كلمة المفتى فى الوقت الذى غدا لقبه الرسمى شيخ الإسلام . وكان يحدث هذا الخلط عادة عند كلامهم عن الفتاوى التى كان يستصدرها السلاطين من شيخ الإسلام ، فكانوا يربطون بين كلمتى المفتى والفتوى لتشابه كل منهما لغوياً ولفظياً .

= وقد تأكدت المساواة فى المرتبة بين شيخ الإسلام والصدر الأعظم فى المادة ٢٧ من الدستور الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٨٧٦ .

سببان لإطلاق لقب شيخ الإسلام على المفتى :

تبقى مسألة لها أهميتها لأنها تتصل اتصالا وثيقاً ومباشراً بموضوع لقب شيخ الإسلام ، وهى خاصة بمعرفة الأسباب التى حملت الدولة العثمانية على إحداث هذا التغيير . لقد قيلت فى هذا الصدد عدة أسباب. كان أولها رغبة الدولة فى إضفاء مزيد من الأهمية والتبجيل على مفتى العاصمة فى مواجهة رؤساء الطوائف الدينية غير الإسلامية ، نذكر منهم على سبيل المثال البطريرك اليونانى والبطريرك الأرمنى وحاخام اليهود . كان شيخ الإسلام وهؤلاء الرؤساء يباشرون اختصاصاتهم الدينية من مدينة واحدة هى إستانبول . وكان السلاطين بوجه عام حريصين على احترام مشاعر رعايا الدولة غير المسلمين . ولم تكد تمر ثلاثة أيام على فتح القسطنطينية حتى أمر السلطان محمد الفاتح باتخاذ الإجراءات الفورية لانتخاب بطريرك للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية يعتلى كرسى البطريركية الشاغر . وأمر أيضاً بأن تتبع فى إجراءات تنصيبه نفس المراسم التى كانت تنفذ أيام أباطرة الدولة البيزنطية فى هـذه المناسبة مع تعديل طفيف هو استبعاد الإجراءات التى تتعارض مع العقيدة الإسلامية . وأقام له السلطان مأدبة فخمة وألقى كلمة أكد فيها أن البطريرك سيتمتع بكافة الحقوق والامتيازات التى كان يمارسها أسلافه . وسار البطريرك فى موكب رائع ممتطياً صهوة أحد خيول السلطان المطهمة يحيط به كبار الموظفين العثمانيين حتى بلغ دار البطريركية .

ومضى السلطان محمد الثانى فى سياسة التسامح الدينى ، فاستدعى إلى إستانبول أسقف بروسه الأرمنى . وأقامه بطريركاً للأرمن ، ومنحه نفس الحقوق والاختصاصات التى خولها للبطريرك اليونانى ، كما أذن هذا السلطان لليهود فى الإقامة فى إستانبول وعين حاخاماً لهم أطلق عليه «حاخام باشى» ومنحه سلطات على رعايا الدولة اليهود مماثلة للسلطات الممنوحة لكل من البطريرك اليونانى والبطريرك الأرمنى .

فإذا كان السلطان محمد الثانى قد أبقى بعد فتح القسطنطينية على النفوذ

الدينى لرؤساء الطوائف غير الإسلامية وعلى المظاهر التى كانت تحيط بهم من يمين وشمال داخل النطاق المذهبى ، فكان من الطبيعى أن يحرص هذا السلطان فى ذات الوقت على ألا تكون شخصية المفتى فى العاصمة ، وهو أكبر موظف دينى مسلم فى الدولة ، بأقل فى مظهرها ومخبرها ، وفى ظاهرها وباطنها ، من شخصية أولئك الرؤساء جميعاً وبخاصة شخصية بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية . وكانت هذه الكنيسة برياستها وأتباعها الكثيفى العدد مركز قوة فى الدولة ، ولكنها كانت تحت أعين رجال الحكومة ما بقيت الدولة العثمانية قوية ، وفى استطاعتها محق أية ثورة أو حركة تمرد قد يفكر أتباع هذه الكنيسة فى القيام بها . ولاننسى أن الدولة العثمانية كانت دولة تيوقراطية un état théocratique أى دينية ، فجاءت سياستها وتشريعاتها ومعظم تصرفاتها تتسم بالطبع الدينى الإسلامى الذى كان من أبرز خصائص هذه الدولة . وقد سبق أن تعرضنا فى شىء من التفصيل لهذه الخصيصية فى هذه الدراسة (١) . فإضفاء لقب شيخ الإسلام على مفتى العاصمة كان فى لحمته وسداه متمشياً مع السياسة العليا للدولة وتطبيقاً عملياً لتلك الخصيصة الدينية القوية من خصائص الدولة .

أما السبب الثانى الذى حمل الدولة على تغيير لقب المفتى إلى شيخ الإسلام فيرجع إلى رغبتها فى إيجاد نوع من التوازن بين الوظائف القيادية فى تلكما الهيئتين الحاكمتين الرئيسيتين فى الدولة وهما طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فإذا كان الصدر الأعظم باختصاصاته العديدة وسلطاته الواسعة يعد أكبر موظف فى طبقة القولار الحاكمة ، فقد رأت الدولة أن تطلق على شخصية دينية إسلامية لقباً دينياً وأدبياً يجعل هــذه الشخصية نداً للصدر الأعظم ، وأضفت عليه الكثير من الامتيازات سواء فى حياته الخاصة أو فى حياته العامة، وسواء فى كثرة اختصاصاته وتعددها،أو فى عدد الإدارات الفنية التابعة لمكتبه،وفى حشد كثيف العدد من القضاة ومن إليهم من كبار العلماء الذين كانوا يعملون فى شتى الأجهزة التابعة له .

---

(١) انظر فى هذه الدراسة ص ص ٥٤–٨٩

ويلاحظ أنه لم يكن عضواً فى الديوان الإمبراطورى الذى يرأسه الصدر الأعظم . والحكمة فى عدم تقرير عضويته فى هذا الديوان ترجع إلى حرص الدولة على ألا يكون شيخ الإسلام ، وهو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة كما ذكرنا ، مرءوساً للصدر الأعظم الذى ينتمى إلى طبقة القولار الحاكمة . واكتفت الدولة بأن تكون الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ممثلة فى الديوان بعناصر أخرى من هذه الهيئة أقل درجة من شيخ الإسلام .

ويرى البعض أن السلطان محمد الثانى كان متأثراً بوجود الخلفاء العباسيين فى القاهرة بجوار سلاطين دولتى المماليك البحرية والشراكسة منذ أن نجح الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وكان هؤلاء السلاطين يستندون إلى الخلفاء فى تأييد سلطتهم . فحذا السلطان محمد الثانى حذواً مماثلا إلى حد ما ، ومن ثم عمل على أن تكون بجانبه شخصية دينية إسلامية تحمل لقباً دينياً براقاً له وزنه وتقديره فى نظر الجماهير . ويستطيع أن يستند إلى شيخ الإسلام فى دعم مركزه وتثبيت عرشه وتأييد تصرفاته السياسية والحربية والعائلية وغيرها . ومن المتعذر — إن لم يكن فى حكم الاستحالة — الأخذ بهذا التفسير لعدة أسباب ، نذكر منها :

أولا : إن العرش فى دولة المماليك الشراكسة لم يكن وراثياً فى معظم الأحوال . وإنما كان يتربع عليه الأمير الأعز نفراً والأكثر أنصاراً والأوفر ثراء ، ومدى ما كان يتصف به من صفات المكر والخديعة والغدر والنفاق والمقدرة على تدبير المؤامرات إلى جانب الكفاية الحربية والمهارة الدبلوماسية. فظل عرش تلك الدولة مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك (١)، بينما كان عرش الدولة العثمانية وراثياً ، كان يتقلده أفراد أسرة واحدة عبر الأعصار

---

(١) كان مبدأ وراثة العرش محترماً فى حالات كثيرة أيام دولة المماليك البحرية ولا سيما فى أسرة قلاوون .

انظر :

دكتور إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠-١١ .

والأدهار . ولم يكن يشترط فيمن يتولاه سوى شرط واحد هو أن يكون من أصلاب الأسرة ، أى من أولاد الذكور ولا يكون من أولاد البنات . فالدولة العثمانية كانت تتميز — فيما كانت تتميز به — بالاستقرار : فلا يجىء غريب أو طارىء أو من كان فى مرتع شبابه عبداً مملوكاً ثم يتولى العرش .

ثانياً : كان السلطان محمد الثانى يعلم علماً يقينياً الحقائق المتصلة بالخلافة العباسية فى القاهرة ، ومن بينها أنها كانت خلافة صورية تتمثل فى أن يصدر الخليفة تفويضاً يسمى « التقليد » لكل سلطان مملوكى يتربع على عرش دولة المماليك حتى يكون لهذا السلطان حق شرعى فى الحكم شعوراً من سلاطين دولتى المماليك — البحرية والشراكسة — بحرج مركزهم لأصلهم غير الحر ، ولأنهم اغتصبوا السلطة فى مصر اغتصاباً مزرياً من حكامها السابقين ، فأرادوا أن يضفوا على حكمهم شرعية وعلى أنفسهم مهابة وعلى مركزهم دعامة يسندون بها عرشهم . وإذا كان اسم الخليفة يذكر قبل اسم السلطان فى خطب صلاة الجمعة والعيدين ، فقد كان هذا السبق أيضاً مسألة شكلية ، لأن الخليفة كان محجوراً عليه . ولم يكن يغادر داره فى أوقات السلم إلا مرة واحدة فى أول كل شهر هجرى وفى أول يوم من أيام العيدين إلى القلعة لتهنئة السلطان . فكان عدد المرات التى يخرج فيها من داره ثلاث عشرة مرة فى السنة(١) ، ولم يكن فى مكنة أى شخص أن يتصل بالخليفة إلا بإذن من السلطان (٢) . أما فى زمن الحرب فكان الخليفة يصحب الجيش من قبيل التبرك . وبذلك تلاشت شخصية الخليفة أمام السلطان المملوكى موئل السلطة الفعلية فى الدولة(٣). وعلى حد قول المقريزى كانت الخلافة العباسية

---

(١) من المعروف أن غرة شهر شوال هو أول أيام عيد الفطر فكان يؤذن للخليفا فى الخروج فى هذا اليوم الذى تجتمع فيه هاتان المناسبتان لتهنئة السلطان ، وبذلك يصبح عدد المرات ثلاث عشرة مرة .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٤٢-٣٤٧

(٣) حدث استثناء لهذا المبدأ العام الذى التزم به السلاطين المماليك تجاه الخلفاء العباسيين . فعلى عهد دولة المماليك الشراكسة تنافس على العرش أميران ، هما : نوروز ، وشيخ . ورأى الأمير —

فى القاهرة « ليس لها أمر ولا نهى ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين »(١) .
فلم يكن من المعقول أن يستهوى السلطان محمد الثانى مثل هذا المركز الهابط الذى كان يشغله الخليفة العباسى فى القاهرة ، فيعمل على إنشاء منصب دينى مقارب له فى إستانبول . وقد ذكرنا من قبل أن السلاطين العثمانيين قد اهتموا باضافة لقب « حامى الحرمين الشريفين » إلى ألقابهم العديدة عقب دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . ولكنهم لم يتخذوا وقتذاك لقب خليفة ، لأنهم كانوا يدركون أن هذا اللقب قد هوى بصاحبه فى القاهرة إلى الحضيض .
ولكنهم بعثوا لقب خليفة فى القرن الثامن عشر لأسباب سياسية . أما ما ذكره بعض المؤرخين من أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلتمسون تفويضاً من الخليفة العباسى فى القاهرة عند اعتلائهم العرش(٢) ، فأمر مشكوك فيه، لأن الاستعلاء الذى كان من أبرز صفات السلاطين العثمانيين كان يمنعهم من أن يستمدوا سلطتهم من قوة خارجية يعلمون جيداً مبلغ هوانها فى نظر السلاطين المماليك والشعوب الإسلامية فى مصر والشام وغيرها . فالتماس التفويض كان أمراً يتنافى مع طبائع السلاطين العثمانيين ومع أخلاقهم .

باب مشيخت ، شيخ الإسلام قابيسى :

كان يطلق أحياناً على منصب شيخ الإسلام والمكاتب والأجهزة الملحقة به « باب مشيخت » أى باب المشيخة ، كما كان يطلق أحيانا أخرى مصطلح

= شيخ فى مخططه للقضاء على منافسه أن يضع مؤقتا الخليفة العباسى ، المستعين ، على العرش (سنة ٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) . ولما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ عزل الخليفة من العرش بعد أقل من ستة شهور بنفس السهولة التى وضعه عليه ، ثم عزله من الخلافة أيضاً وسجنه فى القلعة .

انظر :

دكتور إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة. مرجع سبق ذكره، ص ص ٦٣—٦٥ .

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الطبعة الأهلية . أربعة أجزاء القاهرة ، ١٩٠٧ ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٢) السيوطى جلال الدين : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة. القاهرة ١٣٢٧هـ ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

آخر هو « شيخ الإسلام قابيسى » أى باب شيخ الإسلام(١) ، تأسيساً على أن لفظة « باب » جرى العرف على إطلاقها على قصر أو مقر أى حاكم أو بلاطه أو حكومته .

ولما قضى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) على نظام الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) خصص الدار التى كان يشغلها قائد فيالق الإنكشارية فى إستانبول لشيخ الإسلام.فأصبحت مقراً له يمارس فيها اختصاصاته .وكانت هذه الدار تقع على مقربة من مسجد السليمانية .

باب فتوى ، فتوى خانه :

أنشا السلطان سليمان المشرع مكتباً فنياً ألحقه بشيخ الإسلام وأطلق عليه المصطلح التاريخى « باب فتوى » أو « فتوى خانه » بمعنى دار الإفتاء . وكان يعمل بها جماعة من كبار العلماء يبحثون بصفة تمهيدية المسائل الشرعية التى يطلب إلى شيخ الإسلام إصدار فتاوى بشأنها . وكان يرأس دار الإفتاء أحد كبار العلماء المرموقين ويطلق عليه « فتوى أمينى » أى أمين الإفتاء أو أمين الفتاوى (٢) .

وإذا أرادت الحكومة المركزية الوقوف على رأى شيخ الإسلام فى مسألة معينة،وطلبت منه إصدار فتوى بشأنها ، كان عليها أن تتقدم بطلب رسمى إليه . ولكن كان يسبق تقديم هذا الطلب اتصالات غير رسمية بين الوزراء المختصين من ناحية ، وبين أمين الإفتاء من ناحية أخرى ، فيبحثها بصفة تمهيدية أو يحيلها إلى أحد معاونيه فى « الفتوى خانه » .

التلخيصجى :

وقد استدعت كثرة عدد الفتاوى التى كانت تطلب من شيخ الإسلام تعين موظف كان يسمى « تلخيصجى » — وهذا المصطلح مأخوذ من

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : باب مشيخت .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold op. cit., vol.I. Part II, p. 86.

اللفظة العربية لخّص والاسم منها — تلخيص — فيقوم بإعداد موجز للعناصر التى تتألف منها المسألة المراد استصدار فتوى بشأنها(١) . وكان من بين موظفى مكتب شيخ الإسلام موظف يختص بإدارة المؤسسات الخيرية التى كان يعهد إليه بالإشراف عليها ، وكان هذا الموظف يسمى « كخيا » . ومن اختصاصه أيضاً الإشراف على الشئون الخاصة بشيخ الإسلام، فكان يساعده فى هذا الصدد ، شأنه شأن باشوات الدولة . وكان هؤلاء الموظفون الملحقون بمكتب شيخ الإسلام والذين يعتبرون مساعدين له يؤخذون من رجال القضاء من فئة « مولا » أو من رجال الإفتاء .

مقارنة بين مركز كل من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام :

كان الصدر الأعظم وشيخ الإسلام هما الموظفين الوحيدين فى الدولة اللذين يتسلمان فرمان تعيين كل منهما فى منصبه من يد السلطان . وكان من التقاليد المتبعة فى الاحتفالات الرسمية ألا يتقدم أحدهما على الآخر ، بل كانا يسيران جنباً إلى جنب ، وإن قام أحدهما بزيارة رسمية للآخر ، تتبع فى استقباله وتوديعه مراسم التكريم والتشريف التى تتبع فى استقبال وتوديع الآخر . فكان كل منهما يعتبر نداً للآخر ، كما سبق أن ذكرنا .

وإذا كان الصدر الأعظم يتمتع بسلطات أكبر ، فإن شيخ الإسلام كان يظفر بتقدير أكبر . وكان من أسباب هذا التقدير العميق أن شيخ الإسلام كان يمارس سلطاته فى مجالات دينية لها وزنها وتقديرها فى نظر الجميع ، فضلا عن اختصاصات لا تسمو إليها اختصاصات الصدر الأعظم وتتصل اتصالا مباشراً بالسياسة العليا للدولة ، فله وحده ودون سواه ، الحق فى إصدار فتاوى تجيز الحرب التى تخوضها الدولة ، أو فتاوى

---

(١) يلاحظ أنه كان بين حاشية الصدر الأعظم ضابطان يحمل كل منهما نفس اللقب وهو تلخيصجى ، يقومان بتسليم رئيس الخصيان السود — وهو أغا البنات المسمى قيزلر آغاسى — المذكرات التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى السلطان . وكان رئيس الخصيان السود ، فى معظم الأوقات ، هو الوحيد الذى يمكنه أن يرفع هذه المذكرات إلى السلطان .

بتقرير الصلح ، أو إبرام المعاهدات ، أو عزل السلطان الحاكم . كما لم يكن لشيخ الإسلام شأن مباشر بالخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية للسلطان . واعتاد السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) أن يقف لاستقبال شيخ الإسلام ويمنحه مقعداً أعلى من مقعده(١).

وكان على الصدر الأعظم أن يكون على اتصال مستمر بشيخ الإسلام لبحث المسائل الخاصة بشئون الدولة والتى تتطلب أخذ رأيه فيها من حيث مطابقتها لمبادىء الشريعة الإسلامية . ولذلك كان الصدر الأعظم هو الذى يقوم بزيارات عديدة لشيخ الإسلام فى مقر منصبه على فترات متقاربة . وكانت هذه الزيارات لكثرتها تتم فى بعض الأحيان بطريقة غير رسمية لتجنب إقامة المراسم التى تتبع عند زيارته لشيخ الإسلام .

مركز شيخ الإسلام فى البروتوكول العثمانى :

حدد السلطان سليمان المشرع تحديداً نهائياً وقاطعاً المركز الوظيفى والقانونى لشيخ الإسلام ، فجعله رئيس هيئة العلماء وأكبر شخصية عاملة فى الهيئة الإسلامية . كما أضفى على شاغل هذا المنصب الكثير من مظاهر التكريم والنفوذ . كان شيخ الإسلام يتقدم على جميع موظفى الدولة . ثم غدا يتمتع فى البروتوكول العثمانى بمركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم أى رئيس الوزراء وعن الوزراء . فعند ذهاب شيخ الإسلام لمقابلة السلطان كان يخف هذا لاستقباله متقدماً سبع خطوات ، بينما لم يكن السلطان يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح لشيخ الإسلام بتقبيل كتف السلطان، بينما كان لايسمح للصدر الأعظم إلا بلثم ذيل ثوبه(٢).

وقد قيل فى مستهل حكم السلطان سليمان المشرع إن الشعب كان يظهر لشيخ الإسلام احتراماً لم يظهره قط لرجل آخر فى الدولة . وقد بنى الشعب تقديره العميق له تأسيساً على أنه يمثل الإسلام والشريعة الإسلامية، وأنه

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 209.

(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٤—١٢٥.

المفسر لها . وكان السلطان لا يستطيع المساس بها من قريب أو من بعيد ، وإلا تعرض للعزل والقتل ، فالشريعة فوق السلطان نفسه . وكان السلطان هو الذى يتولى اختيار شيخ الإسلام ، ويصدر فرماناً أى مرسوماً سلطانياً بتعيينه فى هذا المنصب . وكان السلطان يختاره أول الأمر من بين المفتين الذين يعملون فى أنحاء الدولة . ولما تغير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام كان السلطان يختاره من بين كبار رجال القضاء .

وكانت الدولة تخصص أحد كبار ضباط القصر السلطانى لمساعدة شيخ الإسلام فى ارتداء ملابس التشريفة . ويطلق على هذا الضابط اسم « الخاص أوطه باشى » وكان فى أول الأمر وعلى عهد سلاطين الفترة الأولى رجلا كامل الرجولة ، ثم رأت الدولة — بعد انتهاء حكم السلطان سليمان المشرع — أن يكون هذا الضابط خصياً ومن طائفة الخصيان البيض (١) .

فتاوى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية :

ومن الأمثلة على الفتاوى التى كان يصدرها شيخ الإسلام تجيز فيها للدولة أن تتنازل عن بعض أقاليم خاضعة لها ، نذكر الفتوى التى صدرت عنه فى سنة ١٨٢٩ . كانت الدولة قد اضطرت إلى قبول الصلح عقب الحرب الخاسرة التى خاضتها ضد الروسيا فى أبريل — نيسان — سنة ١٨٢٨ ، وعقدت معاهدة أدرنة فى سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، واعترفت الدولة فى هذه المعاهدة باستقلال اليونان استقلالا داخلياً ، وباستقلال ولايتى الأفلاق والبغدان (رومانيا حاليا) فى إدارتها تحت حماية الروسيا . ورأى السلطان محمود الثانى أن يتجه إلى شيخ الإسلام ، وحصل منه على فتوى تجيز هذا التصرف. وبناء على هذه الفتوى أصدر السلطان تصديقاً La Ratification على معاهدة أدرنة.

فتوى توجب محاربة محمد على وفتوى تجيز العفو عنه :

وعند ما اندلعت حرب الشام الأولى سنة ١٨٣١ بين السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر استصدر السلطان من شيخ الإسلام فتوى تجيز

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I. Part I, pp,332—333.

له محاربة محمد على . ولما توقفت العمليات الحربية وأبرمت اتفاقية كوتاهية فى اليوم السادس من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٣ استصدر ذلك السلطان من شيخ الإسلام فتوى أخرى تجيز العدول عن محاربة محمد على . ونذكر النص الحرفى للسطر الأول من الفتوى ، وهو فى صورة سؤال موجه إلى شيخ الإسلام « إذا كانت طائفة من المسلمين جمعت العساكر وهجمت على طائفة أخرى أيضاً من المسلمين . ولكنها — بعد ذلك — عرضت الطاعة إلى إمام المسلمين وخليفة الأرضين ، خلد الله ملكه إلى يوم الدين ، ورجعت عن تعدياتها ، هل يكون من المشروع أن تقبل طاعتها ، وترك قتالها ؟ » (١) . وصدرت الفتوى تقرر أن قبول طاعتهم والكف عن قتالهم أمر مشروع .

فتاوى عزل السلاطين :

كان أقوى مظهر يوضح مدى سلطة ونفوذ شيخ الإسلام أنه كان له وحده ودون سواه الحق فى إصدار فتوى بعزل السلطان القائم بالحكم تأسيساً على أنه انحرف عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً سليماً ، أو استناداً إلى أنه مصاب بمرض عقلى لا يرجى شفاؤه ، أو غير ذلك من ذرائع أو أسباب . وكانت فتاوى العزل تختلف اختلافاً جذرياً عن الفتاوى التى تتناول مسائل السياسة أو الحرب ، فبينما الفتاوى الأخيرة يستصدرها السلطان القائم بالحكم لأنه صاحب المصلحة الأولى فى صدورها ، كانت فتاوى العزل تستصدرها إحدى جهتين : أحد المنافسين للسلطان على العرش من أعضاء الأسرة السلطانية ، أو من العسكريين أو من أحد مراكز القوى السياسية فى الدولة . كما كان هناك فارق جوهرى آخر هو أن فتاوى العزل لا تنتهى بعزل السلطان الحاكم ، ولكن كان لها نتائج أخرى تترتب عليها ، هى قتل السلطان المعزول أو اعتقاله فى أحد القصور مع حريمه وقطع كل صلة بينه وبين العالم الخارجى بحيث يصبح السلطان مع أسرته من أموات الأحياء حتى يدرك الموت السلطان المعزول ويتفرق ذووه .

---

(١) ساطع الحصرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤ .

وسنمر مروراً سريعاً على أربع فتاوى صدرت فى أوقات مختلفة، ونشرح الملابسات التى أحاطت بصدور كل فتوى. كانت الفتوى الأولى قد صدرت بعزل السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) لأنه أعاد تنظيم الجيش وفق الأساليب الأوروبية ، فصدرت الفتوى تقول « إن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » . وتم عزله وقتله(١) على يد الإنكشارية الذين وقفوا بدافع المصلحة الشخصية فى وجه كل محاولة لإصلاح الجيش وتطوير نظامه وأسلحته . وصدرت الفتوى الثانية فى ٢٩ من مايو – آيار – ١٨٧٦ بوجوب عزل السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦) تأسيساً على إسرافه والتجائه إلى عقد قروض أجنبية من البيوت المالية فى باريس ولندن ، وعجزه عن تصريف شئون الدولة . وأيد العسكريون هذه الفتوى وطالبوا بتنفيذها . وكان أن عزل السلطان عبد العزيز رسمياً فى اليوم التالى لصدورها(٢)، وعين مكانه ابن أخيه مراد باسم السلطان مراد الخامس . ولم يكن هذا السلطان أوفر حظاً من سابقه . فقد صحت عزيمة مدحت باشا وزملائه على عزله ، واستصدروا فتوى من شيخ الإسلام توجب إعفاءه من الحكم . ولم يعدموا سبباً يستندون إليه فى استصدار الفتوى . وكان هذا السبب هو اختلال قواه العقلية. وتدل الملابسات السياسية التى أحاطت برجال الحكم فى ذلك الوقت على أن هذا السبب كان مختلقاً . وتم عزل السلطان التعس بعد حكم قصير لم يتجاوز ثلاثة أشهر وثلاثة أيام (٣). وعين أخوه الأصغر عبد الحميد فى ٣١ من أغسطس –

---

(١) محمد جميل بيهم : العرب والترك فى الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧

(٢) ولم تمض أيام ذات عدد على عزل السلطان عبد العزيز حتى قضى نحبه. واختلفت الآراء حول وفاته، فمن قائل إنه مات منتحراً، ومن قائل إنه قتل غيلة . ويقول ميلر Miller المؤرخ الإنجليزى إنه تحدث مع الطبيب ديكسون Dickson وهو الذى فحص جثمان السلطان، وعلم منه أن السلطان عبد العزيز مات منتحراً بعد أن قطع شرايينه بمقص. ومع ذلك فبعد خمس سنوات من وفاته وجهت التهمة إلى مدحت باشا وبعض رفاقه بقتل هذا السلطان، وقدموا لمحاكمة صورية وأدينوا وأعدموا .

انظر :

Miller W. ; op. cit., p. 368

(٣) حددت إقامة السلطان مراد الخامس فى أحد القصور المطلة على البوسفور وظل معتقلا فيه زهاء تسعة وعشرين عاماً حتى جاز إلى ربه فى سنة ١٩٠٤ وظلت زوجاته معتقلات فى هذا القصر حتى قام انقلاب سنة ١٩٠٨ فأذن رجال الحكم الجديد لحريمه بمغادرة القصر بعد إقامة جبرية فيه استطالت أكثر من ثلاثين عاما .

آب - سنة ١٨٧٦، واتخذ لنفسه اسم عبد الحميد الثانى . ويقال إن نامق كمال — وهو من أبرز زعماء رجال تركيا الفتاة — توسل إلى مدحت باشا والدموع تترقرق فى عينيه كى يؤجل عزل مراد . ولكن أصر مدحت باشا على رأيه . وسارع السلطان الجديد عبد الحميد الثانى بتعيين مدحت باشا صدراً أعظم. وقد قدر للسلطان عبد الحميد أن يستوى على عرش الدولة العثمانية فترة قاربت أربعة وثلاثين عاماً تزاحمت خلالها الأحداث الجسام على الدولة، ثم يعزل عن العرش فى سنة ١٩٠٩ بناء على فتوى أصدرها شيخ الإسلام نزولا على رغبة العسكريين ، وجاء فى الفتوى أن السلطان عبد الحميد يكيد للنظام الدستورى فى الدولة .

طرازان من شيوخ الإسلام :

وقد يبدو من هذه الفتاوى على اختلاف أنواعها والتى صدرت عن شيوخ الإسلام فى الدولة العثمانية أنهم كانوا أداة طيعة لينة فى يد السلطان الحاكم أو فى أيدى أصحاب مراكز القوى فى الدولة يطلبون من شيخ الإسلام إصدار فتوى لتبرير أو لتفسير إجراء معين. وكان شيخ الإسلام يصدع بما يؤمر به. ونحن لا ننكر أن بعضهم كان من هذا الطراز من الرجال،ولكن من ناحية أخرى كان بعض شيوخ الإسلام ذوى شخصية قوية ، جاهروا السلاطين برأيهم فى تصرفاتهم . ولم تصدر عنهم فتاوى إلا ما كان منها متمشياً مع مبادىء الشريعة الإسلامية . ونعرض فى هذه الدراسة مثالا لهذا الطراز من شيوخ الإسلام .

شيخ الإسلام يتحدى السلطان :

كان عدد من رعايا الدولة فى الأناضول بوجه خاص قد اعتنقوا فى أوائل القرن السادس عشر المذهب الشيعى الذى تسلل إلى أراضى الدولة العثمانية من الدولة الصفوية فى فارس . وكان هذا المذهب خليطاً من مبادىء الشيعة ومبادىء أخرى فوضوية يقول عنها أصحابها إنها تحررية.وأطلق على هذا المذهب قزل باش أى الرأس الأحمر . ونجح السلطان سليم الأول فى أن يحصل

من شيخ الإسلام على فتوى توجب قتل معتنق هذا المذهب. وتمت مذابح عامة قتل فيها معظمهم، وبذلك تخلص سليم منهم. والتفت إلى الدولة الصفوية فى فارس واستصدر من شيخ الإسلام فتوى توجب قتال هذه الدولة ، ومن ثم زحف عليها بقوات جرارة وخاض حرباً خاطفة وأحرز انتصارات كبيرة ، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية . ولكنه لم ينجح فى سحق الشيعة سحقاً كلياً ، وعاد إلى إستانبول . وفى أثناء هذه العمليات صدرت عن الرعايا المسيحيين فى الدولة تصرفات مريبة جعلت السلطان يتوجس منهم خيفة . ورأى أنهم يشكلون تجمعات بشرية كثيفة العدد داخل الدولة، وقد ينتهزون فرصة انشغال الحكومة فى حرب ويكون الجيش العثمانى منصرفاً إلى العمليات الحربية فيقومون بحركة تهدد الدولة تهديداً خطيراً فى مثل هذا الوقت العصيب . وانتهى تفكيره إلى ضرورة تسوية هذه المشكلة، فيعرض على رعاياه المسيحيين أحد أمرين لا ثالث لهما ، وهما : إما اعتناق الإسلام وإما القتل . ويقول أحد المؤرخين الأجانب إن السلطان سليم فى اتخاذه هذا القرار كان متأثراً بالمذابح الدينية التى أقدمت عليها السلطات الإسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق الدين المسيحى[1]. فلم يكن هذا القرار هو الأول من نوعه ، بل كان له نظير فى الطرف الغربى من أوروبا وفى ذات الوقت تقريباً .

عرض السلطان سليم الأول هذه المسألة بصورة مختلفة على الشيخ جمالى شيخ الإسلام، وطلب منه إصدار فتوى توجب إكراه رعايا الدولة المسيحيين على اعتناق الإسلام وقتل من يرفض منهم هذا الأمر . وصدرت الفتوى على النحو الذى كان السلطان يبتغيه ، ثم استبان لشيخ الإسلام أن السلطان سليم قد عرض عليه الموضوع عرضاً غير سليم ؛ وأنه أخفى بعض عناصر الموضوع عنه؛ وبعبارة أخرى أدرك شيخ الإسلام أن السلطان قد خدعه . فما كان منه إلا أن أصدر فتوى لاحقة سحب فيها الفتوى السابق إصدارها بخصوص هذا الموضوع . وقرر فى الفتوى الجديدة أن الشريعة الإسلامية تسمح للمسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب الذين يخضعون للحكم الإسلامى

---

(١) Lybyer, A. H., op. cit., p. 211.

بالبقاء على دينهم طالما كانوا يدفعون جزية الرأس كبدل نقدى يعفيهم من التجنيد وبأن يمارسوا بملء حريتهم شعائرهم الدينية ، وأن تتكفل الدولة بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم وطالما كان سلوكهم العام لا تشوبه شائبة ، وولاؤهم للدولة ملحوظاً وتصرفاتهم سليمة . وقد أبلغت هذه الفتوى إلى البطريرك اليونانى فى إستانبول بصفته رئيس أكبر ملة غير إسلامية فى الدولة. واعتبر البطريرك هذه الفتوى ميثاقاً أو مستنداً يدرأ عن رعايا الدولة غير المسلمين أى اضطهاد دينى قد يتعرضون له . وقد أذعن السلطان سليم لرأى شيخ الإسلام الذى سجلته تلك الفتوى .

ويقول المؤرخ الأمريكى ليبر ،تعليقاً على موقف كل من السلطان وشيخ الإسلام،لو أن السلطان سليم قد نفذ قراره بإكراه جميع رعايا الدولة غير المسلمين على اعتناق الإسلام لنجم عن ذلك مزايا كبرى بالنسبة للدولة العثمانية . وكان من بينها زوال الكنائس المسيحية التى كانت قائمة فى أرجاء الدولة . وكانت تشكل مجموعة من الهيئات الدينية القوية والمنافسة للهيئات الإسلامية . وكانت آمال الرعايا المسيحيين متعلقة بهذه المنشآت الدينية التى تتميز بالحيوية . ومنها أيضاً أن الدولة كانت تنعم بوحدة العقيدة الدينية بين رعاياها ، إذ يحدث فى المدى البعيد اختلاط وانصهار بين الرعايا المسلمين والرعايا المسيحيين الذين يتحولون إلى الإسلام . ولكن ما حدث كان مخالفاً تماماً لهذه التوقعات ، لأن الإبقاء على رعايا الدولة المسيحيين محافظين على دياناتهم كان معناه فى المجال السياسى الإبقاء على الروح القومية والروح الانفصالية تتأججان فى صدور الرعايا المسيحيين . كما كانت هناك نتيجة أخرى لو أن السلطان سليم الأول قد نفذ قراره بإكراه جميع المسيحيين على اعتناق الإسلام،فيقول إن وجه التاريخ فى منطقة الشرق الأدنى كان يتغير تغيراً جذرياً . ويطرى هذا المؤرخ الأمريكى موقف شيخ الإسلام،ويصف قراره بأنه قرار سليم يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية ، وكانت لدى شيخ الإسلام الشجاعة الأدبية حين أصدر هذه الفتوى بصفته حارساً للشريعة الإسلامية . ويختتم ذلك المؤرخ تعليقه على هذه الفتوى قائلا إن الإسلام

الذى جاء به قبل أن يأتى السلطان سليم الأول إلى الحياة بتسعة قرون قد جعل قيام وحدة دينية من رعايا الدولة العثمانية أمراً مستحيلا (١) . ونرى أنه استند إلى أن الإسلام بسماحته كان يجيز لأهل الكتاب الإبقاء على دياناتهم بشرط أداء جزية الرأس . وقد قال الله تعالى « لا إكراه فى الدين » .

أما رأينا فى هذه المسألة فقد سبق أن ذكرناه من قبل وفى أكثر من مؤلف لنا ، وهو أن التاريخ لا يتحدث عن المستقبل ، والتاريخ ليس رجماً بالغيب ، وهو لا يبنى أحكامه على احتمالات قد تحدث فى قابل الأيام وقد لا تحدث . والتاريخ الموضوعى المحايد لا يفترض أحداثاً،ويتابع المؤرخ تنفيذها فى عالم الخيال . ويرتب على هذه الأحداث الخيالية والتنفيذ الخيالى نتائج تتمشى مع عقيدته الدينية أو اتجاهه السياسى ، فيقف منها مكتئباً حزيناً أو مبتهجاً متهللا حسب وجدانه الدينى ونزعته القومية وتحرره من التعصب . فهذه أمور تخرج بالمؤرخ عن اختصاصه ونطاق دراسته كباحث يتميز بالموضوعية والحيدة ، والحق أن رأى شيخ الإسلام الذى عبر عنه فى الفتوى يعتبر تحدياً للسلطان ، ورجوعاً إلى الحق ، وتمسكاً بمبادىء الشريعة الإسلامية ، ودليلا على شجاعته الأدبية .

نظرة أوروبا إلى شيخ الإسلام فى إستانبول :

وقد طاب للمراقبين السياسيين فى دول غربى أوروبا فى القرن السادس عشر أن يقولوا عن شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية إنه يشبه « كاردينالا عظيماً جداً ». وقالوا عنه بعد ذلك إن مركزه يفوق مركز البابا فى روما(٢) . والحق أن هؤلاء المراقبين والمعلقين الأوروبيين قد ربطوا فى أذهانهم بين مركز شيخ الإسلام فى إستانبول وبين المركز الدولى للإمبراطورية العثمانية وهى تقف فى ذلك الوقت فى الصف الأول بين أكبر دول العالم مهيبة

---

(١) Lybyer A. H., op. cit., pp. 210—212.

(٢) Lybyer A. H. op., cit., p. 209.

الجانب مرفوعة الرأس ذات قوات مسلحة ضاربة رهيبة . وبعبارة أخرى رأى أولئك المراقبون والمعلقون السياسيون المسيحيون فى تحليلهم السياسى للمركز المرموق الذى سما إليه شيخ الإسلام فى إستانبول أنه لايستمد هذا المركز السامى من الشريعة الإسلامية التى كان يمثلها فحسب ، بل من مركز الدولة الريادى والقيادى سواء فى العالم الإسلامى أو فى الأسرة الدولية . ونظروا إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأنها تضم الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وكذلك المسجد الأقصى فى القدس ، وأن ممتلكاتها الإقليمية امتدت فى ثلاث قارات . ومن ثم كانت نظرتهم إلى شيخ الإسلام فى إستانبول على أنه أكبر شخصية دينية إسلامية فى العالم . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة إلى شيخ الإسلام أن لقب خليفة لم يكن قد التصق بعد باسم سلطان الدولة العثمانية . وسيحدث هذا الالتصاق فيما بعد فى خلال القرن الثامن عشر وما تلاه .

ومن خلال هذه النظرة ، ومن حيث الواقع التاريخى أيضاً ، وفى أثناء القرن السادس عشر بالذات ، كانت دولة المماليك الشراكسة فى مصر قد ذهبت إلى مغيب ، وفقدت مصر استقلالها وخسرت زعامتها للعالم الإسلامى ، وهبطت من دولة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية ، واحتجبت إلى حين مكانة الأزهر ومكانة علمائه ، وغدا الميدان أمام شيخ الإسلام العثمانى فسيحاً رحيباً خالياً من المنافسين الأقوياء .

ونرجع هنا إلى باحث إنجليزى أقام فى إستانبول فى القرن السابع عشر ، وامتدت إقامته سنين عددا ، وأصدر كتاباً تناول فيه بالشرح الأوضاع السائدة فى الإمبراطورية العثمانية (١). وقد ذكر فيه أنه استقى مادته العلمية من السجلات العثمانية المحفوظة لدى كبار الموظفين ، ومن أعضاء هيئة العلماء المسلمين ، ومن رجل من أصل بولندى أتت به ضريبة الغلمان إلى إستانبول وعاش فى البلاط العثمانى تسع عشرة سنة . ونال كتاب هذا الباحث الإنجليزى شهرة علمية عريضة ، إذ كان مرجعاً للذين كتبوا فى تاريخ الدولة العثمانية منذ

---

(١) Ricaut, Sir Paul; The History of the Present State of the Ottoman Empire. 6 th edition London, 1686.

القرن السابع عشر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات . وإلى سنة ١٦٨٦ كان الكتاب قد طبع ست طبعات باللغة الإنجليزية . وقد منحته الحكومة الإنجليزية لقب سير Sir .أفرد هذا الباحث حيزاً كبيراً من كتابه للحديث عن شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية وعلو شأنه واتساع اختصاصاته واهتمام السلطان العثمانى باسترضائه وتنفيذ ما يشير به شيخ الإسلام على السلطان . فقال إن شيخ الإسلام كان هو الرئيس الفعلى للهيئة الإسلامية ، وهو المرجع الذى ترفع إليه كافة المسائل المختلف عليها من ناحية مدى مطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية ، وهو يتمتع باحترام وتقدير عميقين من لدن جميع العثمانيين. والسلطان دون سواه هو الذى يقوم بتعيينه ، ويختاره رجلا ضليعاً فى علوم الشريعة وأصول الدين ، معروفاً بفضائله ، مشهوزاً باستقامة سلوكه . وإذا أصدر شيخ الإسلام رأياً أو بياناً فلا يستطيع السلطان بأية حال أن يعترض على ما جاء فى ثنايا هذا الرأى أو ما تضمنه هذا البيـــان . والسلطان يطلب دائماً رأى شيخ الإسلام سواء عند إعلان الحرب أو عقد الصلح أو عند مواجهة كافة المسائل الأخرى ذات الخطر على الإمبراطورية . والسلطان يحتمى دائماً بشيخ الإسلام إذا كان فى صدد عزل أحد الباشوات من منصبه . أو إعدام وزير ، أو كان على وشك اتخاذ إجراءات جديدة وهامة تتناول تغييراً فى سياسة الدولة ، فنى كل هذه الحالات وأمثالها كان السلطان يسلح نفسه باستصدار فتوى من شيخ الإسلام تجيز له اتخاذ الإجراءات التى يقدم عليها السلطان ويقرر شيخ الإسلام أنها متمشية مع مبادئ الشريعة (١).

إلغاء منصب شيخ الإسلام :

وعندما آلت السلطة فى الدولة إلى جماعة الاتحاد والترقى عقب إنقلاب سنة ١٩٠٩ ، وكان النفوذ الأول فى دوائر هذا الحزب لضباط الجيش ، حرص النظام الجديد على الانتقاص من سلطة شيخ الإسلام وسائر علماء الدين وتجريدهم تباعاً من اختصاصاتهم وامتيازاتهم . وكان قد انتزع منهم الإشراف على التعليم والقضاء .

---

(١) Loc. cit., pp. 200—202.

وألغيت وظيفة شيخ الإسلام مع إلغاء نظام السلطنة سنة ١٩٢٢ . ولما ألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ أنشات الجمهورية بدلا من وظيفة شيخ الإسلام إدارة جديدة للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزراء فى أنقرة . وكان رئيس هذه الإدارة يطلق عليه « ديانت إيشلرى رئيسى » ويعدّ رئيس الموظفين الدينيين فى جمهورية تركيا ، ويعين بقرار من رئيس الوزراء . وكان من اختصاصاته الإشراف على المساجد والتكايا وتعيين الأئمة والوعاظ والمؤذنين وسائر موظفى المساجد ، وله أيضاً الإشراف على أعمال المفتين ، كما أنشأت حكومة الجمهورية إدارة عامة للمؤسسات الخيرية يرأسها مدير عام يطلق عليه « أوقاف عموم مدير ليشى » يختص بالإشراف على الأوقاف التى استولت عليها الحكومة والعمل على صيانة المبانى الموقوفة (١) .



(١) Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., p. 413.

الفصل الخامس عشر

الهيئات الحاكمة فى الدولة (٤)

الهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة

القضاة :

ينتمى القضاة إلى الهيئة الإسلامية . وكانوا يمرون بطريق دراسى طويل قبل أن يتبوأوا مناصب القضاء . ونظرت الدولة إلى مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه . ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنحاء الدولة فى القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وإفريقية ، والأمر الجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التى ضعف فيها النفوذ العثمانى سياسياً أو عسكرياً أو إدارياً مثل بلاد القرم وشمالى إفريقية . وعلى ذلك فالقضاء العثمانى كان أكثر نفاذاً وبقاء واستقراراً فى الولايات العثمانية من النفوذ العسكرى أو السياسى أو الإدارى للدولة فى تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية . وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضعية أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاة على بكرة أبيهم مسلمين ، ويفصلون فى القضايا فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهباً رسمياً فى الأقاليم الإسلامية التى فتحتها القوات العثمانية . وكان هذا التغيير المذهبى هو أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التى أدخلتها الدولة فى أقاليم العالم الإسلامى التى فتحتها . وعلى سبيل المثال كان مذهب الإمام الشافعى هو المذهب الرسمى فى مصر قبل الفتح العثمانى ،

فلما تم الفتح استبدلت الدولة العثمانية المذهب الحنفى بالمذهب الشافعى . وكان لا بد أن يكون حنفياً كبير القضاة الذى توفده الحكومة العثمانية إلى مصر ليشغل هذا المنصب القضائى الكبير . وكان يطلق على شاغله أيضاً قاضى القضاة أو قاضى عسكر أفندى . ولكن لم تكن الولاية القضائية لتلك المحاكم تمتد إلى جميع الأشخاص فى الدولة ، إذ كانت فى الدولة هيئات معترف بها وكانت لها محاكمها الخاصة تنظر فى قضايا أفرادها مثل القولار ، وهم العبيد أعضاء الهيئة الحاكمة ، ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه . أما رعايا الدولة المسيحيون فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء المسيحيين يرأسها رئيس « الملة » وله أن يستعين ببعض رجال الدين المسيحى . وكانت هناك قضايا خاصة بإدارة أراض معينة من أراضى الأوقاف فكانت تنظر أمام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التى تتعلق بالشريعة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والمسيحيين ، إلا إذا كان المسلم ينتمى إلى طائفة لها نظام قضائى يختص بها مثل القولار والأشراف كما سبق أن ذكرنا . وكان يشمل اختصاص القضاة نسبة كبيرة من القضايا التى تمس موضوعات خارجة عن نطاق الشريعة الإسلامية .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدرين : الرسوم القضائية ، والغرامات التى يحكمون بها ، وكلا المصدرين يدر إيراداً وفيراً . كانوا يتقاضون جزءاً من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها والمبايعات وعلى الأوراق الرسمية التى تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل فى كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب . وكان رسم زواج الآنسة ٣٢ أسبراً Asper أو أقجة وهى عملة فضية ، بينما كان رسم زواج الثيب ١٥ أسبراً (١) .

(١) انظر الرسوم التى حددها السلطان محمد الثانى لشتى المناسبات والتصرفات القانونية فى :
Lybyer A. H.; op. cit., p. 203 *fn*. 1.

فئات القضاة :

كان القضاة يندرجون تحت درجات أو فئات شتى :

قاضى القضاة أو رئيس القضاة أو قاضى عسكر .

هيئـــات التدريس فى المعاهد والمدارس التى تعد العلماء والباحثين والمتخصصين فى الثقافة الإسلامية العليا واللغة التركية والأدب التركى وشتى التخصصات فى نواحى المعرفة .

المولا [١] الكبير ويطلق عليه المصطلح التركى « مولا بيوك » .

المولا الصغير ويطلق عليه المصلح التركى « مولا كوچوك » .

المفتش .

القاضى .

النائب .

وكان الاسم العام للقاضى بصرف النظر عن درجته هو القاضى . ولكن كان التعبير الشعبى الذى يطلق على كل منهم من قبيل الاحترام والتقدير هو المولا .

قاضى عسكر :

أنشأت الدولة على رأس النظام القضائى منصب قاضى القضاة أو رئيس

---

(١) المولا Molla تحريف الكلمة العربية مولى–بفتح الميم أوضمها وسكون الواو وفتح اللام– بمعنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم – وقد حرفت هذه اللفظة بدورها فى أقاليم شمالى إفريقية فأصبحت مولاى . ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة المولوية التى أسسها جلال الدين الرومى . وقد اشتقت اسمها من كلمة « مولانا » بمعنى سيدنا .

ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر (١٩٧٨) لفظة المولا على السيد الوقور كبير السن ذى المركز المرموق سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وهى تقابل فى المجتمعات القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخداماً لهذه الكلمة هم أكراد العراق ، فيذكرون اسم الشخص مسبوقاً بكلمة مولا . وعلى سبيل المثال ، المولا مصطفى البرزانى زعيم الأكراد المعاصر . وتكتب الكلمة أحيانا الملا بعد إسقاط حرف الواو منها . وتنطق فى اللغة التركية وفى اللغة العربية بضم حرف الميم . وفى اللغة الكردية بفتح الميم . كما أنها تنطق فى هذه اللغات الثلاث بدون شدة .

القضاة . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ؛ ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم وترقياتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له ، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال المطلبجى ، والتطبيقجى والمكتوبجى . وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ؛ وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى عسكر .

وكان قاضى القضاة بجانب اختصاصاته القضائية يتمتع بنفوذ أدبى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وقد خشى أحد الصدور العظام ، ويسمى قرمان محمد باشا ، أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى أن ينشىء منصبا ثانياً لوظيفة قاضى عسكر — ويسمى قاضى عسكر ليك — وأن يطلق على شاغله قاضى عسكر الأناضول ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ؛ وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى عسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوروبا . وكان الدافع الخفى للصدر الأعظم — محمد قرمان باشا — على هذا الاقتراح هو كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى عسكر حين كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الثانى بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى سنة ١٤٨٠ قبل وفاة السلطان بسنة واحدة[١] . وعلى هذا النحو وجد فى الدولة منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر مع إضافة الإسم الجغرافى الذى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة قاضى عسكر .

يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضى عسكر الروملى أعلى مركزاً من زميله قاضى عسكر الأناضول . وكان الأول يصحب الجيش العثمانى حين كان يتوغل فى أوروبا ويخوض المعارك . وكان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون فى أوروبا ، وكذلك العاملين فى المساجد التى أقيمت فى الولايات العثمانية الأوروبية ، وكان قاضى عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يختص بالأقاليم العثمانية فى آسيا . وكان هذان القاضيان الكبيران يليان شيخ الإسلام فى المرتبة . ولكى تواجه الدولة زيادة الأعباء التى نجمت عن التوسع الإقليمى العثمانى فى العالم الإسلامى منذ حكم السلطان سليم الأول ومن بعده ابنه السلطان سليمان المشرع أنشأت منصباً ثالثاً لقاضى عسكر شملت ولايته القضائية معظم الأقاليم الإفريقية التى دانت لحكم العثمانيين .

كان قضاة العسكر أعضاء فى الديوان الإمبراطورى . وكانوا يشتركون اشتراكاً فعلياً مع رئيسه الصدر الأعظم فى نظر القضايا التى تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك فى هذا العمل فى بعض الأحيان بعض القضاة من فئة مولا الكبير ، وسنعرض لهم فى موطن قادم فى هذا الفصل ، ونقف هنا لنرد على رأى أبداه أحد كبار المستشرقين الإنجليز حين قرر أن عضوية الديوان الإمبراطورى كانت ميزة لقضاة العسكر لم يشاركهم فيهـــا شيخ الإسلام (١) والواقع كان عكس ذلك تماماً ، لأن عدم تقرير عضوية شيخ الإسلام فى الديوان الإمبراطورى كان نوعاً من التكريم لشيخ الإسلام تفادياً لوجوده فى موقع يكون فيه تحت رياسة الصدر الأعظم الذى كان يرأس بحكم منصبه الديوان الإمبراطورى . وكانت الدولة تحرص على تجنيب شيخ الإسلام مثل هذه المواقف التى قد تنال من هيبة شاغل أكبر منصب دينى إسلامى فى الدولة .

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I Part II, p.87.

امتيازات قاضي العسكر :

من بين الامتيازات التى تقررت لقاضيْ عسكر الدولة أن يقام حفل رسمى لكل منهما عند تعيينه فى منصبه . وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لايجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحداً عنه فى حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضى عسكر رداء التشريفة ، وهو فرو سمور ، ويساعده على ارتدائه فى أثناء الحفل(١) . وكانت تخصص لكل قاضى عسكر عربة يستقلها فى تنقلاته . وإذا قامت الحرب فى آسيا صحب قاضى عسكر الأناضول الجيش العثمانى إلى ساحة الحرب . أما إذا كانت الحرب فى أوروبا فإن قاضى عسكر الروملى هو الذى يرافق الجيش . وفى كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ(٢) تنصب أمام خيمته التى تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

قضاة التخت :

كان يلى قضاة العسكر فى الدرجة والمركز قاضى إستانبول ويطلق عليه إستانبول أفنديسى(٣) والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث : وكانت هذه الضواحى

---

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol., IV p. 552.

(٢) انظر ص ص ٣٦٤ – ٣٦٥ فى هذه الدراسة .

(٣) أفندى لفظة عثمانية شاع استخدامها فى جميع البلاد التى خضعت للدولة العثمانية . وهى لقب يمنح للأشخاص المدنيين المثقفين ثقافة واسعة . وقد اشتقت من كلمة أفندى عده مصطلحات تاريخية ، نذكر منها :

أفندمز ومعناها مولانا . وكان السلطان العثمانى ينادى أحياناً بهذا اللقب .

أفندينا ومعناها مولانا . وكان ولاة مصر من أسرة محمد على يطلق عليهم هذا اللقب سواء من كان يحمل منهم لقب خديو اعتباراً من سنة ١٨٦٧ أو من لم يكن يحمله قبل هذا التاريخ .

أفندم لقب معناه السيد أو السيدة .

أفنديسى : إستانبول أفنديسى أى قاضى إستانبول .

ديوان أفنديسى أى سكرتير ديوان القاهرة الكبير ديوان بيوك .

الريس أفندى لقب يطلق على وزير الخارجية العثمانية .

انظر . Barbier de Meynard; op. cit., Vol. I, pp. 42—43.

هى : سكوتارى Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطى ، ولذلك يطلق على هـذه الضاحية أيضاً الاسم التركى أسكودار (١) Uskudar ، ثم ضاحية جالاطه Galata ، ثم ضاحية أيوب ، وكان يطلق على هذه الضواحى الثلاث اسم « بلاد ثلاثة » أى البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائى ومدلول إدارى . فقضاة هذه الضواحى يتمتعون باستقلال قضائى عن قاضى إستانبول . كما كان لهذه الضواحى بعض الاستقلال فى شئون الشرطة .(٢) وكان هؤلاء القضاة الأربعة يحضرون جلسة الديوان الإمبراطورى يوماً واحداً فى الأسبوع ، ويحلون محل قاضىْ العسكر ،

---

(١) استخدم اسم سكوتارى فى أواخر عهد الدولة البيزنطية . ويحتمل أن يكون هذا الاسم قد اشتق من اسم كتيبة حاملىْ الدروع التى رابطت فى تلك البقعة على عهد الإمبراطور ڤالنس Valens . ويوجد احتمال أقوى من الاحتمال السابق ، هو أن هذه المنطقة قد اكتسبت اسمها من قصر كان مشيداً فيها يسمى سكوتاريون Scutarion منذ عهد الأباطرة الكومننوى Comnenoi .

أما كلمة أسكودار ، أو ، آسكودار ، أو إسكىدار ، فهى كلمة تركية معناها محطة البريد ، إذ كانت بحكم موقعها الجغرافى القاعدة الهامه للحملات الكبيرة والصغيرة التى تخرج من العاصمة إلى أطراف الإمبراطورية العثمانية فى آسيا وإفريقية . إذ تقع هذه الضاحية – وهى أقدم حى فى إستانبول – فى منطقتها الواقعة على الجانب الآسيوى من البوسفور عند سفح تل بو لغورلى حيث يمتد الشاطىء الآسيوى أقصى امتداد نحو الغرب مقابلا برج لياندر Leander أو قيز قوله سى .

وفى العهد العثمانى ازدادت كثافة السكان فى أسكودار ، وبخاصة منذ عهد السلطان سليمان المشرع . وكان من أسباب زيادة تعدادها أنها أصبحت موئلا لتجمعات الدراويش ومقراً للتكايا ومركزاً هاماً لحياة التصوف فى العاصمة . وأشهر التكايا القائمة بها تكية الطريقة الخلوتية . كما شيد فيها عدد كبير من المساجد أنشأت أكبرها سيدات فى البلاط العثمانى . ومن أشهرها :

مهرماه جامعى أو إسكله جامعى شيد سنة ٩٥٤ هـ/١٥٤٧ م أمام المرسى الكبير

إسكى والدة جامعى ، ويقع فى الجنوب ، وتم بناؤه سنة ٩٩١ هـ/١٥٨٣ م .

جامع چنيلى ، فى الجنوب الشرقى ، وكمل بناؤه سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م .

يكى والده جامعى تم بناؤه سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م .

جامع السليمية وقد شيده سليم الثالث لجيشه الجديد الذى سمى « نظام جديد » .

(٢) لم تكن هذه الضواحى الثلاث تخضع فى شئون الشرطة لسلطة رئيس الإنكشارية ، شأن إستانبول نفسها ، وإنما كانت تخضع لضباط آخرين .

ويساعدون الصدر الأعظم رئيس الديوان فى نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة – قاضى إستانبول وقضاة الضواحى . اسم معبر هو « تخت قاضيسى » ، أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة فى العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطانى الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب انتهاء جلسة المحكمة يذهب فى صحبة قاضى إستانبول فى جولته التفتيشية الميدانية فى العاصمة . ومما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا ينتمون إلى طائفة القضاة من فئة المولا الكبير .

القضاة من فئة مولا الكبير :

كان عدد القضاة من فئة مولا الكبير يختلف من عصر إلى عصر (١) وفى القرن الثامن عشر بلغ عددهم سبعة عشر قاضياً (٢) تضمهم عدة مجموعات .

قاضى عسكر الروملى ، وقاضى عسكر الأناضول .

قضاة التخت .

قاضيا مكة المكرمة والمدينة المنورة .

قضاة بروسه ، وأدرنة ، ودمشق ، والقاهرة . ويلاحظ أن بروسة وأدرنة كانت كل منها فى وقت ما عاصمة للدولة العثمانية .

قضاة بيت المقدس ، وأزمير ، وحلب ، ولاريسا (٣) ، وسالونيك .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة السبعة عشر ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينهم فى مناصبهم . وكانوا يشغلون المناصب القضائية مدى الحياة . ولكن كانت تصدر من وقت إلى آخر حركة ترقيات أو تنقلات تشمل أولئك القضاة الكبار . وكان لكل

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part II, p. 89.

(٢) Lybyer A.H.; op. cit., p. 217.

(٣) لاريس Larisse مدينة فى بلاد اليونان وتقع فى إقليم تساليا .

منهم جهاز إدارى يتكون من مراقبي الحسابات وأمناء الخزانة والكتبة ومن إليهم من المساعدين . وكان القضاة من فئة الملا الكبير يعقدون الجلسات أحياناً فى بيوتهم ، بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا فى المحاكم .

وإلى جانب أولئك القضاة من فئة مولا الكبير كان يوجد ستة علماء ينتمون إلى هذه الفئة ، وهم : خوجة السلطان ، الإمامان ، حكيم باشى ، وجراح باشى ، ومنجم باشى .

المفتشون :

كان المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لاينم عن مهمتهم القضائية . وكان عددهم قليلا يصل إلى خمسة مفتشين ، وكانوا جميعا قضاة من درجة « مولا بيوك » ، أى مولا الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف السلطانية ، فينفقون من إيراداتها على المؤسسات الدينية والخيرية . وكان بعضها تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث والأخير تحت إشراف رئيس الخصيان البيض الذى يقوم على الخدمة الداخلية فى أجنحة الحريم السلطانى . وكان يطلق عليه أحيانا « باب السعادات أغاسى » أى أغا باب السعادة ، وأحيانا أخرى « قابى أغاسى » . أى أغا البوابة . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين فى إستانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف . كان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى « شيخ الإسلام مفتشى » ، وكان الثانى يعمل مع الصدر الأعظم ويسمى « وزيرى أعظم مفتشى » ، وكان الثالث يسمى « حرمين مفتشى[1] » لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويلاحظ أن الأخير كان حتى قرب نهاية القرن السادس عشر رئيس الخصيان البيض . وفى القرن السابع عشر تقاسم مع زميله رئيس الخصيان السود ، والذى كان

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1 Part II, p. 92, *fn*. No. 2.

يطلق عليه « قيزلر أغاسى » أى أغا البنات ، الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الخصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة، وكانا يتبعان رئيس الخصيان (١) . وكان لكل من هؤلاء المفتشين الخمسة جهـاز يضم عدداً كبيراً من الموظفين المساعدين يتجولون فى مناطق الأوقاف (٢) .

امتيازات رجال القضاء من فئة مولا الكبير :

كان القضاة من فئة مولا الكبير يتمتعون بعدة امتيازات . كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباءات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير — سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات— لتقديم هذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين ينعم به عليهم . ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين . ويتولى رئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور .

وكان من امتيازات القضاة من فئة المولا الكبير أن يتبعهم فى غدواتهم وروحاتهم عدد من الرجال يسمى كل منهم المحضر . وتكتب فى اللغة التركية المحذر . وكان يرأس هؤلاء الرجال ويتولى توزيعهم على القضاة رئيس يسمى محذر باشى . وكان يؤخذ من حراس بوابات القصر — القابيجية . وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدرسة الشريعة والقانون بإستانبول لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر بعد ذلك مرتين على مدار السنة . كانت المرة الأولى عند حلول «كوچوك بيرامى»

---

(١) D'Ohsson Mouradgea Ignatius, op. cit., t. IV, p.568.

(٢) Lybyer A.H.,; op.ict., p.201.

الصغير ، ويسمى أيضاً « سكر بيرامى » أى عيد الحلوى وهو عيد الفطر ، والمرة الثانية عند حلول « بيوك بيرامى » أى العيد الكبير ، ويسمى أيضاً « قربان بيرامى » أى عيد الأضحى . فكان يقام فى كل عيد من هذين العيدين حفل استقبال رسمى « ركاب همايون » فى القصر السلطانى . وكان القضاة من فئة الملا الكبير يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام وقاضيا العسكر .

القضاة من فئة مولا الصغير :

كان القضاة من فئة مولا الصغير يعملون فى عشر مدن من مدن الصف الثانى ،وهى : مرعش ، بغداد ، بوسنا سراى(١) ، صوفيا (٢) ، بلغراد ، عنتاب(٣) ، كوتاهية ، قونيه ، فيلوبو بوليس (٤) ، ديار بكر .

القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة الإسلامية . وكان عددهم فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغ زهاء أربعمائة وخمسين قاضياً يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة فى أوروبا وآسيا وإفريقية . وكان عددهم فى أوروبا يبلغ مائتين . وكان القضاة الذين يعملون فى بلاد القرم وفى شمالى إفريقية يتبعون قضائياً كبير القضاة فى الروملى . وكان قضاة مصر يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول والذى يسمى قاضى عسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة فى إستانبول .

---

(١) بوسنا سراى Bosna Seraj هى عاصمة ولاية البوسنة ، وتقع حالياً فى يوغوسلافيا .

(٢) صوفيا وتكتب أحياناً Sophia وأحياناً أخرى Sofia ، عاصمه بلغاريا .

(٣) عنتاب مدينة فى سوريا .

(٤) تكتب بالفرنسية والإنجليزية Philippopolis مدينة فى بلغاريا ، وتقع على نهر ماريتزا La Martiza الذى يصب فى بحر إيجه . وكانت إبان الحكم العثمانى عاصمة لإقليم الروملى . ولهذه المدينة شهرة واسعة فى صناعة الروائح العطرية ، وبخاصة روح الورد .

النواب :

وكانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفى القضائى . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية فى المدن الصغيرة أو فى القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة فى أثناء تغيبهم عن عملهم عند قيامهم بالأجازة أو فى أثناء مرضهم . وكان النائب يشترى منصبه ولا يتقاضى مرتباً من الحكومة ، ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التى كان يحكم بها على المخالفين والذين يرتكبون أعمالا مخلة بالآداب العامة وما إلى ذلك .

المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعاً هاماً للغاية فى الهيئة الإسلامية إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون فى المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتى بعد مركز القضاة ، ويظلون فى مناصب الإفتاء مدى الحياة ، أى دون التقيد ببلوغهم سناً معينة يحالون عندها إلى التقاعد . وكانت مهمتهم إصدار الرأى القانونى فى المسائل التى يطلب منهم بحثها ، فيعكف الواحد منهم على دراستها فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل ، وتشبه الاستمارة . وكان الرأى الذى ينتهى إليه المفتى يسمى فتوى .

وكان عدد المفتين فى أنحاء الإمبراطورية يصل إلى ما يقرب من المائتين . كانت غالبيتهم تعمل فى المدن الهامة بجانب القضاة كما ذكرنا ، بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم فى الولايات يمدونهم بالرأى الصحيح فى المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه المصطلح الحديث منصب المستشار الدينى . فكان هناك مفتيان : أحدهما يعمل مستشاراً دينياً للحاكم العام لمقاطعات الأناضول أو إيلى أناضولى ، وثانيهما للحاكم العام لمقاطعات الروملى التى يطلق عليها إيلى روملى ، كما عينت الحكومة مفتين لحكام المديريات الذين يطلق عليهم الصناجق البكوات . وكان إذا طلب حاكم الولاية أو الصنجق البك من المفتى

أن يوضح له رأى الشريعة فى مسألة عامة أو فى قضية قانونية معلقة ، فإن مثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلا ، وتحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة .

وكانت مجالات العمل أمام المفتين محدودة وبالتالى ضيقة ، فقلما لجأ إليهم القضاة أو رجال الحكم المحلى لإصدار فتاوى لهم ، ولذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم الوظيفى كان يشوبه الخمول أو الركود ، ثم اتسعت أمامهم آفاق العمل حين سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين لإصدار الرأى القانونى فى القضايا المطروحة أمام المحاكم . فكان المفتى يصدر رأيه كتابة ومسجلا على ورقة رسمية على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية . ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كمستند يدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحه . ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، ولذلك كان المفتون عنصراً ضرورياً وهاماً ونافعاً فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ، لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى . وكان للمفتين نصيب من هذه الرسوم . فكان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان .

أما المفتون الذين كانوا يعملون فى سائر المدن فلم يشغلوا المركز الكبير الذى تمتع به مفتى العاصمة . كان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتباً من القضاة ومن إليهم من موظفى الحكومة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة أجل الخدمات ، فقدموا لها بصفتهم حراس الشريعة قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه

القوة الروحية لهزات أو تغييرات ، بل مضت فى طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامى العميق .

وقام نفوذ المفتين على عدة عوامل ، منها : أن جميع الرعايا المسلمين يعتقدون اعتقاداً راسخاً فى التفوق المطلق للشريعة الإسلامية الغراء،لأنها جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية . والعثمانيون معروفون باحترامهم مبادىء الدين وبتعصبهم الشديد للإسلام . ولا يمكن أن يدانى قانون من القوانين الوضعية الشريعة الإسلامية . كما أن الرعايا المسلمين كانوا يعرفون أن أولئك المفتين قد درسوا الشريعة الإسلامية سنوات طوالا وتحملوا فى تعلمها وتحصيلها مجهوداً عقلياً مضنياً ، ولكنهم لم يهجروا العلم بمجرد انتهاء دراستهم ، بل مضوا يمارسون مذاكرة العلم والاستزادة منه ، ثم تطبيقه عملياً فى المحالات التى يعملون فيها وفى المواقف التى يطلب منهم الإدلاء برأى الشريعة فيها . يضاف إلى تلك العوامل التى كانت دعامة نفوذ المفتين أن العثمانيين كانوا يدركون أن الفضل فى بقاء الدولة العثمانية وتفوقها إنما يرجع إلى المفتين لأنهم أسهموا إلى حد كبير فى بقاء الدولة العثمانية سليمة متماسكة،واستطاعت أن تقف فى وجه الهزات العنيفة والنكسات الأليمة والخسائر الفادحة التى تعرضت لها ، وأن يستمر بقاؤها أحقاباً وأعصراً وأدهاراً استطالت أكثر بكثير مما كان يتوقعه العالم كله لسقوطها . وكان دور المفتين بارزاً وقوياً فى بقاء بنيان الدولة شامخاً قوياً ضد أعداء كانوا يتربصون بها الدوائر فى الداخل والخارج .

* * *

كان عدد من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، ويعملون على مقربة من السلطان ، وكانوا يمثلون الهيئة الإسلامية داخل القصور السلطانية . كان فى مقدمتهم :

خوجة السلطان :

والمعنى الحرفى لهذا المصطلح معلم السلطان . كان بمثابة مستشار السلطان فى المسائل الدينية وغيرها . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين أفراد

حاشية السلطان وفى دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان فى درجة المولا الكبير أى قاض من الدرجة الأولى . ولذلك كان يرقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا فى الدولة ، وإذا امتد به الأجل يصل إلى أعلاها .

الإمامان :

وكان هناك إمامان للسلطان ، يؤم كل منهما السلطان بالتناوب فى صلاته سواء فى داخل القصر أو فى المساجد السلطانية التى يقع اختيار السلطان عليها لأداء صلاة الجمعة فيها . ويلحق بالإمامين عدد من المؤذنين يؤذنون للصلاة سواء فى مساجد القصور أو فى المساجد التى يؤدى فيها السلطان صلاة الجمعة . وكان للمؤذنين رئيس خاص بهم يسمى « المؤذن باشى » أى كبير المؤذنين . وكان المؤذنون يؤخذون من الجاوشية الذين يتميزون برخامة الصوت ، وكانوا من جاوشية الأقسام الدنيا . وكان يختارهم موظف يلى المؤذن باشى فى الرتبة ، ويطلق عليه الناس مؤذن أو «سرى محفل» أى رئيس المقصورة الخاصة التى كان السلطان يؤدى فيها الصلاة من وراء ستار فى المساجد السلطانية . وكان «سرى محفل» يدرب الجاوشية ، فإذا أظهروا كفاية أدرجت أسماؤهم فى كشوف لتعيينهم حين تخلو وظائف لهم .

وكان خوجة السلطان والإمامان من الهيئة الإسلامية ، وتمتعوا بنفوذ كبير جداً فى الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التى أولاها إياهم السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم على أساس أنها منزهة عن الأغراض والأهواء الشخصية ، ولذلك أطلق على هؤلاء الثلاثة : أذن السلطان L'oreille du Sultan .

تخصصات علمية أخرى ينتمى أصحابها هيئة العلماء :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى هيئة العلماء ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل الأطباء والجراحين والمنجمين(١) ومن إليهم من أصحاب التخصصات

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 128—129, & 218, & 225

العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقاً من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب والفقه وأصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم فى معظم هذه المجالات قدم راسخة . ونذكر منهم على سبيل المثال بهجت مصطفى أفندى (١١٨٨–١٢٤٩ هـ /١٧٧٤–١٨٣٤ م) ، تقلد المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٨٠٣ إلى منصب كبير أطباء السلطان ، ثم انتقل إلى المناصب الدينية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضى أزمير من طبقة مولا ثم قاضى مصر سنة ١٨٢٠ ثم توج حياته الوظيفية بشغله وظيفة قاضى عسكر الأناضول سنة ١٨٢٢ ، ثم قاضى عسكر الروملى (البلقان وبقية الولايات العثمانية فى أوروبا) سنة ١٨٣٢ .وكانت هذه الشخصية تعتبر أحد رواد الطب الحديث على النمط الأوروبى . أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة استقدمت الدولة لها مدرسين أوروبيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضاً مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوروبية على يد كبير التراجمة فى الباب العالى . وقام بترجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها : كتاب ينر Jenner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعى ، ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوباء الغنم [١] . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » إلى اللغة التركية . وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر ، وأطلق عليه « تاريخ مصر » وقد طبعه فى إستانبول سنة ١٢٨٢ هـ (٦٥–١٨٦٦ م) .

وتوجد شخصيات عثمانية أخرى من هذا الطراز كانت أسبق من بهجت مصطفى أفندى ، نذكر منها على سبيل المثال آيدينلى [٢] حاجى باشا وهو ، خضر

---

(١) انظر ترجمة حياته فى دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « بهجت مصطفى أفندى » .

(٢) آيدينلى نسبة إلى آيدين وهى مدينة فى آسيا الصغرى . وقد احتلها السلاجقة الروم فى العصور الوسطى ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أسسها الأمير آيدين وخلع عليها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثمانى أبى يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثانى عليها نهائياً سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) عند وفاة أميرها جنيد . ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثياً فى أسرة قره عثمان أوغلى عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثانى فى إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

ابن علي بن خطاب ، وكان معاصراً للسلطان أبي يزيد الأول—يلدريم— (١٣٨٨— ١٤٠٣)، جمع بين دراسة الفقه الإسلامى وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب ، فقد ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة على أشياخ عصره ، وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الطب . وألف فى تلك التخصصات عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت ، من حيث عددها وأهميتها ، رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق . وقيل إن كتابيه « الشفاء » و « تسهيل الطب » قد نقلا إلى اللغة اللاتينية (١) .

علماء التنجيم :

أما علم التنجيم ، فعلى الرغم من أن جمهرة العلماء والفلاسفة المسلمين يجمعون على إنكار التنجيم ، إلا أنه يوجد عدد قليل من علماء المسلمين مثل الكندى وإخوان الصفا وفخر الدين الرازى يخالفون هذه الجمهرة ، ويعتبرون التنجيم فرعاً من علم النجوم ، وأطلقوا عليه علم أحكام النجوم (٢) . وفى

---

(١) من رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق :

« تفسير فى مجمع الأنوار فى جميع الأسرار » . ويقع فى مجلدين .

« طوالع الأنوار فى الكلام » وهو شرح على تفسير البيضاوى للقرآن الكريم .

حواشى على شرح فخر الدين الرازى لكتاب « مطالع الأنوار فى المنطق » .

ومن مؤلفات الطبية :

« الشفاء » وضعه باللغة التركية ويبحث فى أنواع العلاج . وقسمه ثلاثة أقسام ، تناول فى القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم التغذية ، وفى الثانى الأطعمة والأدوية ، وفى الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

« تسهيل الطب » وهو عبارة عن رسالة بسط فيها كتابه السابق .

« شفاء الأسقام ودواء الآلام » .

« الفريدة فى ذكر الأغذية المفيدة » .

« التعاليم » .

« الكيمى الجلالى » .

(٢) يقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يقع من أحداث جسام وغير جسام فى العالم إنما يتصل اتصالا وثيقاً بتحركات الأجرام السماوية ، وأن الإنسان خاضع لتأثيرات النجوم . وينحصر عمل المنجم فى معرفة هذه التأثيرات . وكانت المسائل التنجيمية تعالج من حيث أنها مسائل فلكية ورياضية من هندسة وحساب وحساب مثلثات . وقد ظهر هذا الاتجاه فى المصنفات الخاصة بالفلك وفى الجداول التى وضعت للأغراض الخاصة بالتنجيم . وكان اليونانيون والهنود =

رأيهم أن علم الفلك وعلم أحكام النجوم يؤديان إلى علم التنجيم . وأطلقوا على المشتغل به « الأحكامى » أو « المنجم » ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى أيضاً . ولم يفرق بدقة بين المنجم والفلكى إلا فى القرن التاسع عشر . وكانت مهمة المنجم تعيين « الطالع » سواء بالنسبة للفرد أو الشعب أو المدينة أو الدولة وما يتبع ذلك من وقوع حوادث سعيدة أو أحداث دامية مثل نشوب حرب ، أو انتشار أوبئة ، أو حدوث فيضانات خطيرة تهدد البلاد بالغرق ، أو وقوع كوارث أخرى مثل الزلازل والبراكين . وعلى الرغم من إنكار جمهرة علماء المسلمين لعلم التنجيم إلا أنه استهوى أفئدة الجماهير ، وكان له شأن كبير فى قصور السلاطين العثمانيين (١) .

حكيم باشى ، جراح باشى ، منجم باشى :

وكان للسلطان ثلاثة من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، هم طبيبه

— هم أساتذة المنجمين الإسلاميين . ولكن تفوق الأخيرون على من سبقوهم من المنجمين الذين كانوا يقومون بحسابات مبتسرة . وجدير بالذكر أن دور الطباعة فى أوروبا تولت طبع الكتب والجداول التى وضعها المسلمون فى علم التنجيم . وعلى سبيل المثال طبع فى البندقية الكتاب الجامع الذى وضعه أبو الحسن على بن أبى الرجال ، وهو فى ثمانية مجلدات فى السنوات ١٤٨٥ ، ١٥٠٣ ، ١٥٢٣ ، كما طبع فى مدينة بال فى سويسرا سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٧١ .

انظر دائرة المعارف الإسلامية : مادة التنجيم .

(١) كدليل على تأصل علم التنجيم فى بعض الدول الإسلامية قبل قيام الدولة العثمانية بقرون طويلة ماورواه المقريزى من أن جوهر الصقلى لما أراد تأسيس مدينة القاهرة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فجعلوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراساً ، وقالوا للعمال : إذا تحركت الأجراس فألقوا ما فى أيديكم من طين وحجارة . وبينما كان العمال يترقبون ، وقف غراب على أحد تلك الحبال ، فتحركت الأجراس جميعا ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وشرعوا فوراً فى البناء . فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع . ففى ذلك وفاتهم ما قصدوه ، ويقال إن المريخ كان فى الطالع فى تلك اللحظات عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة .

وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين رفضوا الأخذ بهذه الرواية فإن ذيوعها بين الجماهير دليل على أن الكثيرين كانوا يعتقدون فى علم التنجيم المؤسس على الفلك والحسابات الفلكية . ويذكر ابن القلانسى أبو على حمزة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » (طبعة —

الخاص ، ويطلق عليه « حكيم باشى » أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رياسته عدد من المساعدين ، ثم « جراح باشى » أى كبير الجراحين (١) ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمثابة مساعدين له . (٢) ثم منجم يطلق عليه «منجم باشى (٣) أى كبير المنجمين . وكان لعلم التنجيم مكانة فى البلاط السلطانى تنعكس على المنجم باشى . وكان يعد تقويماً يتنبأ فيه بالأوقات السعيدة التى على السلطان أن ينفذ فيها ما يعتزمه من مشروعات . وكان السلطان يسترشد بما جاء فى التقويم عند تعيين الوزراء ومن إليهم من كبار موظفى الدولة (٤) . ولذلك كان السلطان يؤجل البدء فى تنفيذ مشروع هام حتى يحين الوقت المناسب فى ضوء ماجاء فى تقويم المنجم باشى (٥) .

الأشراف :

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تضم أيضاً الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة . والنظام الوراثى الآخر هو وراثة العرش السلطانى . وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسماً آخر هو الأسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبوقاً بكلمة سيد . ولكنهم كانوا لا يعدون أعضاء فى هيئة العلماء إلا إذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يقنعون بانتسابهم إلى أسرة النبى صلوات الله عليه ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيف أنفسهم . وكان عدد الأشراف بوجه

= بيروت سنة ١٩٠٨) أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله كان يعتقد فى علم النجوم ، ويستشير منجميه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وبالشئون العامة للدولة الفاطمية . (ص ١٤) .

(١) ترد كلمة الجراح فى الكتب العربية القديمة ، وعلى قلة ، فى صور أخرى ، مثل : الجراحى بكسر الجيم ، والجرائحى بفتح الجيم، والآسى بمعنى الجراح وهى تدل أيضاً على الطبيب.

(٢) D'Ohsson Mouradgea Ignatius ; op. cit., t. iv, p. 548.

(٣) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 129.

(٤) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., vol.I Part II,p.90.

(٥) D'Ohsson Mouradgea Ignatius ; op. cit., t.iv pp 551—555.

عام كبيراً ، وتسلل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى الشبهات .

وكان الأشراف يتميزون بلباس خاص ، فكان لهم دون سواهم الحق فى ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية ، فلم تكن توقع عليهم عقوبة الضرب ، وكانت لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاتها من الأشراف .

وفى نطاق الأشراف كانت تسلط الأضواء على شريفين : أحدهما يحمل علم السلطان ويسير به فى المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم . أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية فى الهيئة الإسلامية . وفى الاحتفالات التى تقام خلال شهر رمضان كان نقيب الأشراف يتقدم على مفتى الإسلام ، وكان يعين فى منصبه مدى الحياة ، وكان السلطان هو الذى يصدر فرماناً بتعيينه فى منصبه . وكان مقره فى العاصمة ، وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالأشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم ويتولى تنفيذ العقوبات عليهم . وكان له جهاز فنى وإدارى يعمل تحت إدارته . ويوفد بعضاً منهم إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصى الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك . وتجرنا هذه المهمة — وهى تقصى الحقائق عن وضع الأشراف فى ولايات الدولة إلى الإشارة إلى مركز الأشراف فى مصر كمثال يمكن تصوره لوضعهم فى سائر ولايات الدولة .

كان للأشراف فى مصر نقيب يصدر بتعيينه فرمان من السلطان فى إستانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدى الحياة ، ولو أن هذا المبدأ لم يحترم تماماً وبخاصة عند ما ضعفت قبضة الدولة على مصر التى اجتازت فترة سياسية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسى (١٨٠١—١٨٠٥) ، فقد استطاع أفاق تركى أن يستصدر من السطان فرماناً فى نوفمبر— تشرين ثان—١٨٠١ بتعيينه نقيباً للأشراف فى مصر بدلا من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثمانى فى ذلك الوقت ، وهو محمد

خسرو باشا ، أن يتجاهل فرمان السلطان ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف فى ٢ من فبراير — شباط — ١٨٠٢ للأفاق التركى واسمه يوسف أفندى ، ولكن أعيدت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم فى ١٨ من أبريل ١٨٠٢ بعد مساع بذلت لدى السلطان فى إستانبول [1] . وكان للمركز المرموق الذى تبوأه نقيب الأشراف فى إستانبول أصداء على مركز نقيب الأشراف فى مصر ، إذ كان الأخير أيضاً يشغل مكاناً علياً . فهو بحكم منصبه عضو فى ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثمانى يرجع إليه فى كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فراوى سمور فى شتى المناسبات وفى فترات متقاربة على مدار السنة . وكان أشراف مصر يدينون لنقيبهم بالطاعة ، وكان يقدم لهم كل ثلاثة شهور مرتبات يطلق عليها چميكية . وكانت هذه المرتبات محددة قيمتها ومدونة فى سجلات النقابة . ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول لما فتح مصر سنة ١٥١٧ أبقى على الموارد المالية التى كان يعتمد عليها نقيب الأشراف فى صرف المستحقات والمرتبات « وللمذكور بلاد أعطاها له السلطان ، ومكنه فيها لأجل معايشه وإعانته على ذلك »[2] .

الدراويش :

وتلحق بالهيئة الإسلامية أيضاً طوائف الدراويش ، وكانوا كثرة عددية كبيرة ، ولكنهم لم يكونوا أعضاء فى هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة . وكان الدراويش ينتمون إلى طرق كثيرة . وقد قرر المراقبون فى القرن السادس عشر أن عدد هذه الطرق كان يتراوح بين ثمان وعشر طرق ، وإن كان أهمها أربعاً فقط . وقد ازداد عدد هذه الطوائف زيادة مطردة وضخمة فبلغت ستاً وثلاثين فى أواخر القرن الثامن عشر . وإن كان البعض الآخر يرى أن عددها تجاوز ضعف هـذا العدد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن عددها قفز إلى أربعة أمثال هذا

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٩٢-٩٧ .

(٢) حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره .

العدد(١) . وانتشرت هذه الطوائف فى أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية(٢). ومما هو جدير بالذكر أن عددها بلغ فى مصر إبان الحكم العثمانى زهاء ثمانين طريقة(٣). والمعروف عن العثمانيين أنهم يحبون التصوف والدروشة . وقد سجل الجبرتى عليهم ميلهم إلى الدراويش وهو يعرض لحوادث حملة حسن باشا الجزايرلى على مصر (٤) . ويشبه بعض الباحثين (٥) الدراويش بطوائف الإخوان الفرنشيسكان والدومينكان الذين كان يطلق عليهم الشحاذون (٦) . وعن طريق الدراويش انتشرت الخزعبلات بين الرعايا المسلمين فى الدولة ودبرت الفتن . وكانوا يشكلون بجموعهم وتأثيرهم فى الجماهير الإسلامية خطورة على سلطة الحكومة . وكانوا يتنادون إلى إثارة الحروب الدينية . وقد مر بنا أن الدروايش قاموا فى ٣١ من مارس – آذار – ١٩٠٩ بدور فعال فى تحريك ثورة ضد الحكومة القائمة فى إستانبول عقب إعادة الدستور وتنادوا إلى إلغاء النظم النيابية وإعلان الشريعة المحمدية . واستطاع الدراويش التأثير فى جنود حامية العاصمة وسار الجنود فى مظاهرات صاخبة فى شوارع إستانبول يتقدمهم الدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويهتفون هتافا منغماً « باشا سون شريعة محمدية » أى لتحيا الشريعة المحمدية : وأريقت فى هذه الحركة دماء بريئة بين كبار وصغار ضباط الجيش على السواء(٧). وتقتضى الدراسة الموضوعية أن نذكر أنه كان يوجد بين طوائف الدراويش عدد من العناصر الصالحة ضربوا المثل الأعلى فى الأمانة وخشية

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; vol. I, Part II, p. 196.

(٢) Loc. cit.

(٣) دكتور توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى . القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٧٥ .

(٤) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٥) Lybyer A.H.; op. cit., p. 207

(٦) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ الناشر مكتبة الأنجلو المصريه ، ص ص ٥٤٧–٥٥٢ ، حاشية رقم ٥ .

(٧) انظر ص ص ١١٦–١١٧ فى هذه الدراسة .

الله ، بينما كان عدد منهم لصوصاً متجولين بارعين يتميزون بخفة الحركة والمقدرة على اختيار الشخص الثرى الملىء مع تظاهرهم بالتقوى والصلاح .

الهيئة الإسلامية ونظارة الأوقاف :

كان يشرف على معظم الأوقاف الخيرية مجموعة من الموظفين ينتمون إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وكان اختيار السلاطين يقع على شيخ الإسلام وعلى غيره من كبار رجال هذه الهيئة نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم وغيرها من الأوقاف الخيرية ، بينما كان البعض الآخر من السلاطين يختارون الصدر الأعظم للتنظر على هذه الأوقاف . أما أوقاف الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد تبادل التنظر عليها بمعاونة أو باشتراك رجال الهيئة الدينية كل من رئيس الخصيان البيض — باب السعادات أغاسى — ورئيس الخصيان السود — قيزلر أغاسى — وفى القرن الثامن عشر كان الأخير يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يساعده عدد من رجال القضاء يطلق عليهم « حرمين مفتشى » أى مفتشى الحرمين وإثنان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما فى بروسة والآخر فى أدرنة .

ومن الحصيلة الضخمة التى كانت تغلها الأوقاف الخيرية تنوعت أوجه الإنفاق تنوعا مذهلا . فالأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كانت تشكل إيراداتها المنبع المالى الذى تؤخذ منه الاعتمادات المالية للإنفاق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، كما شملت أوجه الإنفاق المنشآت الدينية والتعليمية والاجتماعية ، ووضح فى أوجه الانفاق التكافل الاجتماعى الإسلامى فى أروع صوره ، وتمثل فيها أيضاً حرص الواقفين على تأمين الدفاع عن أراضى الدولة بصفتها دار الإسلام تقف فى مواجهة دار الحرب ، وما تطلبه هذا التأمين من الإسهام المالى فى تحصين البلاد وإقامة التحصينات العسكرية والنهوض بالأسطول البحرى الحربى العثمانى . وكان الواقفون يذكرون فى صلب الوقفية أوجه الإنفاق التى يريدون توجيه إيرادات الأوقاف إليها .

وكان المشرفون على هذه الأوقاف يلتزمون إلتزاماً دقيقاً بتوجيه الإنفاق إلى المصارف التى يحددها الواقفون .

كان يصرف من إيرادات الأوقاف الخيرية على المساجد والزوايا والتكايا والأسبلة والخانقاوات والمستشفيات والملاجىء وبيوت النساء الأرامل والمطابخ والمغاسل والحمامات العامة ، فضلا عن المؤسسات التعليمية مثل المدارس والمكاتب والمكتبات ، وتنظيم رحلات لتلاميذ وطلاب المدارس يقومون بها فى فصل الربيع . وكذلك كانت توجه من حصيلة إيرادات الأوقاف اعتمادات مالية لتقديم المال إلى المعوزين ومساعدة البنات اليتامى عند زواجهن ، ودفع الديون عن المدينين المسجونين ، وتقديم مساعدات مالية لسكان بعض القرى وأحياء بعض المدن لدفع الضرائب العرفية (١) ، وتقديم المال لتجهيز ودفن الفقراء . وكانت إيرادات الأوقاف الخيرية يوجه شطر منها لتقديم مساعدات عينية فى شكل ملابس لتلاميذ وطلبة المدارس والفقراء الطاعنين فى السن ، وشراء كميات من الأرز أو الحبوب لإلقائها للطيور فى مواسم الجليد نظراً لشدة البرد ، وشراء طعام للحيوانات . وكان بعض إيرادات الأوقاف يوجه للإنفاق على القوات المسلحة فى الدولة وتمويل عمليات إنشاء الحصون وصيانتها وإقامة تحصينات عسكرية والإنفاق على السفن الحربية . وكانت بعض الإيرادات توجه ايضاً إلى الأشغال العـــامة Public works التى تستهدف الخير العام ويعود نفعها على المجتمع كله ، مثل إنشاء الطرق ، وإقامة الكبارى ، وحفر القنوات الصغيرة التى تمد القرى بالمياه العذبة ، وبناء المنائر لتحقيق الأمن للسفن عند اقترابها ليلا من الثغور .

الدولاب وأوجه استغلاله :

كانت إيرادات الأعيان الموقوفة تزيد أحياناً على المصروفات المخصصة

---

(١) أطلق على نوع من الضرائب فى الدولة العثمانية اسم الضرائب العرفية تمييزاً لها عن الضرائب الشرعية التى تستق أصولها وجذورها من مبادىء الشريعة الإسلامية . أما الضرائب العرفية فتستمد سندها القانونى من السلطات المخولة للسلطان العثمانى بصفته الرئيس الأعلى للدولة يفرضها لمواجهة النفقات غير المنظورة .

للإنفاق على المؤسسات الدينية أو الخيرية المحددة فى نصوص الوقفية . وكانت تحدث هذه الزيادة فى الأوقاف السلطانية بوجه خاص . وكانت هذه الزيادة أو الفائض تشكل مالا احتياطياً يطلق عليه « الدولاب » ، وهى كلمة فارسية معناها أسطوانة تدور حول نفسها توضع فى فتحة فى حائط مؤسسة خيرية مثل دار اليتامى أو دار النساء الأرامل ، ويضع فيها الخيرون التبرعات أو الصدقات زلفى إلى الله . ومن هذا الدولاب أو الفائض كانت إدارة الوقف تشترى أعياناً جديدة سواء كانت أراض زراعية بموافقة السلطان أو عقارات مبنية مثل الحوانيت والحواصل والطواحين وما إلى ذلك مما يمتلكه الأهالى ، ثم تحبس هذه وتلك على المؤسسات الدينية أو الخيرية أو غيرها . وكانت تتم عمليات الشراء وإجراءات تسجيل الوقفية فى المحكمة وفى المكاتب المتخصصة بسرعة ومرونة ملحوظتين بحيث لاتتعثر أمام التعقيدات المكتبية ، أو ما يسمى « الروتين » وحتى يعم الخـــير المرتجى قطاعات دينية وخيرية واجتماعية جديدة . فهذا وجه من وجوه استغلال الدولاب أو الفائض . وهو استغلال يحمل الطابع الدينى الخيرى .

وكان هناك وجه آخر من وجوه استغلال الدولاب حين كانت الحكومة المركزية تلجأ إلى الاقتراض من « الحرمين دولابى » أى الفائض من إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان الهدف من الاقتراض هو مواجهة أزمة مالية ، أو عند شروع الحكومة فى تنفيذ مشروعات عامة عاجلة ، أو خوض حرب . وهذا الوجه الثانى من أوجه استغلال الدولاب يحمل الطابع القومى ويستهدف المصلحة العامة . وبصفتهم متنظرين على الأوقاف الخيرية أتيح لرجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عديد الفرص للتغلغل فى القطاعات الحكومية وفى شتى نواحى الحياة ، وجعلتهم على اتصال وثيق ومستمر بالقاعدة الجماهيرية الشعبية وارتفعت مكانتهم فى هذه الأوساط .

---

(١) يسبه الدولاب إلى حد ما فى الوقت الحاضر صناديق النذور التى توضع فى عدد من المساجد بجوار الأضرحه ، مع فارق هام هو أن حصيلة صناديق النذور لا توجه إلى شراء عقارات وحبسها على مؤسسات دينية أو تعليمية ، بل يوزع جزء منها فى حدود نسبة معينة على موظفى المسجد وخدمه ، ويرسل الباقى إلى وزارة الأوقاف .

الهيئة الإسلامية والمساجد :

ولم تكن وظيفة المساجد الكبرى فى مفهوم الدولة مقصورة على إقامة الصلاة فحسب ، بل كانت تلحق بهذه المساجد منشآت خيرية تضم مدرسة ومكتبة تحفل بكنوز من التراث الفكرى الإسلامى سواء باللغة العربية أو التركية أو الفارسية ، وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد يتسع لسكنى الأساتذة والطلاب ، كما كانت تضم هذه المبانى حماماً ومطبخاً وداراً للعجزة وللشيخوخة ومستشفى وفندقاً صغيراً ينزل فيه الغرباء ويطلق عليه الخان ، وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة . ومن المساجد التى طبق فيها هذا النظـــام مساجد محمد الفاتح وسليمان المشرع وأحمد الأول فى إستانبول وبيلديرم بايزيد وجلبى محمد فى بروسه ، وجامع أدرنه (١) . وكان السلاطين ووزراؤهم يتنافسون فى إقامة هذه المنشآت الخيرية . وإلى دمشق امتد هذا النظام على عهد السلطان سليمان المشرع ، فقد أقام مكان قصر الأبلق الذى كان قد شيده السلطان بيبرس البندقدارى مدرسة وتكية إلى جانب المسجد(٢). وكان ينفق على المسجد وتوابعه والموظفين الذين يعملون فى هذه المنشآت من إيراد الأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كما سبق أن ذكرنا .

الهيئة الإسلامية ومدارسها :

كان للهيئة الإسلامية نظام تعليمى دقيق . كان لابد أن يمر فى جميع مراحله المتطلعون إلى الوظائف الكبرى فى هذه الهيئة . كانت المدارس تلحق بالمساجد وتنقسم إلى ثلاث مراحل :

١ — المدارس الابتدائية ويطلق عليها المكاتب ، وعرفت فى القرن

---

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك فى الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٥—١٢٦ .

السادس عشر باسم « أوكوماك پرليرى » ومعناها أماكن القراءة . وكانت تعلم القراءة والكتابة باللغة التركية واللغة العربية وبعض سور من القرآن الكريم .

٢ — المدارس المتوسطة وكان يدرس فيها عدة مقررات فى النحو والبلاغة والمنطق والهندسة وعلم الفلك وفقه اللغة . وكان المتخرجون فى هذه المدارس يعينون مدرسين فى المدارس الابتدائية أو يعملون وعاظا وأئمة فى المساجد .

٣ — المدارس العالية وتدرس فيها الشريعة والقانون . ويتعمق الطلبة فى دراسة العلوم القرآنية والشريعة الإسلامية كالحديث والفقة وأصول الدين ، كما كانوا يدرسون القوانين الوضعية . وكان يتعين على المتطلعين لوظائف القضاء والإفتاء أن يواصلوا دراساتهم العليا . ويشترك شيخ الإسلام اشتراكاً فعلياً فى امتحاناتهم . وكان الطالب الناجح يمنح لقب ملازم . ولم تكن هناك سنوات محددة لمراحل الدراسة . وكان المعيار فى تحديد سنوات الدراسة هو الاستعداد العقلى للطالب وقابليته للدراسة . ولكن كانت الدراسات العليا تنتهى فى سن يتراوح عادة بين الثلاثين والأربعين .

ولم يكن التعليم إجبارياً ، كما أن المدارس التى تشرف عليها الهيئة لم تكن تتسع لجميع الأطفال المسلمين على الرغم من وفرة عددها ، وكان عدد المدارس الملحقة بمسجد السلطان محمد الفاتح ثمانية ، وعدد المدارس الملحقة بمسجد سليمان خمس مدارس .

وكان من المفروض أن الأب المسلم الذى يسكن مدينة ويريد أن يلحق ابنه فى مدرسة كان لامحال بينه وبين إلحاق ابنه بمدرسة المدينة . وكان التعليم بالمجان فى المدارس الابتدائية . وفضلا عن ذلك كانت تقدم لبعض تلاميذها الطعام وتأوى بعضهم فى مبانيها . أما المدارس المتوسطة فكانت تقدم مثل هذه الخدمات لبعض تلاميذها . وفى المدارس العالية كان الطلاب يتقاضون مرتبات شهرية . ويقرر المؤرخ الامريكى ليبر أن النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية كان يفوق أى نظام تعليمى آخر فى دول أوروبا فى ذلك الوقت .

وكان العثمانيون يؤمنون بفائدة التعليم وضرورته . ولكن مما أفسد التعليم روح المحافظة على القديم . وهى روح متأصلة فى نفوسهم جعلت هذا النظام التعليمى العثمانى ينقلب من نعمة إلى نقمة ،إذ ظلت نظم التعليم وبرامجه جامدة لم تتطور . وتعاقبت القرون دون إدخال أى تطوير عليها . ونجم عن هذا النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية والذى كان فى بدايته مزدهراً وأخرج نخبة من العلماء أن تجمد فى ذات الوقت الذى كانت فيه الدول الأوروبية تمضى قدماً فى تطوير نظمها التعليمية

الهيئة الإسلامية وموظفو الجوامع والمساجد :

كان يتبع الهيئة الإسلامية موظفو الجوامع والمساجد ، وهم : الإمام ، وخطيب الجامع ، والواعظ ، والمؤذن ، والقيّم . وكان المستوى العلمى لهؤلاء الموظفين لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً فى دوائر الحكومة ، وإن كانوا موضع التقدير والإجلال من الجماهير .

كان الإمام يؤم المصلين يومياً . وكان خطيب الجامع يلقى خطب صلاة الجمعة وعيد الفطر وعيد الأضحى ،ويؤم المصلين فى صلاة الجمعة والعيدين . وكان الخطيب أعلى مركزاً من إمام المسجد ، لأن طبيعة عمله تتطلب أن يكون ذا مستوى علمى يفوق المستوى العلمى للإمام ، فهو يتناول فى خطبه المسائل الدينية وقضايا الساعة وموقف الشريعة الإسلامية منها ، وكان يدعو فى خطبه للسلطان العثمانى الحاكم بالتوفيق فى حكم الدولة وبالنصر على أعدائها . وكان الدعاء للسلطان فى خطب الجمعة والعيدين مظهراً من مظاهر السيادة السياسية للسلطان ، ويعد الدعاء قريناً لسك العملة باسم هذا السلطان . أما الواعظ فكان يلقى دروساً دينية فى رحاب المسجد ويبصّر المسلمين بشئون دينهم ودنياهم عقب صلاة الجمعة أو بعد صلاة العصر أو فى الفترة التى تتخلل صلاة المغرب وصلاة العشاء . أما المؤذن فكان يختار لرخامة صوته . وقد اهتم العثمانيون اهتماماً كبيراً بالآذان . وفى المساجد الجامعة والكبرى كان يشترك عدد من المؤذنين فى أداء الآذان فى وقت واحد وصوت واحد

عذب يخلق جواً روحانياً يشد المسلمين إلى الصلاة . وكان يسبق تعيين المؤذنين فترة تدريب يقضيها كل منهم على أداء شتى أنواع الآذان . وكان عليهم — بجانب الآذان — أن يرتلوا بعض الابتهالات . ويتخصص بعضهم فى ترتيل آيات القرآن الكريم . أما القيّم فكان يشرف على موظفى الجامع أو المسجد ويراقب حضورهم فى الوقت المناسب ، أى قبل حلول موعد الصلاة بوقت كاف ، ويراقب أداء أعمالهم على الوجه الأكمل .

ولم تكن المساجد الجامعة تحصل على عدد متساو من الموظفين ، بل كان عددهم يزيد وينقص تبعاً لأهمية الجامع أو المسجد ، وبخاصة المساجد الجامعة السلطانية ، وتبعاً للموارد المالية الموقوفة على الجامع . ففى بعض المساجد الجامعة كان يوجد فى كل منها اثنا عشر مؤذناً . أما مسجد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ — ١٦١٧) والذى شيد فى مطلع القرن السابع عشر فكان يضم ستة وثلاثين مؤذناً.وقد غدا هذا المسجد فى فترة من الفترات أعظم المساجد السلطانية فى الدولة . أما فى المساجد الصغيرة فكان لا يوجد سوى إمام يقوم أيضاً بوظائف الخطيب والمؤذن والقيّم .

وكان التعيين فى تلك الوظائف يتم بمعرفة المشرفين على المؤسسات الخيرية التى تدفع مرتبات موظفى المساجد . وكان وعاظ الجوامع السلطانية فى إستانبول هم الذين لا يخضعون لهذا النظام فى التعيين ، إذ كان شيخ الإسلام هو الذى يتولى تعيينهم . فكانوا يشكلون فئة قائمة بذاتها . وكانوا يبدأون حياتهم الوظيفية فى المساجد المشيدة حديثاً ، فإذا رقوا انتقلوا إلى المساجد الأقدم . وإذا امتد بهم الأجل وصلوا فى ترقياتهم إلى مسجد السلطان محمد الثانى الذى كان من قبل كاتدرائية القديسة صوفيا وأصبح قمة المساجد السلطانية . ومن أجل هذا السبب كان وعاظ هذه المساجد فى مرتبة أعلى من مرتبة خطبائها ، بينما كان الخطباء فى المساجد أعلى مركزاً من الوعاظ . وكان تعيين موظفى سائر المساجد القائمة فى إستانبول يتطلب صدور تصديق أو موافقة شيخ الإسلام . أما موظفو المساجد القائمة خارج العاصمة والمنتشرة

فى أنحاء البلاد ، فكان الأمر يتطلب صدور قرار باعتماد تعيينهم من أحد قاضي العسكر تبعاً لموقع المسجد إذا كان فى أوروبا أو فى آسيا .

الهيئة الإسلامية والحكومة العثمانية :

كانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وهى تباشر اختصاصاتها فى شتى مجالات عملها تحرص حرصاً بالغاً على أن تكون مبادىء الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ الدقيق والاحترام العميق من جانب الحكام والمحكومين على السواء . والدولة العثمانية دولة دينية ، واتسمت سياستها العليا ومعظم تصرفاتها بالطابع الدينى الإسلامى الذى كان من أبرز خصائصها . والأتراك العثمانيون شعب مطواع لحكومته ، غيور على دينه ، محافظ على تقاليده ، يعتقد أن التمسك بأهداب الشريعة الإسلامية أسلوباً ومنهاجاً وسلوكاً فى الحياة يكفل للإنسان السعادة والنجاح فى الحياة الدنيا والنعيم فى الحياة الآخرة . فكانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، تؤدى رسالتها الإسلامية نشراً وتعليماً وقضاء وإفتاء . ويتبوأ أفرادها مكاناً علياً وهم يشغلون تلك المناصب المرموقة . فكانت الهيئة الدينية هى صمام الأمان للشعب والحكومة معاً . وكان نفوذ الهيئة يغطى جميع أرجاء الدولة ويمتد إلى خارج حدودها السياسية .

وكانت الوشيجة الدينية والولاء للدولة يربطان المسلمين رعايا الدولة والذين جاءوا من عائلات إسلامية بعروة وثقى . حقيقة لم يكن هذا النمط من التفكير الدينى والسياسى يغلب على جميع الرعايا المسلمين ، كما لم يكونوا جميعاً من أتباع المذهب الحنفى وهو المذهب الرسمى للدولة ، ولكنهم كانوا جميعاً مسلمين فخورين بدينهم ، يحتويهم إخلاص غامر للإسلام ، ورغبة دافقة للعمل من أجل تحقيق تفوق الإسلام فى أرجاء العالم . وإذا كان بعض المسلمين نظروا إلى نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة على أنه نظام غير مثالى ، لأن الدولة أوجدت بجانبها طبقة العبيد — القولار — واصطنعتهم أدوات للحكم والحرب وأغدقت عليهم الامتيازات إغداقاً ، فإن نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان على كل حال ، وفى رأيهم أيضاً ، نظام يلوذ

به المسلمون ، ويعين على صمود الإسلام كدين عالمى أمام البابوية فى روما وأمام الدول الأوروبية المسيحية . وكانت هاتان القوتان المسيحيتان قد أظهرتا لدداً فى العداء للدولة العثمانية .

وباستثناء طائفة الأشراف الذين كانوا ينحدرون من نسل النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وباستثناء طوائف الدراويش الذين كانوا يمارسون ألواناً من النشاط الدينى ، فإن جميع وظائف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانت متاحة لكل أفراد الهيئة الإسلامية أى المسلمين الأحرار طالما كانوا مؤهلين علمياً لتولى مناصبها ذات النفوذ الواسع والأهمية البالغة . كانت هيئة العلماء وهى تضم ثلاث فئات ، هم : الأساتذة والقضاة والمفتين قد تلقى أفرادها العلم وفقاً لنظام تعليمى واحد ، واستقوا المادة العلمية من نفس المصادر والمراجع ، والتحقوا بمدارس وكليات مفتوحة للجميع من أفراد الهيئة الإسلامية يمضى الطالب فى رحابها سنوات طوالا يتلقى الدراسات إلى نهاية الشوط إذا كانت استعداداته العقلية تؤهله لاستكمال دراساته العليا ، ولا يتكبد ذووه نفقات تعليمه ، لأن الموارد المالية التى تدرها الأوقاف الدينية الإسلامية كان يوجه جزء منهـا للإنفاق عليه . وانتشرت المدارس فى أرجاء الدولة فى القارات الثلاث تقدم العلم للراغبين فيه على يد العلماء . ولم يكن مستوى التعليم يقل فى مستواه عن مثيله الذى سبق أن تلقاه هؤلاء العلماء حين كانوا يطلبون العلم . كانوا يتولون التدريس لنوعيات مختلفة من الدارسين : الطلاب شباباً وشيبة ، أفراد طبقة القولار الحاكمة ، الأمراء ، والسلطان الحاكم نفسه ، إذ كان يعمل على مقربة منه خوجة السلطان ، أى معلم السلطان ، وكان بمثابة مستشار له . وكان السلطان يكن له احتراماً عميقاً وتقديراً بالغاً . وكلما مضت الحياة بهؤلاء العلماء تشعبت أمامهم المسالك إلى وظائف القضاء والإفتاء بل إلى منصب شيخ الإسلام . وبذلك لم يظل أثر العلماء مقصوراً على الأفراد فى مجالات التعليم ، بل امتد إلى مستقبل الدولة نفسها . كان فريق منهم يعملون فى المحاكم قضاة ومفتين ، وفريق آخر يعملون فى المساجد والمؤسسات الدينية فى شئون الدعوة

والإرشاد والتوجيه . وفوق هذا كله كان بجانب كل موظف كبير فى الإدارة المركزية وفى حكومة كل ولاية قاض أو مفت يسدى إليه الرأى فى المسائل التى يستغلق فهمها على ذلك الموظف الكبير ، فيتولى شرحها له فى ضوء مبادىء الشريعة الإسلامية .

امتيازات علماء الدين :

وأضفت الدولة على العلماء بعض الامتيازات الهـامة مثل الإعفاء الضريبى . وكانت ممتلكاتهم لاتخضع للمصادرة ، ولا تؤول ملكيتها على الإطلاق للسلطان . فكانت ممتلكاتهم تورث لأولادهم وذراريهم حسب قواعد الشريعة الإسلامية . وقد زادت هذه الامتيازات من مكانة العلماء فى نظر الجماهير(١). ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان أصحاب المناصب الدينية الكبرى ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام وقضـاة العسكر وخوجة السلطان والقضاة من فئة المولا الكبير والمفتون ومن إليهم من العلماء ، يتقاضون مرتباً إضافياً أطلق عليه « آربة لق » أى مال الشعير (٢) . وكان هذا المرتب فى أصله عبارة عن علاوة تمنح لأولئك الذين يحتفظون بقوات من الفرسان المعروفين باسم السباهى أو يناط بهم العناية بالخيل سواء فى الجيش أو فى الإسطبلات السلطانية ، ثم توسعت الدولة فى تطبيق هذا المرتب على رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة بحد أقصى لأصحاب المناصب الدينية الإسلامية سبعة الآف أسبر (٣) . ومنذ القرن الثامن عشر أصبح منح هـذا المرتب الإضافى مقصوراً على شاغلى المناصب الدينية الكبرى .

ويلخص الأستاذ ألبرت حورانى الخطوط الرئيسية الدالة على اهتمام الدولة العميق بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وذلك فى شتى المجالات التى امتد إليها نشاط هذه الهيئة فيقول . . « كانت السلطنة دولة تحكم فى نطاق

---

(١) Lybyer A. H.; op. cit., p. 203.

(٢) أربة فى اللغة التركية معناها الشعير .

(٣) درج الكتاب الأوروبيون على استخدام كلمة أسبر أو أسبرة Asper أو Aepre على العملة التركية أقجة « بتفخيم الهمزة وفتحها » . وهى كلمة تركية معناها مائل إلى البياض . وهى تستعمل للدلالة على المسكوكات الفضية وبخاصة الصغيرة منها .

الشريعة الإسلامية وتعكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى . وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التى كانت شيعية . وبفضل ما كان للعثمانيين من قريحة وحب للترتيب والوضوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم هيئة العلماء على شكل سلسلة من الرتب المحددة والتعيينات الرسمية والمرتبات التى تجرى عليهم بصفة رتيبة ومنتظمة . وكان رؤساء هذه الهيئة الدينية وهم شيخ الإسلام ، وكبار رجال القضاء والإفتاء يستشارون فى الشئون العليا للدولة . وكان القضاة فى الأقاليم هم السبيل الرئيسى الذى يتم عن طريقه الاتصال بين الحكومة المركزية والرأى العام الإسلامى فى المدن الكبرى . وبسطت الحكومة رعايتها وحمايتها على المدارس الإسلامية فى المدن العربية ، وقامت هى من ناحيتهـــا بإنشاء مدارس جديدة فى إستانبول لتعليم أولئك الذين سيشغلون أعلى المناصب فى الهيئة الإسلامية فى قابل الأيام » (١) .

وقد عمد المؤرخ الأمريكى ليبير Lybyer إلى تشبيه الهيئة الإسلامية بيد الإنسان ، وتشبيه الحكومة العثمانية بالقفاز الذى يضعه الإنسان فى يده . ومهد لهذا التشبيه بقوله إن الهيئة الإسلامية كانت تشمل جميع الرعايا المسلمين الأحرار الذين جاءوا من عائلات إسلامية ، وهؤلاء يشكلون القاعدة الجماهيرية العريضة . والقفاز لابد أن يكون مناسباً لليد ملائماً لها ، كذلك كانت الحكومة العثمانية مناسبة وملائمة للهيئة الإسلامية ، واستطرد ذلك المؤرخ فقال إن التشبيه يذهب إلى أبعد من هذا الحد . فاليد تؤدى وظيفتها بنفس الكفاية سواء بالقفاز أو بدون قفاز ، بينما يكون القفاز عديم الفائدة بدون يد الإنسان . وفضلا عن ذلك فإن اليد تعيش مع الإنسان وتلازمه فى شتى مراحل حياته . واليد ترتدى عدداً كبيراً من القفازات ، وكلما بلى قفاز استخدمت اليد قفازاً جديداً ، وتستمر اليد تؤدى وظيفتها ما بقيت تنبض بالحياة (٢).

(١) Hourani Albert ; The Ottoman Background etc, op. cit., p. 8.

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 225—226.

الفصل السادس عشر

دراسة مقارنة بين الهيئتين الحاكمتين

المنابع الأولى لنظام الهيئتين :

حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصى المنابع الأولى التى استقى منها الأتراك العثمانيون الفكرة الأساسية التى قام عليها نظام كل من طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وقد أرجع فريق منهم المنابع أو الأصول التى قام عليها نظام طبقة القولار إلى الصين وفارس القديمة بحكم مجاورة هاتين الدولتين للمهاد الأولى التى نشأ فيها الأتراك العثمانيون فى مناطق الإستبس فى أواسط آسيا . وقرر فريق آخر أن أسلاف سلاجقة الروم هم الذين تولوا نقل الآراء التى قام عليها نظام طبقة القولار إلى الأتراك العثمانيين الذين تأثروا بدورهم بعد ذلك بالمؤثرات البيزنطية ، كما أنهم تأثروا بمؤثرات الصليبيين الذين وفدوا من أوروبا ومروا بمنطقة آسيا الصغرى وهم فى طريقهم إلى الشرق الآسيوى الإسلامى حيث استقروا حيناً من الدهر وتركوا بصماتهم فى هذه البقاع . ويضيف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين إلى ذلك أنه نجم عن هذه المؤثرات فى مجموعها أن الأتراك العثمانيين لم يكتفوا بالأخذ بنظام طبقة القولار كما نقل إليهم فحسب ، بل عملوا إلى تطعيمه بآراء جديدة فرضتها عليهم الملابسات التى أحاطت بهم منذ إنشاء دولتهم ، وأنهم مضوا فى تحوير هذا النظام سواء فى آسيا الصغرى أو فى الأقاليم التى دانت لحكمهم فى الجنوب الشرقى من أوروبا إلى عصر السلطان سليمان المشرع . أما فيما يختص بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فقد ذهب فريق من المؤرخين والباحثين إلى أن الأتراك العثمانيين قد استمدوا الهيكل العام لهذه الهيئة من النظم التى كانت سائدة فى الدولة الساسانية .

ومن الصعب تقبل هذه الآراء التى تبدو أنها آراء اجتهادية أو افتراضية تتطلب منا أن نخوض فى دراسة النظم التى كانت قائمة فى تلك الدول القديمة لنتبين وجه الحقيقة . وهذا الأمر يخرجنا بعيداً وبعيداً جداً عن نطاق الدراسة التى نقوم بها ، ومثل هذه الدراسة لا تسمح لنا بالتعرض لتاريخ نظم قامت فى دول موغلة فى القدم . ولهذا نرى أن نكتفى بذكر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف وأوجه التداخل بين هاتين الهيئتين اللتين كانتا من المعالم البارزة فى تاريخ الدولة العثمانية ، وقام على أكتاف أفرادها كل الإنجازات الحربية والإدارية والتشريعية والدينية والاجتماعية .

أوجه الشبه بين الهيئتين :

كان من أوجه الشبه بين طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أنهما اتخذتا من التعليم وسيلة للبقاء والاستمرار والأخذ بأسباب القوة والنماء . فكان لكل منهما نظام تعليمى خاص بأفرادها يتمشى مع رسالتها ويحقق أهدافها . كانت طبقة القولار الحاكمة تقدم إلى أبنائها تعليماً تناول التربية العسكرية وتناول أيضاً النواحى التثقيفية العلمية المحضة ، بينما كان اهتمام الهيئة الإسلامية مقصوراً على الدراسات العقلية ، وفى مقدمتها علوم الشريعة وأصول الدين ، وأهملت إهمالا تاماً التربية الرياضية .

وحرصت كلتا الهيئتين على تزويد القاعدة العريضة بتلاميذ جدد تقدم لهم التعليم وفقاً للمناهج الموضوعة لكل هيئة . وكان الصف الأول فى كل من هاتين الهيئتين يجد دواماً رصيداً لا ينفد من رجال الصف الثانى ليشغلوا منه المناصب العليا أو القيادية التى تخلو بمضى الأيام . وبالمثل كان الصف الثانى يجد معيناً لا ينضب من رجال الصف الثالث يملأ منه الوظائف الشاغرة . وهكذا مضت عملية ملء الصفوف فى كل هيئة وفق خطة مرسومة ونظام رتيب .

وانتشر أفراد الهيئتين فى شتى القطاعات المدنية والعسكرية . عمل أفراد طبقة القولار فى الجيش وفى الإدارة المركزية وفى حكومة الولايات وفى البلاط السلطانى . وكان أعلى منصب وصلوا إليه هو منصب الصدارة العظمى .

وعلى هذا النحو عملوا أدوات للحرب والحكم والخدمة الداخلية والخدمة الخارجية للسلطان فى قصوره . أما أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فقد شغلوا مناصب القضاء والإفتاء وتدريس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما فى إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها . وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين فى صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة للعربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس ، وشمالا إلى بلاد الشام ، واتجهوا إلى مصر ثم شمالى إفريقية ، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس . ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تدور حول الجهاد الدينى والفوز بإحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد . ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية العربية وقتذاك أن تدك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية . كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود فى صلاة الخوف (١) وهم فى ساحات القتال . وكان أعلى منصب يصل إليه أفراد هذه الهيئة هو منصب شيخ

---

(١) من المعروف أن المحاربين لا يستطيعون أداء الصلاة فى طمأنينة وأمان وهم فى ساحات القتال بينما العدو متربص بهم ، يود منهم الاسترخاء أو الانشغال عن القتال ولو لفترة وجيزة فيأخذهم على غرة . وتقديراً من الله سبحانه وتعالى للظروف الخطيرة والشاقة التى يحارب فيها المسلمون ، وتمكيناً لهم من إقامة الصلاة ، وتيسيراً عليهم فى أدائها ، فقد وردت فى القرآن الكريم صلاة الخوف فى قوله تعالى . « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة . » سورة النساء ، صدر الآية الكريمة رقم ١٠٢ .

وفى صلاة الخوف تنقسم المجموعة أى الوحدة — سرية كانت أو فصيلة — بشرط أن تكون متجمعة ، إلى مجموعتين : مجموعة الاستعداد للدرجة القصوى فى مواجهة العدو . والمجموعة الثانية مع الإمام ، فيصلى بهم ركعتين فى الصلاة الرباعية ، ثم يسلمون من الصلاة وينصرفون =

الإسلام . وكان أكبر منصبين فى الدولة — الصدر الأعظم وشيخ الإسلام — يتم التعيين فيهما بفرمان يصدره السلطان شخصياً ومباشرة لكل منهما ، ويستقران فى منصبيهما فى العاصمة على مقربة من العرش السلطانى . وكذلك كان شأن معظم كبار أفراد الهيئتين .

أولا : اختلاف الأساس الذى قامت عليه الهيئتان :

كان من أهم أوجه الاختلاف بين طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أن الأساس الذى قامت عليه كل منهما كان يختلف عن الآخر اختلافاً جذرياً . قامت طبقة القولار على أساس مصطنع غير طبيعى ، ولذلك لم يقدر له الاستقرار أمداً طويلا . كان أفراده عبيداً للسلطان ، ولكنهم لم يولدوا عبيداً . لقد جاءوا إلى الحياة أطفالا مسيحيين أحراراً ، ثم تغير وضعهم الدينى والقانونى والاجتماعى ، فغدوا مسلمين عبيداً للسلطان . ولم يكن فى الاستطاعة أن تمضى هذه العملية المصطنعة أعصراً وأدهاراً وأحقاباً دون أن يعتريها وهن ثم اضمحلال يؤدى بها إلى التوقف والزوال . وقد ذكرنا من قبل أنه كانت هناك أربعة منابع حصلت منها الدولة على أفراد طبقة القولار الحاكمة : أسرى الحروب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة الغلمان . وبمضى

= لاستلام مهام المجموعة الأولى التى تأتى بدورها لتدخل فى الصلاة فتصلى مع الإمام ركعتين تسلم بعدهما . أما فى حالة الاشتباك الفعلى أو القتال المتلاحم فإن المحاربين يصلون بالإيماء ومعهم أسلحتهم . ولا يشترط حينئذ استقبال القبلة ، لأنه شرط مع القدرة عليه .

وقد صلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه صلاة الخوف على أنواع مختلفة تناولتها بالتفصيل كتب الفقه . والهدف من هذه الصلاة هو التوفيق بين ضرورات القتال وما يجب له من تهيؤ وحذر ، لإحباط مكائد العدو وهجماته المباغتة وبين اتخاذ عدة النصر كاملة ، وفى أولها الصلة بالله فى الصلاة إذ هى السلاح الأول من أسلحة النصر فى المعركة لا يجوز تركها أو تأجيلها ، فجاءت تلك الآية الكريمة فى صلاة الخوف مع رسول الله ومع خلفائه وأئمة المسلمين الملتزمين بسنته .

انظر :

أبو الطيب صديق بن حسن بن على الحسينى القنوجى البخارى : الروضة الندية . شرح الدرر البهية . جزءان . نشر وتصحيح وتعليق إدارة الطباعة المنيرية لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا الدمشقى ، شارع الكحكيين رقم ١ ، القاهرة ، ج ١ ، ص ص ١٤٧ — ١٤٩ .

الزمن انحصرت هذه المنابع الأربعة فى مصدرين : الأسرى وضريبة الغلمان . وقد نضب معين المصدر الأول وهو أسرى الحروب بعد أن بلغت الفتوحات العثمانية فى أوروبا حد التشبع ، وبعد أن وصلت الجيوش العثمانية فى زحفها على قلب أوروبا إلى مشارف فينا ، وتعذر على هذه الجيوش أن تمضى قدما فى زحفها الخاطف والظافر . فالدولة كان قد بدا عليها الهزال ، بينما كانت الدول الأوروبية التى وقفت فى وجهها بعد ذلك تملك الكثير من أسباب القوة والمنعة والصمود . أما المورد الآخر وهو ضريبة الغلمان فلم يكن فى مقدور الدولة أن تستمر فى جمعها قروناً متعاقبة ، وانتهى بها الأمر إلى إلغـائها . وكان هؤلاء الصبيان يفصلون عن آبائهم وأمهاتهم وسائر ذويهم فصلا مصطنعاً وحاداً وعنيفاً . ولما اشتد ساعد هؤلاء الصبية واكتملت رجولتهم لم تشجعهم الدولة على تكوين روابط عائلية . وإذا تزوج فريق منهم — لأن الزواج ظل محرماً على الذين انخرطوا منهم فى السلك العسكرى ثم أذن لهم فى الزواج — لم يكن الآباء مطمئنين إلى أن الثروات التى كونوها سواء كانت عقاراً أو أموالا سائلة سوف تؤول إلى أبنائهم وذراريهم ، بل كان ينتابهم خوف مرير مدمر من أن يسلبهم السلطان أموالهم وممتلكاتهم بل وحياتهم . ولذلك كانت طبقة القولار الحاكمة فى أساسها وفى نظمها تسير فى خطوط تتعارض مع فكرة الأسرة وروابط الأسرة وجو الأسرة . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت تأخذ أفرادها من أبنـاء المسلمين الأحرار ، وكان يتزايد عددهم باطراد . وكان عليهم إذا أرادوا أن يتبوأوا مكانة مرموقة فى وظائف الهيئة أن يواصلوا دراساتهم العليا . وكانوا أحراراً لا يعوقهم عائق فى علاقاتهم العائلية أو فى حياتهم الخاصة . يتضح مما سبق أن أهم سبب لاختلاف الأساس الذى قامت عليـه كل هيئة من هاتين الهيئتين أن أفراد طبقة القولار جاءوا — أو جمعوا بعبارة أكثر دقة — من عائلات مسيحية ، بيـنما جاء أفراد الهيئة الإسلامية من عائلات إسلامية . ومعظم أوجه الاختلاف ، إن لم يكن جميع أوجه الاختلاف بين هاتين الهيئتين ، إنما تنبثق من هذا السبب .

ثانياً : نظرة كل هيئة إلى السلطان : عبودية أو طاعة :

ينبثق عن الاختلاف السابق اختلاف آخر وثيق الصلة به ، هو نظرة أفراد كل من الهيئتين إلى الرئيس الأعلى للدولة . فعلى الرغم من أن السلطان كان رئيس الهيئتين ، إلا أن نظرة أفراد كل هيئة إلى السلطان كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة أفراد الهيئة الأخرى إليه . ومرد هذا الاختلاف إلى أن رياسة السلطان لطبقة القولار الحاكمة ورياسته للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانتا تستندان إلى اعتبارات قانونية . فالهيئة الأولى مجموعة من المسلمين العبيد ، والهيئة الثانية مجموعة من المسلمين الأحرار .

كان السلطان بالنسبة لطبقة القولار الحاكمة هو كل شيء : هو السيد المطاع ، وهم العبيد الأرقاء يملك بالنسبة لهم أسباب الموت ، ويتخذ ضدهم ما يشاء من إجراءات بحكم تملكه لهم وما ملكت أيديهم ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لرغبته . وهم كعبيد يدينون له بالعبودية التامة بكل ما تحمله هذه العبارة من معانى الصرامة والسيطرة التى لا يحدها قيد أو حد . أما بالنسبة للهيئة الدينية الإسلامية ، فكانت رياسة السلطان لها تقوم على أساس أنه يعتبر إماماً للمسلمين الأحرار الذين هم أفراد الهيئة الإسلامية . وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولى الأمر كما يأمرهم الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) .

ونقف هنا وقفة قصيرة لنزيد جلاء هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين أفراد طبقة القولار الحاكمة وأفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . توجد نقطتان هامتان تفرضان نفسيهما فرضاً فى هذا المجال . النقطة الأولى هى أن الفارق كبير بين العبودية التى تدين بها للسلطان العثمانى طبقة القولار أى عبيد السلطان ، وبين الطاعة التى يدين بها للسلطان المسلمون الأحرار ، وهم أفراد الهيئة

---

(١) سورة النساء ، آية رقم ٥٩ .

الإسلامية . والنقطة الثانية هى أن طاعة المسلمين الأحرار مشروطة بأن تكون فى نطاق الشريعة الإسلامية . وطبقاً للنص القرآنى فى الآية الكريمة السابقة يجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداء ، وأن يطيعوا الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما له من صفة الرسالة . فطاعته هى من طاعة الله الذى أرسله بالشريعة . أما أولو الأمر أياً كان لقبهم أميراً أو ملكاً أو سلطاناً ، فيجعل الله طاعتهم تبعية ، ولا يجعل طاعتهم أصلية . ولذلك اقتضت حكمة الله أى يرد النص القرآنى فى الآية الكريمة المشار إليها مجرداً من لفظ الطاعة عند ذكر أولى لأمر ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله . فليس لأولى الأمر طاعة فيما وراء الشريعة ، لأن الطاعة لهم تبعية ، وليست طاعة أصلية ، إنها طاعة مستمدة من أصل ، وليست هى بذاتها أصلا . وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١) فى أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها مناهجه فى الحكم . وكان مما جاء فى هذه الخطبة المشهورة قوله « أيها الناس إنى وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . . . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . . . . . » (٢) وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله . لا طاعة لحاكم فى معصية الخالق . وقد مر بنا فى هذة الدواسة أن شيخ الإسلام كان يلوذ بالشريعة الإسلامية ويعتمد عليها إذا احتدم الخلاف بينه وبين السلطان أو الصدر الأعظم إذا حاد أحدهما أو كلاهما عن مبادىء الشريعة . ويحفل تاريخ مصر إبان الحكم العثمانى بمواقف رائعة تمسك فيها علماء الأزهر بهذا المبدأ الإسلامى تمسكاً جعلهم يرفضون تنفيذ أوامر السلطان العثمانى إذا رأوا فيها خروجاً على مبادئ الشريعة . كان السلطان قد أرسل إلى مصر عدة

---

(١) هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر بن مالك . فهو يلتقى مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى مرة .

(٢) القلقشندى أبو العباس أحمد : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

فرمانات(١) كان بعضها يختص بتغيير نظام صرف الأموال المرصودة على المساجد والأسبلة والتكايا وغيرها من الجهات الخيرية . وطلب قاضى القضاة العثمانى فى مصر إلى علماء الأزهر تنفيذ هذه الفرمانات ، كل فيما يخصه . ولكنهم رأوا أنها تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، فرفضوا تنفيذها . فقال لهم قاضى القضاة « إن أمر السلطان لا يخالف ، ويجب طاعته » . فتصدى له الشيخ سليمان المنصورى ، ويصفه الجبرتى بأنه « أحد الصدور المشار إليهم » وتحدى السلطان وأعلن فى مواجهة قاضى القضاة أنه لن ينفذ أمراً أصدره السلطان ، لأنه مخالف لأحكام الشريعة ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك » . وسجل الجبرتى موقفاً مماثلا لعلماء الأزهر حين وقفوا فى وجه حسن باشا الجزايرلى قائد الحملة العسكرية العثمانية التى جاءت إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة الأمراء المماليك ودعم نفوذ الدولة العثمانية فى مصر . كان هذا القائد وهو فى أوج نفوذه قد فكر فى استباحة أموال الأمراء المماليك والقبض على نسائهم وأولادهم وعرضهم فى سوق الرقيق بالقاهرة لبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال . ولما أقدم حسن باشا على تنفيذ فكرته ، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر مستنكرين هذه التصرفات . واحتدمت المناقشة بينه وبينهم ، وقال له الشيخ محمد أبو الأنوار السادات « هل أرسلك السلطان إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ » فقال « هؤلاء أرقاء بيت المال » . فأجابه الشيخ السادات « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . فثارت ثائرة القائد العثمانى ، وأمر سكرتيره بكتابة أسماء العلماء الحاضرين ليبلغ السلطان بمعارضتهم لأوامره . فانبرى له أحد الحاضرين قائلا « اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا » (٢) .

---

(١) حمل هذه الفرمانات أغا من إستانبول . وكان ذلك فى أثناء ولاية باكير باشا الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩ هـ / ١٧٣٤ — ١٧٣٧ م) . انظر :
الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، وقد جاء هذا النص فى سياق ترجمة الشيخ محمد السادات فى وفيات سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١—١٨٧٢ م .

ونخلص من هذا العرض إلى أن المسلمين الأحرار أفراد الهيئة الإسلامية نظروا إلى الشريعة الإسلامية على أنها فوق السلطان العثمانى . أما العبيد أعضاء طبقة القولار الحاكمة فلم يعترفوا بسلطة أعلى من سلطة السلطان .

ويمكن تفسير هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين طبقة القولار الحاكمة والهيئة الإسلامية بأن نشأة أفراد كل من هاتين الهيئتين قد انعكست على تصرفاتهم ومسلكهم بل وعلى روحهم العامة فى الحياة . كان أفراد طبقة القولار الحاكمة أطفالا مسيحيين فى مهادهم — كما سبق أن ذكرنا — ثم انتزعتهم الدولة من آبائهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الدين الإسلامى . فكانوا حديثى عهد بالإسلام . ونجم عن ذلك أن عقيدتهم الدينية الجديدة لم تكن بنفس الأصالة والقوة والصلابة التى كان يشعر بها ويدين بها أفراد الهيئة الإسلامية الذين ولدوا مسلمين ، وشبوا وترعرعوا وعاشوا فى جو إسلامى غير مصطنع ، فتشبعوا بالإسلام ديناً بعد أن تمكن من أفئدتهم وتغلغل فى أعماق نفوسهم .

ثالثاً : نوعية أفراد الهيئتين :

ومن أوجه الاختلاف بين الهيئتين نوعية الأفراد الذين تستقى منهم كل هيئة قاعدتها العريضة . فالدين الإسلامى دين عام بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد بعث به رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه للبشرية جمعاء ، فهو ليس ديناً خاصاً بقوم ، أو بجنس من أجناس البشرية ، أو بجيل من الأجيال ، أو بإقليم من الأقاليم . والله يقول فى كتابه العزيز « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . (١) والإسلام يمثل عبر التاريخ الإخاء الإنسانى فى أروع صوره ، وقد عبر عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وأباكم واحد . لا فضل لعربى على عجمى ،

(١) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٨ .

ولا لعجمى على عربى ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود ، إلا بالتقوى » (١) . والإسلام لايعرف الطبقية ولا التميز العنصرى . والرسول عليه الصلاة والسلام ليس رسولا عنصرياً أو إقليمياً أو طبقياً ، وهو يقول « بعثت إلى الناس كافة ، الأحمر ، والأسود » (٢) . وتأسيساً على هذه المبادئ التى جاءت بها الشريعة الإسلامية ، فإن الهيئة الإسلامية ، وهى تضم الأفراد الذين ولدوا مسلمين أحراراً ، كانت لا تقيم وزناً لأجناسهم .

أما طبقة القولار الحاكمة فكان أفرادها يؤخذون من الأسرى المسيحيين واعتنقوا الإسلام . ويؤخذون أيضاً من الحصيلة البشرية لضريبة الغلمان ، وهى أغنى منابع الرقيق. وطبقت الدولة هـذه الضريبة على طوائف معينة من رعاياها ، وأعفت طوائف أخرى . فقد أعفت رعاياها اليهود كلية ، كما أعفت رعاياها المسيحيين الكاثوليك . وطبقت الضريبة على المسيحيين الأرثوذكس وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ويطلق عليهم فى بعض المراجع الروم الأرثوذكس ، ونجم عن هذا الإعفاء فروق صارخة . ونسوق فى هـذا المجال مثالا لهذه التفرقة . كان من بين رعايا الدولة أرمن كاثوليك وأرمن أرثوذكس . وطبقاً للقانون كانت الدولة تعفى أبناء الأرمن الكاثوليك من ضريبة الغلمان وتطبقها على أبناء الأرمن الأرثوذكس ، مع أن الجميع رعايا الدولة ، والطائفتان من الأرمن . ثم أوغلت الدولة فى الإعفاء بين أفراد المذهب الدينى الواحد ، فأعفت من الضريبة أبناء المسيحيين الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المقيمين فى المدن الكبرى مثل إستانبول وأثينا وبعض الجزر مثل رودس . وترتبت على هذا الإعفاء المكانى فروق صارخة أيضاً على غرار ما سبق .

ومن ثم كان الاختلاف بين الهيئتين ملحوظاً . فالهيئة الإسلامية تفتح أبوابها على مصاريعها للمسلمين الأحرار ، ويتقلد مناصبها ويتدرج إلى أعلاها

---

(١) الهيثمى ، مجمع الزوائد . ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل . طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٦١ عن رواية ابن عباس .

كل فرد يمضى فى دراساته إلى نهاية الشوط ، وإلا فإنه يتولى الوظيفة التى يؤهله لها مستوى ما حصل عليه من علم ، سواء كانت هذه الوظيفة فى القطاع الدينى أو فى القطاع الإدارى . أما طبقة القولار الحاكمة ، وهى فى صدد تكوين قاعدتها العريضة ، فكانت تأخذ فريقاً من أبناء رعايا الدولة المسيحيين دون أبناء فريق آخر . ومعيار التطبيق العملى هو انتماء الغلمان لمذهب دينى مسيحى معين كان يعتنقه آباؤهم ، أو لأنهم يقيمون فى إقليم معين من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية .

رابعاً : امتيازات الهيئتين :

أضفت الدولة العديد من الامتيازات على أفراد طبقة القولار الحاكمة . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبى والإعفاء من الخضوع للقضاء العادى ، وأنشأت لهم نظاماً قضائياً خاصاً بهم ، وأصبح التعيين مقصوراً عليهم فى بعض فرق الجيش وفى المناصب المدنية خارج نطاق القطاع الدينى فى شتى مجالاته ، فشغلوا عديد الوظائف سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومة الولايات أو فى البلاط السلطانى . وتمتعوا بمركز مادى واجتماعى وأدبى مرموق . وكانت هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها وطبيعتها ومسمياتها تشكل تعميقاً للفروق الصارخة بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية ، إذ انفصل أفراد طبقة القولار الحاكمة مالياً وقضائياً وضريبياً عن سائر رعايا الدولة ، الأمر الذى أوجد حقداً طبقياً على القولار من جانب سائر المجتمعات العثمانية . حقيقة اختصت الدولة أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وبخاصة الذين شغلوا منهم المناصب الكبرى ، بامتيازات . ولكن لم تكن هذه الامتيازات بمثل ذلك الحجم أو التنوع الذى ظفر به أفراد طبقة القولار الحاكمة .

خامساً : القولار طبقة قائمة بذاتها :

والحق أن إطلاق كلمة «طبقة» على أفراد القولار أدنى إلى الحقيقة من لفظة «هيئة» ، لأن القولار — وهم عبيد السلطان — كانوا يشكلون طبقة

خاصة قائمة بذاتها فى أجهزة الحكم فى الدولة العثمانية . وكانوا فى ذات الوقت شريحة هامة من شرائح المجتمع العثمانى ، ينتمى إليها أفراد معينون وضعت الدولة لهم مواصفات محددة تحديداً دقيقاً بحيث غدوا يشكلون طبقة مغلقة ، لا يدخلها ولا ينتمى إليها سوى الأفراد الذين جاءوا إلى الحياة مسيحيين ، ويعتنقون مذهباً دينياً مسيحياً معيناً ، هو مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ثم انتزعتهم الدولة من آبائهم وأمهاتهم ، وحولتهم إلى الإسلام ، وجعلتهم عبيداً للسلطان ، وقدمت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً مقروناً بدراسات دينية إسلامية ، ورسمت لهم مجالات واسعة يعملون فيها ، ورتبت لهم امتيازات طبقية . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت هيئة مفتوحة تتسع للمسلمين الأحرار المؤهلين علمياً لتولى مناصبها .

سادساً : الأخطار التى كانت تواجهها طبقة القولار :

اختلفت حياة أفراد طبقة القولار عن حياة أفراد الهيئة الإسلامية . كانت حياة القولار مهددة باستمرار . فإذا غضب السلطان على أحد منهم ، كان له الحق فى أن يصادر أمواله أو أن يأمر بقتله أو بإعدامه . وتتم إجراءات المصادرة أو القتل أو الإعدام دون محاكمة . ولم يكن فى مقدور أحد فى الدولة أن يراجع السلطان فى مثل هذه الرغبات أو الأوامر التى تسلب أحداً من القولار أمواله أو حياته حتى ولو كان يشغل منصب الصدارة العظمى . أما أفراد الهيئة الإسلامية فكانوا بمنجاة ، فى الأعم الأغلب ، من أمثال هذه الإجراءات ، إذ كانوا يخضعون لإجراءات قضائية مقررة طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وكانت المحاكم تنظر فيما يشجر بينهم من خلاف أو بينهم وبين إدارات الحكومة أو ما يقع منهم من مخالفات . ولذلك عاشوا فى طمأنينة نسبية على أموالهم وعلى حياتهم .

سابعاً : مدى نفوذ كل من الهيئتين :

كانت طبقة القولار الحاكمة تملك أسباب القوة المادية التى تمثلت فى الجيش والمناصب القيادية فى الإدارة المركزية وفى حكومات الولايات وفى

البلاط السلطانى ، بينما كانت الهيئة الإسلامية تملك أسباب القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا فى ممارسة رجال الهيئة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية ، والتنظر على الأوقاف ثم نشاطهم فى مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمتها الدراسات العليا فى الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين . ولذلك كان رجال الهيئة الإسلامية الذين يمارسون هذه الاختصاصات أكثر التصاقاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلين .

كان نفوذ إحدى هاتين الهيئتين ينمو ويزكو على حساب الهيئة الأخرى تبعاً لشخصية السلطان المتربع على العرش . ومع ذلك — كما سنرى فى سياق هذه الدراسة المقارنة — كانت كفة الهيئة الإسلامية هي الراجحة فى معظم العهود ، إن لم يكن فى جميعها . وقد شهدت الدولة نماذج متنوعة من السلاطين . كانت تطغى على بعضهم النزعة الحربية تفكيراً ومنهاجاً فى الحكم وأسلوباً فى الحياة . فكان حكم كل منهم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الخارجية لا هوادة فيها ، تستهدف توسيع رقعة الدولة سواء فى أوروبا أو فى آسيا أو فى إفريقية ، أو فى هذه القارات الثلاث معاً ، أو فى الاستيلاء على جزر فى البحر المتوسط كانت بمثابة قواعد عسكرية يتخذها أعداء الدولة جيوباً صليبية لهم . وينطبق هذا النوع على عدد كبير من سلاطين الفترة الأولى ، وقد حفل حكمهم بانتصارات عسكرية رائعة ، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان محمد الفاتح . وعلى عهد هذا النوع من السلاطين كان نفوذ طبقة القولار الحاكمة يزداد بل يشتد ، وبخاصة فى القطاع العسكرى . ومع ذلك يظل نفوذ الهيئة الإسلامية قوياً ملحوظاً وبخاصة فى ساحات القتال قبيل المعارك وبعد المعارك على حد سواء . وقد تكلمنا عن دورهم الخطير قبيل بداية المعارك التى كان يخوضها الجيش العثمانى . وكان لهم أيضاً دور هام بعد أن تضع الحرب أوزارها، إذ كانوا يعكفون على تنظيم الحياة الدينية الإسلامية فى ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية فى البلاد المفتوحة .

وكان هناك فريق آخر من السلاطين جمعت الدولة على عهدهم بين

الأمجـاد العسكرية البراقة والإنجازات الدينية الرائعة . ونذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الأول . اتجه فى فتوحاته وجهة شرقية إسلامية كانت جديدة بالنسبة للدولة ، فقد حارب الدولة الصفوية فى بلاد فارس ودخل عاصمتها تبريز وهبط بهذه الدولة من دولة من الدرجة الأولى إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ثم فتح بلاد الشام ومصر وقضى على دولة المماليك الشراكسة ، وهى انتصارات عسكرية رائعة خلدت اسم السلطان سليم الأول فى تاريخ الدولة العثمانية . وساعدت هذه الانتصارات على نمو نفوذ طبقة القولار الحاكمة . ومن ناحية أخرى دخل إقليم الحجاز دخولا سلمياً تحت السيادة العثمانية . وهو من أهم الأحداث السياسية فى تاريخ العالم الإسلامى فى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، وأهم حدث دينى فى تاريخ الدولة العثمانية ، إذ أكد زعامتها للعالم الإسلامى . فهذا الإقليم يضم مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وهما أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض . وأضاف السلطان سليم الأول وخلفاؤه إلى ألقابهم لقباً دينياً جديداً استهوى أفئدتهم ، كما ذكرنا من قبل ، وهو « حامى الحرمين الشريفين ». وضمت الدولة العثمانية أيضاً المسجد الأقصى فى بيت المقدس وهو ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبلتين ، إلى جانب مراكز الحضارة الإسلامية فى القاهرة ودمشق وحلب وغيرها . وكان من نتائج هذه الانتصارات العسكرية والدينية التى تمت على يد سليم الأول أن ازداد عدد رعايا الدولة المسلمين زيادة جارفة ، وبرز فى الدولة الطابع الإسلامى بروزاً واضحاً قوياً . وكانت لكل هذه الإنجازات نتائجها الهامة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد سبقت طبقة القولار الحاكمة بمراحل من حيث علو شأنها واتساع نفوذها وازدياد هيبتها . وما حدث لها على عهد السلطان سليم الأول تكرر على عهد ابنه السلطان سليمان المشرع الذى فتح عدة جبهات حربية وانساح الجيش العثمانى فى بلاد المجر وجاب الأسطول العثمانى حوض البحر المتوسط يقضى على بعض الجيوب الصليبية ، ويبسط السيادة العثمانية على شمالى إفريقية ما عدا مراكش ، ويفتح جبهة ثالثة فى الشرق الإسلامى ضد فارس وفى العراق . وقد تميز هذا السلطان بجوانب حضارية متعددة تمثلت فى التشريعات التى وضعها على هدى من مبادئ

الشريعة الإسلامية؛ وظل معمولا بها فى معظم ولايات الدولة حتى أواخر القرن التاسع عشر، كما تمثلت فى المنشآت الدينية المعمارية التى أقامها . وكان أهمها مسجد السليمانية والعديد من المساجد الكبرى والصغرى بالإضافة إلى معاهد تحفيظ القرآن والمدارس وتجديد بناء الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة وتجديد أسوار بيت المقدس . وكان اهتمامه بالنواحى الدينية بارزاً. وانعكس على وضع الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فازدادت مصادرها المالية نماء وتعاظم نفوذها .

وكان هناك النوع الثالث والأخير الذى يتمثل فى سلاطين ذوى ميول سلمية وتميزت عهودهم بهدوء نسبي . وينطبق هذا الحكم على الغالبية الساحقة من سلاطين الفترة الثانية . وإذا كانت الدولة على عهودهم قد خاضت حروباً خارجية، وهم لم يتولوا قيادتها فى معظم الأحوال لأنهم آثروا السلامة والعزلة ، فإن هذه الحروب كان معظمها حروباً دفاعية استهدفت الحفاظ على تماسك الدولة وسلامة ممتلكاتها . وقد استمر مركز الهيئة الدينية الإسلامية على عهودهم قوياً منيعاً لم يهتز ولم يمسسه وهن من قريب أو من بعيد .

ويمكن القول بوجه عام إن نفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان يتصاعد باطراد فى كل العهود . وكان الفارق بين عهد وعهد يكمن فقط فى مدى السرعة التى يتزايد بها هذا النفوذ . أما طبقة القولار الحاكمة فكانت تتزايد سلطتها وقيمتها فى نظر العالم الخارجى المعاصر ما بقيت عجلة الفتوح الحربية تسير بسرعة مذهلة . فلما توقفت الفتوح، ذهب البريق الذى كان يحيط بها .

أما النمو السريع لنفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فيمكن إرجاعه إلى عدة عوامل تجمعت على مر السنين . كانت لها موارد مالية ضخمة تمثلت فى الأراضى الزراعية والعقارات وغيرها من الأوقاف الخيرية. وقد تكدست هذه المصادر فى أيدى الهيئة ولم تفقد منها شيئاً . وكان السلاطين أنفسهم شديدى الاهتمام برصد الأموال العامة والخاصة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة سواء كان الدافع لهم هو التقوى والرغبة فى التقرب إلى الله ، أو نيل مزيد

من مظاهر العظمة والتباهى ابتغاء اكتساب محبة الجماهير وتقديرها . وفى ذات الوقت تنافس الأثرياء من أهل البذل على إنشاء المساجد والكليات والمدارس والحمامات العامة والأسبلة والتكايا وغيرها ، ويوقفون عليهـا الأوقاف الخيرية للإنفاق من إيراداتها على هذه المرافق الدينية . ومن هذه العوامل أيضاً احتكار الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة التعليم العقلى بعيداً عن ميدان التعليم العسكرى . فكان فى يدها سلاح أدبى رهيب تغزو به عقول الناشئة . وكانت كل مدرسة جديدة وكل كلية شريعة تنشأ حديثاً مما يقوى أثر الهيئة الدينية الإسلامية ونفوذها فى مجال تربية العقول . وكان كبار « الخوجات » يقومون بالتدريس لطوائف الغلمان فى القصور السلطانية ويسدون النصائح إلى والدة السلطان ، وإلى زوجاته ، ويتولون تعليم أبنائه .

تأثير كل من الهيئتين فى الأخرى :

كانت الهيئتان : طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تؤديان رسالتيها وتحققان أهدافهما المرسومة لها ، وتعتمد عليها الدولة فى مسيرتها سواء فى مرحلة التوسع الإقليمى هجوماً على أعدائها أو فى مرحلة الجمود الحربى دفاعاً عن أقاليمها . وكان لا مناص من أن تؤثر كل هيئة فى الأخرى ، لأنهما الهيئتان الرئيسيتان فى نظم الدولة ، وكانتا تشكلان معا العمود الفقرى فيها .

جاء تأثير طبقة القولار الحاكمة فى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عن طريقين : الحرب ، وارتقاء أفرادها مناصب الحكم والإدارة من أدناها إلى أعلاها . فساندت وجود الهيئة الإسلامية ودافعت عن بقائها وقيامها ووجودها raison d'être وكانت هى الوسيلة أو الأداة فى تنفيذ قرارات هذه الهيئة وأحكامها القضائية ، والحفاظ على الشريعة الإسلامية عملياً وعدم المساس بالمصادر المالية للهيئة الإسلامية مما كفل السيولة النقدية تصل فى نظام رتيب إلى العلماء والقضاة ورجال الإفتاء ومن إليهم ، واستطاعوا المحافظة على مستوى معيشة محترم . وانصرفوا يكرسون جهودهم وأوقاتهم إلى أداء المهام المنوطة بهم فى شتى مجالات الشريعة الإسلامية وأصول الدين نظرياً وتطبيقياً .

وأثرت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فى طبقة العبيد – القولار – إذ طبعت الهيئة الأخيرة بطابع المحافظة على القديم الذى وصل فى بعض الأحايين إلى الجمود . ومن المعروف أن المحافظة على القديم ومقاومة كل جديد كانتا من خصائص الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد قام العلماء والمفتون ومن إليهم من أفراد هذه الهيئة الدينية الإسلامية بالتدريس للأمراء وغلمان القصور وغيرهم من ناحية ، أو بإصدار الفتاوى لرجال الحكم سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومات الولايات من ناحية أخرى . وبذلك تناولوا الجانب التعليمي والتثقيفى فى تنشئة فريق من أفراد الهيئة الحاكمة وفى التوجيه السياسى والدينى لرجال الحكم المركزى والحكم المحلى فى المسائل التى يطلب من رجال الهيئة الدينية الإسلامية إصدار الرأى فيها أو ما يسمى الفتاوى . ولذلك ينسب المؤرخون الجمود الذى أصاب نظم الدولة وأجهزتها إلى تأثير رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة،وهو حكم لا يصور الحقيقة من جميع جوانبها . فالأتراك العثمانيون كشعب اشتهروا بالمحافظة على القديم والاستمساك بالتقاليد والعرف والعادات لايبغون عن كل أولئك بديلا . فهم يتحملون نصيبهم غير منقوص من مسئولية الجمود الذى ران على أنظمة الدولة وأجهزتها فى وقت كان العالم فى أوروبا الغربية بوجه خاص يطور حياته ويحور نظمه فى الحكم والإدارة والعسكرية وغير ذلك تحويراً يواكب سنة التطور ويتمشى مع إدخال العلوم الحديثة فى شتى مجالات الحياة. ومن المعروف أن الموقف الثابت المتجمد الذى تلتزم به دولة ما،هو الخطوة الأولى التى تؤدى بهذه الدولة إلى طريق الاضمحلال .



الفصل السابع عشر

مراكـز القـوى فى الدولة (١)
فيـالق الانكشـارية

بجانب الهيئتين الحاكمتين - طبقة القولار والهيئة الدينية الإسلامية - وجدت فى الدولة مراكز قوى كان لها نفوذ واسع وخطير فى دوائر الحكومة ، ووجهت شئون الدولة ، سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية ، الوجهة التى كانت تبتغيها . وكان من بين هذه المراكز : الفيالق الإنكشارية فى الجيش ، الحريم السلطانى ، العبيد الخصيان ورؤساؤهم .

الفيالق الإنكشارية :

نشأت الدولة العثمانية فى أول أمرها إمارة غزاة . فكان الغزو العسكرى هو شغلها الشاغل ابتغاء التوسع الإقليمي المرحلى . وقد سبق أن ذكرنا أن الطابع العسكرى الصارم كان الخصيصة الأولى من خصائص الدولة العثمانية(١) . ولم تظفر هيئة فى الدولة بمثل الاهتمام العميق الذى ظفر به الجيش العثمانى بوجه خاص . فقد كانت الدولة تنظر إلى الجيش على أنه أداتها فى الفتوحات الحربية ، ووسيلتها فى حكم الأقاليم التى استولت عليها ، ودرعها فى الدفاع عن ممتلكاتها .

ولن نخوض فى هذه الدراسة فى ذكر الفرق العسكرية التى كان يتألف منها الجيش العثمانى فى نشأته ، أو الفرق المستحدثة التى أدخلت عليه تباعاً . ولن نتعرض لتنظيمات الجيش وقياداته والمدارس العسكرية وما إلى ذلك من موضوعات تتصل بالجيش عامة . وسيكون بحثنا فى هذه الدراسة مقصوراً

(١) انظر فى هذه الدراسة ص ص ٤٩ - ٥٣ .

على الفيالق الإنكشارية مع إشارة سريعة فى الحواشى يقتضيها منهاج البحث إلى بعض الفرق العسكرية التى كان لها اتصال مباشر بالفيالق الإنكشارية مثل فرقة البلطةجيه ، وفرقة البوستانجية ، وفرقة الجبه جيه .

كان الإنكشارية — وهم طائفة عسكرية من البيادة(١) — أى المشاة — يشكلون تنظيماً خاصاً بهم ، لهم ثكناتهم وشاراتهم ودراساتهم وامتيازاتهم . وكانوا أعز فرق الجيش نفراً ، وأقواها جنداً ، وأكثرها نفوذاً .وأفسحت الدولة لهم الطريق كي يقفزوا إلى أعلى الرتب العسكرية ويتقلدوا أخطر المناصب القيادية ، العسكرية والمدنية على حد سواء ، وإذا كانت الدولة قد استفادت منهم فى ساحات القتال فى عصرها الذهبى ، فقد أضيرت منهم فى العصور التالية ، إذ نزعوا إلى حركات العصيان العسكرى لتحقيق مطالب لهم حيناً ، وللتدخل فى السياسة العليا للدولة أحيانا متجاوزين اختصاصاتهم كمحاربين محترفين . واستراحوا لسلاح التمرد يشهرونه فى وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم من كبار رجال الدولة،فيعزلون ويقتلون هؤلاء وأولئك . والأمر العجاب أنه لما دب الوهن إلى صفوفهم ، وفقدوا الكثير من كفايتهم القتالية ازدادوا شعوراً بقوتهم وأمعنوا فى طغيانهم بحيث غدوا مركز قوة خطير فى الدولة وشجعهم على ذلك ضعف السلاطين والصدور العظام .

ضريبة الغلمان :

أشرنا من قبل فى هـــذه الدراسة إلى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على أبناء رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القـــائمة فى إستانبول ، وتحولهم إلى الإسلام ، وتجرى لهم جراحة الختـــان La Circoncision ، وتنظم لهم دراسات دينية وعامية — مدنية وعسكرية — لتتخذ منهم فى نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم فى خدمة الدولة(٢) . ويطلق على هذه الضريبة الآدمية المصطلح التاريخى

---

(١) البيادة كلمة فارسية معناها « على الأقدام » وتقابلها فى اللغة التركية « اليايا » بنفس المعنى .

(٢) انظر فى هذه الدراسة ص ص ١٢٠ — ١٢٣ .

ديو شيرمة Deuchermé ويترجمها المؤرخون والباحثون فى أوروبا وأمريكا The Tribute Boys أو The Tribute Children
أى ضريبة الغلمان ، وقلنا إن الدولة كانت تقسمهم إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى وتعد أفرادها لشغل وظائف الغلمان فى القصور السلطانية ، والمجموعة الثانية تعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة ، والمجموعة الثالثة لتشكل من أفرادها فرق مشاة فى الجيش العثمانى . ويطلق على أفراد هذه المجموعة الثالثة الإنكشارية(١) ومعناها الجنود الجدد وكان عددهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين .

نشأة ضريبة الغلمان :

كان صاحب الفكرة فى فرض ضريبة الغلمان المسيحيين الأرثوذكس

---

(١) كان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة يرى أن الباحثين العرب يقعون فى خطأ لغوى واضح حين يطلقون على هؤلاء الجنود المشاة إسم الإنكشارية ،ويرى أن الدقة فى الصياغة اللفظية تتطلب استخدام اللفظ التركى وهو اليڤى شرية ، وترد فى بعض المراجع ينى تشرى . واستند فى رأيه إلى أن الفرنسيين استخدموا فى لغتهم اللفظة التركية ، فأصبح مدلولها الفرنسى Les Janissaires .

والواقع أن شكل كتابة هذه الكلمة قد ساعد على تحريفها . فهى تكتب « يكنجرى » وتنطق « ينى تشرى » لأن حرف الكاف فى اللغة التركية القديمة كان ينطق نوناً ، وحرف الجيم ينطق تاء وشيناً . وهذا المصطلح التاريخى مكون من مقطعين : الأول يكنى — ومعناه جديد أو حديث . والثانى — جرى — ومعناه جندى ، فيكون المعنى : الجند الجديد أو العسكر الجديد .

ونحن — مع احترامنا لرأى أستاذنا الدكتور زيادة ومع تقديرنا العميق لأستاذيته الشامخة — نرى أن اللفظة التركية الأصلية وهى ينى تشرى Yéni Tchéri ، واللفظة المعربة أو اللفظة التى تستخدم فى الكتب العربية وهى الإنكشارية قريبتان بعضهما من بعض بحيث لا يستحق الأمر مثل هذا التغيير الشكلى الذى قد يؤدى إلى بلبلة الأفكار حول مدلول ينى تشرى ، أو اليڤى شرية .

انظر :

الحاشية التى كتبها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة مقرونة برقم ١ ص ٤٤٥ فى ترجمته إلى اللغة العربية لكتاب فيشر Fisher H. A. القسم الثانى : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . الناشر : دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٤ .

هو هابيل الأسود (١) Black Habil وزير السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦ ـ١٣٦٠)(٢)، فهو الذى حبّب إلى هذا السلطان الفكرة وزينها له فى قلبه ، فأخذ بها أورخان . وكانت هذه الضريبة الآدمية عوناً كبيراً للدولة الناشئة على إيجاد مورد آدمى لاينضب معينه لتجنيد فرق عسكرية كاملة من المشاة يضعون عقولهم وأجسامهم وخبراتهم فى خدمة السلطان فى ميادين القتال ابتغاء احراز انتصارات عسكرية تحقق بها الدولة مزيداً من التوسع الإقليمى سواء فى أوروبا أو فى آسيا فى ذلك الوقت ، ثم فى إفريقية منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد وضع السلطان أورخان قانوناً خاصاً بالإنكشارية جاء فى أربع عشرة مادة تضمنت النظام الداخلى لهم ، وتنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان (٣) .

وكانت الحكومة المركزية تقوم بترحيل الغلمان الذين لا يتحدثون اللغة التركية إلى الأناضول حيث يوضعون فى خدمة السباهية ـ الخيالة الإقطاعيين ـ فترة قد تطول وقد تقصر ، ثم ينقلون إلى إستانبول حيث يعاد اختبارهم وفرزهم ، ويلحقون بفرقة البلطة جيه (٤) أو فرقة

---

(١) Fisher H.A.L., A History of Europe. op. cit., p. 402.

(٢) يقرر بعض المؤرخين أن حكم أورخان امتد فقط إلى سنة ١٣٥٩ .

(٣) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٤) البلطه جيه جمع بلطجى ، وهى مشتقة من كلمة بلطة ، وهى كلمة عربية وتركية بمعنى الفأس الذى يستخدم فى قطع سيقان الأشجار وفروعها والأخشاب بصفة عامة . أما معناها كمصطلح تاريخى فهو فرقة عسكرية فى الجيش العثمانى تسمى « بلطجى أوجاق » أى فرقة البلطجية أو فرقة قاطعى الأخشاب . وقد أنشئت قبل فتح القسطنطينية واستخدم أفرادها فى قطع الأشجار وتجفيف المستنقعات وتمهيد الطريق أمام الجيش الزاحف ، ثم تحولوا بعد فتح القسطنطينية إلى حرس للحريم السلطانى . وكانت تضاف إلى علمهم الجديد أعمالهم الأولى حين يذهب السلطان إلى الحرب . وقسمت هذه الفرقة إلى قسمين. كان مقر أحدهما القصر القديم ، ومقر الآخر القصر الجديد . وكان أغا الخصيان يقود القسم الأول . أما القسم الثانى فكان يقوده السلحدار أغا ، أى الضابط حامل السيف . وكان يطلق على رجاله هذه العبارة : « زولوفلو بلطه جيلر » ومعناها قاطعو الأخشاب ذوو السوالف ، لأنهم كانوا يضعون ذؤابة من الشعر على جانبى وجوههم . (زولوفلو كلمة فارسية من زولف Zolf ومعناها خصلة من الشعر تتدلى إلى أسفل) .

—

البوستانجية ، أو فرقة الجبه جيه (١) ، أو السلاح البحرى فى إستانبول

= أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit, Vol., 1. Part 1, p. 86.

وكلمة بلطجى شائعة الاستعمال فى الوقت الحاضر فى مصر وفى معظم الدول العربية وتعنى الشخص المنحرف ذا القوة العضلية الذى لا يكترث بالخروج على القانون فى سبيل تحقيق أغراضه . ويدانيها فى المعنى لفظة أخرى شائعة هى الزلنطحى . ويضاف إلى المعانى السابقة معنى آخر هو أن الزلنطحى يلجأ إلى استخدام عضلاته فى ضرب الآخرين فى سبيل حل مشكلاته .

(١) البوستانجية كلمة تركية مقتبسة من اللفظة العربية بستان . وأطلقت على أفراد فرقة عسكرية «تسمى بوستانجية أوجاق»أى فرقة البستانيين . وكان يقودها ضابط يطلق عليه«بوستانجى باشى » . وكان أحد أغوات الركاب ، أى ضباط الركاب السلطانى . وقد تكونت هذه الفرقة أول الأمر بهدف تنسيق حدائق القصر السلطانى وتحويل الأرض الخلاء المجاورة للقصر إلى حدائق ذات بهجة وإلى مزارع خضراء مع استمرار العناية بها . ولم يقم بهذا العمل إلا عدد قليل من أفراد هذا الأوجاق واشتغل معظمهم حراساً على المبانى الملحقة بالقصر والمبعثرة بجوار أراضيه ، وعلى بعض بوابات أسوار القصر ، وعلى المرافىء الصغيرة الواقعة حول القرن الذهبى والبوسفور وجزء من بحر مرمرة . كما كان لهم الإشراف على السفن التى كانت ترسو فى تلك المرافىء ، وكانوا يعملون أيضاً بمثابة شرطة محلية . وهكذا كانت اختصاصات الغالبية العظمى من أفراد أوجاق البوستانجية بعيدة كل البعد عن العناية بالبساتين .

وكانت اختصاصاتهم الرئيسية تتركز فى إجراءات أمن تختص بشخص السلطان وحراسة بعض المنشآت التابعة للقصر والمجاورة له ، ومراقبة السفن التى ترسو فى مرافىء قريبة من منطقة القصر ويكون فى استطاعة هذه السفن إلحاق الضرر بمبانى القصر . وقد بلغ عدد أفراد هذا الأوجاق ألفين وخمسائة جندى، كان كل فرد منهم يضع فوق رأسه قلنسوة حمراء تميزه عن أفراد الفرق العسكرية الأخرى . وكان يتألف أوجاق البوستانجية من عدة وحدات تكاد تكون كل وحدة منفصلة عن غيرها داخل الأوجاق . فكانت هناك وحدة الخاصكية ،عدد أفرادها ثلاثمائة من ضباط الصف Sous officiers يقودهم«خاصكى باشى» أو خاصكى أغا . وكان هذا الضابط يلى فى الرتبة رئيس أوجاق البوستانجية . وكان يساعده بعض كبار ضباط الأوجاق . ويشترك ستون من قوة الخاصكية فى حراسة السلطان الخاصة ، كما يرافق اثنا عشر من الخاصكية السلطان فى جميع تنقلاته وتحركاته بصفتهم مخبرين ، ويطلق عليهم « تبديل خاصكية » ويرأسهم ضابط يسمى«باشى تبديل»أى رئيس المخبرين . وكانت وحدة الخاصكية تختلف من حيث طبيعتها عن الوحدات الأخرى فى أوجاق البوستانجية وتفوقها . ومن الوحدات الهامة فى هذا الأوجاق أيضاً : الصندلجية — أى المراكبية (الصندلجية جمع صندلجى ، وهو الرجل الذى يعمل على صندل ، والصندل سفينة تجديف من الطراز الأوروبى) ، وكان الصندلجية يقومون بالتجديف فى « دهبية » السلطان ، فى حين يمسك رئيس أوجاق البوستانجية بالدفة . ولم يكن الصندلجية =

وغاليبولى (١) . ولكن كان مصير معظمهم الانخراط فى سلك الفيالق الإنكشارية .

وجدير بالذكر أن هذه الفيالق لم يكن جميع أفرادها من حصيلة ضريبة الغلمان فقط كما يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، بل كانت تضم بين صفوفها مجموعات صغيرة العدد من أولاد أسروا فى الحرب أو اشتروا بالمال (٢) .

= يقومون بالتجديف فى سفن السلطان فحسب ، بل كانوا يجدفون أيضاً فى مراكب كبار ضباط القصر السلطانى . وكانت هناك وحدة تسمى « البامية جيه » نسبة إلى خضار البامية لأنهم كانوا يقومون بتدريباتهم العسكرية قرب آماسية فى منطقة كانت تزرع فيها البامية بكثرة . وكانت هذه الوحدة تقوم بحراسة قصر سنان باشا الملحق بالقصر السلطانى . وكانت هناك وحدة أخرى تسمى « الطوب قابى » أى بوابة المدفع ويعهد إليها بمنع الأشخاص غير المرغوب فيهم من دخول فناء القصر بالرسو من ناحية البحر . هذا إلى عدد كبير جداً من الوحدات العسكرية تابعة لهذا الأوجاق . وكان البوستانجى باشى يتمتع فى القصر بنفوذ واسع لم يظفر به أحد من زملائه ضباط الركاب السلطانى . وكان مرد هذا النفوذ إلى سببين : أولهما أنه كان يرأس أكثر من ألفى رجل يقومون بأعمال شتى ومتشعبة وحساسة تحت إشرافه ، وثانيهما أن التحقيقات مع الموظفين المدنيين كانت تتم تحت إشرافه ، وكان يشرف على إجراءات تنفيذ أحكام الإعدام التى كانت تصدر على من تثبت إدانته منهم .

انظر كلا من :

D' Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., V.Vll, pp 27.—30L ybyer A.H., op. cit., p. 131, fn. 2.

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol 1. Part 1. pp. 350–352.

أما الجبه جيه فهم صانعو الأسلحة (جبه معناها درع) ، وكان من اختصاص هذا الأوجاق إنتاج وإصلاح الأسلحة والذخائر للجنود المشاة . وكان من واجبات هذا الأوجاق حراسة وسائل نقل الجيش والمخازن فى أثناء الحرب . وكان السلطان محمد الثانى هو أول من أنشأ هذا الأوجاق . وكان تعداده أول الأمر ستمائة جندى تحت إمرة ضابط يطلق عليه « جبه جى باشى » .

(١) كانت غاليبولى قاعدة البحرية العثمانية ، ثم اتخذت الحكومة فى سنة ١٥١٦ من إستانبول مقراً للبحرية الرئيسية ، وأنشأت مصانع بحرية جديدة فى بقعة تسمى قاسم باشا من ضاحية جالاطه على القرن الذهبى ، وتعرف منذ ذلك الوقت باسم « ترسانه بوغازى » أى بوغاز دار الصناعات البحرية ، أو بوغاز البحرية .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part 1, pp. 59-60.

مواعيد جمع الغلمان :

اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول تحديد مواعيد جمع الغلمان ، فيقرر بعضهم أنهم كانوا يجمعون مرة واحدة كل أربع سنوات . ويقول البعض الآخر إن هذه الفترة لم تكن ثابتة . فى بعض الأحيان كانت عملية جمع الأبناء المسيحيين تحدث مرة كل خمس سنوات (١) ، وفى أحيان أخرى كانت هذه العملية تتم مرة كل سبعة أعوام (٢) . بينما يذكر المستشرق الألمانى بروكلمان أن هذه الضريبة الآدمية كانت تجمع أول الأمر كل خمس سنوات ثم أصبحت تجمع سنوياً (٣) . والشق الأخير من هذا الرأى أدنى إلى الحقيقة ، إذ كانت الدولة فى معظم الأوقات فى صراع حربى عنيف ضد بعض الدول الأوروبية. وقد اتخذ هذا الصراع طابع التكتلات المسيحية والحروب الصليبية . وكانت الحرب تهدأ فى جبهة لتشتعل أعنف ما تكون فى جبهات أخرى مما جعل الدولة العثمانية فى حاجة مستمرة إلى تعزيز الجيش تخوض به المعارك فى أوروبا فضلا عن الجبهات التى فتحتها فى آسيا لمحاربة الدولة الصفوية ، ثم فتح بلاد الشام والعراق واليمن وغيرها ، أو فى إفريقية : فى مصر وشمالى إفريقية انبثاقاً من سياستها العليا فى التوسع الإقليمى المرحلى .

رعايا الدولة الذين طبقت عليهم ضريبة الغلمان :

كان فرض ضريبة الغلمان مقصوراً — كما سبق أن ذكرنا — على رعايا الدولة المسيحيين الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ولذلك أعفى منها اليهود وكذلك الأرمن الكاثوليك بحكم القانون . أما الأرمن الأرثوذكس وهم الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، فقد طبقت عليهم ضريبة الغلمان . كما أعفى من هذه الضريبة الآدمية سكان بعض المدن الكبرى مثل : إستانبول وأثينا وجزيرة رودس وبعض جزر أخرى . وفيما عدا ذلك طبقتها

---

(١) Lavisse et Rambaud ; op. cit., Vol IV, p. 857.

سير أرنولد توماس (سير) : الدعوة إلى الاسلام . تعريب دكتور حسن ابراهيم وزميليه . ص ١٧٥ حاشية رقم ٢ .

(٢) انظر كلا من : Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 51—53.

D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., Vol VII. p. 310 ff.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ج ٣ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

الدولة تطبيقاً صارماً فى شبه جزيرة البلقان والمجر والساحل الغربى لآسيا الصغرى والسواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأسود . ولكن كان أقوى المجندين وأقدرهم على الخدمة يجلبون من المناطق الجبلية التى تقطنها الطوائف المسيحية فى ألبانيا والجبل الأسود والشعوب السلافية أى الصقالبة فى جنوبى أوروبا(١) . وبعبارة أخرى شملت ضريبة الغلمان اليونانيين والصرب والبلغار وسكان كرواتيا وأهل المجر والألبانيين والأرمن الأرثوذكس وغيرهم .

معيشة الإنكشارية :

كانت الدولة تحرص حرصاً بالغاً على منع اتصال الإنكشارية بأقربائهم . وتفرض عليهم فى وقت السلم أن يعيشوا كلية فى الثكنات (٢) . وخصصت الدولة للإنكشارية الذين يرابطون فى إستانبول ثكنتين ، كانت تسمى الثكنة الأولى«آسكي أوطه لر»أى الفرقة القديمة . وتسمى الثكنة الثانية «ينى أوطه لر» أى الفرقة الجديدة أو الحديثة . ولم تكن هاتان الثكنتان تحتويان فقط على أماكن النوم لضباط وجنود الإنكشارية ، بل كانتا تضمان مطابخ ومخازن(٣) للأسلحة والذخائر وكافة الحاجيات المدنية لهم .

وخصصت الدولة لكل أورطة (٤) من الإنكشارية شارة توضع على أبواب ثكنتها وعلى أعلامها وعلى خيامها التى كانت تقام فى ساحة القتال . وكانت خياماً مستديرة واسعة . وكانت هذه الشارات إما سمكة،وإما مفتاحاً، وإما خطافاً «هلباً» ، وإما هراءة ذات طرف مدبب . وجرت عادة الإنكشارية على نقش الشارة المميزة لهم على أذرعهم وسيقانهم مستخدمين طريقة الوشم(٥). وكانت ترقيات الإنكشارية تتم طبقاً لقواعد الأقدمية . وكانت الدولة تسرح

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 34, pp. 51—52.

(٢) كانت الثكنة تسمى أوطة أى غرفة . وتسمى فى اللغة التركية القديمة أوتاغ .

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold;op. cit.,Vol.I Part,I,p.62.

(٤) الأورطة وحدة حربية يتفاوت عدد أفرادها تبعاً للظروف ، فكان يتراوح عددهم بين مائة جندى وخمسمائة جندى وثلاثة الآف جندى .

(٥) كان الإنكشارية يغرزون رسم الشارة على أجسامهم بإبرة ، ثم يصبون على هذا الرسم مادة معينة تسمى النيليج . فيأخذ رسم الشارة لوناً أخضر ثابتاً لا يمحوه كر الزمان .

الذين يتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم عن العمل . وفى كلتا الحالتين كانت الدولة تقرر لهم معاشاً ، ويعرفون باسم«أونوراق». وقد خصت الدولة الطوائف الإنكشارية بعدة امتيازات (١) ، منها : منحهم حصانة تمنع القبض عليهم أو قيام السلطات المدنية بتوقيع العقوبات عليهم . وكان ضباط الإنكشارية دون سواهم يقومون بتنفيذ العقوبات التى يحكم بها عليهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والإعدام . وكانت عقوبة الخصاء توقع على الإنكشارى إذا اعتاد الإجرام أو تعددت حوادث خروجه على قواعد الانضباط العسكرى . فيأمر « ينى شريه أغاسى » ، أى رئيس الإنكشارية ، بإجراء عملية الخصاء الجزئى أو عملية الخصاء الكلى له . ويفقد الإنكشارى رجولته ويلحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى . وسنعرض لهذا الموضوع فى الفصل الثانى والعشرين . أما الإعدام فكان ينفذ سراً فى ظلمة الليل فى روملى حصار . وكانت تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية — أى المدفعية — بإطلاق طلقة واحدة من مدفع إيذاناً بتنفيذ الحكم . فإذا تم التنفيذ رميت جثة الإنكشارى بعد أن تشد إلى القدمين جلة من الحديد . وكان الإنكشارية يتقاضون مرتبات من خزانة السلطان . ولهذا السبب الأخير كان يطلق عليهم « قبوقوللرى »(٢)،وهو اسم عام كان تندرج تحته القوات العسكرية التى تتقاضى مرتبات تمييزاً لها عن القوات الإقطاعية Feudal Forces التى كانت الدولة تعطى أفرادها أراض زراعية يقومون باستغلالها فى مقابل اشتراكهم فى حروب الدوله دون أن تدفع لهم مرتبات .

تحريم الزواج على الإنكشارية ونتائجه :

وكان يحرم على الإنكشارية الزواج . فكان الفرد منهم يعيش دون أمل فى أن تكون له زوجة أو بنون أو بنات أو حفدة . فالإسلام عقيدته ، والقرآن الكريم كتابه المقدس ، والسلطان العثمانى والده ، والثكنة العسكرية مأواه ،

(١) Lavisse et Rambaud ; op. cit., Tome IV, pp. 759-760.

(٢) قبو أو قابى لفظة تركية معناها باب أو بوابة . قول بمعنى عبد . وهذا المصطلح له عدة مدلولات ، منها : كل شخص فى وضع العبيد يقوم على خدمة السلطان .

والحرب مهنته ، والفوز بإحدى الحسنيين مأربه . وكان الإنكشارى ينظر إلى أعداء الدولة على أنهم أعداء الله ، وليس أمامه إلا أن يمضى فى قتالهم ، فإما أن ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، وإما أن يفوز بالجنة إذا استشهد فى الحرب . ولذلك كان يخوض المعارك بروح دينية إسلامية عالية ، ملؤها حماس متأجج وتعصب ركيز (١) . وكما حرم السلاطين على الإنكشارية الزواج حرموا عليهم أيضاً تحريماً تاماً الاشتغال فى التجارة أو الصناعة خشية أن تخبو عسكريتهم الصارمة وأن يتحولوا إلى أهل حرف (٢) . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا أول جيش ثابت نظامى عرفته أوروبا منذ العصور الرومانية (٣) .

العلاقات الوطيدة بين الإنكشارية والطريقة البكتاشية :

يردد فريق من المؤرخين والباحثين رواية تقول إن السلطان أورخان قد حصل على موافقة حاجى بكتاشى — الحاج بكتاشى — شيخ الطريقة الصوفية البكتاشية على مشروعه ، وهو جمع الغلمان المسيحيين ثم تحويلهم إلى الإسلام وإعداد دراسات عقلية وتدريبات عسكرية تجعل منهم فى نهاية المطاف رجال حرب أو حكم يتولون المناصب القيادية فى الجيش أو فى القصور السلطانية أو فى سائر أجهزة الحكم والإدارة . وقال هذا الفريق من المؤرخين والباحثين للتدليل على صحة تلك الرواية أن الحاج بكتاشى قد بارك الرواد الأوائل من الإنكشارية بوضع كم ردائه فوق رءوسهم . وبسبب هذه المباركة وقع اختيارهم على غطاء غريب الشكل لرءوسهم ، كان عبارة عن قلنسوة من الصوف الأبيض تتدلى من خلفها قطعة طويلة من القماش أسطوانية الشكل هى رمز للبركة التى منحها الحاج بكتاشى لهم . وفى الصور التى رسمت لغطاء رءوس الإنكشارية يظهر هذا الغطاء واضحاً .

---

(١) Fisher H.A.L. ; op. cit., p. 402.

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part. I., p. 64.

(٣) Grant A. J.; A History of Eorope 1494—1610., being Vol. V. of " Methuen's History of Medievaland Modern Eorope ". Eleventh edition, 1967., p. 212.

وهناك فريق آخر من المؤرخين والباحثين يتشككون فى صحة تلك الرواية بل ينفونها نفياً باتاً تأسيساً على أن الحاج بكتاشى كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أوجاق الإنكشارية بقرن من الزمان (١) . ولن نخوض فى دراسة مقارنة بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض ، لأنها خارجة عن نطاق البحث . ولكن الثابت تاريخياً — وهو ما يهمنا فى المقام الأول فى هذه الدراسة — أن الإنكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية ، ويظهرون نحو شيوخها طاعة تامة وصلت إلى حد الولاء العميق . ولذلك كان يطلق على الإنكشارية أحياناً « عسكرى بكتاشية »، أى الجنود البكتاشية ، وأحياناً ثانية « بكتاشية أوجاق » ، أى أوجاق البكتاشية . وأحياناً ثالثة « حاجى بكتاش أوغللرى » ، أى أبناء الحاج بكتاش (٢) . والواقع أن الأهمية السياسية التى اكتسبتها الطريقة البكتاشية إنما ترجع إلى ارتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة أئمة لهم (٣) .

وبمضى الأيام ازدادت العلاقات توثقاً بين فيالق الإنكشارية وشيوخ وأتباع الطريقة البكتاشية . ومن العوامل التى ساعدت على هذا الارتباط الوثيق بين الطائفتين كثرة عدد تكايا البكتاشية وانتشارها فى طول البلاد وعرضها . وكانت تطلق على شيخ كل تكية بكتاشية كلمة « بابا » ، وعلى الدرويش لفظة « مريد » ، وعلى الملتحق بالتكية لقب « منتسب » . وفى أواخر القرن السادس عشر ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩١ سمح لثمانية من البكتاشية أن يقيموا فى أحد عنابر فرقة إنكشارية كانت تسكن فى الثكنات الجديدة فى إستانبول وهى الفرقة التاسعة والتسعون . وكان رئيس هؤلاء

---

(١) Kopruluzade (Koprulo) Mehemed Fuad ; Les Origines du Bektachisme. Paris. 1926, p. 21.

(٢) Tschudi ; Encyc. of Islam. Art. Bektash.

(٣) عن علاقات الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية انظر :

Hasluck F.W.; Christianity and Islam under the Sultans. 2 vols. Oxford, 1929, pp. 483-493.

الدراويش يعتبر وكيلا لشيخ الطريقة البكتاشية. وكان هؤلاء البكتاشية يتناولون طعامهم فى هذا العنبر ، ويعكفون على الصلاة ، وتلاوة القرآن الكريم ، ويدعون الله أن ينصر القوات العثمانية المسلحة ، وأن يجعل الدولة العثمانية مهيبة منيعة من كل غزو تتعرض له (١). وكان هؤلاء الدراويش البكتاشية يسيرون فى المواكب الرسمية أمام أغا الإنكشارية مرتدين الملابس الخضراء ، وينادى رئيسهم بأعلى صوته : «كريم الله» أى «الله كريم» ، فيرد عليه بقية البكتاشية فى صوت واحد جهير «هو» أى أن الله سبحانه وتعالى موجود . ولهذا أطلق على هؤلاء الدراويش «هوكشان» Hu-kechan — ومعناها الصائحون بلفظة «هو» (٢) .

ومن دلائل التصاق الإنكشارية بالطريقة البكتاشية أن أتباع هذه الطريقة كانوا يقفون إلى جانب الإنكشارية فى أثناء حركات العصيان العسكرى التى كانت تقوم بها الفيالق الإنكشارية ضد السلطان والحكومة المركزية ، بل كانوا يشتركون فيها ، كما أن السلطان محمود الثانى حين عصف بالفيالق الإنكشارية أطاح أيضاً بالطريقة البكتاشية فأمر بإلغائها وإغلاق تكاياها ، كما سنوضح فى الفصل التاسع عشر .

مركز رئيس الإنكشارية :

كان رئيس الإنكشارية — ويطلق عليه أغا الإنكشارية أو المصطلح التركى ينى شرية أغاسى — من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية ، إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية رهيبة فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان . كما أنه بحكم منصبه كان يشغل وظيفتين أخريين ، فهو رئيس قوات الشرطة فى إستانبول ، وهو فى ذات الوقت عضو فى مجلس الدولة ، وإن كانت مثل هذه العضوية لا تعد وظيفة بالمعنى العام الذى

---

(١) Gibb Hamilton (Sir) and Bowen Harold ; op. cit. Vol. I Part 1, p. 65.
Part 2 p. 193.

(٢) D'Ohsson Ignatius Mouradgea, op. cit., t. IV, p. 673. et t. VII, P. 325.

يتبادر إلى الذهن . وكان رئيس الإنكشارية — بحكم منصبه كقائد لقوات الشرطة (١) — يعتبر مسئولا عن حفظ النظام وتوفير أسباب الأمن وحماية الأملاك فى معظم جهات العاصمة ، ولم يكن يخرج عن اختصاصه سوى القصر السلطانى والمنطقة المحيطة به . والضواحى الثلاث للعاصمة وهى: أيوب ، غلطة ، إشقودرة .

وطبقاً للبروتوكول العثمانى كان رئيس الإنكشارية فى درجة وزير ، فكان يتقدم على كل من تقل مرتبته عن مرتبة وزير ، وكان يتقدم أيضاً على جميع القادة العسكريين أياً كانوا فيما عدا أيام الأعياد ، فكانت الأسبقية عليه لقادة فرق السباهية وبولوكات السلحدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية .

وكان لرئيس الإنكشارية مقر خاص فى عاصمة الدولة ومكاتب فى الجهات التى تعمل الفرقة فيها . وكان يتبعه على الدوام ضابط أركان حرب يحمل القاقمة . ويتقدم هذا القائد فى ميدان القتال علم أبيض يعلوه ثلاثة أطواخ (٢) ، ثم يتبعه الإنكشارية وقد رفعوا أذيال ملابسهم وربطوها بأحزمتهم .

وكان السلطان يختار رئيس الإنكشارية من بين ضباط هذا السلاح . وظل هذا التقليد متبعاً حتى حكم السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠–١٥٦٦) فأراد أن يحد من جبروت أفراد هذا السلاح وطغيانهم وعصيانهم ، فأدخل تعديلا جوهرياً على نظام الاختيار تقرر بمقتضاه أن يتم اختيـــار رئيس الإنكشارية من بين كبار ضباط القصر السلطانى .

---

(١) يلاحظ أنه لم تكن توجد قوات شرطة مستقلة سواء فى العاصمة أو فى الولايات . وعلى ذلك فإن المهام التى يجب أن تكون من اختصاص قوات الشرطة كانت تقوم بها وقت السلم فرق من الإنكشارية . أما المنطقة التى تقع تحت إشراف الأغا فكانت تقوم فرق موضوعة فى العاصمة بهذه المهام . وفى وقت الحرب كانت هذه الفرق تتجه إلى ساحات القتال وتحل محلها قوات من العجمى أوغلان .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part I, p. 66.

(٢) سبق أن شرحنا مدلول هذا المصطلح . انظر ص ص ٣٦٤–٣٦٥ فى هذه الدراسة .

موقف العائلات المسيحية من ضريبة الغلمان :

لم ترحب معظم العائلات المسيحية بضريبة الغلمان ، بل عارضتها من حيث المبدأ ، ولجأ عدد من هذه الأسر إلى بعض الوسائل للتهرب من أداء هذه الضريبة البشرية . فعمدت إلى تزويج الأولاد الذين بلغوا الحلم كى تحول دون انتزاعهم من ذويهم . وكان القانون يمنع أخذ الأولاد المتزوجين . وإذا كانت الأسرة على حظ موفور من الثراء ، فإنها كانت تقدم رشوة لمندوب الحكومة المركزية المنوط به جمع الغلمان . وقد وجد هؤلاء المندوبون فى هذه الرشا وسيلة لجمع الثروات بطريق غير مشروع . ولكنه كان يحقق مصالح متبادلة بين المندوب الحكومى والأسرة المسيحية .

ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يقررون أن غالبية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم ، ونظروا إلى العملية كلها بجميع جزئياتها ومراحلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبئاً نفسياً ثقيلا . ويؤكدون هذا الرأى بقولهم إن العائلات المسلمة كانت تطلب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى مندوب الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية . وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصيلة ضريبة الغلمان على أنهم مسيحيون (١) . وبذلك تسرى ، فى غفلة من الحكومة ، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التى كانت تغدق إغداقاً على أبناء الأسر المسيحية (٢) . ويذكر بروكلمان المستشرق الألمانى فى هذا الصدد : « كان فى المستقبل اللامع الذى ينتظر الإنكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع أنه استثار حسد الأتراك (٣) أنفسهم ، فكانوا يسعون ، فى أحوال

---

(١) Christian parents had sometimes bought off then sons from conscription; Moslem, Jewish, and Gypsy youths had been substituted for Christian.

See

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part I, p. 180

(٢) Lybyer A.H.; op. cit., p. 54.

(٣) كان هذا المستشرق يقصد بلفظة الأتراك العثمانيين المسلمين الذين جاءوا إلى الحياة من آباء مسلمين أحرار .

كثيرة ، إلى دس أبنائهم فى صفوف الغلمان من النصارى » (١) . ولكن كانت الحكومة المركزية توقع عقوبات قاسية على مرتكبي حوادث الغش والتزوير والرشا حين تكتشفها ، كما أن هذه المساوىء - إذا مضت دون كشف أمرها - لم تقض على الكفاية القتالية للفيالق الإنكشارية (٢) .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن المعارضة الحقيقية لضريبة الغلمان كانت تكمن فى العائلات المسيحية التى كانت العاطفة الدينية تسيطر عليها سيطرة جياشة . فقد كرهت أمثال هذه العائلات أن يرتد أولادها عن المسيحية وأن يتحولوا إلى الإسلام مهما كان المستقبل أمام هؤلاء الغلمان زاهراً ومبشراً بمجد ورفعة وثراء . فالعاطفة الدينية عند هذه العائلات كانت من القوة بحيث تبخرت أمامها مغريات الحياة المادية . وجدير بالذكر أن المؤرخين والباحثين الأوروبيين وغير المسلمين عموماً والذين لا يزالون إلى اليوم يهاجمون ضريبة الغلمان فى الدولة العثمانية إنما تنبثق حملاتهم عليها من الدافع الدينى . كما أن الكراهية الشديدة التى كان ولا يزال يشعر بها الأوروبيون نحو الأتراك العثمانيين كان من بين بواعثها ضريبة الغلمان .

آراء المؤرخين فى ضريبة الغلمان :

اختلفت آراء المؤرخين والباحثين حول ضريبة الغلمان ، فبعضهم هاجمها هجوماً عنيفاً ، والبعض الآخر دافع عنها من حيث المبدأ . وقد أقام الفريق الأول من أولئك المؤرخين والباحثين معارضتهم على ركيزتين . كانت الركيزة الأولى العواطف الإنسانية ، فصوروا الآلام النفسية المبرحة التى كان يئن منها الوالدان وبخاصة الأم الثكلى عند انتزاع ولدها منها ، وكيف كانت تذرف الدموع غزيرة ، وصوروا هذه اللحظات بأنها أقسى اللحظات التى تمر بها أم فى حياتها . ووصفوا ضريبة الغلمان بأنها تمثل أبشع أنواع

---

(١) بروكلمان كارل . الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part I, p. 180.

الظلم والقسوة وافتقاد الرحمة من قلوب البشر ، وأنها اعتداء سافر على حرية الفرد وعلى حق الآباء على أبنائهم الصغار ، وقرروا أن هذه الضريبة تنتزع من الإنسان أعز ما يملك فى حياته ، إنها ضريبة الحكم الإنسانى يفرضها منتصر على قوم شاء سوء حظهم أن تلقى الحكومة المسيحية التى كانت تحكمهم هزيمة عسكرية على يد الأتراك العثمانيين ، ويدفع الشعب ثمن هذه الهزيمة فى صورة تتنافى مع الأخلاق والمبادئ الإنسانية . ويخلص أولئك الباحثون إلى أن الأتراك العثمانيين قد سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التى دانت لحكمهم . أما الركيزة الثانية التى أقام عليها خصوم ضريبة الغلمان اعتراضهم فكانت إكراه الغلمان على الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام . وقالوا إن هذا الإكراه يتنافى مع حرية الفرد فى اختيار عقيدته .

أما الفريق الآخر من المؤرخين والباحثين الذين دافعوا عن ضريبة الغلمان من حيث المبدأ فقد استندوا إلى أن الحروب التى خاضها الأتراك العثمانيون فى الأقاليم التى فتحوها قد نشرت الخراب والدمار فيها . واستهدف عدد كبير من العائلات المسيحية إلى خطر الهلاك جوعاً . وكان معظم الأطفال المسيحيين الذين أخذتهم الدولة العثمانية قد فقدوا آباءهم . ولولا أخذ الحكومة لهم لتعرضوا للهلاك أو الانحراف . كما أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت معروفة ومنتشرة . فلم تكن ضريبة الغلمان بالشئ الجديد على المجتمعات المسيحية الأوروبية فى تلك القرون . بل إن بعض الباحثين يذهبون فى هذا الصدد إلى القول بأن هذه العادة لم تكن إلا استمراراً لحالة مماثلة كانت قائمة فى ظل الدولة البيزنطية التى سقطت على يد الأتراك العثمانيين بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

أستاذ أمريكى يدافع عن ضريبة الغلمان :

يقول الأستاذ الأمريكى ليبير Lybyer تعليقاً على ضريبة الغلمان بمجموعاتها الثلاث إنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جرأة وأوسع نطاقاً مثل التجربة التى أقدم عليها العثمانيون ، فليس لهذه التجربة نظير سوى فى جمهورية أفلاطون من الناحية النظرية وفى دولتى المماليك

البحرية والشراكسة فى مصر من الناحية العملية ، ولكن لايلبث هذا الأستاذ الأمريكى أن يقيد أوجه الشبه ، فيقول إن نظام جمهورية أفلاطون يشترط أن تكون الفئة الحاكمة مقصورة على الأرستقراطية الهيلينية ، كما أن التجربة العثمانية عمرت أكثر مما عمرت تجربة المماليك بعد أن أزال العثمانيون دولة المماليك الشراكسة . ويمضى الأستاذ ليبير فى تعليقه على ضريبة الغلمان فيقول إن نظامها كان لا يعترف بالفروق الاجتماعية . فالدولة تجمع أبناء رعاياها المسيحيين من الريف ، والغالبية الساحقة منهم يعملون فى فلاحة الأرض ورعى الأغنام ، وفيهم الفقراء الذين لهم قدم راسخة فى محالفة الفقر ومزاملته حتى التصق بهم الفقر والتصقوا به ، وأصبحوا هم جزءاً لايتجزأ من حياة البؤس والفاقة والحرمان ، وإذا بأولاد هؤلاء المعذبين فى الأرض قد بلغوا بمضى الأيام أرقى المناصب : صدوراً عظاماً ، ووزراء ، وقادة عسكريين ، وحكاماً ، فى دولة إسلامية مترامية الأطراف فى القارات الثلاث التى كانت تشكل العالم القديم وقتذاك .

ويدلل الأستاذ الأمريكى على ديمقراطية النظام العثماني في ضريبة الغلمان بقوله إن شعب الولايات المتحدة الأمريكية قد يفخر بأن رجالا وصلوا إلى كرسى رياسة الجمهورية وكانوا في مستهل حياتهم يؤدون أعمالا متواضعة ومضنية فى الغابات المهجورة البعيدة عن العمران . ولكن أمثال هؤلاء الرجال قد بلغوا منصب رئيس الجمهورية بفضل مجهودهم ، وليس بفضل الترقى وفق نظام وضع بعناية ليدفع بهم إلى مدارج الرقى ، ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فيقول إن الكنيسة الكاثوليكية قد تفخر بأن بعض البابوات كانوا فى مطلع حياتهم فلاحين ، ولكن من الثابت أن اختيار الكنيسة لم يقع على أحد ينحدر من أسرة كانت تعتنق ديناً مخالفاً للمسيحية أو تدين بمذهب مخالف للمذهب الكاثوليكى . أما الدولة العثمانية فعلى النقيض من ذلك كله ، أخذت غلماناً كانوا ينتمون انتماء مباشراً إلى عائلات مسيحية . وقد حملت هذه العائلات أسماء مسيحية أجيالا وأعصراً وأدهاراً . وأخذت الدولة بأيدى أطفال هذه العائلات وفتحت أمامهم الأبواب على مصاريعها وجعلت من بعضهم جنوداً فى الجيش يصلون إلى أعلى المناصب العسكرية ، وجعلت من البعض

الآخر رجالا يشتغلون فى البلاط العثمانى ووزراء . ولم يحدث أن وجهت الدولة سؤالا إلى أحد من هؤلاء الأطفال تستفسر منه عن اسم والده أو الحرفة التى كان يزاولها أبوه ، بل كانت الدولة تقول له إن اختيارها قد وقع عليه ليكون جندياً باسلا فى جيش السلطان ، وإذا أثبت كفاية عسكرية فإنه سيبلغ أعلى الرتب العسكرية وأرقى المناصب القيادية فى القوات المسلحة . وتقول الدولة لطفل آخر وهو يتلقى تدريبه المدنى والعسكرى إنه سيعمل فى البلاط السلطانى . وإذا أظهر مقدرة فإنه سيكون والياً فى إحدى الولايات أو وزيراً أو صدراً أعظم . ويمثل هذا النظام - فى نظر الأستاذ الأمريكى - الديمقراطية بأجلى معانيها ، كما أنه ينطوى على إفساح الطريق أمام الكفايات فتتبوأ مكاناً علياً بعد أن كان مقدراً لها أن تعيش مغمورة وتقضى حيــاة يحف بها البؤس من يمين وشمال (١) .

تقييم ضريبة الغلمان :

إن تلك الآراء التى بسطها الفريقان المتعارضان من المؤرخين والباحثين ليست إلا آراء اجتهادية لا تعدو أن تكون تبريراً لموقفهم من ضريبة آدمية فرضتها الدولة على غلمان مسيحيين . ولكن هناك رأى واحد يمكن أن نسوقه هنا تفسيراً لهذه الضريبة يجّب جباً جميع الآراء التى سبق عرضها تأييداً أو اعتراضاً على ضريبة الغلمان . إن هذه الضريبة ليست إلا صورة من صور التجنيد العسكرى الذى تباشره الحكومات فى كافة الدول النامية والمتقدمة على حد سواء لسد حاجة القوات المسلحة من الرجال مع وجود عدة فروق هامة ، نذكر من بينها :

أولا : إن الشاب المجند ينتهى فترة التجنيد لمدة زمنية محددة ، وقد تطول وقد تقصر تبعاً للظروف السياسية والعسكرية التى تجتازها الدولة ،

---

(١) Lybyer A.H.; op. cit., pp. 45-47.

وللمعلومات أوفى انظر فى هذا المرجع الفصل الثانى بعنوان :

The Ottoman Ruling Instutution : as a Slave-Family, General Description. pp. 45-61.

بل إن بعض الدول كانت تستبقى الجندى فى سلك الجيش حتى يقضى نحبه سواء حتف أنفه أو فى ساحات الوغى . أما الدولة العثمانية فبدلا من أن تنتظر الغلام حتى يبلغ أشده ويصبح فى عنفوان شبابه لتجنده ، نجد أنها تأخذه وهو فى سن مبكرة لتدربه التدريب الذى يتمشى مع استعداداته العقلية والجسمانية تمهيداً لتعيينه فى وظائف السلك العسكرى أو السلك المدنى ، ويظل فى خدمة الدولة طوال حياته .

ثانياً : إن الجندى فى الدول الأخرى لا يبلغ عند وفاته أو عند تسريحه من الجيش رتبة من الرتب العسكرية الكبيرة . بينما كان الغلام الذى تأخذه الدولة العثمانية يصل إلى أعلى الرتب العسكرية والمناصب القيادية فى الجيش أو البلاط السلطانى أو الصدارة العظمى — رياسة الوزارة — أو كرسى الوزارة أو الوظائف الإدارية المدنية ذات المستوى العالى . وعلى ذلك فإذا كانت الدولة العثمانية تأخذ الأطفال المسيحيين وهم فى سن غضة ، فإن مستقبلا زاهراً كان ينتظرهم فى قابل الأيام ويظلون ينعمون به مدى الحياة .

ثالثاً : إن الجند فى الدول الأخرى كان لا يطلب منه فى الأعم الأغلب تغيير عقيدته الدينية أو مذهبه الدينى . أما فى الدولة العثمانية فكان يتم تحويل الغلمان إلى الدين الإسلامى ، لأن هذه الدولة كانت تلتزم فى معظم الأوقات التزاماً صارماً بتطبيق مبدأ عام هو عدم إشراك غير المسلمين فى الجيش الذى يظل مقصوراً على المسلمين دون سواهم .

ويلاحظ أن فريقاً من المؤرخين والباحثين يتناسون المسافة الزمنية التى تفصل بين الغلمان الذين عاشوا فى أوروبا فى القرن الرابع عشر وما تلاه وبين غلمان أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتجاهلوا الحروب الدينية العديدة والعنيفة التى خضبت أرض أوروبا بالدماء منذ حركة مارتن لوثر ، ونحن نقصر حديثنا فى نطاق التاريخ الحديث ، ولا نوغل بعيداً فى أغوار تاريخ العصور الوسطى أو تاريخ العصور القديمة . وكانت كل طائفة دينية تريد إكراه طوائف أخرى على اعتناق مذهبها ، وما تخلل هذه الحروب من اغتيالات ومذابح عامة تنوعت صورها وأشكالها ووحشيتها ، سواء فى شبه

جزيرة إيطاليا ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الاتحادية (الغربية) ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) ، أو فرنسا ، أو سويسرا ، وغيرها بين الكاثوليك والبروتستانت ، أو فى أسبانيا بين الكاثوليك والمسلمين بوجه خاص . ونحن إذا أشرنا إلى هذه الأمثلة فإننا لا ندافع عن سياسة الدولة العثمانية فى هذا الصدد استناداً إلى أن أحداثاً على شاكلتها قد وقعت من قبل فى أوروبا . ومن المبادئ المستقرة فى مناهج البحث العلمى التاريخى أن تقييم الحادث ووزنه لا يتمان إلا فى ضوء تقاليد المجتمع وتتذاك وحضارته والعصر الذى وقع فيه هذا الحادث .

أهمية الإنكشارية :

ترجع أهمية الإنكشارية إلى عدة عوامل ، من بينها كفايتهم القتالية وشجاعتهم المفرطة ووفرتهم العددية (١) وضراوتهم فى المعارك الحربية . فكانوا يشكلون ثقلا حربياً رهيباً لمصلحة الدولة فى الحروب التى كانت تخوضها الجيوش العثمانية دفاعاً أو هجوماً سواء فى آسيا ، أو فى أوروبا ، أو فى إفريقية .

وقد أرجع أحد المؤرخين ضراوة الإنكشارية فى القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التى اتسمت بها تربيتهم ، وإلى محو ماضيهم محواً كاد يكون تاماً ، وإلى التركيز على الاستبسال فى الحرب واسترخاص الموت . فكانت حصيلة هذه التربية البعيدة عن جو الأسرة والذى تزكو فيه شتى المشاعر من الحب والعطف والحنان ، أن نشأوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التى تهذب الطباع ، ومحرومين من جميع الصفات المكتسبة التى تفتح الأذهان ، وبعيدين عن كل المثل التى تحرك الإرادة . فغدا تفكيرهم وسلوكهم ومستقبلهم مرتبطاً بالحرب (٢) .

---

(١) كان عدد الإنكشارية أول الأمر ١٢,٠٠٠ ثم ارتفع عددهم باطراد إلى ١٣,٠٠٠ ثم ٤٦,١١٣ ثم تقفز إلى ١٤٠,٠٠٠ .

(٢) Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., p. 402.

وكان الإنكشارية يأخذون شتى المواقع فى ميدان المعركة ، بل وقبل بدايتها . كان فريق منهم يرافقون طليعة الجيش يتبعهم عدد من رؤسائهم . فإذا بلغ الجيش مكان المعركة وقف الإنكشارية فى القلب واتخذ السلطان مكانه خلفهم ، وإلى جانبه بيرق الحرب ، وهو العلم الإمبراطورى (١) . وكان الصدر الأعظم يقف إلى جانب السلطان ، وكذلك كبار القادة . وجميعهم من نتاج ضريبة الغلمان ، أى القولار عبيد السلطان .

وكان الإنكشارية أيضاً يتبعون السلطان فى تنقلاته . ويعزو بعض المؤرخين والباحثين مصاحبة الإنكشارية للسلطان فى تحركاته إلى أنهم كانوا يؤلفون الحرس السلطانى . ويقولون إن هـــذه المرافقة للسلطان كانت وظيفتهم الرئيسية . ومن الخطأ الأخذ بهذا الرأى الذى يجعل البعض يعتقد أن عمل الإنكشارية الرئيسى كان مقصوراً على الخدمة فى الحرس السلطانى فى حين أنه كانت هناك أربع فرق عسكرية ذات مركز عال تعمل إلى جانب فرق أخرى فى الحرس السلطانى . وهذه الفرق الأربع هى : الصولاق ، والبيكات ، والجاوشية ، والمتفرقة . وكان أفراد بعض هذه الفرق يحيطون بالسلطان فى المواكب الرسمية ، بينما كان البعض الآخر لا يتركون السلطان إطلاقاً حين كان يذهب إلى الحرب ، وكان البعض الثالث يتناوبون الحراسة فى القصر : وكان البعض الرابع يلازمون السلطان باستمرار . وكانت الغالبية العظمى من أفراد هذه الفرق لا يقومون بأى خدمة حربية إلا فى تلك المناسبات (٢) . ومما يدحض الرأى الذى ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين ،

(١) استبدلت الدولة راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمسماة البيرق النبوى بالعلم الإمبراطورى . وقد تم هذا التغيير منذ حكم السلطان سليم الأول ، ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية عام ١٥١٧ وكان العثمانيون يعتبرون هذا البيرق من أهم الأمانات المقدسة ، وأطلقوا عليه « صنجق شريف » أى البيرق الشريف . وكان هذا البيرق الشريف من بين الهدايا التى أرسلها بركات شريف مكة إلى السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى القاهرة عنواناً على ولائه للدولة ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وكان السلاطين منذ ذلك الوقت يحرصون على أخذ هذا البيرق الشريف معهم حين يخرجون إلى الحرب تبركاً به .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold: op. cit., Vol. 1, Part 1, pp. 86-88.

وهو أن الإنكشارية كانوا يؤلفون الحرس السلطانى ، أن الفيالق الإنكشارية كانت من أهم القوات الضاربة الرئيسية التى اعتمدت عليها الدولة فى فتوحاتها لأقاليم مترامية الأطراف ، وفى صمودها أمام تكتلات صليبية أوروبية رهيبة واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل(١) .

ويؤيد هذا الرأى جمهرة من أعلام المستشرقين والمؤرخين الأجانب . وحسبنا أن نذكر أربعة منهم . يقول بروكلمان المستشرق الألمانى إن الإنكشارية كانوا قوام الجيش العثمانى وعماده (٢) . ويقرر المستشرق كليمان إيوارت أن الإنكشارية كانوا أكبر قوة فى فرق المشاة استطاع بها السلاطين تحقيق الفتوح الواسعة التى قاموا بها فى القرن الرابع عشر وفى القرون التالية (٣) . وهناك مؤرخ إنجليزى – هو الأستاذ جرانت – يذهب إلى أبعد من هذا الرأى ، فيقول « إن المشاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان مصير أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد إلى حد كبير جداً على الإنكشارية »(٤)، ثم يقول فى موطن آخر إن الدولة العثمانية أحرزت أعظم انتصاراتها فى ساحات القتال بفضل الإنكشارية ، بسبب مقدرتهم القتالية وشجاعتهم الحربية . ولما افتقدوا هذه المزايا والخصال ولت الأيام الذهبية التى عاشتها الدولة عبر تاريخها الطويل (٥) . أما المؤرخ الإنجليزى فيشر فكان أكثر تفصيلا لهذا

---

(١) عن التوسع الإقليمى وعن التكتلات أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٥٦٤ – ٥٨٢ ، ص ص ٥٩٣ – ٦٢٠ ، ص ص ٦٢٥ – ٦٥٠ ، ص ص ٦٥٥ – ٦٦٨ ، ص ص ٦٧٥ – ٦٧٧ ، ص ص ٦٨٩ – ٧٠٦ ص ص ٧١٠ – ٧٢٤ ، ص ص ٧٤٨ – ٧٥٠ ، ص ص ٧٦٠ – ٧٧٧ ، ص ص ٧٨٤ – ٧٨٨ ، ص ص ٧٩٣ – ٧٩٥ ، ص ص ٧٩٩ – ٨١٠ .

(٢) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ص ٨٣ .

(٣) Huart Cl., Encyc. of Islam. Art. Janissaries.

(٤) Grant A.J., A History etc., op. cit., p. 211.

(٥) op. cit., p. 212.

الرأى من سابقيه ، فهو يقول إن وجود فرقة واحدة من الإنكشارية فى أى جيش عثمانى كان كفيلا باستماتة هذا الجيش كله فى ميدان القتال ، ثم يقول فى موطن آخر إن الإمبراطورية العثمانية قامت ، وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا كثرة فى الجيوش العثمانية ، بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالبة الأصل ، والدتهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جئ بهم إلى مدارس الإنكشارية حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكرى والعقيدة الإسلامية (١) .

ويسجل أحد الباحثين العرب المحدثين رأيه فى أهمية الفيالق الإنكشارية فى القوات المسلحة العثمانية ويشيد بصفات أفراد هذه الفيالق ودورهم فى الفتوحات العثمانية التى تمت غرباً وشرقاً ، فيقول إن الفيالق الإنكشارية كانت محور قوة الدولة . وبهذه الفيالق المنظمة والمدربة والمتفانية استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة . فإنها من ناحية فتحت بلاداً فى أوروبا كانت حتى ذلك الوقت خارج حوزة الإسلام ، ومن ناحية أخرى استولت على الإمارات الإسلامية الصغيرة التى قامت فى الأناضول على أنقاض دولة الروم السلاجقة (٢) . ولا شك أن هذا الباحث العربى كان يتكلم عن القوات الإنكشارية فى عصرها الذهبى قبل أن يتطرق إليها الفساد وتغدو مصدر أخطار على الدولة .

ونضيف إلى ما قرره هؤلاء الأربعة ، عن الدور الرئيسى الذى قام به الإنكشارية فى حروب الدولة هجوماً ودفاعاً ، أن الإنكشارية كانوا يشكلون

---

(١) "......it is clear that without such a tribute (the tribute of Christian children) a regular recruitment could not have been maintained. It followed, as a consequence, that the Ottoman Empire was made and maintained, not only or even mainly, by men of the Ottoman race. but by the slave children of Christian parents, who had issued through the seminaries of the janissaries. with the appointed stamp of military subservience and the Moslem faith".

Fisher H. A. L.; op. cit., p. 402.

(٢) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص‌ص ١٧–١٨

الحاميات التي ترابط على حدود الدولة . وكانوا يتلقون مرتباتهم من الحكومة المركزية فى إستانبول .

وجرت العادة على أن ترسل هذه الحكومة عدداً من ضباط الإنكشارية أول الأمر إلى المواقع المقترح إنشاء الحاميات فيها . ويقوم هؤلاء الضباط بدراستها على الطبيعة وتقديم مقترحاتهم إلى إستانبول . وكانت الدولة أيضاً تعزز جيوش الاحتلال فى الأقاليم التى فتحتها بقوات من الإنكشارية . وكانت لهذه القوات الصدارة على سائر فرق جيوش الاحتلال فى الولايات العثمانية فى أوروبا ، وفرق الحاميات العثمانية فى الولايات العربية . ونذكر على سبيل المثال بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية ، ومصر ، والعراق . وكان الإنكشارية فى الممتلكات العثمانية يخضعون لإمرة الولاة المحليين ، ويتقاضون مرتباتهم من الحكومة المحلية فى الولاية .

جبروت الإنكشارية وطغيانهم :

كان الإنكشارية سلاحاً رهيباً حاداً باتراً استطاعت به الدولة أن تمضى قدماً فى سياسة التوسع الإقليمى المرحلى . وكان الجيش العثمانى يصارع أقوى الجيوش الأوروبية . ثم غدوا مركز قوة خطير فى حياة الدولة تعرضت بسببه لأخطار جسيمة . استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكاً لأهميتهم ومقدرتهم القتالية فداخلهم الغرور ، أو بعبارة أكثر دقة ، ازدادوا غروراً على غرور ، وصلفاً على صلف .

كانوا يزجون بأنفسهم فى السياسة العليا للدولة ، وهى مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربى ، ويتدخلون فى اختيار السلطان الجديد . ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش — أى البقشيش — كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوتى من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم . ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١٧٧٤ حين تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش الدولة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر — كانون أول — عام

١٧٧٣ (١) وكانت حجته فى إلغاء هذا التقليد حجة قوية ، هى أن الدولة كانت تجتاز وقتذاك أزمة مالية عصيبة بسبب ضخامة الإنفاق العسكرى على القوات العثمانية المسلحة إبان الحرب التى اشتعلت بين الدولة وبين الروسيا . وهى الحرب التى استطالت ست سنوات كوامل وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان ، وانتهت بعقد معاهدة جائرة هى معاهدة كتشك كينارجى فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو — تموز — عام ١٧٧٤ . وقد ألحق بهــذه المعاهدة بندان سريان : نص أولهما على أن تدفع الدولة العثمانية للروسيا غرامة حربية قدرها خمسة عشر ألف كيس ، تسدد على ثلاثة أقساط متساوية فى اليوم الأول من شهر يناير — كانون ثان — فى عام ١٧٧٥ ، وعام ١٧٧٦ وعام ١٧٧٧ .

وقد بدأت ظاهرة تدخل الإنكشارية فى المسائل السياسية العليا منذ عهد السلطان « أبى يزيد الثانى » (١٤٨١—١٥١٢) ، ثم اشتدت هذه الظاهرة على عهود معظم خلفائه السلاطين . حدث أن السلطان سليم الأول (١٥١٢— ١٥٢٠) — وهو معروف بصرامته وإسرافه فى سفك الدماء — كان قد توغل فى أراضى الدولة الصفوية فى فارس على رأس قوات زاحفة جرارة . وفجأة طلب الإنكشارية من هذا السلطان وقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات واستيلاءات على أراضى العدو . وخشى السلطان أن يعمدوا إلى التمرد والعصيان وهو بعيد عن قاعدة دولته مما قد يعرض الجيش العثمانى إلى التمزق . وكان تقدير السلطان للموقف الحربى أن الانسحاب هو أخف الضررين . فرضخ لطلب الإنكشارية . وعاد أدراجه إلى إستانبول . وتكرر مثل هذا الحادث على عهد سلطان لاحق هو السلطان عثمان الثانى . وسنوضح هذين الحادثين فى الفصل القادم .

وازداد نفوذ الإنكشارية بعد أن انتقلت قوات كثيفة العدد منهم إلى عاصمة الدولة مما أتاح عديد الفرص لرؤسائهم ليتمادوا فى طلباتهم كلما آنسوا

---

(١) يرى بعض المؤرخين والباحثين التغاضى عن الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر — كانون الأول — ١٧٧٣ ، ويجعلون عام ١٧٧٤ بداية حكم السلطان عبد الحميد الأول .

من السلطان الحاكم ضعفاً . كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون فى تعيين غيرهم فى المناصب التى تخلو بقتل أو عزل شاغليها . وأصبح كبار موظفى الدولة يخشون الإنكشارية ويتملقون رؤساءهم ، وينفذون أوامرهم خوفاً من بطشهم . وبلغ من عتو الإنكشارية أنهم كانوا لا يحفلون بتنفيذ الأوامر العسكرية التى تصدر لهم من قيادة الجيش ونذكر على سبيل المثال أنه إذا استولى الجيش على مدينة وعقدت هدنة أو اتفاقية مؤقتة تتضمن شروط التسليم ، وكان من بينها المحافظة على أرواح سكان المدينة وأموالهم وأعراضهم ، كانت الفيالق الإنكشارية لا تعبـأ بشروط التسليم ، وتنطلق فى نشاط محموم تمارس أعمـال النهب والسلب والقتل وهتك الأعراض وإحراق المبانى .

وكان الإنكشارية فى أوقات السلم يشقون عصا الطاعة ، ويلجأون إلى سلاحهم التقليدى ، وهو القيام بحركات عصيان تحمل معنى التحدى للسلطان والحكومة المركزية فى العاصمة . وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا بمثابة عصابات عسكرية تهفو نفوسهم إلى أعمال التمرد وخلع السلطان الحاكم والمناداة بتنصيب سلطان جديد يقع عليه اختيارهم طمعاً فى تجدد العطايا . وكانوا يلجأون إلى وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكرى . كانوا يعترضون الموكب السلطانى ويمنعون السلطان من الوصول إلى القصر ويهتفون فى وجهه هتافات غير كريمة مطالبين إما بمزيد من العطايا والإمتيازات ، وإما بالغاء قوانين كانت قد صدرت باغلاق محلات بيع الخمور وحظر تناول هـذه المشروبات . فكانوا يحملون فى أيديهم كؤوس الشراب ويرفعونها فى وجه السلطان ممـا يعد تحدياً صريحاً للرئيس الأعلى للدولة وحكومته .

الإنكشارية يتخذون من القزانات رمزاً لتمردهم :

كان الإنكشارية يتخذون من القزانات — وهى القدور التى يطهى فيها الطعام — رمزاً إعلامياً يعبرون به عن مسلكهم . فكانوا لا يجتمعون حول

القزانات لتناول الطعام فحسب ، بل وللتشاور فى أمورهم الخطيرة أو الهامة . فإذا استقروا رأياً على القيام بحركة عصيان عسكرى جماعي قلبوا القزانات بعد التهام الأطعمة الموجودة بها ، ووضعوها صفوفاً متراصة أمامهم فى ساحة آت ميدانى — أى ميدان الخيل — وكانت تقع فى هذا الميدان ثكناتهم . ويمكثون أمام القزانات بعض الوقت ، وهم فى هرج ومرج شديدين . فإذا أقبل رؤساؤهم ساد الحاضرين صمت مطبق ، ويعلن أحد الرؤساء تفاصيل التمرد العسكرى وأهدافه سواء قتل شخصية كبيرة ، أو عدة شخصيات ، أو تنظيم مظاهرات عسكرية تتعرض لموكب السلطان فى أثناء مروره ، أو الهجوم على القصر السلطانى والمناداة بخلع السلطان وتنصيب غيره . وبعدئذ ينطلق الإنكشارية وحوشاً كاسرة لتنفيذ مخطط العصيان . وهم فى وضع استعداد تام لمواجهة أية قوات ترسلها الدولة للتصدى لهم . وكانوا إذا قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رءوس القتلى معهم ووضعوا كل رأس أمام قزان مقلوب . وعند نجاح تنفيذ مخططهم تصدر لهم الأوامر من قيادتهم بإعادة القزانات إلى ثكناتهم تعبيراً عن انتهاء التمرد العسكرى .

تفاقم خطورة الإنكشارية :

وازدادت مشكلة الإنكشارية تفاقماً عندما قررت الحكومة المركزية ، أو بعض عناصر هامة مستنيرة فيها ، تطوير الجيش بإدخال النظم العسكرية الحديثة التى أخذت بها الدول الأوروبية فى جيوشها . وقد أطلق العثمانيون على مشروع تطوير الجيش « النظام الجديد » (١) . وجاء قرار الحكومة فى هذا الصدد نتيجة لتعرض جيوش الدولة لهزائم أليمة متعاقبة من الدول

---

(١) كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩—١٨٠٧) هو الذى أطلق هذه التسمية على الفرق العسكرية التى بدأ فى إنشائها ، وجعل مقرها ساحة لوند جفتلك على مرتفعات أورته كوى ، وأرناؤد كوى على الساحل الأوروبى للبوسفور .

انظر

Huart Cl.; Encyc. of Islam. Art. Janissaries.

الأوروبية . وبات واضحاً عجز الدولة عسكرياً عن الدفاع عن ممتلكاتها الأوروبية بوجه خاص . ونبتت الفكرة القائلة إن ضعف الدولة هو ضعف عسكرى قبل كل شىء ، وأنه لا يرجى أى إصلاح إلا إذا بدأت الدول بإدخال النظم الحربية الحديثة فى قواتها العسكرية بحيث يساير الجيش العثمانى جيوش الدول الأوروبية تسليحاً وتنظيماً وتدريباً . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية عاشت أزهى عصورها على الأمجاد العسكرية التى حققها الجيش العثمانى . وكان هذا الجيش أداة للحرب أولا ، وأداة للحكم ثانياً . وقد ذكرنا من قبل أن بعض المؤرخين شبهوا الجيش العثمانى بعملة ضربت على أحد وجهيها لفظة «الحرب» ، ونقشت على الوجه الآخر كلمة « الحكم » . فكان الحكم العثمانى فى لحمته وسداه حكماً عسكرياً .

عارض الإنكشارية معارضة شديدة إدخال النظام الجديد فى فيالقهم ، لأنهم أدركوا أن تطبيقه فى محيطهم العسكرى سيؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم فى الفرق العسكرية الجديدة التى أنشأتها الدولة وفقاً للنظام الجديد . وكانوا حريصين الحرص كله على الاحتفاظ بكيانهم الخاص ووضعهم الخاص وامتيازاتهم الخاصة فى الجيش . ولذلك رفضوا رفضاً باتاً وقاطعاً العروض التى قدمها لهم بعض السلاطين ، مثل السماح لهم بالانضمام إلى الفرق العسكرية الحديثة ، ورفضوا أيضاً قبول معاش تقرره الدولة لمن يرفض منهم النظام الجديد . واستهجنوا هذا النظام ، بل أنكروه قائلين « إن ولى الله الحاج بكتاشى كان قد بارك جماعة الإنكشارية عند تكوينها ، ودعا لهـا بالنصر الدائم »(١) . وزعموا ، تأسيساً على دعاء هذا الولى وبركاته ، أنهم فى غنى عن كل تعليم .

وقد ذهب الإنكشارية فى معارضتهم لتطبيق النظام الجديد عليهم إلى أنهم لجأوا إلى سلاحهم الرهيب وهو تنظيم حركات التمرد أو العصيان فى وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم معتمدين على قوتهم العسكرية ووفرة أعدادهم بحيث أصبحوا مركز قوة خطير عرّض أمن الدولة الداخلى والخارجى

(١) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧٦-٧٧ .

لأخطار بالغة . ونجحوا فى إكراه عدد من السلاطين على إلغاء النظام الجديد . وهكذا أصبح الإنكشارية بمضى الزمن عنصر فساد فى جسم الدولة ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وتعددت حركات العصيان وارتاحوا إليها ، إذ وجدوا فيها وسيلة عملية لتحقيق رغباتهم من ناحية ، ولكى يثبتوا من ناحية ثانية لسائر أسلحة الجيش ولكبار موظفى الدولة وللقطاعات الجماهيرية أنهم لا يزالون أولى بأس شديد ، وفى استطاعتهم عزل السلاطين وقتلهم وتعيين غيرهم ، فضلا عن قدرتهم على البطش برجالات الدولة من ناحية ثالثة .

شرور الإنكشارية تمتد إلى المدنيين :

وامتدت شرور الإنكشارية فى أوقات السلم إلى المدنيين الوادعين ، سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات ، فمارسوا نشاطاً إجرامياً فى السلب والنهب . كانوا يعمدون إلى إحراق أحد أحياء مدينة يبغون نهبها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب فى عنان السماء انطلق الإنكشارية ينهبون الأحياء الأخرى فى المدينة . فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراض ، ويهاجمون المحلات التجارية ، ويركزون هجومهم على محلات اليهود ويخطفون بضائعها (١) . وبلغ بهم الجبروت والعصيان أنهم اعتقدوا أن جميع الأفعال مباحة لهم حتى ولو كانت قوانين الدولة تمنعهم من ارتكابها أو الإتيان بها (٢) . ووصل بهم الأمر إلى مهاجمة الدار المخصصة لسكنى الصدر الأعظم إذا تباطأ فى تنفيذ طلباتهم (٣) . وبذلك أصبح الإنكشارية كأن قلوبهم غلف (٤) لاتعى شيئاً ولا تقبل نصحاً أو أمراً عسكرياً ، لأنها مغلقة ، ولكن طبع الله عليها بسبب جبروتهم وطغيانهم .

---

(١) Lybyer A.H.; op. cit., p. 92.

(٢) Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, p. 759.

(٣) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., tome VII, pp. 359 - 360.

(٤) غلف مفردها أغلف . ويقال قلب أغلف لا يعى لعدم فهمه ، كأنه حجب عن الفهم كما يحجب السكين ونحوه بالغلاف .

إجراءات الدولة للحد من طغيان الإنكشارية :

استبان للسلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) نزعة الإنكشارية نحو التمرد العسكرى ثم تدخلهم فى السياسة العليا للدولة . وقد وضحت هذه المثالب منذ الأيام الأولى لحكمه وفى أثناء الحرب التى نشبت بين الدولة والصفويين على النحو الذى سنشرحه فى الفصل التالى ، ورأى هذا السلطان ، مع الإبقاء على الإنكشارية كتنظيم عسكرى فى الجيش ، أن يكسر حدة طغيانهم وجبروتهم من ناحية ، وأن يفيد منهم كقوة من المشاة لها وزنها وثقلها فى الحرب من ناحية ثانية . ولما فتح بلاد الشام سنة ١٥١٦ ثم مصر سنة ١٥١٧ عزز القوات العثمانية المسلحة التى تركها فى هذين الإقليمين بفيالق من الإنكشارية لدعم الحكم العثمانى فيهما وتشتيت جموع الإنكشارية بحيث لا يتجمعون أو يتكتلون فى عاصمة الدولة . ولما عاد إلى إستانبول تلقى نداء من خير الدين بربروسه ، أى خير الدين ذى اللحية الحمراء ، كى يعاونه فى جهاده ضد الإسبانيين ، فأرسل له السلطان سليم فى عام ١٥١٨ ألفين من الإنكشارية (١) كإجراء سريع ، وسمح له بتجنيد الأهالى من الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار الاستعمارية الصليبية . وقد أقبل أهالى الأناضول على الالتحاق بخدمة خير الدين طمعاً فى الغنائم (٢) من ناحية ، وإسهاماً منهم فى حركة الجهاد الدينى فى شمالى إفريقية من ناحية أخرى . وكان هذا التصرف من جانب السلطان سليم الأول متمشياً مع السياسة التى أرسى قواعدها تجاه الإنكشارية . ومضت الدولة على عهود السلاطين اللاحقين تتابع هذه السياسة فى النيابات العثمانية الثلاث فى شمالى إفريقية والتى دخلت تحت السيادة العثمانية فى القرن السادس عشر .

ولما استفحلت شرور الإنكشارية عمد السلاطين إلى وسائل أخرى

---

(١) كان خير الدين بربروسه يقود الحامية العثمانية فى الجزائر . وتحرج مركزه بعد مقتل أخيه عروج فى أثناء محاولته تخليص مدينة تلمسان من الإسبانيين .

انظر :

Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, pp, 806-807.

(٢) Loc. Cit.

ابتغاء الحد من طغيانهم . كان من بينها توزيع الفيالق الإنكشارية على حاميات الحدود كما سبق أن ذكرنا فى موطن سابق فى هذا الفصل . وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية . كان يدرك تماماً أنهم تجاوزوا المدى وأصبحوا مركز قوة خطير فى الدولة ، أو كما يقول المستشرق هارولد بوون، إنهم غدوا أصحاب الدولة الأقوياء(١) . وانتهز هذا السلطان فرصة وقوع حوادث مؤسفة فى إستانبول فى أثنـاء الاحتفالات التى أقامها بمناسبة ختان ابنه سنة ١٥٨٢ . ازدحمت العاصمة بالآف من سكان الأقاليم قدموا إليها لمشاهدة المهرجانات . ومات من شدة الزحام كثير من الوافدين ومن سكان العاصمة . وبرز فى هذه الأحداث شبان أظهروا شجاعة وحسن تصرف فى إنقـاذ الأهلين من الازدحام والموت . وأراد السلطان أن يكافأهم فألحقهم بفيالق الإنكشارية(٢) ، كما أمر هذا السلطان بإلحاق عدد كبير من المجندين غير المدربين بفيالق الإنكشارية مباشرة . ولقى هذا الإجراء معارضة شديدة من رئيس الإنكشارية . ولكن لم يأبه السلطان بهذه المعارضة ومضى ينفذ هذا الإجراء الذى قابله رجال الحاشية بترحيب حار . وانتهز السلطان مراد الثالث فرصة تجدد الحرب بين الدولة العثمانيــة والدولة الصفوية ، فوجه ضربة شديدة إلى الإنكشارية كتنظيم عسكرى ، إذ سمح بإدخال أعداد وفيرة من المجندين المسلمين الأحرار ، أى الذين ولدوا من آباء مسلمين ، فى الفيـالق الإنكشارية بعد أن كانت هذه الفيالق مغلقة تماماً فى وجه هؤلاء المجندين . وترتبت على إدخالهم نتيجة هامة هى مطالبة هؤلاء المجندين بإلغاء الحظر المفروض على أفراد الفيالق الإنكشارية بعدم الزواج . واستجاب السلطان لهذا المطلب ، وبعبارة أكثر دقة ارتاحت الدولة لهذا المطلب ، ورفعت الحظر عن جميع أفراد

---

(١) The Potential Masters of the State.

انظر

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180.

(٢) انظر تفصيلات عن هذا الموضوع فى :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . مرجع سبق ذكره . الطبعة الأولى ، ص ص ٧٥٥—٧٥٦ .

هذه الفيالق . فشغل الإنكشارية بمشكلات الحياة الزوجية والإنسال عن الحياة العسكرية التى كانوا منصرفين إليها كلية . وضعف استعدادهم الحربى وأصبح الانتماء إلى الفيالق الإنكشارية وراثياً بغض النظر عن كفايتهم القتالية مما أدى إلى تدهور نظام الإنكشارية . ثم خطت الدولة خطوة أخرى فى سبيل كسر شوكة الإنكشارية واسترضائهم معاً . فأذنت لهم فى ممارسة بعض الحرف أو الاشتغال بالتجارة فى أوقات السلم بعد أن كان محرماً عليهم العمل فى أمثال هذه الأنشطة الحرفية والتجارية (١) فازدادوا ابتعاداً عن الحياة العسكرية البحتة ، وازداد مستواهم القتالى هبوطاً . وأصبح بعضهم لا يذهبون إلى ثكناتهم إلا لتسلم مرتباتهم . وكانت الدولة لا تسمح لهم بحمل الأسلحة النارية فى أوقات السلم تجنباً لاستخدامها فى حركات العصيان العسكرى أو فى الفتك بالمدنيين . وعلى الرغم من كل هذه القيود التى أحيط بها الإنكشارية من يمين وشمـــال فقد ظلوا يثقلون كاهل الحكومة بمرتباتهم وسائر النفقات العسكرية . وظلوا فى مركز القوة لأن ثكناتهم التى كانوا لا يذهبون إليها إلا لماماً كانت مكاناً لتجمعاتهم إذا أرادوا القيام بحركة تمرد . وكانت لهم صيحة تجمعهم فى الثكنات ، وهى « يولداش يوقمى » (٢) ومعناها أليس لنا زملاء ؟ وكان لهم ضباط يقومون بتسليحهم وتوجيههم قبل تنفيذ حركات التمرد .

ونعرض فى الفصل التالى صوراً من طغيان الإنكشارية وجبروتهم كمركز قوة خطير فى تاريخ الدولة .

* * *

---

(١) Marriot J.A.R. (Sir); op. cit., pp. 102-103.

(٢) يولداش معناها زميل طريق . كلمة يول معناها طريق وتستخدم فى الوقت الحاضر عبارة زميل فى السلاح . وتكتب هذه الصيحة فى اللغة التركية بالحروف اللاتينية : Yoldas Yokmu.

الفصل الثامن عشر

مراكز القوى فى الدولة (٢)

صور من طغيان الانكشارية وجبروتهم

الإنكشارية يرتكبون عمليات القتل والسلب عند تعين أبى يزيد الثانى سلطاناً :

توفى السلطان محمد الثانى أو السلطان أبو الفتح أو السلطان الفاتح عن ولدين، أكبرهما «أبو يزيد»(١) ، وكان حاكماً على آماسيا، والآخر، «جم». وكان يحكم القرمان . وقد أخبر قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه الأكبر كى يسرع فى العودة إلى إستانبول ويتبوأ العرش . ولكن عاد الصدر الأعظم فأرسل إلى الابن الثانى الأمير جم يخبره سراً بوفاة والده . وحدث تسابق بين الأخين على السفر إلى العاصمة ، وكان كل منهما يبغى الوصول إليها قبل الآخر مما يتيح له الفرصة لارتقاء العرش . وعلم

---

(١) يرد اسم هذا السلطان فى الغالبية العظمى من الكتب العربية مكتوباً على هذا النحو : بايزيد . والواقع أن كلمة بايزيد هى النطق التركى للإسم العربى « أبو يزيد » .

ومما هو جدير بالذكر أنه توجد مدينة تحمل هذا الإسم فى آسيا الصغرى ، وكانت حاضرة صنجق فى ولاية أرضروم وتبعد ستة كيلومترات عن الحدود العثمانيــة الفارسية . وتشرف على الطريق المؤدى إلى أذربيجان . وقد أنشأ هــذه المدينة السلطان أبويزيد الأول واتخذ منها مركزاً لمراقبة تيمور ، وفيها قلعة قديمة . وفى داخل البلدة مسجد رائع شيده بهلول باشا الوالى العثمانى على تلك الولاية . وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٨٢١ ، ولم يسيطر عليها العثمانيون سيطرة تامة إلا بعد الحملات التى وجهها السلطان سليمان المشرع على الدولة الصفوية فى سنوات ١٥٣٣ ، ١٥٤٨ ، ١٥٥٢ . واستولى عليها الروس عدة مرات فى القرن التاسع عشر فى سنوات ١٨٢٨ ، ١٨٥٤ ، ١٨٧٧ ثم فى سنة ١٩١٤ . وهى تتبع حالياً جمهورية تركيا . ومعظم سكانها من الأتراك والأكراد . ويتركز نشاطهم فى تربية الأغنام وإنتاج الصوف والجلود الخام والجلود المدبوغة وصنع السجاجيد .

الإنكشارية بتصرف الصدر الأعظم فثاروا عليه وقتلوه ، ثم عاثوا فى إستانبول نهباً وسلباً . وأقاموا ابن الأمير أبى يزيد ، واسمه قرقد ، « قائمقاماً عاماً للدولة » ، أى سلطاناً بالنيابة لحين حضور والده إلى العاصمة ويباشر مهام منصبه سلطاناً للدولة . ووصل أبو يزيد إلى إستانبول حيث كان فى استقباله كبار رجال الدولة عند بوغاز البوسفور . وفى أثناء اجتيازه البوسفور أحاطت به سفن وقوارب عديدة ملئت بالإنكشارية الذين رحبوا به . وكان الهدف من هذه المظاهرة البحرية هو إشعار السلطان الجديد بأن لهم اليد الطولى فى ارتقائه العرش بعد أن كسب الجولة الأولى من أخيه الأمير جم . ولما وصل السلطان الجديد إلى القصر السلطانى وجد فيالق من الإنكشارية مرابطة أمام القصر ومداخله ، وهم فى مظاهرة عسكرية ، وقدموا له عدة مطالب وطلبوا تنفيذها فوراً ، وكان من بين هذه المطالب عزل أحد الوزراء واسمه مصطفى باشا وتعيين وزير آخر يسمى اسحق باشا كان متعاطفاً معهم ، وأن يقدم لهم عطايا ابتهاجاً بتعيينه سلطاناً ، وأن يصدر عفواً عاماً عنهم بسبب ما ارتكبوه من أعمال السلب والنهب فى العاصمة . وقد استجاب السلطان أبو يزيد الثانى لجميع مطالب الإنكشارية . وكانت مبادرة هذا السلطان بتقديم عطايا مالية للإنكشارية بمناسبة ارتقائه العرش تقليداً يلتزم به إلتزاماً صارماً بعد ذلك كل سلطان يتربع على عرش الدولة (١) . واستمر هذا التقليد سارياً زهاء ثلاثة قرون — أو مائتين وأربعة وتسعين عاماً على وجه التحديد — حتى نجح السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤—١٧٨٩) فى إلغاء هذا التقليد . ولم تكد تنقضى ثلاثة أشهر على ارتقاء السلطان العرش حتى طلب منه الإنكشارية أن يسمح لهم بنهب مدينة بروسة عقاباً لسكانها على أنهم أووا إليهم أخاه الأمير جم الذى كان ينازعه على العرش . ورفض السلطان طلبهم . وخوفاً من حدوث شغب منهم دفع إليهم عطايا مجزية للمرة الثانية فى مستهل حكمه . وقد مربنا فى الفصل السابق أنهم أجبروا السلطان أبا يزيد على إعادة فتح محلات بيع الخمور كى يمارسوا عادتهم فى تناول المسكرات .

---

(١) كان يطلق على عرش الدولة « التخت السلطانى » .

الإنكشارية يشتركون فى عزل السلطان أبى يزيد الثانى :

كان السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) قد أنجب ثمانية أولاد ، توفى خمسة منهم وهو لايزال على قيد الحياة(١) . وبقى له ثلاثة أولاد هم : الأمير أحمد ، والأمير قرقد Korkoud ، والأمير سليم ، وعين والدهم كلا منهم حاكما على إقليم من أقاليم الدولة . فعين أحمد حاكماً على آماسيا ، وعين قرقد حاكماً على صاروخان (مانيسه) ، وعين سليم حاكماً على طرابزون . وكان الأمير أحمد أكبر الأبناء الثلاثة وأحبهم إلى قلب السلطان فاختاره ولياً للعهد . فتحركت عوامل الغيرة فى الأميرين الأخيرين . وكان يروم كل منهما أن يكون ولياً للعهد . واشتهر الأمير سليم بشغفه بالحرب وجرأته وصرامته وميله لسفك الدماء . ويطلق عليه المؤرخون الأوروبيون لقباً يجمع هذه الصفات ، فيقولون إنه الوحش أو المفترس Le Féroce ويصفه أحد البنادقة فى هذه العبارة « إنه أكثر السلاطين قسوة ، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب »(٢) . أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه « ياوز »(٣) Yaouz أى السلطان الحاد الباتر العنيد . وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية

---

(١) كان هؤلاء الأولاد الخمسة هم :

الأمير عبد الله وقد توفى عام ١٤٨٣ .

والأمير محمد وقد توفى عام ١٥٠٤ .

والأمير محمود وقد توفى عام ١٥٠٧ .

والأمير شاهنشاه وقد توفى عام ١٥١١ .

والأمير علمشاه وقد توفى عام ١٥١٢ .

انظر :

دكتور أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر . ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . الناشر : دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص٨٨ .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة . مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، الناشر دار المعارف ، القاهرة : ، ١٩٦٩ ، ص‌ص ٦٧٩—٦٨٠ .

(٣) إن لفظة ياوز فى اللغة التركية تقابل فى اللغة الفرنسية كلمتين : إحداهما Tranchant ومعناها الباتر ، أو الحاد ، أو القاطع ، أو الحاسم . وأخراهما Inflexible ومعناها الشخص العنيد الصلب الذى لا يلين . ويترجم البعض كلمة ياوز بلفظة مهول .

العثمانية (١) . وقد أكسبته هذه الصفات شعبية واسعة بين أفراد الفيالق الإنكشارية . وكانت نفوسهم تهفو إلى استئناف سياسة الفتوح الحربية طمعاً فى غنائمها . وكانت معظم الحروب التى خاضتها الدولة على عهد السلطان « أبى يزيد الثانى » حروباً دفاعية أكثر منها حروباً هجومية نظراً لميوله السلمية حتى اشتهر باسم « أبو يزيد الصوفى » أو « أبو يزيد المتصوف » أو « أبو يزيد الولى » . وعقد معاهدة صلح مع جمهورية البندقية سنة ١٥٠٣ ، تلتها هدنة فى ذات السنة مع المجر مدتها سبع سنوات . واكتفى بتعزيز المجهود الحربى الذى كان يبذله قانصوه الغورى (١٥٠١ — ١٥١٦) سلطان دولة المماليك الشراكسة فى صراعه ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية . فأرسل إليه أبو يزيد مقادير وفيرة من المدافع والذخائر والأسلحة بالإضافة إلى شحنات كبيرة من الأخشاب لبناء سفن حربية . وقد وصلت هذه الشحنات إلى مصر فى شهر يناير — كانون ثان — عام ١٥١١ ورفض أبو يزيد أن يتقاضى ثمنها واعتبرها هدية من الدولة للسلطان الغورى ، ثم أرسل ألفين من البحارة العثمانيين إلى مصر ليشاركوا فى بناء وإعداد السفن الحربية فى ميناء السويس . وكان هؤلاء البحارة تحت قيادة قائد بحرى عثمانى هو سلمان الرومى (٢) . وكانت معظم سنوات حكم السلطان « أبى يزيد » قد ران عليها هدوء حربى . وظل الجيش العثمانى خلالها بمختلف فرقه فى حالة استرخاء . وتعلقت آمال الإنكشارية بوجه خاص بالأمير سليم — إذا ظفر بالعرش — فى أن يدفع عجلة الحروب فى حركة دائبة مطردة نشيطة .

طلب الأمير سليم أن ينقل من طرابزون . وأقام طلبه تأسيساً علي أنه ظل

---

(١) ومما هو جدير بالذكر أن رجال تركيا الفتاة أطلقوا اسم « ياوز سلطان سليم » على الطراد الألمانى « جوبن » الذى استطاع أن يتخلص من مطاردة الأسطول البريطانى له فى البحر المتوسط فى مستهل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانتهى هذا الطراد إلى حوزة تركيا .

انظر :

بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص‌ص ٦٤—٦٥ .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه . من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية الذى عقد فى الدوحة فى المدة من ٢١ مارس — آذار — إلى ٣١ منه عام ١٩٧٧ .

فى هذه الصنجقية مدة طويلة ناهزت الثلاثين عاماً (١) ، وأن طرابزون تقع فى جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود ، وطلب أن ينقل إلى إحدى الصنجقيات فى أوروبا . ورفض أبو يزيد طلب ابنه على الرغم من الشكايات العديدة التى بعث بها سليم إلى والده وإلى الصدر الأعظم وإلى أعضاء الديوان الهمايونى فى إستانبول(٢) . وفى حديث دار بين سليم وأحد كبار العلماء ، قال الأخير إن عصيان الابن لوالده يؤدى إلى مواجهة عسكرية بينهما . فرد عليه سليم بقوله « ليحدث ما يحدث »(٣) . جمع سليم قوات من رجاله ومن جنود خان القرم واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذى كان يقيم وقتذاك فى هذه المدينة . وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها عائداً إلى إستانبول حزيناً على وفاة ابنه الأمير شاهنشاه . واشتد عليه المرض . فأرسل فى طلب ابنه الأكبر الأمير أحمد ، بصفته ولياً للعهد، ليكون قريباً منه إذا وافاه الأجل المحتوم . وفوجىء الأمير أحمد عند وصوله إلى إستانبول بتدخل الإنكشارية ضده وأكرهوه على العودة من حيث أتى . وفى هذا الوقت الحرج تدخل الإنكشارية مرة أخرى لصالح الأمير سليم . وضغطوا على السلطان « أبى يزيد » ضغطاً شديداً حتى أجبروه على إصدار « خطى شريف » (٤) Hatt - i - Sherif بالعفو عن الأمير سليم وإعادته إلى ولاية

---

(١) جاء فى رسالة أرسلها الأمير سليم إلى الصدر الأعظم أنه أقام فى صنجقيه طرابيزون ثلاثين عاماً ، ثم ذكر فى رسالة بعث بها إلى أعضاء الديوان الهمايونى فى إستانبول أنه أقام فى طرابيزون خمساً وعشرين سنة .

(٢) انظر الرسائل التى وجهها سليم إلى شتى الدوائر العليا فى إستانبول مترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية فى : دكتور أحمد فؤاد متولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٩–٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٣ ، وقد جاء فى التقرير الذى رفعه هذا العالم — واسمه نور الدين صارى كورز إلى السلطان — أن الأمير سليماً مصر على موقفه ، وأنه عنيد إلى أبعد حدود العناد .

(٤) خطى شريف مصطلح تاريخى مأخوذ من اللغة العربية ترجمته خط شريف . ومعناه بتصرف قرار يحمل اسم السلطان . وقد يذكر هــذا المصطلح فى بعض الأحيان مضافاً إليه لفظ همايونى على هذا النحو : خطى همايونى شريف ، . وترجمته الحرفية قرار إمبراطورى شريف . ومعناه بتصرف : قرار سلطانى شريف يحمل اسم السلطان . وقد مر بنا صدور خطى شريف جلخانه عام ١٨٣٩ ، وخطى همايونى عام ١٨٥٦ انظر فى هذه الدراسة : ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

سمندرية(١) Semendris فى أوروبا والتى كان قد عينه حاكماً عليها . وفى أثناء سفر سليم إليها قابله الإنكشارية وعادوا به إلى إستانبول . فدخلها سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية . وشعر السلطان أن الأرض تميد تحت قدميه ، واهتز مركزه اهتزازاً عنيفاً . وكحل لهذه الأزمة عرض السلطان على ابنه سليم أموالا طائلة إغراء له على العودة إلى مقر منصبه . فرفض الإبن . وعاد السلطان يعرض على ابنه أن يعينه ولياً للعهد بشرط أن يحتفظ الوالد بالعرش ويمارس مهام منصبه حتى يقضى نحبه . ورفض سليم والإنكشارية هذا العرض . وأصروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده . وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل — نيسان — عام ١٥١٢ نظمت مظاهرة عسكرية كبرى ضمت الإنكشارية والسباهية — الفرسان الإقطاعيين — وبلغ عدد المشتركين فى هذه المسيرة العسكرية اثنى عشر ألف جندى. واتجهت هذه المسيرة إلى القصر السلطانى فى إستانبول . وطلب كبار الضباط مقابلة السلطان « أبى يزيد الثانى » فأذن لهم . ولم يكن فى مقدوره أن يرفض طلبهم . وقالوا له « إن البادشاه (٢) رجل طاعن فى السن تنتابه الأمراض ، ونريد أن يتبوأ ابنكم الأمير سليم العرش بدلا منك » . وطبقاً للترتيب الموضوع لهذه المقابلة ارتفع إلى عنان السماء صخب الجنود حتى يدرك السلطان أن الأمر جد وليس بالهزل ، فتنهار حالته النفسية . وقد نجح هذا الترتيب فأذعن السلطان وتنازل عن العرش لابنه سليم . وبعد عشرين يوماً طلب الوالد من ابنه السلطان سليم الأول أن يأذن له فى مغادرة إستانبول والتوجه إلى مسقط رأسه فى ديموتيقه Démotica ليقضى فيهـــا ما تبقى له فى الحيــــاة من خطوات . وفى اليوم الثالث للرحلة توفى فى الطريق (٣) .

---

(١) سمندرية هى العاصمة القديمة لبلاد الصرب ، وهى تقع عند التقاء نهر الدانوب بنهر موراڤا . وإليها نسبت ولاية سمندرية .

(٢) البادشاه — وتكتب فى بعض المراجع الباديشاه — عبارة عن كلمتين فارسيتين : باد ، وشاه ، ومعناها ملك الملوك Rois des Rois . ويقصد بها فى هذه الدراسة السلطان . ولذلك ترد هذه اللفظة فى بعض الكتب بادشاه آل عثمان ، وفى كتب أخرى بادشاه الإسلام .

(٣) يرى بعض المعاصرين أنه مات حزناً وكمداً . ويرى البعض الآخر أنه مات بعد =

وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسى فى خلع السلطان « أبى يزيد الثانى » لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التى اتبعها هذا السلطان فى معظم سنوات حكمه . وانتهزوا فرصه الصراع الذى نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش فزجوا بأنفسهم فى هذا الصراع ابتغاء تحقيق منافع لهم ، لأنهم توسموا فى الأمير سليم الرغبة والمقدرة معـاً على دفع عجلة الحروب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمى للدولة العثمانية .

موقف الإنكشارية من السلطان سليم الأول :

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول (١٥١٢—١٥٢٠) هى موقف الإنكشارية منه ، اعتقدوا أنه مدين بعرشه لهم . فأرادوا أن يتقاضوا منه الثمن أضعافاً مضاعفة . كان سليم قد خرج إلى أسوار العاصمة مودعاً والده ، وعاد إلى القصر السلطانى ليباشر سلطات الحكم . ولكن ترامت إليه الأنباء بأن الإنكشارية محتشدون فى مظاهرة عسكرية فى الطريق المؤدى إلى القصر ليطالبوا السلطان بمكافآت سخية لقاء مساعدتهم له فى ارتقاء العرش . وقد استاء السلطان من هذا التصرف ، فأفسد تدبيرهم وسلك طريقاً آخر وصل منه إلى القصر . ولكن لحق به الإنكشارية واضطر أن يدفع لكل جندى اشترك فى الحركة خمسين دوكة(٢) . وتشجع أحد الرؤساء وطلب من السلطان زيادة مرتبات العسكريين ، فاستل سليم سيفه ، وبضربة واحدة سريعة أطاح برأس هذا القائد .

= أن دس أحد المرافقين له فى الرحلة السم فى الطعام . وهو رأى صائب تؤيده ملابسات الموقف . ويذكر أحد المؤرخين أن سليماً الأول هو الذى قتل أباه أبا يزيد الثانى بمساعدة الإنكشارية .

Grant A. J.; A History etc.; op. cit., p. 213.

(٢) الدوكة Le Ducat هى عملة ذهبية كانت متداولة فى أقاليم الشرق الأدنى . وأقبل التجار والأهالى على التعامل بها نظراً لأنها ذات عيار عال يقرب من أربعة وعشرين قيراطاً . وكانت هذه العملة تضرب فى البندقية . ويطلق عليها البندق تمييزاً لها عن « الدوكات النمساوية » . انظر :

دكتور عبد الرحمن فهمى : النقود المتداولة أيام الجبرتى . بحث منشور فى مجلد بعنوان : عبد الرحمن الجبرتى . دراسات وبحوث . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ص‌ص ٥٥١—٥٨١ .

الإنكشارية يجبرون السلطان سليم الأول على إنهاء الحرب :

غير أن خطر الإنكشارية ظل جاثماً على الدولة العثمانية وعلى السلطان سليم الأول بالذات، على الرغم من أن هذا السلطان كان قد استجاب استجابة فورية لطالبهم توزيع عطايا مالية عليهم بمناسبة توليه العرش ، وكان وقتئذ فى السابعة والأربعين من عمره ، إذ سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم فى شئون الدولة أخطر ما يكون هذا التدخل وذلك النفوذ . فلم يمض عام وبعض عام حتى استكمل سليم استعداداته لحرب شاملة يشنها على الشاه إسماعيل الصفوى . واندلعت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية فى فارس . واستطاع سليم أن يوقع هزيمة بالصفويين فى موقعة تشالدران (١) فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أغسطس — آب — عام ١٥١٤ وأن يدخل فى العام التالى تبريز عاصمة الدولة الصفوية فى ذلك الوقت ، وأن يستولى على عرش الشاه وكنوزه وتحفه ونسائه ، ومضى سليم ينتقل من نصر إلى نصر متوغلا فى أراضى الدولة الصفوية ؛ وانسحب الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خشية وقوعه فى الأسر . وبينما كان سليم فى قمـة انتصاره إذ حدث تطور فى الموقف الحربى . فقـد أوقف سليم العمليات الحربية فجأة . وعاد إلى استانبول قانعاً بما استولى عليه من كثير من بلاد أرمينية وما بين النهرين . وكان سبب هذا التطور المفاجئ هو أن الإنكشارية طلبوا من السلطان سليم إنهـاء الحرب (٢) وخشى سليم أن يعمدوا إلى التمرد وهو بعيد عن بلاده . وينتهز الشاه إسماعيل هذه الفرصة الذهبية ويعيد الكرة على الجيش العثمانى . وقد ينال منه منالا عظيماً ويتعرض الجيش للتمزق .

---

(١) تشالدران سهل يقع بين العاصمة تبريز وبحيرة أرمية .

(٢) تختلف المراجع التاريخية فى ذكر السبب الذى تذرع به الإنكشارية لمطالبتهم السلطان سليم إنهاء العمليات الحربية . فتذكر بعض المراجع أنهم تعللوا بسوء الأحوال الجوية فى فارس ، بينما تذكر مراجع أخرى أنهم تذرعوا بحجة أخرى هى الاكتفاء بالانتصارات التى حققوها للسلطان فى هذه الحرب نظراً لخطورة تعقب الشاه إسماعيل بسبب وعورة المسالك وكثرة المستنقعات ووجود الهضاب .

الإنكشارية يدبرون حركة تمرد على عهد السلطان سليمان المشرع :

دبر الإنكشارية حركة عصيان فى شهر مارس — آذار — عام ١٥٢٥ فى إستانبول عقب عودة السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦) إليها من أدرنة حيث كان يقضى فصل الشتاء . وقاموا بنهب قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان وقتذاك فى مصر ، كما هاجموا الديوان جمركى — ديوان الجمارك — وعدداً من مساكن الأعيان ، ثم اتجهت جموعهم إلى حارة اليهود . حيث قاموا بعمليات النهب والسلب . ويلاحظ أن الهدف من عصيانهم كان اغتصاب الأموال سواء من أماكن حكومية أو أهلية ، وسواء من المسلمين أو اليهود ، وقد تدارك السلطان سليمان الأمر بنفسه بمنتهى السرعة ، فوزع عليهم ألف دوكة Ducats كدفعة أولى تتلوها أقساط أخرى إذا أخلدوا إلى النظام . وأنهى الإنكشارية حركة التمرد طمعاً فى الحصول على مزيد من العطايا . وقد فاجأهم السلطان بتشتيت شملهم بتوزيعهم على عدة أماكن يرابطون فيها ، ثم ألقى القبض على رؤسائهم الذين تزعموا حركة العصيان فقتل بعضهم وعزل البعض الآخر (١) . وكان من بين المكاسب التى عادت على الدولة من الحروب التى خاضها تباعاً السلطان سليمان المشرع وبخاصة فى أوروبا وفى آسيا امتصاص نزعة التمرد من الإنكشارية (٢) . إذ لم يكن لديهم من الوقت متسع لتدبير حركات تمرد يقلقون بها الدولة . ويضاف سبب آخر هو قوة شخصية السلطان سليمان المشرع وشدة بطشه .

الإنكشارية يعترضون موكب سليم الثانى ويطالبونه بأعطيات :

تعرض السلطان سليم الثانى (١٥٦٦—١٥٧٤) فى مستهل حكمه للمهانة على

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٦—٦٧

(٢) يذكر المؤرخون للسلطان سليمان أنه جهز ست عشرة حملة .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى . الناشر دار المعارف . القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٦٨٤ ، ص ص ٦٩٣ — ٧٢٤ .

أيدى الإنكشارية حين دخل إستانبول لأول مرة عقب ارتقائه العرش مباشرة وسط مظاهرات صاخبة قاموا بها وأظهروا فى أثنائها ازدراءهم الشديد له ، إذ اعترضوا طريق موكبه بعربة ملئت تبناً . وتوقف الموكب السلطانى وطالبوا السلطان بدفع مبالغ ضخمة بمثابة أعطيات لهم حتى يسمحوا لموكبه بمواصلة التقدم إلى القصر . وقد رضخ السلطان لطلبهم .

تحدى الإنكشارية للسلطان مراد الثالث :

وعلى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) طالب الإنكشارية بتسليمهم كل من الباش دفـــتردار (١) وكان يتولى المسئولية عن أموال الإمبراطورية كلها ، ومحمد باشا بكلر بك الروملى (٢) ، وهو رئيس البكوات الصناجق ويشمل نفوذه الولايات العثمانية فى أوروبا . وكانت مدينة صوفيا مقر قيادته . وكان يحمل ثلاثة أطواخ (٣) ولقب باشا (٤) ، ويمثل السلطان كقائد أعلى فى الولايات الأوروبية ، ويتعين على الأمراء أنفسهم أن يطيعوه ويخضعوا له (٥) . وكانت حجة الإنكشارية فى طلبهم القبض على هذين الموظفين الكبيرين أنهما أرادا أن يصرفا لهم نقوداً فضية ناقصة المعيار . وكانت الحكومة المركزية فى إستانبول قد لجأت فعلا إلى هذا الإجراء

---

(١) كان الباش دفتردار هو دفتردار الروملى أول الأمر ، وكان يتولى الشئون المالية فى ولاية المجر ومنطقة الدانوب . وكان السلطان سليمان المشرع هو الذى أنشأ منصب دفتردار الروملى . فلما ضاعت المجر فى أواخر القرن السابع عشر ألغت الدولة هذا المنصب ، وأصبح دفتردار الروملى يلقب بإسم الباش دفتردار . وغدا مقره إستانبول .

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol., 1,Part, 1, p. 129, *Fn.* No. 5.

(٢) يرد ذكره فى بعض المراجع بكلر بك روم إيلى .

(٣) سبق أن شرحنا مدلول لفظة أطواخ فى ص ص ٣٦٤ — ٣٦٥ فى هذه الدراسة .

(٤) كان بكلر بك الروملى أعلى مرتبـــة من زميله بكلربك أناضولى ، أى باشا الأناضول ، وكانت أنقره مقر قيادته حتى عام ١٤٥١ ثم أصبحت كوتاهية مقر قيادته .

(٥) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

لمواجهة زيادة حجم الإنفاق العسكرى نتيجة تضخم عدد أفراد الإنكشارية بعد أن سمح السلطان مراد الثالث للمجندين المسلمين الأحرار بالالتحاق بالفيالق الإنكشارية كما رأينا فى الفصل السابق . ولما لم تستجب الدوائر العليا فى فى الدولة لطلب الإنكشارية جمعوا جموعهم واتجهوا إلى سكن كل منهما وضربوا حصاراً حول داريهما . ومنعوا دخول أو خروج أحد ، ثم اقتحموا الدارين وقتلوهما شر قتلة . وعجز السلطان وحكومته عن منع الإنكشارية من ارتكاب جريمتى القتل . وذهبت هاتان الشخصيتان ضحية طغيان الإنكشارية . وكان قتلهما تحدياً صارخاً لأكبر شخصية فى الدولة ، وهو السلطان مراد الثالث ، ومشجعاً فى ذات الوقت لبعض الفرق الأخرى فى الجيش على القيام بثورات أو حركات عصيان مثل فرقة الخيالة التى قامت بثورة بعد ذلك بسنوات قليلة على عهد السلطان مراد الثالث ، وثورة أخرى فى سنة ١٦٠٣ إبان حكم ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣)، ولكن كانت هذه الحركات قليلة إن لم تكن نادرة ، وكانت تحدث على فترات متباعدة ، وأهم من ذلك كله لم تبلغ درجة الخطورة التى كانت تبلغها حركات الإنكشارية .

الإنكشارية يعزلون ثم يعدمون السلطان عثمان الثانى :

اشتهر السلطان عثمان الثانى (١٦١٨-١٦٢٢) فى تاريخ الدولة العثمانية بلقب «كنج» بمعنى الحدث أى صغير السن الذى لم يبلغ الحلم . فكان يطلق عليه كنج عثمان، لأنه تولى العرش فى سن مبكرة غير مسبوقة بمثال . وطبقاً لما يذكره أحد الباحثين كان عثمان من مواليد سنة ١٦٠٤ (١) . وهناك سبب آخر لإطلاق هذا اللقب عليه هو تمييزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . وقد استخف به الإنكشارية وثاروا عليه وطلبوا منه إنهاء الحرب التى كان يخوضها ضد بولندا . وكان موقفهم يتعارض مع تقاليدهم بصفتهم

---

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

جنوداً محترفين ، ووظيفتهم الوحيدة هى القتال يستهوى أفئدتهم . واضطر السلطان إلى النزول على رغبتهم ، وعقد الصلح مع البولنديين فى أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٦٢٠ . وحنق السلطان على الإنكشارية لموقفهم المخزى ، فقد أوقف العمليات الحربية وعقد الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه من هذه الحرب . فاعتزم السلطان عثمان الثانى تصفية قوات الإنكشارية . وأمر بحشد قوات عسكرية كثيفة العدد من ولايات آسيا حتى إذا كملت هذه القوات عدداً وعدة استعان بها على إبادة هذه الفئة من الإنكشارية . وشرع فعلا فى تنفيذ خطته . وأحس الإنكشارية بهذه الحركة وثارت ثائرتهم . ووطدوا العزم على عزل السلطان عثمان الثانى . ونجحوا فعلا فى عزله فى اليوم الثلاثين من شهر مايو — آيار — عام ١٦٢٢ ، وهجموا عليه فى القصر السلطانى وأخذوه إلى ثكناتهم ، وأوسعوه سباً وشتما وضرباً ، ثم ساقوه إلى يدى قوله — قلعة الأبراج السبعة — التى أصبحت السجن الرسمى للدولة (١) حيث تم إعدامه (٢) . وقد كان لإعدام السلطان أصداء بعيدة ، إذ انتشرت الرهبة فى دوائر الحكومة وفى شتى القطاعات الجماهيرية . وعلا شأن الإنكشارية علواً كبيراً ، وأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم .

الإنكشارية يقتلون الصدر الأعظم إبان حكم السلطان مراد الرابع :

لم يمض وقت طويل على قتل السلطان عثمان الثانى حتى أقدم الإنكشارية على قتل حسن باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣— ١٦٤) (٣) . وقد بدأت أحداث هذه الجريمة حين أصدر السلطان مراد

---

(١) كان السلطان محمد الثانى — عقب فتحه القسطنطينية عام ١٤٥٣ — قد أعاد إنشاء الأسوار المحيطة بها ، وشيد عند طرفها الجنوبى الغربى ، إلى جانب بحر مرمرة ، هذه القلعة .

(٢) محمد فريد بك : مرجع سبق ذكره ، ص ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٣) تولى عرش الدولة بعد السلطان القتيل عثمان الثانى سلطان آخر ، أو بعبارة أكثر دقة أعيد للعرش السلطان مصطفى الأول (١٦٢٢ — ١٦٢٣) لأنه كان قد سبق أن ارتقى العرش (١٦١٧ — ١٦١٨) ، ثم خلع ، ثم أعيد عام ١٦٢٢ وظل متربعاً على العرش إلى أواخر شهر أغسطس — آب — عام ١٦٢٣ حيث خلع بإشارة المدعو كما نكش على باشا الصدر الأعظم لضعف

فرماناً بعزل خسرو باشا الصدر الأعظم وإعادة حافظ باشا إلى منصب الصدارة العظمى . فأراد الباشا المعزول أن يكيد كيداً للسلطان ، فاتصل برؤساء الإنكشارية وأبلغهم أن السلطان لم يعزله من منصبه إلا لأنه كان متعاطفاً مع الإنكشارية ويسارع إلى تنفيذ رغباتهم . فثار الإنكشارية وطالبوا بإعادة خسرو باشا إلى منصبه . وأصر السلطان مراد الرابع على موقفه ، فأشعل الإنكشارية فتنة كبيرة فى العاصمة ، وقتلوا حافظ باشا الصدر الأعظم فى اليوم التاسع من شهر فبراير — شباط — عام ١٦٣٢ ، وكان السلطان قد أخفق فى بسط حمايته عليه . ولكنه عمد إلى الرد عليهم رداً عملياً، فأمر بقتل خسرو باشا على أساس أنه محرك الفتنة العسكرية التى قام بها الإنكشارية ، وأصدر فرماناً بتعيين بيرام محمد باشا صدراً أعظم . وأصر السلطان على المضى فى خطته وهى إبادة الإنكشارية ، وأمر بقتل رؤسائهم الذين شاركوا فى الفتنة كخطوة أولى ، فلما فرغ منها أمر بتوسيع عمليات القتل لتشمل كل من يثبت عليه أنه شارك ولو مشاركة جانبية فى الفتنة التى أشعلوها . فلجأ الإنكشارية إلى خداع السلطان ، وتظاهروا بأنهم يلتزمون بقواعد الإنضباط العسكرى ، وأنهم يكنون للسلطان مراد الرابع كل تقدير وينفذون أوامره تنفيذاً صارماً ويطيعونه طاعة عمياء . واستهدفوا من هذا التظاهر التمويه على السلطان كى يوقف المذابح التى أمر بها . ولكنهم كانوا يبيتون أمراً آخر .

فلم يكد يمر شهران وبعض شهر حتى قاموا بحركة عصيان بقيادة رجب باشا فى شهر مايو — آيار — فى ذات السنة (١٦٣٢) ، فأمر

= عزيمته ووهن قواه العقلية . والحق أن هذا السلطان كان من أتعس سلاطين الدولة ، لأنه قضى حياته قبل توليه العرش معزولا عن العالم فى القفص (أنظر ما سبق ص ص ٣٥٠–٣٥١) . فلما تولى العرش أول مرة كان عديم التجارب . ولم يكن يدرى شيئاً عن أحوال الدولة . ولم يكن قد مارس أعمالا عامة . وقد أطلق عليه فى تاريخ الدولة لقب المعتوه أو الأبله . ويرد ذكره فى المراجع الفرنسية مقروناً بوصف L'idiot بنفس المعنى السابق . وتولى العرش بعد عزله للمرة الثانية السلطان مراد الرابع . وظل السلطان التعس مصطفى الأول مبعداً عن العرش وعن المجتمعات إلى أن قضى نحبه فى سنة ١٦٣٩ .

السلطان بقتله وإلقاء جثته من شبابيك القصر حتى يراها الإنكشارية (١) .
ومضت السنوات الأخيرة من حكم هذا السلطان فى جو هادئ نسبياً إذ أدرك الإنكشارية أنهم أمام سلطان قوى مقتدر .

الإنكشارية يعزلون ثم يخنقون السلطان إبراهيم الأول :

من الجرائم البشعة التى ارتكبها الإنكشارية أنهم قتلوا خنقاً السلطان ابراهيم الأول (١٦٤٠—١٦٤٨) . وكانت الحجة التى استندوا إليها أن السلطان يقف موقفاً عدائياً منهم ، وأخذوا يتناولونه بالنقد والتجريح ، واستقر رأيهم على عزله ، وانتهزوا فرصة زواج إحدى بنات السلطان من ابن الصدر الأعظم . وفى ليلة الزفاف اجتمعوا فى أورطة جامع — مسجد الفرقة — وانضم إليهم بعض علماء الدين وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندى . وقرروا عزل السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع (١٦٤٨—١٦٨٧) واتخذوا إجراءات عسكرية واسعة النطاق لتنفيذ قرارهم . وتمت هذه الثورة فى اليوم الثامن من شهر أغسطس — آب — عام ١٦٤٧ . وبدا أن زمام الموقف فى أيديهم . ولم تكد تمر عشرة أيام حتى أظهر رؤساء فرق الجيش الأخرى عدم ارتياحهم لتولية سلطان صغير السن عرش الدولة وطالبوا بإعادة السلطان إبراهيم إلى العرش . ورأى الإنكشارية إزاء هذه المعارضة أن يضعوا الجميع أمام الأمر الواقع . وقرروا قتل السلطان إبراهيم . وسرعان ما قاموا بحركة تمرد واتجهت جموعهم ومعهم الجلاد — قره على — إلى حيث يقيم السلطان وقتلوه خنقاً (٢) . كما قتلوا السلطان عثمان الثانى من قبله . وارتاحت نفوس الإنكشارية لهذا الإنتصار الرخيص وانفسح المجال رحيباً أمامهم كى يعيثوا فى الأرض فساداً منتهزين فرصة تولى سلطان صغير السن هو محمد الرابع (١٦٤٨—١٦٨٧) عرش الدولة،وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد وتعرضت الدولة لهزائم أمام الروسيا والنمسا والمجر وغيرها . وتدهور موقف الدولة إلى أسوأ مما كان قد وصل إليه قبل أن يلى الحكم السلطان مراد الرابع . ومع ذلك فإن السلطان

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٢٦ — ١٢٧ .

الجديد - محمد الرابع - على الرغم من حكمه الطويل لقي نفس المصير الذي لقيه معظم أسلافه . فقد عزله الإنكشارية في اليوم الثامن من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٨٧ ، وولوا أخاه السلطان سليمان الثاني وهو ابن السلطان إبراهيم الأول الذي سبق أن قتلوه خنقاً . أما السلطان المعزول - محمد الرابع - فلم يتعرض له الإنكشارية بالقتل ، وظل معزولا قرابة خمس سنوات حتى قضى نحبه في اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٩٢ .

الإنكشارية يعمدون إلى قتل الصدر الأعظم وسبي زوجاته أيام السلطان سليمان الثاني :

أغدق السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩١) العطايا على الإنكشارية وصفح عن عصيانهم الذي كانت نتيجته عزل السلطان محمد الرابع . ولكن لم تثمر الثمرة المرجوة سياسة المال والصفح التي انتهجها هذا السلطان مع الإنكشارية ، إذ اتخذوا إلى حركات العصيان سبيلا . فحاصروا قصر سياوس باشا الصدر الأعظم ، ثم اقتحموه ، وقتلوا الصدر الأعظم وعرف باسم قتيل الإنكشارية ، وألقوا القبض على زوجاته واتخذوهن سبايا . وأصبحت إستانبول تموج بالفتن والاضطرابات مما شجع أعداء الدولة على مهاجمة الممتلكات العثمانيـــة الأوروبية : في النمسا ، والمجر ، وبلاد اليونان ، والصرب .

الإنكشارية يطالبون بقتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا :

نشبت الحرب بين الدولة العثمانية على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠) وبين الدولة الصفوية على عهد الشاه طهماسب الثاني (١٧٢٢- ١٧٣٢) . وكان السلطان العثماني عزوفاً عن الحرب ، رغب في تسوية النزاع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية . ولكن ثار الإنكشارية في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ على سياسته السلمية ، إذ تحول بينهم وبين الحصول على غنائم الحرب وما تتيحه فتوح المدن من ممارسة

عمليات السلب والنهب . وتزعم ثورة الإنكشارية بترونا خليل (١) . وطلب من السلطان قتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا — قائد السلاح البحرى العثمانى — بحجة أنهم يؤيدون السلطان فى انتهاج سياسة سلمية تجاه الدولة الصفوية . ورفض السلطان الاستجابة لطلبهم أول الأمر . ولكنه تراجع عن موقفه حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ، وخشى أن تمتد شرور الإنكشارية إليه ، فسمح لهم بقتل الصدر الأعظم وقبودان باشا والإبقاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأى العام عليه . وقبل الإنكشارية هذا الحل على مضض . وقتلوا الصدر الأعظم وقبودان باشا ، وألقوا بجثتيهما فى البحر فى أول أكتوبر — تشرين أول — ١٧٣٠ . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يمنع رضوخ السلطان لطلبات الإنكشارية من تطاولهم عليه . وشجعهم على هذا التطاول تساهله المستمر معهم . فأعلنوا فى مساء ذات اليوم عزل السلطان ونادوا بتنصيب ابن أخيه السلطان محمود الأول . وأذعن السلطان أحمد الثالث لطلب الإنكشارية بدون معارضة . وظل معزولا إلى أن جاز إلى ربه فى اليوم الخامس من شهر أبريل — نيسان — عام ١٧٥٨(٢) .

الإنكشارية يقتلون رئيسهم :

لم تكن شرور الإنكشارية مقصورة على السلاطين والصدور العظام وكبار رجال الدولة فحسب ، بل امتدت إلى زعمائهم . لم يكن للسلطان محمود الأول (١٧٣٠—١٧٥٤) من السلطة إلا اسمها . واستأثر بالنفوذ بترونا خليل رئيس الإنكشارية الذى قاد حركة الانقلاب وعزل السلطان أحمد الثالث بعد أن قتل الصدر الأعظم وقبودان باشا . فكان يعزل من يشاء ويولى من يشاء من كبار الموظفين تبعاً لأهوائه ، وأصبح كبار رجال الدولة يتملقون هذا الزعيم الإنكشارى . وقد أوغل فى استبداده حتى عيل صبر السلطان محمود الأول .

---

(١) يرد ذكر اسمه فى بعض المراجع على هذا النحو : بطرونا خليل .

(٢) مما يذكر لهذا السلطان أنه أدخل المطبعة فى إستانبول وأسس دار طباعة فيها بعد أن استصدر فتوى من شيخ الإسلام تجيز هذا الإجراء واشترط الأخير عدم طبع القرآن الكريم خشية وقوع أخطاء مطبعية أو تحريف فيه .

وفى ذات الوقت تحركت الإطماع فى نفوس أفراد الفيالق الإنكشارية.وطالبوا زعيمهم بترونا خليل بتحسين أوضاعهم المالية . ولكنهم وجدوا على عكس ما كانوا يتوقعون أنه يستولى على بعض مخصصاتهم،فاتفقوا على التخلص منه معتمدين على كثرتهم العددية وتم لهم قتله دون أن يتحرك أحد للدفاع عنه . وهكذا انطبق على الإنكشارية القول إن الثورات تأكل بنيها . وبقتل هذا الزعيم عادت السكينة إلى إستانبول وأمن سكانها على أموالهم وأرواحهم . وباشر السلطان محمود الأول سياسة حربية نشيطة ضد الدولة الصفوية فى فارس ثم ضد النمسا والروسيا .

السلطان مصطفى الثالث يتجنب الاحتكاك بالإنكشارية :

ولما تولى العرش السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧–١٧٧٤) أراد أن يمضى فى حكمه آمناً مطمئناً من الإنكشارية حتى لا يصيبه منهم ما أصاب أسلافه . واتجه إلى تطوير السلاح البحرى وسلاح الطوبجية — المدفعية — واستقدم عدداً من الخبراء العسكريين الأوروبيين . وكان من بينهم البارون دى توت De Tott وهو مجرى الأصل ، التحق والده بخدمة الحكومة الفرنسية وحصل على الجنسية الفرنسية . وأوفدت حكومة باريس ابنه البارون دى توت إلى إستانبول حيث عكف على إصلاح سلاح المدفعية وسلاح البحرية (١) . وكانت الحرب الروسية العثمانية على أشدها ، وهى الحرب التى انتهت بمعاهدة كتشك كينارچى Küçük Kaynarca فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو — تموز — عام ١٧٧٤ (٢) . ولم تثمر إصلاحات السلطان مصطفى الثالث ، لأنها لم تمتد إلى القوات الضاربة الرئيسية فى الجيش وهى

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على . الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر . لم تذكر سنة الطبع ، ص ص ٧٦ — ٨٠ .

(٢) عقدت معاهدة كتشك كينارچى بعد أن جاز إلى ربه السلطان مصطفى الثالث فى اليوم التاسع من شهر شوال عام ١١٨٧ — الموافق اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر —كانون أول — ١٧٧٣ وأبرمت المعاهدة فى مستهل حكم أخيه السلطان عبد الحميد الأول .

البيادة — المشاة — ومن بينها الفيالق الإنكشارية(١) .

تمرد الإنكشارية على الدولة فى الصرب :

من الصور التى ينشح بها تاريخ الإنكشارية أنهم قاموا بحركة عضيان ضد الدولة فى الصرب فى السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩—١٨٠٧) . كانت الحرب قد اندلعت بين الدولة العثمانية وبين الروسيا والنمسا فى التاسع من شهر فبراير — شباط — عام ١٧٨٨ إبان حكم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤—١٧٨٩) . واستطاعت هاتان الدولتان إنزال هزائم بالقوات العثمانية فى اليوم الواحد والثلاثين من شهر يوليو — تموز — واليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر — أيلول — من عام ١٧٨٩ . وفى أثناء اشتعال هذه الحرب هرعت جموع كثيفة العدد من أهل الصرب إلى المجر حيث انضم أفرادها جنوداً بواسل إلى الجيش النمساوى أملا فى أن تنتهى الحرب بهزيمة ساحقة للدولة العثمانية ، ويستطيع الصربيون التخلص من الحكم العثمانى لبلادهم . ولكن لم تؤد الحرب إلى نتيجة حاسمة بسبب نشوب الثورة الفرنسية فى منتصف عام ١٧٨٩ وانصراف حكام أوروبا إلى مراقبة تطوراتها ونتائجها على بلادهم . وتدخلت بين الدول الثلاث المتحاربة بعض الدول المعادية لفرنسا مثل إنجلترا وبروسيا فتوقفت العمليات الحربية بعقد هدنة مع النمسا عام ١٧٩٠ تلتها معاهدة صلح معها فى ٤ من أغسطس — آب — ١٧٩١ ردت النمسا بمقتضاها معظم الأراضى التى احتلتها إلى الدولة العثمانية ، ثم دارت مفاوضات طويلة مضنية مع الروسيا تدخلت فيها بعض دول أوروبا لإنجاحها ، وأسفرت عن إبرام معاهدة صلح فى اليوم التاسع من شهر يناير — كانون ثان — ١٧٩٢ احتفظت فيها الروسيا لنفسها ببعض الأقاليم التى كانت قد استولت عليها فى أثناء الحرب .

ولما عاد الصربيون إلى بلادهم عقب انتهاء الحرب تعرضوا لعمليات

---

(١) دكتور السيد رجب حراز . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . (١٨٤٠ — ١٩٠٩) ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ص ١٥ — ١٦ .

السلب والنهب والقتل بصورة وحشية لم يسبق لها من قبل مثيل على أيدى الإنكشارية . وكانت الذريعة التى استندوا إليها هى أن الصربيين انضموا إلى أعداء الدولة فلا مناص من التنكيل بهم . وكان هذا القول تبريراً يتسترون به على غرضهم الحقيقى والأوحد ، وهو تحقيق منافع شخصية وعاجلة لهم بطريق غير مشروع . وكان تصرفهم مدعاة لإحراج الباب العالى أمام النمسا . إذ نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من معاهدة الصلح على أن « يمنع كل من الطرفين حصول التعدى والإهانة على الآخر ، ويعفو عن كل من اشترك فى الحرب من رعايا أحد الطرفين ضد الآخر ، وعلى الأخص جميع صنوف أهالى الجبل الأسود والبوسنة والصرب والأفلاق والبغدان ، بحيث يكون لهم الحق بمقتضى هذا العفو العمومى فى الرجوع إلى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم وحقوقهم أياً كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم جلالة السلطان صاحب السيادة عليهم والخليفة الأعظم ، أو لإظهار ولائهم لجلالة إمبراطور النمسا »(١) .

أرسل الباب العالى تعليمات عاجلة إلى السلطات العثمانية الحاكمة فى بلغراد استنكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد الصربيين ، وقال إنه أصدر عفواً عاماً لجميع أهل الصرب . وطلب أن تصدر السلطات العثمانية فى بلغراد أوامر مشددة إلى الفيالق الإنكشارية بعدم الاعتداء على الصربيين . غير أن الإنكشارية لم يحفلوا بهذه الأوامر واستمروا فى غيهم . وتوالت شكايات الصربيين على الحكومة المركزية فى إستانبول . فأصدرت أمراً إلى والى بلغراد بالتصدى للإنكشارية وطردهم من الأراضى الصربية كلية . وسارع الوالى إلى تنفيذ هذا الأمر وخاض ضدهم قتالا معتمداً على بقية القوات التى لديه ، وكان على رأسها السباهية — الفرسان الإقطاعيون — وتغلب عليهم ، ولقى رئيسهم «ولى أحمد» مصرعه .

الإنكشارية ينضمون إلى أحد الثائرين العتاة :

لجأ الإنكشارية إلى أحد المغامرين الثائرين العتاة ، وهو بازوند

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٨٦ — ١٩٢ .

أوغلى (١) ، ويعرف أيضاً باسم عثمان باشا . شق عصا الطاعة على الدولة ، واتخذ من ولاية ودين (٢) فى بلغاريا مقراً له ، وجمع فيها حوله قطاع الطرق والإنكشارية المتذمرين الذين أخرجوا من الصرب . وجردت الدولة عليه قوات جرارة ، ولكنه انتصر عليها ، فأرسلت إليه كوچك حسين باشا (٣) وظلت الحرب بينهما سجالا . وخشى حسين باشا أن يحذو حكام الولايات العثمانية فى البلقان حذو هذا الثائر ويقومون بثورات ضد الدولة . وأخذ السلطان سليم الثالث باقتراح حسين باشا وهو منح الثائر عثمان حكم ولاية ودين طوال حياته . وكان هذا الثائر من أكبر المعارضين لمشروع تطوير الجيش ومن أشد خصوم السلطان سليم الثالث عنفاً(٤) . وكان من الطبيعى أن ينضوى

---

(١) يرد ذكر اسمه فى بعض المراجع : باسبان أوغلى ، بازواند أوغلى ، بازوانت أوغلى ، بازواند زاده عثمان .

(٢) يرد ذكرها فى بعض المراجع العربية ڤيدين استناداً إلى اسمها بالفرنسيه Viddin وهى مدينة حصينه فى بلغاريا ، وتقع على نهر الدانوب وهى ذات موقع إستراتيجى هام وتبعد ٢٢٥ كيلو متراً عن بلغراد . واكتسبت شهرة خاصة فى تاريخ الدولة العثمانية ، إذ كانت مقراً للثائر بازواند زاده عثمان . .

(٣) يعد كوچك حسين باشا من أعلام العسكريين العثمانيين . وكان الذراع الأيمن للسلطان سليم الثالث فى تنفيذ مشروع تطوير القوات المسلحة العثمانية . وتطابقت وجهتا نظرهما فى ضرورة التخلص من الإنكشارية بعد أن أصبحوا عنصر فساد فى جسم الدولة ومن أسباب تأخرها . وقد ظفر بتقدير عميق من سليم الثالث وزوجه إحدى أخواته . وعينه قبوداناً عاماً أى رئيساً للسلاح البحرى العثمانى . وبذل جهوداً كبيرة فى إصلاح الثغور وإقامة القلاع الحصينة لحمايتها ، وأنشأ عدة سفن حربية على غرار أحدث السفن الإنجليزية والفرنسية . واستقدم عدداً كبيراً من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع ، وأدخل تطويراً جذرياً فى المدرسة البحرية ومدرسة الطوبجية — المدفعية — متمشياً مع أحدث النظم فى المدارس العسكرية الأوروبية. وعلى الرغم من أنه كان قائداً للسلاح البحرى ، فإنه أنشأ فى سنة ١٧٩٦ فرقة مشاة وفقاً للنظام الجديد، وجعل عددها ١,٦٠٠ جندى ، وعهد بتدريبهم إلى ضابط إنجليزى اعتنق الإسلام واشتهر بإسم « إنجليز مصطفى » .

(٤) كان عثمان باشا الملقب بازوند أوغلى (١٧٥٨ — ١٨٠٧) من أسرة نمساوية اعتنقت الإسلام . وكانت تقيم فى مدينة توزله من أعمال البوسنه فى النمسا . وأقطعت الدولة فى عام ١٧٣٩ على عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) جده المسمى باسبان أغا قريتين بالقرب من ودين فى بلغاريا مكافأة له على حسن بلائه فى الحرب التى خاضتها الدولة ضد الروسيا والنمسا عام ١٧٣٦ ، وكانت الجيوش النمساوية قد أغارت على —

= البوسنة والصرب وغيرهما . ولم يقتصر ميراث ابنه - عمر أغا باسبان أوغلى - على هاتين القريتين اللتين آلتا إليه ، بل كان بصفته بيرقداراً - حامل العلم - رجلا ثرياً مرموقاً . وقد قتله والى الجهة لأنه شق عليه عصا الطاعة . وكاد يلقى ابنه عثمان نفس مصير والده لولا أنه فر إلى ألبانيا . ولكنه عاد إلى النمسا بعد أن اشترك فى الحرب التى اشتعلت مرة أخرى بين الدولة وبين الروسيا والنمسا عام ١٧٨٨ ثم نزح إلى ولاية ودين عام ١٧٩١ ، وفيها انشغل هو ورجاله فى إعداد الحملات التى كان يبعث بها إلى الأفلاق والصرب ضد الدولة العثمانية . ولما أراد السلطان سليم الثالث معاقبته أعلن عثمان عصيانه عام ١٧٩٣ واعتصم بالجبال ، وغزا إقليم ودين فى أواخر ١٧٩٤ مستعيناً بعصابات قطاع الطرق والإنكشارية ، ثم هاجم فى سنة ١٧٩٥ الحاج مصطفى باشا والى بلغراد . وكان الأخير من أنصار تطوير الجيش العثمانى وعهدت إليه الدولة بالتخلص من عثمان ، إلا أنه أخفق فى تأديبه أو قتله . فأرسل الباب العالى عدة فرق لمحاربته ، ولكنها فشلت فى التغلب عليه . ورأت الدولة اتباع الطريق السلمى ابتغاء إعادته إلى حظيرتها رجلا من رجالاتها . ودارت اتصالات بينها وبينه فى أواخر عام ١٧٩٥ ، وأخفق الحل السلمى وظل عثمان مستقلا بالقطاع الشمالى من بلغاريا . ولم تعترف الدولة رسمياً به ، فعمد هذا إلى طرد الوالى العثمانى فى ودين . وقام عثمان بغزو الولايات المجاورة عام ١٧٩٧ واحتل وهدد فى الشرق بلداناً كثيرة فى بلغاريا ثم اتجه إلى بلغراد وفتحها ولكن استعصت عليه قلعة هذه المدينة ، إذ نجح فى الاحتفاظ بها العثمانيون والصربيون الذين سلحهم الحاج مصطفى باشا والى بلغراد .

وزاد من خطورة عثمان أن اتصالات دارت فى الخفاء بين فرنسا وبينه لتنسيق العمليات الحربية ضد الدولة . ووقف الباب العالى على أمر هذه الحادثات ، فأرسل قوات كثيفة العدد بقيادة كوچك حسين باشا وحاصرت ودين حتى أكتوبر ١٧٩٨ ثم رفعت الحصار بسبب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر فى مطلع شهر يوليو - تموز - عام ١٧٩٨ ونجاحها فى دخول القاهرة وانصراف الدولة إلى مواجهة هذا الموقف العسكرى والسياسى الجديد . كما أنها خشيت اتساع حركة العصيان فى البلقان فأخذت بنصيحة كوچك حسين باشا وعقدت على كره منها صلحاً مع عثمان ومنحته لقب باشا عام ١٧٩٩ .

وكان عثمان باشا يصرح بمعارضته لتطوير الجيش ، وباحتقاره للحكومة المركزية فى إستانبول، وبعدم ولائه للسلطان سليم الثالث ، مما يدل على أنه لم يكن صادق النية فى قبول الصلح. وقد أرسل عدة حملات لنهب ولاية الأفلاق فى عامى ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . وبمساعدته نجح الإنكشارية فى احتلال قلعة بلغراد فى صيف ١٨٠١ وفى قتل الحاج مصطفى باشا فى أواخر العام نفسه .

ولم يقنع عثمان باشا بما حققه من نجاح ، فسعى جاهداً لدى قيصر الروسيا كى يعتبره من رعاياه المخلصين . وعرض خدماته على فرنسا . واستبان للباب العالى أن عثمان يتأرجح فى ولائه للدولة، فقرر محاربته عام ١٨٠٣ ولم يكد يبدأ القتال حتى توقف بسبب ثورة الصرب عام ١٨٠٤. ثم وجد عثمان باشا فى ظهور الروس على الضفة اليسرى لنهر الدانوب عام ١٨٠٦ فرصة لمصالحة=

الإنكشارية تحت لواء هذا الثائر ، واستطاعوا بمساعدته حصار بلغراد ، ثم دخلوها وقتلوا واليها وانتشروا فى أطراف البلاد ينهبون ويسرقون . ولما ضاق الصربيون ذرعاً بالإنكشارية اجتمعوا لمناقشة وسائل الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . واستقروا رأياً على ضرورة ردع الإنكشارية باستخدام القوة ضدهم . وإنتخبوا رئيساً لهم منهم هو قره چورج Kara George أى جورج الأسود وهو سليل أسرة كارچڤيتش Kargeorgevic وطاردوا الإنكشارية وأبعدوهم عن القرى وضيقوا عليهم الخناق حتى حصروا إقامتهم فى المدن . وكان ساكنوهـا متحفزين للانقضاض عليهم إذا حدثتهم أنفسهم بالسلب والنهب أو أية صورة من صور العدوان . وأدرك الباب العالى خطورة الموقف فى الصرب نتيجة تصرفات الإنكشارية ، وأدرك أن هذا الموقف ملئ بالمفاجآت . وخشى أن ينقلب قتال الصربيين للإنكشارية إلى حركة قومية لا تستهدف القضاء على هذه الفئة الباغية ، بل طرد العثمانيين كلية من الصرب .

= الدولة العثمانية فعرض خدماته عليها ، ولكنها أعرضت عنه وعهدت بالقيادة العامة إلى قائد روستچق مما أثار حفيظة عثمان باشا وصمم على أن يدافع عن ودين وحدها ضد هجمات الروس والصربيين . ولكن عاجلته المنية فى ٢٧ يناير — كانون ثان — عام ١٨٠٧ .

والحق أن التقييم المحايد لشخصية عثمان باشا يكشف عن عدة حقائق عنه ، منها : أن الطابع الإسلامى العثمانى كان ضعيفاً باهتاً فى تصرفاته المتناقضة . وكان رمزاً للخيانة ، تأرجح فى ولائه بين أربع دول هى العثمانية والنمساوية والروسية والفرنسية . وكان رائده فى هذا التذبذب تحقيق منافع شخصية وأمجاد فى مجالات السياسة والحكم والحرب والمـال . وكانت الدولة العثمانية هى أكثر الدول الأربع معاناة من تصرفاته . انقلب عليها ، وساعد الإنكشارية فى حركة التمرد التى قاموا بها فى الصرب ، وانضم إلى صفوف الجيش النمساوى وحارب القوات العثمانية . وصبرت عليه الدولة وصابرته مصابرة متتالية ، وأصدرت عفواً شاملا عن جميع جرائمه التى وصلت إلى حد الخيانة العظمى ، وصالحته وعينته والياً على ودين طوال حياته ، وأخذ يجمع منها فى حزم واستبداد المكوس والضرائب . ثم عاود أسلوبه غير الأخلاقى واتصل بأعداء الدولة لمساندتهم عليها . ولمـا وجد إعراضاً منهم ، عاد يعرض خدماته عليها ، ولكنها نبذته ، إذ وجدت أنه وصولى متقلب ، فكان بحق رمزاً للسياسة المكيافيلية بين باشوات الدولة ينقلب بين عشية وضحاها على أولياء نعمته .

انظر :

Bajraktarevich F. i Encycl. of Islam. Art. Passvan – Oglou.

فأرسل الباب العالى إلى بكير باشا والى البوسنه يأمره بالزحف على بلغراد وطرد الإنكشارية منها . وقد استطاع بكير باشا بقواته ومساعدة الصربيين دخول بلغراد التى كان الإنكشارية معتصمين بها . ونجح فى طردهم منها ثم تعقبهم حتى شتت شملهم . وعاد بكير باشا إلى مقر منصبه فى البوسنه .

وبعد فترة قصيرة عاود الإنكشارية سيرتهم الأولى . جمعوا فلولهم ومارسوا بحماس مسعور عمليات النهب والسلب وإزهاق الأرواح . فقام الصربيون عام ١٨٠٤ بزعامة قره جورج وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفاً، لأن الصربيين اعتبروهم مسئولين مسئولية كاملة ومباشرة عن الأعمال الإجرامية التى قام بها الإنكشارية وعن إبتعادهم عن قواعد الانضباط العسكرى . وحفلت هذه الحرب بملاحم بطولية، وانشحت أيضاً بمذابح دموية بين الطرفين. واستطاع الصربيون مقاومة العثمانيين ثمانى سنوات متعاقبة. ونجح قره جورج فى تدعيم مركز الصربيين فحصل فى المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٨١٢ على وعد بالاستقلال الذاتى لبلاده ، غير أنه لم يلبث أن دب الشقاق بين الصربيين واضطر إلى الفرار إلى الأراضى النمساوية ، ثم أشعل منافسه وقاتله ميلوش أوبرينـــو ڤيتش Milos Obrenovic ثورة أخرى عام ١٨١٥ ونجح فى دعم استقلال الصرب استقلالا واقعياً *de facto* أى يستند إلى الأمر الواقع (١) ، واستطاع بعد الكثير من التسويفات المضنية الحصول على دستور لبلاده والاعتراف به أميراً للصرب (٢) .

نخرج من هذا العرض السريع لحركات تمرد الفيالق الإنكشارية فى الصرب بحقائق هامة ، منها : أن شرور أفراد هذه الفيالق لم تكن مقصورة على إستانبول وضواحيها وعواصم الولايات العربية فحسب ، بل امتدت شرورهم إلى البلقان ، وهى منطقة حساسة ، إذ كانت موطن الثورات قامت بها الشعوب المسيحية البلقانية على الحكم العثمانى مدفوعة بعامل القومية من ناحية ، وعامل

---

(١) سبق أن شرحنا مدلول هذا المصطلح القانونى . انظر ص ص ٢٦٤ — ٢٦٥ فى هذه الدراسة .

(٢) Grant A.J. and Temperley,; op. cit., p. 203.

الدين من ناحية ثانية ، وتشجيع الروسيا من ناحية ثالثة . وكان قيام الصربيين بقتال الإنكشارية للحد من شرورهم مقدمة لتطور هذا القتال إلى محاربة الدولة العثمانية لإجبارها على دفع عادية الإنكشارية عنهم ، ثم تطور القتال إلى محاربة الوجود العثمانى فى الصرب . وكان الصربيون ، وليس اليونانيون ، هم أول شعوب البلقان سعياً وتحركاً فى سبيل حرية البلقان ، فهم الذين أشعلوا الشرارة الأولى عام ١٨٠٤ بزعامة قره چورج ، على الرغم من أن الصرب كانت أكثر خضوعاً لإستانبول من إقليمي مولداڤيا ، وولاشيا (١) . وكان ضعف الدولة العثمانية وترددها أو تلكوءها فى الضرب على أيدى الإنكشارية فى الوقت المناسب مما شجع شعوب البلقان على القيام بحركات استهدفت الانفصال عن الدولة واستقلال هذه الشعوب .

سليم الثالث يعين قائد الإنكشارية صدراً أعظم :

أبدى السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) منذ أن ارتقى العرش اهتماماً عميقاً بإدخال « النظام الجديد » فى الجيش وذلك بإعادة تنظيم الفرق العسكرية وتطوير أسلحتها وتدريبها على غرار الجيوش الأوروبية الحديثة . واتخذ الزى الأوروبى للجيش ، وشيد ثكنة خاصة به ، واستقدم من أجل تعليمه وتدريبه خبراء عسكريين من بعض الدول الأوروبية ، ولكن اعترض الإنكشارية على هذه السياسة الإصلاحية فى الجيش جملة وتفصيلا اعتقاداً منهم أن هذه السياسة وإن لم تمسسهم مساً مباشراً وفورياً فى أول الأمر ، فإنها ستؤدى فى النهاية إلى القضاء على الفيالق الإنكشارية .

والحق أن الشغل الشاغل للسلطان سليم الثالث كان - بجانب الحروب التى خاضها ضد الروسيا والنمسا وفرنسا والثورات الداخلية التى واجهها - هو إدخال « النظام الجديد » وتعميمه فى جميع فرق الجيش . وقد تخبط فى سياسته إزاء المعارضة التى حمل لواءها الإنكشارية ، فكان يتجنب الاحتكاك

---

(١) يطلق على هذين الإقليمين أيضاً البغدان والأفلاق ، وهما يكونان الجزء الأكبر من رومانيا حالياً .

بهم حيناً ، ويدخل معهم فى مواجهة عسكرية حيناً ثانياً ، ويرضخ لطلباتهم حيناً ثالثاً .

كان مركز الخطر هو الفيالق الإنكشارية المرابطة فى الولايات العثمانية فى أوروبا . وقد اتخذ أفرادها من مدينة أدرنة وكراً للمؤامرات . ورأى السلطان استخدام سياسة الضغط العسكرى عليهم، واستقدم من الأناضول قوات عسكرية بقيادة عبد الرحمن باشا ، وكان من أشد المتحمسين لتطوير الجيش . وبعد أن أقامت هذه القوات بعض الوقت فى إستانبول حيث استعرضها السلطان ، واصلت مسيرها إلى أدرنة فى منتصف شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ ، ولكنها فشلت فى اقتحام المدينة بعد عدة محاولات وعادت أدراجها إلى إستانبول . وأذعن السلطان لمطالب الإنكشارية وهم فى قمة الانتصار . وكان من بينها إعادة الفرق العسكرية الجديدة التى هاجمتهم فى أدرنة إلى الأناضول ، وإلغاء النظام الجديد أو على الأقل وقف تطبيقه على الفيالق الإنكشارية ، وعزل الصدر الأعظم ، وتعيين أغا الإنكشارية صدراً أعظم ، وتعيين بعض ضباط الإنكشارية فى مناصب قيادية فى أجهزة الحكومة . وهكذا استشرى نفوذ الإنكشارية وطغيانهم ، فأصبحوا وكأنهم دولة معادية انتصرت على السلطان وأملت عليه شروطها ، فقبلها كرئيس دولة منهزمة .

الإنكشارية يضمون المتصوفة وبعض علماء الدين إليهم :

لم يقنع الإنكشارية برضوخ السلطان لمطالبهم . بل كان هذا الرضوخ مشجعاً لهم على مواصلة سياستهم العدائية نحو السلطان . وأخذوا يتناولون هذا العاهل بالنقد والتجريح . واستقر رأيهم على خوض جولة جديدة لعزله من الحكم . واصطنعوا وسائل جديدة ، منها : تأليب بعض عناصر الشعب عليه ، وضم فريق من علماء الدين ورجال الطرق الصوفية إليهم . وكانت هذه الطرق قد انتشرت انتشاراً واسعاً فى آسيا الصغرى أولا ثم فى الروم إيلى بعد ذلك . وكان الإنكشارية يستمدون نفوذهم وسطوتهم من البكتاشية ،

وهم من أكبر الطرق الصوفية فى الدولة . ويقول أحد المستشرقين الألمان « إن الإنكشارية قد انضووا تحت لواء الطريقة البكتاشية »(١). واستند علماء الدين والمتصوفة فى معارضتهم للنظام العسكرى الجديد إلى أن التعليم العسكرى من الأمور التى لم يعرفها الإسلام ، وأن الفتوحات الإسلامية كلها تمت دون أن تحتاج إلى أمثال هذا التعليم(٢). وخلصوا من هذا القول إلى أن النظام الجديد إنما هو بدعة . وأخذوا يرددون الحديث النبوى الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » . وذهبوا فى معارضتهم إلى الزعم بأن من مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم (٣) . وكان لصدور هذه الآراء وغيرها عن بعض علماء الدين والمتصوفة أصداء بعيدة فى الرأى العام . وهكذا تكونت جبهة عريضة لمعارضة « النظام الجديد » . وكان قوام هذه المعارضة الفيالق الإنكشارية وعلماء الدين ورجال الطرق الصوفية وعدة قطاعات جماهيرية أخرى كثيفة العدد من الجهلاء ، وانضم إليهم فريق من النفعيين والوصوليين من رجالات الدولة. وانفسح المجال أمام الدسائس والمؤامرات. ووقع اختيار هذا الخليط من المعارضين لتطوير أنظمة الجيش على رئيس لهم يدعي قباقجي أوغلي . وضع خطة محكمة لاغتيال كبار رجال الدولة المؤيدين للنظام الجديد ، ثم إلغاء هذا النظام ، ثم عزل السلطان سليم الثالث أو اغتياله إذا تطلب الأمر إقصاءه عن العرش .

الإنكشارية يعزلون السلطان سليم الثالث :

ولما اطمأن رؤساء الإنكشارية إلى هذا التخطيط واستكمال خيوطه وعناصره ، قررو االقيام بحركة تمرد تعبيراً عن استنكارهم للنظام العسكرى الجديد . وحشدوا فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨٠٧ جموعاً غفيرة العدد من الجنود الإنكشارية فى آت ميدانى، أى ميدان الخيل .

---

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٢) ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ .

(٣) دكتور السيد رجب حراز : الدولة العثمانية ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

وطبقاً لتقاليدهم جاءوا بالقزانات ، وهي قدور الطعام ، فارغة ، ووضعوها مقلوبة في صفوف متراصة ومنتظمة ، علامة على عصيانهم . وتليت عليهم أسماء جميع المؤيدين للنظام العسكري الجديد من الوزراء وكبار موظفي الدولة، ثم انطلقوا إلى مساكنهم وقتلوهم ، وأتوا برءوسهم ووضعوا كل رأس أمام قزان من القزانات ، ثم فرضوا حصاراً محكماً حول قصر السلطان . وأرغموه على إصدار فرمان بإلغاء النظام الجديد وتسريح الجنود الذين التحقوا بالجيش وفقاً لهذا النظام . ولكن لم يقنع الإنكشارية بتراجع السلطان سليم الثالث عن مشروع إصلاح الجيش، وخشوا أن يعود في يوم ما إلى تنفيذ هذا المشروع، فقرروا عزله بعد أن استصدروا فتوى من شيخ الإسلام جاء فيها « إن كل سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » (١). وعهد الإنكشارية إلى شيخ الإسلام ، وكان ضالعاً معهم ، بتبليغ هذه الفتوى إلى السلطان . فذهب إليه وأبلغه بها « مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية » (٢) . وأذعن السلطان وغادر القصر السلطاني . ولم تستمر حركة عصيان الإنكشارية سوى يومين . ونودي في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨٠٧ بعزل السلطان سليم الثالث وتنصيب السلطان مصطفى الرابع — وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول — خلفاً له . وتفرق الجنود النظاميون شذر مذر ، وألغى مشروع تطوير الجيش العثماني لاعتراض الإنكشارية عليه . وقتل بعض الوزراء المحبذين لهذا المشروع ، بينما اختفى البعض الباقي منهم عن الأنظار . ولم يكن خضوع السلطان سليم الثالث لقرار الإنكشارية بعزله عاصماً له من القتل في العام التالي ، أي في سنة ١٨٠٨ ، حين أمر خلفه السلطان مصطفى

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

وانظر أيضاً :

سامي الكيالي : الأدب والقومية في سورية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨٣ .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

الرابع بقتله عندما طالب أنصار النظام الجديد بإعادته إلى العرش حتى يستمر فى تنفيذ مشروع إنشاء الجيش الجديد .

الصراع بين أنصار النظام الجديد وخصومه :

كان السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ — ١٨٠٨) يدرك أنه مدين بارتقائه العرش للإنكشارية ولشيخ الإسلام . فالأولون قاموا بحركة عصيان ونادوا بتنصيبه سلطاناً بعد أن خلعوا سلفه السلطان سليم الثالث ، بينما كان شيخ الإسلام ضالعاً معهم فى هذه الحركة . وقد وعى السلطان الجديد هذا الدرس تماماً . فغدا أداة طيعة لينة فى أيدى الإنكشارية وشيخ الإسلام . وأمسى النفوذ فى إستانبول مركزاً فى هاتين القوتين . استجاب السلطان لرغبة الإنكشارية ، فعين قباقجى أوغلى قائداً لجميع قلاع البوسفور . وأعاد الإنكشارية القزانات — قدور الطعام — إلى ثكناتهم كتعبير عملى عن رضائهم على السلطان مصطفى الرابع ، وأخلدوا إلى السكينة .

ولكن حين ترامت إلى الجيش العثمانى الذى كان يخوض حرباً أوروبية ضد الروسيا فى ولاية البغدان — أنباء الفتنة التى قام بها الإنكشارية المرابطون فى إستانبول اغتبطت فيالق الإنكشارية المشتركة فى هذه الحرب ، لأنه كان من نتائج هذه الفتنة وقف تنفيذ مشروع « النظام الجديد » . ولكن القائد العام للجيش ، وهو حلمى إبراهيم باشا ، الصدر الأعظم ، اعترض على حركة العصيان التى قام بها الإنكشارية فى إستانبول وعزلوا فيها السلطان سليم الثالث . فثار الإنكشارية على الصدر الأعظم وقتلوه ، وأقاموا مكانه مصطفى شلبى باشا وأصبح لقبه القائمقام مصطفى باشا إلى أن يصدر السلطان فرماناً بتثبيته فى منصبه الجديد . ووقع الاضطراب فى صفوف الجيش وفى وقت عصيب كانت تمر به الدولة وقتذاك . . ولكن كان من حسن حظ

---

(١) أنظر دور الإنكشارية فى الاضطرابات العسكرية والسياسية التى واجهتها الدولة فى تلك الفترة فى كل من :

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١١ — ٢١٧ .

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., pp. 74—76.

الدولة أن انتصر فى ذلك الوقت نابليون الأول على الروسيا وبروسيا فى موقعة فريدلاند Friedland فى اليوم الرابع عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٠٧ وتقهقرت الجيوش الروسية من ولاية البغدان . من غير قتال ونجا الجيش العثمانى من التمزق أو التحطيم . ويلاحظ أنه تعاقب على منصب الصدارة العظمى فى إستانبول عدد من الصدور العظام فى الفترة من سبتمبر — أيلول — عام ١٨٠٧ حتى شهر نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٨٠٨ ، وكان عدم الاستقرار السياسى فى أجهزة الحكم من أبرز خصائص هـذه الفترة . وانقسمت البلاد بين أنصار النظام الجديد وخصومه . وكان للإنكشارية دور بارز فى تصعيد الفوضى السياسية والعسكرية التى حاقت بالبلاد .

مصطفى باشا البيرقدار وخلان روستجق :

كان مشروع إصلاح الجيش قد اكتسب أنصاراً أقوياء فى بعض الولايات العثمانية . واستنكروا الأحداث التى تتابعت فى إستانبول من عصيان الإنكشارية وإلغاء النظام الجديد وعزل السلطان سليم الثالث . وكان فريق من هؤلاء الأنصار يقيمون فى روستجق (١) Ruschuk وعرفوا فيما بعد باسم « خلان روستجق » وكان على رأسهم مصطفى باشا البيرقدار (٢) حاكم

---

(١) يرد اسم المدينة فى بعض المراجع على هذا النحو : روسچوق ، روسچق ، روسيك

(٢) يرد اسمه فى بعض المراجع : العلمدار. والكلمتان بمعنى واحد هو حامل العلم . وكلمة بيرقدار تتكون من بيرق بمعنى علم وكلمة دار ومنها البيرق النبوى أى العلم النبوى . وتترجم بعض المراجع الإنجليزية كلمة البيرقدار Standard - bearer بينما تذكر بعض المراجع الإنجليزية اللفظة التركية بحروف لاتينية على هذا النحو :

بيرقدار Bayrakdar

علمدار Alemdar

والأصل فى شاغل هذه الوظيفة أنه كان أكبر ضباط الخدمة الخارجية فى قصر السلطان ، وكان مسئولا عن العلم السلطانى والشعار الخاص بالسلطان وهو تسعة أطواخ . ولم يكن يطلق على هذا الضابط « بيرقدار » بل « ميرعلم » . ومعناها أمير العلم وكان البيرقدار يقدم الى حكام الولايات عند تعيينهم شعارات تتناسب مع درجة وظيفة كل منهم . وكان مسئولا أيضاً عن فرقة القصر الموسيقية العسكرية ، ثم أضيف إليه اختصاص آخر هو الإشراف على مجموعة من المبعوثين الخصوصيين الذين سموا لأسباب تاريخية قبابيچى باشيه —

المنطقة . وكان هو الآخر يفيض حماساً لإدخال النظم الأوروبية الحديثة فى الجيش ، بعد أن كان فى مطلع حياته من أشد المعارضين عنفاً لتطوير الجيش . وكان تحت إمرته قوة تتكون من ستة عشر ألف جندى ، وقرر الزحف على إستانبول لردع الإنكشارية وإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش لتمكينه من مواصلة تنفيذ مشروع إصلاح الجيش . وكان هذا السلطان لا يزال على قيد الحياة .

أسرّ مصطفى باشا البيرقدار إلى مصطفى باشا شلبى الصدر الأعظم وبعض الوزراء برأيه وهو إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش ، وأقنعهم بضرورة مساءلة كل من شيخ الإسلام وقباقجي أوغلى باعتبارهما مسئولين عن حركة التمرد التى حمل لواءها الإنكشارية وعزلوا فيها السلطان سليماً الثالث واستأثروا بالنفوذ . واستصدر الصدر الأعظم أمراً من السلطان بإعدام قباقجي أوغلى تأسيساً على أنه كان السبب المباشر فى قتل الكثيرين من كبار موظفى الدولة بصفته رئيساً لحركة التمرد التى تمت فى أواخر شهر مايو — آيار — عام ١٨٠٧ . وقد عهد الصدر الأعظم إلى أحد رجاله — حاجى على — بتنفيذ هذا الأمر على أى صورة من صور القتل . فسار الأخير على رأس مائة فارس إلى إستانبول لقتله ، بينما كان مصطفى باشا البيرقدار متجهاً إلى العاصمة فى ستة عشر ألف جندى عن طريق أدرنة . ولما وصل حاجى على إلى مشارف إستانبول علم أن قباقچي أوغلى مقيم فى قصر خارج العاصمة فاقتحم القصر وقتله . وفى ذات الوقت وصل مصطفى باشا البيرقدار مع قواته وعسكر خارج إستانبول ، وانضم فرسان حاجي على إلى قوات البيرقدار .

عزل ثم قتل السلطان مصطفى الرابع :

حين علم السلطان مصطفى الرابع بهذه التطورات ازدادت هواجسه

= (جمع قابيجى باسى) أى كبار الحراس . وكان حكام الولايات العثمانية يعهدون إلى ضباط من ذوى الرتب العالية بالعناية بأعلامهم الخاصة وبشعاراتهم . وكان يطلق على كل من هؤلاء الضباط بيرقدار أو لقب آخر له نفس المعنى هو الصنجق دار . وكان لكل أورطه من الإنكشارية حامل علمها ويسمى بيرقدار . وكان هذا اللقب يطلق أيضاً على بعض زعماء ألبانيا الوراثيين .

وخشى على نفسه أن يصيبه سوء ، فانقلب على الإنكشارية وأنصارهم ، أو لعله تظاهر بهذا الموقف المعادى لهم ، فأمر بعزل شيخ الإسلام الذى كان ضالعاً مع خصوم « النظام الجديد » والذى حارب بقلبه ولسانه وقلمه إدخال الأنظمة الحديثة فى الجيش ، وأمر السلطان أيضاً بتسريح الفيالق الإنكشارية التى كانت تحت قيادة قباقچي أوغلى ، وهى الفيالق التى كانت لها اليد الطولى فى عزل السلطان سليم الثالث وإيقاف العمل فى تطوير الجيش . وتظاهر البيرقدار بأنه راض تماماً عن الوضع الجديد ، وأشاع أنه عازم على العودة إلى مقر منصبه فى روستچق . وفى صبيحة اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو — تموز — عام ١٨٠٨ اتجه بقواته إلى القصر السلطانى ، وطالب بإعادة السلطـــان سليم الثالث إلى العرش . وازداد السلطان مصطفى الرابع اضطراباً ، وتأرجح فى موقفه حيال أنصار « النظام الجديد » وخصوم هذا النظام . وتغلبت عليه نزعة البقاء على العرش ، فأمر بقتل السلطان سليم وإلقاء جثته إلى الثائرين . وكان فى تقديره للموقف الصعب الذى يحيط به من يمين ويسار أن الثائرين يعودون أدراجهم بعد أن يروا بأعينهم ويتأكدوا أن السلطان الذى يطالبون بإعادته إلى الحكم قد غدا جثة هامدة . ولكن أدى هذا القتل إلى نتيجة عكسية تماماً، فازداد الثائرون هياجاً ، ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع وتعيين أخيه محمود سلطاناً للدولة باسم محمود الثانى . وأمروا باعتقال السلطان المعزول فى نفس القصر الذى كان محجوزاً فيه السلطان سليم الثالث . وقد قتل فى ذات السنة التى عزل فيها (١٨٠٨) وهى ذات السنة أيضاً التى شهدت قتل سلفه .

* * *

الفصل التاسع عشر

مراكز القوى فى الدولة (٣)
الخطـوة الحـاسمة
الغــاء الفيــالق الانكشــارية

السلطان محمود الثانى يحاول تطويع الإنكشارية بالحسنى :

كان السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ – ١٨٣٩) ذا عزيمة قدت من حديد . صمم على تعميم تطوير القوات المسلحة بجميع أسلحتها وفرقها بما فيها الفيالق الإنكشارية ، ولكنه آثر أول الأمر أن يسلك مسلكاً سلمياً تجاه الإنكشارية . وحاول بالحسنى إقناعهم بقبول إدخال النظم الحديثة فى الفيالق الإنكشارية حتى تكون متمشية فى تنظيمها وتسليحها وتدريبها مع سائر الفرق العسكرية فى الجيش . وعرض فى ذات الوقت معاشاً على كل من يرفض منهم مشروع الإصلاح الجديد فى الفيالق الإنكشارية . ولكنهم رفضوا هذا العرض بشقيه ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا.

وعلى الرغم من موقف الرفض الذى اتخذه الإنكشارية ، وعلى الرغم من أن السلطان محمود كان موقناً أنهم لن يرضخوا لطلبه ، إلا أنه أراد أن يمد لهم فى حبال الصبر ويمنحهم فرصة أخرى لحسم موقفهم قبل أن يخوض مواجهة عسكرية سافرة ضدهم . فعهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار بتنفيذ خطته . وكان قد عينه فى منصب الصدارة العظمى منذ أن ارتقى العرش ، لأنه كان من أنصار تطوير الجيش من ناحية ، ولأنه كان قائد حركة الانقلاب العسكرى التى نادت به سلطاناً من ناحية أخرى . دعا البيرقدار إلى اجتماع يعقد فى القصر السلطانى فى إستانبول فى مطلع شهر أكتوبر – تشرين أول – عام ١٨٠٨ ، ووجه البيرقدار الدعوة إلى عدد من

أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام، وبكلر بك الروم إيلى ، وبكلر بك أناضولى ، وحكام الولايات القريبة من العاصمة ، وقادة أسلحة الجيش ، ومن إليهم من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين ، وكذلك الأعيان (١) ، ورؤساء العائلات الإقطاعية القوية فى الأناضول والذين يطلق عليهم «دره بكوات»(٢) Derebeys أى أمراء الوديان(٣) Valley Lords .

وشرح لهم الصدر الأعظم التدهور الذى أصاب الإنكشارية بعد أن كانوا أداة بطش يرهبون أعداء الدولة وينزلون بهم أفدح الخسائر ، وما يجب أن يكونوا عليه من الالتزام الصارم بالانضباط العسكرى ، وضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، والتى كان استخدامها فى الجيش الروسى فى مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة . ثم اختتم الصدر الأعظم حديثه إلى المجتمعين بعرض اقتراحات هامة ، كان من بينها : إلزام الإنكشارية فى أوقات السلم بملازمة ثكناتهم ، وخصوصاً غير المتزوجين منهم ، وإيقاف صرف مرتبات وبدلات الساكنين خارجها ، وضرورة مواظبتهم على حضور التدريبات العسكرية ، وتسليحهم بالأسلحة النارية الحديثة . وأكد الصدر الأعظم اعتقاده الراسخ أنه لو استجاب الإنكشارية لهذه المقترحات وغيرها فإنهم يستعيدون مجدهم الحربى القديم ويصبح الجيش العثمانى من أقوى جيوش العالم كما كان فى أول الأمر ، وقبل أن تتسرب الفوضى إلى صفوفهم وقبل أن يتجاوزوا اختصاصاتهم بتدخلهم فى الشئون السياسية الخارجية والداخلية للدولة مثل عزل السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم مما عرض الأجهزة الحكومية لهزات عنيفة أمام أعداء الدولة . . وقد أقر

---

(١) الأعيان طبقة بدأ ظهورها فى القرن السابع عشر تتكون من الشخصيات البارزة فى كل ولاية . وكان الأهالى هم الذين ينتخبون أولئك الأعيان لتمثيلهم لدى السلطات المحلية . وكان السلطان يصدر فرماناً بتعيينهم . وكانوا يخاطبون بهذا المصطلح : « أعيان ولايت وايش أرلرى » أى أعيان الولاية ورجال الشئون.وكانوا يستمدون نفوذهم من كونهم ملاك الأرض . وفى القرن الثامن عشر تطورت اختصاصاتهم فأصبحوا يشرفون على الإدارات المدنية والمالية فى المدن .

(٢) انظر نشأة واختصاصات هذه العائلات فى

Lewis B.: The Emergence etc., op. cit., p. 38

الحاضرون مقترحات الصدر الأعظم الذى لم يكتف بهذه الموافقة الإجماعية ، بل استصدر فتوى من شيخ الإسلام الجديد بضرورة تنفيذ نظام الإنكشارية بكل حزم وصرامة . فأصدر الصدر الأعظم أوامره بتنفيذ مقترحاته متحصناً بموافقة المجلس الذى دعا إليه وبالفتوى التى حصل عليها من شيخ الإسلام(١).

تحدى الإنكشارية للسلطان والصدر الأعظم :

لم يأبه الإنكشارية برغبة السلطان ولا بأوامر الصدر الأعظم ، وصحت عزيمتهم على مقاومته . وطبقاً لتقاليدهم وضعوا القزانات ، قدور الطعام ، مقلوبة دلالة على قيامهم بحركة عصيان . ولم يكن لدى الصدر الأعظم قوات تحت تصرفه سوى ستة عشر ألف مقاتل جاء بها من روستچق ، وهى المنطقة التى كان يحكمها قبل تعيينه صدراً أعظم ، وثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود النظاميين السابق، وبعض سفن حربية تحت إمرة رامز باشا أمير البحر .

هزيمة الصدر الأعظم أمام الإنكشارية ومصرعه :

حشد الإنكشارية جموعهم فى مدينة فيليبة (٢) وأعلنوا العصيان . فوجه الصدر الأعظم اثنى عشر ألف جندى لمحاربتهم . ولم يبق لديه سوى أربعة آلاف مقاتل والثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا . وأدرك الإنكشارية ضآلة حجم القوات التى لدى الصدر الأعظم . وانتهزوا هذه الفرصة الذهبية كى يكيدوا كيداً للسلطان الجديد محمود الثانى وللصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار. واتجهوا فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٨٠٨ إلى قصر السلطان المعزول مصطفى الرابع لإعادته إلى العرش . وتصدى لهم الصدر الأعظم وقاومهم مقاومة عنيفة . ولكن استبان له أن القتال يدور فى صالح الإنكشارية. وخشى العواقب الوخيمة التى تنجم عن انتصارهم ، ومن أهمها أن الإنكشارية يعلنون عزل السلطان محمود

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١٥ — ٢١٦ .
(٢) مدينة تقع فى مقدونيا .

الثانى وإعادة السلطان مصطفى الرابع إلى العرش . فأمر الصدر الأعظم بقتل السلطان المعزول . وكان رائده من هذا القتل هو إفساد خطة الإنكشارية ، فإن السلطان مصطفى الرابع كان الورقة الرابحة فى أيديهم . وقد أمر الصدر الأعظم بإلقاء جثة السلطان مصطفى للإنكشارية ، وما أن وقعت أعينهم على جثة السلطان حتى ازدادوا هياجاً،وأضرموا النار فى القصر كي يضطر الصدر الأعظم إلى الفرار ويقع أسيراً فى أيديهم ويمثلون بجثته بعد قتله . ولكن الصدر الأعظم آثر الموت على التسليم للإنكشارية،فأقدم على عملية انتحارية وظل يدافع هو ومن معه حتى مات حرقاً . ويقال إنه تحصن فى أحد الأبراج ثم أشعل النار فى البارود المكدس فى هذا البرج ومات هو ومن معه تحت الأنقاض فى شهر نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٨٠٨ .

وفى أثناء دفاع الصدر الأعظم كان رامز باشا أمير البحر قد رسا بسفنه الثلاث فى مضيق البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الإنكشارية ، ثم نزل إلى البر مع فريق من البحارة ورجال المدفعية وسار بهم لتدعيم قوات الصدر الأعظم . ولم يكن يدرى أنه قضى نحبه ، وفى ذات الوقت كان عبد الرحمن باشا ومعه ثلاثة آلاف جندى يسرعون فى زحفهم لمساعدة الصدر الأعظم ، وفوجئوا بنبأ وفاته . ولم يتطرق اليأس إلى رامز باشا وعبد الرحمن باشا وقررا مواصلة قتال الإنكشارية ، ولكنهما عجزا عن إحراز أى نصر عليهم . واستمر إطلاق المدافع والبنادق فى الآستانة طوال اليوم . ولما سجا الليل رأى رامز باشا أمير البحر أن يعفو عن جميع الإنكشارية بشرط أن يلقوا سلاحهم ويسلموا أنفسهم لرحمة السلطان محمود الثانى . أما عبد الرحمن باشا فلم يشاطره هذا الرأى ، ورأى مواصلة القتال.واتخاذ حركة العصيان التى قام بها الإنكشارية وسيلة لإعدامهم وإلغاء طائفتهم بتشكيلاتها الحربية . وكان السلطان محمود من أنصار هذا الرأى . وتمشياً مع هذا الاتجاه تحركت جيوش السلطان فى صبيحة اليوم التالى تتقدمها المدافع تطلق قذائفها على الإنكشارية من كل حدب وصوب . ولما رأى الإنكشارية أن الموت يحيط بهم من يمين وشمال أضرموا النار فى جميع أرجاء المدينة حتى

كادت النيران تلتهم جميع مبانيها . وفى هذا الموقف العصيب تذرع السلطان بسياسة الحلم والأناة على ما فيها من غضاضة ، لأن حركة العصيان التى قام بها الإنكشارية فى هذه المرة كانت أوسع مدى وأشد خطراً من سابقاتها . واضطر إلى الإذعان كى ينقذ المدينة من دمار محقق ، وأن يرجىء حسابه مع الإنكشارية إلى فرصة أخرى فى قابل الأيام . ومن ثم انصرف إلى إخماد الحرائق التى كادت تلتهم المبانى لو لم يتداركها السلطان . واستمر الإنكشارية فى صخبهم وضجيجهم مصرين الإصرار كله على معارضة إدخال النظم الحربية الحديثة فى الفيالق الإنكشارية . ولم يلبث أن تفرغ السلطان لمواجهة الحرب التقليدية التى اشتعلت بين الدولة والروسيا وانتهت بعقد معاهدة بخارست فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨١٢ .

الدرس الذى خرج به السلطان من الثورة اليونانية :

استطاع السلطان فيما بين عامى ١٨١٤ — ١٨١٦ أن يتخلص سراً من جماعات صغيرة العدد من الإنكشارية (١) . وأجل القيام بحركة تصفية شاملة لجموع الإنكشارية حتى تحين له فرصة مواتية فيوجه إليهم ضربة قاضية ويتخلص منهم جميعاً . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى اندلعت الثورة اليونانية فى شبه جزيرة المورة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس — آذار — عام ١٨٢١ وظفر الثوار بانتصارات سريعة وباهرة على القوات العثمانية التى بعث بها السلطان بقيادة خورشيد باشا (٢) . وكانت هذه

---

(١) Hasluck F.W.: op. cit., Vol. 2, p. 619.

(٢) هو أحمد خورشيد باشا وكان حاكماً للإسكندرية ثم رقى والياً على مصر . ودخل القاهرة فى ٢٦ من مارس — آذار — عام ١٨٠٤ . وفى أثناء ولايته قام أهل القاهرة بانتفاضة شعبية احتجاجاً على مظالمه . وتزعم الانتفاضة الشيخ عبد الله حجازى الشهير باسم الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم الأسيوطى نقيب الأشراف ، وانتهت هذه الانتفاضة بالمناداة فى ١٣ من مايو — آيار — عام ١٨٠٥ بخلع خورشيد وتعيين محمد على مكانه . واستجابت الدولة على كره منها لهذه الرغبة الشعبية . فصدر فرمان بتثبيت محمد على فى ولاية مصر ونقل خورشيد إلى سالونيك . وظل خورشيد يتقلب فى عديد من المناصب القيادية إلى أن عهدت إليه الدولة بإخماد ثورة قام بها على باشا فى ألبانيا وتحصن فى أبيروس واتخذ يانينا Janina مقراً له . ودارت اتصالات =

القوات تضم عدداً من الفيالق الإنكشارية . وانتقل الثوار اليونانيون من نصر إلى نصر . ومدوا عملياتهم الحربية إلى مقدونيا وتساليا ، واستولوا على المدن والمراكز الحصينة ، وكان من بينها : تريبوليتزا Tripolitsa (١) مقر السلطة العثمانية فى هذه المنطقة ، وأوقعوا بالقوات العثمانية والسكان المسلمين مذابح رهيبة (٢) . ولم يمض عام ١٨٢٢ حتى كان النفوذ العثمانى قد تقلص من المورة مما جعل الإنكشارية موضع التهكم والسخرية من الجماهير العثمانية

= بين هذا الثائر وقادة الثورة اليونانية لتنسيق التعاون العسكرى بين الثورتين.واستطاع خورشيد باشا إخماد الثورة بعد أن ضرب حصاراً محكما على مقر الثائر فى يانينا . وكان الأخير قد يئس من وصول نجدات عسكرية إليه من قادة الثورة اليونانية . واستسلم فى الخامس من شهر فبراير — شباط — عام ١٨٢٢ لخورشيد باشا الذى أمر بأن يساق إلى الحمام حيث كان بعض الجنود فى انتظاره ، فقاموا بجز رأسه ، وأرسلت إلى إستانبول . وعندئذ عهد السلطان محمود الثانى إليه بالتحرك مع قواته إلى المورة للقضاء على الثورة اليونانية ، فأحرز انتصاراً فى المرحلة الأولى ثم ظهر عليه الثوار اليونانيون الذين أنزلوا به خسائر جسيمة . وازداد الثوار جرأة بما حققوه من انتصارات فى بحر الأرخبيل حيث أحرقوا كثيراً من السفن العثمانية ، وغالوا فى البحر فساداً . وتعرضوا لسفينة أقلعت من إستانبول وهى فى طريقها إلى الإسكندرية . وكان من بين ركابها قاضى قضاة مصر العثمانى وزوجاته وبناته وجواريه وعدد من الحجاج فقتلهم الثوار ذبحاً عن آخرهم ثم أغرقوا السفينة.

انظر كلا من :

(أ) الجبرتى . عجائب الآثار الخ ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٣١٩—٣٢٠ (حوادث ذى القعدة عام ١٢٣٦ / أغسطس — آب — عام — ١٨٢١)

(ب) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٧—٢٢٨

(ج) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٤٧ ، الناشر: مكتبة النهضة المصرية ، ص ص ١٦٣—١٦٤

(د) دكتور محمد فؤاد شكرى : أوروبا فى القرن التاسع عشر . الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٩—١٨٤٨ ثلاثة مجلدات ، القاهرة، ١٩٥٨ ، الناشر دار الفكر العربى . المجلد الثانى ، ص ص ٤٥٨—٤٦٢

(١) تقع هذه المدينة فى قلب شبه جزيرة المورة . وكانت عاصمة المورة .

(٢) يقول ميلر إن عدد المسلمين الذين ذبحهم الثوار اليونانيون بلغ عدة آلاف . وثار السلطان محمود الثانى للمسلمين فأمر بإجراء مذابح عامة بين اليونانيين.وبدأ بترجمان الباب العالى والشخصيات التى كانت تقطن حى الفنار فى إستانبول، وكان موطن الأرستقراطية اليونانية ثم أمر بذبح جورجى الخامس بطريرك الكنيسة الأرتوذكسية الشرقية ، وهو من المورة موطن الثورة . وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام على باب الكنيسة ، ثم أنزلها اليهود وسحبوها فى الشوارع وألقوا بها =

التى كانت تعلق آمالا كباراً على الإنكشارية بسبب ما اشتهروا به من شجاعة وكفاية قتالية . وفى هذا الوقت العصيب استعان السلطان بمحمد على باشا والى مصر لإخضاع اليونانيين (١) ، فأرسل الأخير ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة كبيرة من الجيش المصرى الحديث تحرسها وحدات من الأسطول المصرى . وأقلعت الحملة من الإسكندرية فى شهر يوليو — تموز — عام ١٨٢٤ واستطاعت القوات المصرية أن تنزل فى مودن Moden فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى للمورة ، وأن تخضعها فى فبراير — شباط — عام ١٨٢٥ وتوجه إلى الثوار ضربات عنيفة ، وتتقدم عبر المورة وتستولى على معظم المواقع اليونانية الحصينة مثل مسولنجى Mesolonghi فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أبريل — نيسان — عام ١٨٢٦ ، وتريپوليتزا ، وأثينا فى اليوم الخامس من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٢٧ ، وبسقوط أثينا أصبحت المورة بأكلها تقريباً فى أيدى القوات المصرية . وبلغت الانتصارات الرائعة التى أحرزها الجيش المصرى حداً جعل الروسيا تعلن أنه لابد من التدخل لإنقاذ اليونانيين من الفناء (٢) . وأخذت الجماهير

=فى البحر واستطاع بعض اليونانيين استخراج الجثة من البحر ودفنوها فى أوديسا ، ثم نقلت بعد خمسين عاماً إلى كاتدرائية أثينا . وامتدت المذابح إلى اليونانيين فى سالونيكا ، وأزمير ورودس ، وقبرص ، وخيوس Chios .

انظر .

Miller W.; op. cit., pp. 74—75, 79—80.

(١) كان السلطان محمود الثانى قد عهد إلى محمد على عام ١٨٢١ — أى قبل حملة المورة — بأن يرسل أسطوله لضرب سفن الثوار . وقد أبحر الأسطول من الإسكندرية فى اليوم العاشر من شهر يوليو — تموز — عام ١٨٢١ ، واتجه إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية . والتقى بالأسطول العثمانى فى مياه الدردنيل . ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس — آذار — ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة المصرية إلى جزيرة كريت . وكان السلطان قد عهد إلى محمد على بإخماد الثورة فيها . فأعد محمد على حملة من خمسة آلاف جندى نزلوا فى جزيرة كريت فى يونيو — حزيران — ١٨٢٢ وظفروا بالثوار وشتتوا شملهم ، وفر كثير منهم إلى الجزر اليونانية الأخرى . أما الثورة فى المورة فقد شعر السلطان أنه عاجز عن القضاء عليها ، فعهد إلى محمد على بإخمادها وتخويله حكم ولاية المورة مكافأة له .

(٢) Grant A.J. and Temperley, H; op. cit., p. 204.

العثمانية تقارن بين إخفاق الإنكشارية فى إخماد الثورة اليونانية ونجاح الجيش المصرى الحديث فى القضاء عليها . وانتهز السلطان محمود الثانى هذه الفرصة ليوجه إلى الإنكشارية ضربة قاضية إذا أصروا على الرفض .

والواقع أن السلطان محمود الثانى ازداد اقتناعاً بالكفاية القتالية فى الجيوش الأوروبية التى أخذت بالأنظمة العسكرية الحديثة تسليحاً وتدريباً وقتالا . وأرجع إلى هذا السبب الانتصارات التى أحرزتها الجيوش الأوروبية على الجيش العثمانى . وكان أمامه مثل حى فى دولته فى منطقة الشرق الأدنى كما كانت تسمى فى ذلك الوقت (١) ، تمثل فى الجيش المصرى الذى شرع فى إنشائه منذ سنة ١٨٢٠ محمد على باشا والى مصر من الفلاحين المصريين وفقاً للأساليب الأوروبية الحديثة ، واستقدم الخبراء العسكريين من بعض دول أوروبا لتدريب أفراده على أحدث النظم الحربية . وكان السلطان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن ابراهيم باشا ابن محمد على مدين بانتصاراته التى حققها فى بلاد المورة إبان الثورة اليونانية منذ عام ١٨٢٥ للجيش المصرى الذى أخذ بالنظم والنظريات الحربية الحديثة فى التسليح والتدريب والقتال . وكانت هذه الحرب اليونانية أول حرب أوروبية خاض هذا الجيش المصرى الصميم غمارها

---

(١) كان رجال الساسة فى أوروبا وأمريكا يعمدون إلى تقسيم الشرق إلى ثلاث مناطق : الشرق الأدنى The Near East وكانوا يعبرون عن هذه المنطقة أحياناً بعبارة The Nearer East . وتشمل مصر وبلاد الشام وتركيا واليونان . والشرق الأوسط The Middle East ويشمل شبه القارة الهندية وأفغانستان وفارس والعراق وشبه الجزيرة العربية . والشرق الأقصى The Far East ويشمل جنوب شرق آسيا بأقسامه السياسية والصين واليابان . وظلت هذه التسميات قائمة إلى الحرب العالمية الثانية ، (١٩٣٩–١٩٤٥) ثم أدمج الساسة الأمريكيون القسمين الأولين بعضهما فى بعض ، وأطلقوا عليهما الشرق الأوسط الذى أصبح يشمل فى مدلول السياسة الدولية : مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، وتركيا ، والعراق والسعودية ، واليمن بقسميها ، والدول العربية فى الخليج ، وإيران ، والهند ، وباكستان ، وبنجلاديش ، وسرى لانكا ، وأفغانستان .

ويلاحظ أيضاً أن المؤرخين والباحثين الغربيين أطلقوا مصطلح الليفانت Levant على الدول المطلة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط والمناطق الساحلية فيها بصفة خاصة ، وهى سواحل مصر ، وبلاد الشام ، وتركيا ، واليونان .

وقد برهن فيها على مقدرة قتالية ممتازة ، وأنه يضارع أرقى الجيوش الأوروبية فى ميادين القتال .

أربعة عوامل خارجية شدت السلطان إلى تطوير الفيالق الإنكشارية أو إلغائها :

ومما جعل السلطان محمود الثانى يزداد تشبثاً برأيه وهو ضرورة تطوير فرق الجيش ، ومن بينها الفيالق الإنكشارية ، أنه كان يشعر بأنه محوط بالوهابيين أو السلفيين (١) فى شبه الجزيرة العربية ، وبالثوار اليونانيين فى المورة ومياه بحر الأرخبيل ، وكانت لا تغيب عن ذهنه العداوة التقليدية والمزمنة بين الدولة العثمانية والروسيا . وقد شهد مطلع حكمه استئناف الحرب ضد الروسيا التى أوقعت هزائم بالجيش العثمانى بقيادة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم (٢) . واستولى الروس على عدد من الأقاليم العثمانية فى أوروبا . وانتهت الحرب بمعاهدة بخارست فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨١٢ ، وبمقتضاها اختصت الروسيا لنفسها بإقليم بسارابيا . يضاف إلى هذه العوامل الخارجية أن السلطان كان يتوجس خيفة من محمد على

---

(١) كان الوهابيون يطلقون على أنفسهم أول الأمر « الموحدين » أو « المسلمين » ثم أطلقوا على أنفسهم « السلفيين » .

انظر فى هذه الدراسة ص ٧٩ ، الحاشية رقم ١

(٢) كان يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم هو الذى جاء إلى مصر عن طريق بلاد الشام على رأس جيش عثمانى ليتسلم مقاليد الحكم فى أثناء مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين . واستولى ضياء باشا على العريش فى اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر — كانون أول — عام ١٧٩٩ ولما عقدت معاهدة العريش فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير — كانون ثان — عام ١٨٠٠ تقدم ضياء باشا بجنوده تنفيذاً للمعاهدة فدخل بدون قتال قطية ، والصالحية ، وبلبيس ، والسويس والمنصورة ، وعزبة البرج ، ودمياط ، واستقر فى بلبيس . فلما نقضت معاهدة العريش اشتعلت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين . ودارت معركة عين شمس فى اليوم العشرين من شهر مارس — آذار — عام ١٨٠٠ ولقى على يد الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية وقتذاك هزيمة منكرة انسحب الصدر الأعظم بعدها إلى بلبيس ثم تقهقر إلى الصالحة ، ثم ارتد إلى حدود فلسطين . ثم عاد إلى مصر فى شهر أبريل — نيسان — عام ١٨٠١ على رأس جيش يتكون من عشرين ألف مقاتل للإسهام مع القوات البريطانية فى إخراج الفرنسيين من مصر .

باشا والى مصر ، إذ كان يعتقد أن هذا الباشا لن يقنع بمركزه كوال من الولاة العاديين فى الدولة ، بل يبغى الاستقلال بحكم مصر . ويلاحظ أن محمد على كان قد تسرع فأعرب فى وقت مبكر جداً يرجع إلى شهر سبتمبر أيلول — عام ١٨٠٧ — أى بعد تعيينه والياً على مصر بعامين وبعض عام — عن رغبته فى أن يحكم مصر وراثياً فى أسرته متمتعاً بالاستقلال الذاتى فى نطاق الدولة العثمانية ، على غرار الأسرة الحسينية التى حكمت تونس وراثياً منذ عام ١٧٠١ ، وعلى غرار أسرة القرمانلى التى حكمت طرابلس الغرب وراثياً منذ عام ١٧١١ (١) . ومن المحتمل جداً — إن لم يكن من المؤكد — أن

---

(١) كشف محمد على عن مشروعه فى أثناء المفاوضات التى دارت بينه وبين المندوبين الإنجليز لجلاء الحملة البريطانية التى جاءت بقيادة الجنرال فريزر Mackenzie Fraset إلى مصر واحتلت ثغر الإسكندرية فى النصف الثانى من شهر مارس — آذار — عام ١٨٠٧ . وعلى أثر الهزيمتين اللتين لقيتهما الحملة فى رشيد وفى الحماد ، ولأسباب أخرى ، رأت الحكومة البريطانية الجلاء عن الإسكندرية . ودارت المفاوضات لتنظيم عمليات الجلاء وتوقيتها وتبادل الأسرى وما إلى ذلك من مسائل . وكانت المفاوضات ذات طابعين : طابع عسكرى خاص بالجلاء ، وطابع سياسى يتعلق بمشروع محمد على فى تحقيق الاستقلال الذاتى ، أى حكم مصر وراثياً فى أسرته ، ويستقل عن الدولة العثمانية فى شئون الحكم الداخلية ، ولاتربطه بالدولة سوى السيادة الاسمية التى يرمز إليها بجزية سنوية يدفعها محمد على للسلطان فى مواعيد منتظمة وبصفة رتيبة على أن تحدد قيمة هذه الجزية ، وبعض مسائل أخرى يتفق عليها فيما بعد وطلب محمد على أن تبذل الحكومة البريطانية مساعيها الحميدة لدى دوائر الباب العالى لتحقيق هذا المشروع فى مقابل عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا ومصر تنص على تعهد محمد على برعاية المصالح التجارية البريطانية فى مصر ، وتسهيل المواصلات البريطانية عبر الأراضى المصرية إلى الهند ، وتزويد القوات البريطانية فى مالطة وسائر القواعد العسكرية التى كانت تحت سيطرة بريطانيا فى ذلك الوقت بالمواد التموينية وماء الشرب ، وأن تبادر الحكومة البريطانية إلى وقف أى محاولة قد يقوم بها الباب العالى لنقل محمد على من مصر إلى ولاية أخرى ، كما حدث عند ما أصدر السلطان فرماناً بنقله والياً على سالونيك وتعيين موسى باشا والياً على مصر ، وقرن السلطان هذا الفرمان بإرسال أسطول بقيادة صالح باشا قبودان وصل إلى الإسكندرية فى أول يوليو — تموز — عام ١٨٠٦ . وطلب محمد على أيضاً أن تستخدم بريطانيا قواتها البحرية فى الدفاع عن الإسكندرية إذا حاول العثمانيون أو الفرنسيون أو جيش أى دولة أخرى مهاجمة الإسكندرية أو غيرها من ثغور سواحل مصر . ومن المعروف أن محمد على لم يكن قد وطد بعد علاقاته مع فرنسا . وبعبارة أخرى أراد محمد على من معاهدة التحالف مع بريطانيا أن يؤمن مركزه فى مصر ضد العثمانيين والفرنسيين والمماليك . وكان الأخيرون حلفاء الإنجليز . ولم يجد مشروع محمد على آذاناً صاغية من الإنجليز . وعقدت معاهدة الجلاء عن الإسكندرية فى الرابع =

الإنجليز نقلوا تفاصيل هذا المشروع إلى دوائر الباب العالى وعلم به السلطان محمود الثانى الذى تولى العرش بعد شهور معدودة من تلك المفاوضات ، واستطال حكمه اثنين وثلاثين عاماً . ومن هنا كانت توجد أزمة عدم ثقة بين السلطان محمود الثانى ومحمد على فى معظم سنوات حكم هذا السلطان . وكانت سياسته تقوم على اتخاذ الأخطار والمتاعب التى واجهها وسيلة لتحقيق هدفين : أولهما الاستعانة بمحمد على للقضاء على الحركة الوهابية ولإخماد الثورة اليونانية . ثم طلب منه الاشتراك مع جيوش الدولة فى حربها ضد الروسيا عام ١٨٢٨ ، ولكنه رفض معتذراً ببعد المسافة بطريق البر وبعدم وجود سفن تنقل الجنود بطريق البحر ، وبتفشى وباء الكوليرا فى مصر والشام وبانتشاره بين جنود الجيش المصرى (١) . وكان ثانى الهدفين إضعاف محمد على عسكرياً ومالياً واقتصادياً بسبب إسهامه فى حروب الدولة . وقد تكبدت مصر فيها خسائر فادحة فى الأنفس والأموال والسفن والأسلحة وما إليها (٢) . وقد صدقت نبوءة السلطان ، فلم تكد تمر سنوات ذات عدد

— عشر من شهر سبتمبر — أيلول — عام ١٨٠٧ . وكانت مقصورة على المسائل العسكرية المتصلة بجلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية . ولم تتعرض من قريب أو من بعيد للمشروع السياسى الذى عرضه محمد على .

للاستزادة من المعلومات عن الجانب السياسى للمفاوضات انظر :

Douin George; Mohamed Aly, Pacha du Caire. (1805-1807). Le Caire, 1926.

الوثيقة رقم ١٥٩

ومن الجانب العسكرى للمفاوضات انظر :

Douin George et Fawtier-Jones E. C. ; L'Angleterre et L'Egypte etc., op. cit.,

الوثيقة رقم ١٢٠ وما بعدها

(١) أودى وباء الكوليرا بحياة خمسة آلاف جندى . ومات به من المدنيين نحو ١٥٠ ألف نسمة . واستطال فتكه أربعة وثلاثين يوماً فى عام ١٨٣١ .

(٢) كانت الحرب الوهابية أشق الحروب التى خاضت مصر غمارها ، وأطولها مدى ، ومن أكثرها ضحايا ومتاعب . جردت مصر خلالها حملات عديدة متعاقبة على امتداد سنوات متوالية . ولقى فيها الجنود الشدائد من وعورة الطرق وشدة القيظ وقلة المؤونة وندرة المياه وفى محاربة عدو مستبسل يبذل النفس والنفيس دفاعاً عن وطنه ومذهبه .

أما القوات التى بعثت بها مصر لإخماد الثورة اليونانية فقد بلغ تعداد أفرادها اثنين وأربعين ألف جندى خسرت منهم ثلاثين ألفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥,٠٠٠ جنيه ، وفقدت أسطولها فى معركة ناقرين البحرية

—

على اشتراك مصر فى إخماد الثورة اليونانية حتى نشبت بين السلطان ومحمد على حرب الشام الأولى عام ١٨٣١ وتلتها حرب الشام الثانية سنة ١٨٣٩ .

اجتماع موسع لمناقشة مشكلة الإنكشارية :

بعد أن استردت القوات المصرية — باسم السلطان العثمانى — مدينة مسولنجى من الثوار اليونانيين فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أبريل — نيسان — عام ١٨٢٦ ، كما سبق أن ذكرنا ، رأى السلطان محمود أن يمضى قدماً فى إصلاح الجيش . وهو المشروع الذى كان يعلق عليه أعذب الآمال منذ الأسابيع الأولى التى تولى فيها العرش عام ١٨٠٨ . وقد صبر على الإنكشارية وصابرهم أمداً طويلا لعلهم يغيرون موقفهم المعارض لتطوير الفيالق الإنكشارية . وقد استطال عداوهم لهذا التطوير زهاء ثمانية عشر عاماً منذ أن تولى العرش . وتمشياً مع خطته تجاه الإنكشارية بالذات قرر أن يمنحهم فرصة سلمية أخيرة ، فيحاول تطويعهم بالحسنى على غرار ما فعل فى مستهل حكمه فى مطلع شهر أكتوبر — تشرين أول — عام ١٨٠٨ ، فإذا رفضوا ، لجأ إلى مواجهة عسكرية يخوضها ضدهم بعد أن يعد عدته من النواحى العسكرية والدينية والشعبية لمثل هذه المواجهة حتى يستأصل هذه الطائفة الباغية ، ويقى الجيش والمجتمع شرورها .

طلب السلطان من محمد مظهر باشا الصدر الأعظم أن يدعو إلى اجتماع موسع يعقد فى دار شيخ الإسلام فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨٢٦ ويحضره قادة أسلحة الجيش بما فيهم كبار ضباط الفيالق الإنكشارية ورجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وكبار الموظفين والأعيان . وتحدث فى هذا الاجتماع الصدر الأعظم موضحاً ما وصل إليه الإنكشارية من تدهور وعدم انقياد للرؤساء وتعدد حوادث تمردهم وعصيانهم وتدخلهم فى المسائل السياسية متجاوزين حدود اختصاصاتهم

— أنظر :

عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ ، وص ١٨٦

ونزوعهم إلى سلب ونهب المدنيين . ومضى محمد مظهر باشا يعدد فى استفاضة آثامهم التى دأبوا على ارتكابها فى وضح النهار وظلمة الليل حتى أصبح الإنكشارية من أكبر أسباب اضمحلال الدولة وضعف مركزها العسكرى أمام تقدم الدول الأوروبية المطرد فى المجالات الحربية . وخلص الصدر الأعظم من حديثه الضافى إلى ضرورة الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة فى الفيالق الإنكشارية ، إذ لا يمكنها بحالتها فى ذلك الوقت الوقوف أمام الجيوش الأوروبية الحديثة التنظيم والتسليح والتدريب . وقد لقيت هذه الآراء والتوجيهات التى جاءت على لسان الصدر الأعظم موافقة فورية وجماعية من الحاضرين . وعندئذ قرأ المكتوبجى — وكان يقوم بعمل كاتم السر فى هذا الاجتماع — مشروعاً بإعادة تنظيم القوات الإنكشارية . وكان هذا المشروع يتكون من ست وأربعين مادة تناولت جميع التعديلات المراد إدخالها على نظام الفيالق الإنكشارية . وتحررت مضبطة لهذا الاجتماع وقع عليها جميع الحاضرين بما فيهم ضباط الإنكشارية . وكانت هذه المضبطة تشمل أيضاً التعديلات التى اقترحها الصدر الأعظم فيما يختص بالنظام المطور للفيالق الإنكشارية . ثم قرئ المشروع مرة ثانية على ضباط الإنكشارية فأقروه . وأصدر شيخ الإسلام فتوى بوجوب تنفيذ التعديلات الجديدة ومعاقبة كل شخص تسول له نفسه الاعتراض عليها (١) . ويلاحظ أن اختيار السلطان محمود الثانى دار شيخ الإسلام مكاناً لعقد هذا المجلس الموسع كان اختياراً هادفاً انبثق عن رغبته فى إضفاء الشرعية الدينية الإسلامية على القرارات التى يتخذها المجلس فى دار شيخ الإسلام وفى حضوره وبموافقته مما يجعل الجماهير تتقبل قرارات المجتمعين دون مناقشة وأن تؤيدها قلباً وقالباً .

موقف الإنكشارية من الخط الشريف كان البداية السريعة لنهايتهم :

وفى اليوم التالى لهذا الاجتماع الموسع — أى فى الثامن والعشرين من

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٤٥—٢٤٦ .

شهر مايو — آيار — عام ١٨٢٦ (١) أصدر السلطان محمود الثانى فى ضوء القرارات التى صدرت عن ذلك الاجتماع الموسع — ما عرف باسم خطى شريف — ويقضى بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة فى التنظيم والتسليح والتدريب . واشتمل هذا الخط الشريف على الست وأربعين مادة التى أقرها الاجتماع الموسع . ولنا عدة ملاحظات على هذا الخط الشريف فيما يتصل بالإنكشارية كمركز قوة خطير فى الدولة :

أولا : لم يعمد السلطان محمود إلى إلغاء الفيالق الإنكشارية ، بل أبقى عليها وقرر أن تقدم كل كتيبة مرابطة فى إستانبول مائة وخمسين جندياً لإلحاقهم بالفرق الجديدة . ولعله استهدف من إدراج هذا النص فى « الخط الشريف » استمالة الإنكشارية حين يدركون أن السلطان قد أبقى على طائفتهم كعسكريين . وأنهم لن يصبحوا مبدئياً بعيدين عن هذه القوات بل سيزودونها بوحداتها الأولى .

ثانياً : أنه قرر فى ذات الخط الشريف أن الدولة لن تستخدم ضباطاً أو خبراء مسيحيين فى تنظيم وتدريب الفرق الجديدة . وقد أراد السلطان أن يقطع الطريق عليهم فلا يعمدون إلى الإثارة الدينية سواء فى محيطهم أو محيط علماء الدين أو الجماهير المسلمة .

ثالثاً : تجنب السلطان ذكر « النظام الجديد » فى « الخط الشريف » ، لأن هذا النظام يقترن فى الأذهان باسم السلطان سليم الثالث ، وعلى النقيض صور الفرق الجديدة على أنها بعث للنظام العسكرى الصارم الذى أرسى قواعده السلطان سليمان المشرع . وهو النظام الذى نظر إليه دعاة الإصلاح فى الدولة منذ أن قدم كوتشى بك (٢) Khodji—Bey رسالته الشهيرة على أنه

(١) تذكر بعض المراجع أن السلطان أصدر الخط الشريف فى ذات اليوم الذى عقد فيه الاجتماع الموسع برياسة محمد مظهر باشا الصدر الأعظم ، أى فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو آيار — عام ١٨٢٦ . وهذه نقطة شكلية لا تقدم ولا تؤخر فى جوهر المسألة .

(٢) كان كوتشى بك من مواليد ألبانيا أو مقدونيا . وجاء إلى إستانبول ضمن الحصيلة الآدمية لضريبة الغلمان . وأظهر منذ حداثة سنه مواهب عقلية ، فاختارت له الدولة الدراسات العلمية ميداناً لتخصصه الدقيق بعيداً عن التعليم العسكرى . ووقع عليه الاختيار ليعمل فى القصر السلطانى وظفر بتقدير عميق من السلطان مراد الرابع وجعله مستشاره الخاص . وقد عهد إليه—

النظام الأمثل والدواء الشافى من جميع العلل التى تضافرت على إضعاف الدولة، والوسيلة العملية لاستعادة عصرها الذهبى . فلما أصدر السلطان محمود الثانى « الخط الشريف » لقى تأييداً واسعاً على المستوى الرسمى والدينى والشعبى .

آخر تمرد عسكرى فى تاريخ الدولة لخمسة فيالق إنكشارية فى إستانبول:

وعلى الرغم من أن ضباط الإنكشارية قد أقروا المشروع الذى عرضه عليهم الصدر الأعظم محمد مظهر باشا فى اجتماع اليوم السابع والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨٢٦ ، اتضح أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وأنهم قوم مردوا على العصيان والعناد والسلب . فنى اليوم الخامس عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٢٦ — بعد مضى عشرة أيام على الحفل الرسمى الذى أقيم بمناسبة بدء تكوين الفرق الجديدة فى الجيش — تعرض

=بوضع مذكرة يستعرض فيها أسباب اضمحلال الدولة فى ذلك الوقت والوسائل التى يرى أنها كفيلة بإنهاضها . وقد أتم كوتشى بك وضع المذكرة وقدمها للسلطان عام ١٦٣٠ ، ويطلق عليها فى تاريخ الدولة العثمانية « رسالة ». ويقصد بها رسالة كوتشى بك . والرسالة لفظة مأخوذة من اللغة العربية بنفس المعنى . وهى عبارة عن بحث أو تقرير ضاف يتكون من سبعة عشر فصلا . ومن الملاحظات التى تشد انتباه الباحث أن كوتشى بك استهل كل فصل من فصول الرسالة بعبارات موحدة واختتمها بعبارات موحدة امتدح فيها السلطان مراد الرابع وأضفى عليه الكثير من صفات الذكاء والعظمة والمقدرة .

وكانت هذه الرسالة موضع التقدير العميق من رجالات الدولة وفى الأوساط الأوروبية . كما أصبحت مصدراً تاريخياً استقى منه مؤرخو الدولة العثمانية مادتهم العلمية فى الكتابة عن أسباب اضمحلال الدولة . كما جعلت هامر يطلق على مؤلفها العثمانى اسم أحد أعلام الفكر الفرنسى قبل الثورة الفرنسية وهو مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) صاحب كتاب « روح القوانين L'Esprit des Lois فقال إن كوتشى بك هو « مونتسكيو العثمانى » Le Montesquieu Ottoman . وقد ذكر الأستاذ برنارد لويس هذا التشبيه « مونتسكيو التركى » The Turkish Montesquieu وهى تسمية تنطوى على خطأ ، لأن كلمات تركى ، وأتراك ، وتركيا ، لها مدلولات أخرى قبل القرن العشرين ، كما سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول .

انظر كلا من :

Lavisse et Rambaud; op. cit., Tome v, p. 880—881.

Lewis B., The Emergence etc., op. cit., p. 22 N. 3 and pp. 78 — 79.

ويلاحظ أن اسم كوتشى بك يرد فى المراجع الأوروبية مكتوباً فى صيغ شتى مثل :
khoudj, khodjia, Koçu—Bey,

الإنكشارية للجنود وقت التدريب ، وأوسعوهم ضرباً . واستقر رأيهم على القيام بحركة تمرد . وكانت لاتزال عالقة فى أذهانهم حركات التمرد التى قاموا بها من قبل احتجاجاً على مشروع تطوير الجيش ونجاحهم فى تحقيق مآربهم .

وجرياً على عادتهم اجتمعت خمسة فيالق إنكشارية فى ميدان الخيل ووضع أفرادها القزانات أمامهم وهى مقلوبة ، وانطلقوا فى شوارع إستانبول يشعلون النار فى مبانيها ، ويهاجون المنازل ، ويحطمون المحلات التجارية ، ويسلبون البضائع . وكانت حركة العصيان هذه هى آخر حركة تمرد يقوم بها الإنكشارية فى تاريخ الدولة فى إستانبول . وكان السلطان أكثر استعداداً لمواجهتها . وكانت الجماهير أكثر ميلا للإسهام فى مقاومة الإنكشارية بعد أن لاقوا من جبروتهم وطغيانهم ما لم يكونوا يطيقون .

الطوبجية واللغمجية فى مواجهة عسكرية ضد الفيالق الإنكشارية :

كان السلطان محمود الثانى يقيم يومئذ فى قصره القائم فى بشيكطاش (١) ، فأسرع بالانتقال فى قارب إلى القصر السلطانى فى إستانبول . وأمر بادئ ذى بدء بقتل كل إنكشارى يتعرض بسوء إلى الجنود أو يعبث بالنظام العام . واستدعى السلطان إليه شيخ الإسلام والمفتين ومن إليهم من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والذين كانوا وقتذاك فى العاصمة . وشرح لهم موقف الإنكشارية فاستهجنوا تصرفاتهم وأشاروا عليه بمقاومتهم ، فاستصدر من

(١) بشيكطاش ضاحية بإستانبول على بعد ميلين ونصف الميل من جسر جالاطة على الساحل الأوروبى للبوسفور . وكان البيزنطيون يطلقون على هذه الضاحية إسم دبلوكيونيون Diplokionion نسبة إلى عمودين أقامهما هناك رومانوس الأكبر . ومن هذا الموضع استطاع السلطان محمد الثانى عند شروعه فى فتح القسطنطينية أن ينقل سفنه فوق تلال بيرا Pera إلى القرن الذهبى الذى سد مدخله من ناحية البوسفور بسلسلة حديدية . وكانت هذه الضاحية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تزخر بعدد من القصور البديعة التى كان يصطاف فيها السلاطين . وفى الوقت الحالى تحيط بهذه الضاحية مجموعة من القصور الرائعة مثل شوله ماغجبة ، وقصر يلدز . ومن الأماكن السياحية ذات الأهمية التاريخية فى هذه الضاحية قبر خير الدين بربروسة أمير البحر العثمانى المتوفى عام ١٥٤٦ . وكانت بشيكطاش عبارة عن الدائرة السادسة لبلدية إستانبول .

انظر :

Giese F.; Encyc. of Islam. Art. Beshiktash.

شيخ الإسلام فتوى بوجوب إبادة هذه الفئة الطاغية والضالة . وأمر السلطان باستدعاء عدة فرق عسكرية كان من بينها : آلاى طوبجية وهى فرقة من سلاح المدفعية كان قد أعاد تنظيمها وتدريبها عقب اعتلائه العرش . وكوّن أفراد هذه الفرقة مع أوجاق اللغمجية — أى الذين يبثون الألغام (١) — فيلقاً ، وكون حملة البنادق ورجال البحرية فيلقاً آخر . ودعا السلطان أفراد الشعب إلى قتال الإنكشارية . وقد صحت عزيمة السلطان فى هذه المرة على إبادة الإنكشارية ووضع نهاية لشرورهم واسترسالهم فى حركات التمرد والطغيان .

الواقعة الخيرية :

وفى صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٢٦ أخرج السلطان البيرق النبوى — العلم النبوى الشريف — واتجه مع القوات العسكرية ومع المدنيين المسلمين إلى آت ميدانى — ميدان الخيل — وكانت تطل عليه ثكنات الإنكشارية . وكانت قد احتشدت فى هذا الميدان خمسة فيالق من الإنكشارية ، وكانت القزانات — قدور الطعام — أمامهم وهى مقلوبة رمزاً لاستمرار حركة العصيان العسكرى . وكانوا فى هرج ومرج شديدين وأقاموا المتاريس أمام البوابة الكبرى لثكناتهم . ولم يمض قليل من من الوقت حتى أحاط رجال المدفعية بالميدان ، واحتلوا جميع المرتفعات المشرفة عليه . وسلطوا مدافعهم على الإنكشارية من جميع الجهات . وهجم الإنكشارية على مواقع المدافع يبغون الاستيلاء عليها ، فحصدتهم المدفعية ونالت منهم منالا كبيراً . وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على مقاومة المدفعية . والتجأوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة . وفشل تخطيطهم . إذ سلطت المدافع قذائفها على الثكنات وهدمتها واشتعلت فيها النيران حتى دمرتها على رءوس البقية الباقية

---

(١) لغم كلمة تركية بمعنى نفق تحت الأرض . وكان شأن أوجاق اللغمجية شأن أوجاق الخمبرجية — أى قاذفى القنابل — من حيث أن أفراد هذين الأوجاقين لم يكونوا يتسلمون مرتبات من خزانة الحكومة ، بل يمنحون إقطاعات عسكرية من الأراضى .

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold: op. cit., Vol. 1. Part 1; p. 68,

منهم وتولى الجنود النظاميون إلقاء جثث الإنكشارية فى البحر . ويقدر عدد قتلاهم فى ذلك اليوم بستة آلاف إنكشارى ، ولو أن البعض يقفز بعدد القتلى إلى أضعاف هذا العدد(١) . وعلى هذا النحو انتهت فى السادس عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٢٦ حركة العصيان والتمرد التى قام بها الإنكشارية بإبادة معظمهم . ويسمى العثمانيون قتل الإنكشارية فى هذا اليوم « وقعة خيرية » أى الواقعة الخيرية لأنهم تفاءلوا بها خيراً (٢) .

إلغاء نظام الإنكشارية :

واستتبع إبادة الإنكشارية فى الواقعة الخيرية اتخاذ عدة قرارات لاحقة وعاجلة لتأمين المجتمع . فأصدر السلطان فى اليوم التالى — السابع عشر من شهر يونيو — حزيران — فرماناً بإلغاء الفيالق الإنكشارية إلغاء كلياً بحيث يشمل الإلغاء تنظيماتهم العسكرية وأسماء الفيالق الإنكشارية وشاراتها وأعلامها ومصطلحاتها العسكرية فى جميع أنحاء الدولة . ونودى بهذا القرار فى شوارع إستانبول . وفى ذات الوقت صدرت الأوامر إلى حكام جميع ولايات الدولة بتعقب كل من بقى من الإنكشارية على قيد الحياة وإعدامه أو نفيه خارج البلاد حتى لا تبقى منهم باقية فى نطاق الدولة ، ولا تقوم لهم قائمة

وفى ذات اليوم أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً بإنشاء جيش جديد وفق النظم الأوروبية الحديثة ، وأطلق عليه « عساكرى منصورى محمدى » أى العساكر المنصورة المحمدية . وهو تعبير ذو طابع دينى إسلامى لا يفوتنا أن نسجله فى هذه الدراسة استهدف منه السلطان قطع الطريق أمام أى هيئة أو طائفة تحاول الإثارة الدينية بين الجماهير نتيجة إبادة الفيالق الإنكشارية ، وقد أراد السلطان أيضاً من هـــذه التسمية تسجيل الآمال التى تعلقها الدولة

---

(١) دكتور جلال يحيى : المدخل إلى تاريخ العالم الث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٢) Lewis B.; The Emergence etc.; op. cit., p. 79.

وانظر أيضاً :

ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ ، ويقول هذا المؤلف إن التعبير العثمانى « وقعة خيرية » يدل بالحساب الأبجدى على تاريخ الواقعة بالسنة الهجرية .

والجماهير على المقدرة القتالية للجيش الجديد فى تحقيق انتصارات عسكرية باهرة لا تقل فى روعتها عن انتصارات الإنكشارية فى عهدهم الأول .

وبإلغاء الفيالق الإنكشارية ألغى السلطان محمود الثانى منصب ينى شرية أغاسى — أى رئيس الإنكشارية — واستبدل منصباً جديداً بالمنصب القديم وأطلق على شاغله سر عسكر ، وهو مصطلح تاريخى عثمانى استخدم فى العهود السابقة وكان يمنح لقادة الجيش ، ومعناه رئيس العسكر أو القائد العام (١) . ولكن أدخل السلطان محمود تعديلات شتى على اختصاصات شاغل هــذا المنصب ، فأصبح يجمع فى يديه اختصاصات وزير الحربية واختصاصات القائد العام للجيش ، وأضاف إليه اختصاصاً ثالثاً هو مسئولية المحافظة على الأمن العام وواجبات الشرطة فى العاصمة (٢) . وقد عين فى منصب سر عسكر حسين باشا أغا وهو أحد كبار ضباط الفيالق الإنكشارية ، وكان قد انقلب عليهم من قبل احتجاجاً على تصرفاتهم وانضم إلى السلطان . وكانت له اليد الطولى فى واقعة ١٦ من يونيو — حزيران — ولم يمض عام ١٨٢٦ حتى تم تدريب وتسليح عشرين ألف جندى كمرحلة أولى ، على أن تكون حصيلة المرحلة الثانية فى نهاية العام التالى مائة وعشرين ألف جندى نظامى (٣) .

حل الطريقة البكتاشية دعامة الإنكشارية :

لم يكد يمر شهر واحد على إلغاء الفيالق الإنكشارية حتى أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً بحل الطريقة الصوفية البكتاشية وهدم تكاياها التى كانت قائمة فى إستانبول وما جاورها ، وإغلاق بقية تكاياها التى كانت منتشرة انتشاراً واسعاً فى أنحاء البلاد ، وعدم دفع أى إعانات لها(٤) . واستند السلطان

---

(١) يرد كثيراً ذكر هذا المصطلح فى كتاب الجبرتى إبتداء من الجزء الثالث عند كلامه عن المنشورات التى كانت تصدر عن قيادة الجيش الفرنسى إبان الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨—١٨٠١ .

(٢) Lewis B.; The Emergence etc., op. cit.;p. 80.

(٣) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٤) Lamouche (Colonel); Histoire de la Turquie. Paris, 1953, pp. 250—252.

فى قراره إلى أن أتباع هذه الطريقة أخذوا يثيرون القلاقل ويحرضون الجماهير على القيام فى وجه الحكومة احتجاجاً على قتل الإنكشارية فى واقعة ١٦ من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨١٦ . وقد سبق أن تكلمنا فى الفصل السابق عن العلاقات الوثيقة التى كانت تربط الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية .

ولكى يضفى السلطان محمود الثانى الشرعية الدينية على قراره بحل الطريقة البكتاشية استصدر فتوى من شيخ الإسلام بأن البكتاشية خارجون على القانون، وأنه لا تثريب على ولى الأمر إذا اتخذ إجراءات أمن كى يمنع شرورهم عن المسلمين . واستناداً إلى هذه الفتوى بشقيها أمر السلطان بأن يعدم علناً ثلاثة من كبار البكتاشية ، وأن ينفى الباقون ، وأن يشتت شمل أتباع الطريقة بترحيلهم إلى أطراف الدولة متفرقين منعاً لأى تجمعات يقومون بها فى إستانبول (١) . وكان تصرف السلطان فى هذا الصدد نابعاً من حرصه الشديد على تفادى أى نتائج ضارة قد تحدث بعد إلغاء الفيالق الإنكشارية .

ويبدو من ملابسات هذه الفترة العصيبة — شهرى يونيو ويوليو — حزيران وتموز — عام ١٨٢٦ أن حل الطريقة البكتاشية كان إجراء مكملا لإلغاء الفيالق الإنكشارية ، وأن هذا الإجراء كان أمراً لا مندوحة عنه *Sine qua non* فى خلال هذه الأزمة ، لأن الطريقة البكتاشية لم تلبث أن عادت بعد ذلك إلى الازدهار رويداً رويداً ، ولو أنها لم تستعد قط ما كان لها من مركز مرموق فى تاريخ المجتمع العثمانى (٢) .

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٦.

Lewis B.; The Emergence etc, op. cit., p. 79.

(٢) وجدت فى شمالى الأناضول تكية عثمان جيك ، فضلا عن التكية الأصلية المقامة فى هذه المنطقة . ووجدت فى غرب الأناضول تكية أخرى فى مدينة إسكى شهر . وهما من التكايا البكتاشية الهامة . وهناك تكية ثالثة أقيمت على سفح جبل المقطم بالقاهرة ، وتوجد أعداد كبيرة نسبياً من البكتاشية إلى الوقت الحاضر فى المجتمعات الإسلامية فى شبه جزيرة البلقان ، وبخاصة فى ألبانيا حيث توجد تكية البكتاشية الكبرى فى تيرانا عاصمة الإقليم . وجاء فى بعض الوثائق أنه كان لا يزال فى جمهورية تركيا إلى عام ١٩٥٢ ثلاثون ألف بكتاشى .

انظر :

Tschudi; Encycl. of Islam. Art. Bektash.

ويلاحظ أن الأوضاع الدينية سواء بالنسبة للإسلام أو المسيحية قد تغيرت تغيراً جذرياً فى ألبانيا منذ أن تولى الحكم الشيوعى فيها منذ الستينات فى القرن العشرين .

ولكن يؤخذ على السلطان محمود الثانى أنه أسرف فى الاقتصاص من البكتاشية . كان يدخل فى زمرتهم كل شخص كان متصلا بهم أو متعاطفاً معهم على أى نحو من الأنحاء . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد عطاالله محمد ويشتهر باسم سانى زاد (١٧٦٩–١٨٢٦) . كان أحد أعلام الفكر العثمانى فى القرن التاسع عشر . كان ذا عقلية موسوعية وتعلم عدة لغات أوروبية . ودرس الطب ، وعينه السلطان سنة ١٨١٩ مدوناً للتاريخ العثمانى . وعكف على ترجمة بعض المراجع الطبية إلى اللغة التركية ووضع بحوثاً فى علوم وظائف الأعضاء ،والتشريح، والتطعيم . وأدخل فى اللغة التركية لأول مرة مصطلحات لغوية فى علوم الطب . وقد أخذ عليه السلطان أنه على صلات بأتباع الطريقة البكتاشية ، فأمر بعزله ونفيه . ولم يشفع له الإثراء العلمى الطبى الذى حفلت به حياة هذا العالم مع أنه لم يكن رجعياً . وقد جاز إلى ربه فى ذات السنة التى شهدت نفيه من إستانبول إلى أحد الأطراف النائية على حدود الدولة (١) .

وبعد أن نجح السلطان محمود الثانى فى استئصال شأفة الإنكشارية مضى يستكمل إصلاح الجيش وأصدر تباعاً عدة قوانين عسكرية تخرج عن نطاق هذه الدراسة . وحسبنا أن نذكر أن هذا السلطان تطلع إلى محمد على باشا والى مصر ليساعده فى تدريب الجيش الجديد . فطلب منه فى ذات السنة (١٨٢٦) أن يمده باثنى عشر خبيراً من الخبراء العسكريين لتدريب الجيش العثمانى . واعتذر محمد على عن عدم إرسال الخبراء بأعذار مخادعة (٢) . وولى السلطان وجهه شطر أوروبا كما فعل محمد على من قبل . وترددت فرنسا وبريطانيا ، بينما لقى استجابة من بروسيا والنمسا . فجاءه من بروسيا فى أواخر عام ١٨٣٥ فى زيارة خاصة الضابط البروسى ذو الشهرة العالمية فون مولتكه(٣)

---

(١) Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., pp. 85—86.

(٢) Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., p. 81.

(٣) كان مولتكه أحد أربعة عمالقة قامت على أكتافهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة فى مطلع عام ١٨٧١ (غليوم الأول ، وبسمارك ، وفون رون Von Roon وزير الحرب وفون مولتكه) . وقد ولد عام ١٨٠٠ وعين ضابطاً بالجيش البروس ، ثم سافر إلى إستانبول وظفر بتقدير عميق من السلطان محمود الثانى ، وخدم فى الجيش العثمانى . وحضر موقعة نصيبين =

Helmuth von Moltke وقد عينه السلطان مستشاراً لشئون تدريب الجيش ، ثم جاء فى أثره خمسة ضباط بروسيين آخرين . وكان استخدام الضباط الألمان فى الجيش العثمانى خطوة هامة على أول الطريق الذى أدى فيما بعد إلى نمو النفوذ البروسى (الألمانى) فى الجيش العثمانى نمواً عظيما (١) ، وباكورة أولى لمعالم سياسة التقارب التى انتهجتها ألمانيا فيما بعد نحو الدولة العثمانية . وهى السياسة المعروفة باسم Drang Nach Osten أى الاتجاه نحو الشرق .

تقدير عام لمحمود الثانى لإلغائه الفيالق الإنكشارية :

هناك شبه إجماع من المؤرخين والباحثين على الإشادة بالسلطان محمود الثانى لنجاحه فى إلغاء الفيالق الإنكشارية وتخليص الحكومة المركزية والمجتمع العثمانى من شرورهم . ويصفه البعض بالحزم والشجاعة ورجاحة الفكر والحصافة . وقالوا إنه اكتسب معظم هذه الخصال من احتكاكه بالأوروبيين (٢) . ويعلق أحدهم على نجاح السلطان فى القضاء على الإنكشارية بقوله إنه لو لم

= ويسميها المؤرخون الغربيون نزيب Nezib (٢٤ من يونيو — حزيران — ١٨٣٩) وقد منى فيها الجيش العثمانى بهزيمة ساحقة على يد الجيش المصرى. وكان مولتكه فى هيئة أركان الحرب بالجيش العثمانى . ويقال إنه ولى الأدبار مع سائر الضباط العثمانيين دون أن يتمكن من أخذ ملابسه وأوراقه الخاصة . وعاد إلى بروسيا وتدرج فى الوظائف العسكرية إلى أن عين رئيساً لأركان الحرب بالجيش البروسى ، وحصل على رتبة مشير Field Marshal وبفضل جهوده غدا الجيش أقوى جيش فى أوروبا . وكانت له اليد الطولى فى انتصار بروسيا على النمسا فى معركة سادوا وهى التى يسميها المؤرخون الألمان كونيجراتز Koniggratz (٣ من يوليو — تموز — ١٨٦٦) ، وعلى فرنسا فى موقعة سيدان Sedan (٢ من سبتمبر — أيلول — ١٨٧٠) . وأقيم له تمثالان فى حياته . واعتزل الخدمة فى سنة ١٨٨٨ ، وتوفى عام ١٨٩١ .

(١) أرسلت الحكومة الألمانية فى عام ١٨٨٣ بعثة عسكرية إلى الآستانة لتتولى تنظيم الجيش العثمانى وفق الأساليب الحديثة . وكانت هذه البعثة برياسة الكولونيل فون درحولتش .

(٢) قيل إن والدة السلطان محمود الثانى كانت فرنسية . وهذه رواية ضعيفة ، يدحضها أنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية على الإطلاق . كما أنه لم يكن يتكلم أى لغة أوروبية . وكان تعليمه عادياً بالنسبة لأمير من أمراء الأسرة الحاكمة . وكانت دراسته مقصورة على الشريعة الإسلامية واللغة التركية وبعض اللغات الشرقية والتاريخ والشعر . ولم تكن له معرفة مباشرة بالدول الغربية على الرغم من أنه كان يقوم بجولات فى الولايات العثمانية والأوروبية مستطلعاً أحوالها .

يكن للسلطان « من الأيادى البيضاء على الممالك المحروسة (١) إلا إلغاء طائفة الإنكشارية لكفى ذلك لتخليد اسمه فى بطون التاريخ مشكوراً ممدوحاً إلى أبد الآبدين » (٢) . ويعلق آخر تعليقاً متزناً فيقول إن نجاح محمود الثانى فى القضاء على الإنكشارية « كان كافياً وحده لاعتباره من أعلام الإصلاح فى الدولة العثمانية » (٣) . وذهب أحد المؤرخين فى تمجيد السلطان إلى القول بأنه يشبه بطرس الأكبر قيصر الروسيا من حيث الدور الذى قام به كل منهما فى دولته ، ومن حيث الإصلاحات التى أدخلها كل منهما فى بلاده (٤) .

والحق أن الباحث المحايد لا يستطيع أن يقلل من أهمية وحجم النجاح الذى أصابه السلطان محمود الثانى فى إلغاء الفيالق الإنكشارية بعد أن تفاقم طغيانها وجبروتها وغدت مركز قوة خطير فى حياة الدولة . وتتضح قيمة انتصاره على هذه الفئة الباغية إذا وضعنا فى اعتبارنا المعوقات العديدة التى فرضت نفسها فرضاً على السلطان . ونشير هنا إلى أهم هذه المعوقات حتى عام ١٨٢٦ وهو تاريخ إلغاء الفيالق الإنكشارية . كان على رأسها الحركة الوهابية أو السلفية فى شبه الجزيرة العربية ، واستئناف الحرب الروسية التى انتهت بمعاهدة بخارست عام ١٨١٢ ، والثورة التى حمل لواءها على باشا والى يانينا ، والثورة اليونانية وما صحبها من تدخل دولى — حربى وسياسى — لصالح الثوار اليونانيين . وقد استغرقت هذه المعوقات ثمانية عشر عاماً من حكم السلطان . فلما فرغ منها ، أو كاد يفرغ منها ، التفت إلى مشكلة الإنكشارية وهى مشكلة حساسة سبق أن تعرض معظم السلاطين السابقين لحلها على نحو من الأنحاء . ولكن باء جميعهم بالفشل . كانت نهاية بعضهم العزل ، بينما كان مصير البعض الآخر القتل ، واعتصم البعض الثالث بالسلبية حرصاً على أرواحهم ومراكزهم . أما محمود الثانى فقد اتسمت تصرفاته بالحصافة والأناة فى المرحلة الأولى ، فلم يتجه إلى إلغاء الفيالق الإنكشارية ،

---

(١) الممالك المحروسة يقصد بها الممتلكات العثمانية .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٢ .

(٣) دكتور السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٤) Phillips W.A.; Modern Europe (1815—1899), p. 210.

بل عمد إلى الإبقاء عليها والعودة بها إلى وضعها الأول فى عصرها الذهبى مثلا أعلى للنظام والطاعة والاستبسال فى ساحات القتال . وقد بذل السلطان محمود الثانى فى هذا الصدد محاولة سلمية فى خلال الشهور الأولى لتوليه العرش . ولما لم يجد استجابة من الإنكشارية أعرض ونأى بجانبه عنهم ، ثم بذل محاولة سلمية أخرى بعد ثمانى عشرة عاماً لتعديل نظام الفيالق الإنكشارية مع الإبقاء عليها . ولكن أصر الإنكشارية على موقف العناد . وحينئذ عول السلطان على أن يدخل فى مواجهة عسكرية استهدف منها إلغاء الفيالق الإنكشارية إلغاء كلياً بدلا من تعديل نظامها والإبقاء عليها . وكانت هذه المواجهة تمثل المرحلة الثانية . واتسمت تصرفات السلطان فيها بالتخطيط الدقيق والشجاعة والمقدرة الحربية . وسار على رأس بعض القوات العسكرية وجماهير الشعب واستخدم أسلحة أشد خطراً من تلك التى كانت فى أيدى الإنكشارية ففتكت بهم فتكاً ذريعاً وانهارت ثكناتهم فوق رءوسهم مما كفل له الانتصار الساحق عليهم وألقى بجثثهم فى البحر . وقرن إلغاء الفيالق الإنكشارية بحل الطريقة البكتاشية بصفتها دعامة قوية كانت تشد أزر الإنكشارية فى الأوساط الجماهيرية وعمل فى غير هوادة على سد الفراغ الذى تركته الفيالق الإنكشارية ، فأنشأ فى ذات السنة (١٨٢٦) فرقاً عسكرية جديدة وفق النظام الحديث . وأرسل بعثات عسكرية إلى الكليات الحربية فى بروسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا . واستقدم الخبراء العسكريين الأوروبيين لتدريب الفرق العسكرية . وأصبحت هذه الخطة سياسة عليا التزمت بها الدولة حتى القرن العشرين .

على هذا النحو توارى إلى الأبد الوجود الإنكشارى العسكرى فى الدولة منذ صيف ١٨٢٦ ، ونجح السلطان محمود الثانى فى القضاء على مركز خطير من مراكز القوى فى الدولة كان يتهدد أمنها الداخلى والخارجى بأشد الأخطار . يقول أحد كبار المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا مصدر هلع وذعر لأوروبا حيناً من الدهر ، ثم غدوا مصدر رعب وإرهاب للسلاطين ولرعاياهم المدنيين الخاضعين عن طيب خاطر للقانون يلتزمون به فى حياتهم سلوكاً ومنهاجاً (١) .

---

(١) Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., p.79.

كانت حركات العصيان التى قام بها الإنكشارية من وقت لآخر تتم فى العلن . وإمعاناً فى تحدى السلطان كانوا يتخذون من القزانات وسيلة إعلامية لحركات التمرد . ولا يتورعون عن عزل وقتل السلاطين والصدور العظام والوزراء وغيرهم . واعتمدوا على القوة العسكرية فى تنفيذ مخططاتهم . ومن هنا كانت تكمن خطورتهم ، على النقيض من المركزين الآخرين من مراكز القوى فى الدولة ، وهما : الحريم السلطانى والخصيان وأغواتهم . فإن مؤامرات وخطط هذين المركزين كانت تحاك فى السر ، وتنفذ فى السر ، ولا يعلم بها أو بنتائجها أحد سوى فئة قليلة العدد من موظفى الخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية فى القصر السلطانى وعدد ضئيل من كبار الموظفين فى أجهزة الدولة . وهذا ما سنتناوله فى الفصول الثلاثة التالية ، مع فصل رابع لتقييم مراكز القوى الرئيسية مع مراكز جانبية أخرى أطلت برأسها ، وأرادت أن يكون لها نصيب من الجاه والنفوذ والتسلط .



الفصل العشرون

مراكـز القـوى فى الدولة (٤)

الحريم السلطانى

نظام الحريم السلطانى :

أخذ سلاطين الدولة العثمانية بنظام الحريم فى قصورهم . وأطلق على هذا النظام « الحريم السلطانى » . وكانت أسرة السلطان هى مركز الدائرة بالنسبة إلى جميع الهيئات والطوائف التى تعمل فى منطقة الحريم . كانت تخصص عدة أجنحة فى القصر لسكنى والدة السلطان الحاكم ، إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، وزوجات السلطان . ونطلق عليها وعليهن فى هذه الدراسة سيدات الفئة الأولى ، ثم بنات السلطان وأولاده الصغار ، ثم فئات من الجوارى الحسان كن يعشن فى القصر ، ويشغل بعضهن شتى الوظائف الكبرى والصغرى فيه. كما كانت توجد طائفتان كثيفتا العدد من الخصيان البيض والخصيان السود . وعليهم رؤساء على شاكلتهم يطلق عليهم رؤساء أو أغوات الخصيان يقومون بحراسة منطقة الحريم وخدمة ساكناته . وكانت أجنحة الحريم عبارة عن مبان مستقلة أو وحدات سكنية مستقلة بلغت الروعة من حيث فخامة المبنى وزخرفته وأثاثه وتعدد حجراته وقاعاته . وكان يطلق على كل مبنى « دائرة » . وخصصت دائرة لكل سيدة من سيدات الفئة الأولى فى الحريم السلطانى وكذلك لأولاد السلطان وبناته .

ومما هو جدير بالذكر أن موضوع الحريم السلطانى من الموضوعات الصعبة للغاية فى تاريخ الدولة العثمانية نظراً لقلة المادة العلمية عنه . إذ كان الحريم السلطانى بكل فئاته وهيئاته يعيش وراء الأسوار العالية بعيداً عن العالم الخارجى . ويذكر المؤرخ دوسو D'Ohsson أنه لقى مصاعب جمة فى

الوقوف على مادة علمية موثوق بها عن هذا الموضوع ، وأنه اتصل بعدد من زوجات السلاطين واللاتى غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات اللاتى سبقت لهن الإقامة فى القصر ثم حررن وتزوجن ، وأنه قدم لهؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويده بالمعلومات . وقال إن التحقيقات التى قام بها بخصوص هذا الموضوع قد كلفته متاعب أكثر مما تطلبته الأجزاء الأخرى من كتابه الذى يقع فى سبعة مجلدات (١) وقد سبق أن ذكرنا أنه أقام فى إستانبول سنوات طوالا وعكف خلال ثلاثين عاماً (١٧٨٨ —١٨١٨) على وضع كتابه فجاء أشبه بموسوعة علمية عن تاريخ الدولة العثمانية (٢) . وقد أشار مؤرخ أمريكى إلى الصعوبات التى صادفها هو الآخر فى جمع المادة العلمية عن موضوع الحريم السلطانى(٣) .

أجنحة الحريم :

كانت تحاط منطقة الحريم بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، وكان الطريق المؤدى إلى منطقة الحريم عبارة عن ممر طويل ، له أربعة أبواب ، بابان منها مصنوعان من الحديد ، وبابان من البرونز . وكان رئيس الخصيان السود وعدد من هؤلاء الخصيان التابعين له من رتبة «نوبت قلفه سيه»(٤) وهم من الصف ضباط يتداولون الاحتفاظ بمفاتيح هذه الأبواب ليلا ونهاراً. وكانت أجنحة الحريم تعد منطقة مغلقة a closed zone ومنطقة محرمة out of boundr

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol. VII, p. 58.

(٢) انظر فى هذه الدراسة ص ١١٩ حاشية رقم ١ .

(٣) Lybyer A.H; op. cit., p. 126.

(٤) نوبت كلمة تركية مقتبسة من اللفظة العربية نوبة . أما قلفة فمعناها رئيس . والعبارة معناها « رئيس نوبة الحراسة» . انظر رتبة هذه الطائفة من الخصيان فى ص٦٥٨ حاشية رقم ٢ ، وانظر سائر اختصاصاتها فى ص ٦٦٠ حاشية رقم ٤

لا يسمح لأحد بدخولها أو الاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا لرجل واحد وعدد كبير نسبياً من أشباه الرجال . أما الرجل الواحد فهو السلطان . أما أشباه الرجال فهم الخصيان — وهم عبيد بيض وسود — استؤصلت من أجسامهم أعضاء التناسل . وبذلك ينتفى منهم كل خطر أو شبهة خطر أو مظنة خطر على ساكنات أجنحة الحريم ومما يدل على صرامة النظام الموضوع لأجنحة الحريم السلطانى أنه حدث على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) أن تجرأ أحد التجار من رعايا جمهورية البندقية وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحريم السلطانى واستخدم نظارة تقريب المسافات une lunette d'approche وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته ، فأمر السلطان بشنقه فوراً (١) . وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمنى يعمل ترجماناً —مترجماً — للسفير الفرنسى فى إستانبول ، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه وأسرعت بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسى ، مارشفيل Marecheville ، التماساً للعفو عنه .

ويلاحظ أن عزلة النساء كانت من التقاليد القديمة فى العالم الإسلامى . وكانت المجتمعات فى ذلك الوقت مجتمعات دينية إسلامية . وكان احتجاب النساء من أبرز سمات هذه المجتمعات . فلم يأت العثمانيون بجديد فى هذا الصدد، بل إنهم احترموا تقليداً إسلامياً موروثاً وراسخاً . ولذلك لم يكن يسمح لأية سيدة — ابتداء من زوجات السلطان حتى الخادمات بالخروج من القصر إلا فى حالات نادرة ، حين كان السلطان يصحب بعضهن فى زيارة لأحد القصور الصيفية . وكانت القاعدة العامة هى ضرورة التواجد الدائم داخل أجنحة الحريم السلطانى . وإذا أرادت إحدى سيدات الفئة الأولى وكذلك بنات السلطان التنزه فى حدائق القصر ، كان عليها أن تحصل أولا على إذن من السلطان شخصياً ، فإذا استجاب السلطان اتخذت سلطات القصر احتياطات

---

(١) Lavisse et Rambaud ; op. cit., t. v, p. 853 .

شديدة لمنع أى شخص من النظر إليها . وقد أخذت كلمة حريم Harem فى ذلك الوقت مدلولين ، هما : « الممنوع forbidden والمقدس[1] sacred وتطبيقاً لهذا المعنى المزدوج ، فإن عبارة الحريم السلطانى تعنى الشئ المقدس والمحرم على الغير الاقتراب منه أو النظر إليه سوى السلطان والخصيان ورؤسائهم أى أغوات الخصيان .

معيشة السلطان وسط الحريم :

وكانت توجد فى منطقة أجنحة الحريم مساحات واسعة من الحدائق المنسقة أجمل تنسيق ، وإلى جانبها عدد من الساحات المكشوفة . وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم ، وتحوى غرفة نومه وحماماً وقاعة استقبال كبيرة كان يؤدى فيها الصلاة ، ويستقبل فيها قريباته المتزوجات . وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه الكايا ، وهى من كبرى موظفات الحريم السلطانى ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التى يقضيها السلطان مع ساكنات دوائر الحريم سواء فى الليل أو فى النهار ، وعلى نزهاته مع البعض منهن فى حدائق أجنحة الحريم . وكان يطلق على هذه الزيارات « خلوت همايون » [2] أى الخلوة السلطانية . ولكى يتم الإعلام بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يلبس صندلا من فضة كى يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام [3] . أما إذا فاجأهن السلطان بوجوده فى منطقة الحريم فإنه كان من قواعد البروتوكول ألا تنظر السيدات والفتيات إلى وجه السلطان ، بل يغضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياء وخفراً [4] وكان السلطان يتمتع باحترام يفوق ما يتمتع به سائر البشر [5] . ويرى أحد المؤرخين الإنجليز أن الحريم السلطانى بهذه القيود الثقيلة المفروضة على ساكناته

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol, I. Part I, p. 72.

(٢) أنظر كلا من : D' Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol. VII 82.
Gibb Hamilton and Bowen Harold,. op. Cit., Vol. 1 Part. p. 329 N.8.

(٣) D' Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit. Vol. VII, p. 62.

(٤) Loc. cit.

(٥) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol I,.Part I, p. 76.

كان سجناً للعبيد a prison of slaves ثم عمم هذا الرأى على حاشية السلطان(١). ويذهب مؤرخ أمريكى إلى القول بأن الحريم السلطانى ينتمى إلى نظام القولار أى عبيد السلطان . ويستثنى من هذا التعميم أولاد السلطان وبناته . أما سائر السيدات والفتيات اللاتى كن يقمن فى منطقة الحريم فكن عبيدات السلطان(٢).

نساء السلاطين :

ليست الحياة الخاصة لرئيس الدولة أياً كان لقبه : إمبراطوراً ،أو سلطاناً، أو ملكاً ، أو أميراً — ملكاً خالصاً له ، لأن هذه الحياة الخاصة والشخصية ، فى استقامتها أو فى عوجها ، تترك بصمات قوية على مصائر الدولة . وقد كان لسلاطين الدولة العثمانية مواقف معينة من تعدد الزوجات ، والإنسال من الجوارى . والزواج من الكتابيات الأجنبيات . ولذلك نرى لزاماً علينا فى هذه الدراسة أن نمر مروراً سريعاً على المبادئ العامة للشريعة الإسلامية فيما يختص بهذه الموضوعات الثلاثة التى تعد مدخلا ضرورياً توضح مدى استفادة السلاطين أحياناً من الرخص المقيدة التى جاء بها الإسلام ، أو مدى استغلالهم لها أحياناً أخرى . فقد كان لمسلك السلاطين تجاه هذه المسائل الثلاث آثار خطيرة ، إذ أصبح عدد كبير من نساء الحريم السلطانى مراكز قوى خطيرة سواء فى السياسة الداخلية أو فى السياسة الخارجية للدولة .

الإسلام وتعدد الزوجات :

أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . ولكنه وضع لهذا التعدد قيوداً وشروطاً منها : ألا يحتفظ الرجل بأكثر من أربع زوجات فى وقت واحد ، واشترط أن يلتزم الزوج بإقامة العدل بينهن . « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا (٣)»(٤) .

---

(١) Ricault Paul (Sir) ; op. cit., p. 16.,

(٢) Lybyer A.H.; op. cit., p. 56 .

(٣) أى تجوروا ، يقال عال الحاكم إذا جار .

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٣ .

وقصدت الشريعة الإسلامية بالعدل أن يقيم الرجل العدل بين زوجاته فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة مثل توزيع مبيته عندهن والإنفاق عليهن وما إلى ذلك ، فلا يكون الأساس فى معاملة الزوج لزوجاته الزوجة الحديثة والزوجة القديمة ، أو الجميلة والقبيحة ، أو الزوجة التى تنتمى إلى أسرة غنية والأخرى التى تنتسب إلى أسرة فقيرة . وفى الحديث الشريف « من لم يعدل بين نسائه جاء يوم القيامة وشقه ساقط » . أما العدل فى توزيع عواطف الرجل نحو زوجاته ، وهو ما يعبر عنه بالميل القلبى ، فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ما اتى إظهاره فى المعاملة وتأثيره على حقوق الزوجات الأخريات . « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء (١) ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل (٢) فتذروها (٣) كالمعلقة (٤) ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما » (٥) .

وهذا القيد الذى وضعه الإسلام لتعدد الزوجات ، وهو أن يلتزم الزوج نحو زوجاته بالعدالة المطلقة الشاملة فيما ظهر منها وما بطن، إنما هو شرط بعيد المنال . فإذا عرف الزوج أن فى نفسه ضعفاً أو عدم مقدرة على تحقيق هذا العدل المطلق الشامل بين زوجاته ، فالحلال زوجة واحدة فقط ، وما سواها محظور . « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . والنص القرآنى الشرطى يؤكد هذا المعنى هنا . ويفسره بأن التحديد بزوجة واحدة فى هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور « ذلك أدنى ألا تعولوا » . والظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه — أى إلى اجتناب الظلم — واجبة. والوسيلة إلى الظلم هنا هى التعدد ، والوسيلة إلى اجتنابه هى التوحد (٦) .

---

(١) فى المحبة

(٢) إلى الزوجة التى تكنون لها حباً يفوق حبكم للزوجات الأخريات ، فتؤثرون الزوجة المفضلة بكثرة الإنفاق عليها وقضاء الوقت عندها ، وما إلى ذلك .

(٣) تتركوا الزوجة المال عنها . وهذا الفعل لا يستعمل إلا فى المضارع والأمر .

(٤) أى تتركوا مثل هذه الزوجة كالمعلقة لا هى ذات بعل ولا هى أيم ، أى لا هى متزوجة ولا هى مطلقة .

(٥) سورة النساء ، آية رقم ١٢٩ .

(٦) سيد قطب : فى ظلال القرآن . الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، طبع دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة ، د . ت ، ص ٨٤ .

ولكن تواجه الجماعات البشرية فى مسيرتها عبر العصور والدهور والحقب ظروفاً سياسية ، أو أزمات سكانية ، أو حالات اجتماعية تجعل تعدد الزوجات علاجاً لهذه الحالات الطارئة . والإسلام جاء لجميع الأجناس وكل الأجيال ، ولكل زمان ومكان . فهو يتسم بالمرونة ولا يقف جامداً إزاء هذه المشكلات التى تفرض نفسها على البشرية سواء كانت شعوباً أو أفراداً .

والظروف السياسية ، وهى التى تهمنا بالدرجة الأولى فى هذه الدراسة ، تتمثل فى أن يرى الحاكم ، أياً كان لقبه ، لدواعى الحكمة السياسية وإجراءات الأمن القومى ، أن يصهر إلى عدد من العائلات أو القبائل الكبرى ذات البأس والثراء والعصبية والنفوذ والكثرة العددية فى أفرادها وبطونها ، فترتبط مصالح هذه العائلات أو القبائل بمصالح الحاكم ، ومن ثم تشد أزره فى مواجهة خصوم نظام الحكم الجديد ، وبذلك يتوطد مركز الحاكم وتستقر دعائم الحكم . ومما هو جدير بالذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان وقتذاك فى شرخ الصبا وريعان الفتوة واكتمال الرجولة . وظلت السيدة خديجة وحدها زوجه ثمانية وعشرين عاماً حتى تخطى الخمسين لم يشرك معها زوجة أخرى على امتداد هذه السنوات الطوال على الرغم من أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب فى ذلك العهد ، وعلى الرغم من أنه كان لمحمد عليه الصلاة والسلام مندوحة فى التزوج على خديجة لأنه لم يعش له منها ذكر فى وقت كان وأد البنات أمراً درج عليه المجتمع الحجازى بعامة والمجتمع المكى بخاصة ، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفاً . وقد ظل عليه الصلاة والسلام مع السيدة خديجة سبع عشر سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده ولم يفكر قط فى أن يتزوج عليها ، ثم هو بعد أن يتخطى الخمسين يجمع فى خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفى سبع سنوات تسع زوجات على القول الراجح (١) . وكان الهدف من تعدد الزوجات هو توثيق أواصر الجماعة

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد . الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٨ م ، ص ٣١٠

الإسلامية الناشئة . فهو لم يتزوج بهذ العدد من النساء بدافع من شهوة او غرام . ومع ذلك فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يتهيب من عجزه عن إقامة العدل بينهن ، ونقصد بالعدل هنا توزيع ميله القلبى نحوهن توزيعاً متساوياً، ولذلك كان يقول عند قسمه(١) بين أزواجه « اللهم إن هذا قسمى فيما أملك . فلا تؤاخذ نى فيما تملك ولا أملك » (٢) .

وقد أخذ عدد كبير من رؤساء الدول الإسلامية فى العصور الوسطى بمبدأ تعدد الزوجات لهذا السبب السياسى ، كما أخذ به الملوك الأوائل لبعض الدول الإسلامية الكبرى فى التاريخ المعاصر لهذا السبب أيضاً .

أما الأزمات السكانية فقد تندلع حروب أو تنشب ثورات ، وتحصد هذه وتلك من الرجال أضعاف ما تحصده من النساء ، بحيث يصبح عدد النسوة ثلاثة أضعاف عدد الرجال ، فيقل عدد الرجال الصالحين للإنسال ، ويكون التعدد علاجاً لاختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث ، وصوناً للمرأة من الدنس ، وتعويضاً للأمة عما فقدت .

أما الحالات الاجتماعية فمن بينها مرض الزوجة أو عقمها ورغبة الزوج فى الإبقاء عليها أو حاجتها هى إليه . وهناك بواعث أخرى تساق فى هذا الصدد مثل القول إن فى بعض الرجال طاقات حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة أو لا تجد كفايتها فى زوجة واحدة؛ومن ثم يصبح تعدد الزوجات أمراً لا غناء عنه لأمثال هؤلاء الرجال . والواقع أن هذه مبررات يلوذ بها بعض المخلوقات ممن تسيطر على تفكيرهم وسلوكهم فى الحياة رغبات جنسية جارفة يدعمها أنهم أوتوا نصيباً من المال الموروث . وتصبح الممارسة الجنسية هى شغلهم الشاغل ، بل هى وظيفتهم الوحيدة فى الحياة لا يبغون عنها حولا . ومما لا جدال فيه أن أمثال هذه الخلائق هم ضحايا تربية فاسدة ونتاج بيئات يعشش الجهل والحماقة على عقول أصحابها . وإن الحياة المنتظمة والعلم الحديث

(١) القسم بفتح القاف وسكون السين هو توزيع المبيت بين الزوجات

(٢) محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م ص ٩٤ .

كفيلان بالتخفيف من حدة هذه الحيوانية الشهوانية عن طريق إعلاء الغريزة والتسامى بها Sublimation أولا ثم إبدالها Substitution ثانياً .

نخلص من هذا العرض السريع لأهم مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يختص بتعدد الزوجات إلى عدة حقائق ، نذكر منها :

أولا : ينصح الإسلام بالاكتفاء بالزوجة الواحدة فى الحياة العادية ، ويشيد بفضل الزوجة الواحدة لمجرد الخوف من عدم إقامة العدالة فى شتى صورها وأشكالها بين الزوجات مع التأكيد بأن هذا العدل غير مستطاع . ويرى أحد كبار رجال الفقه المحدثين أن الزواج الأمثل فى الإسلام هو الزواج بواحدة ، لأن فيه بعداً عن نطاق الظلم ، ولكن لا يرضى بهذا الزواج الأفضل والأمثل إلا أمثل الرجال ، ثم يتساءل عما إذا كان الرجال جميعاً من هذا الطراز.؟ (١) .

ثانياً : أما التعدد فهو فى أصله رخصة ، وهو ضرورة تواجه ضرورة ، هو إجراء أمن قومى فى الظروف السياسية غير العادية ، وهو صمام أمن فى حالة كثافة عدد السكان الإناث بالنسبة لعدد الذكور ، وهو وقاية خلقية فى الحالات الاجتماعية الصارخة .

ثالثاً : لم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل من نظام التعدد كعلاج لتلك الظروف الاستثنائية . فقد جربت الإنسانية حلولا أخرى أدت إلى عواقب وخيمة خلقياً واجتماعياً . وأباح الإسلام نظام التعدد ، ووضع فى تطبيقه قيوداً كانت أقصى ما يمكن من الاحتياط (٢) .

---

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن . مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٨٤-٨٥ .
وانظر له أيضاً

السلام العالمى والإسلام . الطبعة الأولى . مكتبة وهبه شارع الجمهورية (ابراهيم باشا سابقاً) بعابدين . القاهرة . وقد عالج فى إسهاب موضوع تعدد الزوجات فى فصل عنوانه « سلام البيت » .

زوجات السلطان :

ارتاحت الغالبية العظمى من سلاطين الدولة العثمانية إلى مبدأ تعدد الزوجات والذى جاء به الإسلام ، والتزموا بالشرط العددى الذى ورد فى القرآن الكريم ، وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات فى وقت واحد . وليس معنى ذلك أن جميع السلاطين تزوجوا أربع زوجات ، بل إنهم تزوجوا أكثر من زوجة واحدة ، تزوجوا مثنى ، أو ثلاث ، أو رباع ، . ولكن المهم أنهم لم يتخطوا بأى حال الحد الأقصى لعدد الزوجات المقرر فى الشريعة الإسلامية . وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ومسيحيات ، وُلدن حرائر ، وعشن حرائر ، ومتن حرائر ، بمعنى أنهن لم يقعن فى حياتهن فى الأسر ، ولم يختطفهن أحد من تجار الرقيق ، ولم يحصل عليهن السلاطين عن طريق الشراء بالمال أو الهدايا . وقد تزوجهن السلاطين بعقود زواج شرعية . وقد نهج هذا النهج السلاطين السبعة الأوائل ابتداء من عثمان الأول وانتهاء بالسلطان محمد الفاتح (١) . وقد حكم هؤلاء السلاطين السبعة حقباً بلغت زهاء مائة واثنين وثمانين عاماً (١٢٩٩ — ١٤٨١) (٢) . ولكن حدث بعد ذلك

---

(١) كان هؤلاء السلاطين السبعة هم :
عثمان الأول (١٢٩٩-١٣٢٦)
أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩)
مراد الأول ابن أورخان (١٣٥٩-١٣٨٩)
أبى يزيد الأول المشهور باسم يلديرم أى البرق ، (١٣٨٩-١٤٠٢) وهو ابن مراد الأول
محمد الأول بن أبى يزيد الأول (١٤٠٣-١٤٢١)
مراد الثانى ابن محمد الأول (١٤٢١-١٤٥١)
محمد الفاتح ابن مراد الثانى (١٤٥١-١٤٨١)

(٢) يستبعد بعض الباحثين من هذه الحقب الفترة التى أعقبت هزيمة السلطان أبى يزيد الأول على يد المغول بقيادة تيمور الأعرج فى معركة أنقرة فى اليوم العشرين من شهر يونيو—حزيران — عام١٤٠٢ ووقوع السلطان فى الأسر . وقد ظل يرسف فى أغلاله حتى وافاه الأجل فى السنة التالية ، ثم لنشوب الحرب الأهلية بين أبناء السلطان أبى يزيد الأول وهم عيسى ، ومحمد ، وسليمان ، وموسى ، بسبب تنافسهم على العرش . واستطالت هذه الحرب الأهلية زهاء إحدى عشرة سنة (١٤٠٣-١٤١٣) وانتهت باعتلاء محمد عرش الدولة ، وقد عرف باسم السلطان محمد الأول —

أن جميع السلاطين الذين حكموا الدولة بعد محمد الفاتح قد نبذوا نبذاً تاماً الزواج من الحرائر بعقود زواج شرعية وانصرفوا إلى الجوارى الحسان اللاتى كان يموج بهن القصر السلطانى (١) . وسنعرض لموضوع الجوارى فى هذا الفصل .

وإذا كان أولئك السلاطين السبعة الأوائل قد التزموا بالشرط العددى لتعدد الزوجات ، إلا أنهم أغفلوا الشرط الآخر ، وهو إقامة العدل بين الزوجات . كان لكل سلطانة وضع محدد ومقرر فى البروتوكول العثمانى . وهذا المركز يختلف علواً وهبوطاً عن مركز زميلاتها . فالسلطانة التى تنجب ولداً تميز عن زميلتها التى تنجب بنتاً . ويتبع هذا التميز تميزاً آخر فى المخصصات المالية التى ترصد لكل سلطانة . وفى العادة تظفر السلطانة والدة الإبن برعاية وتقدير يفوقان الرعاية والتقدير اللذين تحظى بهما زميلاتها على أساس أن ابنها هو ولى العهد . ولكن فيما عدا ذلك تقريباً كانت كل سلطانة تقيم فى جناح خاص بها فى الحريم السلطانى . كما كانت لكل سلطانة حاشية خاصة بها تضم سيدات وفتيات تقمن على خدمتها . وكانت هذه الحاشية تضم عدداً معيناً من الخصيان ورئيساً لهم يسمى أغا الطواشية أو أغا الخصيان، يقوم فريق منهم بخدمة الزوجة بينما يقوم فريق آخر منهم بحراسة الجناح وبواباته والمسالك المؤدية إليه . وكان يبلغ عدد هؤلاء الحراس أربعين خصياً . أما الأغا فيتلقى رغبات السلطانة أو أوامراها ، فينقلها إلى السلطان فى الحالة الأولى ، وإلى الصدر الأعظم فى الحالة الثانية .

=وسمى أيضاً السلطان محمد شلبى . ويخلص هذا الفريق من الباحثين رأياً إلى وجوب استبعاد فترة تلك الحرب الأهلية من هذه الحقب .

أنظر : دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢١ — ٦٢٤ .

(١) يستثنى من هذا الحكم العام سلطانان توليا الحكم فى النصف الأول من القرن السابع عشر تزوجا بعقود زواج شرعية نسوة من عامة المسلمين . وكانت واحدة منهن جارية فأعتقت .

الإسلام والزواج من الكتابيات :

يجيز الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، سواء كانت يهودية أو مسيحية . وقد جاء فى القرآن الكريم « اليوم أحل لكم الطيبات (١) ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل (٢) لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات (٣) من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن (٤) محصنين (٥) غير مسافحين (٦) ولا متخذى أخدان (٧) ، ومن يكفر بالإيمان (٨) فقد حبط عمله (٩) ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » (١٠) . وهذه الآية القرآنية الكريمة تذكر العفيفات الحرائر من الكتابيات جنباً إلى جنب مع العفيفات الحرائر من المسلمات . وهى سماحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان (١١) . كما أن هذه الآية الكريمة تشترط لزواج المسلم من الكتابية أن يدفع لها المهر . وأن تكون النية لدى الزوج هى الإعفاف والإحصان الذى يحصن به الرجل زوجته ويقيها زلات الحياة ، فلا يكون المهر وسيلة إلى اتخاذ الزوجة صديقة سراً يمارس معها السفاح .

---

(١) الطيبات جمع طيب ، وهو ضد الخبيث .

(٢) حل لكم أى حلال لكم .

(٣) المحصنات هن الحرائر العفيفات عن الزنا .

(٤) أجورهن بمعنى مهورهن .

(٥) محصنين أى عفيفين . مشتقة من أحصن أى عف .

(٦) مسافحين أى زانين ومجاهرين بالزنا .

(٧) أخدان جمع خدن (بكسر الخاء وسكون الدال) أى الصديق فى السر على وزن حمل وأحمال . وتستخدم تلك اللفظة للدلالة على الذكر أو الأنثى . والمعنى : ولا متخذى صديقات سراً .

(٨) يقصد بالإيمان فى هذه الآية الكريمة : شرائع الإسلام .

(٩) حبط عمله أى بطل ثواب عمله .

(١٠) سورة المائدة : آية رقم ٥

(١١) إن المسيحى الكاثوليكى يتحرج من الزواج بأرثوذكسية أو بروتستانتية أو بأية فتاة تعتنق مذهباً مسيحياً آخر . ولا يقدم على ذلك الا المتحللون عندهم من العقيدة .

انظر :

سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٦ ، ص ٣٢

وقد وضع علماء الشريعة عدة مبادئ فيما يختص بالزواج من الكتابيات نذكر من بينها :

١ – أن يكون جميع الأولاد مسلمين بدون فرق بين الذكور والإناث .

٢ – عدم التوارث بين الزوجين إذا مات أحدهما ، لأن شرط إرث المسلم اتحاد الدين . أما الأولاد فيرثون والدهم ولا يرثون والدتهم .

٣ – يكون للزوجة الكتابية كل حقوق الزوجة المسلمة ، وعليها كل واجباتها نحو زوجها وأولادها فيما عدا التوارث (١) .

وإذا كان الإسلام قد حرم زواج المسلم من الوثنية وأجاز زواجه من الكتابية ، فلأن الكتابية تلتقى مع المسلم فى لب الفضائل الخلقية والاجتماعية ، لأن الأديان السماوية فى أصلها واحد . ومن الممكن أن تستمر العشرة الزوجية بينهما معتدلة من غير استهواء . وكان الرعيل الأول من الصحابة لا يتحمس للزواج من الكتابيات ، وإن كانت قلة عددية منهم قد أقدمت على الزواج منهن . ونذكر على سبيل المثال طلحة بن عبيد الله . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن الزواج من الكتابيات إلا إذا كان الزواج يستهدف غرضاً سامياً كارتباط سياسى يجمع القلوب ويؤلف بينها أو نحو ذلك (٢) . ويرى بعض الفقهاء أن الأفضل ألا يتزوج المسلم إلا مسلمة لقيام الألفة من كل وجه (٣) .

وعلى الرغم من أن الإسلام يجعل الرجل قواماً على زوجته فى كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، إلا أنه لا يجيز للمسلم المتزوج كتابية أن يرغمها على ترك دينها ، كما لا يجيز له أن يمنعها من أداء عباداتها وشعائر دينها ، بل إن بعض أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية يرون أنه ينبغى عليه أن يصحبها إلى حيث تؤدى هذه العبادات فى كنيستها أو بيعتها إذا رغبت فى ذلك (٤) .

---

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٤) دكتور على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٦١

البواعث السياسية والعسكرية وراء زواج السلاطين من الكتابيات الأجنبيات :

عمد عدد كبير من سلاطين الدولة إلى الزواج من الكتابيات الأجنبيات. ونقصد بهن فى هذه الدراسة المسيحيات اللاتى لم يكن من رعايا الدولة العثمانية. فكان الحريم السلطانى فى أعلى مراتبه يضم غالباً زوجة كتابية أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات المسلمات . وقد بدأت ظاهرة الزواج من الكتابيات الأجنبيات منذ نشوء الدولة العثمانية على عهد عثمان الأول (١٢٩٩ — ١٣٢٦) الذى تنسب الدولة والأمة إليه . فقد رأى عثمان أن إمارته أو دولته تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ومسيحية معادية تتربص بالعثمانيين الدوائر . وأراد تجنيب إمارته مواجهة حربية ضد تكتلات إقليمية عسكرية . وأدرك أنه لا يستطيع — بالإمكانيات المحدودة التى لديه — ممارسة سياسة التوسع الإقليمى المرحلى للدولة التى يتطلع إلى تكوينها ، فإمارته ذات تعداد سكانى قليل . فلجأ إلى وسائل متعددة سبق أن عرضنا طرفاً منها (١) . وكان من بينها مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة . فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا (٢) ، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لابنه أورخان (٣) وكان يطلق عليها نيلوفير Nenuphar أو Nilufer ومعناها زهرة اللوتس (٤) . وقد وضع هذان العاهلان تقليداً للبنين والحفدة من أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة وهو الزواج من الكتابيات الأجنبيات (٥) . وقد أنجب السلطان أورخان من تلك السيدة اليونانية ابناً تولى العرش من

---

(١) انظر ص ٤٠ فى هذه الدراسة .

(٢) تسمى أرمينيا الصغرى ، وهى دولة مسيحية .

(٣) يقال إن عثمان أسر هذه السيدة فى إحدى حروبه ، وبقيت على المسيحية .

(٤) Lybyer A.H.; op. cit., p. 17 .

(٥) من دلائل ميل السلطان أورخان إلى التوسع فى تطبيق سياسة الزواج من الكتابيات الأجنبيات بين أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة أنه فى معاهدة سكوتارى Scutari (١٣٥٩) التى عقدت بينه وبين حنا باليولوج إمبراطور الدولة البيزنطية تقرر أن يتزوج خليل ابن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور حنا باليولوج . وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات . ويبدو أن هذا الزواج قد أدرج فى صلب المعاهدة ضماناً لتنفيذها ، لأنها أبرمت أصلا على أساس اعتراف الدولة البيزنطية بفتوحات الدولة العثمانية فى إقليم ترافيا فى البلقان .

بعده باسم السلطان مراد الأول (١٣٥٩ — ١٣٨٩) . وقد حذا هذا السلطان حذو أبيه وجده ، فتزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى سيشمان Sischman بعد أن طوقه العثمانيون فى نيقوبوليس على نهر الدانوب . وارتضى هذا الملك أن يدفع الجزية للعثمانيين وأن يزوج ابنته للسلطان مراد الأول (١) .

ولما تولى العرش السلطان أبو يزيد الأول (١٣٨٩ — ١٤٠٢) أراد أن يتخذ من دولة الصرب ، أو بعبارة أدق ما تبقى منها ، دولة حليفة له كى يجعل منها دولة حاجزة un état tampon بينه وبين دولة المجر ، إذ كان يخشى أن تنتهز هذه الدولة فرصة انشغاله فى الجبهة الأناضولية لتغير على الأقاليم العثمانية فى البلقـــان . فتزوج من أوليفيرا Olivéra ابنة ملك الصرب لازار Lazare الذى كان العـــثمانيون قد ذبحـــوه عقب معركة قوصوه الأولى Kossovo عام ١٣٨٩ رداً على قيام صربى يدعى كوبيلتش ميلوش K. Miloch بقتل السلطان مراد الأول (٢) . وتمشياً مع السياسة الودية التى انتهجها أبو يزيد الأول ابن السلطان القتيل وافق أبو يزيد على أن يحكم بلاد الصرب ابنا الملك لازار ، حسب قوانين الصرب وعاداتهم وتقاليدهم ، ويدينان له بالولاء ويقدمان له جزية سنوية وعدداً معيناً من الجنود يشتركون فى فرق خاصة بهم إلى جانب الجيش العثمانى . واتخذ خطوات أخرى لاسترضائهما(٣) بجانب زواجه من أختهما أوليفيرا . وسار على هذا

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٢) بينما كان السلطان مراد الأول يتفقد ميدان القتال بعد المعركة إذا به يخر صريعاً ويموت لساعته فى الخامس عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٣٨٩ إذ تقدم منه هذا الصربى، وكان قد أصيب بجراح فى أثناء المعركة وأراد أن ينتقم لهزيمة بلاده . وظن السلطان مراد أن لديه شكوى فسمح له بالتقدم نحوه فطعنه بخنجره. وقد بذل العثمانيون جهوداً جبارة حتى استطاعوا أسر لازار ملك الصرب وعدد كبير من النبلاء . وصدرت الأوامر بذبحهم جميعاً أمام جثمان السلطان مراد الأول المسجى فى ساحة القتال .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٦٠٦-٦٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٠

النهج — الزواج من الكتابيات الأجنبيات — السلطان مراد الثانى (١٤٢١—١٤٥١) فقد تزوج من مارا Mara ابنة أمير الصرب جورج برانكوفتش G. Brankovitch . وكانت هذه الزيجة من الزيجات السياسية الناجحة القليلة التى أثمرت ثماراً طيبة فى مجال العلاقات الدولية . فقد كانت سبباً فى توثيق عرى التحالف بين الدولة العثمانية ودولة الصرب التى امتنعت عن تقديم أية مساعدة للقائد حنا هنيادى (١) J. Hanyade حين زحف فى أواخر سبتمبر — أيلول — عام ١٤٤٨ على رأس جيش يتكون من ٢٥,٠٠٠ رجل من الألمان وسكان والاشيا وبوهيميا والمجر وترانسلفانيا . وأدخل فى تقديره تأييداً عسكرياً يظفر به من الصرب . ولكن خابت تقديراته . وزحف مراد الثانى وهو يقود جيشاً بلغ عدده خمسين ألف جندى وتقابل مع القوات المتحالفة فى سهول قوصوه فى ١٧ من أكتوبر — تشرين أول — عام ١٤٤٨ واستمرت المعركة ثلاثة أيام حسوما . وانتهت فى ١٩ من ذات الشهر بفوز ساحق للعثمانيين الذين اقتحموا معسكر هنيادى فهرب ، وحاول أن يشق طريقه عبر الدانوب فوقع فى أيدى أعدائه الصرب . ولما توفى السلطان مراد الثانى بالسكتة القلبية فى اليوم الخامس من شهر فبراير — شباط — عام ١٤٥١ خلفه ابنه السلطان محمد الثانى أو الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) ، وكإجراء أمن داخلى أمر بترحيل

---

(١) حنا هنيادى ابن غير شرعى للملك المجر سيجسموند ، أنجبه من سيدة مجرية . وعين حاكماً لإقليم ترانسلفانيا المجرية . وأظهر صفات حربية ممتازة فى صد العثمانيين حين كانوا يتوغلون فى ترانسلفانيا . وأصبح حديث الأوساط الرسمية والشعبية فى أوروبا ، وازداد اعتداداً بنفسه وعتواً واستعلاء ، وأخذ على عاتقه عبء الكفاح عن المسيحية والتصدى للعثمانيين ، وباركت البابوية حركة الجهاد الدينى التى تصدرها . وقد أوقع بالعثمانيين عدة هزائم متلاحقة ، ثم انتصر العثمانيون عليه فى معركة ڤارنا Varna فى اليوم التاسع من شهر نوفبر — تشرين ثان — عام ١٤٤٤ وقتلوا فيها ڤلاديسلاف ملك المجر . وقد حكم هنيادى بلاد المجر بعد مصرع ملكها باسم ابنه القاصر .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ... مرجع سبق ذكره ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٦٣١-٦٣٥

زوجة أبيه — مارا — إلى موطنها الأصلى فى الصرب كى يأمن شر الدسائس التى قد تحيكها ضده فى أوساط الحريم السلطانى وكانت والدة السلطان محمد الثالث (١٥٩٦ — ١٦٠٣) قد جىء بها من البندقية . وهناك مثال آخر صارخ ، فإن سيدة يونانية تزوجت السلطان أحمد الأول (١٦٠٣—١٦١٧) وأنجبت منه ولدين تربعا على عرش الدولة الواحد بعد الآخر ، وهما مراد الرابع (١٦٢٣—١٦٤٠) وإبراهيم الأول (١٦٤٠ — ١٦٤٨) . ويطول بنا الحديث إذا مضينا فى ذكر الزوجات الكتابيات الأجنبيات اللاتى تزوجن سلاطين الدولة . ونكتفى هنا بذكر الحقائق التالية وبعض النتائج التى ترتبت عليها :

أولا : إن الغالبية العظمى من السلاطين أقدموا على مثل هذه الزيجات بحيث ندر من السلاطين من لم يُدخل فى حريمه زوجة كتابية أجنبية وقد أصبحت هذه الزيجات تقليداً درج عليه سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .

ثانياً : إن سلاطين الفترة الأولى كان لهم من قوة الشخصية ومضاء العزيمة والانكباب على تصريف شئون الدولة ما جعل زوجة كل منهم تأخذ حجمها الطبيعى فقط كزوجة للسلطان ، فلا تتدخل فى شئون الدولة ولا تمارس نفوذاً على الصدر الأعظم والوزراء وعلى غيرهم من كبار رجال الدولة. أما سلاطين الفترة الثانية فإن غالبيتهم قد خضعوا خضوعاً كاد يكون تاماً لأولئك الزوجات . حتى أصبحن مركز قوة خطير . وكان بعض هؤلاء الزوجات يتدخلن فى السياسة العليا للدولة ويوجهنها الوجهة التى تردنها . وهكذا استفحل خطر أولئك الزوجات وتركن بصماتهن بارزة قوية فى تاريخ الدولة .

ثالثا : إن زواج سلاطين الفترة الأولى بالكتابيات الأجنبيات كان يتم فى ظروف متباينة ولدوافع مختلفة بحيث كان لكل زواج ملابساته ودوافعه . كان بعض السلاطين يطلبون أو يسعون لمصاهرة أسرة حاكمة فى دولة مجاورة توثيقاً لعلاقات حسن الجوار . وكان البعض الآخر يتزوجون الكتابية الأجنبية

تنفيذاً لبند فى المعاهدة التى فرضوها على دولة أوروبية منهزمة كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة . وكان البعض الثالث يتزوج الكتابية الأجنبية كمظهر عملى للتحالف العسكرى الذى تعقده الدولة العثمانية مع دولة أخرى تنتمى إليها الزوجة الكتابية أو على الأقل لتلتزم حكومتها بموقف الحيدة فى حرب تعتزم الدولة خوضها ضد أحلاف صليبية أوروبية تكونت للقضاء على الدولة العثمانية . ولذلك كانت تغلب البواعث السياسية أو العسكرية على معظم هذه الزيجات .

رابعاً : إن عدداً من الزوجات الكتابيات الأجنبيات اعتنقن الإسلام بمجرد التحاقهن بالحريم السلطانى . وظل عدد آخر منهن على المسيحية بموافقة أزواجهن السلاطين ابقاء على مشاعر الأصهار الجدد وضماناً لتحقيق الأهداف السياسية أو الحربية التى كانت وراء زواج السلاطين بهن . ومع ذلك فإن أولئك الزوجات كن يدخلن فى الإسلام بعد فترة قد تطول حيناً وقد تقصر أحياناً أخرى تبعاً للعلاقات السياسية وتطورها بين الدولة العثمانية والدولة الأجنبية التى تنتمى إليها الزوجة الكتابية الأجنبية .

خامساً : إن بعض الزوجات الكتابيات كن يتظاهرن باعتناق الإسلام ، ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين ، ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية . ولكن كانت كل منهن تخفى بين ضلوعها حباً وولاء لوطنها الأول ، وتعمل على تنفيذ برنامج من وحى حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها الأول ، حتى ولو كان هذا البرنامج ينطوى على الإضرار بمصالح الدولة العثمانية . التى جعلت منها سلطانة لأكبر دولة إسلامية ومن كبرى دول العالم .

الإسلام والجوارى :

الجارية ، فى الشريعة الإسلامية ، هى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو بشرط أن تكون غير مسلمة ، لأنه لا يجوز ، لأى سبب من الأسباب ، أن تسبى المسلمة وتسترق ، أو هى التى تنجبها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت أو كتابية . أو هى التى تؤخذ شراء من أسواق الرقيق حيث يبيعها النخاسون .

وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكتابيات اللاتى تعود أصولهن إلى ديار الإسلام . وإنما يأتون بالرقيق من البلاد غير الإسلامية ، ويتاجرون به ، لأن الإسلام حرم السبي منذ قضائه على عادة الغزو المتأصلة فى نفوس البدو .

ومن الثابت أن العرب قبل الإسلام عرفوا نظام الجوارى . وكان لأثرياء قريش وزعمائها عدد من الجوارى انصرفن إلى الغناء أو الأعمال التى قامت بها الجوارى بعد ذلك فى قصور المسلمين . ولما جاء الإسلام أغلق جميع أبواب الرق بالنسبة للرجال والسيدات ما عدا رق الحرب ، فقد أبقى عليه للضرورة ، كما سنوضح ذلك فى الفصل الثانى والعشرين الخاص بالعبيد الخصيان . وكانت الفتوح الإسلامية الكبرى فى صدر الإسلام فرصة مواتية لحصول المقاتلين العرب على أعداد وفيرة جداً من الجوارى ، لأن العرب إذا دخلوا مدينة عنوة ، ولم تكن قد وضعت شروط للفتح ، كانوا يعتبرون المدينة المفتوحة عنوة ملكاً لهم بما فيها من أرض ومن عليها من محاربين وشيوخ ونساء وأطفال . وكانوا يتصرفون بهم تصرف المالك . وتصبح كل من تقع فى أيديهم من نساء المحاربين وبناتهم إماء لهم ينقلونهن معهم إلى بلادهم مع الأسلاب الأخرى . ويوزعونهن بينهم بعد أن يقدموا النسبة المقررة إلى الخليفة أو بيت المال وهى الخمس،ويحولون ما يتبقى منهن إلى منازلهم . وقد برزت هذه الظاهرة بصورة واضحة وساحقة على عهد الدولة الأموية . وكان العرب قد انساحوا غرباً فى شمالى إفريقية والأندلس وجنوبى فرنسا ، وشرقاً نحو الهند وما وراءها . ويقال إن موسى ابن نصير فاتح المغرب والأندلس لما عاد إلى دمشق كانت معه جموع كثيفة العـــدد بلغت عـــدة آلاف من عذارى العائلات القوطية النبيلة (١) . ثم اشتدت ظاهرة الجوارى بروزاً على عهد الدولة العباسية . ولما هدأت حركة الفتوح الإسلامية اتجه حكام المسلمين وأثرياؤهم إلى الحصول على

---

(١) دكتور جبور عبد النور : الجوارى . الناشر دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، د.ت ، ص ص ٢٣-٢٧ .

الجوارى عن طريق الشراء من تجار النخاسة بأثمان باهظة . وكانت قصور دمشق وبغداد والفسطاط وعواصم مصر الإسلامية الأخرى التى تعاقب إنشاؤها وكذلك قصور قرطبة وإشبيلية وغيرها مليئة بالجوارى الفاتنات . وقد حفلت حياتهن بالترف : كن يرتدين الشفيف من الملابس ، ويتفنن فى الزينة ، وفى تعطير أجسامهن ، وإبراز محاسنها ، ويتناولن أشهى الأطعمة ، ويظفرن بقدر كبير من الإعزاز والإكرام . ومن أجلهن أهدرت الأموال.وقيل عنهن تعبير لاذع يصور جانباً كبيراً من الحقيقة،فأطلق عليهن « سلع الجمال والمتعة » .

وكان عددهن يفوق عدد السيدات الحرائر فى هذه القصور . وهكذا تسربت الجوارى الحسان إلى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والقادة العسكريين ومنازل الأثرياء . وكانت غالبية الجوارى يمارسن ألواناً من فنون النشاط وبث المرح فى قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء (١)،وسيطرن على عقول مواليهن حتى انقادوا لهن وأصبحوا أداة طيعة فى أيديهن . وحاول بعض الخلفاء الأمويين ولا سيما معاوية إقصاء الجوارى عن النفوذ وحصرهن فى الخدور حتى لا يتطاولن إلى السلطة . وذهب التحفظ بالأشياخ المتزمتين إلى الحط من أبناء الجوارى ونصحوا بالابتعاد عنهن لأنهن يفسدن العرق العربى . ونظر كثير من هؤلاء إلى الهجناء (٢) نظرة امتهان أول الأمر . وكان من بينهم أبناء خلفاء وأشراف . وقد خبت هذه الكراهية على تعاقب السنين . وأقبل العرب إقبالا شديداً على الزواج من الجوارى الحسان . وكانت هناك عدة عوامل وراء هذا الإقبال المتزايد ، منها : اعتقاد العرب أن زواجهم من الجوارى يؤدى إلى إنجاب أولاد أشداء أقوياء وإلى ظهور أجيال صاعدة تمتزج فيها الدماء العربية بالدماء الأجنبية ، إذ كانت الجوارى من بلاد شتى من أوروبا وآسيا . وفى الحديث الشريف «اغتربوا لا تضووا »(٣) . وفتن

---

(١) كانت تطلق لفظة قينة — بفتح القاف وسكون الياء — على الأمة البيضاء التى تجيد الغناء .

(٢) الهجناء جمع هجين ، وهو الشخص الذى أبوه عربى وأمه أمة .

(٣) ضوى الولد إذا ضمر جسمه وهزل ، فهو ضاوى (مثقل) . والضوى — بفتح الضاد—

العرب بلون الجوارى المشرق ، وسرهم أن يجيء أبناؤهم على شيء من بياض البشرة على عكس أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . ومن هذه العوامل أيضا انتقال المحاربين العرب من بلد إلى بلد وابتعادهم عن العربيات الخالصات ، ثم كان فوق ذلك كله الميل الجنسى العنيف نحو جوار فاتنات حسناوات الوجوه ، زرق العيون ، ناعمات البشرة ، تمثلت فيهن روعة الجمال الأوروبى أو التركى أو الشركسى .

أخذ نفوذ الجوارى يشتد فى بلاط الخلفاء . وكن أقرب النساء إلى قلوبهم ، وتدخلن فى شئون الدولة ، وأصبحن المرجع الرئيسى فى كثير من المسائل الهامة . وكان الخلفاء يستجيبون لرغباتهن أو توجيهاتهن أو أوامرهن . وقمن بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين بحيث غدون مركز قوة خطير . وكان هارون الرشيد أول من أسرف من العباسيين فى تقريب الجوارى إليه، بل وفى تفضيلهن على الحرائر . وكان معظم أولاده من الإماء (١) . وأسهمت الجوارى

= وتشديدها وفتح الواو — هو الهزال . وكان العرب يعتقدون أن ولد الرجل من قريبته يجئ ضاوياً نحيفاً .

(١) كان منهم :

ا — عبد الله المأمون ، كانت أمه جارية فارسية ، يقال لها مراجل ، وأصبحت أم ولد .

ب — القاسم المؤتمن ، كانت أمه جارية ، يقال لها قصف ، وأصبحت أم ولد .

ج — محمد أبو إسحاق المعتصم ، كانت أمه جارية تركية ، يقال لها ماردة ، وأصبحت أم ولد . وكانت أكثر الإماء خطرا . أثرت تأثيراً كبيراً على ابنها لما تولى الخلافة وزينت له استدعاء الأتراك ،وشغلوا المناصب القيادية فى أجهزة الدولة على حساب العرب والفرس . وانتزعوا من الخلفاء كل نفوذ .

د — صالح ، أمه جارية ، يقال لها رئم ، وأصبحت أم ولد .

هـ — محمد أبو عيسى ، أمه جارية يقال لها عرابة ، واصبحت أم ولد .

و — محمد أبو يعقوب ، أمه جارية ، يقال لها شذرة ، وأصبحت أم ولد .

ز — محمد أبو العباس ، أمه جارية ، يقال لها خبث ، وأصبحت أم ولد .

ح — محمد أبو سليمان ، أمه جارية ، يقال لها رداح ، وأصبحت أم ولد .

ط — محمد أبو على ، أمه جارية ، يقال لها دواج ، وأصبحت أم ولد .

ى — محمد أبو أحمد ، أمه جارية ، يقال لها كتمان ، وأصبحت أم ولد .

أنظر :

الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك . ج ٦ ، ص ٥٤٠

فى تنفيذ المؤامرات التى كانت تحاك فى بلاط الخلفاء لخلع خليفة وتعيين آخر .

وكما كانت الجوارى متعددات المصادر والأجناس والألوان ، متفاوتات فى الجمال ، كن أيضاً مختلفات فى الدين . إذ كن ينتمين عادة إلى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو الوثنية . أما المجوسيات والوثنيات فكن يدخلن فى الإسلام . وتحولت غالبية المسيحيات واليهوديات أيضاً إلى الإسلام أو تظاهرن بالدخول فى الإسلام حرصاً على مصالحهن أو تملقاً لأسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجاً شرعياً ، لأن اختلاف الزوجين فى الدين كان — كما ذكرنا — يمنع أن يرث أحدهما الآخر . أما الجوارى اللاتى بقين فى الرق فكن يحافظن فى أغلب الأحيان على دياناتهن الأولى . وكان أسيادهن يقبلون هذا الوضع ولا يكرهونهن على اعتناق الإسلام ، وأكثر من هذا كانوا يسمحون لهن بالقيام بالطقوس الدينية فى الأعياد والمناسبات الدينية . وكان المقربون إلى الخليفة المأمون يدخلون مجلسه فيجدون عدداً من الجوارى الروميات وقد تمنطقن بالزنانير(٢) وعلقن على صدورهن صلباناً من الذهب ، وأمسكن فى أيديهن الخوص بمناسبة عيد

---

(١) من الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد ما حدث على عهد الخليفة المقتدر . فقد تولى الخلافة بمساعدة الأتراك . وكان لا يزال صبياً فى الثالثة عشرة من عمره . واعتقدوا أن فى مقدورهم السيطرة عليه وممارسة شئون الدولة باسمه لصغر سنه وضعف شخصيته . ولكنهم فوجئوا بوالدته وكانت جارية رومية أصبحت أم ولد ، تستأثر بالنفوذ وتتصرف فى شئون الدولة بحزم وكفاية مدة ربع قرن ، وهى أطول مدة تولى فيها أحد العباسيين الحكم وقتذاك . وتعرض الخليفة للعزل مرتين . ووقفت أمه إلى جانبه تبذل مساعيها وتضع الخطط لإعادته إلى كرسى الخلافة إلى أن نجح الخصوم فى الفتك به .

وكانت هناك جارية أخرى من شيراز عاشت مركز قوة فى الدولة أيام الخليفتين المتقى والمستكفى . وسعت فى إقصاء الأول عن الخلافة وحرضت غلامها السندى على سمل عينيه بقطعة حديد محماة بعد أن اعتذر القواد من عدم فقأ عينيه . وأرادت أن تسيطر على الخليفة الثانى ، ولكنه رفض أن يتيح لها أية فرصة للتدخل فى شئون الدولة ، فاصطنعت له العديد من المشكلات إلى أن نجحت فى القضاء عليه .

(٢) الزنانير جمع زنار وهو للنصارى . يقال تزنر النصرانى أى شد الزنار على وسطه . وزنرته بالتشديد ألبسته الزنار .

الشعانين ، وهن فى غاية البهجة والمرح . والخليفة المأمون ينظر إليهن دون أن يعترض عليهن (١) . فمن الخطأ القول إن المسلمين أكرهوا جواريهم على اعتناق الإسلام . وقد ذهب بعض حكام المسلمين إلى أبعد من هذا الحد فى التسامح الدينى . فبنى أحدهم ، وهو الأمير خالد بن عبد الله القسرى عامل العراق للأمويين كنيسة خاصة لوالدته المسيحية، إذ لم تكن فى زمانها كنيسة للروم الملكيين فى الكوفة ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص(٢) .

وكان يحدث أن بعض الحرائر كن يقدمن لأزواجهن عدداً من الجوارى الفاتنات من مالهن الخاص . فعندما هام هارون الرشيد بحب « دنانير » جارية جعفر البرمكى . وازداد تردده عليها اشترت زوجته زبيدة عشر جوار جميلات وأهدتهن إليه لينصرف عن المضى فى حب « دنانير » . وكان من بين هؤلاء الجوارى أم المعتصم وأم المأمون وأم صالح . ويروى الجبرتى وهو يتحدث عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت لصلاحها وكمالها وبرها بزوجها تشترى له الجوارى الحسان من مالها وتعمل على تزيينهن بالذهب وارتداء الملابس الفاخرة وتقدمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب ! !

الدولة العثمانية لم تستحدث نظام الجوارى :

نخلص من هذا العرض إلى حقيقة تاريخية هامة هى أن سلاطين الدولة العثمانية لم يستحدثوا نظام الجوارى فى قصورهم ، بل كان هذا النظام قائماً وشائعاً فى دول إسلامية كبرى سبقت قيام الدولة العثمانية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية وما تفرع عن هذه الدول الثلاث الكبرى من دول ودويلات وكيانات سياسية مختلفة الأسماء والأنواع سواء فى الشرق أو فى الغرب .

نكاح الجوارى :

وقد أجاز الإسلام نكاح الجوارى إذا لم يكن فى مقدور الرجل نكاح

---

(١) دكتور جبور عبد النور ، مرجع سبق ذكره ، صص ٨٦-٨٩

(٢) المرجع السابق ، صص ٩٠-٩١

الحرائر لضيق ذات يده وخشى المشقة فى مغالبة دوافع الفطرة . والنصوص القرآنية الكريمة الواردة فى سورة النساء تفضل الزواج من الحرائر أولا ، ثم تبيح لأسباب قهرية نكاح الجارية . ولكنها تنصح بعدم الالتجاء إلى ذلك ، لأنه من الخير للرجل عند ربه إذا استطاع أن يصبر عن نكاح الجارية ، وإذا استطاع أن يغالب الشهوة البهيمية .

يقول الله سبحانه وتعالى « ومن لم يستطع منكم طولا (١) أن ينكح المحصنات (٢) المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم (٣) من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات (٤) ولا متخذات أخدان (٥). فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة (٦) فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت (٧) منكم ، وأن تصبروا خير لكم (٨) ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن (٩) الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » (١٠) .

والمعانى المستفادة من هاتين الآيتين الكريمتين أن الزواج من الجارية أو

---

(١) سعة فى المال . وأصله الزيادة والفضل . يقال طال على فلان يطول فهو طائل إذا أنعم عليه ورفعه مكاناً علياً .

(٢) المحصنات المراد هنا الحرائر المؤمنات .

(٣) أى ماملكت أيديكم من النساء المسبيات فى الحروب ولهن أزواج غير مسلمين ،فهن حلال للسابين .

(٤) مسافحات أى زانيات .

(٥) سبق أن شرحنا مدلول هذه اللفظة فى هذا الفصل .

(٦) معناها هنا الزنا .

(٧) العنت انكسار العظم فى جسم الإنسان بعد جبره ، ثم استعيرت هذه اللفظة لكل مشقة وضرر . يقال عنت يعنت عنتا أى وقع فى العنت .

(٨) أى وإن تصبروا عن التزوج بالأرقاء حتى تصيبوا ثراء فتتزوجوا بالحرائر فهو خير لكم .

(٩) جمع سنة وهى الطريقة .

(١٠) سورة النساء : الآيتان رقم ٢٥ ، رقم ٢٦ .

الأمة ليس هو الزواج الأمثل . وليس ذلك كراهية لنكاح الجارية أو الأمة فى ذاته ، ولكن لأن الكثيرين — كما سبق أن ذكرنا — كانوا ينظرون إلى أبناء الجوارى والإماء نظرة أدنى من نظرتهم إلى أبناء الحرائر ، وهى نظرة منبثقة من نظرتهم إلى الجوارى والإماء أنفسهن . فإن آدميتهن فى نظر هذا الفريق من الناس آدمية مهدرة ، أو أنهن من الناحية الإنسانية البحتة هابطات (١) . وقد ذهب بعض علماء الدين إلى القول بأن الشريعة رخصت نكاح الجوارى والإماء للضرورة (٢) .

أوضاع الجوارى فى الفقه الإسلامى :

وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية قواعد تنظم أوضاع الجوارى من رق وعتق، ووطء وزواج ، وإنجاب وطلاق ، وغير ذلك من مسائل تتصل بأحوالهن الشخصية . واستهدفت هذه القواعد بوجه عام إتاحة الفرص أمام الجوارى للعتق وتضييق عدد من روافد رق الجوارى تمهيداً لنضوب معينه مع الزمن . ويهمنا أن نذكر بعض القواعد العامة التى تتصل بهذه الدراسة .

أولا : إذا وطأ السيد الجارية التى هى ملك يمينه وأنجب منها تغير وضعها القانونى إذ تصبح « أم ولد » (٢) . ولا يجوز له بعدئذ أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف معها أى تصرف بنقل ملكيتها لآخر أو يعوق حريتها.ولا تعود « أم الولد » إلى الرق ، ويصبح أولادها — الذكور والإناث — أحراراً وينسبون لأبيهم ويأخذون اسمه ويرثونه أسوة بإخوتهم وأخواتهم ممن ولدوا من أمهات حرائر . وتصبح أم الولد حرة عقب وفاة زوجها فلا يرثها الوارثون أو يستحوذ عليها الدائنون . وفى هذا الشأن قال عليه الصلاة والسلام « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » . ولما أنجب صلوات الله وسلامه عليه ابنه إبراهيم من سريته مارية قال « أعتقها ولدها» أى أن إنجابها

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ص ٨-١٠

(٢) دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح . ثلاثون جزءاً ، ج ٥ ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م ، ص ٦

(٣) أم الولد مصطلح فقهى ، يجمع أمهات الأولاد .

منه هذا الإبن جعلها مستحقة للعتق بعد وفاته . واستنكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحاولات التى بذلها بعض العرب لبيع أمهات أولادهم وصاح فيهم قائلا : أفبعد أن اختلطت دماؤكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تريدون بيعهن ؟ ! » .

ثانياً : إذا أعتق السيد جاريته ، وعقد عليها ، وتزوجها ، تمتعت بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر .

ثالثاً : إذا كان الإسلام قد أذن للسيد فى أن يتسرى جواريه ، إلا أنه حرص فى ذات الوقت على تذليل العقبات التى قد تقف فى سبيل عتقهن . ومن ذلك أنه لم يقيد عدد الجوارى اللاتى يجوز للسيد امتلاكهن وتسريهن . فأجاز له أن يحصل على أى عدد يريده منهن متى كانت إمكانياته تسمح له بذلك على عكس القيد العددى الذى فرضه الإسلام على تعدد الزوجات ، لأن الكثرة العددية للجوارى كانت وسيلة عملية وسريعة وفعالة تؤدى إلى عتق الجوارى وحرية أولادهن واتصال نسب الجوارى وأولادهن بالسيد . ومن المعروف أن المتعة الجنسية كانت فى مقدمة الدوافع وراء اقتناء الجوارى . ولا يجوز أن تقيد تلك الوسيلة بقيد عددى ، لأن مثل هذا التقييد يؤدى إلى تضييق منافذ الحرية أمام الجوارى كما يؤدى إلى الإبقاء على أوضاعهن كرقيق . وكذلك لم يقيد الإسلام هذا التسرى بعقد زواج ، ولم يقيده بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدى إلى حرية الجارية وحرية نسلها لا يصح أن توضع أمامها عقبات أو قيود تجعلها مشروطة بدفع صداق أو إحضار شاهدين على عقد الزواج أو على تسريها أو أخذ رأيها وموافقتها .

وتطبيقاً لهذه القواعد العامة فإن معاشرة السيد لجاريته وإنجابه منها كانا يؤديان فى الإسلام إلى عتقها وحرية جميع نسلها .

رابعاً : تميز الشريعة بين ثلاثة أنواع من الفرش : فراش قوى للزوجات الحرائر ، وفراش متوسط لأمهات الأولاد . أى الجوارى اللاتى أنجبن من أسيادهن نسلا . وفراش ضعيف للجوارى اللاتى يتسراهن أسيادهن ولا ينجبن منهم .

خامساً : تشجع الشريعة على عتق الرقيق عتقاً خالصاً لوجه الله وتقرباً إلى الله ، أى دون أن يكون هذا العتق بمثابة كفارة للذنب ارتكبه المسلم كالقتل الخطأ وشبه الخطأ أو الحنث فى اليمين وما إلى ذلك . ويسرى هذا العتق الخالص لوجه الله على الذكور والإناث من الرقيق . ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة العثمانية قد درجوا على عتق عدد من الجوارى كل عام بعد أن يختاروا لهن أزواجاً من كبار موظفى الدولة . وكان السلاطين يحرصون على ألا تظل الجارية فى الرق بعد أن تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كحد أقصى .

مصادر حصول السلاطين على الجوارى :

كان القصر السلطانى يموج بأعداد وفيرة من الجوارى الحسان . وكان السلاطين يحصلون عليهن من ثلاثة مصادر : بشرائهن من تجار الرقيق الذين كانوا يسارعون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حرباً أوروبية قد اشتعلت ، ويشترون السيدات والفتيات اللاتى يوقعهن سوء الحظ أسيرات فى أيدى المتحاربين . وكان أمين جمرك العاصمة يأخذ حاجة القصر السلطانى من الفتيات اللاتى تتراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة . وفى أوقات السلم كان تجار النخاسة فى أوروبا وبعض أقاليم من آسيا يعمدون إلى خطف البنات لبيعهن . وكن من بلاد شتى : بلاد اليونان ، وجمهورية البندقية ، وألبانيا ، والنمسا ، وبلاد القرم ، والروسيا . وكن على حظ موفور من الجمال. وكان أهل القوقاز قد اتجهوا إلى تجارة الرقيق الأبيض نظراً إلى المكاسب الكبيرة التى كانت تدرها عليهم هذه التجارة الآدمية . ومنذ نهاية القرن السادس عشر كانت غالبية الجوارى تأتى من القوقاز على يد أولئك التجار . وكان الإقبال على شرائهن شديداً لأنهن كن يظفرن بإعجاب شديد بسبب جمالهن المفرط (١) . أما المصدر الثالث والأخير فكان الهدايا يتلقاها السلطان . ولم تكن هذه الهدايا سوى جوار كن آية فى الجمال ، يقدمهن بعض كبار موظفى الدولة أو حكام بعض الدول الأوروبية بعد أن يكن قد حضرن

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol., 1, Part 1, p. 75.

دراسات علمية واجتماعية واكتسبن مهارات شتى بحيث لم يقل مستوى هؤلاء الوافدات الجديدات عن مستوى الجاريات اللاتى قضين فى الحريم السلطانى سنين عدداً (١).

من هذه المصادر الثلاثة كان السلطان يأخذ حاجته من أولئك الفتيات ليكون لديه رصيد بشرى نسائى كبير فى الحريم السلطانى يملأ بهن المراكز والمناصب التى تخلو تباعاً . وكانت أولئك الفتيات فى أصولهن الأولى مسيحيات (٢) ، وفى ذات الوقت كن حرائر ، وذات جمال باهر ، ثم وقعن فى الأسر لسبب من الأسباب ، واشتراهن السلطان . وبمجرد التحاقهن بالقصر السلطانى تتغير أوضاعهن . فيصبحن مسلمات ، ويصبحن جوارى ملك يمين السلطان . ويعشن عيشة رغدا ، وينتظرهن مستقبل باسم .

مستقبل الجوارى فى القصر :

وبمجرد التحاق الجوارى بالقصر السلطانى ، ودخولهن فى الإسلام ، كانت تعد لهن فى داخل القصر دراسات فى الثقافة الدينية الإسلامية وبعض مواد الثقافة العامة والسلوك الاجتماعى واللغة التركية . وكانت جميع الجوارى ينتظمن فى هذه الدراسات . وإذا كان لدى الجارية استعداد عقلى للدراسات النظرية أضيفت إلى هذه الدراسات مقررات لتعلم اللغة الفارسية أو اللغة العربية بجانب إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ثم التاريخ الإسلامى والجغرافية . أما إذا لم يكن لديها استعداد ذهنى لهذه الدراسات النظرية فإنها تتلقى دروساً فى التطريز والحياكة والموسيقى والغناء والرقص . وتتم هذه الدراسات بكافة نوعياتها فى نطاق التقاليد الإسلامية . وكانت الجوارى تنتظمن فى مجموعات ، قوام كل مجموعة عشر جوار . وتشرف رئيسة على كل مجموعة .

وتمضى الأيام وتزداد الجارية جمالا فى الخلقة ، ورشاقة فى الجسم ، وعمقاً فى الثقافة ، وأدباً فى الحديث ، ورفاهية فى الحس . وكان لا بد

---

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., t. VII, pp 63—64.

(٢) يستثنى من هؤلاء الفتيات أولئك اللاتى يحصل عليهن السلطان بطريق الهدايا من كبار موظفى الدولة .

أن يتحدد مستقبلها عند سن معينة أقصاها الخامسة والعشرين ، فيعتقها السلطان. ويأذن لها كسيدة حرة فى الزواج من أحد كبار العسكريين أو المدنيين . وكان السلطان هو الذى يختار لها الزوج وتغادر القصر كما سبق أن ذكرنا . وقد تجذب الجارية انتباه السلطان إليها ويعتقها وتنجب منه ولداً أو بنتاً أو أكثر وتصبح أماً لأولاده ويعلو مركزها إلى مرتبة تقرب من مرتبة السلطانة . ويطلق عليها لقب قادين (١) . وعلى ذلك فإن عبارة « الحريم السلطانى » كانت تعنى فى أحد مدلولاتها المكانية مدرسة لإعداد قادينات السلطان أو زوجات لكبار موظفى الدولة المدنيين أو العسكريين .

قادينات السلطان :

ذكرنا أن السلاطين السبعة الأوائل تزوجوا نساء حرائر بعقود زواج شرعية . وأن السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة بعد السلطان محمد الفاتح قد أطرحوا إطراحاً تاماً مثل هذه الزيجات ، واتجهوا إلى جوارى القصر باعتبار الجارية ملك يمين السلطان ، له أن يطأها وتنجب منه ذكوراً وإناثاً ، فتصبح أم ولد ويتمتع نسلها بالحرية . أما هى فتعتق عقب وفاة السلطان . وله أيضاً أن يعتقها ويعقد عليها ، وينجب منها .

وقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جوار من جوارى القصر . واحتفظ فى ذات الوقت بسائر جواريه ، لأن الشريعة الإسلامية لا تضع قيداً على عدد الجوارى اللاتى يجوز للرجل المسلم أن يحتفظ بهن ويطأهن .

امتيازات القادينات :

حرص كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع « الجوارى » السابقات الأربع مكاناً علياً بعد أن أعتقهن وتغير وضع كل منهن الاجتماعى ومركزها القانونى من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها قادين (٢) Une Cadine ، وكانت القادينات الأربع تظفرن بمعاملة تقرب

(١) أنظر ما يلى .

(٢) قادين كلمة تركية معناها سيدة . وفى الأعم الأغلب تطلق على السيدة ذات المركز الاجتماعى المتميز . وتجمع قادينات . ويرد ذكرها فى المراجع الإنجليزية Kadin وتجمع Kadins أما فى المراجع الفرنسية فترد فى بعضها Cadine وفى صيغة الجمع Cadines . وفى بعض —

من المعاملة التى كانت تلقاها السلطانات من حيث الاحترام العميق ، وتحديد أوضاعهن فى البروتوكول العثمانى ، وتخصيص جناح خاص لكل منهن فى منطقة الحريم السلطانى . فكانت كل قادين تعيش بمعزل عن زميلاتها القادينات الثلاث الأخريات ، ولا يرى بعضهن البعض إلا فى الحفلات . فكانت كل قادين بمثابة سلطانة . كانت لكل منهن حاشية تقوم على خدمتها ، وكانت ترصد اعتمادات مالية لكل منهن ، وترتب قوة من الحرس لكل منهن ، وغير ذلك من امتيازات بحيث كن يشكلن أعلى درجة فى الحريم السلطانى باستثناء والدة السلطان إذا كانت لا تزال على قيد الحياة .

تحديد أوضاع القادينات :

وكان هناك اعتباران فى تحديد أوضاع القادينات فى البروتوكول العثمانى : أحدهما أقدمية القادين بين أترابها القادينات . ولذلك كانت تطلق عليهن ألقاب معينة ، هى : بيوك ، إيكنجى ، أورتنجه ، كجرك(١) . أى الكبرى ، الثانية ، الوسطى ، الصغرى ، على التوالى . وثانيهما ، وهو الأهم ، نوعية الطفل الذى تنجبه . فإذا أنجبت ولداً للسلطان أطلق على والدته لقب أكثر فخامة ، وهو « باش قادين » أى كبيرة القادينات . ويطلق عليها أيضا . « خاصكى سلطانة » (٢) Hasseki Sultan تقريباً لمركزها من مركز السلطانة الحقيقية . وتصبح السيدة الأولى فى القصر بعد والدة السلطان . ويكون ابنها فى العادة ولياً للعهد ويتربع على العرش بعد وفاة والده إذا سارت الأمور سيراً عادياً ولم يتعرض لمؤامرات تحاك ضده سواء فى القصر أو فى الدوائر العليا فى الحكومة المركزية فى إستانبول . وكان يطلق لقب « خاصكى سلطانة » أيضا على بنات السلطان من باب التجاوز . أما إذا أنجبت القادين بناتاً فقط أطلق عليها « خاصكى قادين » Hasseki kadin أو « خاصكى خاتون »

=المراجع الفرنسية الأخرى ترد مكتوبة على هذا النحو : La Khatoune أى « خاتون » أو « كاتون » .

(١) ترد ألقاب هؤلاء القادينات فى اللغة التركية مكتوبة بالحروف اللاتينية على هذا النحو :
Buyuk, Ikincii, Ortanca, Kuçuk.

(٢) خاصكى مأخوذة من الكلمة العربية خاص ، ويقال إنها مأخوذة من اللفظة الفارسية خاصكى بمعنى خاص أو حسن . ويجمع هذا اللقب « خاصكى سلطانات » .

ويطلق عليها أيضا « خاصـــكى كاتون » Khasseki-khatoun ومعناها والدة ابنة السلطان .

مستقبل القادين إذا انصرف السلطان عنها فى حياته أو توفى عنها :

وعلى الرغم من الامتيازات التى كانت تتمتع بها القادينات ، فإن مركزهن لم يكن مستقراً بصفة عامة . فقد يحدث أن يسأم السلطان من إحدى القادينات لسبب من الأسباب . ولا معقب لرأيه فى هذه المسائل الشخصية والحساسة ، فينفصل عنها بسهولة وسرعة ، ويأمر بأن تغادر القادين السراى الجديد — القصر الجديد — إلى القصر القديم (١) . وفى هذه الحال يملأ مكانها الشاغر فى الحريم السلطانى بجارية يعتقها السلطان ويرفعها إلى مرتبة قادين .

وإذا توفى السلطان تنتقل قاديناته إلى القصر القديم ما عدا الباش قادين — كبيرة القادينات — إذا تولى ابنها العرش ، فإنها تبقى فى القصر الجديد ، وأكثر من ذلك ، تغدو بين عشية وضحاها ، والدة السلطان الجديد والسيدة الأولى فى القصر ، وتمارس فى هذا الموقع نفوذاً كبيراً على الحريم السلطانى بكافة هيئاته النسائية والخصيان . وسنرى أمثلة لأمهات سلاطين بلغن من علو النفوذ أنهن نجحن فى إقصاء أبنائهن السلاطين عن ممارسة معظم

---

(١) السراى Serây كلمة تركية مأخوذة من اللغة الفارسية ومعناها قصر . وهناك رأى آخر يقول إنها مأخوذة من الكلمة الإيطالية Seraglio بنفس المعنى . وكان السراى القديم عبارة عن مبنى أقيم على عهد الدولة البيزنطية . ولما فتح السلطان محمد الثانى (١٤٥١—١٤٨١) القسطنطينية أمر بترميمه واستخدمه بعد فتح هذه العاصمة فوراً (١٤٥٣) . ويقع هذا القصر القديم فى المكان الذى تشغله حالياً جامعة إستانبول .

أما السراى الجديد فقد أمر هذا السلطان بتشييده . وأتمه عام ١٤٦٨ ، وهو الآخر كان يضم بعض مبان كانت موجودة بالفعل . ويطلق على هذه المبانى الآن طوب قابى سراى Top Kapi Serâyi وإلى عهد السلطان سليمان المشرع كان السلاطين يوزعون إقامتهم — حين يكونون فى إستانبول — بين القصرين . ولم يصبح القصر الجديد المقر الوحيد لإقامتهم إلا منذ حكم السلطان سليمان المشرع .

أنظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1. Part 1, p. 74, N. (1),

اختصاصاتهم بعد أن هيأن لهم الجو للانغماس فى النسائيات . وأصبحت هؤلاء الأمهات القادينات فى ظل هذه الأوضاع مراكز قوى خطيرة فى تاريخ الدولة . وعلى هذا النحو أصبح القصر القديم فى فترة من الفترات بمثابة مثوى للقادينات اللاتى هجرهن السلطان أو توفى عنهن هذا السلطان . ومع ذلك لم يكن الطريق أمامهن مسدوداً وبخاصة اللاتى لم ينجبن ذرية من السلطان المتوفى. فقد كن على أية حال سيدات حرائر سبق أن نلن حريتهن من السلطان. وكان كثير من رجال الدولة الطموحين يسعون إلى الزواج بهن ليتخذوا منهن وسيلة إلى الظفر ببعض المناصب ذات المستوى الرفيع . إذ كانت أولئك « القادينات السابقات » يسمح لهن بالتردد على الحريم السلطانى وزيارة قادينات السلطان الجديد ويلتمسن منهن مساعدتهن على تعيين أزواجهن فى مناصب مرموقة . وكانت القادينات الجديدات يستجبن فى الأعم الأغلب لرجائهن . وكان السلطان بدوره ينفذ رغبات قاديناته . وكانت نوعية سلاطين الفترة الثانية مما ساعد على نمو هذا النفوذ الجانبى ، لأن هؤلاء السلاطين اعتادوا الحياة بمعزل عن الناس مما جعلهم يتأثرون بتوجيهات أو آراء المحيطين بهم وبخاصة النساء .

لم تكن هناك أسباب جدية لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

ومن الصعب تفسير تمسك سلاطين الدولة بنظام تعدد الزوجات بأنه كان وسيلة شرعية يضمن بها كل سلطان إنجاب ابن له يرث العرش من بعده : إن هذا القول يعتبر تبريراً ولا يعد تفسيراً علمياً ، لعدة أسباب ، منها :

أولا : ثبت تاريخياً أن ثلاثة عشر سلطاناً تعاقبوا على عرش الدولة منذ حكم عثمان الأول حتى محمد الثالث ، وهى فترة زمنية استطالت أكثر من ثلاثة قرون (١٢٩٩–١٦٠٣) ، كان كل سلطان خلالها يورث العرش من بعده لإبنه . ولم يحدث سوى استثناء واحد بعد هذه الفترة حين جاز إلى ربه السلطان مراد الرابع (١٦٢٣–١٦٤٠) بدون عقب . ومع ذلك لم يتعرض العرش العثمانى لأية هزة ، لأن السلطان أحمد الأول (١٦٠٣–١٦١٧) كان قد أبقى على إخوته ، وأصبح العرش ينتقل إلى غير الأبناء ، وأوصى إلى

أخيه بالملك وأصبح توارث العرش على قاعدة الأرشد فالأرشد . وتولى العرش أخوه باسم مصطفى الأول (١٦١٧—١٦١٨) (١) ثم تعاقب على عرش الدولة ثلاثة إخوة من أبناء السلطان أحمد الأول(٢) . وتولى العرش بعد ذلك ثلاثة إخوة وكانوا من أبناء السلطان إبراهيم (٣) .

ثانياً : إن أحد سلاطين الفترة الثانية وهو سليم الثانى قد توفى عن ستة أولاد (٤) وثلاث بنات . وتولى أكبر الأبناء العرش ، وهو مراد باسم السلطان مراد الثالث(١٥٧٤—١٥٩٥) . وكان أول عمل قام به أنه أمر بذبح إخوته الخمسة كى يأمن على نفسه وعرشه من دسائسهم (٥) . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إنجاب ابن يكون وريثاً للعرش لما أنجب ذلك السلطان ستة أولاد .

ثالثاً : تكررت هذه المأساة بصورة أشد عنفاً وأكثر إيلاماً . فإن ذلك السلطان مراد الثالث توفى فى مساء اليوم السادس من شهر يناير — كانون ثان — عام ١٥٩٦ عن خمسين سنة وبعد حكم دام إحدى وعشرين سنة :

---

(١) عاد إلى العرش سنة ١٦٢٢ بعد خلعه ، وخلع ثانية سنة ١٦٢٣ لأسباب لا تمت بصلة إلى نظام توارث العرش ، بل لأسباب تتصل بالإنكشارية كمركز قوة خطير فى الدولة يتدخلون فى عزل وقتل السلاطين والصدور العظام ومن إليهم .

(٢) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

ا — عثمان الثانى ١٦١٨-١٦٢٢ .

ب — مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٠ .

ج — ابراهيم ١٦٤٠-١٦٤٨ .

(٣) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم : .

ا — محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧ .

ب — سليمان الثانى ١٦٨٧-١٦٩١ .

ج — أحمد الثانى ١٦٩١-١٦٩٥ .

(٤) كان الأولاد الستة هم : مراد ، ومحمد ، وسليمان ، ومصطفى ، وجهانكير ، وعبدالله .

أنظر :

محمد فريد بك مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥

(٥) Grant A.J., A History of Europe (1494—1610), op. cit., p. 225.

وأنجب عشرين ابناً غير عدد من البنات . وقد تولى العرش من بعده أكبر أولاده باسم السلطان محمد الثالث (١٥٩٦–١٦٠٣) . وكانت والدته من جمهورية البندقية . وكان أول عمل قام به هو ذبح إخوته التسعة عشر فى الوقت الذى كان يوارى فيه جثمان والده . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إيجاد وريث للعرش لما أنجب ذلك السلطان هذا العدد الوفير من الأبناء .

رابعاً : إن السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣–١٧٣٠) قد أنجب مالا يقل عن واحد وثلاثين ولداً . وعلى الرغم من أنه كان يحب المال حباً جماً إلا أنه أنفق الكثير من الأموال على حفلات ختان أولاده . وكان يميل إلى حياة التهتك ، ويقضى وقته فى اللهو والمتع الجنسية مع قادينات وجواريه (١) .

خامساً : إن ظاهرة تعدد الزوجات والقادينات وما أحاط بها من حياة المجون كالإسفاف فى النسائيات وإدمان الخمور كانت ظاهرة بارزة على عهد سلاطين الفترة الثانية ، إذ كان عدد منهم قد استغرقوا فى شهواتهم .

سادساً : لم يكن الباعث لهؤلاء السلاطين على تعدد الزوجات والقادينات هو الاستفادة من رخصة أجازها الإسلام للزوج لاستخدامها فى ظروف استثنائية سبق أن شرحناها ، ولكن كان الباعث لهم هو استغلال هذه الرخصة. وفارق كبير بين الاستفادة والاستغلال .

سابعاً : لم يقنع السلاطين بتعدد الزوجات ، إذ كانت توجد فى الحريم السلطانى أعداد وفيرة من الجوارى الحسان يحتفظ كل سلطان بهن . وتقوم سيدة عجوز من سيدات القصر بتنظيم ليالى السلطان مع الفتيات الفاتنات . وكأن الآية القرآنية الكريمة تنطبق على فريق من سلاطين الفترة الثانية ممن أطلقوا العنان لشهواتهم « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير

---

(١) Bowen Harold ; Encycl. of Islam Art. Ahmed III.

المقنطرة (١) من الذهب والفضة والخيل المسومة (٢) والأنعام (٣) والحرث(٤)، ذلك متاع (٥) الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » (٦).

العواقب الوخيمة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

نجم عن تعدد الزوجات والقادينات مشكلات خطيرة انعكست آثارها على الدولة . فإن تعددهن أدى إلى تعدد الأمهات . وأدى تعدد الأمهات بدوره إلى إشاعة جو صاخب من الغيرة والحقد والتنافس بينهن . إذ كانت كل أم أنجبت مولوداً ذكراً تسعى سعياً حثيثاً كي يكون ابنها ولياً للعهد ، ولو كان ترتيبه أى وضعه فى البروتوكول لا يؤهله لشغل هذا المنصب . ومن ثم تحاك المؤامرات ويشترك فى تنفيذها الخصيان ورؤساؤهم ، فضلا عن الصدر الأعظم المتعاطف مع القادين أو المنصاع لها أو الضالع معها بدافع مصلحة مشتركة بينهما . وتغدو القادين مركز قوة خطير ، إذ تجد من السلطان أذناً صاغية . وتنتهى هذه المؤامرات عادة بقتل ولى العهد الذى كان والده قد اختاره ليتولى العرش من بعده . كما أدى تعدد الزوجات والقادينات إلى وجود تنافر عنيف بين السلطان وأبنائه الذين أنجبهم من سيدة أخرى والذين حرموا من وراثة العرش . وقد وصل هذا التنافر فى عدة حالات إلى حد الصراع الحربى السافر بين السلطان وهؤلاء الأبناء . ثم كان هناك أيضاً التناحر بين الإخوة وخصوصاً الإخوة غير الأشقاء . وكان كل منهم يلوذ بوالدته فتسعى عن طريق المؤامرات المدمرة للدولة لتحقيق حلم جميل يراود الإبن

---

(١) القناطير جمع قنطار . والمقنطرة مشتقة منها للتأكيد . ويراد بالعبارة المال الوفير .

(٢) المسومة أى المعلمة، من السومة وهى العلامة ، وقيل المرسلة وعليها ركبانها ، وقيل التى ترعى فى المروج والمراعى .

(٣) الأنعام جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم .

(٤) الحرث إلقاء البذر فى الأرض وتهيئتها للزرع . وقد يسمى المحروث حرثاً . والمراد هنا المزروعات .

(٥) المتاع بمعنى التمتع .

(٦) المآب المرجع ، من آب يؤوب أوباً ، أى رجع .

(٧) سورة آل عمران ، آية رقم ١٤ .

ووالدته معاً . وهكذا امتلأ الحريم السلطانى بجو خانق موبوء بالمؤامرات والدسائس والتكتلات النسائية والتيارات الخفية المتنافرة أشد التنافر .

شخصيات نسائية أخرى فى الحريم السلطانى :

بجانب الزوجات الحرائر المسلمات والمسيحيات للسلاطين ، وبجانب قاديناتهم بعد ذلك ، كانت توجد فى الحريم السلطانى سيدات وفتيات أخريات كان لهن وزن وثقل رهيبان إلى حد أن بعضهن كن يفقن الزوجات والقادينات فى المكانة والنفوذ بحيث أصبحن يشكلن مركز قوة خطير فى تاريخ الدولة . وكان على رأس هذه الشخصيات النسائية : والدة السلطان ، ومجموعات من الجوارى الفاتنات كان لهن ، بطبيعة أعمالهن واختصاصاتهن ، دلال على السلطان .

والدة السلطان :

كان أعلى مركز فى الحريم السلطانى يمكن أن تسمو إليه سيدة هو مركز والدة السلطان الحاكم ، ويطلق عليها « سلطانة والدة » La Sultane - Validé أى والدة السلطان ، إذ كان السلاطين العثمانيون يكنون لأمهاتهم قدراً كبيراً من التبجيل ، ولا يرفضون لهن طلباً . ولا يقف نفوذ والدة السلطان عند هذا الحد ، بل كان نفوذها يمتد إلى جميع زوجات ابنها السلطان وجواريه .

وكانت لها سيدة بمثابة رئيسة أو مديرة لمكتبها أو وكيلة عنها تسمى « كاخيا سلطانة والدة » . ويقع عليها الاختيار عادة من بين السيدات المتقدمات فى السن ، واللاتى قضين سنين عدداً فى أجنحة الحريم السلطانى حتى يمكن الاستفادة من تجاربها وخبراتها . ويعمل تحت إمرتها عدد كبير من السيدات والفتيات . وكانت تعد المتحدثة الرسمية باسم والدة السلطان . وفى ذات الوقت كانت أداة الاتصال بينها وبين السلطان وزوجاته أو قاديناته . وفى ظل هذا المركز مارست نفوذاً واسعاً جداً سواء فى القصر أو فى دوائر الحكومة . ويتصاعد نفوذها ويتألق نجمها إذا كانت والدة السلطان سيدة أجنبية الأصل ذات شخصية قوية . ويلاحظ أن قسطاً من اختصاصات هذه السيدة « كاخيا

سلطانة والدة » كان يتداخل مع اختصاصات رئيس الخصيان . وكان الأخير يمثل مركز قوة خطير فى الحريم السلطانى ، ويدور فى الخفاء صراع بين هاتين الشخصيتين . وكانت الغلبة فى معظم الحالات للسيدة « كاخيا سلطانة والدة » بصفتها أداة الإتصال بين أكبر شخصية نسائية فى الدولة وبين السلطان. وكانت تستأثر بموضوعات تتصل بالسياسة العليا أو بمسائل هامة ذات الطابع العاجل وتتطلب الاتصال الفورى بالمسئولين والمسئولات .

أولاد السلطان وبناته :

وإلى جانب السلطانة الوالدة وزوجات السلطان كان يعيش فى القصر أولاده وبناته . أما الأولاد فكانوا يتلقون دراسات مدنية وعسكرية مع اهتمام عميق بالجوانب الدينية ومواد الثقافة العامة واللغات . وكانوا يغادرون القصر السلطانى فى سن مبكرة ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيين الإبن حاكماً على مدينة كبيرة أو مقاطعة ومنحه رتبة صنجق بك ، ويغادر القصر والعاصمة وبصحبته حاشية كبيرة العدد للخدمة الداخلية والخدمة الخارجية وعدد من الخصيان وحرس كثيف العدد . ويعيش فى موقعه الجديد وكأنه سلطان صغير. فإذا ابتسم له الحظ وتربع على عرش الدولة بعد وفاة أبيه فإن والدته لا تغادر القصر المسمى السراى الجديد إلى السراى القديم شأن الزوجات والنساء الأخريات للسلطان المتوفى ، بل تصبح سيدة القصر الأولى بصفتها والدة السلطان الحاكم ، وتغدو صاحبة النفوذ الأعلى . أما البنات فكن يحضرن دراسات خاصة تعد لهن فى الدين واللغة التركية وإحدى اللغات والموسيقى ومواد ذات ثقافة نسائية وثقافة عامة . ويظللن فى القصر حتى يأمر السلطان بتزويج الإبنة إلى أحد كبار رجال الدولة مثل الصدر الأعظم أو أحد الوزراء أو أحد كبار السباهية . وكن يغادرن القصر بعد إتمام الزواج . وكن يتزوجن فى مقتبل العمر ، ولذلك لم تكن إقامتهن فى القصر السلطانى تمتد سنوات طوالا .

عناصر نسائية أخرى فى الحريم السلطانى :

كانت تلى القادينات فى المركز أربع جوار يطلق عليهن « الكدكليات (١)

---

(١) Gediklis أو Guédikli ومعناها المميزات أى اللاتى يعتمن بميزات معينة .

أى المميزات . وكن مرشحات الترقية إلى مرتبة قادين عندما يخلو هذا المنصب لسبب أو لآخر . وكانت الكالكليات تقمن على خدمة السلطان شخصياً . وكان السلطان يتخذهن محظيات له des concubines وكانت تحل معهن فى هذا المجال وعلى اتصال أوثق بالسلطان مجموعة من أترابهن يطلق عليهن « خاص أوطه لق » (١) أو فتيات الحجرات . وكان يطلق على الواحدة منهن أيضاً « إقبالة » أى سعيدة الحظ (٢).

وكانت توجد فى الحريم السلطانى وظيفتان رئيسيتان تشغلهما جاريتان ، يطلق على شاغلة الوظيفة الأولى « كاخيا قادين » (٣) وكان يطلق عليها أيضاً « المعلمة » . وكانت مسئولة عن النظام فى أجنحة الحريم . ويطلق على شاغلة الوظيفة الرئيسية الثانية « خزينة دار أوسطى » (٤) أى الخازنة . وكانت مسئولة عن المسائل المالية الخاصة بالحريم السلطانى بجميع فئاته وطوائفه . وكان يلى هؤلاء عدد من الجوارى كن يقمن على خدمة والدة السلطان والقادينات وأولادهن وبناتهن . ثم كانت هناك طائفة أخرى تسمى « شاكر زاده » (٥) بمعنى التلميذات ، وهن الجوارى اللاتى التحقن حديثاً بالقصر ، وكن يقضين أوقاتهن فى دراسات نظرية وعملية وتدريبات تطبيقية . وأخيراً كانت هناك طائفة الخادمات ، وكن يشكلن أدنى الطوائف مرتبة فى الحريم السلطانى . وكن لا يرتفعن عن مرتبتهن إلا نادراً (٦) ، بينما كانت سيدات وفتيات الطوائف الأخرى يشققن طريقهن متدرجات إلى المراتب العليا (٧) .

---

(١) Khass-Odalik أو Hass-Odalik بمعنى « تابع للغرفة » .

(٢) إقبالة Ikbâle كلمة تركية مقتبسة من الكلمة العربية إقبال .

(٣) كاخيا بمعنى وكيل أو وكيلة .

(٤) خزينة مأخوذة من الكلمة العربية فى اللغة الفصحى خزانة . وكلمة دار فارسية بمعنى صاحب أو مدير . وأوسطى لفظة فارسية أيضاً بمعنى أستاذ أو رئيس أو رئيس عمل . والمعنى العام هو الأستاذة رئيسة الخزانة .

(٥) شاكر زاده كلمة فارسية معناها تلميذ وتطلق على الجنسين .

(٦) Lybyer A.H; op. cit., p. 56 .

(٧) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 74.

على هذا النحو كان الحريم السلطاني بمثابة مدينة صغيرة، ويشمل إلى جانب الخصيان عدداً كبيراً من السيدات والجواري وغيرهن ذوات مستويات مختلفة من حيث المركز الاجتماعي والثقافي والعمل الذي تقوم به كل منهن . وقد بلغ عدد الحريم السلطاني ما يقرب من ثلاثمائة على عهد السلطان سليمان المشرع(١) . وقد قفز هذا العدد في العهود اللاحقة قفزات سريعة وكبيرة .



(١) Lybyer A.H., op. cit., p. 56 .

الفصل الحادى والعشرون

مراكز القــوى فى الدولة (٥)

الحريم السلطانى

تغلغل نفوذ الحريم السلطانى فى شئون الدولة :

قامت سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى بدور خطير فى توجيه السياسة العليا للدولة حتى أصبحن يشكلن أقوى وأخطر مراكز القوى فى الدولة على الإطلاق . كن يعملن على إشعال الحرب بين الدولة وأعدائها سواء فى أوروبا أو فى آسيا . وكن يتدخلن فى شئون الجيش وبخاصة قياداته العليا ، وكن يتدخلن فى تعيينات كبار الموظفين أحياناً ، وفى ترقياتهم أحياناً ثانية ، وفى عزلهم أحياناً ثالثة . فإذا كان الصدر الأعظم هو الشخص المطلوب عزله ، تدخلت السلطانة الوالدة لدى ابنها ، أو الباش قادين أو القادين لدى السلطان فيصدر الأخير فرماناً بعزله . وكان هذا العزل يقترن عادة بقتله فوراً أو بعد أيام ذات عدد . أما إذا كان الشخص المراد إقالته يشغل منصباً تقل مرتبته عن مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحدى سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى لدى الأخير فيصدع بما يؤمر به . وكان رؤساء الأغوات الخصيان السود أو البيض هم حلقة الاتصال بين هؤلاء السيدات وبين السلطان والصدر الأعظم . يقول المستشرق بوون فى تعليقه على تسلل نفوذ الحريم فى أجهزة الحكومة إن كلمة واحدة تصدر عن قادين كانت تصنع الأعاجيب فى معظم الأحوال . (١) A word from a kadin often worked wonders.

---

(١) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 75.

أسباب نمو مراكز القوى فى الحريم السلطانى :

ومرد هذه الظاهرة التى فشت فشواً كبيراً منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر والقرن التالى له إلى سببين رئيسين هما : ضعف شخصيات السلاطين الذين حكموا الدولة إبان هذه الفترة ، ومجموعة الباشوات الذين تعاقبوا بكثرة ملحوظة على منصب الصدارة العظمى فى أثناء هذه الفترة أيضاً . ويستثنى من أولئك السلاطين والصدور عدد قليل جداً كانوا على درجة كبيرة من الخلق والكفاية. وانكمش على عهد هذه القلة نفوذ الحريم السلطانى كمركز قوة . ولكن سرعان ما كانت تستعيد سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى نفوذهن بمجرد قتل أو وفاة هذه القلة من السلاطين والصدور العظام .

أولا : ضعف شخصية سلاطين تلك الفترة :

انصرف معظم سلاطين تلك الفترة عن شئون الدولة . وكانوا لا يقابلون كبار الموظفين إلا على فترات زمنية متباعدة ، وكانوا لا يخرجون مع الجيش إلى ساحات القتال باستثناء ثلاثة من السلاطين الثمانية الذين حكموا الدولة بعد سليمان المشرع حتى محمد الرابع . وكان هؤلاء السلاطين الثلاثة هم : محمد الثالث (١٥٩٦–١٦٠٣) فى حملة كيريزتس (١) Keresztes ، وعثمان

(١) تعالت أصوات المسلمين فى إستانبول بوجه خاص بضرورة خروج السلطان محمد الثالث إلى الحرب بعد أن توالت على العاصمة أنباء الهزائم الأليمة والمتعاقبة التى نزلت بالجيش العثمانى فى أوروبا . وخرج السلطان ومعه البيرق النبوى لقتال الجيوش الإمبراطورية التى كانت تتكون من الألمان والإيطاليين والمجر . وكان يقود هذه الجيوش الأرشيدوق مكسيمليان L'Archiduc Maximilien وسيجيسموند زابوليا Sigismond Zâpolya وتقابل المتحاربون فى معركة ساخنة فى كيريزتس استمرت ثلاثة أيام تبادل فيها المتحاربون الهزيمة والانتصار ، وانتهت فى اليوم الثالث — السادس والعشرين من شهر أكتوبر – تشرين أول — عام ١٥٩٦—بانتصار ساحق للعثمانيين الذين أنزلوا خسائر فادحة بالقوات الأوروبية المتحالفة . وبلغت خسائرها خمسين ألف جندى . وكانت هذه المعركة تشبه بالنسبة للمجر معركة موهاكز فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس — آب — عام ١٥٢٦ وهى المعركة التى أباد فيها الجيش العثمانى بقيادة السلطان سليمان المشرع الجيش المجرى وقتل فيها لويس الثانى ملك المجر .

هذا وتقع كيريزتس على نهر التايس Theiss الذى ينبع من جبال الكربات فى أوروبا الوسطى . ويجرى فى تشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ويصب فى نهر الدانوب.

الثانى (١٦١٨–١٦٢٢) فى حملة كوتين(١) Khotin ، ومراد الرابع (١٦٢٣–١٦٤٠) فى حملة بغداد (٢).

= من شاطئه الأيسر على مقربة من بلغراد . ويطلق بعض الباحثين على هذه المعركة اسم معركة التايس .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٨٤ — ٧٨٥ .

(١) كان يعيش على حدود الدولة العثمانية وبولندا القوزاك Les Kosaks والتتار . وكان القوزاك المقيمون فى كرواتيا يعتبرون من رعايا بولندا . أما التتار فكانوا يشكلون دولة تسمى خانية القرم ، وكانت شبه مستقلة ومرتبطة بالدولة العثمانية التى أبقت عليها لاتخاذها دولة حاجزة لأنها تقوم على حدود دول معادية . وكان خانات القرم يعترفون بسيادة السلطان عليهم . وكانوا يتسلمون من السلاطين الأطواخ والأعلام والتفويضات الكتابية . وكثيراً ما أدى احتكاك التتار بالقوزاك إلى اشتعال الحروب بين الدولة العثمانية و بولندا . وكانت بولندا تتطلع إلى احتلال إقليم مولدافيا وانتزاعه من العثمانيين . وفوجئت الدولة العثمانية فى عام ١٦١٨ باضطرابات خطيرة تشتعل فى مولدافيا بقيادة جراتيانى Gratiani . وسارع البولنديون والقوزاك بالانضمام إليه مما أدى إلى اشتداد ساعد الثوار . وكانت قد أبرمت معاهدة بوسا Boussa فى اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر — أيلول — عام ١٦١٧ بين الدولة العثمانية وبولندا تقرر فيها ألا تتدخل بولندا فى شئون مولدافيا وولاشيا وترنسلفانيا ، وأن يظل نهر دانيستر Daniester الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وبولندا ، وأن يتعهد السلطان بمنع التتار من مهاجمة الأراضى البولندية . وصحت عزيمة السلطان عثمان الثانى على إخماد هذه الاضطرابات . وزحف عام ١٦٢١ على رأس الجيش على كوتين . وحققت الحملة العثمانية معظم أهدافها وعقدت معاهدة فى عام ١٦٢٣ تقرر فيها أن تستمر بولندا فى دفع جزية سنوية حددت بأربعين ألف فلورين Florins إلى خان القرم ، وأن يتعهد الخان بعدم الإغارة على الأراضى البولندية .

(٢) كانت الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية فى فارس مصدراً لاحتكاكات عديدة بينهما . وأدت إلى نشوب حروب عديدة وطويلة وضارية . كما تعددت الثورات والاضطرابات فى الأقاليم العثمانية فى تلك المناطق . وأراد السلطان مراد الرابع أن يحسم حربياً المشكلات العسكرية والسياسية مع الدولة الصفوية . فقد كانت هذه المشكلات بمثابة نزيف دموى حاد ، وتكبدت الدولة الكثير من الخسائر فى الأرواح والأموال والعتاد . وفى سنة ١٦٣٥ تولى السلطان قيادة حملة كبرى زحف بها على تلك الأقاليم الشرقية ، واستولى على بعض المدن والمواقع الهامة مثل إريفان Erivan ، ثم اتجه إلى بغداد واستطال حصاره لها أربعين يوماً ، ثم دخلها فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر — كانون أول — عام ١٦٣٨ وقام الجيش =

ومما هو جدير بالذكر أن محمد فريد بك أحد رؤساء الحزب الوطنى فى مصر ومن أعلام الفكر والسياسة فيها (١٨٦٨ — ١٩١٩) (١) قد

=العثمانى بمذابح رهيبة للقوات الفارسية التى كانت تدافع عن بغداد . وقد أبادها على بكرة أبيها . ويقال إن عدد أفرادها بلغ ثلاثين ألف جندى . وشملت المذابح أيضاً عدداً كبيراً من السكان المدنيين فى العاصمة ، وأضيرت مصالح المدنيين الآخرين الذين نجوا من المذابح . وانتهت حملة مراد الرابع بعقد معاهدة صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية فى اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر — أيلول — عام ١٦٣٩ (ويرد فى بعض المراجع ذكر تاريخ المعاهدة اليوم السابع عشر من شهر مايو — آيار — عام ١٦٣٩) ونص فيها على أن تحتفظ الدولة الصفوية بمدينة إريفان والمناطق المتاخمة لها . وأن تستولى الدولة العثمانية على بغداد ومناطق أخرى عديدة حددت فى المعاهدة . وعاد العراق مرة أخرى إلى الحكم العثمانى ، كما عادت الحدود بين الدولتين إلى وضعها السابق أيام سليم الأول وسليمان المشرع . وتسمى هذه المعاهدة صلح إستانبول الثانى تمييزاً لها عن صلح إستانبول الأول الذى أبرم بين الدولتين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس — آذار — عام ١٥٩٠ .

(١) كان محمد فريد بك من المعروفين بتعلقهم بالدولة العثمانية طبقاً للمفاهيم السياسية التى كانت سائدة فى الولايات العربية .

وقد وضع فريد بك عدة كتب ، منها :

البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المحمدية (١٨٩١) (محمد على)

تاريخ الدولة العلية العثمانية ١٨٩٣ .

تاريخ الرومان . وقد نشر تباعاً حتى سقوط قرطاجنة فى مجلة الموسوعات ١٩٠٠ ، ١٩٠١ .

وله عدة بحوث منشورة فى مجلة الموسوعات ، منها :

إنجلترا وفرنسا بإفريقية (عدد ٢٦ أبريل . نيسان — عام ١٨٩٩) .

الإنجليز فى غرب إفريقية (عدد ٨ أغسطس — آب — عام ١٨٩٩) .

كيف ضاع استقلال جزائرهاواى (عدد ٢٣ أغسطس — آب — عام ١٨٩٩) .

إنجلترا والترنسفال (عدد ٢١ سبتمبر — أيلول — عام ١٨٩٩) .

إنجلترا فى جنوب إفريقية (عدد ١٩ نوفمبر — تشرين ثان — عام ١٨٩٩) .

الروسيا فى مملكة كوريا (عدد ١٣ يونيو — حزيران — عام ١٩٠٠).

مطامع أوروبا فى الصين (عدد ١١ أغسطس — آب — عام ١٩٠٠).

رياسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية انتخاب رئيسها (عدد ٥ فبراير — شباط — عام ١٩٠١) .

وكان آخر عدد من مجلة الموسوعات هو العدد ١٩ من السنة الثالثة وقد صدر فى غرة ربيع آخر عام ١٣١٩ — ١٧ يوليو — تموز — عام ١٩٠٩ وكانت مجلة علمية نصف شهرية أصدرها محمد فريد بك بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حافظ عوض بك والأستاذ محمود أبو النصر بك . =

تعرض للسلطان مراد الثالث — وهو أحد سلاطين الفترة الثانية — ونعى عليه عدم خروجه مع الجيوش العثمانية إلى ساحات الحرب ، وأرجع الهزائم العسكرية التى لقيتها الدولة من جيوش المجر والنمسا إلى تلك الظاهرة . وعلق عليها تعليقاً يفيض بالأسى والحسرة . وكان مما قاله « يجب علينا وعلى كل عثمانى التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه (١) إلى الحرب وتحجبه عن أعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر ، فلولا ذلك لكانت الغلبة دائماً لهم بإذنه تعالى . فقد عودهم عز وجل النصر على الأعداء فى زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم ، لأن وجود الخليفة الأعظم فى رأس جيوشه يبث فيهم روحاً جديدة ، فيتحدون معه قلباً وقالباً ، ويسيرون معه إلى النصر المبين . والفوز العظيم . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (٢) .

سلاطين لا يراهم أحد : Des Sultans *Invisibles*

لم يتخلف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايونى — الإمبراطورى — فقط ، بل تكاسلوا أيضاً عن مراقبة أعماله وسماع مناقشات أعضائه من وراء ستار ، وهو تقليد حرص عليه سلاطين العصر الذهبى .

وكان السلاطين لايبرحون القصر ، واستطابوا الإقامة فى أجنحة الحريم السلطانى يوزعون ، أو بعبارة أكثر دقة ، يبددون أوقاتهم بين القادينات حيناً ، وفتيات الغرف أحياناً كثيرة التماساً للمتع ، ويسرفون فى تناول الخمور ، ويرتكبون سائر الموبقات مستغلين العزلة التى أحاطوا أنفسهم بها أو التى أحاطتها سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى بهم. وقد أطلق عليهم « السلاطين الذين لايراهم أحد » Les Sultans Invisibles إذ لم يكن يراهم

= انظر :

عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية . الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ص ص ٣١ — ٣٣ .

(١) يقصد السلطان مراد الثالث .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

رعاياهم ولا الجيش ولا الوزراء . وكانوا لا يعلمون شيئاً عن تصرفات حكام الولايات .

سلاطين « تنابلة » : Des Sutlans *Fainéants*

كانت أجنحة الحريم هى مأواهم ، وكان الانغماس فى المتع الجنسية وغير الجنسية مع القادينات وفتيات الغرف هو شغلهم الشاغل ، وقد قيل إنه كان لأحد سلاطين الفترة الثانية فى أثناء توليه الحكم أكثر من ثلاثمائة فتاة من الجوارى الفاتنات(١) ، كما قيل إن عدد الذكور والإناث الذين أنجبهم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥) لم يقل عن مائة وثلاثين نتيجة إسرافه فى المسائل الجنسية (٢) ، وأخيراً فإن جهل أولئك السلاطين بالأحداث الجسام التى تجرى فى الدولة نتيجة انصرافهم عن ممارسة اختصاصاتهم كانت سمة بارزة فى أخلاقهم . ولذلك أطلق عليهم أحد المؤرخين الفرنسيين اسم « السلاطين التنابلة » (٣) Les Sultans fainéants وقد أشاد أحد كبار المؤرخين الإنجليز بهذه التسمية واستخدمها وهو يتناول تاريخ تلك الحقبة ، فقال إن الدولة العثمانية ، وهى أعظم الدول العسكرية ، قد وقعت فى أيدى سلاطين « تنابلة » (٤) .

وكان عدد من أولئك السلاطين يتعرضون للعزل نتيجة تمرد عسكرى تقوم به الفيالق الإنكشارية أو نتيجة فتوى تصدر عن شيخ الإسلام بعدم صلاحيتهم للاستمرار فى الحكم . وكان عزلهم يقترن عادة بقتلهم أو خنقهم .

والحق أن مركز السلاطين فى تلك الفترة قد اهتز اهتزازاً عنيفاً فى نظر الجيش وموظفى الدولة وسائر هيئاتها والجماهير بعد أن استفاضت الأنباء

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol.1, Part I, p. 73, *f.*n

(٢) Loc. Cit.

(٣) كلمة fainéant الفرنسية معناها الشخص الكسول جداً ، والخامل جداً ، والذى ليس لديه أى استعداد للقيام بعمل جدى . وتقابل فى اللغة العربية الدارجة « تنبل » .

(٤) Grant A.J.; op. cit.,p. 225.

بتصرفات أولئك السلاطين . وانتقلت هذه الأخبار عبر الحدود إلى العالم الخارجي. وإن السيف الذى كان يمسك به السلاطين الشوامخ فى العصر الذهبى للدولة من أمثال أبى يزيد[١] الأول الذى اشتهر باسم يلديرم أى البرق لتنقلاته الحربية السريعة بين الجبهتين الأناضولية والبلقانية ، والسلطان محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية ، وسليم الأول وسليمان المشرع ، قد تحول من سيف باتر إلى شخشيخة[٢] un hochet[٣] .

وقد بلغ من هوان السلاطين على أنفسهم فى تلك الفترة أن اتصالات السلطان بالصدر الأعظم كانت تتم عن طريق أحد العبيد الخصيان ، وكان يطلق عليه « دار السعادت أغاسى » أى أغا دار السعادة . وكان يشار إلى الأخير عادة باعتباره القيزلر أغاسى أى أغا البنات [٤]. وطبقاً للبروتوكول العثمانى كان هذا الأغا يعد أكبر موظف فى القصر السلطانى كله . وكان يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان فى درجة وزير ويحمل ثلاثة أطواخ . وقد أتاح الوضع المتميز جداً لهذا الخصى فرصة ذهبية للحريم السلطانى لتصعيد نفوذهن كمركز قوة ، فينقلن إليه أوامرهن أو رغباتهن سواء للسلطان أو الصدر الأعظم . وكانت مؤامراتهن تجد طريقها ممهداً وميسراً للتنفيذ الفورى .

أشهر قصة غرام فى تاريخ الدولة العثمانية :

ونلحق بسلاطين الفترة الثانية سلطاناً آخر كان آخر سلاطين الفترة الأولى وهو سليمان المشرع . وعلى الرغم من أنه يقف فى الصف الأول من بين سلاطين الدولة فى جميع عصورها وبلغت الدولة على عهده الأوج فى القوة

---

(١) بايزيد هى النطق التركى لكلمة « أبو يزيد » .

(٢) كلمة hochet فى اللغة الفرنسية تقابل فى اللغة العربية الدارجة لفظة شخشيخة بضم حرف الشين وسكون حرف الخاء . وهى لعبة خفيفة جداً فى وزنها تعطى للطفل الذى لا يزال يحبو فى مهده . وهى عبارة عن كرة صغيرة مغلقة تماماً . وبداخلها عدد من الكرات الصغيرة — البلى — ولها مقبض فيمسك الطفل المقبض ، ويهز الكرة فتحدث صوتاً ينبعث من هذه الكرات . وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للدلالة على الشئ قليل النفع أو ضئيل القيمة .

(٣) Lavisse et Rambaud op. cit., t. v, p. 883.

(٤) انظر الفصل التالى .

والنفوذ فى السياسة الدولية وفى الإتساع الإقليمى ، إلا أنه كان على شاكلة سلاطين الفترة الثانية من ناحية واحدة ، هى خضوعه فى سنواته الأخيرة من عمره المديد لإحدى قاديناته خضوعاً كاد يكون تاماً . وهى جارية روسية الأصل تدعى روكسلانه Roxelane وكانت ذات وجه باسم ، وكانت على حظ موفور من الجمال هام بحبها وأنجب منها ذكوراً وإناثاً . ولما بلغ من الكبر عتيا ووهن العظام منه سيطرت على قلبه وعقله بحيث أصبحت مستشاره الأول. وحاول السلطان استعادة أيام الشباب وميعة الصبا ، وهى أيام كانت قد ولت بالنسبة له . وكان فى حكم الاستحالة أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء . ومن الحقائق التى يستخلصها الباحثون من دراسة سير عظماء التاريخ أن بعضاً منهم يحاولون وهم يخطون خطواتهم الأخيرة فى الحياة أن يعوضوا ما فاتهم فى حياتهم من متع رخيصة صرفتهم عنها الأمجاد العسكرية أو السياسية أو العلمية التى شاركوا فى صنعها وتركوا بصماتهم قوية فى تاريخ بلادهم بسبب هذه الأمجاد ونتيجة لها . وهكذا كان شأن سليمان المشرع مع روكسلانه ذات الجمال والدلال والإغراء. وكان لإفراطه فى الافتتان بها وخضوعه لها نتائج أضرت بالمصالح العليا للدولة ضرراً بليغاً . وفى رأينا كان هيامه بها يشكل أشهر قصة غرام فى تاريخ الدولة العثمانية على الإطلاق . وسنعرض فى موطن قادم فى هذا الفصل لروكسلانه كمركز قوة خطير ، ليس فى الحريم السلطانى فحسب ، بل على أعلى المستويات فى الدولة . فقد بلغ نفوذها الذروة من الخطورة فى توجيه القيادات العليا على النحو الذى كانت تشتهيه . وكان نفوذها الرهيب وسيطرتها – كمركز قوة خطير فى الحريم السلطانى – على السلطان سليمان المشرع نقطة سوداء فى تاريخ هذا العاهل .

أسباب ضعف أولئك السلاطين :

كان من أسباب ضعف شخصية أولئك السلاطين الأسلوب الذى اتبعوه منذ أواخر القرن السادس عشر فى تنشئة الأمراء العثمانيين . فقد حددوا إقامتهم فى داخل القصر ، كل منهم فى مقصورة أطلق عليها القفص[1] وأحاطوا

---

(١) سبق أن شرحنا هذا النظام فى الفصل الثانى عشر تحت عنوان : « أقفاص الأمراء »

كل أمير منهم بعدد من الجوارى والخصيان . وحرموا عليهم الاتصال بالعالم الخارجى ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخبار الدولة . فعاشوا فى عزلة مدمرة ، وأصيبوا بانهيار الأعصاب ، وميل مبكر إلى النسائيات مع الجوارى. وقد طبق هذا النظام أيضاً على الأمراء الذين اختيروا لتولى العرش . فكان الأمير ولى العهد يخرج من القفص بعد وفاة السلطان الحاكم ليرتقى العرش وهو محطم نفسياً ، مهتز الشخصية ، ضعيف فى تفكيره ، عديم التجارب ، تعوزه الشجاعة . يريد أن يعوض حياة الحرمان والعزلة بجو آخر فيه تحرر ، وفيه انطلاق ، وفيه تمتع بمباهج الحياة . أما اختصاصاته كسلطان فكان لايكاد يعرف شيئاً عنها . ومن هنا كان انصرافه عن ممارسة شئون الدولة ، ومن هنا أيضاً كان التأثير عليه سهلا وسريعاً من جانب والدته أو أخته أو القادينات وجميعهن من سيدات الفئة الأولى فى الحريم السلطانى . وكان مطمع كل واحدة منهن أن تستأثر بالنفوذ الأعلى ، وأن تتبوأ القمة بين مراكز القوى فى الدولة . والواقع أن هؤلاء السلاطين كانوا ضحية نظام فاسد ، هو نظام القفص ، استحدثه الآباء حرصاً منهم على المحافظة على مراكزهم من دسائس الأبناء أو أقاربهم أو كبار رجال الدولة يتخذون من أحد الأمراء مطية للإطاحة بالسلطان الحاكم وتعيين آخر يأنسون إليه .

ويبين فساد هذا النظام إذا قارناه بالنظام الذى كان قائماً أيام سلاطين العصر الذهبى . فقد عمل الأخيرون على الإفادة من نشاط أمراء الأسرة الحاكمة فى قيادة الجيوش أو فى حكم بعض الأقاليم . وقد طبقوا هذا النظام حتى على الأمراء الذين لم يكونوا مرشحين لتولى العرش . فإذا توفى السلطان الحاكم جيء بولى العهد من موقعه إلى إستانبول لتولى العرش ، وهو بعيد عن العقد النفسية ، متفتح الذهن ، كثير التجارب ، قوى الشخصية ، على دراية واسعة بشئون الحكم والحرب ، لا يهاب أحداً (١).

= انظر ص ٣٥٠ فى هذه الدراسة .

(١) حدث استثناءان لنظام القفص على عهد سلاطين الفترة الثانية هما سليم الثانى أول سلاطين هذه الفترة . ولم يكن معقولا أن يلجأ والده سليمان المشرع إلى هذا النظام الفاسد المدمر . أما السلطان الآخر فكان مصطفى الثالث .

يضاف سبب هام ساعد على ضعف شخصيات بعض سلاطين الفترة الثانية ، ومن ثم أدى هذا الضعف إلى تصاعد نفوذ الحريم السلطانى كمركز قوة فى الدولة ، وهو أن عدداً من سلاطين الفترة الثانية تولوا العرش وهم فى سن مبكرة جداً . تراوحت أعمارهم بين سن السابعة وسن الرابعة عشرة . فقد ارتقى العرش السلطانان أحمد الأول وعثمان الثانى وكان كل منهما فى الرابعة عشرة من عمرهما ، والسلطان مراد الرابع فى سن الثانية عشرة ، والسلطان محمد الرابع وله من العمر سبع سنوات . وأقيمت على هؤلاء السلاطين وصاية باشرها عدد من الوزراء ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، ولكنها كانت وصاية صورية ، لأن الوصاية الفعلية كانت فى أيدى سيدات الفئة الأولى فى الحريم السلطانى .

ثانيا : ضعف الصدور العظام :

أما الصدور العظام فكانوا بدورهم — بسبب الملابسات والتيارات السياسية الخفية التى أحاطت بهم من يمين ويسار — من العوامل التى ساعدت على نمو مراكز القوى فى الحريم السلطانى. فقد كثر تعاقبهم على منصب الصدارة العظمى خلال الفترة التى تبدأ من أواخر القرن السادس عشر . ونذكر على سبيل المثال أنه فى أثناء حكم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) اغتيل عام ١٥٧٩ محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . وتعاقب بعد اغتياله تسعة صدور عظام على هذا المنصب خلال المدة التى تبقت على حكم مراد الثالث وهى ستة عشر عاماً ، أى بمعدل صدر أعظم واحد لكل مدة تقل عن سنتين . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى بعد ذلك إلا بعد مضى قرن من الزمان بتعيين محمد كوبريلى باشا (١) . وهناك مثال صارخ وقع فى أثناء الحكم الثانى للسلطان مصطفى الأول المعروف باسم

---

(١) هو من أسرة ألبانية تنسب إلى كوبرى ، وهى مدينة صغيرة فى آسيا الصغرى على أحد روافد نهر قزل إرماك على مسافة ١٢ فرسخاً من مدينة آماسيا . وقد نزح إلى هذه المدينة رجل من ألبانيا مع عائلته . وعرفت هذه العائلة باسم كوبريلى نسبة إلى المدينة التى اتخذتها مهجراً لها .

السلطان الأبله أو المعتوه L'idiot (١٦٢٢ — ١٦٢٣) ، فقد تعاقب ستة صدور عظام على ذلك المنصب مع أن حكمه فى الفترة الثانية لم يزد عن خمسة عشر شهراً ، أى بمعدل شهرين ونصف شهر لكل صدر أعظم .

وكان الصدور العظام — باستثناء محمد صوقلو باشا إلى حد ما —(١) ضعاف الشخصية ويتم تعيينهم وعزلهم وفقاً لرغبات سيدات الفئة الأولى فى الحريم السلطانى . فكن يتدخلن لدى السلطان إما تدخلا مباشراً وإما غير مباشر عن طريق أغوات الخصيان . وكان السلاطين فى مجموعهم يستجيبون لرغبات الحريم .

وكان هؤلاء الصدور العظام يدركون تماماً أنهم مدينون بمناصبهم للسلطانة الوالدة ، أو الباش قادين ، أو القادين . ويدرك كل منهم أن بقاءه فى منصبه مرتهن برضاء الحريم السلطانى عليه. ومن ثم كان الواحد منهم أداة طيعة لينة فى أيدى الحريم . وكان كل واحد منهم يدرك أيضاً أن تباطأه فى تنفيذ أمر يصدر إليه منهن كان كفيلا بعزله من منصبه . ومع ذلك فإن سيدات الفئة الأولى فى الحريم السلطانى كن يعمدن إلى تغيير الصدور العظام متى حقق الأخيرون الأغراض التى من أجلها عينوا فى مناصبهم .

وكان يراعى فى اختيار الصدور العظام فى تلك الفترة عدة اعتبارات تتعارض مع المصالح العليا للدولة . وكان من بين هذه الاعتبارات ما عرف عن الواحد منهم من السلبية أو ضعف الشخصية أو ضيق الأفق العقلى أو مصاهرته للسلطان الحاكم كأن يكون متزوجاً من ابنته أو أخته ، أو يكون ذا سن متقدمة جدا . وسنرى عند عرض مراكز القوى فى الحريم السلطانى أن أحد الصدور العظام تولى منصبه الخطير وقد بلغ من الكبر عتيا ، إذ كان

---

(١) سبق أن سجلنا عليه بعض المآخذ . انظر فى هذه الدراسة ص ٣٦٨ ، وهناك فريق من الباحثين يرفعون صوقلو باشا مكاناً علياً فى تاريخ الدولة العثمانية . والواقع أن هذه الشخصية كانت تجمع بين جوانب حسنة وأخرى سيئة .

عمره وقتذاك مائة عام . وكان هناك صدر أعظم آخر بلغ من العمر تسعين عاماً وكان ذلك على عهد السلطان أحمد الأول . وقد عهد إليه السلطان إجراء مفاوضات مع شاه الدولة الصفوية ، عباس الأول الكبير ، لتحديد الحدود بين الدولتين. ولكنه لم يكد يبدأ المفاوضات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وسقط جثة هامدة أمام مائدة المفاوضات(١) . وكأن الدولة قد أجدبت أو أصيبت بالعقم . فلم تكن لديها كفايات سياسية أو إدارية أو حربية يكون أصحابها فى عنفوان الرجولة ومضاء العزيمة ورحابة الأفق العقلى وقوة الذاكرة. ولكنها كانت سياسة مرسومة من سيدات الحريم السلطانى ،إذ كن يرتحن لمثل هذه النوعية من الصدور العظام . وهكذا غدت الدولة تجمع بين المتناقضات: سلطان يتبوأ العرش وهو فى سن السابعة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، وفيها صدر أعظم يتقلد منصبه وهو فى سن المائة ، وغدا رجلا طاعناً فى السن وهن العظم منه . والاثنان ــ السلطان والصدر الأعظم ــ لا يصلحان لحكم دولة من كبرى دول العالم وتمتد أقاليمها فى ثلاث قارات وتتربص بها معظم الدول الأوروبية الدوائر .

ولما انصرف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايونى وعن مراقبة مناقشات أعضائه من وراء ستار ، كما سبق أن ذكرنا ، انتهزت سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى هذه الفرصة ، فمددن نفوذهن إلى هذا الديوان الذى كان أعلى هيئة أو مجلس فى الدولة . وأصبح هذا الديوان برياسة الصدر الأعظم يخضع لتوجيهاتهن . ومن أجل المحافظة على حياتهم وعلى مناصبهم ترك الصدور العظام أولئك السيدات يتدخلن فى اختصاصاتهم.

وكــان الصدور العظام ينتابهم الخوف بل الذعر إذا عمدت الفيالق الإنكشارية أو فرق عسكرية أخرى إلى التمرد كوسيلة للضغط على الحكومة لإجابة مطالبهم . وبدلا من أن يواجه الصدر الأعظم الموقف منذ بدايته بحزم، كان يتركه يتفاقم . وتكون نتيجة هذا التمرد من ناحية، والتراخى

---

(١) Mantran R.; Encycl. of Islam. Art. Ahmad I.

فى معالجته من ناحية أخرى ، عزل الصدر الأعظم بل وعزل السلطان أيضاً وقتل الاثنين معاً .

وكان الصدور العظام — شعوراً منهم بضعف مراكزهم تجاه مراكز القوى فى الحريم السلطانى — ينشدون تأييد الفيالق الإنكشارية أو فرق السباهى — الإسباهية — لهم . وكان أفراد كل من هذين السلاحين يضمرون العداوة والبغضاء لأفراد السلاح الآخر . وأسرف الصدور العظام فى تقديم المنح والامتيازات وإجراء الترقيات السريعة لأفراد السلاح المؤيد لهم كضمان لاستمرار تأييدهم العسكرى . ولكن كان العسكريون يطلبون المزيد . وفى إحدى المرات فتح مير حسين باشا الصدر الأعظم للإنكشارية المؤيدين له المخازن السلطانية يأخذون منها اللحوم والشموع وكل ما هو ضرورى لهم . وقال لهم هذا الصدر الأعظم « الحمد لله ، إن البادشاه — أى السلطان — رجل واسع الثراء » (١) . وثار أفراد سلاح السباهى وطالبوا بالمعاملة بالمثل من هذا الصدر الأعظم فيأذن لهم فى أخذ بعض الأوانى الفضية . وفى دجى الليل كانوا يسيرون فى شوارع العاصمة ينهبون ويقتلون ويشعلون الحرائق . وكأن إستانبول مدينة معادية فتحت عنوة . وكان مير حسين باشا لا يستطيع لهم دفعاً . وفى ذات الوقت رفضت الفيالق الإنكشارية المؤيدة أن تخوض صراعاً حربياً أو صداماً دموياً رهيباً ضد فرق السباهية من أجل صدر أعظم كان الإنكشارية يعلمون أنه عما قليل مقصى عن منصبه .

وعقب الانقلاب الذى تم فى الأيام الأولى من شهر أغسطس — آب — عام ١٦٤٨ والذى كان من بين نتائجه خلع وشنق السلطان ابراهيم المعتوه وتولية ابنه السلطان محمد الرابع البالغ من العمر وقتذاك سبع سنوات — أدلى أحد الذين شاركوا فى هذا الانقلاب بتصريح جاء فيه « إنه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث ، أن يشغل منصب الصدارة العظمى رجل حصيف فى مقدوره أن يضع الأمور فى نصابها » . ولكن كان هذا الرأى

---

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., t.v, p 851.

(٢) Loc. cit .

سرابا ، ويدل على جهل صاحبه بحقيقة الأوضاع فى الدولة فى ذلك الوقت ، لأن تعيين الصدور العظام كان يخضع لتوجيهات أو رغبات أو أوامر سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى ليستمر نفوذهن فى تصاعد ويكون الصدور العظام أدوات طيعة فى أيديهن .

بلطه جى باشا يتقاضى رشوة :

لم يكن بعض الصدور العظام فى تلك الفترة فوق مستوى الشبهات . ونذكر على سبيل المثال بلطه جى محمد باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠) فقد رددت الألسنة أنه تقاضى رشا (١) من بطرس الأكبر قيصر الروسيا (١٦٨٢ — ١٧٢٥) حين أطبقت عليه الجيوش العثمانية عام ١٧١١ وهو يسير جنوباً بمحاذاة نهر بروث . فلم يجد بداً من طلب الصلح . واستجاب بلطه جى محمد باشا لطلب القيصر وعقد اتفاق أو سلم بروث (٢) فى الثالث والعشرين من شهر يوليو — تموز — ١٧١١ وتنازل بطرس عن آزوف ، ووافق على هدم القلاع المعترض على إقامتها ، وتعهد بعدم الزج بنفسه فى شئون تتار القرم أو فى شئون بولنده ، وبألا يعود إلى تعيين سفير له فى إستانبول ، وأن يكف عن التآمر مع رعايا السلطان الأرثوذكس . واتضح أنه كان فى استطاعة الصدر الأعظم أن يجبر القيصر على قبول جميع مطالب الدولة نظراً لحرج مركزه الحربى . ومن ثم قامت الشبهات قوية حول بلطه جى محمد باشا أنه أخذ رشا حتى ارتضى التوقيع على هذا الاتفاق الذى انطوى على تسامح وسخاء . ويذكر بعض

---

(١) رشا بضم الراء جمع رشوة بكسر الراء .

(٢) يرد اسم هذا الاتفاق فى المراجع الإنجليزية على أحد هذين النحوين :

Agreement of Pruth

Peace of Pruth.

ويرد فى المراجع الفرنسية معاهدة بروث Traité du Pruth

ولهذه المعاهدة اسم آخر تعرف به ، هو : فالكسن Falksen

انظر : Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome V1, pp. 810—812

Reddaway W.F.; A History of Europe 1610—1715.

London, 1967, p. 437.

المؤرخين أن كاترين الأولى (١) قد ضحت بجميع مجوهراتها وحليها وأمور أخرى ، إذ أوعزت إلى زوجها بطرس الأكبر بأن يقدم هذه الثروة الهائلة إلى بلطه جي محمد باشا الذى ضعف أمام هذا الإغراء المالى وغير المالى ، ووافق على إبرام معاهدة بروث (٢) .

صانع حلوى يغدو صدراً أعظم :

كانت نوجية بعض الصدور العظام مثار سخط الجماهير عليهم . كانوا من حصيلة ضريبة الغلمان وأعدوا إعداداً طويلا لشغل المناصب القيادية ، العسكرية أو المدنية فى الدولة ، ولكن تسلل إلى صفوفهم — لنتيجة حماقة أو سذاجة بعض السلاطين — رجال بدأوا حياتهم بداية متواضعة وفى مجالات لا تمت بصلة إلى اختصاصات الصدر الأعظم فى دولة من كبرى دول العالم . نذكر من هذا الفريق رجلا يسمى ابراهيم . بدأ حياته صانع حلوى فى إسكى سراى — أى السراى القديم فى إستانبول — وهى حرفة يطلق على شاغلها فى اللغة التركية « حلوجى » ، واكتسب إعجاب السلطان أحمد الثالث ، واتخذه صفياً له . وظل يتدرج فى مناصب الخدمة الخارجية فى السراى القديم وفى مناصب أخرى فى إستانبول والأقاليم . ثم انتهى به الأمر إلى أن زوجه السلطان إحدى بناته ، وهى الأميرة فاطمة ، فى عام ١٧١٧ وكانت تبلغ من العمر وقتذاك ثلاث عشرة سنة . واكتسب « العريس » لقب داماد ، فأصبح اسمه ابراهيم باشا داماد (٣) أى ابراهيم باشا صهر السلطان ، وعينه

---

(١) تنحدر كاترين الأولى من أسرة فقيرة . تزوجت فى مطلع شبابها جندياً من السويد ، ثم وقعت أسيرة فى يد الروس سنة ١٧٠٢ ، وكانت على حظ موفور جداً من الجمال ، فأعجب بها الأمير منشكوف واتخذها خليلة له . وفى عام ١٧١١ وقعت أبصار بطرس الأكبر عليها فهام بحبها واتخذها عشيقة له ، ورافقته فى معظم حروبه . وبعد أن أنجبت منه عدداً من الأولاد تزوجها رسمياً وتوجها إمبراطورة فى عام ١٧٢٤ . ولما توفى القيصر فى السنة التالية . خلفته فى حكم الدولة وتوفيت سنة ١٧٢٧ .

(٢) Huart Cl.; Encycl. of Islam. Art. Ahmed III .

(٣) توجد فى تاريخ الدولة شخصية أخرى تحمل ذات الاسم وذات اللقب ، وهى شخصية إبراهيم باشا داماد . وكان صفياً للسلطان مراد الثالث ، وتولى منصب الصدارة العظمى ثلاث=

السلطان صدراً أعظم وظل يشغل منصبه اثنى عشرة سنة حتى قام الشعب بفتنة خطيرة فى شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٧٣٠ أسفرت عن سقوط ابراهيم باشا وخلع أحمد الثالث. وقد رفض السلطان تسليم صفيه حياً إلى الشعب الثائر فشنقه فى القصر فى ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ وفى اليوم التالى اضطر السلطان إلى التنازل عن العرش.

كان تضاؤل نفوذ السلاطين والصدور العظام يسير سيراً عكسياً مع زيادة نفوذ الحريم السلطانى ، بمعنى أنه كلما انكمش نفوذ السلاطين والصدور العظام ازداد نفوذ مراكز القوى فى الحريم السلطانى علواً وطغياناً . وينطبق هذا الحكم العام على محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم أيضا . وقد سبق أن التقينا به فى هذه الدراسة . ونضيف هنا أنه استحال عليه ممارسة اختصاصات منصبه أمام مراكز القوى فى الحريم السلطانى ، وتعذر عليه الاتصال بالسلطان مراد الثالث أو التعاون معه على الرغم من أنه كان متزوجاً من الأميرة إسمات أخت السلطان . لم تشفع له خدماته التى أسداها للدولة ولا مصاهرته للسلطان . ورؤى التخلص منه ودخل الجانى متنكراً فى زى أحد الدراويش إلى مجلسه بحجة تقديم شكوى له . وطعنه بخنجر فى قلبه فأرداه قتيلا فى الحال . وقد وقع حادث اغتياله فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٧٩ بعد مضى أربع سنوات من تولى مراد الثالث العرش . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى إلا بعد قرن من الزمان بتعيين محمد كوبريلى باشا .

روكسلانه ذات الوجه الباسم مركز قوة خطير فى الدولة :

ومن أبرز الأمثلة على استفحال نفوذ الحريم السلطانى الدور الذى قامت

= مرات على عهد خلفه السلطان محمد الثالث . وتزوج الأميرة عائشة ابنة السلطان مراد الرابع فى آخر شهر مايو - آيار - ١٥٨٦ .

وفى تاريخ الدولة يوجد سمى آخر هو إبراهيم باشا كان صفياً للسلطان سليمان المشرع الذى عينه صدراً أعظم ومنحه اختصاصات واسعه فى الحكم.وحضر السلطان حفل زفافه فى ٢٢ مايو - آيار - عام ١٥٢٤ وكان يوماً مشهوداً فى التاريخ العثمانى . وكانت نهاية هذا الصدر الأعظم مروعة ، إذ أمر السلطان بإعدامه فجأة نتيجة مؤامرة دبرتها روكسلانه قادينة السلطان ، وكان ذلك فى ١٥ مارس - آذار - ١٥٣٦ . وسنلتقى بهذه الشخصية فى مواطن قادمة فى هذا الفصل .

به روكسلانه Roxelane ، وهى روسية الأصل اختطفها تجار الرقيق من ذويها فى بلاد القوقاز . وكانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه دى روجالينو de Rogalino ، وباعوها للسلطان سليمان المشرع فألحقها بالحريم السلطانى . واستهلت حياتها الجديدة فى القصر كجارية. كانت على حظ موفور جداً من جمال الخلقة والرقة وخفة الروح ورهافة الشعور . وكان يطلق عليها خورم ، Kourrem ، وهى لفظة تركية معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم. كما عرفت باسم روكسلانه Roxelane أى الروسية. هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شغاف قلبه فأعتقها وأنجب منها ذكوراً وإناثا ، وارتفعت مكانتها طبقاً لقواعد البروتوكول من جارية إلى قادين وظل حبه لها نبتاً نضراً يتفيأ ظلاله عن يمين ويسار . وسيطرت على قلب السلطان وعقله معاً ، فأصبحت مستشاره الأول فى شئون الدولة (١) . واحتجب فى قصره لأنه كان لا يطيق عنها بعداً . وتخلى عن قيادة الحملات الحربية . وكان وجوده فى ساحات الحرب يثير حماس الجنود . واعتاد الإنكشارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة . وكانت أوروبا تدرك جيداً مدى النفوذ العريض. والرهيب الذى كانت تتمتع به روكسلانه . وأجمعت آراء المعاصرين لها على أنها كانت السيدة الأولى فى الدولة العثمانية ، وكانت تعنو لها جباه الجميع ، ويتضاءل أى نفوذ فى الدولة أمام شخصيتها الطاغية وذكائها اللماح .

أرادت روكسلانه أن يكون ابنها الأمير سليم ولياً للعهد بدلا من الأمير مصطفى ، وهو الابن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركسية . ودبرت روكسلانه مؤامرة محكمة لتحقيق أمنيتها . وكان أول خيوط هذه المؤامرة إفساد الجو العائلى بين السلطان وزوجته الشركسية . افتعلت مشادة كلامية مع غريمتها . وبدأت هذه المشادة بالمقارنة بين النشأة الأولى لكل منهما . وتطورت المناقشة إلى الاشتباك بالأيدى . واصطنعت روكسلانه الضعف وتركت غريمتها تنهال عليها ضرباً ولكماً ، وشدت شعر رأسها ونزعت بعضاً منه ، وتمادت الزوجة الشركسية فخدشت وجه روكسلانه

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., t. iv, p. 761.

بأظافرها بحيث أصبحت آثار الخدوش بادية على وجهها . ونالت منها منالا كبيراً، وهذا ما كانت تبتغيه روكسلانه . واحتجبت عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرسل يستدعيها ، فاعتذرت عن عدم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفى آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها إنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان، لأنها « لحم يباع ويشترى » ، وهى العبارة التى أطلقتها عليها الزوجة الشركسية . وأصر السلطان على حضورها . فجاءته على استحياء وتظاهرت بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت الدموع تنهمر من مقلتيها، وآثار الخدوش والكدمات بادية على خديها . وكان شعرها غير منظم . وقصت عليه ما حدث لها من زوجته الشركسية . وثارت ثائرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لا تستحق منه تقديراً(١). ونجحت حيلة روكسلانه فى إفساد الجو بين السلطان وزوجته الأولى.

مضت روكسلانة بعد ذلك فى تنفيذ حلقات المؤامرة . فنقلت الأمير مصطفى ولى العهد وابن غريمتها حاكماً على آماسيا (٢) Amasia كى يكون بعيداً عن إستانبول مقر الحكم وعن مؤامراتها (٣) . ثم التفتت إلى ابراهيم باشا الصدر الأعظم فطلبت من زوجها السلطان سليمان عزله من منصبه . وكان هذا الرجل الألبانى(٤) من خيرة الصدور العظام على عهد السلطان سليمان وموضع ثقته التامة وتقديره العميق . وقد زوجه السلطان من إحدى شقيقاته . وكان يخرج مع السلطان فى الحملات العسكرية فى

---

(١) نشر المؤرخ الفرنسى رامبو فقرات من تقرير وضعه عام ١٥٥٣ عن هذا الحادث برناردو ناڤجيرو Bernardo Navgero ممثل جمهورية البندقية لدى السلطان العثمانى فى إستانبول .
انظر المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٧٦١ حاشية رقم ١ .

(٢) مدينة فى الأناضول ، وتقع على نهر إيكى إرماك Yechil-Irmack . وتستمد شهرتها من أنها كانت مسقط رأس سترابون Strabon الجغرافى اليونانى المشهور .
ويكتب اسم هذه المدينة فى بعض المراجع الفرنسية Amasiah

(٣) كان الأمير مصطفى حاكماً على مانغنيسيا Magnesie وهى فى إقليم ليديا فى الأناضول وقريبة نسبياً من إستانبول . وكان يستغرق السفر إليها من العاصمة بضعة أيام .
أما آماسيا فكانت تبعد عن إستانبول بمسيرة خمسة وعشرين يوماً فى ذلك الوقت .

(٤) تذكر بعض المراجع أن إبراهيم باشا كان يونانى الأصل .

أوروبا ومن آسيا . وكان له دور بارز فى الانتصارات الحربية على الدولة الصفوية فى فارس.وأكمل فتح إقليم آذربيجان ، واتجه إلى العراق وفتح بغداد فى آخر عام١٥٣٤ ودخلها السلطان سليمان فى يناير–كانون ثان–١٥٣٥.وكان السلطان ينيبه فى إجراء المفاوضات مع الدول(١). وكان على حظ موفور من العلم والثقافة والتدين وراعياً للشعراء والفنانين العثمانيين . واستجاب السلطان سليمان لرغبة روكسلانه ، فعزل ابراهيم باشا الصدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تقنع بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتله . وتم اغتياله فى اليوم الخامس من شهر مارس–آذار–عام١٥٣٦ وهو يدخل القصر السلطانى ليلا ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان . وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن يوجه إليه اتهام أو يقدم لمحاكمة .

وكان اغتيال إبراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلانه لإطلاق يدها فى استكمال حلقات المؤامرة . ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ، ويدعى رستم باشا ، اطمأنت اليه ليكون عوناً لها فى تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد ، وزوجته إحدى بناتها واسمها محرمه Mihrmah وطلبت من زوجها تعيينه صدراً أعظم . حقق السلطان رغبة روكسلانه . وأصبح الصدر الأعظم ألعوبة فى يدها تحركه كيف شاءت وأنى شاءت . وتحقيقاً لرغبتها واسترضاء لها أغدق السلطان الكثير من الرعاية على صهره رستم باشا . وانتهز الأخير مصاهرته للسلطان ، فلجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً فى الإثراء الحرام والسريع . وغض السلطان الطرف عن انحرافاته واستغلاله المشين لمنصبه الكبير ، فوضع يده على عدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه « التيمارات » وهى الأرض الزراعية التى كانت تعطى لطوائف من العسكريين طبقاً للنظام الإقطاعى العسكرى (٢) . ولما اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية مرة أخرى عام ١٥٤٨ سنحت لها الفرصة التى طال انتظارها لها للتخلص من ولى العهد الأمير مصطفى .

---

(١) انظر عرضاً للإنجازات التى قام بها إبراهيم باشا فى :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. IV, p. 762.

(٢) سبق أن تعرضنا فى هذه الدراسة لهذا النظام .

انظر ص ص ١٣١ — ١٣٣ .

ويقال إن هذه الحرب قد قامت بإيعاز منها ، ويقال فى هذا الصدد أيضاً إن روكسلانه كانت تتبادل مراسلات مع زوجه طهاسب الأول Tamsap I (١٥٢٤–١٥٧٦) شاه الدولة الصفوية . واتفقت السلطانة روكسلانه مع رستم باشا على إيغار صدر السلطان إيغاراً عنيفاً على ابنه وولى عهده الأمير مصطفى . فأدخل رستم باشا فى روع السلطان أن ولى العهد يتآمر مع الفرس لتحقيق مآرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ السلطان أنه سمع الجنود الإنكشارية يقولون إن السلطان قد غدا رجلا طاعناً فى السن ووهن العظم منه بحيث لا يستطيع أن يخوض المعارك ، وقد حان الآوان للمناداة بالأمير مصطفى سلطاناً وتنحية والده رحمة به وشفقة عليه . وقد فعلت هذه الوشاية فعلها . وأصبح الأب يتوجس خيفة من ابنه وولى عهده . وانتهى رأياً إلى ضرورة التخلص منه بقتله . ولكنه أراد أن يطمئن إلى سلامة الفعلة النكراء التى أزمع تنفيذها ، أو لعله أراد أن يضفى عليها صبغة شرعية إسلامية . فعرض على شيخ الإسلام أبى سعود الموضوع بعد أن غير معالمه الشكلية واستطلع رأيه فى هذه المسألة . وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله إنه كان فى إستانبول تاجر ثرى ذو مركز اجتماعى مرموق . وتطلبت تجارته أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عبد له كثيراً ما أحسن إليه أن يشرف على أعماله ويرعى فى ذات الوقت زوجته وأولاده فى أثناء غيابه. ورأى التاجر أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العبد برعايتهم فى أثناء غيابه . ولم يكد التاجر يغادر إستانبول حتى سعى العبد لاختلاس أموال سيده وتدمير تجارته وتآمر على حياة زوجته وأولاده . وخلص السلطان سليمان من هذه القصة الخيالية إلى سؤال طرحه على شيخ الإسلام ليجيب عليه : ما هى العقوبة العادلة التى يستحقها هذا العبد ؟ فأجاب أنه يستحق الإعدام . يقول ليبير الأمريكى — الذى نقلنا عنه هذه الرواية(١) إن هذه الفتوى التى

---

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 213.

وقد نقلها من كتاب وضعه باللاتينية أحد السفراء فى إستانبول على عهد السلطان سليمان المشرع تناول فيه تاريخ الدولة العثمانية، وكان سفيراً للملك شارل الخامس؛ وأقام فى إستانبول من عام ١٥٥٥ إلى عام ١٥٦٢ واسمه

De Busbecq Ogier Ghiselin; Life and Letters. Translated by C.T. Forster and F.H. B. Daniel. 2 vols. London, 1881. vol. I, pp. 116—117 .

صدرت عن شيخ الإسلام – سواء كانت تعبيراً حقيقياً عن رأيه فى ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصدر هذه الفتوى بإيعاز من رستم باشا أو من روكسلانه – فإنها – أى الفتوى – جعلت السلطان سليمان يزداد تصميماً على قتل ابنه وولى عهده الأمير مصطفى تأسيساً على أن خيانة الابن لوالده لا تقل فى بشاعتها عن خيانة العبد لسيده التاجر فى إستانبول (١) . وبعث سليمان فى استدعاء ابنه إلى آماسيا حيث كان يقيم السلطان مع جيشه . وخشى أصدقاء الابن مغبة هذه المقابلة ونصحوه بعدم الذهاب إلى والده . ولكنه رفض، وقال إن طاعة الوالدين أمر يفرضه الدين . وإنه لم يرتكب عملا يخشى منه غضب والده ، وإنه إذا قتله فهو على كل حال والده ، وهو الذى أتى به إلى هذه الحياة. ولما دخل الابن على أبيه فى خيمته أعطى الأخير إشارة معينة، فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١٥٥٣ ، وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن تمت هذه الفعلة الشنعاء ، إذ كان من بين نتائجها :

أولا : حرمان الدولة من سلطان مرتقب هو الأمير مصطفى أجمع معاصروه على أنه كان يتمتع بكفايات ممتازة تجعله جديراً بارتقاء العرش خلفاً لسلطان عظيم هو سليمان المشرع .

ثانياً : اندلاع حرب أهلية فى الدولة . فقد كان الأمير سليم أكبر أبناء السلطانة روكسلانه موضع احتقار شديد من الفيالق الإنكشارية . وكانت تصرفاته المشينة موضوع حديث الجماهير . ثم وقف الجيش فى وجهه بصفته ولياً للعهد . فداعبت الآمال الابن الثانى لروكسلانه ، وهو الأمير أبو يزيد ، كان حاكماً على إقليم قرمان Karamine فى جنوبى آسيا الصغرى، وأراد أن يستأثر بولاية العهد دون أخيه الأكبر . واستعان بقوات من الجيش. واندلعت حرب أهلية ، وحدث انقسام خطير فى صفوف الجيش . وماتت السلطانة روكسلانة فى مستهل هذه الحرب . وحزن زوجها عليها حزناً شديداً أصبح مضرب الأمثال فى وفاء بعض الأزواج لزوجاتهم بعد رحيلهن عن

---

(١) Loc. Cit.

هذه الحياة الدنيا . وعلى الرغم من حزنه ومن شيخوخته سار السلطان على رأس قوات من جيشه لمحاربة ابنه الأمير أبى يزيد . واستطاع السلطان سليمان وابنه الأمير سليم إيقاع هزيمة ساحقة بالأمير أبى يزيد فى قونيه عام ١٥٥٩ ، وفر الأمير المنهزم إلى فارس . وطلب والده من طهماسب الأول شاه الدولة الصفوية تسليم الأمير اللاجىء. وقبل الشاه بعد أن تقاضى أربعمائة ألف قطعة ذهبية . وكانت نهاية هذا الأمير التعس مروعة . فقد ذبح هو وأولاده الخمسة عام ١٥٦١ (١) وكان انصياع السلطان سليمان المشرع لزوجته روكسلانه وتلهفه على استرضائها على أى نحو من الأنحاء ، والمذابح التى قام بها فى نطاق الأسرة الحاكمة ، نقطاً سوداء فى تاريخ هذا السلطان الذى يعد من أعظم سلاطين الدولة العثمانية سواء فى الحرب أو السياسة أو التشريع أو التعمير الذى يتمثل فى بناء مسجده الكبير الرائع فى إستانبول بالإضافة إلى أكثر من ثمانين مسجداً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً والكتاتيب التى أنشاها لتحفيظ القرآن الكريم والمعاهد الدراسته والمستشفيات والمطاعم العامة والحمامات العامة والمتاحف والقصور وغيرها من المنشآت العمرانية (٢) . وينطبق عليه المثل الفرنسى المشهور cherchez la femme أى ابحث عن المرأة . ولم تكن هذه السيدة سوى روكسلانه زوجته ومعبودته اتخذها مثله الأعلى بين نساء العالمين .

ثالثاً : انتقال وراثة العرش ظلماً وغدراً إلى الأمير سليم الذى ارتقى العرش باسم السلطان سليم الثانى (١٥٦٦-١٥٧٤) عقب وفاة والده السلطان سليمان المشرع(٣) . وكانت حياته الخاصة تتشح بأقذر أنواع الرذائل التى

---

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV pp. 763—764.

(٢) انظر عرضاً شاملا لمنشآته المعمارية سواء فى مكة المكرمة أو بيت المقدس أو بغداد أو قونية وغيرها فى :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٦٨٦ - ٦٨٨ .

(٣) جاز السلطان سليمان المشرع إلى ربه ليلة ٥ - ٦ سبتمبر - أيلول - عام ١٥٦٦ ليلة=

يشعر الإنسان بالخجل عند سماعها ، إلى جانب إسرافه فى تناول الخمور . وكان لا يفيق من سكره إلا لماما . وأطلقت عليه الجماهير — من باب التهكم عليه والسخرية به — سليم مست ، أى سليم السكير ، وأطلق عليه سليم نصف الروسى le demi - Russe إشارة إلى أن والدته روكسلانه كانت روسية . وكان يقضى أوقاته فى داخل القصر يمارس هواياته فى شرب الخمور ومطلقاً العنان لشهواته البهيمية ، ومسامراً حثالة الناس الذين كان بعضهم فى حاشيته . ولم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحة قتال . ويقرر أحد كبار المؤرخين الفرنسيين أن سليماً الثانى كان أول سلطان فى الدولة العثمانية لم يخرج إلى الحرب. ويوجز هذا المؤرخ بعض هذه المعالم الرئيسية فى الحياة الخاصة والحياة العامة للسلطان سليم الثانى فى هذه العبارات :

Sélim. II, le demi-Russe, fut sur le trône une manière de roi fainéant. Le fils de ce Soliman qui avait passé sa vie en chevauchées est le premier des sultans osmanlis qui n'ait jamais paru dans les camps. Il passait ses jours au fond du Sérai, livré à tous les vices, même les plus honteux. Il lui en est resté le surnom de Sélim Mest (Sélim l'Ivrogne). (١)

والتزاماً بالموضوعية نقول إنه تم فى عهده إرسال حملة عسكرية بقيادة سنان باشا عام ١٥٦٩ إلى اليمن لإعادة السيطرة العثمانية على هذه البلاد ، وهى

=١٩ — ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ عن ثلاث وسبعين سنة قضى منها سبعاً وأربعين سنة فى الحكم . ويلاحظ أنه ولد فى اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل — نيسان — عام ١٤٩٤ (غرة شعبان ٩٠٠) . وقد قضى نحبه وهو بعيد عن العاصمة ، إذ كان على رأس الجيش إلى مدينة أرلو وهى فى بلاد المجر فى الشمال الشرقى من مدينة بود (بودابست) على مسافة مائة وثمانين كيلو مترا . وعلم وهو فى الطريق إليها أن أمير سكدوار ، وهى مدينة فى بلاد المجر تشتهر بصناعة النبيذ ، قد أعلن العصيان . فرأى أن يتجه إليها أولا . واحتل معاقلها الأمامية ، فأخلى جنودها مواقعهم خفية واحتموا بقلعتها . واشتد عليه المرض فى أثناء العمليات الحربية ولفظ أنفاسه الأخيرة . وأخفى محمد صوقلو باشا نبأ وفاته عن الجيش. وأذاع أن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد. وأبلغ ابنه سليم الثانى ، فاسرع بالسفر إلى إستانبول حيث قضى فيها يومين ، ثم استأنف سفره إلى سكدوار لمرافقة جثمان والده إلى إستانبول . ولما بلغ صوفيا أذاع سليم فى ٦ من اكتوبر — تشرين أول — ١٥٦٦ وفاة والده وتوليته العرش . ثم قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى وصل محمد صوقلو باشا ومعه جثمان سليمان وعاد الجميع إلى إستانبول .

(١) Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome v, p. 845.

الحملة التى يطلق عليها بعض الباحثين تجاوزاً الفتح العثمانى الثانى لليمن . كما تم إبان حكم سليم الثانى فتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-١٥٧١) . ويرجع هذا النجاح العسكرى إلى قوة الدفع التى كانت لا تزال كامنة فى الدولة بعد حكم والده السلطان سليمان المشرع . وكانت شعلة الجهاد لا تزال مشتعلة فى نفوس أفراد القوات المسلحة العثمانية ووجود شخصيات عثمانية قوية ونزيهة تركها سليمان لابنه فى المراكز القيادية فى الدولة . ومع ذلك فإن فتح قبرص يرتبط بواقعة تسئ إلى سمعة سليم الثانى . كان فى حاشيته صديق حميم من حثالة اليهود يسمى جوزيف ناسى Joseph Nassi كان يسمى أول الأمر دون ميجيه Don Miguez وهو من البرتغال . ونجح فى التسلل إلى حاشية السلطان . وفى ظل شتى أنواع الانحراف الخلقى الذى تردى فيه سليم الثانى تمتع اليهودى بنفوذ كبير لديه . وزين له غزو جزيرة ناكسوس Naxos وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ ، وبلغ من حظوة اليهودى لدى سليم أن الأخير أعطاه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات معدودة حتى تجاسر اليهودى وأعلن نفسه دوقاً عليها « بفضل الله » . ولم تقف أطماع اليهودى عند هذا الحد ، بل زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأسانيد التى ساقها اليهودى للسلطان أن نبيذ قبرص لا يضارعه نبيذ آخر فى العالم . وفى نشوة الخمر والملذات قال سليم لليهودى : « ستكون ملكاً على قبرص » (١).

وعلى عهد هذا السلطان السكير والنصف روسى والمنحرف خلقياً ، تعرضت الدولة لكارثة حربية دينية قومية . إذ تكون حلف صليبى أوروبى ضدها . وكان قوام هذا الحلف : إسبانيا ، وجمهورية البندقية ، والبابويه فى روما ، وتسكانيا، وجنوا، وسافوى، وپارما Parme ، ومانتو Mandoue ، وفرارا Ferrare وغيرها من الكيانات السياسية فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وكذلك فرسان القديس يوحنا فى جزيرة مالطة . وكان من بين أسباب قيام

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٦٢ - ٧٦٣ .

هذا التحالف الصليبي ما ترامى إلى مسامع ملوك ورؤساء هذه الدول والكيانات السياسية من أنباء ضافية عن انصراف سليم الثانى عن شئون الدولة والرغبة فى القضاء على وجودها فى البحر المتوسط واسترجاع المكاسب الإقليمية التى حققها والده السلطان سليمان . واشتبكت القوات البحرية لدول هذا الحلف الصليبي ، وكان عدد سفنها مائتين وخمسين سفينة ، مع الأسطول العثمانى وكان عدد سفنه ثلاثمائة سفينة فى معركة ليانت (١) Lépante فى السابع من شهر أكتوبر — تشرين أول — عام ١٥٧١ ، ولم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات. وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التى تكبدها أعضاء الحلف الصليبي فى السفن والأرواح ، إلا أن خسائر العثمانيين كانت فادحة . فقد تحطم الأسطول العثمانى . غرقت معظم سفنه ، وأسرت سفن أخرى ، ولاذت بالفرار ثلاث عشرة سفينة . وقتل فى المعركة القبطان باشا وعدد من الباشوات والبكوات وحكام بعض الأقاليم العثمانية . وبلغت خسائر الدولة فى الأفراد زهاء عشرين ألفاً (٢) . وكان البابا پيوس الخامس Pius V هو المخطط والمحرك الأول لهذا الحلف (٣) ويطلق المؤرخون على هذه الحرب La Croisade Chrétienne أى الحرب الصليبية المسيحية (٤) . وكانت معركة ليانت إحدى معركتين بحريتين كبيرتين وقعتا فى القرن السادس عشر (٥) .

وقابل العالم المسيحى بابتهاج شديد أنباء الهزيمة التى نزلت بالدولة العثمانية بصفتها دولة الإسلام الكبرى. وأقيمت فى كنائس جميع أنحاء العالم المسيحى صلاة شكر te Deum لانتصار المسيحية على الإسلام . ونظمت الاحتفالات

---

(١) يطلق اسم ليانت على مضيق يصل خليج باتراس Patras بخليج كورنت Corinthe ، وليانت حالياً ثغر بحرى يونانى .

(٢) انظر وصفاً تفصيلياً لمعركة ليانت وخسائر الجانبين فى :
Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v, pp. 859—862.

(٣) Loc. Cit.

(٤) Loc.Cit.

(٥) كانت المعركة الثانية هى معركة الأرمادا البحرية عام ١٥٨٨ ، وقد استطاع فيها الأسطول البريطانى تحطيم الأسطول الإسبانى على الساحل الفرنسى قرب كاليه Calais

وأقيمت الزينات فى روما والبندقية وغيرهما .وكانت احتفالات البابوية فى روما بالغة الروعة ، فقد نظمت طبقاً للتقاليد الرومانية القديمة (١) . وتعد معركة ليبانت من أفدح الكوارث فى تاريخ البحرية العثمانية .

***

ذلك هو السلطان سليم الثانى غرس يد والدته الروسية روكسلانة ، فرضته فرضاً على الدولة ، بعد مؤامرة محكمة الحلقات متعددة الخطوات . نجحت فى حمل زوجها السلطان سليمان المشرع على إصدار أوامر متعاقبة بعزل ثم قتل إبراهيم باشا الصدر الأعظم ، وتزويج ابنتها من رستم باشا ثم تعيينه صدراً أعظم ، وقتل الأمير مصطفى ولى العهد ، وتعيين ابنها سليم فى هذا المنصب . وكان نجاحها فى تنفيذ هذه المؤامرة يعكس الأوضاع السياسية على أعلى المستويات فى الدولة ، ويجسد الدور البارز للحريم السلطانى كمركز قوة من أخطر مراكز القوى . وكان رائدها فى هذه المؤامرة تفضيل مصلحة ابنها على المصالح العليا للدولة . ويزيد فى خطورة هذه السيدة – كمركز قوة – أنها نفذت مؤامرتها على عهد زوجها السلطان سليمان المشرع الذى يقف فى الصف الأول من بين سلاطين الدولة العثمانية على امتداد تاريخها . ولو كان سليم الثانى شخصية قوية وعلى خلق لهان الأمر ، ولكنه كان من أسوأ السلاطين ويطلق عليه رامبو Rambaud المؤرخ الفرنسى وصفاً دقيقاً هو « التنبل »(٢) fainéant . ويجمع المؤرخون على أن حكم سليم الثانى كان البداية الحقيقية والفعلية لاضمحلال الدولة العثمانية (٣)، وأن الدور الخطير الذى قامت به روكسلانه فى هذا الأمر قد جلب الكوارث على مستقبل الدولة العثمانية (٤).

أربع سيدات كن دعائم الدولة :

سبق أن ذكرنا أن بعض المؤرخين شبهوا الدولة العثمانية إبان عصرها

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٧٥ – ٧٧٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٦٠٣

(٣) Grant A.J; A History etc., op. cit., p. 225.

(٤) Lavisse et Rambaud; op. cit., t. IV p. 761.

الذهبي الأول بخيمة كبيرة شدت إلى أربعة أوتاد ، وأن هذه الأوتاد الأربعة كانت بالنسبة للدولة بمثابة دعائم أربعة quatre supports ، وأن هذه التسمية مقتبسة من حياة المجتمعات فى المراعى التى عاش فيها أجداد العثمانيين فى سهول الإستبس فى آسيا قبل نزوحهم إلى الأناضول . وكانت هذه الدعائم تتمثل فى الوزراء ، ورؤساء القضاة ، والدفترداريين ، والنشانجية . ولكن تحولت هذه الدعائم الأربع على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤—١٥٩٥) إلى أربع سيدات ، هن :

أولا : والدة السلطان مراد الثالث ، ويطلق عليها المصطلح التاريخى « سلطانة والدة » ، وهى إحدى قادينات السلطان سليم الثانى . وكانت تسمى نور بانو Nour Bano ومعناها سيدة النور Dame de Lumière وكانت مركز قوة خطير فى الدولة ، وهى تشبه من هذه الناحية ملكة فرنسا الوالدة كاترين دى مدتشى ، وكانت معاصرة لها .

ثانياً : الزوجة الأولى للسلطان ، وبعبارة أكثر دقة الباش قادين أى كبيرة القادينات واسمها صفية . وهى من جمهورية البندقية ، وتنتمى إلى أسرة نبيلة مسيحية تسمى أسرة بافو Baffo ويطلق بعض المؤرخين عليها اسم أسرتها المسيحى فيقولون السلطانة بافو بدلا من صفية . وكان والدها حاكماً على جزيرة كورفو Corfou . وبينما كانت فى سفينة مع بعض السيدات النبيلات فى طريقها إلى والدها خطفها القراصنة . وكان عمرها وقتذاك أربعة عشر ربيعاً . وكانت على حظ موفور من الجمال . وقد بيعت وألحقت بالقصر السلطانى ودخلت الحريم كجارية . وسرعان ما تألق نجمها وجذبت انتباه السلطان وهام بعشقها ، فأعتقها وتزوجها وأنجب منها وارتفع مركزها من جارية إلى قادين ثم إلى باش قادين . ومما يذكر أنها — بعد أن غدت مركز قوة خطير ودعامة من الدعائم الأربع للدولة — عملت على أن توجه السياسة الخارجية للدولة العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأول ، وهو جمهورية البندقية . ويلوح أنها أرادت أن تكفر عن هذا الانحراف الخلقى والسياسى ، فتبنت عدة مشروعات خيرية دينية إسلامية . ولايزال يوجد فى

القاهرة مسجد يحمل اسمها خفاقاً ، وأوقفت عليه أوقافاً خيرية مدرة . وأقيمت فوق الباب الأوسط لقبة الجامع لوحة تذكارية هذا نصها : « أنشأت هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى « صاحبت » الخيرات الآدر الشريفة (١) والدة المرحوم مولانا السلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر الخواص المتقربين مولانا الناظر الشرعى على الوقف المذكور . وكان الفراغ من هذا البناء المذكور فى السابع والعشرين من شهر محرم الحرام من سنة تسع عشر وألف من الهجرة » (٢) . كما يوجد بدار الوثائق والكتب المصرية

(١) الآدر الشريفة يقصد بها الحريم السلطانى . والآدر أيضاً من ألقاب التشريف التى تستعمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من علية النساء دون ذكر أسمائهن . وهناك أيضاً مصطلح تاريخى هو آدر الضرب أى دور سك العملة . وآدر جمع دار .

انظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٨ .

(٢) يوافق هذا التاريخ الهجرى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل — نيسان — عام ١٦١٠ . ويقع هذا الجامع فى خط المدابغ .

وقد تضمنت حجة الوقف أن تصرف من ريع الأوقاف المرصودة مرتبات موظفى الجامع والمقرئين وأمين حفظ المصاحف الشريفة ، ومعمارى لترميم المسجد أو إصلاحه كلما دعت حالة المسجد إلى ذلك . كما تضمنت شروط الوقفية تعيين أربعة رجال للعناية بالبستان الذى يغطى الميدان الكبير المواجه للجامع . ويقوم اثنان منهم بغرس الأشجار والرياحين ، ويشترط فيهما أن يكونا على دراية بهذه الأعمال . ويقوم الاثنان الآخران بسق البستان ويشترط فيهما أن يكونا شديدى البنية .

وقد بنى هذا الجامع على غرار الجوامع العثمانية فى إستانبول . وهو ثالث جامع فى مصر يشيد على الطراز المعمارى العثمانى . أولها جامع سليمان باشا بالقلعة ، وثانيها جامع سنان باشا ببولاق ، وثالثها جامع صفية ، تليها أربعة جوامع هى جامع محمد بك أبى الذهب بجوار جامع الأزهر ، وجامع محمد على باشا بالقلعة ، وجامع الفتح بعابدين .

انظر :

Mme Devonshire R.L.; L'Egypt Musulmane et Les Fondateurs de ses Monuments. Paris, 1925, pp. 123—124.

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ص ٣٩ — ٤٠

حسن عبد الوهاب باشا : تاريخ المساجد الأثرية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٣٠٦ — ٣١١ ، ج ٢ ، ص ص ١٤٨ — ١٥٠ .

بالقاهرة مصحف شريف مجدول ومحلى بالذهب مكتوب عليه أنه « وقف المرحومة صفية أم السلطان محمد خان فى سنة ١٠٣٢ هـ (١)» (٢).

ثالثاً : أخت السلطان مراد الثالث والمسماة إسمات Esmat وكانت متزوجة من محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . ولذلك لحق باسمه لقب « داماد » ومعناه صهر . وأصبح اسمه يرد فى الوثائق مذكوراً على هذا النحو : داماد صوقلو محمد باشا .

رابعاً : سيدة عجوز تسمى جانفيد خاتون Djonféda - Khatoun كانت تقوم بعمل كايا Riaya وهى القيّمة على الجوارى فى القصور السلطانية وكان من بين اختصاصاتها تنظيم ليالى السلطانا وتوفير أسباب المتعة المشروعة وغير المشروعة .

الصراع بين والدة السلطان مراد الثالث والقادين صفية :

دار صراع خفى حيناً وسافر أحياناً بين نور بانو والدة السلطان مراد الثالث وبين القادين صفية . وكان هذا الصراع فى لحمته وسداه يدور حول مراكز القوى ، كل منها تريد أن تستأثر بها لنفسها . ولجأت السلطانة الوالدة إلى سلاح خطير ثبت أنه كان مدمراً لسمعة ابنها مراد وكفايته كسلطان يحكم دولة كبرى مترامية الأطراف . فأحاطت ابنها بعدد من الجوارى الفاتنات . وكان معروفاً عنه شغفه العميق بالنساء . وكانت هذه الهواية أضعف نقطة فى خلقه . واستهدفت السلطانة الوالدة من هذا الإجراء أن يخبو حب السلطان للقادين صفية أو ينصرف عنها ، وبذلك تكيد لها كيداً . واستهدفت السلطانة الوالدة أيضاً من هذا السلاح تحقيق مصالح شخصية لها تمثلت فى إخلاء الجو لها لتستأثر فى غفلة من السلطان بالنفوذ فى الحريم السلطانى وتسيطر على أجهزة الحكومة،وأهم من هذا كله ، وأخطر من هذا كله، لتوجه السياسة الخارجية للدولة لخدمة مصالح وطنها الأول وهو جمهورية البندقية .(٣)

(١) يوافق هذا العام الهجرى جزءاً من سنة ١٦٢٢ وشطراً من سنة ١٦٢٣ م .

(٢) دار الوثائق والكتب المصرية ، القاهرة . فهرس المصاحف الشريفة ، ج ١ ، ص ٢ .

(٣) Lavisse et Rambaud; op. cit. t.v, p. 846.

وقد تجاوز نفوذ الحريم السلطانى كل حد على عهد هذا السلطان — مراد الثالث — وإنتقلت أنباء نفوذهن فى الأجهزة الحكومية إلى الدول الأوروبية . وقد كتب دى جرمينى de Germigny السفير الفرنسى فى إستانبول مذكرة مؤرخة فى اليوم الثامن من شهر ديسمبر — كانون أول — عام ١٥٧٩ إلى وزارة الخارجية الفرنسية.وكان مما جاء فيها قوله إن سيدات الحريم السلطانى يقمن بدور كبير فى حكم الدولة ، وإن السلطانة الوالدة على قمة هذا الفريق من السيدات.فهى تسيطر على الباشوات ، وهى التى تشير بتعيينهم فى المناصب الرئيسية فى الدولة ، وهى التى تضفى عليهم الكثير من مظاهر الرعاية(١).

ولما توفيت السلطانة الوالدة ، نور بانو ، كان من المنتظر أن تخف وطأة مراكز القوى فى الحريم السلطانى . ولكن حدث أن السيدة العجوز المتخصصة فى تنظيم ليالى السلطان ، وهى چانفيدا خاتون ، تطلعت إلى شغل موقع السلطانة الوالدة الراحلة فتغدو هى الأخرى مركز قوة خطير . فسارت على نهجها ، وأكثرت من شراء عدد كبير من الجوارى الفاتنات وألحقتهن بالحريم السلطانى حتى قيل إن مشتريات القصر من هؤلاء الجوارى قد زادت زيادة لم يشهد لها القصر من قبل مثيلا . وأدى الإقبال الشديد على شرائهن إلى إرتفاع جنونى فى أسعار هذه السلعة الآدمية المتميزة بجمال الوجه ، ورشاقة الجسم ، وخفة الدم ، والحيوية المتدفقة . ومما ساعد على إطلاق يد هذه السيدة العجوز فى شراء عدد كبير للغاية من الجوارى الحسان أنه لم يكن للدولة فى ذلك الوقت ميزانية منظمة ، إذ لم يكن هناك تميز واضح بين مصروفات الدولة ومصروفات السلطان . وقد واجهت الحكومة المركزية فى إستانبول أزمة مالية خانقة على عهد السلطان مراد الثالث نتيجة إسراف الحريم السلطانى فى الإنفاق.وإضطرت الحكومة إلى سك عملة ناقصة المعيار ورفض الإنكشارية

— Grant A. J.; A History of Europe 1494—1610,. op. cit,, p. 225.

(١) نشر المؤرخ الفرنسى رامبو فقرات من هذا التقرير . أنظر :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v,p. 846.

تسلمها ، ولجأوا إلى سلاحهم التقليدى ، وهو إعلان التمرد العسكرى ، وقتلوا الدفتردار باشى ، ومحمد باشا بكلر بك الروميلى كما سبق أن ذكرنا .

ناقوس العثمانيين :

انعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة العثمانية فى أوروبا بوجه خاص. قامت مناوشات على حدود النمسا واشتعلت الحرب بين الدولة والمجر. وثارت ولايات الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا ، وانضمت إلى رودلف الثانى Rodolphe II ملك النمسا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وقد جاء الأخير بناقوس كبير وأمر بأن يدق ناقوس الخطر ثلاث مرات فى اليوم تذكيراً لرعاياه بضرورة حشد الجهود لمحاربة العثمانيين . ولذلك أطلق على هذا الناقوس « ناقوس الأتراك La Cloche des Turcs » وقد لقى العثمانيون الهزائم وانسحبوا من بعض المواقع الهامة . وفى الجبهة الشرقية اشتعلت الحرب التقليدية بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية بعد وفاة الشاه طهماسب الأول سنة ١٥٧٦ ووقوع اضطرابات داخلية . وتبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار فى حرب استمرت سنوات طوالا كثر خلالها تغيير القيادات العسكرية فى الجيش العثمانى نتيجة استفحال نفوذ الحريم السلطانى وتدخلهن فى تعيينات المناصب العسكرية الكبرى .

وفى تقدير أحد أعلام المؤرخين الفرنسيين ، وهو ألفريد رامبو Alfred Rambaud أن السلطان مراد الثالث يدخل فى زمرة السلاطين « التنابلة » Les Sultans Fainéants الذين حكموا الدولة ، وأن ترتيبه الثانى فى مجموعة هؤلاء السلاطين . أما السلطان الذى يحمل رقم ١ فى هذه المجموعة فهو والده السلطان سليم الثانى .

وفى رأى كوتشى بك الفيلسوف السياسى العثمانى أن الانحلال الخلقى والتدهور المالى فى الحكومة العثمانية إنما يبرزان بصورة صارخة إبان حكم السلطان مراد الثالث . وهو رأى صحيح إلى حد بعيد . وقد سجل هذا الرأى

فى المذكرة التى وضعها وعرفت باسم « الرسالة » وقدمها سنة ١٦٣٠ إلى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣–١٦٤٠) كما سبق أن ذكرنا .

ولما توفى السلطان مراد الثالث ارتقى العرش أكبر أولاده باسم محمد الثالث (١٥٩٥–١٦٠٣) وكانت والدته ، صفية ، لا تزال على قيد الحياة . وقد ذكرنا أن هذه السيدة كانت أصلا من جمهورية البندقية . ولذلك لحق باسم ابنها السلطان محمد الثالث لقب السلطان نصف البندقى أو نصف الڤنيسى Le Sultan demi—Vénetien وكان نفوذ السلطانة الوالدة عليه عظيما . وهكذا مارست نفوذاً واسعاً إبان حكم زوجها وحكم ابنها محمد الثالث. وتذكر بعض المراجع الفرنسية أن هذه السيدة كانت حريصة كل الحرص على استمرار نفوذها فى شتى أجهزة الحكومة بعد وفاة زوجها مراد الثالث . فلما تولى ابنها العرش أصدرت أوامرها لجهة الاختصاص فى الحريم السلطانى بتقديم الجوارى الفاتنات واحدة بعد أخرى لإبنها السلطان(١) ، لأنها كانت تعرف نقطة الضعف فى ابنها ، وهى شغفه الزائد بالجميلات الفاتنات، وأنه جاء على شاكلة أبيه مفتوناً بالنساء الحسان ، فعملت على إنماء بل وإشعال الغريزة الجنسية فى ابنها. ونجحت السلطانة الوالدة فى مخططها، إذ انصرف الإبن للنسائيات مطلقاً العنان لشهواته ، وترك لوالدته تصريف شئون الدولة واستمرت مركز قوة وظلت تتبوأ مكاناً علياً وتسيطر على شئون الدولة حتى. إذا توفى ابنها عام ١٦٠٣ وخلفه على العرش ابنه باسم أحمد الأول (١٦٠٣– ١٦١٧) كان فى مقدمة تصرفاته تجريد جدته العجوز من كل نفوذ . فأمر بحبسها فى السراى القديم ومنع اتصال أحد بها كما أبعد خلصاءها. ولكن شهد حكمه انتشار الفتن والاضطرابات فى شتى أنحاء الدولة وبوجه خاص فى أوروبا وفى آسيا .

السلطان ابراهيم الأول المعتوه :

وجدت سيدات الحريم السلطانى فى ارتقاء إبراهيم الأول (١٦٤٠– ١٦٤٨) عرش الدولة فرصة ذهبية لتحقيق مزيد من النفوذ كمركز قوة ،

---

(١) Lavallée; Histoire de la Turquie t. II,pp. 31—36.

فاذا لم يستطعن بلوغ هذه الغاية ، فلا أقل من الحفاظ على نفوذهن وسطوتهن وبقائهن مركز قوة . كان هذا السلطان هو آخر أبناء السلطان أحمد الأول ، وأخ كل من السلطان عثمان الثانى ، والسلطان مراد الرابع . واشتهر باسم السلطان إبراهيم المجنون . كانت تصرفاته شاذة تدعو إلى السخرية ، وتجعله أدنى إلى المصابين بأمراض عقلية منه إلى الأصحاء .

السلطان يرصع لحيته باللؤلؤ :

كان لإبراهيم غرام شديد بتزيين لحيته بطريقة غريبة وشاذة . كان يضع فى شعر لحيته ، عند جذور الشعر ، أسلاكاً رفيعة يخفيها شعر لحيته الكثيف عن الأعين . وكان بعض هذه الأسلاك من الذهب الخالص ، والبعض الآخر من الفضة الخالصة ، ثم يثبت تثبيتاً محكماً فى هذه الأسلاك فصوصاً من اللؤلؤ . ويفسر الباحثون هذا التصرف تفسيرات شتى . فيرى بعضهم أن السلطان كان يعتقد أنه بهذه اللآلىء يبدو جميلا مهيباً أمام ناظريه وبخاصة النساء ، فيزددن هياماً به وتقديراً له . وكان معروفاً عنه أنه يميل إلى السيدات ميلا عظيما ويرى البعض الثانى من الباحثين أنه كان يتزين باللؤلؤ فى لحيته لسبب آخر هو أنه كان يميل إلى محاكاة النساء ، إذ كان متخنثاً ، ويستندون إلى أن إبراهيم كان أكثر السلاطين تخنثاً . وقد نسى هذا البعض أن النساء لا يضعن اللؤلؤ على أذقانهن أو أصداغهن أو خدودهن ! ! . ويرى فريق ثالث أن هذا التصرف من جانب السلطان إبراهيم إنما ينم عن خبل أو اضطراب أو ضعف فى قواه العقلية . والرأى الأخير هو الأرجح ، وبخاصة أنه اشتهر بلقب المجنون لهذا التصرف وتصرفات شاذة أخرى ، نشير إليها تباعاً . وأنه بسبب هذه التصرفات صدرت فتوى من شيخ الإسلام بعدم صلاحيته للحكم وتم عزله .

صور أخرى من شذوذ السلطان ابراهيم المجنون :

كان السلطان إبراهيم يوعز لبعض المقربين إليه بكسر أبواب محلات بيع المجوهرات لنهب ما فيها . ولم تكن عمليات النهب مقصورة على المحال التى يمتلكها رعايا الدولة ، بل كانت تمتد إلى محلات الأوروبيين الذين يشتغلون

فى تجارة المجوهرات .ولم يأبه باحتجاجات سفراء الدول الأجنبية على هذه العمليات الإجرامية . فالمهم لديه أن يحصل على كميات وفيرة من اللؤلؤ يرصع بها لحيته ويغير أوضاعها فى كل يوم . وكان يستخدم حبات الكهرمان فى تزيين سفرته . وفى إحدى المرات أراد أن يغطى جدران القصر السلطانى بالفراء السمور . وبحجة تنفيذ هذه الرغبة استحدث ضريبة تغطى حصيلتها أثمان الفراء وتكاليف شحنها من الروسيا ، وسميت ضريبة الفراء taxe de fourrures كما استحدث ضريبة الكهرمان taxe d'ambre .

والدة السلطان تدفع ابنها فى طريق الغواية :

استحوذت الجوارى الحسناوات على عقله وتفكيره ووقته . وقامت والدته السلطانة كوزم [1] Koezem بدور كبير فى دفعه فى هذا الطريق . وكانت حياته الخاصة مليئة بالقاذورات . وقد فاق هذا السلطان فى الفسق والفجور والانحلال الخلقى السلطان مراد الثالث . زين له الشيطان أن يعتدى على زوجات بعض رجال الدولة . وآثر الأخيرون ترك مناصبهم والهجرة من إستانبول إلى الحجاز ليقضوا بقية أعمارهم متنقلين بين الكعبة الشريفة فى المسجد الحرام بمكة المكرمة وبين المسجد النبوى فى المدينة المنورة . ووقعت سفينة كانت تقل بعضهم فى أيدى فرسان القديس يوحنا — كان مقرهم وقتذاك فى جزيرة مالطة — فقتلوا الرجال وسبوا النساء وحولوا الأطفال إلى المسيحية. دربوهم ليكونوا فى زمرة هؤلاء الفرسان جنوداً من جنود المسيح عليه السلام يحاربون ويقتلون ويأسرون المسلمين فى أعالى البحار .

تصاعد نفوذ مراكز القوى فى الحريم السلطانى :

تفرغ السلطان ابراهيم للنسائيات وترك والدته والقادينات يتصرفن فى شئون الدولة . ويقول المؤرخ الفرنسى رامبو إنه لم يحدث من قبل أن حكمت سيدات الحريم السلطانى الدولة العثمانية بمثل هذا الشمول والتغلغل فى أجهزة الحكومة كما حكمتها سيدات الحريم على عهد ابراهيم المجنون . وبلغت والدته

---

(١) كان اسمها كوزم ماهبيكر Koezem Mahpeiker.

بالثروة في مراكز القوى في الدولة . طلبت من ابنها قتل قره مصطفى باشا الصدر الأعظم،واستجاب السلطان لطلب والدته عام ١٦٤٣ ، ولم تشفع للصدر الأعظم بسالته في محاربة الدولة الصفوية . وكان المأخذ الوحيد عليه أن والدة السلطان كانت تشعر نحوه بكراهية . وامتثالا لأمرها أقدم السلطان على قتل يوسف باشا قائد الحملة على جزيرة كريت بحجة أنه لم يقدم النصيب الأوفى من غنائم الحرب للسلطان ووالدته(١). وازداد خبل السلطان فمضى يقتل الصدور العظام الواحد بعد الآخر . فأمر بقتل صالح باشا الصدر الأعظم سنة ١٦٤٧ لأنه رأى عربة نقل بضائع تقف في أحد الشوارع التي مر منها

---

(١) كان الإسلام قد نزع أول الأمر ملكية غنائم الحرب التي يستولى عليها المقاتلون المسلمون في المعارك ، ورد هذه الغنائم، إلى الله والرسول ، ليجرد المسلمين من الأطماع ويسلموا أمرهم كله لله ربهم وللرسول صلوات الله وسلامه عليه إمامهم . وبذلك يخوض المجاهدون المعارك لله وفي سبيل الله وتحت راية الإسلام ولطاعة الله . وقد جاء هذا الحكم الإلهي في أول سورة الأنفال « يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

حتى إذا اطمأنت نفوس المسلمين واستقر في أذهانهم أنهم لا يملكون الغنائم ابتداء ولايملكونها بحق الغزو ، عاد الإسلام في ذات السورة ليرد عليهم أربعة أخماس الغنائم ويستبق الخمس على الأصل لله والرسول ولمن يعولهم الرسول والجماعة الإسلامية من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . قال تعالى في الآية رقم ٤٢ « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .

ويلاحظ أن :

١ — الأنفال جمع نفل على وزن سبب وأسباب وهي الغنيمة . ومنها : إن تقوى الله هي خير نفل ، أي خير غنيمة .

٢ — وأصلحوا ذات بينكم أي المشكلات التي بينكم بخصوص توزيع غنائم الحرب في معركة بدر .

٣ — يوم الفرقان يوم معركة بدر . وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، أو فرقاناً بين عهدين في تاريخ الدعوة الإسلامية : عهد الصبر والانتصار والتجمع ، وعهد القوة والاندفاع والمبادأة .

ولكن السلطان ابراهيم الأول لم يقبل أن يستولى على الغنائم طبقاً للنسبة التي قررتها الشريعة الإسلامية وأراد أن يحصل على غنائم تتجاوز الخمس .

انظر بخصوص موقف هذا السلطان :

Gibb Hamiltom and Harold Bowen; op. cit,, Vol. 1 Part 1. p. 178.

الموكب السلطانى . واعتزم مرتين قتل جميع المسيحيين فى إستانبول لولا أن وقف فى وجهه أسعد زاده أبو سعيد أفندى شيخ الإسلام وحذره من مغبة هذا الإجراء . وأدرك محمد زاده باشا الصدر الأعظم أنه يشعر باستحالة ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات مجموعة من الجوارى الحسان الروسيات والبولنديات والمجريات والفرنسيات . وقال إنهن لا يفكرن إلا فى أنفسهن ، ولا يقدرن المسئولية ، وإن الدولة على وشك الانهيار . وقد أسر بهذا الحديث إلى أحد أصدقائه.. وانعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة . فهاجم القوزاق سواحل البحر الأسود . وأغارت جمهورية البندقية على البوسنة ودلماشيا وجزر بيلوبونيز Péloponése أما الموقف الداخلى فقد ازداد تدهوراً ، إذ استمر السلطان فى مجونه وفسقه . وغدا ألعوبة فى أيدى محظياته. وكان له من بين أصفيائه أحد علماء الدين ، واسمه جنجى خوجه حسين ، كانت بضاعته من العلم قليلة ، وكان سيء السيرة ، استغل نوبات الإغماء التى كانت تعترى السلطان وعالجه بطلسمات سحرية حتى استطاع أن يسيطر عليه سيطرة تامة . واستنفدت شهوات ابراهيم ومطالب الحريم وأهواء رجال البلاط الموارد المالية للدولة . وزيدت فئات الضرائب المقررة واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات الترف الجنونى فى القصر . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى قيام ثورة عاون فيها علماء الدين وعلى رأسهم شيخ الإسلام أبو سعيد.ولجأت الفيالق الإنكشارية إلى حركة تمرد . وكان الصدر الأعظم ،هزار پاره أحمد، أول ضحايا الثورة التى أدت إلى عزل هذا السلطان عام ١٦٤٨ والمناداة بابنه محمد سلطاناً باسم محمد الرابع ،وكان لايزال صبياً، له من العمر سبع سنوات (١) . أما والده المعزول فقد تم نقله إلى « چيلى كوشك » أى القصر الصينى حيث شنق فى اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس — آب — عام ١٦٤٨ بعد أن قضى عشرة أيام فى موقعه الجديد والأخير قبل أن يضم القبر هذا السلطان الذى باع نفسه للشيطان .

---

(١) Lavisse et Ramboaud; op. cit. t.v, pp. 854—855.

الصراع على مراكز القوة بين والدة السلطان وجدته لأبيه :

أجلس على عرش الدولة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨–١٦٨٧) . وكان من الطبيعى أن يدور صراع سافر وعنيف فى الحريم السلطانى على مركز القوة فى حكم سلطان يبلغ من العمر سبع سنوات . وتنافست سيدتان تبغى كل منها أن تستأثر بالنفوذ الأعلى . كانت إحداهما جدته لأبيه وهى سيدة يونانية الأصل عجوز اسمها كوزم ماهبيكر Koezem Mahpeiker ، وكانت الأخرى والدته ، وهى سيدة روسية الأصل ، لا تزال فى ميعة الصبا ونضارة الشباب ، عرفت باسم السلطانة الوالدة طرخانة Turkhane واشتدت حدة التنافس بين الاثنتين . ولم تأخذ الجدة العجوز بنصائح وتوجيهات العقلاء من أعلام السياسة والفكر فى الدولة.واتجهت إلى زعماء الحركة التى قامت عام ١٦٤٨ وأسفرت عن عزل وقتل السلطان إبراهيم المجنون . وتآمرت مع الإنكشارية على قتل منافستها السلطانة الوالدة طرخانة . وفى الليلة المحددة لتنفيذ المؤامرة فتحت أبواب القصر السلطانى وأبواب جناح طرخانة ليسهل على الإنكشارية التسلل إلى مخدعها . وشعر الحرس بحركات مريبة وكان الأغوات الخصيان يكنون ولاء عميقاً للسلطانة الوالدة . ودوت فى أرجاء القصر نوبة الخطر فى سكون الليل،وفزع الحرس إلى أسلحتهم وأغلقوا جميع الأبواب ، واتخذ الجميع أماكنهم على أهبة الاستعداد لقتل كل من تحدثه نفسه بالاقتراب من القصر . وتوجهت فرقة من الحرس إلى جناح السيدة العجوز جدة السلطان واندفع أفرادها إلى مخدعها ، فوجدوها مختفية فى دولاب الملابس بحجرة نومها ، ولم تكد أعينهم تقع عليها حتى ذبحوها . وعلى الرغم من انفراد السلطانة الوالدة طرخانة بعد هذا الحادث الذى وقع فى عام ١٦٥١ ، استمرت شئون الدولة فى التدهور واستشرى نفوذ مراكز القوى فيها : علا نفوذ الأغوات الخصيان فى دوائر الحكومة ، وتصاعد نفوذ الحريم السلطانى ، وطغى العسكريون وبخاصة الإنكشارية وملأوا البلاد فساداً ونهباً . وتعاقب على منصب الصدارة العظمى حتى عام ١٦٥٦ ثمانية صدور عظام أعدم معظمهم نتيجة دسائس الحريم السلطانى وطغيان الإنكشارية .

إحدى مراكز القوى فى الحريم السلطانى : يونانية تتعطر بورد الربيع :

كان السلطان محمد الرابع قد شب عن الطوق واستطال حكمه زهاء أربعين عاماً ، وأصبح له قادينات ، وفى مقدمتهن باش قادين أو خاصكى سلطانة ، أطلق عليها ربيعة جولمش Rabia Gulmish ومعناها السيدة التى تتعطر بخلاصة عطر ورد الربيع ، أو التى لا تروى عطشها إلا بماء ورد الربيع . وكانت جارية يونانية الأصل، يميل لون بشرتها إلى السمرة الخفيفة، ولكنها كانت ذات جمال ودلال وجاذبية . وسرعان ما اشتعل الصراع التقليدى على مراكز القوى فى الحريم السلطانى بين السلطانة الوالدة والخاصكى سلطانة . وكان السلطان يستجيب لرغبات الأخيرة ، ويستمع لتوجيهاتها وخبا نفوذ السلطانة الوالدة طرخانة التى تفرغت إلى تنشئة ولديها سليمان وأحمد . وكانا يليان أخاهما السلطان فى السن . وكانت طرخانة تعدهما لارتقاء العرش بعد أخيهما .

ولم يشترك السلطان فى أى حرب خاضتها الدولة على عهده . وفى إحدى المرات التى كان الجيش يتأهب فيها للتحرك إلى ميدان القتال أعلن محمد الرابع عن عزمه على قيادة الجيش وخرج فعلا مع الجيش راكباً حصانه . ولما وصلت القوات العثمانية إلى أدرنه توقفت قليلا ، ونزل السلطان من حصانه ، وسلم البيرق النبوى إلى الصدر الأعظم وعلق على عمته خصلة من الريش رمزاً لشجاعته، وقال له إنه سيدعو الله كى ينصر الجيش . وقفل السلطان راجعاً إلى قصره حيث استدعى إليه كبار المنجمين ليخبروه عن نتيجة الحرب التى سيخوضها الجيش ، وهل ستكون انتصاراً أو هزيمة .

هذه الشجاعة المزعومة التى تخلت عنه أو تخلى هو عنها وهو يسير مع الجيش إلى إحدى الجبهات الحربية كانت تعاوده من وقت لآخر حين شرع أكثر من مرة فى قتل أخويه سليمان وأحمد ، كى يفسح الطريق أمام ولديه ليحكما بعده مباشرة . وكان على أفندى شيخ الإسلام يحول بينه وبين ما كان يشتهيه . وفى إحدى المرات لما سجا الليل تسلل إلى مخدع أخويه وفى يده سيف

مسلول يريد قتلها. وتصدت له والدته واستطاعت أن تنزع السيف من يده . وقد وقع هذا الحادث فى عام ١٦٦٩ (١).

وقع اختيار مراكز القوى على رجل يسمى جوردج Gourdj لشغل منصب الصدر الأعظم . وكان يبلغ من العمر مائة عام وكأن الدولة قد أصيبت بالعقم فى الرجال ، فلم تجد مراكز القوى خيراً منه . ولكنها كانت فى الحقيقة تهدف إلى اتخاذه ألعوبة فى يدها تتخذ عن طريقه ما تشاء من قرارات . كان هذا الرجل ضعيف الذاكرة ، بطىء التفكير ، وهن العظم منه ، واشتعلت لحيته شيباً . وكان فى مناقشاته يشير إليها ويمسكها بيمينه . وكانت السلطانة الوالدة طرخانة تراقب من وراء ستار مناقشاته فى أثناء رياسته للديوان الهمايونى. وفى إحدى المرات فقدت أعصابها وصاحت قائلة « يا أبى إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو شعر أسود . إن المسألة أعمق من ذلك بكثير . إنها تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السديدة » .

رئيس الخصيان السود يقدم للسلطانة الوالدة أحد الصدور العظام :

ولما تزايدت الأخطار وأحدقت بالدولة من يمين ويسار، رأت السلطانة الوالدة طرخانة أن تعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى رجل ذى بأس شديد هو محمد باشا كوبريلى وهو ينتمى إلى أسرة كوبريلى الألبانية . وقد أحضره إليها فى الخفاء رئيس الخصيان السود فى الحريم السلطانى . واشترط محمد كوبريلى عدة شروط لقبول هذا المنصب ، منها : إطلاق يده فى اختيار العناصر الصالحة لشغل المناصب الحكومية ، ومنحه سلطات واسعة للضرب على أيدى أصحاب مراكز القوى فى الدولة ، وسحق المؤامرات التى قد تدبرها

---

(١) تولى كلاهما الحكم بعد أخيهما . وتراوحت مدة حكم كل منهما بين أربع وخمس سنوات . فحكم سليمان الثانى من عام ١٦٨٧ حتى توفى سنة ١٦٩١، وخلفه أخوه أحمد الثانى (١٦٩١-١٦٩٥) وقد أظهر الأول ضعفاً شديداً أمام التمرد العسكرى الذى قام به الإنكشارية واقتحموا دار سياوس باشا الصدر الأعظم وقتلوه واعتدوا اعتداء منكراً على حريمه . أما السلطان أحمد الثانى فكان خاملا وانحصرت هوايته فى الشعر والموسيقى مع ميل إلى التصوف . واحتلت جمهورية البندقية جزيرة ساقز سنة ١٦٩٤ وخسرت الدولة مصطفى كوبريلى باشا الصدر الأعظم وخلفه فى منصبه عربه جى باشا وكان خاملا ضعيفا وعلا نفوذ الحريم السلطانى .

البعض ، وعدم الاستماع إلى الوشايات التى قد يروجها المرجفون ابتغاء النيل من تصرفاته أو سمعته ، وغير ذلك من شروط وافقت السلطانة الوالدة عليها وعلى غيرها ، وتقلد منصبه فى عام ١٦٥٦ ونستخلص من هذا التعين حقيقة هامة هى أن أحد الصدور العظام الذين تركوا بصمات قوية فى تاريخ الدولة قد وصل إلى منصبه عن طريق رئيس الخصيان السود والحريم السلطانى . وتدل هذه الحقيقة بدورها على عظم نفوذ هاتين القوتين : الخصيان وأغواتهم ، والحريم السلطانى ، كمركزين من مراكز القوى فى الدولة .

ولم يكن السلطان محمد الرابع ذا مواهب ممتازة ، وكان مستوى تفكيره عادياً للغاية وشخصيته مهتزة . اهتم بتجديد الأوامر الصادرة بحظر تناول الخمور ، أو شرب القهوة ، أو التدخين . وكأن الدولة قد فرغت من مشكلاتها الداخلية والخارجية التى كانت تحيط بها . وكانت هوايته الرئيسية صيد البر . وقد بدد فى هذه الهواية وقته وجهده ، وشغل أجهزة الحكومة بتشديد الحراسة عليه ، إذ كان لا يحلو له الصيد إلا فى الأقاليم العثمانية الأوروبية تاركاً تصريف الأمور لمركز من أقوى مراكز القوى فى الدولة : الحريم السلطانى : جدته ، ثم والدته ، ثم زوجه . واستراح لحكم مجموعة من الصدور العظام كانت غالبيتهم ألعوبة فى أيدى الحريم السلطانى وأغوات الخصيان . ولم يشذ عنهم سوى آل كوبريلى .

وكان السلطان أحمد الثانى (١٦٩١-١٦٩٥) ، وهو ابن السلطان ابراهيم المعتوه ، على غرار من سبقوه . كان مسرفاً فى الشراب ضعيف الشخصية تسيطر عليه حاشية تحركه كيف شاءت . وكان سوداوى المزاج ، أكثر من عزل الصدور العظام . ووقعت على عهده اضطرابات فى الحجاز والعراق . وفقدت الدولة بعض ممتلكاتها فى أوروبا . ولقيت الجيوش العثمانية الهزائم فى معظم المعارك التى خاضتها ضد النمسا والبندقية وسيطر البنادقة على جزيرة خيوس الهامة ، وكابلا من أعمال دلماشيا . ولم تكن الجيوش العثمانية أكثر توفيقاً فى بولندا منها فى دلماشيا .

ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد أيضاً السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-

١٧٣٠) وهو إبن السلطان محمد الرابع . استطال حكمه زهاء ثمانية وعشرين عاماً . وفى الفترة الأولى من حكمه (١٧٠٣–١٧١٨) عين ما لا يقل عن ثلاثة عشر صدراً أعظم . ولكنه لم يكن حكيماً فى اختيارهم أو بارعاً فى توجيههم توجيهاً سليما ، فلم يستعن بهم فى القضاء على نفوذ مراكز القوى فى الدولة مثل الحريم السلطانى والخصيان أو الإنكشارية ،إذ لم يكن هو نفسه قدوة طيبة . فقد كان يميل إلى حياة المجون والفسق مع الجوارى الحسان فى القصر الجديد ، ولأنه أحاط نفسه بمركزين من مراكز القوى وهما السلطانة الوالدة ، ورئيس الخصيان السود . واتخذ له صفياً زوجه ابنته وعينه صدراً أعظم سنة ١٧١٣ وعرف باسم سلحدار داماد على باشا . وكان هذا السلطان يجمع بين المتناقضات . ازدهر حكمه وانتصر على بطرس الأكبر قيصر الروسيا ، وهو الانتصار الذى قلل من حجمه خيانة بلطجى محمد باشا الصدر الأعظم كما سبق أن ذكرنا . وجدد تجديداً شاملا السلاح البحرى ، ونفذ لأول مرة مشروع بناء السفن الحربية من ذوات الطبقات الأربع . وشهد عهده أيضاً توسعاً موقوتاً للحكم العثمانى فى مناطق واسعة من غربى فارس . ولكن تضافرت عدة عوامل أثارت سخط الشعب على السلطان أحمد الثالث. كان من بينها حياة الترف التى عاشها البلاط بكافة هيئاته ، والأخذ بالأساليب الأوروبية الحديثة فى الحياة العامة وتدهور مالية الدولة ، وانتشار المحسوبية . وأخيراً قام الإنكشارية بحركة تمرد عسكرى احتجاجاً على محاولة السلطان إدخال الأنظمة الحديثة فى الجيش . وطالبوا بقتل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقبودان باشا . وأظهر السلطان ضعفاً شديداً فى مواجهة العصيان العسكرى ، ووافق على قتل الأول والثالث فقتلها الإنكشارية وألقوا بجثتيهما فى البحر على الرغم من أن الصدر الأعظم الذى وافق السلطان على أن يقتله الإنكشارية كان صفياً له وصهراً له بسبب زواجه من ابنة السلطان — فاطمة سلطان — التى كانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، كما كانت من قبل زوجة سلحدار على باشا بالإسم . وكان اسم هذا الصدر الأعظم الذى ضحى به السلطان إرضاء للإنكشارية هو : نوشهرلى داماد ابراهيم باشا . ولم تمنع استجابة السلطان لطلباتهم من التطاول عليه ، وجرأهم تساهله معهم على المطالبة

بعزله من العرش . ووافق السلطان واشترط تأمين حياته وحياة أبنائه . وتم عزله فى أول أكتوبر – تشرين أول – عام ١٧٣٠ ، وخلفه ابن أخيه محمود الأول . أما السلطان أحمد الثالث فقد بقى فى العزلة التى فرضت عليه حتى وافاه أجله المحتوم فى عام ١٧٣٦ . ومما يذكر أنه على الرغم من الحروب التى خاضتها الدولة على عهد أحمد الثالث فى الجبهات الأوروبية والآسيوية، لم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحات القتال ، وقنع أو لعله ارتاح لقضاء وقته مع سيدات الحريم السلطانى .

والحق أن هاتين القوتين – الحريم السلطانى ، والخصيان البيض والسود يكملان بعضها البعض فى مجالات مراكز القوى فى الدولة بحيث يصعب الفصل بينها . ولا يمكن دراسة موضوع الحريم السلطانى دون استكماله بدراسة موجزة لموضوع الخصيان . فقد كانوا اليد اليمنى والطولى لسيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى ، وأسهموا إسهاماً كبيراً فى تصعيد نفوذ الحريم السلطانى .

***

الفصل الثانى والعشرون

مراكز القوى فى الدولة (٦)

الخصيان وأغواتهم

الخصاء الجزئى والخصاء الكلى :

يقصد بالخصيان فى هذه الدراسة طائفة من العبيد ــ بيض وسود ــ كانت الدولة تحصل عليهم من عدة روافد، وتلحقهم بخدمة الحريم السلطانى فى القصور السلطانية . وقبل أن يباشروا أعمالهم كانت الدولة تعهد إلى بعض غير المسلمين بإجراء عمليات جراحية لهم . وكانت هذه الجراحات على نوعين : النوع الأول ويطلق عليه الخصاء الجزئى La Castration Partielle ، وفى هذه العمليات تستأصل من أجسامهم أو تستل منها الخصيتان . والنوع الثانى ويطلق عليه الخصاء الكامل La Castration Complète ، إذ كان يستأصل إلى جانب الخصيتين عضو التناسل . وكان يلحق بالعبد اسم الخصى(١) سواء أجريت له عملية الخصاء الجزئى أو الخصاء الكامل . وكان الهدف من هذه العمليات هو القضاء تماماً على المقدرة الجنسية لدى أولئك العبيد ، وبذلك يكون ولى الأمر ــ وهو السلطان فى هذه الدراسة ــ مطمئناً الاطمئنان الكامل إلى سلوك أولئك الخصيان عندما يختلطون فى أجنحة الحريم بزوجات السلطان وجواريه وأميرات الأسرة العثمانية الحاكمة . وكان هناك تمايز بين العبد الذى تجرى له عملية الخصاء الكامل والعبد الذى تجرى له عملية الخصاء الجزئى . فالأول كان يؤدى شتى أعمال الخدمة الداخلية للسيدات فى أدب جم وتفان بالغ ابتغاء الظفر بمرضاتهن . وكانت الخدمات الداخلية على الرغم من تنوعها وحساسيتها توزع على هذا الفريق من الخصيان . والمثك كانوا على اتصال

(١) جمعها خصيان بكسر الخاء وسكون الصاد .

دائم ووثيق بهؤلاء السيدات مما أتاح لهم عديد الفرص لمزيد من النفوذ والجاه .
أما الخصى الذى تجرى له عملية الخصاء الجزئى فيكون عمله مقصوراً على الخدمة الخارجية وعلى حراسة أجنحة الحريم . وتكون مرتبته أدنى من مرتبة زميله الذى أجريت له عملية الخصاء الكامل . ولكنه لم يكن يقل عن زميله أدباً وخلقاً وإخلاصاً وتفانياً فى العمل .

وكانت تظهر تغيرات جسمية ونفسية على أفراد هاتين الطائفتين من الخصيان فتغدو قامتهم طويلة أكثر من الطول الطبيعى لأجسامهم ، وكذلك أصابع أيديهم . وتميل قامتهم إلى الإنحناء عند الكتفين ، وتتدلى شفاههم السفلى ، وتتأثر قوة الإبصار لديهم .

وكان شعورهم بفقدانهم القدرة الجنسية يترك آثاراً عميقة فى نفوسهم . وينطوون على أنفسهم فى أوقات الفراغ أو الراحة ويحاولون فى ذات الوقت تعويض هذا النقص بنوع من الجبروت والتحكم والعتو يسيطر عليهم إذا تولوا منصباً ذا نفوذ . ومن هنا كان لهم ولرؤسائهم نفوذ كبير فى دوائر القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة على السواء كما سنرى بعد حين .

ألقاب الخصيان :

وكان يطلق على العبد الخصى فى تاريخ الدولة أحد لقبين : أولهما طواشى (١) وثانيهما أغا (٢) . وكان يطلق على الخصيان السود فى القصور السلطانية قرة أغالر (٣) . ويطلق على زملائهم الخصيان البيض قبو أغا (٤) . ويلاحظ أن

(١) طواشى جمعها طواشية . ويجمعها الجبرتى « طواشيون » . وهى غير كلمة طواش بفتح الطاء وتشديدها ، وهى شائعة الاستخدام فى دول الخليج العربية ، ومعناها تاجر اللؤلؤ وجمعها طواويش أو طواشون . أما الطواشة فمعناها تجارة اللؤلؤ . ويتردد الطواشون على البحرين والكويت وقطر والأحساء وعمان لممارسة نشاطهم فى تجارة اللؤلؤ .
أنظر :
سيف مرزوق الشملان : تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى . الكويت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ص ٢٨٠ — ٢٨٦ .
(٢) أغا جمعها أغوات
(٣) قره فى اللغة التركية معناها أسود ، أى الأغوات السود .
(٤) قبو فى اللغة التركية تعنى باباً أو بوابة ، أى أغوات البوابة أو أغوات الباب .

لقب أغا كان يطلق على أفراد فئات كثيرة من موظفى الدولة فى شتى مراحل تاريخها. وكان هذا اللقب يلحق بوجه خاص بأسماء شاغلى المناصب العسكرية(١)

الإسلام والرق :

وقبل أن نمضى فى الكلام عن العبيد الخصيان ودورهم فى تاريخ الدولة كمركز قوة ، نلم إلماماً سريعاً بموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، لأن الخصيان كانوا أولا وقبل كل شىء رقيقاً ، ثم أجريت لهم إحدى عمليتى الخصاء . فالرق بالنسبة لهم كان الأصل أو الأساس الذى وجه حياتهم وجهة معينة . أما الخصاء فقد لحق بهم بعد استرقاقهم .

لما جاء الإسلام وجد الرق نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متغلغلا فى حياة المجتمعات فى معظم أنحاء العالم فى ذلك الوقت . وكان موقف الإسلام من الرق واضحاً كل الوضوح . فقد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب. وعلى عادة الإسلام أخذ المجتمعات فى هوادة لنبذ نظام الرق ، فعمل على الترغيب فى تحرير الرقيق فى صورة سلمية وهادئة ، وأتاح للمجتمعات فرصة الانتقال كى تتخلص شيئاً فشيئاً من هذا النظام . فعمد إلى طائفة من الجرائم والأخطاء التى يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، مثل كفارة القتل الخطأ وما فى حكمه . قال الله سبحانه وتعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً

---

(١) كان يطلق على قائد الفيالق الإنكشارية يكى جرى أغاسى أى أغا الإنكشارية . وكانت له أسبقيه على جميع ضباط الجيش العثمانى وعلى وزراء الدولة . وبعد أن ألغى السلطان محمود الثانى نظام الإنكشارية كانت تطلق كلمة أغا على الضباط الأميين حتى رتبة قائمقام (عقيد) . أما الضباط المتعلمون خريجو المدارس العسكرية فكان يطلق عليهم « أفندى » تمييزاً لهم عن الضباط الأميين . وكانت كلمة أفندى تطلق على المدنيين المتعلمين من أرباب القلم . وكانت توجد حتى سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى رتبة عسكرية بين اليوزباشى (النقيب) والبكباشى (المقدم) تسمى قول أغاسى ، أى قائد جناح أى صاغ (رائد)

انظر :

Bowen Harold; Encycl. of Islam. Art. Agha. Eunuques.

ويطلق على الخصيان فى اللغة الفرنسية Eunuques وفى اللغة الإنجليزية Eunuches والكلمتان الأخيرتان مشتقتان من اللفظة اليونانية Eunonchos بمعنى حارس غرفة نوم أو حارس فى منطقة داخلية تقيم فيها سيدات .

إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ؛ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . . . »(١). وجعل الإسلام تحرير الرقيق كفارة للحنث فى اليمين . قال تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . (٢) وجعل الإسلام تحرير الرقيق أيضاً كفارة إذا أوقع الزوج على زوجته ظهاراً ثم عاد فى ظهاره (٣) . قال تعالى علواً كبيراً « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير » (٤).

وقرر الإسلام للرقيق حقه كاملا فى العتق والتحرر فى نظير مبلغ يؤديه لسيده مؤجلا ويتفق معه على مقداره . وهذا الاتفاق الذى يتم بينهما يسمى فى الشريعة « المكاتبة »(٥) ومنذ أن تتم المكاتبة يملك العبد حرية العمل وحرية الكسب ويعود إليه أجر عمله . وفرض الله على السيد أن يستحط جزءاً من المبلغ مساعدة للعبد على جمع المبلغ الذى كوتب عليه . قال سبحانه وتعالى

(١) سورة النساء ، آية رقم ٩٢ . (٢) سورة المائدة ، آية رقم ٨٩ .

(٣) كان من عادة العرب أنه إذا غضب الزوج من زوجته قال لها « أنت على كظهر أمى » فتصبح محرمة عليه . وهذا هو الظهار . وهو ممقوت شرعاً ، وقول منكر وزور بنص الآية الكريمة ، لأن الأم هى التى أنجبت الرجل ، والزوجة هى التى يتزوجها الرجل ، ولا يصح أن يجعل الرجل الزوجة محرمة عليه كأمه أبدا بمثل هذا القول الباطل .

(٤) سورة المجادلة ، الآيتان رقم ٢ ورقم ٣ .

(٥) كانت تتم صيغة المكاتبة على النحو التالى . يقول السيد لعبده « كاتبتك على ألف دينار فى أربعة أشهر ، تدفع فى كل شهر مائتين وخمسين دينارا . فإذا أديتها فأنت حر » فيقول العبد « قبلت » .

« والذين يبتغون الكتاب(١) مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً(٢). وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٣) . . . » (٤) ويلاحظ أنه إذا كان المكاتب جارية فإن حكمها يسرى على من تلده بعد مكاتبتها . فيعتق معها بدون دفع مبلغ آخر بمجرد قيامها بأداء المبلغ الذى كوتبت عليه .

ويحرص الإسلام أيضاً فى مواطن عديدة أخرى فى القرآن الكريم على التنويه بأهمية إعتاق الرقيق وتحرير من أوقعهم سوء الطالع فى الرق حتى يستردوا آدميتهم وكرامتهم وحريتهم السليبة . قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين (٥) وابن السبيل (٦) والسائلين (٧) وفى الرقاب (٨) وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء(٩) والضراء(١٠) وحين البأس(١١) ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »(١٢) .

وقد نزلت هذه الآية القرآنية الكريمة فى أعقاب تحول المسلمين فى صلاتهم عن قبلة المسجد الأقصى فى بيت المقدس إلى المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة . وذكرت الآية أن البر ليس مقصوداً منه أن يولى الناس

---

(١) الكتاب هنا بمعنى المكاتبة (٢) إن توسمتم فيهم صلاحاً لذلك واستعداداً طيباً للوفاء .

(٣) هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للسادة أصحاب العبيد بأن يدفعوا جزءاً من المال يستعين به العبيد فى الوفاء بالتزاماتهم المالية نحوهم . وفى معنى الإيتاء حط شئ من المال المتفق عليه . وتحرص الآية الكريمة على أن الأموال التى لدى السادة الأثرياء والتى فرض عليهم أن يؤدوا جزءاً منها لمساعدة الرقيق على التحرر إنما هى من نعم الله عليهم ومن أفضاله عليهم .

(٤) سورة النور ، جزء من الآية رقم ٣٢ .

(٥) هم الذين لا يبدون حاجتهم ولا يسألون الناس .

(٦) ابن السبيل هو المسافر المنقطع عن ماله ولو كان غنياً فى بلده . ويسرى هذا الحكم فى الوقت الحاضر على اللاجئين من فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام التى دنسها الاستعمار والصهيونية .

(٧) السائلون هم الذين ألجأتهم الحاجة إلى سؤال الناس .

(٨) وفى الرقاب أى للصرف فى فك رقاب الأرقاء أى تحريرهم ، إما بإعانة من يكاتب سيده على العتق فى نظير مبلغ يؤديه إليه ، وإما بشراء رقيق وإعتاقهم من هذا المال .

(٩) البأساء شدة الفقر (١٠) الضراء المرض

(١١) حين البأس وقت شدة القتال فى سبيل الله . (١٢) سورة البقرة ، آية رقم ١٧٧ .

وجوههم فى الصلاة نحو المشرق والمغرب ، وإنما البر هو أعمال وتكاليف تنشئ آثارها الطيبة فى حياة المجتمع الإسلامى . والبر الذى يحقق أهداف الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الأحد وباليوم الآخر والملائكة وبالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وإنفاق المال ، على الرغم من حب الناس له واعتزازهم به،على فئات من المجتمع حددتها الآية الكريمة ، وكان من بينها « فك الرقاب » أى أن الإنفاق يوجه — فيما يوجه إليه — لعتق الرقيق بشرائه وتحريره ، أو بتقديم بعض المال الذى كوتب عليه الرقيق المكاتب مع سيده فى نظير عتقه . ويلاحظ أيضاً أن هذه الآية القرآنية الكريمة ذكرت الزكاة بعد الحديث عن إنفاق المال على حبه على من جاء ذكرهم فى الآية . والترتيب هنا مقصود . فالإنفاق فى تلك الوجوه ليس بديلا عن الزكاة ، وليست الزكاة بديلا عنه . وإنما الزكاة هى ضريبة إجبارية لا اختيار للمسلم فيها . أما ذلك الإنفاق فهو مجاله الحر لتطهير قلبه ووصله بالمجتمع الذى يعيش فيه ووصل هذا المجتمع به . والزكاة ضريبة لا يسقطها الإنفاق . ولا تغنى هى عن الإنفاق . وإذا علمنا أن الشريعة تخصص سهماً من حصيلة الزكاة لعتق العبيد ، فإن معنى هذا الازدواج أن الشريعة قد أوجدت منفذين هامين وواسعين لتحرير الرقيق . إن هذه الآية تجمع بين أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال وتجعلها كلها وحدة لا تنفصم ، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر . وتصف الذين يتسمون بهذه الصفات بأنهم صادقون فى إيمانهم وصادقون فى ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة ذات أثر طيب فى المجتمع الإسلامى ، كما تصفهم بأنهم متقون يخشون الله ويتصلون بالله ويؤدون واجبهم لله (١) . فأى ترغيب فى تحرير الرقيق أقوى أثراً فى النفس من هذا السياق القرآنى البليغ ؟

ولا يدع الإسلام فرصة تمر إلا ويحث المسلمين على التوسع فى عتق الرقيق . فأمر بتخصيص جزء من حصيلة أموال الصدقات لشراء العبيد

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ج ، ٢ ، الطبعة الثانية ، ص ص ٢٩-٣٢ .

وتحريرهم أو تقديم المساعدات المالية لمن يحتاج منهم إليها فى سبيل عتقهم كالمكاتبين ومن إليهم . قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء (١) والمساكين (٢) والعاملين عليها (٣) والمؤلفة قلوبهم (٤) وفى الرقاب (٥) والغارمين (٦) وفى سبيل الله (٧) وابن السبيل (٨) فريضة من الله والله عليم حكيم » (٩).

ويرى بعض كبار رجال الفكر الإسلامى أن المعنى من لفظة « الصدقات » التى وردت فى هذه الآية القرآنية الكريمة إنما هو الزكاة (١٠). وكانت الزكاة تشكل مورداً هاماً من موارد الحكومة الإسلامية تتشدد فى تحصيلها . وكانت الحكومات الإسلامية على تعددها تحترم مصارف الزكاة بعامة ومصرف عتق الرقيق بخاصة . وفى بعض الأحيان كانت تنفق فيه أكثر من المبلغ المرصود لهذا الغرض (١١). ويلاحظ أيضاً أن الله سبحانه وتعالى جعل الرقيق من بين

---

(١) الفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية .

(٢) المساكين سبق شرح معناها فى الآية السابقة .

(٣) العاملون عليها الذين يقومون على تحصيلها ما لم تخصص لهم مرتبات من خزانة الحكومة .

(٤) المؤلفة قلوبهم هم طوائف من الناس دخلوا حديثاً فى الإسلام ويراد تثبيتهم عليه ، ومنهم الذين ترجو الدولة أن تتألف قلوبهم فيسلموا ، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا وترجو الدولة تأليف قلوب أمثالهم فى قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون .

(٥) وفى الرقاب سبق شرح معناها .

(٦) المدينون فى غير معصية لمساعدتهم فى سداد ديونهم .

(٧) وفى سبيل الله أى إعداد العدة للجهاد وتجهيز المتطوعين وتدريبهم وبعث البعوث للدعوة إلى الإسلام وبيان أحكامه وشرائعه للناس أجمعين، وتأسيس المدارس والمعاهد والجامعات التى تربى الناشئة تربية إسلامية سليمة ولا تتركهم يلتحقون بمدارس البعثات التنصيرية .

(٨) وابن السبيل سبق شرح معناها .

(٩) سورة التوبة ، آية رقم ٦٠

(١٠) تفسير الجلالين — جلال الدين محمد بن أحمد ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى . القاهرة ، د . ت ، ص ١٦٠

سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ص ٨٠

دكتور على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ص ٣٨-٤١ .

دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٦١

(١١) يذكر يحيى بن سعد أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد عهد إليه بجمع الزكاة من بعض الأقاليم الإسلامية فى إفريقية فاقتضاها . وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر —

طوائف ثمان أوجب الإنفاق عليها من أموال الزكاة . وقد حدد الله هذه الطوائف تحديداً دقيقاً ، ولم يترك لرسوله عليه الصلاة والسلام ولا لأحد اختيار هذه الطوائف . وإنفاق هذه الأموال مقصور على أفراد هذه الطوائف ولا يتعداهم إلى غيرهم أبدا . وهى تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله وترد على الفقراء والرقيق ومن إليهم ممن حددت أوضاعهم الاجتماعية فريضة من الله « وهى ليست تطوعاً ، ولا تفضلا ، أو منحة ممن فرضت عليهم ، فهى فريضة محتمة ، وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ . فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم (١).

وحبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أعظم قربة يتقرب بها الإنسان إلى ربه . فقد ذكر الله فى القرآن الكريم عدة قربات يتخذها عباده الصالحون زلفى إليه سبحانه وتعالى . ولكنه جعل تحرير العبد على قمة هذه القربات . وفى هذا قال عز من قائل « فلا اقتحم العقبة (٢) . وما أدراك

=ابن عبد العزيز بعدالته وحكمته قد جعل الناس فى غنى عنها. فأمر بتحويل الأموال المرصودة للفقراء والمساكين ليشترى بها كلها عبيداً وأعتقهم .

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٨٠

(٢) العقبة فى تفسير الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ، الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . ولكن الله سبحانه وتعالى فسر المراد بالعقبة هنا حيث قال « وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة » فأراد منها الطريق التى يصعب سلوكها إلى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة . وإنما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها . وفى هذا كناية عن ميل الإسلام إلى الحرية وجفوته للأسر والعبودية .

ويقول الدكتور محمد محمود حجازى عن العقبة إن للإنسان عقبات من نفسه وشيطانه ودنياه . فيجب أن يكون جواداً لله فيفك الرقبة ويعتقها أو يعمل على ذلك بكل قواه .

ويرى الدكتور على عبد الواحد وافى أن العقبة هى العقبة الكبرى التى لا بد من اقتحامها للوصول إلى الجنة . وهى تتطلب أن يتقرب المؤمن فى أثناء حياته إلى ربه بعمل جليل من أعمال البر لتحرير الرقيق .

أنظر كلا من :

الإمام محمد عبده : تفسير جزء عم . الناشر مطابع الشعب . القاهرة ، الطبعة الرابعة د.ت ص ٦٩ .

دكتور محمد محمود حجازى ، التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣٠ ، ص ٥١

دكتور على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١

ماالعقبة . فك رقبة (١) ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة (٢)، يتيما ذا مقربة (٣)، أو مسكيناً ذا متربة(٤) ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا (٥) بالصبر (٦) وتواصوا بالمرحمة . أولئك(٧) أصحاب الميمنة(٨) »(٩) .

وقد بلغ من تعظيم الإسلام لقربة تحرير الرقيق أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان يضرب بها المثل فى تقييم هذه القربة وعظم الثواب عليها ، فيقول «من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة» أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة »(١٠) .

الإسلام ورق الحرب :

سبق أن ذكرنا أن الإسلام قد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب(١١)

---

(١) فك رقبة أى عتقها

(٢) المسغبة هى المجاعة

(٣) المقربة هى القرابة أو الصلة العائلية

(٤) المسكين ذو المتربة هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب . ويقال فقر مدقع وفقير مدقع أى ملتصق بالدقعاء وهى التراب .

(٥) تواصوا أى أوصى بعضهم بعضاً .

(٦) الصبر على المكاره وعن المعصية

(٧) الموصوفون بهذه الصفات .

(٨) الميمنة أى اليمين أو اليمن .

(٩) سورة البلد ، آيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٨

(١٠) أنظر ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة عن ثواب عتق الرقيق ووجوب إسهام الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامى فى مساعدة العبيد المكاتبين على أداء جزء من المبالغ التى يتعين عليهم أداؤها لتحريرهم من الرق ، فى :

صحيح البخارى : لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخارى . جزءان . د . ت، ج٢ فصل عنوانه « العتق وفضله » ص ص ٦٥-٧٢

(١١) استثنت الشريعة الإسلامية من رق الحرب الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من المسلمين . فهؤلاء لا يفرض عليهم الرق سواء كانوا من الطائفة الباغية أو من الطائفة المجنى عليها .

أما الحروب التى تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدى فى رأى أصحاب المذاهب الفقهية إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة، من أهمها أن تكون أمثال هذه الحروب شرعية أى =

وقد أبقى عليه للضرورة ، لأن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين طبقاً للتقاليد السائدة . ولم يكن فى مقدور الجماعة الإسلامية وقتذاك إجبار هذه المجتمعات على نبذ تقاليد حربية عميقة الجذور أخذت ما يعرف بالتعبير الحديث قواعد القانون الدولى العام . ولو فرض أن الإسلام قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان مثل هذا الإجراء مقصوراً على الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين ، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيء فى عالم الرق هناك . وفى ذلك إطماع للمعادين للاسلام فى أهل الإسلام(١) .

وفى أول الأمر كان الإسلام يمنع فداء الأسرى المشركين الذين يقعون فى أيدى المسلمين كى يستبقيهم فى حوزتهم إضعافاً لشوكة المشركين وتقوية للمعسكر الإسلامى . ففى غزوة بدر — وهى المعركة الأولى الكبرى بين المسلمين والمشركين — كان النصر فيها حليف المسلمين إذ قتلوا سبعين رجلا من المشركين وأسروا منهم سبعين رجلا ، وولى الباقون الأدبار . واستشار النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر فى مصير الأسرى . فكان رأى أبى بكر أن يأخذ منهم الفدية تأسيساً على أن أولئك الأسرى هم بنو العم والعشيرة من

= يجيزها الإسلام . وحسبنا أن نذكر هنا ثلاث حالات تشتعل فيها أمثال هذه الحروب :

أولا : حالة الدفاع المشروع . وفى هذا يقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٠ .

ثانيا : حالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامى . وفى هذا يقول الله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » . سورة التوبة ، آية رقم ١٢

ثالثا : قيام أسباب تعرض أمن الدولة الداخلى أو الخارجى للخطر ، مثل إثارة الفتن . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٣

ولم تتجاوز حروب الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الحالات سواء فى ذلك حروبه ضد العرب أو ضد اليهود أو ضد الروم .

أنظر

دكتور على عبد الواحد وافى . الحرية فى الإسلام . مرجع سبق ذكره ، صص ٢٨-٢٩ .

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢

ناحية ، وأن أخذ الفدية منهم يدعم مركز المسلمين تجاه الكفار من ناحية ثانية ، وقد يهدى الله أولئك الأسرى للإسلام ويصبحون عضداً للمسلمين من ناحية ثالثة . أما عمر فكان رأيه أن يمكنه رسول الله عليه الصلاة والسلام من قريب له فيضرب عنقه ، وأن يمكن علياً من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه ، وأن يمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله سبحانه وتعالى — على ظهور — أن ليس فى قلوب الصحابة هوادة فى جهادهم ضد أعداء الإسلام . فالصحابة يضربون أعناق أئمة الكفر وصناديدهم وقادتهم . وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأى أبى بكر . وارتضى أن يأخذ الفداء فى مقابل إطلاق سراح الأسرى . فنزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض(١)، تريدون عرض الدنيا(٢)، والله يريد الآخرة (٣) ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق (٤) لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٥) . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم » (٦).

وتشير الآية القرآنية الأولى فى مطلعها إلى ضرورة الإثخان فى الأرض ، أى يمضى المسلمون فى خوض معارك ضارية تالية وعديدة يقتلون فيها الكثيرين من الكفار المحاربين ، ويستبقون ما يقع فى أيديهم من الأسرى . والهدف من الإثخان والاستبقاء هو إضعاف قوى المشركين . وتنطوى الآية على لوم المسلمين الذين قبلوا فداء أسرى المشركين فى غزوة بدر « تريدون عرض الدنيا » حين قبلوا المال وأطلقوا أسارى المشركين « والله يريد الآخرة » أى يبتغى توجيه المسلمين إليها لتكون هدفهم . ثم تقول الآية الكريمة « لولا كتاب

---

(١) يثخن فى الأرض أى يكثر فيها القتل ويبالغ فيه ليذل الكفر ويقل عدد أنصاره . مشتق من أثخنه المرض أى أثقله .

(٢) عرض الدنيا أى حطامها .

(٣) والله يريد الآخرة أى يريد لكم ثوابها ونعيمها .

(٤) لولا كتاب من الله سبق ، أى لولا حكم سبق من الله ، وهو أنه لا يعاقب المخطئ منكم .

(٥) أى لنالكم عذاب عظيم بسبب ما أخذتم من الفداء من الأسرى .

(٦) سورة الأنفال ، الآيات من رقم ٦٧ إلى رقم ٦٩ .

من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم». أى أنه أعفى المسلمين من عذاب عظيم فى قبول الفداء من أسرى بدر تنفيذاً لوعد سابق بالعفو عن المخطئين. ثم أضفى الله الكثير من آلائه عليهم فأحل لهم الغنائم ، وكانت محرمة على المحاربين.

وإذا كان الإسلام قد منع فداء أسرى المشركين فى غزوة بدر ، فقد قرر فى ذات الوقت الإبقاء على حياتهم وهم فى الأسر ، لا ليستألهم انتقاماً ، ولكنه لمس قلوبهم لمسة إنسانية رقيقة تحيي الرجاء فى نفوسهم وتطلق فيهم الأمل فى مستقبل مشرق خير من الماضى ، وفى مكاسب ترجح ما فقدوه من مال الفداء ومن الديار التى تركوها. قال تعالى « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (١). وفى ذات الوقت الذى فتح فيه للأسارى نافذة الرجاء المشرق فى قابل الأيام ، حذرهم خيانة الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما خانوا الله من قبل ، فلاقوا هذا المصير. « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم »(٢)، خانوا الله فأشركوا به. فإذا عمدوا إلى خيانة الرسول وهم أسرى فى يديه ، فليذكروا عاقبة الخيانة الأولى. والله عليم بسرائرهم ، حكيم فى إيقاع العقاب عليهم.

ولم يستمر قائماً هذا الحظر — عدم قبول فداء الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين ، فلما اشتد ساعد المسلمين واستقرت أوضاعهم السياسية والعسكرية وقويت دعائم الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة أجاز لهم الإسلام حرية التصرف مع الأسرى فى نطاق المبادئ العامة للشريعة مع الاستمرار فى سياسة الإثخان فى الأرض. قال تعالى فى كتابه العزيز « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب (٣) ، حتى إذا أثخنتموهم (٤) فشدوا الوثاق (٥) ،

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧٠. (٢) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧١.

(٣) أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر.

(٤) أى أكثرتم قتلهم وأغلظتموه وجعلتموه ثخينا أى غليظاً.

(٥) قيدوا الوثاق أى فأسروهم. والوثاق بفتح الواو أو كسرها ما يوثق به ، أى ما يربط به.

فإما مناً بعد (١) ، وإما فداء (٢) ، حتى تضع الحرب أوزارها (٣) . . . » (٤)
ويلاحظ أن هذه الآية القرآنية الكريمة لم يرد فيها ذكر لكلمة الرق ، بل جاء فيها ذكر المن والفداء بعد وقوع الأعداء أسرى فى أيدى المسلمين . ولم تعمل على الترغيب فى الرق ، بل حثت على الترغيب فى غيره . وفضلت المن والفداء على الرق .

نخلص من هذا العرض السريع لموضوع رق الحرب أن الإسلام لم يقر الرق فى صورة مطلقة ودائمة . ولم يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر ، بل ترك للدولة الإسلامية أن تعامل أسراها وفقاً لما تتفق عليه مع أعدائها فى ضوء قواعد الشريعة الغراء : فتمن عليهم أو على فريق منهم بإطلاق سراحهم بدون مقابل ، وتفدى من تفدى من الأسارى من الجانبين ، وتتبادل الأسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين ، حتى لا يصبح الأسارى من المسلمين أرقاء ، والأسارى من الكفار طلقاء (٥) . والإسلام لم يجعل رق الحرب سوى مسلك من المسالك التى يجوز للدولة الإسلامية أن تتخذها حيال الأسرى . وقيده بقيود تؤدى إلى نضوب موارده وتقضى عليه بالتدريج . وأتاح الإسلام عديد الفرص أمام رقيق الحرب للعتق والتحرر متى انضموا إلى الجماعة الإسلامية وقطعوا صلاتهم بالكفار المحاربين .

وقد أوجز أحد الأساتذة الباحثين الخطوط الرئيسية لموقف الإسلام من الرق فى هذه الفقرة « لم يقر الإسلام الرق فى صورة مطلقة دائمة ، وإنما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ، بدون أن يحدث ذلك أى أثر سيء فى نظام المجتمع الإنسانى، بل بدون أن يشعر أحد بتغير فى مجرى الحياة . وقد ارتضى للوصول إلى هذه الغاية أبلغ الوسائل أثراً ، وأصدقها

---

(١) فإما مناً بعد أى فإما تمنون عليهم بإطلاق سراحهم مناً أى من غير شيء .

(٢) وإما فداء أى وإما تفدونهم فداء بمال أو بأسرى مسلمين أو بعمل يعهدون إليهم بأدائه .

(٣) اى حتى تضع الحرب أثقالها ، وهو كناية عن انتهاء العمليات الحربية .

(٤) سورة محمد عليه الصلاة والسلام ، آيه رقم ٤

(٥) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

نتيجة ، وأقصرها أمداً . ويتلخص ما ارتضاه للوصول إلى هذه الغاية فى مسلكين : أحدهما تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه ، بل العمل على تجفيفها تجفيفاً كاملا ، والآخر توسيع المنافذ التى تؤدى إلى العتق والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شئ بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التى يستمد منها الماء . وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف » (١).

بعد هذا العرض الموجز لموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، ننتقل إلى موضوع العبيد الخصيان .

الخصاء بين التحريم والإباحة :

عرف الخصاء منذ عصور موغلة فى القدم فى الشرق والغرب على السواء. استخدم فى الصين والهند . وأدخله ملوك دولتى آشور وبابل فى بلاطهم . وشاع الخصاء فى العصر اليونانى وأخذه الرومان عن اليونانيين(٢) . وكان فى مقدمة الواجبات التى عهد بها إلى الخصيان القيام على خدمة وحراسة السيدات والآنسات فى القصور الحاكمة . ولما جاءت المسيحية وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية وتوطد مركز الديانة الجديدة انقسم رجال الكنيسة حيال نظام الخصاء فريقين : فريق عارض الخصاء على أساس أنه نظام يتنافى مع الطبيعة البشرية ويتعارض مع ما أراده الله من تعمير الأرض . وذهب هذا الفريق إلى القول بأنه يكفى أن طوائف كثيفة العدد من رجال الدين حرموا من الزواج أو الاتصال الجنسى على أى نحو من الأنحاء ، وأنه لا داعى لمد هذا التحريم إلى طائفة من الرجال مهما كان عددهم صغيراً من أجل أقلية ضئيلة العدد من السيدات ، وأن على أوليائهن أن يدبروا وسائل أخرى لخدمة هؤلاء السيدات وحمايتهن . وقد ظل هذا الفريق من رجال الكنيسة متمسكاً برأيه عبر العصور التاريخية الوسيطة والحديثة . وكان من أبرز البابوات الذين عارضوا الخصاء

(١) دكتور على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣-٢٤

(٢) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ، المجلد الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

فى العصور الحديثة البابا ليو الثالث عشر ، وهو من أصل إيطالى تولى كرسى البابوية من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٩٠٨ (١) . أما الفريق الآخر فقد أيد نظام الخصاء . وكان فى مقدمة المؤيدين له القسس . وقد اندفعوا يشجعون خصاء الصبية لاستخدامهم فى فرق الترتيل الكنسى محتفظين بسبب الخصاء بأصوات رفيعة رخيمة ، وكان يطلق عليهم السوبرانو (٢) Soprano ، كما كانوا يعرفون باسم الكاسترا(٣) Les Castrats والتعبير الأخير مقصور استخدامه على الصبيه الذين أجريت لهم عملية الخصاء . وبمضى السنين نشأت طوائف دينية مسيحية شجعت عمليات الخصاء مثل طائفة « السكوبس الروسية » .

ولما جاء الإسلام كانت عادة الخصاء معروفة بل شائعة فى جميع البلاد التى فتحها المسلمون . ومما هو جدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية لا تقر مبدأ الخصاء إلا للضرورة القصوى إنقاذاً لحياة مريض أصيب ذلك الجزء من جسمه بمرض خبيث يتطلب استئصال الجزء المصاب من جسمه منعاً لانتشاره فى باقى أجزاء الجسم . ولكن ظل مبدأ الخصاء محرماً تحريماً قاطعاً بحكم السنة . جاء فى الصحيحين أن عثمان بن مظعون سأل النبى صلوات الله وسلامه عليه أن يأذن له فى خصاء نفسه ، إذ أنه رجل تشق عليه الغربة فى المغازى ، فرد النبى صلى الله عليه وسلم « لا ، ولكن عليك بالصوم » . وجاء فى الحديث الشريف «لا يعتبر مسلماً من اختصى أو خصّ آخر»(٤). وعلى الرغم من هذا التحريم كان الرقيق من الخصيان يباعون فى أسواق العواصم الإسلامية .

---

(١) اسم هذا البابا جواشيم بيتشى Joachim Pecci وقد ولد فى مدينة كاربنتو Carpinetto فى إيطاليا .

(٢) Soprano كلمة فرنسية اشتقت من كلمة إيطالية بهذا المعنى . وتجمع فى اللغة العرنسية Soprani .

(٣) Castrat كلمة فرنسية من اصل لا تينى Castratus .

(٤) اعتبر علماء الشريعة الإسلامية أن الخصاء من العيوب التى تسوغ الطلاق باعتباره عيباً مستحكماً لا يمكن البرء منه ، ولا تستطاع معه العشرة إلا بضرر . فإذا تزوجت إمرأة ووجدت زوجها خصياً ولم تكن قد علمت بحقيقة حاله عند عقد قرانها ولم ترض بالقيام معه وطلبت تطليقها ، طلقها القاضى منه فى الحال .

الدولة العثمانية تأخذ بنظام الخصاء :

وقد أخذت الدولة العثمانية بنظام الخصاء فى قصور السلاطين على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً مبدأ الخصاء . وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعى من الحالات القليلة بل النادرة التى خرجت فيها الدولة على الشريعة الإسلامية . وقد سبق أن ذكرنا أن من الخصائص البارزة أنها دولة دينية تحرص حرصاً بالغاً على تطبيق مبادئ الشريعة والإلتزام التام بها فى تصرفاتها وفى سياستها الخارجية والداخلية . ولا يعتبر وجود عبيد خصيان فى بعض مدن وعواصم العالم الإسلامى مبرراً لأن تحذو الدولة العثمانية هذا الحذو .

أقباط الصعيد يقومون بعمليات الخصاء للعبيد الوافدين من السودان :

كانت هناك طائفتان من الخصيان : الخصيان السود ، والخصيان البيض . وكانت مصر تعد المورد الأول للعبيد السود الخصيان . وكان الولاة العثمانيون فى مصر يترقبون وصول قوافل العبيد من دارفور وكردفان وسنار فى السودان إلى أسيوط . وكانت قوافل دارفور وكردفان تسلك فى رحلتها الشاقة طريقاً أطلق عليه درب الأربعين لأن الرحلة كانت تستغرق أربعين يوماً . وكانت أسيوط هى نهاية المطاف . وكانت قافلة دارفور وكردفان تحمل سنوياً عدداً من العبيد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف عدا كميات من العاج والتمر هندى وجاود النمور والصمغ وريش النعام والكمون وتراب الذهب والنطرون . أما قافلة سنار فكانت تحمل فى رحلتها السنوية بضع مئات من العبيد . وكان الباشا العثمانى فى القاهرة يبعث مندوبين إلى أسيوط أو يعهد إلى حاكم الصعيد ولقبه بك جرجا أو حاكم جرجا . وكان أحد كبار الأمراء المماليك (١) ، بشراء

---

(١) كانت سلطته تمتد إلى معظم أقاليم الوجه القبلى وإلى الواحات وقبيلة الهوارة وسائر القبائل النازلة فى تلك الأقاليم .

أنظر

Combe Etienne; Précis de L'Histoire d'Egypte; Tome 3, Le Caire, 1933, pp.57—77

عدد معين من العبيد الذين جاءت بهم القافلة . وكان الباشا العثمانى يوصي بشراء العبيد صغار السن . وفى أسيوط أو أبى تيج ، وبأمر الباشا ، كانت تجرى لهؤلاء العبيد عمليات الخصاء الجزئى أو الخصاء الكلى . وكان أقباط أسيوط هم الذين يتولون إجراء عمليات الخصاء ، لأن الشريعة الإسلامية تحرم الخصاء كما ذكرنا . وبعد أن يتم شفاؤهم كانت سلطات أسيوط تقوم بترحيلهم إلى القاهرة بالطريق النهرى فى معظم الأحوال (١) . ويبعث الباشا العثمانى فى القاهرة بهذه النماذج البشرية بمثابة هدايا إلى السلطان فى إستانبول . وقد نهج حكام بعض الولايات العثمانية الأخرى نهج حكام مصر فى خصاء العبيد وتقديمهم هدايا للسلطان . وكان أولئك الحكام يحصلون على العبيد بالشراء أو بأية طريقة أخرى . وهكذا كان السلطان العثمانى مورد ثان للخصيان . وكان هناك مصدر ثالث يحصل منه السلطان على الخصيان هو الشراء . ومن هذا المصدر الثالث كان السلطان يحصل على الخصيان البيض . وكان موطنهم الأصلى بلاد القوقاز . وكان أسرى الحروب من قبائل الألاف وأهل بوهيميا ومن الجرمان بضاعة آدمية ثمينة . كانت تجرى لهم عمليات الخصاء بمعرفة آسريهم ويباعون رقيقاً للسلطان وما يفيض عن حاجة السلطان كان يرسل إلى العواصم الإسلامية حيث يعرضون للبيع فى أسواق الرقيق . وأخيراً كان هناك مصدر رابع يحصل منه السلطان على الخصيان مباشرة وذلك بإجراء عملية الخصاء لأفراد من الفيالق الإنكشارية كنوع من العقوبة توقع عليهم بعد أن تكون القيادة العسكرية قد استنفدت معهم كل الوسائل لردعهم . وكان هذا الفريق من أفراد الإنكشارية ينضمون إلى الخصيان البيض . ويقرر بعض الباحثين أنه كان قليلا جداً عدد الإنكشارية — وهم الجنود البواسل — الذين

---

(١) انظر ما جاء بخصوص مدينة أسيوط وقافلة دارفور وسنار فى :

Description de L'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant L'Expédition de L'Armée Française. Edition de C.L.F. Panckoucke, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols de texte in—8 et le même nombre de Planches;vol. IV, pp.125—133, vol XVII p.p. 277—305, 278—291 et 291—299.

جولتهم الدولة إلى خصيان . بينما يرى البعض الآخر من الباحثين أن عدد الإنكشارية الذين أجريت لهم عمليات الخصاء كان على العكس كبيراً جداً (١) . ونرى أن كلا الرأيين صحيح . ففى عصر سلاطين الفترة الأولى كان الإنكشارية يستبسلون فى القتال ويسترخصون الموت ومثلا أعلى فى الطاعة والإنضباط العسكرى ، والملك ندر منهم من كانت الدولة تحولهم إلى خصيان . ولما تدهور نظام الإنكشارية فى عصر سلاطين الفترة الثانية تعددت حوادث التمرد والعصيان التى كانت تصدر منهم ، فزاد عدد الإنكشارية الذين وقعت عليهم عقوبة الخصاء . ويلاحظ أيضاً أنهم كانوا يفقدون لياقتهم البدنية وكفايتهم الحربية بعد إجراء عمليات الخصاء . فإذا كانت القصور السلطانية قد كسبت الإنكشارية الخصيان ليقوموا على حراسة وخدمة الحريم السلطانى ، فإن الجيش العثمانى قد خسرهم كمحاربين أشداء .

إجراءات استقبال الخصيان الجدد :

وضعت الدولة أنظمة فى القصور السلطانية لتطبق على الخصيان . وبتعاقب السنين رسخت هذه الأنظمة حتى غدت من التقاليد المرعية . وسنرى صوراً منها فى هذا الفصل . فعند وصول الخصيان إلى إستانبول كانوا يعتنقون الإسلام ويلتحقون بالسراى الجديد . ويبدأون حياتهم الجديدة فيه بعرضهم أولا على « القيزلر أغاسى » وهو رئيس الخصيان السود ، ثم يعرضون على ضابط كبير يطلق عليه « باش قابى غلامى » أى رئيس غلمان البوابة ، وهو فى ذات الوقت كبير ضباط حرس الخصيان ، فيدرج اسماء الخصيان الوافدين الجدد فى كشوف التعيينات . ثم تجئ الخطوة التالية والأخيرة فيؤخذون إلى المشرف العسكرى الذى يشرف على إعدادهم علمياً وعسكرياً . وكان يطلق عليه بهذه الصفة لقب « لا لا » (٢) Lala أى المشرف . ويكون هذا المشرف أحد

---

(١) Lybyer A.H.; op. cit., p. 57 and f.n. no.5.

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part 1, p. 331.

وكان يطلق على كبير المشرفين : « لا لا باشى » . ويلاحظ أن لقب « لالا » كان يطلق أيضاً على الشخص الذى يتولى الإشراف على تربية أبناء السلاطين . وكان لهذا المصطلح مدلول آخر هو « الأب العزيز » .

الصف ضباط من رتبة « حاصلية » (١) Hasillis أو « أورتانجه » (٢) Ortança وكان على الخصيان أن يقبلوا يد هذا المشرف فى مستهل لقائهم الأول معه .

تدريب الخصيان :

وعقب الفراغ من إجراءات الاستقبال كانت تعد للخصيان دراسات تدريبية نظرية وعملية على المهام التى يعهد بها إليهم فى قابل الأيام . فيتعلمون القراءة والكتابة باللغة التركية ، وقدراً يسيراً من الثقافة الدينية الإسلامية باللغة العربية تمكيناً لهم من أداء شعائرهم الدينية ، ثم المعلومات العامة مع دراسة فى السلوك الإجتماعى الممتاز . وكان يقوم بتعليمهم المواد النظرية مجموعة من المدرسين يطلق عليهم « الخوجات » (٣) . وفى ذات الوقت يتلقون تدريباً على بعض المهارات العسكرية . ويقوم رؤساؤهم بالمهمة الأخيرة . وكان الخصيان فى أثناء تلقيهم دراساتهم يستخدمون بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحريم . وعندما يستكملون دراساتهم كانوا يعينون للخدمة التى تبدأ بحراسة أبواب دوائر الحريم . ولذلك خصصت لهم عنابر يعيشون فيها على مقربة من هذه الأبواب . وكان كل خصى عندما تنتهى نوبة حراسته يتلقى فى أثناء جزء من فترة راحته مزيداً من الثقافة الدينية والمعلومات العامة .

وكان لكل مبنى مستقل فى منطقة الحريم السلطانى ، وهو الذى يطلق عليه دائرة ، مثل دائرة السلطانة الوالدة ، ودائرة الباش قادين ، ودوائر القادينات ، ضابط خصى مسئول يطلق عليه باش أغا . ويعمل تحت إمرته

---

(١) حاصلية ومفردها حاصل ، معناها كامل التدريب . وكان يحمل هذه الرتبة صف ضابط . وكان عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة أثنى عشر . وكانوا يسبقون فى المركز الأورتانجات .

(٢) الأورتانجات ومفردها أورتانجه ، عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة لا يزيد عن خمس . ومعنى أورتانجه وسط أى أن صف الضابط الأورتانجه يكون فى مركز وسط بين الحاصلية وبين « النوبت قلفه سيه » الذين يجئ مركزهم بعده : انظر اختصاصات هذه الطائفة الأخيرة فى ص ٦٦٠ ، حاشية رقم ٤

(٣) خوجات كلمة تركية مفردها خوجه . ومعناها المعلم أو المدرس .

عدد كبير من الخصيان من أصحاب الرتب الصغيرة ، ويسمون « حرم أغاسية » . أى أغوات الحريم تمييزاً لهم عن أغوات الحراسة . وكان فى القصور السلطانية الأخرى حرس من الخصيان ، يرأس حرس كل قصر « باش قابى غلامى » ، ولكن كانوا جميعاً يخضعون لرئيس الأغوات السود . وكان شأنهم فى ذلك شأن الخصيان الذين يعملون فى خدمة الأمراء والأميرات المتزوجات وغير المتزوجات. وكان لكل أميرة « باش أغا » على غرار النظام الموضوع للسلطانة الوالدة والقادينات . وكان لها أيضاً « باش قابى غلامى » ، و « مابينجى » (١) يأتمر على عشرة أو اثنى عشر خصياً من خصيان الحريم . وكان فى مقدور كل قادين ، فضلا عن الباش قادين والسلطانة الوالدة ، أن تستخدم الخصيان فى أى مرحلة من مراحل ترقياتهم لخدمتها فى الحريم . فقد كان من حق كل منهن أن تستخدم كثيرين من الخصيان . وكان هناك أيضاً عدد من الخصيان السود، يطلق على كل منهم « مصاحب » . ومهمة كل منهم مصاحبة السلطان وهو ذاهب إلى أجنحة الحريم ، وكذلك تلقى أوامر السلطان فى بعض الأحيان وحملها إلى القيزلر أغاسى . وكان عدد المصاحبين يتراوح بين ثمانية وعشرة ، يعمل كل اثنين منهم معاً فى وقت واحد ، ويرأسهم جميعاً « مصاحب باشى » .

وكان القصر يهتم اهتماماً بالغاً بنظافة الخصيان وبقيامهم بواجباتهم الدينية وبمراعاتهم للتقاليد المعمول بها فى القصور السلطانية وبتمسكهم بقواعد الإنضباط العسكرى على أكمل وجه . وكان يقوم بمراقبتهم خصيان يطلق عليهم « موصندرة جية » (٢) يرأسهم « موصندرة جى باشى » .

وكان جميع الخصيان حتى رتبة الحاصلى يعاقبون بالضرب . أما الخصيان الذين تعلو مرتبتهم عن مرتبة الحاصلى ، فكان يقتصر على نصحهم ثم زجرهم.

---

(١) مابينجى مشتقة من كلمتين عربيتين هما : ما ، بين ، أى فى الغرف الوسطى . وكان هذا الخصى هو وأقرانه الذين يعملون فى هذه الغرف يقومون بخدمة السلطان شخصياً . وكانت خدمتهم فيها حساسة ، وتحتاج إلى مهارات خاصة .

(٢) موصندرة كلمة تركية معناها الدولاب أو الصندوق الذى تودع فيه الأشياء الثمينة جداً ، مثل الماس والمصوغات الذهبية والفضية وما إليها .

فإذا تكررت أخطاؤهم أو كانت أخطاؤهم جسيمة كان السلطان يصدر خطاً شريفاً بنفيهم إلى مصر .

الخصيان السود :

كان يطلق على رئيس الخصيان السود « دار السعادت أغاسى » أى أغا دار السعادة (١) . كما كان يعرف باسم « قيزلر أغاسى » أى أغا البنات. وكان هذا الرئيس — كما ذكرنا من قبل — يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . أما أصغر الخصيان السود مركزاً فكان يطلق عليه « إن آشاغى أغا (٢) En Asagi Aga وهو آخر خصى يلحق بالخدمة فى الحريم السلطانى . وكان لايحتفظ بهذا اللقب أمداً طويلا ، لأنه إذا جاء بعده خصى آخر والتحق بخدمة الحريم يتغير تلقائياً لقب الخصى الأول فيصبح « عجمى أغا » أى أغا ناشئ (٣) ، ويترك لقبه القديم للخصى الوافد الجديد .

وكان الخصيان السود فى أثناء الفترة التى يتلقون فيها دراساتهم النظرية وتدريباتهم العملية يستخدمون أحياناً بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحريم . وعندما يستكملون دراساتهم وتدريباتهم كانوا يعينون للخدمة التى تبدأ بحراسة أبواب الحريم . ولذلك كانوا ، كما سبق أن ذكرنا ، يعيشون فى عنابر على مقربة من الحريم السلطانى . وكان الطريق أمامهم ممهداً للتدرج فى قيادة حرس الحريم فى أربع مراتب . وكان قوام الترقية الأقدمية المطلقة أحياناً أو الحظوة التى يظفر بها بعضهم أحياناً أخرى من السلطان أو من إحدى سيدات الحريم (٤) . وعند ترقية الخصى كان عليه أن يذهب فى صحبة أحد

---

(١) دار السعادة اسم يطلق على إستانبول .

(٢) إن آشاغى أغا عبارة تركية معناها الأصغر درجة أو الأدنى مرتبة .

(٣) عجمى أغا ، وجمعها عجمى أغوات . ويجب التفرقة بين هذا المصطلح الذى يطلق على صغار الخصيان وبين عجمى أوغلان ، وجمعها عجمى أوغلانات ، وهو مصطلح يطلق على ناشئة الإنكشارية .

ولعل منشأ الخلط الذى يقع فيه بعض الباحثين أن كلا من هذين المصطلحين يبدأ بكلمة « عجمى » لأن الإنكشارية والخصيان العبيد جاءوا إلى الحياة غير مسلمين .

(٤) كانوا يرقون إلى رتبة (نوبت قلفه سبه) ، ويعد حامل هذه الرتبة صف ضابط =

كبار ضباط الحرس إلى « القيزلر أغاسى » ويشكره ويقبل رداءه ، ثم يذهب إلى مسجد الخصيان حيث يصلى ركعتين شكراً لله سبحانه وتعالى ، ثم يوزع هبة من المال على المعوزين فى العاصمة .

وجدير بالذكر — وهو ما يهمنا إلى أقصى حد فى هذه الدراسة — أن الخصيان السود الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، أى الذين استؤصلت من أجسامهم الخصيتان وعضو التناسل ، كانوا لا يمكثون أمداً طويلا حرساً على أبواب أجنحة الحريم ، بل كانوا ينقلون سراعاً إلى الخدمة الداخلية فى شتى دوائر الحريم . وكان يشاركهم فى هذه الخدمة الخصيان البيض من ذات النوعية ، أى الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، وكانوا يؤدون الخدمة الداخلية فى مختلف صورها وأشكالها وأنواعها لسيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى مثل السلطانة الوالدة والباش قادين والقادينات وبنات السلطان بالإضافة إلى فتيات الغرف ومن إليهن من الجوارى الحسان دون أن تشعر هؤلاء السيدات بحرج ، ودون أن يشعر السلطان بقلق أو تخوف من أولئك الخصيان ، لأنه كان مطمئناً الاطمئنان كله إلى سلبيتهم الجنسية . ولذلك يقرر بعض المؤرخين أن أفراد هذا النوع من الخصيان كانوا يشكلون جزءاً من الهيئة النسائية فى الحريم السلطانى (١) ، وهو تعبير يغنى عن كل تعليق . ومع ذلك فقد كان السلاطين يفضلون الخصيان السود على الخصيان البيض فى مجالات الخدمة الداخلية الحساسة .

وكانت الدولة تخصص خصياً أسود أو أكثر من خصى لكل أمير محددة إقامته فى مقصورة يطلق عليها القفص ، وعليه أمير القفص (١) . وكان هؤلاء الخصيان السود يعملون فى خدمته بصفتهم المعلمين أو المشرفين عليه . وكان يطلق على كل منهم كلمة لا لا Lala . (٢)

= وكان لا يزيد عدد شاغلى هذه الرتبة عن خمسة خصيان سود . وكان من اختصاصاتهم وقتذاك الإسهام فى حراسة السلطان داخل منطقة الحريم السلطانى حين يخرج مع إحدى ساكنات هذه المنطقة للتنزه فى حدائقها . وكان من اختصاصهم أيضاً تناوب المحافظة على مفاتيح الأبواب الأربعة المؤدية إلى منطقة الحريم . وقد سبق أن تعرضنا بالشرح لمعنى هذه الرتبة فى هذه الدراسة .

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit. vol. 1, Part 1, p. 77.

(٢) سبق أن شرحنا مدلولات هذا التعبير .

أنظر ص ٦٥٧ ، ح رقم ٢

وقد بلغ عدد الخصيان السود فى الحريم السلطانى فى القصر الجديد فى القرن الثامن عشر مائتين. ولا يدخل ضمن هذا العدد الخصيان السود الذين كانوا يستخدمون فى القصر القديم وفى غيره من القصور السلطانية .

ولكن على قدر هذا النفوذ الواسع العريض الذى تمتع به رئيس الخصيان السود، فإنه كان يتعرض للدسائس والمؤامرات تحاك له من داخل أجنحة الحريم السلطانى . ولا يلبث أن يرى نفسه قد هوى بين عشية وضحاها من قمة النفوذ إلى حضيض الضياع ، إذ يصدر السلطان « إرادة » بعزله من منصبه ونفيه إلى مصر ، ويغادر إستانبول التى شهدت مجده . ويسبقه إلى مصر فرمان سلطانى موجه إلى الباشا العثمانى بتقرير مرتب يصرف من ديوان الروزنامة لهذا الأغا الخصى المعزول . فإذا وصل الأغا إلى مصر واطمأن إلى المورد المالى الثابت الذى يعتمد عليه فى وضعه الجديد ، قام بأداء فريضة الحج فى ذات السنة . وكان بعضهم يفضل الإقامة بقية حياته فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة . وكان البعض الآخر يعود إلى مصر يقضى فيها وعلى ثراها ما تبقى له فى الحياة من خطوات . وكان هذا الفريق من رؤساء الخصيان السود يشارك فى الحياة السياسية المصرية فى النطاق الذى يجيده ويرتاح إليه . فكان يسهم مع الأمراء المماليك فى حبك الدسائس التى تستهدف عزل الباشا العثمانى من منصبه وإنزاله من قصره فى قلعة الجبل وتحديد إقامته حتى تتم محاسبته على تصرفاته المالية . وكان رئيس الخصيان السود يستضيف الباشا العثمانى ، أو يحدد له شيخ البلد — وهو كبير الأمراء المماليك — مكاناً آخر هو القصر العينى يقيم فيه حتى يتم ترحيله من مصر . وجدير بالذكر أن الأغوات الخصيان السود كانوا يحملون معهم من إستانبول إلى القاهرة مدخراتهم المالية ، ويعمدون إلى استثمارها فى مصر بشراء أرض زراعية أو عقارات مبنية دارة ، على أن تحول عقب وفاتهم إلى وقف خيرى ينفق إيراده على أوجه الخير مثل المساجد والتكايا والأسبلة وما إليها. ويذكر أحد المؤرخين السويسريين وهو الأستاذ كومب أن أحد الأغوات الخصيان السود كانت له ممتلكات كثيرة فى مدينة زفتى بالوجه البحرى (١).

(١) Combe Etienne; op. cit., pp. 66—67.

الخصيان البيض :

كان يطلق على رئيس الخصيان البيض « باب السعادت أغاسى » أى أغا باب السعادة (١) ، كما كان يطلق عليه « قابى أغاسى » أى أغا البوابة (٢) . وكان الخصيان البيض يتقاسمون فى بعض الأحايين مع زملائهم الخصيان السود العمل فى حراسة وخدمة الحريم السلطانى . ونقول « فى بعض الأحايين » لأنه كان هناك شد وجذب بين أفراد الطائفتين مرده إلى التنافس على الاستئثار بالنفوذ فى القصور السلطانية ، وسنشير إليه فى موطن قادم فى هذا الفصل . وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين العثمانيين ، وهو عطا طيار زاده أحمد (٣) ، كان السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١) أول من استخدم الخصيان البيض فى هذه الخدمة . وكان يؤتى بهم من إقليم القوقاز ، شأنهم فى ذلك شأن الجوارى اللاتى كان القصر يحصل عليهن بطريق الشراء من تجار الرقيق بسبب جمالهن الفاتن . وظلت حراسة الحريم السلطانى منوطة بالخصيان البيض حتى إذا ارتقى العرش السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) استبدل الخصيان السود بالخصيان البيض . ومعنى ذلك أنه منذ أوائل القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر كان الخصيان البيض هم الذين يستأثرن بحراسة الحريم السلطانى وبالخدمة الداخلية فى القصور السلطانية .

وكان يعاون رئيس الخصيان البيض خمسة مساعدون من كبار أفراد هذه الطائفة - الخصيان البيض - وكان يطلق على كل منهم لقب معين ، ولكل منهم اختصاصات محددة (٤) . وكان يلى هؤلاء المساعدين أعداد أخرى من .

---

(١) يطلق عليه أيضا ضابط باب السعادة .

(٢) يطلق عليه أيضاً ضابط الباب . وترد كلمة قابى مكتوبة قبو ، وكلتاهما كلمة تركية معناها باب

(٣) يسمى كتابه : وتاريخى عطاء وهو يقع فى خمسة أجزاء . وقد طبع فى إستانبول عام ١٢٩٣ ﻫ ويقابل عام ١٨٧٦ م . وقد نقلنا رأيه الذى ذكره فى ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٦ من Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 76.

(٤) كان هؤلاء المساعدون :

الخصيان البيض كانوا على شاكلة من سبقوهم ، مختلفى الألقاب والاختصاصات(١) ، تليهم مجموعات كثيفة العدد من زملائهم لن نتعرض لذكرهم اكتفاء بما عرضناه .

وكان الخصيان البيض يشرفون على تعليم وتدريب الغلمان — وهم من حصيلة ضريبة ديوشرمه (٢) — وكان يطلق على هؤلاء الغلمان المبتدئين « الإيج أوغلان »(٣) وكان الخصيان البيض يقومون بهذه المهمة فى جالاطه سراى، (٤)

ا — خاص أوطه باشى ، أى كبير المشرفين على الأوطة الخاصة ، وأوطه معناها جناح .
ب — خزينة دار باشى ، أى رئيس خزانة القصر .
ج — كلارجى وهو المشرف على الكلار ، أى مستودع المواد التموينية فى القصر .
د — السراى أغاسى أى أغا أو ضابط القصر . وكان من اختصاصاته تأمين سلامة مبانى القصر . ولهذا السبب كان يعمل تحت قيادته أربعون خصياً .
هـ — السراى كاخياسى أى مفتش القصر . واستثناء من القاعدة العامة لم تكن اختصاصاته محددة .

(١) كان من بينهم :

ا — خمسة يطلق عليهم « كوسة باشية » أى رؤساء الركن Heads of the Corner ومهمتهم الإشراف على سلوك مرؤسيهم والاطمئنان إلى قيامهم بواجباتهم على الوجه الأكمل .
ب — عدد غير محدود من « الباش إسكيه » أى كبار الرؤساء . وكان يطلق على أكبرهم رتبة « أوطه كاخياسى » أى مفتش الأوطة .
ج — إثنان من « الأوزنكى أغاسيه » أى أغوات الركاب . وكان يطلق على أحدهما « اليمينى » ، وعلى الآخر الشمالى أو اليسارى ، لأنهما كانا يسيران على جانبى السلطان حين يكون ممتطياً صهوة حصانه .
د — عدد من الخصيان البيض الأقل مرتبة ، ويطلق عليهم « سفرة إسكيسية » أى رؤساء المائدة Seniors of the Table وكان اختصاصهم الإشراف على نوبات طعام « الإيج أغوات » .

(٢) ضريبة الغلمان .

(٣) كان يطلق على الغلمان الذين قضوا مدة طويلة فى الخدمة « إيج أغوات » أى أغوات الداخل . بمعنى موظفين فى الخدمة الأمبراطورية الداخلية . وفى العصور المبكرة كان من النادر أن يتجاوز عمر كبار الغلمان خمساً وعشرين سنة . ولكن بعد إلغاء نظام ضريبة الغلمان أصبح كبار الغلمان رجالا تبلغ أعمارهم فى العادة ستين عاماً أو أكثر ، ولذلك كانوا لا يظلون فى آخر منصب يحصلون عليه أكثر من سبع سنوات .

(٤) قصر مقام فى جالاطه وهى إحدى ضواحى إستانبول .

أو فى القصر القديم فى أدرنة ، أو فى قصر إبراهيم باشا الذى أنشئ على عهد السلطان سليمان المشرع فى الموضع الذى شيد فيه بعد ذلك مسجد السلطان أحمد . وكان هؤلاء الغلمان ينتظمون فى مجموعات ، قوام كل مجموعة عشرة ، ويرأس خصى أبيض كل مجموعة منها .

وأضيفت إلى اختصاصات رئيس الخصيان البيض الإشراف على الأوقاف المرصودة على الأراضى المقدسة فى الحجاز . وكان يعاونه فى إدارة هذه الأوقاف طائفة من الموظفين من خارج القصر وبعض علماء الدين من أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، ثم استطاع رئيس الخصيان السود انتزاع إدارة الأوقاف من رئيس الخصيان البيض وتصاعد نفوذه بسبب هذا العمل الجديد(١). وكانت تصرف لرؤساء الخصيان فى مقابل إشرافهم على الأوقاف مرتبات إضافية تسمى ثمن الحذاء — جزمة (٢) — وقيل فى تبرير صرف بدل الجزمة لرئيس الخصيان إن إشرافه على إدارة الأوقاف كان يستنفد منه جهداً مضنياً ووقتاً طويلا . وفى القرن الثامن عشر كان رئيس الخصيان السود يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يرأس اجتماعات أسبوعية يحضرها المتولون (٣) يختصون بما يسمى « الحرمين ديوانى » أى ديوان الحرمين. وكان يساعد رئيس الخصيان عدد من رجال القضاء كان يطلق على أحدهم « حرمين مفتشى » أى مفتش الحرمين واثنان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما فى بروسة والآخر فى أدرنة . وكان من أسباب اختيار رؤساء الخصيان مشرفين على أوقاف الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ،

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن بعض كبار سلاطين الدولة مثل محمد الثانى وسليم الأول وسليمان المشرع قد عينوا الصدور العظام نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم ، بينما عين السلطانان أبويزيد الثانى وأحمد الأول شيخ الإسلام ناظراً على مثل هذه الأوقاف .

(٢) الجزمة كلمة تركية تعنى الحذاء ذا الرقبة الطويلة أو حذاء ركوب الخيل . ومنها اشتقت العبارة التركية جزمة جى باشى أى كبير صانعى الأحذية ، وينتمى هو ومساعدوه لأوجاقات أرباب الحرف .

(٣) المتولون جمع متول وهو بمثابة مدير إدارة الوقف . ويطلق على منصبه فى اللغة التركية « توليت » أى تولية ، و« الناظر » وهو أعلى مرتبة من المتولى ، إذ كان يشرف على أعماله ، و« السكرتير » ، و « المحصل »

وعلى الأوقاف السلطانية أيضاً العلاقات الوثيقة التى كانت قائمة بين السلاطين وبينهم .

التنافس على مراكز القوى بين الخصيان السود والخصيان البيض :

قام تنافس شديد بين الخصيان السود والخصيان البيض كان مرده إلى رغبة كل طائفة منها فى الاستئثار بالنفوذ الأعلى فى دوائر القصور السلطانية وفى شئون الدولة . وقد سبق أن ذكرنا أن رئيس الخصيان السود كان يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان هذا العبد الخصى فى درجة وزير . ونضيف هنا أن الرسائل التى توجه إليه باللغة التركية كانت تستهل بهذه العبارة « دولتلو عنايتلو أفندم حضرتلرى » أى حضرة صاحب الدولة والفخامة والاحترام » أما الرسائل التى توجه إليه باللغة الفرنسية فكانت تكتب مسبوقه بهذه العبارة الفرنسية ، Votre Altesse أى « حضرة صاحب السمو » أسوة بأمراء الأسرة العثمانية الحاكمة . وكانت له هيئة من السكرتيرين الخصوصيين يعرضون عليه المراسلات الموجهة إليه . وكان السلطان يطمئن إلى الخصيان السود ورئيسهم أكثر من اطمئنانه إلى الخصيان البيض ورئيسهم عادة . ولهذا السبب كانت اتصالات الصدر الأعظم بالسلطان تتم فى معظم الأحيان عن طريق رئيس الخصيان السود .

وفى أواخر القرن السادس عشر اهتز مركز الخصيان البيض اهتزازاً عنيفاً على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤–١٥٩٥) فقد أصدر هذا السلطان فرماناً فى عام ١٥٨٢ بتعيين أحد كبار العبيد الخصيان السود فى منصب دار السعادت أغاسى . وكان هذا المنصب حتى ذلك الوقت تابعاً إما للخزينة دار باشى وإما للسراى أغاسى . وقد استرد الأخير هذا المنصب بعد قرابة عشر سنوات ، ثم أعيد هذا المنصب نهائياً إلى الخصيان السود حين تولى السلطان محمد الثالث العرش (١٥٩٥–١٦٠٣) وانتقل نهائياً الإشراف على الحريم وعلى التفتيش على بعض الأوقاف السلطانية من يد القابى أغاسى — وهو رئيس الخصيان البيض — مما أدى إلى إضعاف نفوذ الخصيان البيض

وتضاءلت اختصاصاتهم . وعلى سبيل المثال أصبحت مهام الخاص أوطه باشى – وهو أحد كبار المساعدين الخمسة لرئيس الخصيان البيض – مقصورة على إلباس ملابس التشريفة لكبار الموظفين مثل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وبعض موظفى القصر . وبذلك غدا هذا الخصى الأبيض الكبير مجرد تشريفاتى للخدمة الداخلية . وأطلق عليه فى وضعه الوظيفى الجديد «أندرون تشريفاتجى»(١). وانعكس هذا الوضع الوظيفى المتدهور على كبار الخصيان البيض إذ سحبت منهم اختصاصاتهم الواسعة ، واقتصرت مهام الخزينة دار باشى والكلارجى باشى على التفتيش وعلى تزويد عنابر نومهم بالطعام ، ولكن ظل السراى أغاسى – أى أغا القصر – وهو من كبار الخصيان البيض يشرف على القصر فى أثناء غياب السلطان والضباط الذين كانوا يرافقونه . وكان هناك قصر فى إحدى ضواحى إستانبول يسمى « جالاطة سراى » تحت إشراف خصى أبيض ، ولكن ما بدأ القرن الثامن عشر حتى كان الخصيان البيض قد نقص عددهم نقصاناً كبيراً وفقدوا مركزهم الممتاز السابق إلى الأبد . وقد ذكر المؤرخ الفرنسى درسو D'Ohsson أن عدد الخصيان البيض قد هبط فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى ثمانين خصياً ، بينما تجاوز عدد الخصيان السود مائتى خصيا (٢) .

محاولة إلغاء نظام الخصيان :

وقد تغلغل الخصيان فى العديد من وظائف القصور السلطانية وتميزت خدمتهم فى معظم الأوقات بالأمانة والإخلاص والكفاية والطاعة العمياء ، ولكن يؤخذ عليهم أنهم أعطوا لأنفسهم ثقلا أكثر من اللازم وسيطر عليهم الغرور . وقد أدرك بعض كبار رجال الدولة خطورة استفحال نفوذ الخصيان فى القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة . كانت القصور السلطانية مليئة بالزوجات والجوارى . وكان إشراف الخصيان على شئونهن والقيام على حراستهن والاتصال بهن اتصالا مباشراً ودائماً قد أدى إلى نقل شطر كبير

(١) أندرون كلمة فارسية أدخلت فى اللغة التركية ، ومعناها داخل أو فى الداخل .

(٢) D'Ohsson; op. cit., Vol 7., p. 57.

من السلطة العليا إلى الخصيان ، إذ كانوا ينقلون رغبات هؤلاء السيدات إلى المختصين فى الباب العالى وغيره من الدوائر العليا فى الحكومة، فأصبح الخصيان مركز قوة رهيب فى الدولة . وقد جرت محاولة فى عام ١٧١٦ لإلغاء استخدام الخصيان البيض والسود على السواء فى القصور السلطانية . وكانت هذه المحاولة على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣—١٧٣٠) . وأرسلت إستانبول تعليمات إلى الباشا العثمانى فى القاهرة لوقف عمليات خصاء العبيد والكف عن إرسالهم إلى السلطان . وكان صاحب الفكرة فى إلغاء هذا النظام أحد الصدور العظام — وهو جور ليل داماد على باشا . ولكن ما لبث أن عادت الأمور بعد وفاته إلى أوضاعها السابقة .

محاولة للحد من نفوذ الخصيان :

وجرت محاولة فى أثناء حكم السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧—١٧٧٤) للحد من نفوذ الخصيان على الأوقاف خارج القصور السلطانية ، فألغى راغب باشا الصدر الأعظم تنظر رؤساء الخصيان على الأوقاف ، ووقف موقفاً حازماً منهم ، وجعل الإشراف على جميع إيرادات الأوقاف من اختصاص الدفتردار وهو رئيس الشئون المالية فى الدولة — وقد نجم عن حركة التطهير التى قام بها راغب باشا أن زادت حصيلة الأوقاف زيادة كبيرة . وانكمش نفوذ الخصيان ورؤسائهم . ولكن أخفقت هذه المحاولة ، لأن حركة الإصلاح لم تعمر سوى سنوات قليلة العدد ، وعاد نشاط الخصيان خارج القصور إلى وضعه السابق . ونجح القيزلر أغاسى — رئيس الخصيان السود — فى حمل الحكومة العثمانية على أن تعوضه هو وزملاءه الذين كانوا يعملون معه كمساعدين له فى نظارة الأوقاف عن الخسائر التى لحقت بهم طوال الفترة التى حرموا فيها من دخلهم من الأوقاف . ودفعت هذه التعويضات من الزيادة التى طرأت على إيرادات الأوقاف .

وازداد الموقف تدهوراً لأن رئيس الخصيان السود سعى جاهداً لدعم وترسيخ نظام الخصيان ، وأصبح يمارس نفوذاً كبيراً على السلاطين أنفسهم

بصورة غير مسبوقة بمثال ، وغدا من أكبر مراكز القوى فى الدولة .

تصاعد نفوذ الخصيان :

التحمت مصالح الحريم السلطانى مع مصالح الخصيان ورؤسائهم التحاماً وثيقاً . كانت نساء الحريم يصدرن إلى الخصيان حيناً ، وإلى رؤسائهم أحياناً ، رغباتهن التى كانت تأخذ شكل أوامر فينقلها رئيس الخصيان إلى الصدر الأعظم أو الوزراء أو غيرهم من كبار الموظفين فى أجهزة الدولة . فتأخذ هذه الأوامر طريقها إلى التنفيذ الفورى . وكانت هذه الرغبات أو الأوامر ذات طابع شخصى أحياناً ، وأحياناً أخرى ذات طابع عام تتصل بالأوضاع الوظيفية لكبار رجال الحكومة أو السياسة العليا للدولة . وفضلا عن ذلك كان الخصيان يسهمون فى تنفيذ المؤامرات التى كانت تحاك فى داخل القصر . وكان إسهامهم فيها يتم تحقيقاً لرغبة الحريم السلطانى . فكان الخصيان بطائفتيهم — السود والبيض — هم اليد اليمنى لسيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى . وكانت هؤلاء السيدات يغدقن من وقت لآخر المنح والعطايا فى شتى صورها وأنواعها على الخصيان ، فيزداد الواحد منهم تفانياً فى خدمتهن . وكلما شعر أنه مؤيد منهن أدى مهمته لدى كبار رجال الدولة فى حزم وقوة بل وفى صرامة ، لأنه كان يشعر أنه يتكلم من مركز قوة ، وهو نفسه مركز قوة . ومن هنا تفاقم نفوذ الحريم السلطانى والخصيان تفاقماً خطيراً فى دوائر الحكومة بحيث غدت هاتان الفئتان من أخطر مراكز القوى فى الدولة .

والواقع أن ولاء الخصيان للحريم السلطانى كان أعمق من ولائهم للدولة بدافع المصلحة الذاتية المشتركة فى النطاق الضيق . وكانوا يستمدون نفوذهم كمركز قوة فى الدولة من اتصالهم الدائم والوثيق بأولئك السيدات . ولذلك كان نفوذهم يزداد زيادة طردية مع نفوذ الحريم السلطانى ، بمعنى أن نفوذ كل من الحريم والخصيان كان يتصاعد معاً بحيث أصبحت هاتان القوتان تشكلان مركزين متساندين متحالفين من أكبر مراكز القوى فى الدولة ، بل لعلهما كانا يكملان بعضهما بعضاً .

وإذا كان الخصيان قد عملوا لتحقيق رغبات سيدات الحريم السلطانى وتنفيذ رغباتهن ، فإنهم لم ينسوا أنفسهم . وعملوا أيضاً من أجل تأمين مصالحهم الشخصية . وحسبهم أنه حيل بينهم وبين إنجاب ذرية تكون عوناً لهم فى شيخوختهم الواهنة . ولم تكن لهم حرية رفض أو قبول إجراء عمليات الخصاء لهم ، إذ كانوا قد فقدوا حريتهم وكرامتهم بل وآدميتهم . ووجدوا فى وضعهم الجديد وهم فى نهاية المطاف أنهم على قدر من الأهمية ، وأن الطريق أمامهم متشعب ، وأن السبيل إلى المجد ذى البريق المتوهج المؤقت ميسر ، فإن عدداً من الوظائف القيادية التى كان الخصيان يتدرجون فى الترقية إليها كان يشغل بالأقدمية المطلقة ، وكان عدد آخر من هذه الوظائف يشغل نتيجة الحظوة التى يظفر بها الخصيان من لدن الحريم السلطانى ، فضلا عن أن عدداً من الأغوات الخصيان كانوا يتعرضون للعزل إذا غضبت سيدات الحريم السلطانى عليهم . لذلك كانوا يتفانون فى خدمة هؤلاء السيدات بوجه خاص إبتداء من القادين الرابعة فصاعداً حتى السلطانة الوالدة . وكانوا أداة طيعة لينة فى أيديهن . وعلى الرغم من حذرهم وطاعتهم ، كانوا يتعرضون فى بعض الأحيان لدسائس الحريم السلطانى ، وما كان أكثرها فى السراى الجديد حيث كان الجو موبوءاً فى أجنحة الحريم . ويفاجأ كبير الأغوات الخصيان وبعض مساعديه بالعزل . ولذلك كان الخصيان بعامة وكبارهم بخاصة يعملون حساباً لمواجهة مثل هذا اليوم العصيب ، وقد جردوا من المنصب والجاه والنفوذ وأغلقت فى وجوههم الأبواب بعد أن كانت تعنو لهم جباه الجميع ، وأصبحوا بين عشية وضحاها نسياً منسياً .

وهدى تفكير الخصيان إلى تكوين ثروات خاصة بهم جمعوها إما عن طريق المدخرات المالية الشخصية والهدايا التى يحصلون عليها من سيدات الحريم السلطانى أو من كبار الشخصيات التى كانوا يتقربون بها إليهم ، وقد عملوا على مضاعفة هذه المدخرات إما من التنظر على الأوقاف الخيرية أو الأهلية . وإما عن طريق الكسب غير المشروع . وكانت الفرص أمامهم متاحة ومتعاقبة ، لأن شغل المناصب الكبرى فى الدولة أو منح الألقاب كان يتم بطريق الوساطة

والنفوذ، وبعبارة أخرى لمن يدفع فيها أغلى ثمن . وكان الثراء يظهر عليهم بعد عزلهم من مناصبهم ونفيهم إلى مصر حيث يقتنون العقارات المبنية أو الأرض الزراعية يحصلون على دخلها طوال حياتهم ، وينصون على تحويلها إلى أوقاف خيرية بعد مماتهم .

وكانت نهاية الخصيان والحريم السلطانى متقاربة إن لم تكن متشابهة . فإذا جاز السلطان إلى ربه انتقلت سائر سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى من السراى الجديد إلى السراى القديم وعشن على ذكرى مجد ولى . وقضين بقية أيامهن مغمورات أو على هامش الحياة . وقد يسعى أحد الوصوليين من كبار رجال الدولة ليتزوج إحدى القادينات السابقات وبخاصة اللاتى لم ينجبن من السلطان المتوفى ذكوراً أو إناثاً . ويستهدف مثل هذا الوصولى أن يصيب من مثل هذه الزيجة مغنماً .

وكان يحدث نفس المصير تقريباً بالنسبة للخصيان ، لأن ارتقاء سلطان جديد العرش كان يقترن عادة بحركة تغييرات أو تنقلات بين شاغلى المناصب القيادية بين الخصيان . فقد يكون لمثل هذا السلطان الجديد نساء ، أو يسارع ليجعل له نساء ويصبحن على قمة الحريم السلطانى ، ويقع اختيارهن على خصيان آخرين يتوسمن فيهم الأمانة والإخلاص ويخبو نجم الخصيان السابقين .

والحق أن نمو نفوذ الخصيان ، وتسلل هذا النفوذ إلى أجهزة الدولة على أعلى المستويات ، ونجاح هذه الفئة من العبيد فى أن تجعل من أفرادها مركز قوة خطير ، كل أولئك يعد نقطة سوداء فى تاريخ دولة إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية .

***

الفصل الثالث والعشرون

تقييم مراكز القوى فى الدولة

عهد ملئ بالمتناقضات :

فى تاريخ الدولة العثمانية وفى الشطر الأول من عصرها الثانى ظاهرتان تبدوان للبعض أنهما ظاهرتان غريبتان ومتناقضتان تناقضاً صارخاً مع المعالم الرئيسية لتاريخ الدولة فى تلك الفترة ، ويقف حيالهما بعض المؤرخين والباحثين حيارى فى تفسيرهما . وتتمثل الظاهرة الأولى فى أن الدولة حققت انتصارات عسكرية هامة فى جبهات جديدة أو فى جبهات قديمة على عهود مراكز القوى حين كان على رأس الدولة سلاطين ينتمون إلى العصر الثانى عرف بعضهم باسم السلاطين « التنابلة » fainéants وعرف البعض الآخر باسم السلاطين الذين لا يراهم أحد Invisibles لأنهم احتجبوا عن الشعب والجيش والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، وآثروا حياة المتع وسط نسائهم وجواريهم . ثم كان هناك السلطان المعتوه ابراهيم الأول . وقد رزئت الدولة بهم وتعاقبوا على عرشها إما تعاقبا مباشراً ، وإما على فترات متقاربة كأن يفصل بينهم سلطان واحد قدير قوى الشكيمة لا يلبث أن يخبو بريق حكمه بوفاته ، ثم يتعاقب على العرش سلاطين ضعاف يسرفون إسرافاً بعيداً فى الملذات ويبددون أوقاتهم وجهودهم فى حياة اللهو والمجون مما أتاح مناخاً صحياً لمراكز القوى فاستشرى نفوذها وطغيانها وجبروتها ، سواء الفيالق الإنكشارية أو الحريم السلطانى أو الخصيان ورؤساء الخصيان . وإذا كانت الدولة على عهد مراكز القوى قد منيت بكوارث عسكرية حيناً وهزائم حربية أحياناً فى بعض الجبهات إلا أنها أحرزت انتصارات عسكرية وسياسية هامة جداً فى ذات الوقت . ونذكر على سبيل المثال ما حدث على عهد السلطان سليم الثانى الذى اشتهر

فى تاريخ الدولة باسم السكير ، وبارتكابه الموبقات ، وبالتصاقه بصحبة السوء ، فقد تم إبان حكمه إرسال الحملة العسكرية بقيادة سنان باشا عام ١٥٦٩ لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وفتح جزيرة قبرص (١٥٧٠–١٥٧١) . أما حملة اليمن فكانت دعماً للإستراتيجية العثمانية فى البحر الأحمر وغلق هذا البحر فى مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى الاستعمارى للبحار الشرقية والأقاليم التى تطل عليها ، لأن اليمن بحكم موقعها فى جنوب غربى الجزيرة العربية وإشرافها على باب المندب تعد منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من ناحية الجنوب بحيث تستطيع بالسيطرة على اليمن أن تطمئن إلى سلامة الأراضى المقدسة الإسلامية فى الحجاز من الغزو البرتغالى(١). وكان استيلاء الدولة على قبرص نجاحاً عسكرياً رائعاً إذ انتزعت من جمهورية البندقية هذه الجزيرة التى كانت تتخذها قاعدة عسكرية صليبية تهدد المواصلات العثمانية البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكانت

---

(١) أنظر كلا من :

دكتور السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨–١٦٣٥ ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، الفصل الخامس بعنوان : الفتح العثمانى الثانى اليمن ١٥٦٩–١٥٧١ ، ص ص ٢٣٥–٢٨٦

دكتور فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨ . الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه ، مرجع سبق ذكره ويلاحظ أن العثمانيين أخرجوا من اليمن عام ١٦٣٥ ولم يعودوا إليها إلا فى منتصف القرن التاسع عشر ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن تحولت فيها اليمن إلى « مقبرة لأبناء الأناضول » حتى تم جلاؤهم عنها عقب الحرب العالمية الأولى . وكانت طبيعة بلاد اليمن عقبة أمام القوات العثمانية ، لأن بلاد اليمن لا تصلح لحرب نظامية ، كما أن أهل اليمن كانوا يتمسكون بأن يكون حكامهم ممن ينتمون إلى مذهب دينى معين هو الإمامية الزيدية . يضاف إلى هذين السببين بعد اليمن عن إستانبول ومشقة نقل القوات إليها إذ لم تكن قد شقت بعد قناة السويس . وكان أهل اليمن يطلقون على الحكام العثمانيين « ولاة العجم » ومع ذلك فقد أسدى العثمانيون خدمات جليلة لليمن .

انظر عرضاً لهذه الخدمات فى :

دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤–١٩٤٨) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ص ٢٨-٣٠

العمليات الحربية فى اليمن وقبرص تأكيداً عملياً للخصيصتين الرئيسيتين للدولة ، وهما الطابع العسكرى والطابع الدينى فى مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى والتسلط البندقى . ولم يشترك السلطان سليم الثانى فى هذه العمليات الحربية ، ولكن أسهم فيها إسهاماً فعلياً رجال أفذاذ تركهم السلطان سليمان المشرع لابنه سليم الثانى (١) .

وحققت الدولة نصراً عسكرياً آخر حين انتزعت تونس فى شهر أغسطس — آب — عام ١٥٧٤ من حكم إسبانيا . وكانت أوروبا ترى أن استيلاء الإسبان على تونس من أبهى الصفحات فى تاريخ الإمبراطور شارل الخامس — شارلكان — ومن مفاخر حكمه . ولكن أطاحت الدولة العثمانية بهذه المفخرة وأعادت تونس إلى حظيرة العالم الإسلامى العثمانى وحفظت لهذه النيابة (٢) إسلامها وعروبتها . وقد تم هذا الانتصار بفضل سنان باشا

---

(١) نذكر منهم فى الجبهة اليمنية : سنان باشا قائد الحملة ، وعثمان باشا ، ورءوف باشا ، ومختار باشا ، وحسن باشا .

وفى الجبهة القبرصية :

مصطفى باشا قائد القوات البرية ، وبيالى Pialé باشا قائد الأسطول ، ودرويش باشا والى حلب ، وإسكندر باشا والى الأناضول ، وبهرام باشا والى قرمان .

(٢) دخلت ثلاثة أقاليم فى شمال إفريقية تحت السيادة العثمانية فى القرن السادس عشر ، وهى حسب ترتيب تأسيسها : الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس . وقد أطلق الأستاذ محمد شفيق غربال على هذه الأقاليم الثلاثة اسماً علمياً هو النيابات . فقال فى فصل عنوانه « الأوضاع الراهنة فى دول المغرب العربى ما نصه « وأرى أن أسميها « نيابات » نقلا عن المصطلح المصرى السورى فى أيام السلطنة المملوكية ، حينما كانوا يطلقون على دمشق أو حلب أو ما ماثل اسم النيابة ، وحاكمها نائب السلطنة » . كما أطلق الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى على هذه الأقاليم الثلاثة « الأوجاقات » نسبة إلى أوجاق السلطان أو أوجاق الإنكشارية .

أما حكام أوروبا ومؤرخوها فقد أطلقوا عليها Les Régences Barbaresques وهى تسمية تنطوى على خبث وتلاعب بالألفاظ ، لأنها تعنى أحد مدلولين ، أولهما : النيابات المتبربرة أو الهمجية ، وثانيهما نيابات البربر ، وهم القبائل التى تقطن شمالى إفريقية بعيداً عن الساحل . وباستقراء النصوص الفرنسية أو الإنجليزية التى يرد فيها ذكر هذه العبارة يتضح أن مدلول النيابات المتبربرة الهمجية هو المقصود . ومما يؤيد رأينا أن المؤرخ الفرنسى دوان Douin نشر مجموعة من الوثائق الخاصة بشمال إفريقية . وجاء فى الوثيقة رقم ٣٧ هذه العبارة Les Etats Barbaresques أى الدول المتبربرة الهمجية .

قبل أن يقضى سليم الثانى السكير نحبه فى اليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - من ذات السنة إثر نوبة قلبية أصابته نتيجة إسرافه فى المسائل الجنسية وإفراطه فى تناول الخمور (١) .

ونجحت الدولة أيضاً نجاحاً عسكرياً باهراً على عهد السلطان محمد الرابع حين تم لها فى اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ احتلال جزيرة كريت على الرغم من المساعدات التى قدمها لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥) لجمهورية البندقية . ولكن كان أحمد باشا كوپريلى الصدر الأعظم قد إنتقل إلى جزيرة كريت ليكون على رأس

= وما هو جدير بالذكر أن اهتمام حكومات أوروبا فى القرن التاسع عشر كان منصباً على الأجزاء الساحلية من أقاليم شمالى إفريقية حيث كان سكانها المغاربة والعرب والأتراك العثمانيون يباشرون عمليات الجهاد الدينى البحرى ضد السفن المسيحية التى دأبت على التعرض للسفن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ومصادرة حمولاتها وأسر ركابها . وكانت السفن الإسلامية المسلحة ويطلق عليها « مراكب الجهاد » تخرج من موانئ شمالى إفريقية للدفاع عن السفن الإسلامية ولم تكن تخرج للقرصنة . ومع الأسف الشديد حذا بعض المؤرخين والباحثين العرب حذو المؤرخين الأوروبيين وأطلقوا على مسلمى شمالى إفريقية صفة القراصنة . والحق أنهم قاموا بدور رائع فى الدفاع عن الإسلام والعروبة أو السيادة العثمانية ، وفى الكفاح ضد استعمار أوروبى كانت تتزايد أخطاره يوماً بعد يوم . وقد تولى تصحيح هذه الفرية أو الخطأ المتعمد الشائع بعض الأساتذة ، نذكر منهم على سبيل المثال الأستاذين الدكتورين جلال يحيى وصلاح العقاد .

انظر المراجع التالية حسب ترتيب ورودها فى هذه الحاشية :

محمد شفيق غربال : منهاج مفصل الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر . ثلاثة أجزاء . مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ ، ج ٢ ، ص ٨٥٥-٨٥٦

Douin Ceorge; Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger. Le Caite, 1930, p. XLIV et P. 108

دكتور جلال يحيى ؛ المدخل إلى تاريخ العالم العربى الحديث . الناشر : دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ص ٣٦-٣٧

دكتور جلال يحيى ؛ المغرب الكبير . ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٢٠-٢١

دكتور صلاح العقاد ؛ المغرب العربى ، الجزائر - تونس - المغرب الأقصى . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨

(١) بروكلمان كارل ؛ الأتراك العثمانيون ألخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٣٧

القوات العثمانية ويستكمل فتحها بعد حرب استطالت خمساً وعشرين سنة (١).

وبين هذين الانتصارين الكبيرين وهما فتح جزيرة قبرص وفتح جزيرة كريت (١٥٧١-١٦٦٩) تعرضت الدولة لهزائم عسكرية أليمة وفرضت عليها معاهدات جائرة، نذكر منها على سبيل المثال أنها فقدت أجزاءً من أملاكها مثل البغدان وشطراً من ترنسلفانيا . وواجهت الدولة قوات جرارة من الألمان والإيطاليين والمجريين . وتصاعدت الحرب بين الدولة والنمسا التى نجحت فى فرض معاهدة توروك (٢) فى الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٠٦ ، وبعد زهاء نصف قرن أرسلت الدولة قوات كثيفة العدد عام ١٦٦١ إلى ترنسلفانيا والمجر . ولكن استطاعت النمسا إبادتها . ولم تمر سنتان على هذه الكارثة حتى قاد أحمد باشا كوبريلى الصدر الأعظم عام ١٦٦٣ حملة قوامها ١٢٢,٠٠٠ جندى وانتصر على النمسا إنتصاراً كان له دوى فى أنحاء أوروبا ،وأعاد إلى الأذهان انتصارات السلطان سليمان المشرع فى العصر الذهبى للدولة . واحتل العثمانيون فى ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٦٣ قلعة نوهزل Neuhaeusel وتعد من أمنع القلاع فى أوروبا واستعصت على كثير من كبار العسكريين من قبل . ونجحت الدولة فى عقد معاهدة فاسفار (٣) فى العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٦٤ مع النمسا . وكانت أحكام هذه المعاهدة فى مجموعها فى صالح الدولة العثمانية أكثر منها فى صالح النمسا . وبالتالى فإن الدولة بعد معركة سان جوتار Saint Gothard (أول أغسطس

---

(١) دكتوره زينب عصمت راشد . كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٠

وأنظر أيضاً :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع ألخ ، الطبعة الأولى ص ص ٨٠١-٨١٠

(٢) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم سيتفاتوروك Sitvatorok وقد آثرنا أن نطلق عليها فى هذه الدراسة الاسم المختصر ،وهو، توروك Torok كما أطلق عليها غيرنا من قبل هذا الاسم المختصر.

(٣) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً إسم إيزنبرج Eisenberg

آب — ١٦٦٤) لم تكن فى مركز الدولة المنهزمة التى تملى عليها شروط مهينة . ولا نريد أن نمضى فى عرض مزيد من الأمثلة لهزائم وانتصارات الدولة العثمانية فى تلك الفترة لأنها ألصق بالتاريخ الحربى للدولة . وقد سبق لنا فى أحد كتبنا السابقة أن عرضنا لصور من هزائم وانتصارات الدولة (١) .

والأمر العجاب أن الهزائم العسكرية التى منيت بها الدولة فى تلك الفترة قد كشفت عن حقيقة هامة ، هى أن الدولة كانت لاتزال تزخر بطاقات حيوية تتدفق فى أوصالها . ففى أثناء حكم السلطان سليم الثانى السكير أصيبت الدولة بكارثة عسكرية ودينية حين تحطم أسطولها فى معركة ليبانت Lépante فى السابع من شهر أكتوبر — تشرين أول — ١٥٧١ ، وهى المعركة البحرية التى أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون اسم الحرب الصليبية المسيحية كما سبق أن ذكرنا . وتكبدت الدولة خسائر فادحة فيها . وعلى الرغم من أن الدوج لويجى موسنجو Luigi Mocenigo (١٥٧٠—١٥٧٧) رئيس جمهورية البندقية قد خرج هو وحلفاؤه منتصرين من هذه الصليبية الأوروبية ، فقد رأى أنه لا فائدة ترجى من استمرار حالة الحرب بين جمهورية البندقية وبين الدولة العثمانية . واستقر رأياً على أن إعادة العلاقات السياسية مع الدولة خير وأبقى (٢) . وبذلت الحكومة الفرنسية مساعيها الحميدة *ses bons offices* فى هذا الصدد . وكان نائب البندقية فى إستانبول ، واسمه أنطونيو باربارو Antonio Barbaro لايزال مقيماً بالعاصمة العثمانية فى أعقاب المعركة الصليبية . وطلب مقابلة محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم ليسبر غوره ويقف منه على اتجاهات السياسة العليا للدولة تجاه البندقية بعد معركة ليبانت . وقد بادره الصدر الأعظم قائلا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ص ص ٧٥٠—٨١٠

وانظر أيضاً :

Reddaway W.F.; A History of Europe etc.; op.cit., pp. 236—245.

(٢) كانت فى جمهورية البندقية عدة هيئات تشترك فى الحكم ، منها : المجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ ، والمجمع ، ومجلس العشرة وغيرها . وكانت هذه الهيئات تحد من نفوذ الدوج حتى قيل إنه كان يملك ، ولكن لم يكن يحكم .

« إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا ، وترى أين هي . ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا . إن إستيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره . وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق الحانا . وإن اللحية لتنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين نبتت بها فى الوجه لأول مرة » (١) . وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفورى الجاد . كان بيالى باشا القبودان من بين قتلى معركة لبانت ، فعهد محمد صوقلو باشا إلى القبطان باشا الجديد ، واسمه العلج على ، ومعناه السيف على ، ببناء أسطول جديد فى الشتاء الذى أعقب هذه الهزيمة (١٥٧١—١٥٧٢). وانصرف إلى تنفيذ هذا الأمر . ولقى العلج على كل معاونة من الصدر الأعظم فى إعادة إنشاء السلاح البحرى الجديد لحوض البحر المتوسط وزودته الدولة بكافة الأسلحة والذخائر . وإنصافاً للسلطان سليم الثانى نذكر أنه على الرغم من سمعته السيئة أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثمانى . فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطانى لتبنى فيه أحواض سفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة . ويعلق كريزى Creasy على تصرف سليم الثانى فى هذا الصدد بقوله إن ذلك التصرف كان الومضة الوحيدة فى حياة هذا السلطان والتى من أجلها يستحق الانتساب إلى بيت آل عثمان (٢) . واستطاع الأسطول الجديد منذ شهر يونيو — حزيران — عام ١٥٧٢ أن يعاود جولاته فى البحر المتوسط وأن يتحرش بالدول الأوروبية وبالكيانات السياسية المسيحية التى وقفت موقفاً عدائياً من الدولة فى صليبية لبانت . وأخذت الوحدات البحرية العثمانية الجديدة تجوب المياه الإقليمية لسواحل إيطاليا دون أن تجرؤ إحدى الدول أو رؤساء الفرسان الإسبتارية على التعرض لها . واستغلت الدولة العثمانية إعادة التوازن الدولى البحرى لمصلحتها فى حوض البحر المتوسط ، واستطاعت أن تملى معاهدة جائرة على جمهورية البندقية فى السابع من شهر مايو — آيار —

---

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٧٩

(٢) Creasy, E.S.; Histnry of the Ottoman Turhs, from the beginning of their Empire to the present time London, 1877, p. 233.

عام ١٥٧٣ (١) . وتساءل الرأى العام الأوروبى عن الدولة التى انتصرت فى صليبية ليبانت ، وهل هى جمهورية البندقية والبابوية وحليفاتها ؟ أو الدولة العثمانية ؟ ويقول لاڤاليه ، وهو من المؤرخين الفرنسيين الذين لا يكنون تقديراً للدولة العثمانية ،إن انتصار المسيحية فى هذه المعركة كان انتصاراً عقيماً، بل كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً (٢) .

نصت هذه المعاهدة على أن تدفع البندقية على مدى ثلاثة أعوام ثلاثمائة ألف بندق كجزء من نفقات الحرب التى تكبدتها الدولة العثمانية من أجل استيلائها على جزيرة قبرص ، كما نصت على زيادة الجزية التى تؤديها البندقية من خمسمائة بندق إلى ألف وخمسمائة بندق من أجل احتفاظها بجزيرة زنطا Zanté ، وتقع على مقربة من شواطىء بلاد المورة ، وجاء فى مواد المعاهدة أيضا أن تتنازل البندقية للدولة العثمانية عن جزيرة قبرص وجزيرة سوپوتو Sopoto

كانت هناك ظاهرة أخرى واكبت ظاهرة الانتصارات العسكرية إبان الفترة التى استشرى فيها نفوذ وجبروت وطغيان مراكز القوى فى الدولة . ونعنى بهذه الظاهرة استمرار حركة إقامة المساجد الكبرى التى ازدهرت فى العصر الذهبى للدولة ، وأصبحت المساجد من أبرز عناصر الحضارة العثمانية ومن أعظم ما يميز الفن المعمارى العثمانى بهاء وروعة وجلالا ووفرة عددية (٣) . فلما ولى العصر الذهبى لم يفتر أو يتوقف بناء المساجد الكبرى . ولنا عدة ملاحظات فى هذا الصدد نذكر من بينها :

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : اوروبا فى مطلع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ الطبعة الأولى ، ص ٧٨٠

(٢) Lavallée, op. cit., t. II, p. 161.

(٣) نذكر على سبيل المثال أن سنان باشا المهندس المعمارى قد شيد بأمر السلطان سليمان المشرع إبان حكمه الطويل واحداً وثمانين جامعاً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً . وكانت هذه المساجد من أهم الآثار العمرانية للسلطان سليمان . وكان فى مقدمتها جامعه الكبير فى إستانبول . ومن قبل أنشأ السلطان محمد الفاتح مسجدا فى إستانبول هو الجامع المحمدى ، كما أنشأ السلطان أبويزيد الثانى مسجده أيضاً فى الفترة من ١٤٩٧-١٥٠٣

أنظر بروكلمان كارل ، الأتراك العثمانيون ، وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ص ٧١-٧٢

أولاً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية الذين عرفوا بالمجون وإدمان الخمور تولوا إنشاء مساجد شامخة بلغت الروعة فى الجمال والزخرفة والشموخ. نذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الثانى . فقد أقام فى مدينة أدرنة مسجداً كان أعظم مبنى فيها . وقد قام ببنائه سنان باشا كبير المهندسين المعماريين فى الفترة من ١٥٦٨ إلى ١٥٧٤ ، وأطلق عليه مسجد السليمية نسبة إلى السلطان سليم الثانى . ويقول سنان باشا إن بناءه هذا الجامع يعد من أعظم أعماله ، وهو يقوم على أعلى بقعة فى أدرنة ، وله قبة ضخمة ، وأربع مآذن رفيعة كالعمد ، لكل منها ثلاث طبقات وثلاث من الدرج . وللمسجد فناء رحيب . وقد بلغ هذا المسجد من فخامة البناء والروعة والزخرفة ما جعله المسجد الرئيسى للسلاطين فى أدرنة على الرغم أن فى أدرنة أربعين مسجداً كبيراً وصغيراً (١) .

وأمر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) ببناء المسجد الفخم الذى يحمل اسمه . واستغرق بناؤه الفترة من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٦ وهو يقع فى آت ميدانى — ميدان الخيل — فى إستانبول .

أما السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) الذى كان يميل إلى حياة المجون والتهتك والعبث وسط الحريم السلطانى فقد أمر ببناء مسجد لوالدته فى أسكدار (٢) . وقد تم بناء هذا الجامع عام ١٧٠٨ ويسمى بكى والده جامعى .

ثانياً : ان عدداً من سلاطين الفترة الثانية أدخلوا تحسينات على المسجد الرئيسى فى العاصمة .

كان السلطان محمد الفاتح قد حول كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية إلى مسجد عقب فتح هذه المدينة . وقد أضاف السلطان سليم الثانى وخلفاؤه ثلاث مآذن بجانب المأذنة الأولى التى كان السلطان محمد الفاتح قد أقامها .

---

(١) Mordtmann J.H.; Encycl. of Islam. Art. Adrianople,

(٢) وترد هذه الكلمة فى بعض المراجع مكتوبة على هذا النحو : أسكودار وهو أقدم وأكبر حى فى إستانبول فى جزئها الواقع على الجانب الآسيوى من البوسفور . ويطلق عليه أيضاً اسم سكوتارى Scutari

وأقام سليم الثانى فوق القبة الرئيسية هلالا من البرونز بلغ قطره ثلاثين متراً . وأضاف السلطان مراد الرابع (١٦٢٣–١٦٤٠) نقوشاً ضخمة كتب بعضها بحروف بلغ طولها تسعة أمتار . وكانت تنتظم اسم الله سبحانه وتعالى ، واسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأسماء الخلفاء الراشدين .

ثالثاً : مساجد أنشأتها سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى .

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى اللائى كن يشكلن مركز قوة فى الدولة قد تنافسن فى إنشاء مساجد زلفى إلى الله . وقد تركزت هذه المساجد فى ضاحية واحدة من ضواحى إستانبول ، هى ضاحية « أسكودار » أو « سكوتارى » . وقد بنيت قبلها مساجد أخرى فيها لا تدخل فى نطاق هذه الدراسة . ونذكر من تلك التى شيدت فى عصر مراكز القوى .

إسكى والدة جامعى . وقد سبق أن أشرنا إليه .

جامع چنيلى . وقد فرغ من إقامته عام ١٦٤٠ فى نهاية حكم السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول .

رابعاً : إعداد كسوة الكعبة الشريفة فى إستانبول :

يجمع مستشرقان، هما : إيوار ، ومانتران ، على أن السلطان أحمد الأول على الرغم من عيوبه الكثيرة مثل القسوة والتقلب وسهولة التأثير عليه والتنكر لمن أسدوا خدمات جليلة للدولة ، كان يغمره الورع والتقوى فكان يجمع بين المتناقضات . أقام عدة منشآت دينية وخيرية . وكان أول من أمر بأن تعد فى إستانبول كسوة للكعبة الشريفة فى المسجد الحرام بمكة المكرمة (١) وأن ترسل سنوياً مع قافلة الحج الشامى (٢) . وكانت هذه القافلة تعد القافلة

---

(١) Huart C.I., Encycl. of Islam. Art. Ahmed I.
Mantran R., Loc.cit.

(٢) يرد ذكرها فى بعض المراجع قافلة الحج الرومى أى التركى أو العثمانى ، لأنها أصبحت تبدأ رحلتها من إستانبول .

الأولى فى الدولة وتضم المحمل الشريف وحجاج بلاد الشام وحجيج الأناضول والروم إيلى (١) . ويلاحظ أن إعداد الكسوة الشريفة فى إستانبول وإرسالها لم يمنعا الحكومة المصرية من الاستمرار فى إعداد الكسوة أيضاً وإرسالها مع قافلة الحج المصرى إلى مكة المكرمة . وكان وصول القافلتين الشامية والمصرية بالمحملين يعد حادثاً عظيما عند أهل مكة . وكانوا يحتفلون بمقدمها . وتنصب القافلتان خيامها فى أماكن معينة خارج مكة المكرمة .

وتفسير هاتين الظاهرتين لا يحتاج إلى عناء فكرى كبير . ولا يمكن القول إن مراكز القوى قد أسدت إلى الدولة خدمات جليلة ، بل كان العكس هو الصحيح . ولا يمكن القول أيضاً إن مراكز القوى كانت تتميز بالحصافة السياسية أو المقدرة الإدارية أو الكفاية الحربية أو التعمق فى الثقافة الدينية الإسلامية العليا . ولكن الصحيح أن الدولة العثمانية كان قد مضى على إنشائها من عهد عثمان الأول حتى عزل السلطان أحمد الثالث أكثر من أربعة قرون (١٢٩٩-١٧٣٠) فلم تكن دولة ناشئة ، وإلا كان حكم سلطان واحد من السلاطين « التنابلة » كفيلا بالإطاحة بها . يضاف إلى ذلك سبب آخر هو أن الدولة كانت دولة عسكرية بكل ما يحمل هذا الوصف من معان . وكانت العسكرية الصارمة هى الخصيصة الأولى من خصائص الدولة . وكان لها قوات عسكرية مسلحة ضاربة رهيبة كثيفة العدد متعددة الأسلحة ، مثل سلاح البيادة - المشاة - وسلاح الخيالة - الفرسان ، وسلاح الطوبجية - المدفعية - بكافة أفرعها . وكانت لها قوات بحرية بصفتها إحدى دول البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر . ويلاحظ أيضاً أن الصعوبة التى صادفها رجال الإصلاح فى الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر والقرن التالى هى تحويلها من دولة عسكرية إلى دولة مدنية . وفى ظل الدولة العسكرية كان العسكريون -

---

(٣) كانت قافلة الحج الشامى أو الرومى تسلك الطريق التجارى القديم من إستانبول إلى دمشق وتخترق ما وراء الأردن ، وهى موآب القديمة مارة بمعان ، فدائن صالح ، فالمدينة المنورة ، ثم مكة المكرمة . وأقامت الحكومة العثمانية معاقل فى المحطات يجد فيها الحجاج طعاماً مهيئاً وشراباً. وكانت الرحلة من إستانبول إلى مكة المكرمة تستغرق زهاء خمسة وأربعين يوماً .

وهم أهل الثقة بالتعبير المعاصر- يتقلدون المناصب المدنية فضلا عن الوظائف العسكرية . ولم تجد الدولة رصيداً بشرياً من أصحاب الكفايات المدنية - وهم أهل الخبرة - لتملأ بهم المناصب المدنية فيما عدا علماء الشريعة من أعضاء الهيئة الدينية الحاكمة . وأخيراً كان هناك سببان آخران لم يجعلا لمراكز القوى الأثر السريع فى انهيار الدولة . فقد كانت هذه الدولة لا تزال تسير بقوة الدفع التى أودعها فيها سلاطين عصرها الذهبى فى الفترة الأولى من تاريخها . وأخيراً كانت الدولة العثمانية من كبرى دول العالم بحيث لم يكن اضمحلالها أو سقوطها أمراً ميسراً يقع بين عشية وضحاها . وقد كان اضمحلالها حصيلة عوامل داخلية وخارجية عديدة ومتباينة فى أصولها ووسائلها وأهدافها ، وظلت تنخر فى عظام الدولة أعصراً وأدهاراً وأحقاباً . وكانت مراكز القوى من بين هذه العوامل المبكرة ، ومن بين النذر الأولى لاضمحلال الدولة . ومع ذلك فقد ظلت هذه الدولة قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، لأنها كانت دولة شامخة البنيان قوية الدعائم وطيدة الأركان . عاصرت الزحف الاستعمارى الأوروبى فى أعنف مراحله ضراوة . نظر إليها على أنها دولة إسلامية دخيلة على أوروبا ، ويجب طردها من هذه القارة ومن شمالى إفريقية وسائر القواعد العسكرية التى تحتلها فى حوض البحر المتوسط كمقدمة للقضاء عليها وإزالتها من خريطة العالم السياسية . وكذلك واجهت تكتلات عسكرية صليبية نظمتها الدول الأوروبية الاستعمارية ، وشنت عليها حروباً متصلة بحيث كانت الدولة تخرج من حرب لتخوض حرباً أخرى فى جبهة أخرى . ولا تكاد الحرب الثانية تضع أوزارها حتى تواجه الدولة ثورة عارمة فى ولاية أو أكثر من ولاية مسيحية فى أوروبا تروم الاستقلال بتحريض وتشجيع ومساعدة بعض الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى .

وأخيراً فإن الدولة العثمانية كانت دولة الإسلام الكبرى . وكانت فتوحاتها الحربية وسط شعوب مسيحية تتم باسم الإسلام ، وكما سبق أن ذكرنا كان إذا دخل مسيحى أوروبى فى الدين الإسلامى قال عنه زملاؤه إنه غدا عثمانياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً . فالدولة العثمانية كانت الرمز الحى

المجسد للاسلام . وكان للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة مركزها المرموق بين الهيئات الحاكمة فى الدولة ونفوذ متشعب فى أجهزة الدولة بحيث لم يكن من السهل أن ينكمش نشاطها الدينى .

* * *

والمعنى الذى نستخلصه مما سبق أنه من بين الخصائص العديدة التى تميزت بها الدولة ظلت الخصيصتان الأوليان الرئيسيتان ، وهما العسكرية والدينية ، بارزتين فى نشاط الدولة . ولم تتأثرا من وجود مراكز قوى فيها تأثراً خطيراً أو كبيراً ، بل ظلت الدولة محتفظة بهما ، ولهما مكان الصدارة مما يعد من دلائل أصالة هذه الدولة ، وأنها كانت ذات رصيد زاخر من مجد مؤثل عاشت عليه فى أحلك الفترات التى سيطرت فيها على مصائرها مراكز قوى لم تكن تروم غير تحقيق مغانم شخصية لها .

ولايعد هذا التقييم دفاعاً عن مراكز القوى الثلاثة أو تقليلا من الأضرار التى لحقت بالدولة من جرائها . فما لاجدال فيه أن الفوضى ضربت أطنابها فى أجهزة الحكومة وساد الاضطراب فى الدولة ، كان السلاطين لايحكمون ، وكان الصدور العظام لايحكمون ، وانتقلت السلطة فى الدولة إلى أيدى طوائف غير مسئولة : جوار حسان اشتريت غالبيتهن بالمال الوفير ، وعبيد خصيان بيض وسود وأغواتهم ، فضلا عن أخلاط شتى من العسكريين خرجوا على قواعد الإنضباط العسكرى . ولم يفكروا فى المصالح العليا للدولة ، واقتصر تفكيرهم ونشاطهم على تحقيق مصالح شخصية وعاجلة لهم مثل زيادة مرتباتهم وإجراء ترقيات سريعة لهم ومنحهم المزيد من البدلات والامتيازات . ولكن كان العسكريين لايقنعون ولايشبعون . وفكر بعضهم فى الاستيلاء على الفضيات الموجودة فى القصر السلطانى معتمدين على كثرتهم العددية وأسلحتهم ودربتهم على اقتحام المواقع ، وكان بعض العسكريين يثورون على بعض التصرفات التى تصدر عن السلاطين ولا تروقهم . ومن الأمثلة الصارخة التى تساق فى هذا الصدد أن الإنكشارية لجأوا إبان حكم السلطان مصطفى الثانى (١٦٩٥ — ١٧٠٣) إلى سلاحهم التقليدى ، وهو اعلان العصيان العسكرى ، بحجة أن السلطان أطال إقامته فى مدينة أدرنة بدلا

من إستانبول . وقد أسفرت حركة التمرد عن خلع السلطان مصطفى الثانى . ومنذ ذلك الحين تجنب السلاطين زيارة مدينة أدرنة إلا لماماً ثم هجروها تدريجاً خلال القرن الثامن عشر .

* * *

وقد صحب نشوء مراكز القوى الثلاثة ونموها واستفحال خطرها ظهور عناصر جانبية أخرى تطلعت إلى أن تكون موئلا للنفوذ أو بعض النفوذ ، وأطلت برأسها على مجالات مراكز القوى ، وتزاحمت وتنافست على أن تكون مقاليد الأمور فى يدها على نحو من الأنحاء . وكان من بين هذه العناصر الجانبية فرق السباهية أو السباهى ، وكبار أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة بعد أن زجوا بأنفسهم فى هذا المعترك ، ووقفت طوائف الحرف Trade Guilds (١) تراقب عن كثب تصارع هذه القوى لعلها تصيب منه مغنما . وكان ولاء أعضاء طوائف الحرف للسلطان يغلب عليه الطابع الدينى ؛ بينما كان ولاؤهم لطوائفهم ذا طابع مادى واقتصادى واجتماعى .

وعلى تعدد مراكز القوى فى الدولة وتباين نفوذها علواً و هبوطاً ، كان لسيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى وغيرهن من الجوارى الحسان النفوذ الأول والأعلى بين جميع مراكز القوى فى الدولة نظراً لاتصالهن الوثيق والدائم بالسلطان من ناحية ، وتسلطهن على الصدور العظام من ناحية أخرى. وقد كن أساس جميع المساوىء أو معظم المساوىء التى تعرضت لها الدولة فى أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفى رأى المؤرخ الإنجليزى الأستاذ جرانت أن سيدات الحريم السلطانى جعلن ظهور سلطان

---

(١) كان لأصحاب الحرف فى الدولة بعامة وفى المدن الكبرى بخاصة منظمات أو هيئات تسمى طوائف الحرف . وكان لكل طائفة رئيسها ونقيبها ونظمها الخاصة بها . وكانت الحكومة تتصل بأفراد كل حرفة عن طريق رئيس الطائفة الذى يطلق عليه شيخ الطائفة . وكان يجمع الضرائب والإتاوات المقررة عليهم ويوردها لخزانة الحكومة كما يبلغهم أوامرها . وتمتعت هذه الطوائف بشبه استقلال ذاتى فى إدارة شئونها . وكان أعضاء كل طائفة يدينون بولاء عميق جدا لطائفتهم إلى حد كان يفوق ولاءهم للسلطان . ولما كانت طوائف الحرف تقوم فى المدن فقد كان يقابلها فى الريف مجالس القرى ، أو القبيلة فى حالة البدو الرحل .

قوى الشكيمة أشبه بمعجزة (١) . وهو رأى صائب يصدر عن مؤرخ عملاق . والحق أن الأمثلة الصارخة العديدة التي سقناها في هذه الدراسة عن تسلط الحريم على السلاطين تؤيد ذلك الرأى وتصور حقيقة الأوضاع في الدولة .

وكان التوسع في استخدام الخصيان البيض والسود في خدمة وحراسة الحريم السلطاني دليلا على ارتياح سلاطين الدولة لنظام الخصيان واطمئنانهم لهؤلاء الخصيان من الناحية الخلقية على الأقل . وقد أدى هذا التوسع في استخدامهم إلى تغلغلهم في شتى دوائر الحريم حتى أصبحوا ظاهرة اجتماعية بارزة في حياة القصور السلطانية ، ومثالا يتداعى إلى الأذهان بكل جوانبه وصوره ومعانيه بل ومآسيه إذا ذكر اسم دولة في الشرق أخذت بهذا النظام . أما النفوذ الكبير الذى نجح الخصيان في استقطابه نحوهم فكان نتاج عدة عوامل ، منها : أنهم كانوا الرجال أو أشباه الرجال الوحيدين الذين كانوا يقيمون أو يعيشون في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية ، ولم يجدوا منافسين لهم في هذا الصدد ، وأنهم كانوا على اتصال دائم ووثيق بسيدات الحريم نتيجة قيامهم بحراستهن وخدمتهن ، وأنهم كانوا موضع الثقة التامة للحريم وأداة الاتصال الوحيد بين الحريم وكبار رجال الدولة في خارج القصور . فإذا كانت نهاية المطاف بالخصيان أنهم أصبحوا مركزاً من مراكز القوى فإن هذه النهاية كانت أولا نتيجة « الوضع » الذى أنشأته الدولة لهم في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية بالإقامة الدائمة في تلك المناطق المغلقة لتجعل منهم مراكز نفوذ وقوة دون قصد منها . وثانياً نتيجة « الوضع » الذى أنشأته لهم سيدات الحريم السلطاني بجعلهم اليد اليمنى لهن وأداة الاتصال بينهن وبين رجال الدولة على أعلى المستويات . وكان ثالثاً نتيجة استغلال الخصيان للوضعين السابقين في ذكاء وفطنة وهدوء وتفان في الخدمة وأدب جم مما أضفى عليهم النفوذ والجاه . لقد كان الحريم

(١) Grant A.J.; A History of Europe (1494—1610); op. cit., p. 225.

السلطانى والخصيان مركزين هامين من مراكز القوى يكمل بعضهما بعضا . ولذلك كان يقترن ذكر الحريم السلطانى بذكر الخصيان سواء فى أذهان المؤرخين والباحثين أو فى كتاباتهم .

حكومة الحريم والخصيان :

وقد وصف بعض المؤرخين والباحثين الحكومة العثمانية خلال تلك الفترة بأنها « حكومة السيدات (الحريم) والخصيان » Gouvernement des Femmes et des Eunuques (١) وقد يرى البعض فى هذا الوصف نوعاً من المبالغة أو الرغبة فى التشهير بالدولة العثمانية . ولكن التزامنا بمبدأ الحيدة المطلقة فى هذه الدراسة وفى غيرها من الدراسات يفرض علينا أن نذكر أن هذا الوصف يصور جانباً كبيراً من الحقيقة . ويفرض علينا مبدأ الحيدة أيضاً أن نشير إلى أنه كان هناك جانبان يتصلان بهذه الحقيقة . الجانب الأول أن ظاهرة تفاقم نفوذ الحريم السلطانى والخصيان ورؤسائهم قد تفشت فى العصر العثمانى الثانى أو مايسمى عصر سلاطين الفترة الثانية ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت على وجه التحديد فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع آخر سلاطين الفترة الأولى أو مايسمى سلاطين العصر الذهبى . وكانت بداية هذه الظاهرة عند ما شرعت روكسلانه تضع الخيوط الأولى لمؤامرتها التى استهدفت منها قتل الأمير مصطفى ولى العهد وتعيين ابنها الأمير سليم مكانه ، أما سلاطين الفترة الثانية فلم تكن لدى معظمهم قوة الخلق أو الشخصية التى تجعلهم يقفون فى وجه الجميلات الفاتنات من سيدات الحريم السلطانى ويمنعون تدخلهن فى شئون الدولة ، كما أن هؤلاء السلاطين لم يتصدوا للإطاحة بنفوذ العبيد الخصيان

---

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., vol. v, p 882.

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، الكتاب الثانى ، مرجع سبق ذكره ، صص ٥٩-٦٣

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٧٥٥

وبخاصة الخصيان السود الذين أصبحوا يباشرون حتى القرن الثامن عشر نفوذاً على السلاطين لم تعرف له الدولة من قبل مثيلا :

ويعرض المؤرخ الفرنسى رامبو فى العبارات التالية الخطوط الرئيسية لنشأة مراكز القوى فى الدولة وتطورها منذ الصراع الذى خاضته روكسلانه ذات الوجه الباسم من أجل ابنها وتعيينه ولياً للعهد :

«Déjà, au temps de Soliman le Grand, il y avait eu conflit entre le harem et le grand-vizirat, et Roxelane avait obtenu la mort d'Ibrahim. déjà, de son temps, le harem avait commencé à se subordonner le Divan: Roustem n'était devenu grand-vizir que parce qu'il était le gendre de Roxelane et son docile instrument. D'autres catastrophes achevèrent d'assouplir les grands-vizirs de la décadence Pour se maintenir en place, ils laissent le harem piller et ruiner l'empire. Le Sultan ne gouvernant plus, le grand-vizir étant empêché de gouverner, c'est en dernière analyse, aux mains négres eunuques et d'esclaves achetées qu'est remis le pouvoir absolu. Le sabre de Bayézid l'Eclair et de Mohammed le Conquèrant n'est plus qu'un hochet. Le gouvernement est tombé en de telles mains que l'on comprend que d'autres pretendent y avoir leur part : l'odjak des janissaires, l'odjak des spahis, le corps des oulémas, bientôt les corps de métiers. L'anarchie militaire ou clericale est-elle pire, après tout, que cette anarchie du harem ? Que de fois les soldats mutinés allèguent des griefs légitimes ! que de fois aussi les oulémas ont eu un sens juste des nécessités de l'empire ! La domination du harem est le pire mal dont souffre celui-ci : il s'attaque au nerf même de la monarchie, aux sources de sa force, en détruisant ses finances, ses armées, l'honneur de ses tribunaux et de son Eglise[1], la patience et la fidélité de ses sujets» [2].

---

(١) المقصود بكلمة Eglise فى هذا الموطن السلطة الدينية ، أى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية .

(٢) Lavisse et Rambaud; op. cit.,t. v, p. 883.

ولم يستمر طويلا عهد مراكز القوى فى الدولة . فقد انتهى نهائياً المركز الأول من هذه المراكز وهو الفيالق الإنكشارية حين نجح السلطان محمود الثانى فى إبادة هذه الفئة العسكرية الباغية فى « الواقعة الخيرية » سنة ١٨٢٦ . أما الحريم السلطانى فقد توارى نفوذ سيداته رويداً رويداً . وعمل السلاطين على أن تأخذ هؤلاء السيدات حجمهن الطبيعى ، وأن يجردوهن من النفوذ ويمنعوهن من التدخل فى شئون الدولة . أما الأغوات الخصيان فقد قللت الدولة من أعدادهم ، وعملت فى ذات الوقت على أن تستبدل بمعظمهم سيدات يشتغلن فى خدمة الحريم . وحالت بين الخصيان المتبقين وبين التسلل إلى أجهزة الدولة . أما ظاهرة خلع السلاطين فقد استمرت حتى القرن العشرين وسقوط السلطنة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الظاهرة أشد عنفاً مما كانت عليه على عهد مراكز القوى . فمن بين السلاطين الستة الأواخر الذين جلسوا على عرش الدولة تم عزل خمسة منهم(١) . ولم يكن عزلهم نتيجة تسلط مراكز القوى التى كانت قد توارت ، وإنما كان عزلهم يتم نتيجة معارضة داخلية أو ضغوط خارجية تمثلت فى هيئات وجمعيات من أخلاط شتى مارست نشاطها فى أقاليم بعيدة عن عاصمة الدولة أو فى بعض دول أوروبية ليتسنى لأعضائها حرية التخطيط والحركة وجمع الأنصار والعملاء .

* * *

(١) كان هؤلاء السلاطين الذين عزلوا

عبدالعزيز بن محمود (١٨٧٦)

مراد الخامس بن عبدالمجيد (١٨٧٦)

عبدالحميد الثانى بن عبدالمجيد (١٩٠٩)

محمد السادس بن عبدالمجيد (١٩٢٢)

أما عبدالمجيد بن عبدالعزيز فقد عين سنة ١٩٢٢ بصفته خليفة ، ولم يعين بصفته سلطاناً . ومع ذلك فقد تم عزله وترحيله مع أفراد أسرته فى ظروف قاسية سنة ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة .

فهارس
الأعلام والأماكن والموضوعات
توجد فى نهاية الجزء الثانى

تم بعون الله طبع الجزء الأول
فى مطبعة جامعة القاهرة
المراقب العام
البرنس حموده حسين

رقم الايداع ٥١٠٨ سنة ١٩٧٨
الترقيم الدولى ٨ – ٢٧٢ – ٢٦٦

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

Professor of Modern History,
Head of the Department of History,
Faculty of Humanities,
Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

1980

Publisher : Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo

CAIRO UNIVERSITY PRESS.

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

Professor of Modern History,
Head of the Department of History,
Faculty of Humanities,
Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

CAIRO UNIVERSITY PRESS.

1980